Digitized by Birzeit University Library

7662
B 3362
915.31
B 31R
مكتبة كلية بير زيت
٢٢-٥
SPC
G
370
.I2
1928
V.1
RBK

الجزء الاول

من

﴿ رحلة ابن بطوطه ﴾

﴿ المسماة ﴾

تحفة النظار . فى غرائب الامصار
وعجائب الأسفار

طبع بالمطبعة الأزهرية بمصر

بشارع رقعة القمح رقم ٦ بجوار الازهر الشريف بمصر

﴿ على نفقة أصحابها ﴾

ورثة المرحوم فضيلة الشيخ محمد عبد الخالق المهدى

﴿ الطبعة الاولى ﴾

(سنة ١٣٤٦ هـ — سنة ١٩٢٨ م)

مكتبة جامعة بيرزيت

11,804

Digitized by Birzeit University Library

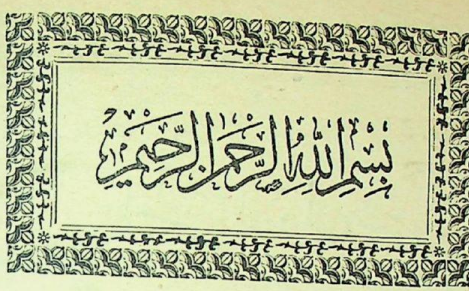
بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الفقيه العالم الثقة النبيه الناسك الابر وفد الله المعتمر شرف الدين المعتمد في سياحته على رب العالمين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطه رحمه الله ورضى عنه بمنه وكرمه آمين

الحمد لله الذي ذلل الارض لعباده ليسلكوا منها سبلا فجاجا . وجعل منها واليها تارتهم الثلاث نباتا واعادة واخراجا . دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد . وأرساها بالاعلام الراسيات والاطواد . ورفع فوقها سمك السماء بغير عماد . واطلع الكواكب هداية في ظلمات البر والبحر . وجعل القمر نورا والشمس سراجا . ثم أنزل من السماء ماء فاحيا به الارض بعد الممات . وأنبت فيها من كل الثمرات . وفطر أقطارها بصنوف النبات . وفجر البحرين عذبا فراتا . وملحا أجاجا . وأكمل على خلقه الانعام . بتذليل مطايا الانعام . وتسخير المنشآت كالاعلام . لتمتطوا من صهوة القفر ومتن البحر اثباجا . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد الذي أوضح للخلق منهاجا . وطلع نور هدايته وهاجا . بعثه الله تعالى رحمة للعالمين . واختاره خاتما للنبيين . وأمكن صوارمه من رقاب المشركين . حتى دخل الناس في دين الله أفواجا . وأيده بالمعجزات الباهرات وأنطق بتصديقه الجمادات . وأحيا بدعوته الرمم البالیات . وفجر من بين أنامله ماء ثجاجا . ورضي الله تعالى عن المنتشرفين بالانتماء اليه أصحابا وآلا وأزواجا . المقيمين قناة الدين فلا تخشى بعدهم اعوجاجا . فهم الذين آزروه على جهاد الاعداء . وظاهروه على اظهار الملة البيضاء . وقاموا بحقوقها الكريمة من الهجرة والنصرة والايواء . واقتحموا دونه نار البأس حامية . وخاضوا بحر الموت عجاجا . ونستوهب الله تعالى لمولانا الامام الخليفة أمير المؤمنين . المتوكل على رب العالمين . المجاهد في سبيل الله . المؤيد بنصر الله — أبي عنان فارس ابن مولينا الائمة المهتدين . الخلفاء الراشدين . نصرا يوسع الدنيا

Digitized by Birzeit University Library

وأهلها ابتهاجا * وسعدا يكون لزمانة الزمان علاجا * كما وهبه الله يأسا وجودا لم يدع طاغيا ولا محتاجا * وجعل بسيفه وسيبه لكل ضيقة انفراجا ﴿ وبعد ﴾ فقد قضت العقول * وحكم المعقول والمنقول * بان هذه الخلافة العلية . المجاهدة المتوكلية الفارسية . هي ظل الله الممدود على الانام وحبله الذي نه الاعتصام وفي سلك طاعته يجب الانتظام فهي التي أبرأت الدين عند اعتلاله وأغمدت سيف العدوان عند انسلاله وأصلحت الايام بعد فسادها ونفقت سوق العلم بعد كسادها وأوضحت طرق البر عند إنهاجها وسكنت أقطار الارض عند ارتجاجها وأحيت سنن المكارم بعد مماتها وأماتت رسوم المظالم بعد حياتها وأخمدت نار الفتنة عند اشتعالها ونقضت أحكام البغي عند استقلالها وشادت مباني الحق على عمد التقوي واستمسكت من التوكل على الله بالسبب الاقوى فلها العز الذي عقد ناجه على مفرق الجوزاء والمجد الذي جرّ أذياله على مجرّة السماء والسعد الذي رد على الزمان غض شبابه والعدل الذي مد على أهل الايمان مديد أطنابه والجود الذي قطر سحابه اللجين والنضار والياس الذي فيض غمامه الدم المؤار والنصر الذي نفض كتائبه الاجل والتاييد الذي بعض غنائمه الدول والبطش الذي سبق سيفه العذل والاناة التي لا يمل عندها الامل والحزم الذي يسد على الاعداء وجوه المسارب والعزم الذي يفل جموعها قبل قراع الكتائب والحلم الذي يجني العفو من ثمر الذنوب والرفق الذي جمع على محبته بنات القلوب والعلم الذي يجلو نوره دياجي المشكلات والعمل المقيد بالاخلاص والاعمال بالنيات ﴿ ولما كانت حضرته العلية ﴾ مطمح الآمال ومسرح همم الرجال ومحط رحال الفضائل ومثابة أمن الخائف ومنية السائل توخي الزمان خدمتها ببدائع تحفه وروائع طرفه فانثال عليها العلماء انثيال جودها على الصفات وتسابق اليها الادباء تسابق عزماتا الى العدات وحج العارفون حرمها الشريف وقصد السائحون استطلاع معناها المنيف ولجا الخائفون الى الامتناع بعزجنابها واستجارت الملوك بخدمة أبوابها فهي القطب الذي عليه مدار العالم وفي القطع بتفضيلها تساوت بديهة عقل الجاهل والعالم وعن مآثرها الفائقة يسند صحاح الآثار كل مسلم وباكمال محاسنها الرائقة يفصح كل معلم وكان ممن وفد على بابها السامي وتعدى اوشال البلاد الى بحرها الطامي الشيخ الفقيه السائح الثقة الصدوق جوال الارض ومخترق الاقاليم بالطول والعرض أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة المعروف في بلاد الشرقية بشمس الدين وهو الذي طاف الارض معتبرا وطوى الامصار مختبرا وباحث فرق الامم وسبر سير العرب

Digitized by Birzeit University Library

والعجم ثم القي عصا التسيار بهذه الحضرة العليا لما علم ان لها مزية الفضل دون شد
ولا ثنيا وطوى المشارق الى مطلع بدرها بالغرب وآثرها على الاقطار إيثار التبر
الترب اختيارا بعد طول اختبار البلاد والخلق ورغبة في اللحاق بالطائفة التي لا تز
على الحق فغمره من احسانه الجزيل وامتنانه الحفي الحفيل ما أنساه الماضي بالحا
وأغناه عن طول الترحال وحقر عنده ما كان من سواه يستعظمه وحقق لديه ما كان
من فضله يتوهمه . فنسي ما كان ألفه من جولان البلاد وظفر بالمرعى الخصب بعد طول
الارتياد ونفذت الاشارة الكريمة بان يملي ما شاهده في رحلته من الامصار . وما علق
بحفظه من نوادر الاخبار . ويذكر من لقيه من ملوك الاقطار . وعلمائها الاخيار .
وأوليائها الابرار . فاملى من ذلك ما فيه نزهة الخواطر . وبهجة المسامع والنواظر . من
كل غريبة أفاد باجتلائها . وعجيبة اطرف بانتحائها . وصدر الامر العالي لعبد مقامهم الكريم
المنقطع الى بابهم . المتشرف بخدمة جنابهم . محمد بن محمد بن جزي الكلبي اعانه الله على
خدمتهم . واوزعه شكر نعمتهم . ان يضم اطراف ما املاه . الشيخ ابو عبد الله . من
ذلك في تصنيف يكون على فوائده مشتملا . ولنيل مقاصده مكملا . متوخيا تنقيح الكلام
وتهذيبه . معتمدا ايضاحه وتقريبه ، ليقع الاستمتاع بتلك الطرف . ويعظم الانتفاع
بدرها عند تجريده عن الصدف . فامتثل ما امر به مبادرا . وشرع في منهله ليكون بمعونة
الله عن توفية الغرض منه صادرا . ونقلت معاني كلام الشيخ ابي عبد الله بالفاظ موفية
للمقاصد التي قصدها . موضحة للمناحي التي اعتمدها . وربما اوردت لفظه على وضعه .
فلم اخل باصله ولا فرعه . واوردت جميع ما اورده من الحكايات والاخبار . ولم اتعرض
لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار . على انه سلك في اسناد صحاحها اقوم المسالك . وخرج
عن عهدة سائرها بما يشعر من الالفاظ بذلك . وقيد المشكل من اسماء المواضع والرجال
بالشكل والنقط . ليكون انفع في التصحيح والضبط . وشرحت ما امكنني شرحه من الاسما
العجمية لانها تلتبس بعجمتها على الناس ويخطىء في فك معماها معهود القياس . وانا ارجو
ان يقع ما قصدته من المقام العلي ايده الله بمحل القبول . وابلغ من الاعضاء عن تقصيره
المامول . فعوائدهم في السماح جميلة . ومكارمهم بالصفح عن الهفوات كفيلة . والله تعالى
يديم لهم عادة النصر والتمكين . ويعرفهم عوارف التاييد والفتح المبين

— قال الشيخ ابو عبد الله — كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر
الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعمائة معتمدا حج بيت الله الحرام . وزيارة قبر

Digitized by Birzeit University Library

الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام . منفردا عن رفيق آنس بصحبته وركب أكون في جملته لباعث على النفس شديد العزائم * وشوق الى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيازم . فجزمت أمري على هجر الاحباب من الاناث والذكور . وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور . وكان والدي بقيد الحياة فتحملت لبعدهما وصبا ولقيت كما لقي من الفراق نصبا * وسني يومئذ ثنتان وعشرون سنة قال ابن جزي أخبرني أبو عبدالله بمدينة غرناطة ان مولده بطنجة في يوم الاثنين السابع عشر من رجب الفرد سنة ثلاث وسبعمائة

(رجع) وكان ارتحالي في ايام امير المؤمنين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين الذي رويت أخباره جوده موصولة الاسناد بالاسناد . وشهرت آثار كرمه شهرة واضحة الأشهاد . وتحلت الايام بحلى فضله . ورتع الانام في ظل رفقه وعدله . الامام المقدس أبو سعيد ابن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين الذي فل حد الشرك صدق عزائمه . واطفأت نار الكفر جداول صوارمه . وفتكت بعباد الصليب كتائبه . وكرمت في اخلاص الجهاد مذاهبه . الامام المقدس أبو يوسف بن عبد الحق جدد الله عليهم رضوانه وسقى ضرائحهم المقدسة من صوب الحيا طله وتهانه : وجزاهم أفضل الجزاء عن الاسلام والمسلمين . وابقى الملك في عقبهم الى يوم الدين . فوصلت مدينة تلمسان وسلطانها يومئذ أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان . ووافقت بها رسولي ملك افريقية السلطان أبي يحيى رحمه الله وهو قاضي الانكحة بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن ابراهيم النفزاوي . والشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي — بضم الزاي نسبة الى قرية بساحل المهدية — وهو أحد الفضلاء وفاته عام اربعين وفي يوم وصولي الى تلمسان خرج عنها الرسولان المذكوران فاشار على بعض الاخوان بمرافقتهما فاستخرت الله عز وجل في ذلك وأقمت بتلمسان ثلاثا في قضاء مارب وخرجت أجد السير في آثارهما فوصلت مدينة مليانة وأدركتهما بها وذلك في إبان القيظ فلحق الفقيهين مرض أقمنا بسببه عشرا ثم ارتحلنا وقد اشتد المرض بالقاضي منهما فاقمنا ببعض المياه على مسافة أربعة أميال من مليانة ثلاثا وقضي القاضي نحبه ضحي اليوم الرابع فعاد ابنه أبو الطيب ورفيقه أبو عبد الله الزبيدي الى مليانة فقبروه بها وتركتهم هنالك وارتحلت مع رفقة من تجار تونس منهم الحاج مسعود بن المنتصر والحاج العدولي ومحمد بن الحجر فوصلنا مدينة الجزائر وأقمنا بخارجها أياما الى أن قدم الشيخ أبو عبد الله وابن القاضي فتوجهنا جميعا على منبجة الى جبل الزان ثم وصلنا الى مدينة بجاية فنزل الشيخ أبو عبد الله بدار قاضيها أبي عبد الله

Digitized by Birzeit University Library

الزواوى ونزل أبو الطيب ابن القاضى بدار الفقيه أبي عبدالله المفسر وكان أمير بجاية اذ ذاك اباعبدالله محمد بن سيدالناس الحاجب وكان قد توفى من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذى تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصي بها لرجل من أهل الجزائر يعرف بابن حديدة ليوصلها الى ورثته بتونس فانتهى خبره لابن سيدالناس المذكور فانتزعها من يده وهذا اول ماشاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم . ولما وصلنا الى بجاية كما ذكرته أصابتني الحمى فاشار على أبو عبدالله الز بيدى بالاقامة فيها حتي يتمكن البرء منى فابيت وقلت ان قضي الله عز وجل بالموت فتكون وفاتي بالطريق وانا قاصد ارض الحجاز فقال لى اما ان عزمت فبع دابتك وثقل المتاع وانا اعيرك دابة وخباء وتصحبنا خفيفا فاننا نجدّ السير خوف غارة العرب فى الطريق ففعلت هذا واعارنى ماوعد به جزاه الله خيرا وكان ذلك اول ماظهر لى من الالطاف الالهية فى تلك الوجهة الحجازية وسرنا الى ان وصلنا الى مدينة قسنطينة فنزلنا خارجها وأصابنا مطر جود اضطرنا الى الخروج عن الاخبية ليلا الى دورهنالك فلما كان من الغد تلقانا حاكم المدينة وهو من الشرفاء الفضلاء يسمي بابى الحسن فنظر الى ثيابى وقد لوثها المطر فامر بغسلها فى داره وكان الاحرام منها خلقا فبعث مكانه احراما بعلبكيا وصرّ فى أحد طرفيه دينارين من الذهب فكان ذلك أول مافتح به على فى وجهتي ورحلنا الى ان وصلنا مدينة بونه ونزلنا بداخلها وأقمنا بها أياما ثم تركنا بها من كان فى صحبتنا من التجار لاجل الخوف فى الطريق وتجردنا للسير وواصلنا الجد واصابتنى الحمي فكنت أشد نفسى بعمامة فوق السرج خوف السقوط بسبب الضعف ولا يمكنني النزول من الخوف الى ان وصلنا مدينة تونس فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبدالله الز بيدى ولقاء أبي الطيب ابن القاضي ابى عبدالله النفزاوي فاقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال ولم يسلم على احد لعدم معرفتى بهم فوجدت من ذلك فى النفس مالم املك معه سوابق العبرة واشتد بكائي فشعر بحالى بعض الحجاج فاقبل على بالسلام والايناس ومازال يؤنسني بحديثه حتي دخلت المدينة ونزلت منها بمدرسة الكتبيين — قال ابن جزي أخبرني شيخي قاضى الجماعة اخطب الخطباء أبو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمي هو ابن الحاج البلفيقي انه جرى له مثل هذه الحكاية قال قصدت مدينة بلش من بلاد الاندلس فى ليلة عيد برسم رواية الحديث المسلسل بالعيد عن أبي عبدالله ابن الكماد وحضرت المصلى مع الناس فلما فرغت الصلاة والخطبة أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام وأنا

Digitized by Birzeit University Library

في ناحية لا يسلم على أحد فقصد الى شيخ من أهل المدينة المذكورة وأقبل على بالسلام والايناس وقال نظرت اليك فرأيتك منتبذا عن الناس لا يسلم عليك أحد فعرفت انك غريب فاحببت ايناسك جزاه الله خيرا (رجع)

— ذكر سلطان تونس —

وكان سلطان تونس عند دخولي اليها السلطان أبا يحيى ابن السلطان أبي زكريا يحيى ابن السلطان أبي اسحاق ابراهيم ابن السلطان أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن ابي حفص رحمه الله . وكان بتونس جماعة من اعلام العلماء منهم قاضي الجماعة بها ابو عبد الله محمد بن قاضي الجماعة أبي العباس أحمد بن محمد بن حسن بن محمد الانصاري الخزرجي البلنسي الاصل ثم التونسي هو ابن الغماز . ومنهم الخطيب ابو اسحق ابراهيم بن حسين ابن علي بن عبد الرفيع الربعي وولي أيضاً قضاء الجماعة في خمس دول. ومنهم الفقيه أبو علي عمر بن علي بن قداح الهوّاري وولي أيضاً قضاءها وكان من اعلام العلماء ومن عوائده انه يستند كل يوم جمعة بعد صلاتها الى بعض اساطين الجامع الاعظم المعروف بجامع الزيتونة و يستفتيه الناس في المسائل فلما أفتي في أربعين مسألة انصرف عن مجلسه ذلك واظلني بتونس عيد الفطر فحضرت المصلى وقد احتفل الناس لشهود عيدهم وبرزوا في أجمل هيئة وأكمل شارة ووافى السلطان أبو يحيى المذكور راكباً وجميع أقاربه وخواصه وخدام مملكته مشاة على أقدامهم في ترتيب عجيب وصليت الصلاة وانقضت الخطبة وانصرف الناس الى منازلهم وبعد مدة تعين لركب الحجاز الشريف شيخه يعرف بأبي يعقوب السوسي من أهل أقل من بلاد افريقية وأكثره المصامدة فقد مونى قاضياً بينهم وخرجنا من تونس في أواخر شهر ذي القعدة سالكين طريق الساحل فوصلنا الى بلدة سوسة وهي صغيرة حسنة مبنية على شاطيء البحر بينها وبين مدينة تونس أربعون ميلا. ثم وصلنا الى مدينة صفاقس وبخارج هذه البلدة قبر الامام أبي الحسن اللخمي المالكي مؤلف كتاب التبصرة في الفقه قال ابن جزي في بلدة صفاقس يقول علي بن حبيب التنوخي (كامل)

سقيا لارض صفاقس * ذات المصانع والمصلى
محي القصير الى الخليج * فقصرها السامي المعلى
بلد يكاد يقول حين * تزوره أهلا وسهلا
وكأنه والبحر يحسر تارة عنه ويملا

Digitized by Birzeit University Library

صب يريد زيارة * فاذا رأى الرقباء ولى

وفى عكس ذلك يقول الاديب البارع أبو عبد الله محمد بن أبى تميم وكان من المجيدين المكثرين (رجز)

صفاقس لاصفا عيش لساكنها * ولاسقي أرضها غيث اذا انسكبا
ناهيك من بلدة من حل ساحتها * عاني بها العادبين الروم والعربا
كم ضل فى البر مسلوبا بضاعته * وبات فى البحر يشكو الاسر والعطبا
قد عاين البحر من لوم لقاطنها * فكلما هم ان يدنو لها هربا

(رجع) ثم وصلنا الى مدينة قابس ونزلنا بداخلها وأقمنا بها عشراً لتوالى نزول الامطار. قال ابن جزي فى ذكر قابس يقول بعضهم (رجز)

لهفى على طيب ليال خلت * بجانب البطحاء من قابس
كأن قلبي عند تذكارها * جذوة نار بيد قابس

(رجع) ثم خرجنا من مدينة قابس قاصدين طرابلس وصحبنا فى بعض المراحل اليها نحو مائة فارس أو يزيدون وكان بالركب قوم رماة فهابتهم العرب وتحامت مكانهم وعصمنا الله منهم وأظلنا عيد الاضحي فى بعض تلك المراحل. وفى الرابع بعده وصلنا الى مدينة طرابلس فاقمنا بها مدة وكنت عقدت بصفاقس على بنت لبعض أمناء تونس فبنيت عليها بطرابلس ثم خرجت من طرابلس أواخر شهر المحرم من عام ستة وعشرين ومعى أهلى وفى صحبتي جماعة من المصامدة وقد رفعت العلم وتقدمت عليهم وأقام الركب فى طرابلس خوفا من البرد والمطر وتجاوزنا — مسلاتة ومسراتة وقصور سرت — وهنالك أرادت طوائف العرب الايقاع بنا ثم صرفتهم القدرة وحالت دون ماراموه من اذايتنا ثم توسطنا الغابة وتجاوزناها الى قصر برصيصا العابد الى قبة سلام وأدركنا هنالك الركب الذين تخلفوا بطرابلس ووقع بيني وبين صهرى مشاجرة أوجبت فراق بنته وتزوجت بنتا لبعض طلبة فاس وبنيت بها بقصر الزعافية وأولمت وليمة حبست لها الركب يوما وأطعمتهم. ثم وصلنا فى اول جمادى الاولى الى مدينة الاسكندرية حرسها الله وهى الثغر المحروس. والقطر المانوس. العجيبة الشان. الاصيلة البنيان. بها ماشئت من تحسين وتحصين. وما ثر دنيا ودين. كرمت مغانيها. ولطفت معانيها وجمعت بين الضخامة والاحكام مبانيها. فهي الفريدة تجلى سناها. والخريدة تجلى فى حلاها. الزاهية بجمالها المغرب. الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب. فكل بديعة بها اجتلاؤها.

Digitized by Birzeit University Library

وكل طرفة فاليها انتهاؤها . وقد وصفها الناس فأطنبوا . وصنفوا في عجائبها فاغربوا . وحسب المشرف الى ذلك ماسطره أبو عبيد في كتاب المسالك

— ذكر أبوابها ومراسها —

ولمدينة الاسكندرية أربعة أبواب . باب السدرة واليه يشرع طريق المغرب . وباب رشيد . وباب البحر . والباب الاخضر وليس يفتح الا يوم الجمعة فيخرج الناس منه الى زيارة القبور ولها المرسى العظيم الشان ولم أر في مراسي الدنيا مثله الا ما كان من مرسى كولم وقاليقوط ببلاد الهند ومرسى الكفار بسرادق ببلاد الاتراك ومرسي الزيتون ببلاد الصين وسيقع ذكرها

— ذكر المنار —

قصدت المنار في هذه الوجهة فرأيت أحد جوانبه متهدما . وصفته انه بناء مربع ذاهب في الهواء وبابه مرتفع على الارض وازاء بابه بناء بقدر ارتفاعه وضعت بينهما ألواح خشب يعبر عليها الى بابه فاذا أزيلت لم يكن له سبيل وداخل الباب موضع لجلوس حارس المنار وداخل المنار بيوت كثيرة وعرض الممر بداخله تسعة أشبار وعرض الحائط عشرة أشبار وعرض المنار من كل جهة من جهاته الاربع مائة وأربعون شبرا وهو على تل مرتفع . ومسافة ما بينه وبين المدينة فرسخ واحد في برمستطيل يحيط به البحر من ثلاث جهات الى أن يتصل البحر بسور البلد فلا يمكن التوصل الى المنار في البر الا من المدينة وفي هذا البر المتصل بالمنار مقبرة الاسكندرية وقصدت المنار عند عودي الى بلاد المغرب عام خمسين وسبعمائة فوجدته قد استولى عليه الخراب بحيث لا يمكن دخوله ولا الصعود الى بابه . وكان الملك الناصر رحمه الله قد شرع في بناء منار مثله بازائه فعاقه الموت عن اتمامه

— ذكر عمود السواري —

ومن غرائب هذه المدينة عمود الرخام الهائل الذي بخارجها المسمي عندهم بعمود السواري وهو متوسط في غابة نخل وقد امتاز عن شجراتها سموا وارتفاعا وهو قطعة واحدة محكمة النحت قد اقيم على قواعد حجارة مربعة أمثال الدكاكين العظيمة ولا تعرف كيفية وضعه هنالك ولا يتحقق من وضعه . قال ابن جزي أخبرني بعض اشياخي الرحالين ان أحد الرماة بالاسكندرية صعد الى أعلى ذلك العمود ومعه قوسه وكنانته واستقر هنالك وشاع خبره فاجتمع الجم الغفير لمشاهدته وطال العجب منه وخفي على الناس وجه احتياله وأظنه كان خائفا أو طالب حاجة فانتج له فعله الوصول الى قصده

لقرابة ما أتى به. وكيفية احتياله في صعوده انه رمى بنشابة قد عقد فوقها خيطا طويلا وعقد بطرف الخيط حبلا وثيقا فتجاوزت النشابة أعلى العمود معترضة عليه ووقعت من الجهة الموازية للرامي فصار الخيط معترضا على أعلى العمود فجذبه حتى توسط الحبل أعلى العمود بمكان الخيط فاوسطه من احدى الجهتين في الارض وتعلق به صاعداً من الجهة الاخري واستقر باعلاه وجذب الحبل واستصحب من احتمله فلم يهتد الناس لحيلته وعجبوا من شأنه (رجع) وكان أمير الاسكندرية في عهد وصولي اليها يسمي بصلاح الدين وكان فيها أيضاً في ذلك العهد سلطان افريقية المخلوع وهو زكرياء أبو يحيي بن أحمد بن أبي حفص المعروف باللحياني وأمر الملك الناصر بانزاله بدار السلطنة من اسكندرية وأجرى له مائة درهم في كل يوم. وكان معه أولاده عبد الواحد ومصري واسكندري وحاجبه أبو زكرياء بن يعقوب ووزيره أبو عبد الله بن ياسين. وبالاسكندرية توفي اللحياني المذكور وولده الاسكندري وبقي المصري بها الى اليوم. قال ابن جزي من الغريب ما اتفق من صدق الزجر في اسمي ولدي اللحياني الاسكندري والمصري فمات الاسكندري بها وعاش المصري دهرا طويلا بها وهي من بلاد مصر (رجع) ونحول عبد الواحد لبلاد الاندلس والمغرب وافريقية وتوفي هنالك بجزيرة جربة

— ذكر بعض علماء الاسكندرية —

فمنهم قاضيها عماد الدين الكندي إمام من أئمة علم اللسان وكان يعتم بعمامة خرقت المعتاد للعمائم لم أر في مشارق الارض ومغاربها عمامة اعظم منها رأيته يوما قاعداً في صدر محراب وقد كادت عمامته ان تملأ المحراب. ومنهم فخر الدين بن الريني وهو أيضا من القضاة بالاسكندرية فاضل من أهل العلم

— حكاية —

يذكر ان جد القاضي فخر الدين الريني كان من أهل ريفة واشتغل بطلب العلم ثم رحل الى الحجاز فوصل الاسكندرية بالعشي وهو قليل ذات اليد فاحب أن لا يدخلها حتى يسمع فالا حسنا فقعد قريبا من بابها الى ان دخل جميع الناس وجاء وقت سد الباب ولم يبق هنالك سواه فاغتاظ الموكل بالباب من ابطائه وقال متهكما ادخل يا قاضي فقال قاض ان شاء الله ودخل الى بعض المدارس ولازم القراءة وسلك طريق الفضلاء فعظم صيته وشهر اسمه وعرف بالزهد والورع واتصلت أخباره بملك مصر واتفق ان توفي قاضي الاسكندرية وبها اذذاك الجم الغفير من الفقهاء والعلماء وكلهم متشوف للولاية وهو من بينهم لا يتشوف لذلك فبعث اليه السلطان بالتقليد وهو ظهير القضاء وأتاه البريد بذلك

Digitized by Birzeit University Library

فامر خديمه أن ينادي في الناس من كانت له خصومة فليحضر لها وقعد للفصل بين الناس فاجتمع الفقهاء وسواهم الى رجل منهم كانوا يظنون ان القضاء لا يتعداه وتفاوضوا في مراجعة السلطان في أمره ومخاطبته بان الناس لا يرتضونه وحضر لذلك أحد الحذاق من المنجمين فقال لهم لا تفعلوا ذلك فاني عدلت طالع ولايته وحققته فظهر لي انه يحكم أربعين سنة فاضربوا عما هموا به من المراجعة في شأنه وكان أمره على ما ظهر للمنجم. وعرف في ولايته بالعدل والنزاهة ومنهم وجيه الدين الصنهاجي من قضاتها مشتهر بالعلم والفضل. ومنهم شمس الدين ابن بنت التنيسي فاضل شهير الذكر. ومن الصالحين بها الشيخ أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى يذكر أنه كان يسمع رد السلام عليه اذا سلم من صلاته ومنهم الامام العالم الزاهد الخاشع الورع (خليفة) صاحب المكاشفات — كرامة له —

أخبرني بعض الثقات من أصحابه قال رأى الشيخ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال يا خليفة زرنا فرحل الى المدينة الشريفة وأتى المسجد الكريم فدخل من باب السلام وحيا المسجد وسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقعد مستنداً الى بعض سواري المسجد ووضع رأسه على ركبتيه وذلك يسمى عند المتصوفة الترفيق فلما رفع رأسه وجد أربعة أرغفة وآنية فيها لبن وطبقا فيه تمر فاكل هو وأصحابه وانصرف عائداً الى الاسكندرية ولم يحج تلك السنة. ومنهم الامام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الاعرج من كبار الزهاد وافراد العباد لقيته أيام مقامي بالاسكندرية وأقمت في ضيافته ثلاثا

— ذكر كرامة له —

دخلت عليه يوما فقال لي أراك تحب السياحة والجولان في البلاد فقلت له نعم اني أحب ذلك ولم يكن حينئذ خطر بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين فقال لا بد لك ان شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند وأخي ركن الدين زكرياء بالسند وأخي برهان الدين بالصين فاذا بلغتهم فابلغهم مني السلام فعجبت من قوله وألقى في روعي التوجه الى تلك البلاد ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه ولما وادعته زودني دراهم لم تزل عندي محوطة ولم أحتج بعد الى انفاقها الى ان سلبها مني كفار الهنود فيما سلبوه لي في البحر ومنهم الشيخ ياقوت الحبشي من افراد الرجال وهو تلميذ أبي العباس المرسي وأبو العباس المرسي تلميذ ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي الشهير ذي الكرامات الجليلة والمقامات العالية

— كرامة لأبي الحسن الشاذلي — أخبرني الشيخ ياقوت عن شيخه أبي العباس المرسي

Digitized by Birzeit University Library

ان أبا الحسن كان يحج فى كل سنة ويجعل طريقه على صعيد مصر ويجاور بمكة شهر رجب ومابعده الى انقضاء الحج ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير الى بلده فلما كان فى بعض السنين وهي آخر سنة خرج فيها قال لخديمه استصحب فأسا وقفة وحنوطا ومايجهز به الميت فقال له الخديم ولماذا ياسيدى فقال له فى حميثرا سوف ترى وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عيذاب وبها عين ماء زعاق وهي كثيرة الضباع فلما بلغا حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله عز وجل فى آخر سجدة من صلاته ودفن هناك وقد زرت قبره وعليه تبرية مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن ابن على رضى الله عنه

— ذكر حزب البحر المنسوب اليه — كان يسافر فى كل سنة كما ذكرناه على صعيد مصر وبحر جدة فكان اذا ركب السفينة يقرؤه فى كل يوم وتلامذته الى الآن يقرؤنه فى كل يوم وهو هذا — يا الله يا على يا عظيم يا حليم يا علیم أنت ربى . وعلمك حسبى . فنعم الرب ربي . ونعم الحسب حسبى . تنصر من تشاء وأنت العزيز الرحيم . نسالك العصمة فى الحركات والسكنات والكلمات والارادات والخطرات من الشكوك والظنون والاوهام الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب فقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ليقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله الا غرورا فثبتنا وانصرنا وسخر لنا هذا البحر كما سخرت البحر لموسي عليه السلام وسخرت النار لابراهيم عليه السلام وسخرت الجبال والحديد لداود عليه السلام وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان عليه السلام وسخر لنا كل بحر هو لك فى الارض والسماء والملك والملكوت وبحر الدنيا وبحر الآخرة وسخر لنا كل شيء يامن بيده ملكوت كل شيء كهيعص حم عسق انصرنا فانك خير الناصرين وافتح لنا فانك خير الفاتحين واغفر لنا فانك خير الغافرين وارحمنا فانك خير الراحمين وارزقنا فانك خير الرازقين واهدنا ونجنا من القوم الظالمين وهب لنا ريحا طيبة كما هى فى علمك وانشرها علينا من خزائن رحمتك واحملنا بها حمل الكرامة مع السلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة انك على كل شيء قدير اللهم يسر لنا أمورنا مع الراحة لقلوبنا وأبداننا والسلامة والعافية فى ديننا ودنيانا وكن لنا صاحبا فى سفرنا وخليفة فى أهلنا واطمس على وجوه أعدائنا وامسخهم على مكانتهم فلا يستطيعون المضى ولا المجيء الينا ولو نشاء لطمسنا على اعينهم فاستبقوا الصراط فانى يبصرون ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون يس الى فهم لا يبصرون شاهت الوجوه وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما طس طسم حم عسق مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ

Digitized by Birzeit University Library

لا يبغيان حم حم حم حم حم حم حم الامر وجاء النصر فعلينا لا ينصرون حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله الاهو اليه المصير بسم الله بابنا تبارك حيطاننا يس سقفنا كهيعص كفايتنا حم عسق حمايتنا فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ستر العرش مسبول علينا وعين الله ناظرة الينا بحول الله لا يقدر علينا والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ فالله خير حافظا وهو ارحم الراحمين ان ولي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين فان تولوا فقل حسبى الله لا إله الاهو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شيء فى الارض ولا فى السماء وهو السميع العليم ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم — وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

— حكاية —

ومما جرى بمدينة الاسكندرية ستة سبع وعشرين وبلغنا خبر ذلك بمكة شرفها الله انه وقع بين المسلمين وتجار النصارى مشاجرة وكان والى الاسكندرية رجلا يعرف بالكركى فذهب الى حماية الروم وأمر بالمسلمين فحضروا بين فصيلى باب المدينة وأغلق دونهم الابواب نكالا لهم فانكر الناس ذلك وأعظموه وكسروا الباب وثاروا الى منزل الوالى فتحصن منهم وقاتلهم من أعلاه وطير الحمام بالخبر الى الملك الناصر فبعث أميرا يعرف بالجمالى ثم اتبعه أميرا يعرف بطوغان جبار قاسى القلب منهم فى دينه يقال انه كان يعبد الشمس فدخلا اسكندرية وقبضا على كبار أهلها وأعيان التجار بها كاولاد الكوبك وسواهم وأخذ منهم الاموال الطائلة وجعلت فى عنق عماد الدين القاضى جامعة حديد ثم ان الاميرين قتلا من أهل المدينة ستة وثلاثين رجلا وجعلوا كل رجل قطعتين وصلبوهم صفين وذلك فى يوم جمعة وخرج الناس على عادتهم بعد الصلاة لزيارة القبور وشاهدوا مصارع القوم فعظمت حسرتهم وتضاعفت أحزانهم وكان فى جملة أولئك المصلوبين تاجر كبير القدر يعرف بابن رواحة وكان له قاعة معدة للسلاح فحتى كان خوف أو قتال جهز منها المائة والمائتين من الرجال بما يكفيهم من الاسلحة وبالمدينة قاعات على هذه الصورة لكثير من أهلها فزل لسانه وقال للاميرين أنا أضمن هذه المدينة وكل ما يحدث فيها أطالب به وأحوط على السلطان مرتبات العساكر والرجال فانكر الاميران قوله وقالا انما تريد الثورة على السلطان وقتلا وانما كان قصده رحمه الله إظهار النصح والخدمة للسلطان فكان فيه حتفه. وكنت سمعت أيام اقامتي بالاسكندرية بالشيخ الصالح العابد المنقطع المنفق من الكون أبى عبد الله المرشدي وهو من كبار الاولياء المكاشفين انه منقطع بمنية بنى مرشد

له هنالك زاوية هو منفرد فيها لا خديم له ولا صاحب ويقصده الامراء والوزراء وتاتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم فيطعمهم الطعام وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوي فياتي لكل واحد بما نواه وربما كان ذلك في غير ابانه ويأتيه الفقهاء لطلب الخطبة فيولي ويعزل وذلك كله من أمره مستفيض متواتر وقد قصده الملك الناصر مرات بموضعه فخرجت من مدينة الاسكندرية قاصداً هذا الشيخ نفعنا الله به ووصلت قرية تروجة (وضبطها بفتح التاء الفوقية والراء وواو وجيم مفتوحة) وهي على مسيرة نصف يوم من مدينة الاسكندرية قرية كبيرة بها قاض ووال وناظر ولاهلها مكارم أخلاق ومروءة صحبت قاضيها صفي الدين وخطيبها فخر الدين وفاضلا من أهلها يسمي بمبارك وينعت بزين الدين ونزلت بها على رجل من العباد الفضلاء كبير القدر يسمى عبد الوهاب وأضافني ناظر هازين الدين بن الواعظ وسالني عن بلدي وعن مجاه فاخبرته ان مجاه نحو اثني عشر ألفا من دينار الذهب فعجب وقال لي رأيت هذه القرية فان مجاها اثنان وسبعون ألف دينار ذهباً وانما عظمت مجابي ديار مصر لان جميع أملاكها لبيت المال ثم خرجت من هذه القرية فوصلت مدينة دمنهور وهي مدينة كبيرة جباياتها كثيرة ومحاسنها أثيرة أم مدن البحيرة باسرها وقطبها الذي عليه مدار أمرها (وضبطها بدال مهملة وميم مفتوحتين ونون ساكنة وهاء مضمومة وواو وراء) وكان قاضيها في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية وتولى قضاء الاسكندرية لما عزل عنها عماد الدين الكندي بسبب الواقعة التي قصصناها وأخبرني الثقة أن ابن مسكين أعطي خمسة وعشرين ألف درهم وصرفها من دنانير الذهب ألف دينار على ولاية القضاء بالاسكندرية. ثم رحلنا الى مدينة فوا وهذه المدينة عجيبة المنظر حسنة المخبر بها البساتين الكثيرة والفوائد الخطيرة الاثيرة) وضبطها بالفاء والواو المفتوحتين مع تشديد الواو) بها قبر الشيخ الولي أبي النجاة الشهير الاسم خير تلك البلاد وراوية الشيخ أبي عبد الله المرشدي الذي قصدته بمقربة من المدينة يفصل بينها خليج هنالك فلما وصلت المدينة تعديتها ووصلت الى زاوية الشيخ المذكور قبل صلاة العصر وسلمت عليه ووجدت عنده الامير سيف الدين يلملك وهو من الخاصكية (وأول اسمه ياء آخر الحروف ولامه الاولى مسكنة والثانية مفتوحة مثل الميم والعامة تقول فيه الملك فيخطئون ونزل هذا الامير بعسكره خارج الزاوية ولما دخلت على الشيخ رحمه الله قام الى وعانقني وأحضر طعاما فواكلني وكانت عليه جبة صوف سوداء فلما حضرت صلاة العصر قدمني للصلاة امامه

Digitized by Birzeit University Library

وكذلك لكل ماحضرني عنده حين اقامتي معه من الصلاة. ولما أردت النوم قال لي اصعد الى سطح الزاوية فنم هنالك وذلك أوان القيظ فقلت للامير بسم الله فقال لي ومامنا الا له مقام معلوم فصعدت السطح فوجدت به حصيرا ونطعاً وآنية للوضوء وجرة ماء وقدحا للشرب فنمت هنالك

كرامة لهذا الشيخ — رأيت ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية كأني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة يتيامن ثم يشرق ثم يذهب في ناحية الجنوب ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها فعجبت من هذه الرؤيا وقلت في نفسي ان كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يحكى عنه فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني اماما لهائم أتاه الامير يلملك فوادعه وانصرف ووادعه من كان هناك من الزوار وانصرفوا أجمعين من بعد أن زودهم كعيكات صغار ائم سبحت سبحة الضحى ودعاني وكاشفني برؤياي فقصصتها عليه فقال سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وبلاد الهند وتبقى بها مدة طويلة وستلقى بها أخي دلشاد الهندي وتخلصك من شدة تقع فيها ثم زودني كعيكات ودراهم ووادعته وانصرفت ومنذ فارقته لم ألق في أسفاري الأخيرا وظهرت على بركاته ثم لم الق فيمن لقيته مثله الا الولي سيدي محمدا المولة بارض الهند ثم رحلنا الى مدينة النحرارية وهي رحبة الفناء حديثة البناء أسواقها حسنة الرؤيا (وضبطها بفتح النون وحاء مهمل مسكن وراءين) وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدي وولده في خدمة ملك الهند وسنذكره . وقاضيها صدر الدين سليمان المالكي من كبار المالكية سفر عن الملك الناصر الى العراق وولي قضاء البلاد الغربية وله هيئة جميلة وصورة حسنة. وخطيبها شرف الدين السخاوي من الصالحين. ورحلت منها الى مدينة ابيار وهي قديمة البناء أرجة الارجاء كثيرة المساجد ذات حسن زائد (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وياء آخر الحروف وألف وراء) وهي بمقربة من النحرارية ويفصل بينهما النيل وتصنع بابيار ثياب حسان تعلو قيمتها بالشام والعراق ومصر وغيرها . ومن الغريب قرب النحرارية منها والثياب التي تصنع بها غير معتبرة ولا مستحسنة عند أهلها . ولقيت بابيار قاضيها عز الدين المليجي الشافعي وهو كريم الشمائل كبير القدر حضرت عنده مرة يوم الركبة وهم يسمون ذلك يوم ارتقاب هلال رمضان وعادتهم فيه ان يجتمع فقهاء المدينة ووجوهها بعد العصر من اليوم التاسع والعشرين لشعبان بدار القاضي ويقف على الباب نقيب المتعممين وهو ذو شارة وهيئة حسنة فاذا أتى أحد الفقهاء أو الوجوه تلقاه ذلك

Digitized by Birzeit University Library

النقيب ومشى بين يديه قائلا بسم الله سيدنا فلان الدين فيسمع القاضي ومن معه فيقومون له ويجلسه النقيب في موضع يليق به فاذا تكاملوا هنالك ركب القاضي وركب من معه أجمعين وتبعهم جميع من بالمدينة من الرجال والنساء والصبيان وينتهون الى موضع مرتفع خارج المدينة وهو مرتقب الهلال عندهم وقد فرش ذلك الموضع بالبسط والفرش فينزل فيه القاضي ومن معه فيرتقبون الهلال ثم يعودون الى المدينة بعد صلاة المغرب وبين أيديهم الشمع والمشاعل والفوانيس ويوقد أهل الحوانيت بحوانيتهم الشمع ويصل الناس مع القاضي الى داره ثم ينصرفون هكذا فعلهم في كل سنة. ثم توجهت الى مدينة المحلة الكبيرة وهي جليلة المقدار حسنة الآثار كثير أهلها جامع بالمحاسن شملها واسمها بين ولهذه المدينة قاضي القضاة ووالي الولاة. وكان قاضي قضاتها أيام وصولي اليها في فراش المرض ببستان له على مسافة فرسخين من البلد. وهو عز الدين بن الاشمرين فقصدت زيارته صحبة نائبه الفقيه أبي القاسم بن بنون المالكي التونسي وشرف الدين الدميري قاضي محلة منوف وأقمنا عنده يوما وسمعت منه وقد جرى ذكر الصالحين ان على مسيرة يوم من المحلة الكبيرة بلاد البرلس ونسترو وهي بلاد الصالحين وبها قبر الشيخ مرزوق صاحب المكاشفات فقصدت تلك البلاد ونزلت بزاوية الشيخ المذكور وتلك البلاد كثيرة النخل والثمار والطير البحري والحوت المعروف بالبوري ومدينتهم تسمى ملطين وهي على ساحل البحيرة المجتمعة من ماء النيل وماء البحر المعروفة ببحيرة تنيس ونسترو بقربة منها نزلت هنالك بزاوية الشيخ شمس الدين القلوي من الصالحين وكانت تنيس بلدا عظيما شهيرا وهي الآن خراب قال ابن جزي (تنيس بكسر التاء المثناة والنون المشددة وياء وسين مهمل) واليه ينسب الشاعر المجيد ابو الفتح بن وكيع وهو القائل في خليجها (بسيط)

قم فاسقني والخليج مضطرب * والريح تثني ذوائب القصب
كانها والرياح تعطفها * صب قنا سندسية العذب
والجو في حلة ممسكة * قد طرزتها البروق بالذهب

(ونسترو بفتح النون واسكان السين وراء مفتوحة وواو مسكن) — والبرلس بباء موحدة وراء وآخره سين مهملة وقيده بعضهم بضم حروفه الاول الثلاث وتشديد اللام وقيده ابو بكر بن نقطة بفتح الاولين — وهو على البحر. ومن غريب ما اتفق به ما حكاه أبو عبد الله الرازي عن أبيه ان قاضي البرلس وكان رجلا صالحا خرج ليلة الى النيل فبينما يسبغ الوضوء وصلى ماشاء ان يصلي اذ سمع قائلا يقول

Digitized by Birzeit University Library

لولا رجال لهم سرد يصومونا * وآخرون لهم ورد يقومونا
لزلزلت أرضكم من تحتكم سحرا * لانكم قوم سوء لا تبالونا

قال فتجوزت فى صلاتى وأدرت طرفى فما رأيت احدا ولا سمعت حسا فعلمت ان ذلك زاجر من الله تعالى (رجع) ثم سافرت فى أرض رملة الى مدينة دمياط وهى مدينة فسيحة الاقطار متنوعة الثمار عجيبة الترتيب آخذة من كل حسن بنصيب والناس يضبطون اسمها باعجام الذال وكذلك ضبطه الامام أبو محمد عبدالله بن على الرشاطى وكان شرف الدين الامام العلامة أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى امام المحدثين يضبطها باهمال الدال ويتبع ذلك بان يقول خلاف الرشاطى وغيره وهو أعرف بضبط اسم بلده ومدينة دمياط على شاطىء النيل وأهل الدور الموالية له يستقون منه الماء بالدلاء وكثير من دورها بها دركات ينزل فيها الى النيل وشجر الموز بها كثير يحمل ثمره الى مصر فى المراكب وغنمها سائمة هملا بالليل والنهار ولهذا يقال فى دمياط سورها حلوى وكلا بها غنم واذا دخلها أحد لم يكن له سبيل الى الخروج عنها الا بطابع الوالى فمن كان من الناس معتبرا طبع له فى قطعة كاعد يستظهر به لحراس بابها وغيرهم يطبع على ذراعه فيستظهر به والطير البحرى بهذه المدينة كثير متناهى السمن وبها الالبان الجاموسية التى لا مثل لها فى عذوبة الطعم وطيب المذاق وبها الحوت البورى يحمل منها الى الشام و بلاد الروم ومصر وبخارجها جزيرة بين البحر بن والنيل تسمى البرزخ بها مسجد وزاوية لقيت بها شيخها المعروف بابن قفل وحضرت عنده ليلة جمعة ومعه جماعة من الفقراء الفضلاء المتعبدين الاخيار قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا. ودمياط هذه حديثة البناء والمدينة القديمة هى التى خربها الافرنج على عهد الملك الصالح وبها زاوية الشيخ جمال الدين الساوى قدوة الطائفة المعروفة بالقرندرية وهم الذين يحلقون لحاهم وحواجبهم ويسكن الزاوية فى هذا العهد الشيخ فتح التكرورى

— حكاية —

أيذكر ان السبب الداعى للشيخ جمال الدين الساوي الى حلق لحيته وحاجبيه انه كان جميل الصورة حسن الوجه فعلقت به امرأة من أهل ساوة وكانت تراسله وتعارضه فى الطرق وتدعوه لنفسها وهو يمتنع ويتعاون فلما أعياها أمره دست له عجوزا تصدت له ازاء دار على طريقه الى المسجد وبيدها كتاب مختوم فلما مر بها قالت له ياسيدى أتحسن القراءة قال نعم قالت له هذا الكتاب وجهه الى ولدي واحب ان تقرأه على فقال لها نعم فلما فتح الكتاب قالت له ياسيدى ان لولدي زوجة وهى باسطوان الدار فلو تفضلت بقراءته بين

بابي الدار بحيث تسمعها فاجابها لذلك فلما توسط بين البابين غلقت العجوز الباب وخرجت المرأة وجوارياها فتعلقن به وأدخلنه الى داخل الدار وراودته المرأة عن نفسه فلما رأى ان لا خلاص له قال لها اني حيث تريدين فاريني بيت الخلاء فارته اياه فادخل معه الماء وكانت عنده موسى حديدة فحلق لحيته وحاجبيه وخرج عليها فاستقبحت هيئته واستنكرت فعله وأمرت باخراجه وعصمه الله بذلك فبقي على هيئته فيما بعد وصار كل من يسلك طريقته يحلق رأسه ولحيته وحاجبيه

(كرامة لهذا الشيخ) يذكر انه لما قصد مدينة دمياط لزم مقبرتها وكان بها قاض يعرف بابن العميد فخرج يوما الى جنازة بعض الاعيان فرأي الشيخ جمال الدين بالمقبرة فقال له انت الشيخ المبتدع فقال له وانت القاضي الجاهل تمر بدابتك بين القبور وتعلم ان حرمة الانسان ميتا كحرمته حيا فقال له القاضي وأعظم من ذلك حلقك للحيتك فقال له اياي تعني وزعق الشيخ ثم رفع رأسه فاذا هو ذو لحية سوداء عظيمة فعجب القاضي ومن معه ونزل اليه عن بغلته ثم زعق ثانية فاذا هو ذو لحية بيضاء حسنة ثم زعق ثالثة ورفع رأسه فاذا هو بلا لحية كهيئته الاولى فقبل القاضي يده وتتلمذ له وبني له الزاوية حسنة وصحبه ايام حياته ثم مات الشيخ فدفن بزاويته ولما حضرت القاضي وفاته أوصى أن يدفن بباب الزاوية حتي يكون كل داخل الى زيارة الشيخ يطأ قبره (ويخارج دمياط المزار المعروف بشطا (بفتح الشين المعجمة والطاء المهملة) وهو ظاهر البرلة يقصده أهل الديار المصرية وله أيام في السنة معلومة لذلك وبخارجها أيضا بين بساتينها موضع يعرف بالمنية فيه شيخ من الفضلاء يعرف بابن النعمان قصدت زاويته وبت عنده وكان بدمياط أيام اقامتي بها وال يعرف بالمحسني من ذوي الاحسان والفضل بني مدرسة على شاطي النيل بها كان نزولي في تلك الايام وتاكدت بيني وبينه مودة ثم سافرت الى مدينة فارسكور وهي مدينة على ساحل النيل (والكاف الذي في اسمها مضموم) ونزلت بخارجها ولحقني هنالك فارس وجهه الى الامير المحسني فقال لي ان الامير سال عنك وعرف بسيرتك فبعث اليك بهذه النفقة ودفع الي جملة دراهم جزاه الله خيرا ثم سافرت الى مدينة أشمون الرمان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الشين المعجم) ونسبت الى الرمان لكثرته بها ومنها يحمل الى مصر وهي مدينة عتيقة كبيرة على خليج من خليج النيل ولها قنطرة خشب ترسو المراكب عندها فاذا كان العصر رفعت تلك الخشب وجازت المراكب صاعدة ومنحدرة وبهذه البلدة قاضي القضاة ووالي الولاة ثم سافرت عنها الى مدينة سمنود وهي على شاطيء

النيل كثيرة المراكب حسنة الاسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والميم وتشديد النون وضمها وواو ودال مهمل) ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعدا الى مصر مابين مدائن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ولا يفتقر راكب النيل الى استصحاب الزاد لانه مهما أراد النزول بالشاطىء نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك والاسواق متصلة من مدينة الاسكندرية الى مصر ومن مصر الى مدينة أسوان من الصعيد ثم وصلت الى مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذي الاوتاد ذات الاقاليم العريضة والبلاد الاريضة المتناهية فى كثرة العمارة المتباهية بالحسن والنضارة مجمع الوارد والصادر ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ماشئت من عالم وجاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونبيه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد قهرت قاهرتها الامم وتمكنت ملوكها نواصي العرب والعجم ولها خصوصية النيل التي جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها وأرضها مسيرة شهر لجد السير كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر (طويل)

لعمرك ما مصر بمصر وانما * هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فاولادها الولدان والحور عينها * وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض

شاطيء مصر جنة * ماثلها من بلد
لاسيما مذ زخرفت * بنيلها المطرد
وللرياح فوقه * سوابغ من زرد
مسرودة مامسها * داودها بمبرد
سائلة هواؤها * يرعد عارى الجسد
والفلك كالافلاك بين حادر ومصعد



(رجع) ويقال ان بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر الف سقاء وان بها ثلاثين الف مكار وان بنيلها من المراكب ستة وثلاثين الفا للسلطان والرعية تمر صاعدة الى الصعيد ومنحدرة الى الاسكندرية ودمياط بانواع الخيرات والمرافق وعلى ضفة النيل

مما يواجه مصر الموضع المعروف بالروضة وهو مكان النزهة والتفرج وبه البساتين الكثيرة الحسنة وأهل مصر ذو طرب وسرور ولهو شاهدت بها مرة فرجة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوانيتهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك اياما

— ذكر مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستانات والزوايا —

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة والطريق يعترضه من شرق الى غرب وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها — واما المارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه وقد أعد فيه من المرافق والادوية مالا يحصر. يذكر أن مجباه الف دينار كل يوم — وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة والامراء بمصر يتنافسون فى بناء الزوايا وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الاعاجم وهم اهل ادب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس وترتيب امورهم عجيب * ومن عوائدهم فى الطعام انه يأتى خديم الزاوية الى الفقراء صباحا فيعين له كل واحد ما يشتهيه من الطعام فاذا اجتمعوا للاكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه فى اناء على حدة لا يشاركه فيه احد وطعامهم مرتان فى اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهرى من ثلاثين درهما للواحد فى الشهر الى عشرين ولهم الحلاوة من السكر فى كل ليلة جمعة والصابون لغسل أثوابهم والاجرة لدخول الحمام والزيت للاستصباح وهم أعزاب وللمتزوجين زوايا على حدة ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية واجتماعهم بقبة داخل الزاوية * ومن عوائدهم ان يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به واذا صلوا صلاة الصبح قرؤا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ثم يؤتى بنسخ من القرآن العظيم مجزأة فيأخذ كل فقير جزأ ويختمون القرآن ويذكرون ثم يقرأ القراء على عادة اهل المشرق ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر * ومن عوائدهم مع القادم انه يأتى باب الزاوية فيقف به مشدودا لوسط وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز وبيسراه الابريق فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج اليه ويسأله من أى البلاد أتى وباى الزوايا نزل فى طريقه ومن شيخه فاذا عرف صحة قوله ادخله الزاوية وفرش له سجادته فى موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتى الى سجادته فيحل وسطه ويصلى ركعتين ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم * ومن عوائدهم أنهم اذا كان

Digitized by Birzeit University Library

يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها الى المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلى كل واحد على سجادته فاذا فرغوا من الصلاة قرؤا القرآن على عادتهم ثم ينصرفون مجتمعين الى الزاوية ومعهم شيخهم

— ذكر قرافة مصر ومزاراتها —

ولمصر القرافة العظيمة الشان فى التبرك بها وقد جاء فى فضلها أثر أخرجه القرطبى وغيره لانها من جملة الجبل المقطم الذى وعد الله أن يكون روضة من رياض الجنة وهم يدفنون بالقرافة القباب الحسنة ويجعلون عليها الحيطان فتكون كالدور ويبنون بها البيوت ويرتبون القراء يقرؤن ليلا ونهارا بالاصوات الحسان ومنهم من يبنى الزاوية والمدرسة الى جانب التربة ويخرجون فى كل ليلة جمعة الى المبيت بها باولادهم ونسائهم ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضا للمبيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الاسواق بصنوف المآكل . ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشان حيث رأس الحسين بن على عليهما السلام وعليه رباط ضخم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفائحها أيضا كذلك وهو موفى الحق من الاجلال والتعظيم . ومنها تربة السيدة نفيسة بنت الحسن الانور بن زيد بن على بن الحسين بن على عليهم السلام وكانت مجابة الدعوة مجتهدة فى العبادة وهذه التربة أنيقة البناء مشرقة الضياء عليها رباط مقصود . ومنها تربة الامام أبى عبد الله محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه وعليها رباط كبير ولها جراية ضخمة وبها القبة الشهيرة البديعة الاتقان العجيبة البنيان المتناهية الاحكام المفرطة السمو وسعتها أزيد من ثلاثين ذراعا وبقرافة مصر من قبور العلماء والصالحين مالا يضبطه الحصر وبها عدد جم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضى الله تعالى عنهم مثل عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز وأصبغ بن الفرج وابنى عبد الحكم وأبى القاسم بن شعبان وأبى محمد عبد الوهاب لكن ليس لهم بها اشتهار ولا يعرفهم الا من له بهم عناية والشافعى رضى الله عنه ساعده الجد فى نفسه واتباعه وأصحابه فى حياته ومماته فظهر من أمره مصداق قوله (كامل)

الجد يدنى كل أمر شاسع * والجد يفتح كل باب مغلق

— ذكر نيل مصر —

ونيل مصر يفضل أنهار الارض عذوبة مذاق واتساع قطر وعظم منفعة والمدن والقرى بضفتيه منتظمة ليس فى المعمور مثلها ولا يعلم نهر يزدرع عليه مايزدرع على النيل

Digitized by Birzeit University Library

وليس فى الارض نهر يسمى بحرا غيره قال الله تعالى فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم فسماه يما وهو البحر وفى الحديث الصحيح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء الى سدرة المنتهي فاذا فى أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسال عنها جبريل عليه السلام فقال اما الباطنان ففى الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات وفى الحديث ايضا ان النيل والفرات وسيحون وجيحون كل من أنهار الجنة ومجري النيل من الجنوب الى الشمال خلافا لجميع الانهار * ومن عجائبه ان ابتداء زيادته فى شدة الحر عند نقص الانهار وجفوفها وابتداء نقصه حين زيادة الانهر وفيضها ونهر السند مثله فى ذلك وسياتى ذكره وأول ابتداء زيادته فى حزيران وهو يونيه فاذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعا تم خراج السلطان فان زاد ذراعا كان الخصب في العام والصلاح التام فان بلغ ثمانية عشر ذراعا أضر بالضياع وأعقب الوباء وان نقص ذراعا عن ستة عشر نقص خراج السلطان وان نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد والنيل أحد انهار الدنيا الخمسة الكبار وهى النيل والفرات والدجلة وسيحون وجيحون وتماثلها انهار خمسة أيضا نهر السند ويسمي ينج اب ونهر الهند ويسمى الكنك واليه تحج الهنود واذا حرقوا اموانهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ونهر الجون بالهند ايضا ونهر اتل بصحراء قفجق وعلى ساحله مدينة السرا ونهر السر وبارض الخطا وعلي ضفته مدينة خان بالق ومنها ينحدر الى مدينة الخنساثم الى مدينة الزيتون بارض الصين وسيذكر ذلك كله فى مواضعه ان شاء الله والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ولا يعبر نهر منها الا فى السفن شتاء وصيفا وأهل كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فاذا مد أترعها فاضت على المزارع

— ذكر الاهرام والبرابي —

وهى من العجائب المذكورة على مر الدهور وللناس فيها كلام كثير وخوض فى شأنها وأولية بنائها ويزعمون ان جميع العلوم التى ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الاول الساكن بصعيد مصر الاعلى ويسمي اخنوخ وهو ادريس عليه السلام وانه أول من تكلم فى الحركات الفلكية والجواهر العلوية واول من بنى الهيا كل ومجد الله تعالى فيها وانه انذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ودروس الصنائع فبني الاهرام والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ويقال ان دار العلم والملك بمصر مدينة منف وهى على بريد من الفسطاط فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس اليها وصارت دار العلم والملك الى ان أتى الاسلام فاختط عمرو بن العاص رضى الله

Digitized by Birzeit University Library

عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر الى هذا العهد والاهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت متناهي السمو مستدير متسع الاسفل ضيق الاعلى كالشكل المخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها . ومما يذكر في شانها ان ملكا من ملوك مصر قبل الطوفان رأى رؤيا هالته وأوجبت عنده انه بني تلك الاهرام بالجانب الغربي من النيل لتكون مستودعا للعلوم ولجثة الملوك وانه سال المنجمين هل يفتح منها موضع فاخبروه انها تفتح من الجانب الشمالي وعينوا له الموضع الذي تفتح منه ومبلغ الانفاق في فتحه فامر أن يجعل بذلك الموضع من المال قدر ما أخبروه انه ينفق في فتحه واشتد في البناء فاتمه في ستين سنة وكتب عليها بنينا هذه الاهرام في ستين سنة فليهدمها من يريد ذلك في ستمائة سنة فان الهدم أيسر من البناء فلما أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين المامون اراد هدمها فاشار عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلج في ذلك وأمر أن تفتح من الجانب الشمالي فكانوا يوقدون عليها النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالمنجنيق حتى فتحت الثلمة التي بها الى اليوم ووجدوا بازاء النقب مالا أمر أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أنفق في النقب فوجدها سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط عشرين ذراعا

— ذكر سلطان مصر —

وكان سلطان مصر على عهد دخولي اليها الملك الناصر ابو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي وكان قلاوون يعرف بالالفي لان الملك الصالح اشتراه بالف دينار ذهبا وأصله من قفجق وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفا انتماؤه لخدمة الحرمين الشريفين ومايفعله في كل سنة من افعال البر التي تعين الحجاج من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمنقطعين والضعفاء وتحمل من تاخر اوضعف المشي في الدربين المصري والشامي وبني زاوية عظيمة بسرياقوس خارج القاهرة لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين وكهف الفقراء والمساكين خليفة الله في ارضه القائم من الجهاد بنفله وفرضه أبو عنان أيد الله امره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور في اتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله وسياتي ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمرستان والزوايا ببلاده حرسها الله وحفظها بدوام ملكه

— ذكر بعض أمراء مصر —

منهم ساقي الملك الناصر وهو الامير بكتمور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلوة مضمومة وآخره راء) وهو الذي قتله الملك الناصر بالسم وسيذكر ذلك. ومنهم نائب الملك الناصر ارغون الدودار وهو الذي يلي بكتمور في المنزلة (وضبط اسمه بفتح الهمزة واسكان الراء وضم الغين المعجمة) ومنهم طشط المعروف بحمص أخضر (واسمه بطاءين مهملين مضمومين وبينهما شين معجم) وكان من خيار الامراء وله الصدقات الكثيرة على الايتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن وله الاحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة. وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا باسفل القلعة وناداوا بلسان واحد ياأعرج النحس يعنون الملك الناصر أخرجه فاخرجه من محبسه وسجنه مرة أخرى ففعل الايتام مثل ذلك فاطلقه * ومنهم وزير الملك الناصر يعرف بالجمالي بفتح الجيم. ومنهم بدر الدين بن البابه. ومنهم جمال الدين نائب الكرك. ومنهم تقزدمور (واسمه بضم التاء المعلوة وضم القاف وزاء مسكن ثم دال مضموم وميم مثله وآخره راء) ودمور بالتركية الحديد. ومنهم بهادر الحجازي (واسمه بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهملة وآخره راء) ومنهم قوصون (وسمه بفتح القاف وصاد مهمل مضموم). ومنهم بشتك (واسمه بفتح الباء الموحدة وأسكان الشين المعجم وتاء معلوة مفتوحة) وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا. ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكاتبه القاضي فخر الدين القبطي وكان نصرانيا من القبط فاسلم وحسن اسلامه وله المكارم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر وله الصدقات الكثيرة والاحسان الجزيل. ومن عادته أن يجلس عشي النهار في مجلس له باسطوان داره على النيل ويليه المسجد فاذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد الى مجلسه وأوتي بالطعام ولا يمنع حينئذ أحد من الدخول كائنا من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر مملوكا له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بان يصحبه الى خارج الدار وهنالك خازنه معه صرر الدراهم فيعطيه ماقدر له ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري فاذا صلى العشاء الاخيرة انصرف الناس عنه

— ذكر القضاة بمصر في عهد دخولي اليها —

فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو اعلاهم منزلة وأكبرهم قدرا واليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضي الامام العالم بدر الدين بن جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولي ذلك

Digitized by Birzeit University Library

*ومنهم قاضي القضاة المالكية الامام الصالح تقي الدين الاخنائي *ومنهم قاضي القضاة الحنفية الامام العالم شمس الدين الحريري وكان شديد السطوة لا تاخذه في الله لومة لائم وكانت الامراء تخافه ولقد ذكر لي ان الملك الناصر قال يوما لجلسائه اني لا أخاف من أحد الا من شمس الدين الحريري. ومنهم قاضي القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن الا انه كان يدعى بعز الدين

— حكاية —

كان الملك الناصر رحمه الله يقعد للنظر في المظالم ورفع قصص المتشكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد القضاة الاربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها وقد سلك مولانا أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله في ذلك مسلكا لم يسبق اليه ولا مزيد في العدل والتواضع عليه وهو سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يديه المستقيمة أبى الله ان يحضر هاسواه أدام الله أيامه. وكان رسم القضاة المذكورين ان يكون أعلاهم منزلة في الجلوس قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ثم قاضي المالكية ثم قاضي الحنبلية فلما توفي شمس الدين الحريري وولي مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفي أشار الامراء على الملك الناصر بان يكون مجلس المالكي فوقه وذكروا ان العادة جرت بذلك قديما اذ كان قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد فامر الملك الناصر بذلك فلما علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود المجلس أنفة من ذلك فانكر الملك الناصر مغيبه وعلم ما قصده فامر باحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقعده حيث نفذ أمر السلطان مما يلي قاضي المالكية واستمر حاله على ذلك

— ذكر بعض علماء مصر وأعيانها —

فمنهم شمس الدين الاصبهاني امام الدنيا في المعقولات. ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي. ومنهم برهان الدين بن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح ومنهم ركن الدين بن القوبع التونسي من الائمة في المعقولات ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية. ومنهم بهاء الدين بن عقيل فقيه كبير. ومنهم أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي وهو أعلمهم بالنحو ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين عبد الله المنوفي ومنهم برهان الدين الصفاقسي. ومنهم قوام الدين الكرماني وكان سكنه بالمعلى سطح الجامع الازهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتي في المذاهب ولباسه عباءة صوف خشنة وعمامة صوف سوداء ومن عادته أن يذهب بعد صلاة العصر الى مواضع الفرج والنزاهات منفردا عن أصحابه ومنهم السيد الشريف شمس الدين بن بنت الصاحب تاج الدين

Digitized by Birzeit University Library

ابن حناء. ومنهم شيخ شيوخ القراء بديار مصر مجد الدين الاقصرائي نسبة الى اقصرا من بلاد الروم ومسكنه سريا قص. ومنهم الشيخ جمال الدين الحويزائي والحويزا على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ومنهم نقيب الاشراف بديار مصر السيد الشريف المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين. ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقية الامام الشافعي مجد الدين بن حرمي. ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهرتي من كبار الفقهاء وله بمصر رياسة عظيمة وجاه

— ذكر يوم المحمل بمصر —

وهو يوم دوران الجمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب فيه القضاة الاربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ويقصدون جميعا باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم المحمل على جمل وأمامه الامير المعين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعه عسكره والسقاؤن على جمالهم ويجتمع لذلك أصناف الناس من رجال ونساء ثم يطوفون بالمحمل وجميع من ذكرنا معه بمدينتي القاهرة ومصر والحداة يحدون أمامهم ويكون ذلك في رجب فعند ذلك تهيج العزمات وتنبعث الاشواق وتتحرك البواعث ويلقي الله تعالى العزيمة على الحج في قلب من يشاء من عباده فياخذون في التاهب لذلك والاستعداد ثم كان سفري من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجي بالرباط الذي بناه الصاحب تاج الدين بن حناء بدير الطين وهو رباط عظيم بناه على مفاخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والميل الذي كان يكتحل به والدرفش وهو الاشفا الذي كان يخصف به نعله ومصحف اميرالمؤمنين علي بن أبي طالب الذي بخط يده رضي الله عنه ويقال ان الصاحب اشترى ماذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة الف درهم وبنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة نفعه الله تعالى بقصده المبارك. ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ثم سرت منها الى مدينة بوش (وضبطها بضم الباء الموحدة وآخرها شين معجم) وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كتانا ومنها يجلب الى سائر الديار المصرية والى افريقية ثم سافرت منها فوصلت الى مدينة دلاص (وضبط اسمها بفتح الدال المهملة وآخره صاد مهمل) وهذه المدينة كثيرة الكتان أيضا كمثل التي ذكرنا قبلها ويحمل أيضا منها الى ديار مصر وافريقية ثم سافرت منها الى مدينة بيا (وضبط اسمها بياءين موحدتين اولاها مكسورة) ثم سافرت منها الى مدينة البهنسا وهي مدينة كبيرة وبساتينها كثيرة (وضبط

Digitized by Birzeit University Library

اسمها بفتح الموحدة واسكان الهاء وفتح النون والسين) وتصنع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة وممن لقيته بها قاضيها العالم شرف الدين وهو كريم النفس فاضل ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ونزلت عنده وأضافني ثم سافرت منها الى مدينة منية ابن خصيب وهي مدينة كبيرة الساحة متسعة المساحة مبنية على شاطىء النيل وحق حقيق لها على بلاد الصعيد التفضيل بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد وكانت في القديم منية عامل مصر لخصيب

— حكاية خصيب —

يذكر ان أحد الخلفاء من بني العباس رضي الله عنهم غضب على أهل مصر فآلى أن يولي عليهم أحقر عبيده وأصغرهم شأنا قصدا لارذالهم والتنكيل بهم وكان خصيب احقرهم اذ كان يتولى تسخين الحمام فخلع عليه وأمره على مصر وظنه أنه يسير فيهم سيرة سوء ويقصدهم بالاذاية حسبما هو المعهود ممن ولي عن غير عهد بالعز فلما استقر خصيب بمصر سار في أهلها أحسن سيرة وشهر بالكرم والايثار فكان أقارب الخلفاء وسواهم يقصدونه فيجزل العطاء لهم ويعودون الى بغداد شاكرين لما أولاهم وان الخليفة افتقد بعض العباسيين وغاب عنه مدة ثم أتاه فسأله عن مغيبه فاخبره انه قصد خصيبا وذكر له ما أعطاه خصيب وكان عطاء جزيلا فغضب الخليفة وأمر بسمل عيني خصيب واخراجه من مصر الى بغداد وان يطرح في أسواقها فلما ورد الامر بالقبض عليه حيل بينه وبين دخول منزله وكانت بيده ياقوتة عظيمة الشأن فخبأها عنده وخاطها في ثوب له ليلا وسملت عيناه وطرح في أسواق بغداد فمر به بعض الشعراء فقال له ياخصيب اني كنت قصدتك من بغداد الى مصر مادحا لك بقصيدة فوافقت انصرافك عنها وأحب ان تسمعها فقال كيف بسماعها وأنا على ما تراه فقال انما قصدي سماعك لها وأما العطاء فقد أعطيت الناس واجزلت جزاك الله خيرا قال فافعل فانشده (كامل)

أنت الخصيب وهذه مصر * فتدفقا فكلاكما بحر

فلما أتى على آخرها قال له افتق هذه الخياطة ففعل ذلك فقال له خذ الياقوتة فأبى فاقسم عليه أن يأخذها فاخذها وذهب بها الى سوق الجوهريين فلما عرضها عليهم قالوا له ان هذه لا تصلح الا للخليفة فرفعوا أمرها الى الخليفة فامر الخليفة باحضار الشاعر واستفهمه عن شان الياقوتة فاخبره بخبرها فتاسف على ما فعله بخصيب وأمر بمثوله بين يديه واجزل له العطاء وحكمه فيما يريد فرغب ان يعطيه هذه المنية ففعل ذلك وسكنها خصيب الى ان توفي وأورثها عقبه الى أن انقرضوا وكان قاضي هذه المنية أيام دخولي اليها

Digitized by Birzeit University Library

فخر الدين النويري المالكي ووليها شمس الدين امير خير كريم دخلت يوما الحمام بهذه البلدة فرأيت الناس بها لا يستترون فعظم ذلك على وأتيته فاعلمته بذلك فامرني أن لا أبرح وأمر باحضار المكترين للحمامات وكتبت عليهم العقود انه متى دخل أحد الحمام دون مئزر فانهم يؤاخذون على ذلك واشتد عليهم اعظم الاشتداد ثم انصرفت عنه وسافرت من منية ابن خصيب الى مدينة منلوي وهي صغيرة مبنية على مسافة ميلين من النيل (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح اللام وكسر الواو) وقاضيها الفقيه شرف الدين الدميري (بفتح الدال المهمل وكسر الميم) الشافعي وكبارها قوم يعرفون ببني فضيل بني احدهم جامعا انفق فيه صميم ماله وبهذه المدينة احدى عشرة معصرة للسكر ومن عوائدهم انهم لا يمنعون فقيرا من دخول معصرة منها فيأتي الفقير بالخبزة الحارة فيطرحها في القدر التي يطبخ السكر فيها ثم يخرجها وقد امتلأت سكرا فينصرف بها وسافرت من منلوي المذكورة الى مدينة منفلوط وهي مدينة حسن رواؤها مؤنق بناؤها على ضفة النيل شهيرة البركة (وضبط اسمها بفتح الميم واسكان النون وفتح الفاء وضم اللام وآخرها طاء مهمل)

— حكاية —

اخبرني اهل هذه المدينة ان الملك الناصر رحمه الله أمر بعمل منبر عظيم محكم الصنعة بديع الانشاء برسم المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما فلما تم عمله أمر أن يصعد به في النيل ليجاز الى بحر جدة ثم الى مكة شرفها الله فلما وصل المركب الذي احتمله الى منفلوط وحاذى مسجدها الجامع وقف وامتنع من الجري مع مساعدة الريح فعجب الناس من شانه اشد العجب واقاموا اياما لا ينهض بهم المركب فكتبوا بخبره الى الملك الناصر رحمه الله فامر ان يحمل ذلك المنبر بجامع مدينة منفلوط ففعل ذلك وقد عاينته بها ويصنع بهذه المدينة شبه العسل يستخرجونه من القمح ويسمونه النيدا يباع باسواق مصر وسافرت من هذه المدينة الى مدينة اسيوط وهي مدينة رفيعة اسواقها بديعة (وضبط اسمها بفتح الهمزة والسين المهملة والياء آخر الحروف وواو ووطاء مهملة) وقاضيها شرف الدين ابن عبد الرحيم الملقب (بحاصل ماثم) لقب شهر به واصله ان القضاة بديار مصر والشام بايديهم الاوقاف والصدقات لابناء السبيل فاذا اتى فقير لمدينة من المدن قصد القاضي بها فيعطيه ماقدر له فكان هذا القاضي اذا اتاه الفقير يقول له حاصل ماثم اى لم يبق من المال الحاصل شيء فلقب بذلك ولزمه وبها من المشايخ الفضلاء الصالح شهاب الدين بن الصباغ اضافني بزاويته وسافرت منها الى مدينة اخميم وهي مدينة عظيمة اصيلة البنيان عجيبة الشان بها البربي المعروف باسمها وهو مبني بالحجارة في داخله نقوش وكتابة للاوائل لا تفهم في

Digitized by Birzeit University Library

هذا العهد وصور الافلاك والكواكب ويزعمون انها بنيت والنسر الطائر ببرج العقرب وبها صور الحيوانات وسواها وعند الناس فى هذه الصور أكاذيب لا يعرج عليها وكان باخميم رجل يعرف بالخطيب أمر على هدم بعض هذه البرابى وابتنى بحجارتها مدرسة وهو رجل موسر معروف باليسار ويزعم حساده أنه استفاد ما بيده من المال من ملازمته لهذه البرابي ونزلت من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي العباس بن عبد الظاهر وبها تربة جده عبد الظاهر وله من الاخوة ناصر الدين ومجد الدين وواحد الدين ومن عادتهم ان يجتمعوا جميعا بعد صلاة الجمعة ومعهم الخطيب نور الدين المذكور وأولاده وقاضى المدينة الفقيه مخلص وسائر وجوه أهلها فيجتمعون للقرآن ويذكرون الله الى صلاة العصر فاذا صلوها قرأوا سورة الكهف ثم انصرفوا وسافرت من اخميم الى مدينة (هو) مدينة كبيرة بساحل النيل (وضبطها بضم الهاء) نزلت منها بمدرسة تقى الدين بن السراج ورأيتهم يقرأون بها فى كل يوم بعد صلاة الصبح حزبا من القرآن ثم يقرأون أوراد الشيخ أبى الحسن الشاذلى وحزب البحر. وبهذه المدينة السيد الشريف أبو محمد عبد الله الحسنى من كبار الصالحين (كرامة له) دخلت الى هذا الشريف متبركا برؤيته والسلام عليه فسألني عن قصدى فاخبرته أني أريد حج البيت الحرام على طريق جدة فقال لى لا يحصل لك هذا فى هذا الوقت فارجع وإنما تحج أول حجة على الدرب الشامي فانصرفت عنه ولم أعمل على كلامه ومضيت فى طريق حتى وصلت الى عيذاب فلم يتمكن لى السفر فعدت راجعا إلى مصر ثم الى الشام وكان طريقي فى أول حجاتي على الدرب الشامى حسبما أخبرنى الشريف نفع الله به. ثم سافرت الى مدينة قنا وهي صغيرة حسنة الاسواق (وضبط اسمها بقاف مكسورة ونون) وبها قبر الشريف الصالح الولى صاحب البراهين العجيبة والكرامات الشهيره عبد الرحيم القناوي رحمة الله عليه ورأيت بالمدرسة السيفية منها حفيده شهاب الدين احمد وسافرت من هذا البلد الى مدينة قوص (وهي بضم القاف) مدينة عظيمة لها خيرات عميمة بساتينها مورقة واسواقها موثقة ولها المساجد الكثيرة والمدارس الانيقة وهي منزل ولاة الصعيد وبخارجها زاوية الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار وزاوية الافرم وبها اجتماع الفقراء المتجردين فى شهر رمضان من كل سنة ومن علمائها القاضى جمال الدين بن السديد والخطيب بها فتح الدين بن دقيق العيد أحد الفصحاء البلغاء الذين حصل لهم السبق فى ذلك لم أر من يماثله الا خطيب المسجد الحرام بهاء الدين الطبرى وخطيب مدينة خوارزم حسام الدين الشاطى وسيقع ذكرهما ومنهم الفقيه بهاء الدين بن عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية ومنهم الفقيه برهان الدين

ابراهيم الأندلسي له زاوية عالية ثم سافرت الى مدينة الاقصر (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهمل) وهي صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبي الحجاج الاقصري وعليه زاوية. وسافرت منها الى مدينة أرمنت (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الراء وميم مفتوحة ونون ساكنة وتاء فوقية) وهي صغيرة ذات بساتين مبنية على ساحل النيل أضافي قاضيها وأنسيت اسمه ثم سافرت منها الى مدينة أسنا (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان السين المهمل ونون) مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع لها أسواق حسان وبساتين ذات أفنان قاضيها قاضي القضاة شهاب الدين بن مسكين أضافني واكرمني وكتب الى نوابه باكرامي وبها من الفضلاء الشيخ الصالح نور الدين علي والشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي وهو على هذا العهد صاحب زاوية بقوص ثم سافرت منها الى مدينة أدفو (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الدال المهمل وضم الفاء) وبينها وبين مدينة أسنا مسيرة يوم وليلة في صحراء ثم جزنا النيل من مدينة أدفو الى مدينة العطواني ومنها اكترينا الجمال وسافرنا مع طائفة من العرب تعرف بدغيم (بالغين المعجمة) في صحراء لا عمارة بها الا أنها آمنة السبل وفي بعض منازلها نزلنا حميثرا حيث قبر ولي الله ابي الحسن الشاذلي وقد ذكرنا كرامته في أخباره انه يموت بها وأرضها كثيرة الضباع ولم نزل ليلة مبيتنا بها نحارب الضباع ولقد قصدت رحلي ضبع منها فمزقت عدلا كان به واجترت منه حراب ثم رذهبت به فوجدناه لما أصبحنا ممزقا ما كولا معظم ما كان فيه ثم لما سرنا خمسة عشر يوما وصلنا الى مدينة عيذاب وهي مدينة كبيرة كثيرة الحوت واللبن ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر وأهلها البجاة وهم سود الالوان يلتحفون ملاحف صفرا ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة منها أصبعا وهم لا يورثون البنات وطعامهم البان الابل ويركبون المهاري ويسمونها الصهب وثلث المدينة للملك الناصر وثلثاها لملك البجاة وهو يعرف بالحدربي (بفتح الحاء المهمل واسكان الدال وراء مفتوحة وباء موحدة وياء) وبمدينة عيذاب مسجد ينسب للقسطلاني شهير البركة رأيته وتبركت به وبها الشيخ الصالح الموسي والشيخ المسن محمد المراكشي زعم انه ابن المرتضى ملك مراكش وان سنه خمس وتسعون سنة لما وصلنا الى عيذاب وجدنا الحدربي سلطان البجاة يحارب الاتراك وقد خرق المراكب وهرب الترك امامه فتعذر سفرنا في البحر فبعنا ما كنا أعددناه من الزاد وعدنا مع العرب الذين اكترينا الجمال منهم الى صعيد مصر فوصلنا الى مدينة قوص التي تقدم ذكرها وانحدرنا منها في النيل وكان أوان

مده فوصلنا بعد مسيرة ثمان من قوص الى مصر فبت بمصر ليلة واحدة وقصدت بلاد الشام وذلك فى منتصف شعبان سنة ست وعشرين فوصلت الى مدينة بلبيس (وضبط اسمها بفتح الموحدة الاولى وفتح الثانية ثم ياء آخر الحروف مسكنة وسين مهملة) وهي مدينة كبيرة ذات بساتين كثيرة ولم أر الى بها من يجب ذكره. ثم وصلت الى الصالحية ومنها دخلنا الرمال ونزلنا منازلها مثل السوادة والورادة والمطيلب والعريش والخروبة وبكل منزل منها فندق وهم يسمونه الخان ينزله المسافرون بدوابهم ويخارج كل خان ساقيه للسبيل وحانوت يشترى منها المسافر ما يحتاجه لنفسه ودابته ومن منازلها قطيا المشهورة وهي (بفتح القاف وسكون الطاء وياء آخر الحروف مفتوحة وألف) والناس يبدلون ألفها هاء تانيث وبها تؤخذ الزكاة من التجار وتفتش أمتعتهم ويبحث عما لديهم أشد البحث وفيها الدواوين والعمال والكتاب والشهود وبجباها فى كل يوم ألف دينار من الذهب ولا يجوز عليها أحد من الشام الا ببراءة من مصر ولا الى مصر الا ببراءة من الشام احتياطا على أموال الناس وتوقيا من الجواسيس العراقيين وطريقها فى ضمان العرب قد وكلوا بحفظه فاذا كان الليل مسحوا على الرمل لا يبقى به أثر ثم ياتي الامير صباحا فينظر الى الرمل فان وجد به أثر اطالب العرب باحضار مؤثره فيذهبون فى طلبه فلا يفوتهم فيأتون به الامير فيعاقبه بما شاء وكان بها فى عهد وصولى اليها عز الدين استاذ الدار اقاري من خيار الامراء أضافني وأكرمني وأباح الجواز لمن كان معي وبين يديه عبد الجليل المغربي الوقاف وهو يعرف المغاربة وبلادهم فيسال من ورد منهم من أى البلاد هو لئلا يلبس عليهم فان المغار بة لا يعترضون فى جوازهم على قطيا. ثم سرنا حتي وصلنا الى مدينة غزة وهي أول بلاد الشام مما يلى مصر متسعة الاقطار كثيرة العمارة حسنة الاسواق بها المساجد العديدة والاسوار عليها وكان بها مسجد جامع حسن والمسجد الذي تقام الآن به الجمعة فيها بناء الامير المعظم الجاولى وهو انيق البناء محكم الصنعة ومنبره من الرخام الابيض وقاضي غزة بدر الدين السلختى الحوراني ومدرسها علم الدين بن سالم وبنو سالم كبراء هذه المدينة. ومنهم شمس الدين قاضى القدس ثم سافرت من غزة الى مدينة الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم تسليما وهي مدينة صغيرة الساحة كبيرة المقدار مشرقة الانوار حسنة المنظر عجيبة الخبر فى بطن واد ومسجدها أنيق الصنعة محكم العمل بديع الحسن سامي الارتفاع مبني بالصخر المنحوت فى أحد أركانه صخرة أحد أقطارها سبعة وثلاثون شبرا ويقال ان سليمان عليه السلام أمر الجن ببنائه وفى داخل المسجد الغار المكرم المقدس فيه قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب صلوات الله على

Digitized by Birzeit University Library

تبينا وعليهم ويقابلها قبور ثلاثة هي قبور أزواجهم وعن يمين المنبر بلصق جدار القبلة موضع يهبط منه على درج رخام محكمة العمل الى مسلك ضيق يفضي الي ساحة مفروشة بالرخام فيها صور القبور الثلاثة ويقال انها محاذية لها وكان هنالك مسلك الى الغار المبارك وهو الآن مسدود وقد نزلت بهذا الموضع مرات ومما ذكره أهل العلم دليلا على صحة كون القبور الثلاثة الشريفة هنالك ما نقلته من كتاب علي بن جعفر الرازي الذي سماه المسفر للقلوب عن صحة قبر ابراهيم واسحاق ويعقوب أسند فيه الى ابي هريرة قال قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لما أسري بي الى بيت المقدس مر بي جبريل على قبر ابراهيم فقال انزل فصل ركعتين فان هنا قبر أبيك ابراهيم ثم مر بي على بيت لحم وقال انزل فصل ركعتين فان هنا ولد أخوك عيسى عليه السلام ثم أتى بي الى الصخرة وذكر بقية الحديث ولما لقيت بهذه المدينة المدرس الصالح المعمر الامام الخطيب برهان الدين الجعبري أحد الصلحاء المرضيين والأئمة المشهورين سألته عن صحة كون قبر الخليل عليه السلام هنالك فقال لي كل من لقيته من أهل العلم يصححون أن هذه القبور قبور ابراهيم واسحاق ويعقوب على نبينا وعليهم السلام وقبور زوجاتهم ولا يطعن في ذلك الا أهل البدع وهو نقل الخلف عن السلف لا يشك فيه * ويذكر أن بعض الأئمة دخل الى هذا الغار ووقف عند قبر سارة فدخل شيخ فقال له أي هذه القبور هو قبر ابراهيم فاشار له الى قبره المعروف ثم دخل شاب فسأله كذلك فاشار له اليه ثم دخل صبي فسأله أيضاً فاشار له اليه فقال الفقيه أشهد أن هذا قبر ابراهيم عليه السلام لا شك ثم دخل الى المسجد فصلى به وارتحل من الغد وبداخل هذا المسجد أيضاً قبر يوسف عليه السلام وبشرقي حرم الخليل تربة لوط عليه السلام وهي على تل مرتفع يشرف منه غور الشام وعلى قبره أبنية حسنة وهو في بيت منها حسن البناء مبيض ولا ستور عليه وهنالك بحيرة لوط وهي أجاج يقال انها موضع ديار قوم لوط وبمقربة من تربة لوط مسجد اليقين وهو على تل مرتفع له نور واشراق ليس لسواه ولا يجاوره الا دار واحدة يسكنها قيمه وفي المسجد بمقربة من بابه موضع منخفض في حجر صلد قدهيئ فيه صورة محراب لا يسع الا مصليا واحدا ويقال ان ابراهيم سجد في ذلك الموضع شكراً لله تعالى عند هلاك قوم لوط فتحرك موضع سجوده وساخ في الارض قليلا وبالقرب من هذا المسجد مغارة فيها قبر فاطمة بنت الحسين بن علي عليهما السلام وباعلى القبر وأسفله لوحان من الرخام في احدهما مكتوب منقوش بخط بديع بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء وله ماذر أو برأ وعلى خلقه كتب الفناء وفي رسول الله أسوة هذا قبر أم سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه

Digitized by Birzeit University Library

وفي اللوح الآخر منقوش صنعه محمد بن أبي سهل النقاش بمصر وتحت ذلك هذه الابيات

أسكنت من كان في الاحشاء مسكنه بالرغم مني بين الترب والحجر
ياقبر فاطمة بنت ابن فاطمة بنت الائمة بنت الانجم الزهر
ياقبر مافيك من دين ومن ورع ومن عفاف ومن صون ومن خفر

ثم سافرت من هذه المدينة الى القدس فزرت في طريقي اليه تربة يونس عليه السلام وعليها بنية كبيرة ومسجد وزرت أيضا بيت لحم موضع ميلاد عيسى عليه السلام وبه اثر جذع النخلة وعليه عمارة كثيرة والنصاري يعظمونه أشد التعظيم ويضيفون من نزل به ثم وصلنا الى بيت المقدس شرفه الله ثالث المسجدين الشريفين في رتبة الفضل ومصعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومعرجه الى السماء والبلدة كبيرة منيفة مبنية بالصخر المنحوت وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الاسلام خيرا لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها ثم استنقض الملك الظاهر هدمه خوفا ان يقصدها الروم فيتمنعوا بها ولم يكن بهذه المدينة نهر فيما تقدم وجلب لها الماء في هذا العهد الامير سيف الدين تنكيز امير دمشق

— ذكر المسجد المقدس —

وهو من المساجد العجيبة الرائقة الفائقة الحسن يقال انه ليس على وجه الارض مسجد أكبر منه وان طوله من شرق الى غرب سبعمائة وثنتان وخمسون ذراعا بالذراع المالكية وعرضه من القبلة الى الجوف اربعمائة ذراع وخمس وثلاثون ذراعا وله ابواب كثيرة في جهاته الثلاث واما الجهة القبلية منه فلا أعلم بها الا بابا واحدا وهو الذي يدخل منه الامام والمسجد كله فضاء غير مسقف الا المسجد الاقصى فهو مسقف في النهاية من احكام العمل واتقان الصنعة مموه بالذهب والاصبغة الرائقة وفي المسجد مواضع سواه مسقفة

— ذكر قبة الصخرة —

وهي من أعجب المباني وأتقنها واغربها شكلا قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطرف وهي قائمة على نشز في وسط المسجد يصعد اليها في درج رخام ولها أربعة أبواب والدائر بها مفروش بالرخام أيضا محكم الصنعة وكذلك داخلها وفي ظاهرها وباطنها من انواع الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الواصف وأكثر ذلك مغشى بالذهب فهي تتلالا نورا وتلمع لمعان البرق يحار بصر متاملها في محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها وفي وسط القبة الصخرة الكريمة التي جاء ذكرها في الآثار فان النبي صلى الله عليه وسلم

Digitized by Birzeit University Library

عرج منها الى السماء وهى صخرة صماء ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة فى مقدار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا ينزل اليها على درج وهنالك شكل محراب وعلى الصخرة شبا كان اثنان محكما العمل يغلقان عليها أحدهما وهو الذي يلى الصخرة من حديد بديع الصنعة والثاني من خشب وفى القبة درقة كبيرة من حديد معلقة هنالك والناس يزعمون انها درقة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه

ذكر بعض المشاهد المباركة بالقدس الشريف

فمنها بعدوة الوادي المعروف بوادى جهنم فى شرقي البلد على تل مرتفع هنالك بنية يقال انها مصعد عيسى عليه السلام الى السماء ومنها أيضا قبر رابعة البدوية منسوبة الى البادية وهى خلاف رابعة العدوية الشهيرة وفي بطن الوادى المذكور كنيسة يعظمها النصاري ويقولون ان قبر مريم عليها السلام بها وهنالك أيضا كنيسة أخري معظمة يحجها النصارى وهى التى يكذبون عليها ويعتقدون ان قبر عيسى عليه السلام بها وعلى كل من يحجها ضريبة معلومة للمسلمين وضروب من الاهانة يتحملها على رغم أنفه وهنالك موضع مهد عيسى عليه السلام يتبرك به

ذكر بعض فضلاء القدس

فمنهم قاضيه العالم شمس الدين محمد بن سالم الغزى (بفتح الغين) وهو من أهل غزة وكبرائها ومنهم خطيبه الصالح الفاضل عماد الدين النابلسى ومنهم المحدث المفتي شهاب الدين الطبرى ومنهم مدرس المالكية وشيخ الخانقاه الكريمة أبو عبد الله محمد بن مثبت الفرناطي نزيل القدس ومنهم الشيخ الزاهد أبو على حسن المعروف بالحجوب من كبار الصالحين ومنهم الشيخ الصالح العابد كمال الدين المراغي ومنهم الشيخ الصالح العابد أبو عبد الرحيم عبد الرحمن بن مصطفى من أهل أرزالروم وهو من تلامذة تاج الدين الرفاعي صحبته ولبست منه خرقة التصوف ثم سافرت من القدس الشريف برسم زيارة ثغر عسقلان وهو خراب قد عادر سوما طامسة واطلالا دارسة وقل بلد جمع من المحاسن ما جمعته عسقلان اتقانا وحسن وضع وأصالة مكان وجمعا بين مرافق البر والبحر وبها المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام قبل ان ينقل الى القاهرة وهو مسجد عظيم سامى العلو فيه جب للماء أمر ببنائه بعض العبيديين وكتب ذلك على بابه وفى قبلة هذا المزار مسجد كبير يعرف بمسجد عمر لم يبق منه الا حيطانه وفيه أساطين رخام لا مثل لها فى الحسن وهى ما بين قائم وحصيد ومن جملتها اسطوانة حمراء عجيبة يزعم الناس ان النصارى احتملوها الى بلادهم ثم فقدوها فوجدت فى موضعها بعسقلان وفى القبلة من هذا المسجد بئر تعرف ببئر ابراهيم عليه السلام ينزل اليها في

Digitized by Birzeit University Library

درج متسعة ويدخل منها الى بيوت وفى كل جهة من جهاتها الاربع عين تخرج من أسراب مطوية بالحجارة وماؤها عذب وليس بالغزير ويذكر الناس من فضائلها كثيرا وبظاهر عسقلان وادي النمل ويقال انه المذكور فى الكتاب العزيز وبجبانة عسقلان من قبور الشهداء والاولياء مالا يحصر لكثرته أوقفنا عليهم قيم المزار المذكور وله جراية يجريها له ملك مصر مع ما يصل اليه من صدقات الزوار ـ ثم سافرت منها الى مدينة الرملة وهى فلسطين مدينة كبيرة كثيرة الخيرات حسنة الاسواق وبها الجامع الابيض ويقال ان فى قبلته ثلاثمائة من الانبياء مدفونين عليهم السلام وفيها من كبار الفقهاء مجد الدين النابلسى ثم خرجت منها الى مدينة نابلس وهى مدينة عظيمة كثيرة الاشجار مطردة الانهار من أكثر بلاد الشام زيتونا ومنها يحمل الزيت الى مصر ودمشق وبها تصنع حلواء الخروب وتجلب الى دمشق وغيرها (وكيفية عملها) ان يطبخ الخروب ثم يعصر ويؤخذ ما يخرج منه من الرب فتصنع منه الحلواء ويجلب ذلك الرب أيضا الى مصر والشام وبها البطيخ المنسوب اليها وهو طيب عجيب والمسجد الجامع فى نهاية من الاتقان والحسن وفى وسطه بركة ماء عذب ـ ثم سافرت منها الى مدينة عجلون (وهى بفتح العين المهملة) وهى مدينة حسنة لها أسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب ـ ثم سافرت منها بقصد اللاذقية فمررت بالغوير وهو واد بين تلال به قبر أبي عبيدة بن الجراح أمين هذه الامة رضى الله عنه زرناه وعليه زاوية فيها الطعام لابناء السبيل ـ وبتنا هنالك ليلة ـ ثم وصلنا الى القصير وبه قبر معاذ بن جبل رضى الله عنه تبركت أيضا بزيارته ثم سافرت على الساحل فوصلت الى مدينة عكة وهى خراب وكانت عكة قاعدة بلاد الافرنج بالشام ومرسى سفنهم وتشبه قسطنطينية العظمى وبشرقيها عين ماء تعرف بعين البقر يقال ان الله تعالى أخرج منها البقر لآدم عليه السلام وينزل اليها فى درج وكان عليها مسجد بقي منه محرابه وبهذه المدينة قبر صالح عليه السلام ـ ثم سافرت منها الى مدينة صور وهى خراب وبخارجها قرية معمورة وأكثر اهلها أرفاض ولقد نزلت بها مرة على بعض المياه أريد الوضوء فاتى بعض اهل تلك القرية ليتوضا فبدأ بغسل رجليه ثم غسل وجهه ولم يتمضمض ولا استنشق ثم مسح بعض رأسه فاخذت عليه فى فعله فقال لى ان البناء انما يكون ابتداؤه من الاساس ومدينة صور هى التي يضرب بها المثل فى الحصانة والمنعة لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها ولها بابان أحدهما للبر والثانى للبحر ولبابها الذى يشرع للبر أربعة فصلات كلها فى ستائر محيطة بالباب وأما الباب الذى للبحر فهو بين برجين عظيمين وبناؤها ليس فى بلاد الدنيا أعجب ولا أغرب شانا

Digitized by Birzeit University Library

منه لان البحر محيط بها من ثلاث جهاتها وعلى الجهة الرابعة سور تدخل السفن تحت السور وترسو هنالك وكان فيما تقدم بين البرجين سلسلة حديد معترضة لا سبيل الى الداخل هنالك ولا الى الخارج الا بعد حطها وكان عليها الحراس والامناء فلا يدخل داخل ولا يخرج خارج الا على علم منهم وكان لعكة أيضا ميناء مثلها ولكنها لم تكن تحمل الا السفن الصغار — ثم سافرت منها الى مدينة صيدا وهى على ساحل البحر حسنة كثيرة الفواكه يحمل منها التين والزبيب والزيت الى بلاد مصر نزلت عند قاضيها كمال الدين الاشموني المصرى وهو حسن الاخلاق كريم النفس — ثم سافرت منها الى مدينة طبرية وكانت فيما مضى مدينة كبيرة ضخمة ولم يبق منها الا رسوم تنبىء عن ضخامتها وعظم شانها وبها الحمامات العجيبة لها بيتان أحدهما للرجال والثانى للنساء وماؤها شديد الحرارة ولها البحيرة الشهيرة طولها نحو ستة فراسخ وعرضها ازيد من ثلاثة فراسخ وبطبرية مسجد يعرف بمسجد الانبياء فيه قبر شعيب عليه السلام وبنته زوج موسى الكليم عليه السلام وقبر سليمان عليه السلام وقبر يهودا وقبر روبيل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليهم وقصدنا منها زيارة الجب الذي ألقى فيه يوسف عليه السلام وهو فى صحن مسجد صغير وعليه زاوية والجب كبير عميق شربنا من مائه المجتمع من ماء المطر وأخبرنا قيمه أن الماء ينبع منه أيضا ثم سرنا الى مدينة بيروت وهى صغيرة حسنة الاسواق وجامعها بديع الحسن ونجلب منها الى ديار مصر الفواكه والحديد وقصدنا منها زيارة أبي يعقوب يوسف الذى يزعمون انه من ملوك المغرب وهو بموضع يعرف بكرك نوح من بقاع العزيز وعليه زاوية يطعم بها الوارد والصادر ويقال ان السلطان صلاح الدين وقف عليها الاوقاف وقيل السلطان نور الدين وكان من الصالحين ويذكر انه كان ينسج الحصر ويقتات بثمنها

— حكاية أبي يعقوب يوسف المذكور —

يحكي انه دخل مدينة دمشق فمرض بها مرضا شديدا واقام مطروحا بالاسواق فلما برىء من مرضه خرج الى ظاهر دمشق ليلتمس بستانا يكون حارسا له فاستؤجر لحراسة بستان للملك نور الدين واقام فى حراسته ستة اشهر فلما كان فى اوان الفاكهة أتى السلطان الى ذلك البستان وأمر وكيل البستان أبا يعقوب ان ياتي برمان يأكل منه السلطان فاتاه برمان فوجده حامضا فامره ان ياتي بغيره ففعل ذلك فوجده أيضا حامضا فقال له الوكيل اتكون فى حراسة هذا البستان منذ ستة اشهر ولا تعرف الحلو من الحامض فقال انما استاجرتني على الحراسة لا على الاكل فاتى الوكيل الى الملك فاعلمه بذلك فبعث اليه الملك

Digitized by Birzeit University Library

وكان قد رأى في المنام انه يجتمع مع أبي يعقوب وتحصل له منه فائدة فتفرس انه هو فقال له أنت أبو يعقوب قال نعم فقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه ثم احتمله الى مجلسه فاضافه باضيافة من الحلال المكتسب بكديمينه وأقام عنده أياما ثم خرج من دمشق فاراً بنفسه في أوان البرد الشديد فاتى قرية من قراها وكان بها رجل من الضعفاء فعرض عليه النزول عنده ففعل وصنع له مرقة وذبح دجاجة فاتاه بها وبخبز شعير فاكل من ذلك ودعا للرجل وكان عنده جملة أولاد منهم بنت قد آن بناء زوجها عليها ومن عوائدهم في تلك البلاد ان البنت يجهزها أبوها ويكون معظم الجهاز أواني النحاس وبه يتفاخرون وبه يتباهون فقال أبو يعقوب للرجل هل عندك شيء من النحاس قال نعم قد اشتريت منه لتجهيز هذه البنت قال ائتني به فاتاه به فقال له استعر من جيرانك ما أمكنك منه ففعل وأحضر ذلك بين يديه فاوقد عليه النيران وأخرج صرة كانت عنده فيها الاكسير فطرح منه على النحاس فعاد كله ذهبا وتركه في بيت مقفل وكتب كتابا الى نور الدين ملك دمشق يعلمه بذلك وينبهه على بناء مارستان للمرضى من الغرباء ويوقف عليه الاوقاف ويبني الزوايا بالطرق ويرضي أصحاب النحاس ويعطي صاحب البيت كفايته وقال له في آخر الكتاب وان كان ابراهيم بن أدهم قد خرج عن ملك خراسان فانا قد خرجت من ملك المغرب وعن هذه الصنعة والسلام وفر من حينه وذهب صاحب البيت بالكتاب الى الملك نور الدين فوصل الملك الى تلك القرية واحتمل الذهب بعد ان أرضى أصحاب النحاس وصاحب البيت وطلب أبا يعقوب فلم يجد له أثرا ولا وقع له على خبر فعاد الى دمشق وبنى المارستان المعروف باسمه الذي ليس في المعمور مثله ثم وصلت الى مدينة طرابلس وهي احدى قواعد الشام وبلدانها الضخام تخترقها الأنهار . وتحفها البساتين والأشجار . ويكنفها البحر بمرافقه العميمه والبر بخيراته المقيمه . ولها الاسواق العجيبة . والمسارح الخصيبة . والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء — وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر وتملكها الروم زمانا فلما استرجعها الملك الظاهر خربت واتخذت هذه الحديثة وبهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الاتراك وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الامراء ومسكنه منه بالدار المعروفة بدار السعادة ومن عوائده ان يركب في كل يوم اثنين وخميس ويركب معه الامراء والعساكر ويخرج الى ظاهر المدينة فاذا عادا اليها وقارب الوصول الى منزله ترحل الامراء ونزلوا عن دوابهم ومشوا بين يديه حتى يدخل منزله وينصرفون وتضرب الطبلخانة عند دار كل امير منهم بعد صلاة المغرب من كل يوم وتوقد المشاعل وممن كان بها من الاعلام كاتب السر بهاء

الدين بن غانم احد الفضلاء الحسباء معروف بالسخاء والكرم وأخوه حسام الدين هو شيخ القدس الشريف وقد ذكرناه وأخوهما علاء الدين كاتب السر بدمشق. ومنهم وكيل بيت المال قوام الدين بن مكين من أكابر الرجال. ومنهم قاضي قضاتها شمس الدين بن النقيب من أعلام علماء الشام و بهذه المدينة حمامات حسان منها حمام القاضي القرمي وحمام سندمور وكان سندمور أمير هذه المدينة و يذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الجنايات منها ان امرأة شكت اليه بان أحد مماليكه الخواص تعدي عليها في لبن كانت تبيعه فشر به ولم تكن لها بينة فامر به فوسط فخرج اللبن من مصرانه. وقد اتفق مثل هذه الحكاية للعتريس أحد أمراء الملك الناصر أيام إمارته على عيذاب واتفق مثلها للملك كبك سلطان تركستان ـ ثم سافرت من طرابلس الى حصن الاكراد وهو بلد صغير كثير الاشجار والانهار باعلى تل و به زاوية تعرف بزاوية الابراهيمي نسبة الى بعض كبراء الامراء ونزلت عند قاضيها ولا أحقق الآن اسمه ـ ثم سافرت الى مدينة حمص وهي مدينة مليحة أرجاؤها مونقة وأشجارها مورقة وأنهارها متدفقة واسواقها فسيحة الشوارع وجامعها متميز بالحسن الجامع وفي وسطه بركة ماء وأهل حمص عرب لهم فضل وكرم وبخارج هذه المدينة قبر خالد ابن الوليد سيف الله ورسوله وعليه زاوية ومسجد وعلى القبر كسوة سوداء وقاضي هذه المدينة جمال الدين الشريشي من أجمل الناس صورة واحسنهم سيرة ثم سافرت منها الى مدينة حماة احدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ذات الحسن الرائق والجمال الفائق تحفها البساتين والجنات عليها النواعير كالافلاك الدائرات يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي ولهار بض سمي بالمنصورية اعظم من المدينة فيه الاسواق الحافلة والحمامات الحسان وبحماة الفواكه الكثيرة ومنها المشمش اللوزي اذا كسرت نواته وجدت في داخلها لوزة حلوة قال ابن جزي وفي هذه المدينة ونهرها ونواعيرها و بساتينها يقول الاديب الرحال نور الدين ابو الحسن علي بن موسى بن سعيد العنسي العماري الغرناطي نسبة لعمار بن ياسر رضي الله عنه

(طويل)

حمى الله من شطي حماة مناظرا * وقفت عليها السمع والفكر والطرفا
تغني حمام أو تميل خمائل * وتزهي مباني تمنع الواصف الوصفا
يلومونني أن أعصي الصون والنهى * وأطيع الكأس واللهو والقصفا
اذا كان فيها النهر عاص فكيف لا * أحاكيه عصيانا وأشربها صرفا
وأشدو لدى تلك النواعر شدوها * وأغلبها رقصاً وأشبهها غرفا

Digitized by Birzeit University Library

تئن وتذرى دمعها فكأنها * تهيم بمرآها وتسالها العطفا

ولبعضهم فى نواعيرها ذاهبا مذهب التورية (طويل)

وناعورة رقت لعظم خطيئتى * وقد عاينت قصدى من المنزل القاصي
بكت رحمة لى ثم باحت بشجوها * وحسبك ان الخشب تبكى على العاصى

ولبعض المتاخرين فيها أيضاً من التورية (كامل)

ياسادة سكنوا حماة وحقكم * ماحلت عن تقوى وعن اخلاصي
والطرف بعدكم اذا ذكر اللقا * يجري المدامع طائعاً كالعاصي

(رجع)- ثم سافرت الى مدينة المعرة التى ينسب اليها الشاعر أبو العلاء المعري وكثير سواه من الشعراء قال ابن جزى وانما سميت بمعرة النعمان لان النعمان بن بشير الانصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي له ولد أيام امارته على حمص فدفنه بالمعرة فعرفت به وكانت قبل ذلك تسمي ذات القصور وقيل ان النعمان جبل مطل عليها سميت به (رجع) والمعرة مدينة كبيرة حسنة أكثر شجرها التين والفستق ومنها يحمل الى مصر والشام ويخارجها على فرسخ منها قبر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا زاوية عليه ولا خديم له* وسبب ذلك انه وقع فى بلاد صنف من الرافضة ارجاس يبغضون العشرة من الصحابة رضى الله عنهم ولعن مبغضهم ويبغضون كل من اسمه عمر وخصوصا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما كان من فعله فى تعظيم على رضى الله عنه- ثم سرنا منها الى مدينة سرمين وهى حسنة كثيرة البساتين وأكثر شجرها الزيتون وبها يصنع الصابون الاجرى ويجلب الى مصر والشام ويصنع بها أيضا الصابون المطيب لغسل الايدى ويصبغونه بالحمرة والصفرة ويصنع بها ثياب قطن حسان تنسب اليها وأهلها سبابون يبغضون العشرة ومن العجب أنهم لا يذكرون لفظ العشرة وينادى سماسرتهم بالاسواق على السلع فاذا بلغوا الى العشرة قالوا تسعة وواحد وحضر بها بعض الاتراك يوما فسمع سمسارا ينادى تسعة وواحد فضربه بالدبوس على رأسه وقال قل عشرة بالدبوس وبها مسجد جامع فيه تسع قباب ولم يجعلوها عشرة قياما بمذهبهم القبيح- ثم سرنا الى مدينة حلب المدينة الكبري والقاعدة العظمى قال أبو الحسين بن جبير فى وصفها قدرها خطير وذكرها في كل زمان يطير خطابها من الملوك كثير ومحلها من النفوس أثير فكم هاجت من كفاح وسل عليها من بيض الصفاح لها قلعة شهيرة الامتناع بائنة الارتفاع فنزهت حصانة من ان ترام أو تستطاع منحوتة الاجزاء موضوعة على نسبة اعتدال واستواء قد طاولت الايام

Digitized by Birzeit University Library

والاعوام ووسعت الخواص والعوام اين أمراؤها الحمدانيون وشعراؤها في جميعهم ولم يبق إلا بناؤها فيا عجبا لبلاد تبقي ويذهب ملاكها ويهلكون ولا يقضى هلاكها وتخطب بعدهم فلا يتعذر املاكها وترام فيتيسر باهون شيء ادراكها هذه حلب كم ادخلت ملوكها في خبر كان ونسخت صرف الزمان بالمكان أنث اسمها فتحلت بحلية الغوان واتت بالعذر فيمن دان وانجلت عروسا بعد سيف دولتها ابن حمدان هيهات سيهرم شبابها ويعدم خطابها ويسرع فيها بعد حين خرابها وقلعة حلب تسمى الشهباء وبداخلها جبلان ينبع منهما الماء فلا تخاف الظما ويطيف بها سوران وعليها خندق عظيم ينبع منه الماء وسورها متداني الابراج وقد انتظمت بها العلالي العجيبة المفتحة الطيقان وكل برج منها مسكون والطعام لا يتغير بهذه القلعة على طول العهد وبها مشهد يقصده بعض الناس يقال ان الخليل عليه السلام كان يتعبد به وهذه القلعة تشبه قلعة رحبة مالك ابن طوق التي علي الفرات بين الشام والعراق ولما قصد قازان طاغية التتر مدينة حلب حاصر هذه القلعة اياما ونكص عنها خائباً قال ابن جزي وفي هذه القلعة يقول الخالدي شاعر سيف الدولة

وخرقاء قد قامت على من برومها * بمرقبها العالى وجانبها الصعب
يجر عليها الجواجيب غمامة * ويلبثها عقداً بانجمه الشهب
اذا ماسرى برق بدت من خلاله * كما لاحت العذراء من خلل السحب
فكم من جنود قد أماتت بغصة * وذى سطوات قد أبانت على عقب

وفيها يقول أيضاً وهو من بديع النظم (بسيط)

وقلعة عانق العنقاء سافلها * وجاز منطقة الجوزاء عاليها
لا تعرف القطر اذ كان الغمام لها * أرضاً توطا قطريه مواشيها
اذا الغمامة راحت غاض ساكنها * حياضها قبل ان تهمى عواليها
يعد من أنجم الافلاك مرقبها * لو انه كان يجري في مجاريها
ردت مكايد أقوام مكايدها * ونصرت لدواهيهم دواهيها

وفيها يقول جمال الدين علي بن أبي المنصور (كامل)

كادت لبون سموها وعلوها * تستوقف الفلك المحيط الدائرا
وردت قواطنها المجرة منهلا * ورعت سوابقها النجوم زواهرا
ويظل صرف الدهر منها خائفا * رجلا فما يمسى لديها حاضرا

Digitized by Birzeit University Library

(رجع) و يقال فى مدينة حلب حلب ابراهيم لان الخليل صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه كان يسكنها وكانت له الغنم الكثيرة فكان يسقى الفقراء والمساكين والوارد والصادر من البانها فكانوا يجتمعون و يسالون حلب ابراهيم فسميت بذلك وهي من أعز البلاد التي لا نظير لها فى حسن الوضع واتقان الترتيب واتساع الاسواق وانتظام بعضها ببعض وأسواقها مسقفة بالخشب فاهلها دائما فى ظل ممدود وقيسارياتها لا تماثل حسنا وكبرا وهي تحيط بمسجدها وكل سماط منها محاذ لباب من أبواب المسجد ومسجدها الجامع من أجمل المساجد فى صحنه بركة ماء و يطيف به بلاط عظيم الاتساع ومنبرها بديع العمل مرصع بالعاج والآبنوس و بقرب جامعها مدرسة مناسبة له فى حسن الوضع واتقان الصنعة ينسب لامراء بني حمدان و بالبلد سواها ثلاث مدارس و بها مارستان وأما خارج المدينة فهو بسيط أفيح عريض به المزارع العظيمة وشجرات الاعناب منتظمة به والبساتين على شاطيء نهرها وهو النهر الذى يمر بحماة و يسمى العاصى وقيل انه سمي بذلك لانه يخيل لناظره ان جريانه من أسفل الى علو والنفس تجد فى خارج مدينة حلب انشراحا وسرورا ونشاطا لا يكون فى سواها وهي من المدن التى تصالح للخلافة قال ابن جزى أطنبت الشعراء فى وصف محاسن حلب وذكر داخلها وخارجها وفيها يقول أبو عبادة البحتري (كامل)

يا برق أسفر عن فويق مطالبى * حلب فاعلى القصر من بطياس
عن منبت الورد المعصفر صيغة * فى كل ضاحية ومجني الآس
أرض اذا استوحشتكم بتذكر * حشدت على فاكثرت اينا سى

وقال فيها الشاعر المجيد أبو بكر الصنوبرى (متقارب)

سقى حلب المزن مغنى حلب * فكم وصلت طربا بالطرب
وكم مستطاب من العيش لذ * بها اذ بها العيش لم يستطب
اذا نشر الزهر أعلامه * بها ومطارفه والعذب
غدا وحواشيه من فضة * تروق وأوساطه من ذهب

وقال فيها أبو العلاء المعرى (خفيف)

حلب للورّاد جنة عدن * وهي للغادرين نار سعير
والعظيم العظيم يكبر فى عيـ * ـنيه منها قدر الصغير الصغير
فقويق فى أنفس القوم بحر * وحصاة منه مكان ثبير

وقال فيها أبو الفتيان بن جبوس

مكتبة كلية بير زيت
مكتبة جامعة بيرزيت
Digitized by Birzeit University Library

ياصاحبي اذا أعبا كاسقمي * فلقيساني نسيم الريح من حلب
من البلاد التي كان الصبا سكنا * فيها وكان الهوا العذرى من أربى

(متقارب)

وقال فيها أبو الفتح كشاجم

وما أمتعت جارها بلدة * كما أمتعت حلب جارهـا
بهـا قـد تجمع ماتشتهى * فزرهـا فطوبى لمن زارهـا

(خفيف)

وقال فيها أبو الحسن على بن موسى بن سعيد الغرناطى العنسى

حادى العيس كم تنيخ المطايا * سق بروحى من بعدهم فى سياق
حلب انهـا مقر غـرامى * ومرامى وقبـلة الاشـواق
لك خلاجوشن وبطياس والعبد * ومن كل وابل غيـداق
كم بهـا مرتع لطرف وقلب * فيـه سقى المنى بكاس دهـاق
وتغنى طيورهـا لارتيـاح * وتثنى غصونهـا للعنـاق
وعلا الشهباء حيث استدارت * أنجم الافق حولهـا كالنطاق

(رجع) و بحلب ملك الامراء أرغون الدوادار أكبر أمراء الملك الناصر وهو من الفقهاء موصوف بالعدل لكنه بخيل والقضاة بحلب أربعة للمذاهب الاربعة فمنهم القاضى كمال الدين بن الزملكانى شافعي المذهب عالى الهمة كبير القدر كريم النفس حسن الاخلاق متفنن بالعلوم وكان الملك الناصر قد بعث اليه ليوليه قضاء القضاة بحضرة ملكه فلم يقض له ذلك وتوفى ببلبيس وهو متوجه اليها ولما ولى قضاء حلب قصدته الشعراء من دمشق وسواها وكان فيمن قصده شاعر الشام شهاب الدين أبو بكر محمد ابن الشيخ المحدث شمس الدين أبى عبد الله محمد بن نباتة القرشي الاموي الفارقى فامتدحه بقصيدة طويلة حافلة اولها (كامل)

اسفت لفقـدك جلق الفيحاء * وتبـاشرت لقدومك الشهباء
وعلا دمشق وقد رحلت كآبة * وعـلا ربا حلب سنـا وسناء
قد اشرقت دار سكنت فناءها * حتى غدت ولنـورها لألاء
ياسائرا سـقى المكارم والعلى * ممن يبخل عنده الكرماء
هـذا كمال الدين لذ بجنابه * تنـم فثم الفضـل والنعماء
قاضى القضـاة اجل من ايامه * تغـني بهـا الايتـام والفقراء
قاض زكا اصلا وفرعا فاعتلى * شرفت به الآباء والابنـاء
من الاله على بنى حلب به * لله وضع الفضل حيث يشاء

Digitized by Birzeit University Library

كشف المعمي فهمه و بيانه * فكأنما ذاك الذكاء ذكاء

ياحاكم الحكام قدرك سابق * عن ان تسرك رتبة شماء

ان المناصب دون همتك التى * فى الفضل دون محلها الجوزاء

لك فى العلوم فضائل مشهورة * كالصبح شق له الظلام ضياء

ومناقب شهد العدو بفضلها * والفضل ماشهدت به الاعداء

وهي أزيد من خمسين بيتا وأجازه عليها بكسوة ودراهم وانتقد عليه الشعراء ابتداءه بلفظ أسفت قال ابن جزي وليس كلامه فى هذه القصيدة بذاك وهو فى المقطعات أجود منه فى القصائد واليه انتهت الرياسة فى الشعر على هذا العهد فى جميع بلاد المشرق وهو من ذرية الخطيب أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة منشى الخطب الشهيره ومن بديع مقطعاته فى التورية قوله

— كامل —

علقتها غيداء حالية العلى * تجنى على عقل المحب وقلبه

بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم * فغدت مطوقة بما تخلت به

(رجع) ومن قضاة حلب قاضى قضاة الحنفية الامام المدرس ناصر الدين بن العديم حسن الصورة والسيرة أصيل مدينة حلب

— كامل —

تراه اذا ماجئته متهللا * كانك تعطيه الذي أنت سائله

ومنهم قاضي قضاة المالكية لا أذكره كان من الموثقين بمصر وأخذ الخطة عن غير استحقاق ومنهم قاضى قضاة الحنابلة لا أذكر اسمه وهو من أهل صالحية دمشق ونقيب الاشراف بحلب بدر الدين بن الزهراء ومن فقائها شرف الدين بن العجمي وأقام به هم كبراء مدينة حلب — ثم سافرت منها الى مدينة تيزين وهي على طريق قنسرين (وضبط اسمها بتاء معلوة مكسورة وياء مدوزاى مكسورة وياء مدثانية ونون) وهى حديثة اتخذها التركمان وأسواقها حسان ومساجدها فى نهاية من الاتقان وقاضيها بدر الدين العسقلاني وكانت مدينة قنسرين قديمة كبيرة ثم خربت ولم يبق الا رسومها ثم سافرت الى مدينة انطاكية وهى مدينة عظيمة أصلية وكان عليها سور محكم لا نظير له فى أسوار بلاد الشام فلما افتتحها الملك الظاهر هدم سورها وانطاكية كثيرة العمارة ودورها حسنة البناء كثيرة الاشجار والمياه وبخارجها نهر العاصى وبها قبر حبيب النجار رضى الله عنه وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر شيخها الصالح المعمر محمد بن على سنه ينيف على المائة وهو ممتع بقوته دخلت عليه مرة فى بستان له وقد جمع حطبا ورفعه على كاهله ليأتى به منزله بالمدينة

Digitized by Birzeit University Library

ورأيت ابنه قد أناف على الثمانين الا انه محدود الظهر لا يستطيع النهوض ومن يراهما يظن الوالد منهما ولدا والولد والدا ـ ثم سافرت الى حصن بغراس (وضبط اسمه بباء موحدة مضمومة وغين معجمة مسكنة وراء وآخره سين مهمل) وهو حصن منيع لا يرام عليه البساتين والمزارع ومنه يدخل الى بلاد سيس وهي بلاد كفار الارمن وهم رعية للملك الناصر يؤدون اليه مالا ودراهمهم فضة خالصة تعرف بالبغلية وبها تصنع الثياب الدبزية وأمير هذا الحصن صارم الدين بن الشيباني وله ولد فاضل اسمه علاء الدين وابن أخ اسمه حسام الدين فاضل كريم يسكن الموضع المعروف بالرصص (بضم الراء والصاد المهمل الاول) ويحفظ الطريق الى بلاد الارمن

— حكاية —

شكا الارمن مرة الى الملك الناصر من الامير حسام الدين وزوروا عليه أمورا لا تليق فنفذ أمره لامير الامراء بحلب ان يخنقه فلما توجه الامير بلغ ذلك صديقا له من كبار الامراء فدخل على الملك الناصر وقال يا خوند ان الامير حسام الدين هو من خيار الامراء ينصح للمسلمين ويحفظ الطريق وهو من الشجعان والارمن يريدون الفساد في بلاد المسلمين فيمنعهم ويقهرهم وانما أرادوا اضعاف شوكة المسلمين بقتله ولم يزل به حتى أنفذ أمرا ثانيا باستراحه والخنع عليه ورده لموضعه ودعا الملك الناصر بريديا يعرف بالافوش وكان لا يبعث الا في مهم أمره بالاسراع والجد في السير فسار من مصر الى حلب في خمس وهي مسيرة شهر فوجد امير حلب قد أحضر حسام الدين وأخرجه الى الموضع الذي يخنق به الناس فخلصه الله تعالى وعاد الى موضعه ولقيت هذا الامير ومعه قاضي بغراس شرف الدين الحموي بموضع يقال له العمق متوسط بين انطاكية وتيزين و بغراس ينزله التركمان بموا شيهم لخصبه وسعته ثم سافرت الى حصن القصير تصغير قصر وهو حصن حسن أميره علاء الدين الكردي وقاضيه شهاب الدين الارمنتي من أهل الديار المصرية ـ ثم سافرت الى حصن الشغر بكاس (وضبط اسمه بضم الشين المعجم واسكان الغين المعجم وضم الراء والباء الموحدة وآخره سين مهملة) وهو منيع في رأس شاهق امير سيف الدين الطنطاش فاضل وقاضيه جمال الدين بن شجرة من أصحاب ابن تيمية ـ ثم سافرت الى مدينة صهيون وهي مدينة حسنة بها الانهار المطردة والاشجار المورقة وطها قلعة جيدة وامير ها يعرف بالابراهيمي وقاضيها محيي الدين الحمصي وبخارجها زاوية في وسط بستان فيها الطعام للوارد والصادر وهي على قبر الصالح العابد عيسى البدوي رحمه الله وقد زرت قبره ثم سافرت منها فررت بحصن القدموس (وضبط اسمه بفتح القاف واسكان الدال المهمل

Digitized by Birzeit University Library

وضم الميم وآخره سين مهمل) ثم بحصن المينقة (وضبط اسمه بفتح الميم واسكان الياء وفتح النون والقاف) ثم بحصن العليقة واسمه على لفظ واحدة العليق ثم بحصن مصياف (وصاده مهملة) ثم بحصن الكهف وهذه الحصون لطائفة يقال لهم الاسماعيلية ويقال لهم الفداوية ولا يدخل عليهم أحد من غيرهم وهم سهام الملك الناصر بهم يصيب من يعدو عنه من اعدائه بالعراق وغيرها ولهم المرتبات واذا أراد السلطان ان يبعث احدهم الى اغتيال عدوله أعطاه دينه فان سلم بعد تأتى مايراد منه فهى له وان أصيب فهى لولده ولهم سكاكين مسمومة يضربون بها من يعثوا الى قتله وربما لم تصح حيلهم فقتلوا كما جرى لهم مع الامير قراسنقور فانه لما هرب الى العراق بعث اليه الملك الناصر جملة منهم فقتلوا ولم يقدروا عليه لاخذه بالحزم

— حكاية —

كان قراسنقور من كبار الامراء وممن حضر قتل الملك الاشرف أخى الملك الناصر وشارك فيه ولما تمهد الملك للملك الناصر وقر به القرار واشتدت أواخى سلطانه جعل يتتبع قتلة اخيه فيقتلهم واحدا واحدا أظهارا للاخذ بثار أخيه وخوفا أن يتجاسروا عليه بما تجاسروا على أخيه وكان قراسنقور أمير الامراء بحلب فكتب الملك الناصر الى جميع الامراء أن ينفروا بعساكرهم وجعل لهم ميعاداً يكون فيه اجتماعهم بحلب ونزولهم عليها حتى يقبضوا عليه فلما فعلوا ذلك خاف قراسنقور على نفسه وكان له ثمانمائة مملوك فركب فيهم وخرج على العساكر صبحا حافا خترقهم وأعجزهم سبقا وكانوا في عشر بن ألفاً وقصد منزل أمير العرب مهنا بن عيسى وهو على مسيرة يومين من حلب وكان مهنا فى قنص له فقصد بيته ونزل عن فرسه وألقى العمامة في عنق نفسه ونادي الجوار يا أمير العرب وكانت هنالك أم الفضل زوج مهنا وبنت عمه فقالت له قد اجرناك وأجرنا من معك فقال انما أطلب اولادى ومالى فقالت له لك ماتحب فانزل فى جوارنا ففعل ذلك واتى مهنا فاحسن نزله وحكمه فى ماله فقال انما احب اهلى ومالى الذى تركته بحلب فدعا مهنا باخوته وبنى عمه فشاورهم فى امره فمنهم من اجابه الى ماأراد ومنهم من قال له كيف تحارب الملك الناصر ونحن فى بلاده بالشام فقال لهم مهنا أما انا فافعل لهذا الرجل مابريده وأذهب معه الى سلطان العراق وفى أثناء ذلك ورد عليهم الخبر بان أولاد قراسنقور سيروا على البريد الى مصر فقال مهنا لقراسنقور أما اولادك فلا حيلة فيهم واما مالك فنجتهد فى خلاصه فركب فيمن أطاعه من اهله واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين ألفا وقصدوا حلب فاحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها واستخلصوا منها مال قراسنقور ومن بقى من أهله ولم

يتعدوا الى سوي ذلك وقصدوا ملك العراق وصحبهم أمير حمص الافرم ووصلوا الى الملك محمد خدابنده سلطان العراق وهو بموضع مصيفه المسمي قراباغ (بفتح القاف والراء والباء الموحدة والغين المعجمة) وهو ما بين السلطانية وتبريز فاكرم نزلهم وأعطى مهنا عراق العرب وأعطي قراسنقور مدينة مراغة من عراق العجم وتسمى دمشق الصغيرة وأعطي الافرم همدان وأقاموا عنده مدة مات فيها الافرم وعاد مهنا الى الملك الناصر بعد مواثيق وعهود أخذها منه وبقي قراسنقور على حاله وكان الملك الناصر يبعث له الفداوية مرة بعد مرة فمنهم من يدخل عليه داره فيقتل دونه ومنهم من يرمي بنفسه عليه وهو راكب فيضربه وقتل بسببه من الفداوية جماعة وكان لا يفارق الدرع أبدا ولا ينام الا في بيت العود والحديد فلما مات السلطان محمد وولى ابنه ابو سعيد وقع ما سنذكره من امر الجوبان كبير امرائه وفرار ولده الدمرطاش الى الملك الناصر ووقعت المراسلة بين الملك الناصر وبين ابي سعيد واتفقا على ان يبعث ابو سعيد الى الملك الناصر برأس قراسنقور ويبعث اليه الملك الناصر برأس الدمرطاش فبعث الملك الناصر برأس الدمرطاش الى ابي سعيد فلما وصله امر بحمل قراسنقور اليه فلما عرف قراسنقور بذلك اخذ خاتما كان له مجوفا في داخله سم ناقع فنزع فصه وامتص ذلك السم فمات لحينه فعرف ابو سعيد بذلك الملك الناصر ولم يبعث له برأسه ثم سافرت من حصون الفداوية الى مدينة جبلة وهي ذات انهار مطردة واشجار والبحر على نحو ميل منها وبها قبر الولي الصالح الشهير ابراهيم بن ادهم رضي الله عنه وهو الذي نبذ الملك وانقطع الى الله تعالى حسبما شهر ذلك ولم يكن ابراهيم من بيت ملك كما يظنه الناس انما ورث الملك عن جده أبي أمه وأما أبوه أدهم فكان من الفقراء الصالحين السائحين المتعبدين الورعين المنقطعين

— حكاية أدهم —

يذكر انه مرذات يوم ببساتين مدينة بخارى وتوضا من بعض الانهار التي تتخللها فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر فقال هذه لا خطر لها فأكلها ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس فعزم على ان يستحل من صاحب البستان فقرع باب البستان فخرجت اليه جارية فقال لها ادعى لي صاحب المنزل فقالت انه لا مرأة فقال استأذني لي عليها ففعلت فاخبر المرأة بخبر التفاحة فقالت له ان هذا البستان نصفه لي ونصفه للسلطان والسلطان يومئذ ببلخ وهي مسيرة عشرة من بخاري وأحلته المرأة من نصفها وذهب الى بلخ فاعترض السلطان في موكبه فاخبره الخبر واستحله فامره ان يعود اليه من الغد وكان للسلطان بنت بارعة الجمال قد

Digitized by Birzeit University Library

خطبها ابناء الملوك فتمنعت وحببت اليها العبادة وحب الصالحين وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهد في الدنيا فلما عاد السلطان إلى منزله أخبر بنته بخبر أدهم وقال ما رأيت أورع من هذا يأتي من بخارى الى بلخ لاجل نصف تفاحة فرغبت في تزوجه فلما أتاه من الغد قال لا أحلك إلا أن تتزوج بنتي فانقاد لذلك بعد استعصاء وتمنع فتزوج منها فلما دخل عليها وجدها متزينة والبيت مزين بالفرش وسواها فعمد الى ناحية من البيت وأقبل على صلاته حتى أصبح ولم يزل كذلك سبع ليال وكان السلطان ما أحله قبل فبعث اليه أن يحله فقال لا أحلك حتى يقع اجتماعك بزوجتك فلما كان الليل واقعها ثم اغتسل وقام الى الصلاة فصاح صيحة وسجد في مصلاه فوجد ميتا رحمه الله وحملت منه فولدت ابراهيم ولم يكن لجده ولد فاسند الملك اليه وكان من تخليه عن الملك ما اشتهر وعلى قبر ابراهيم بن أدهم زاوية حسنة فيها بركة ماء وبها الطعام للصادر والوارد وخادمها ابراهيم الجمحي من كبار الصالحين والناس يقصدون هذه الزاوية ليلة النصف من شعبان من سائر أقطار الشام ويقيمون بها ثلاثا ويقوم بها خارج المدينة سوق عظيم فيه من كل شيء ويقدم الفقراء المتجردون من الآفاق بحضورهذا الموسم وكل من يأتي من الزوار لهذه التربة يعطي لخادمها شمعة فيجتمع من ذلك قناطير كثيرة وأكثر أهل هذه السواحل هم الطائفة النصيرية الذين يعتقدون أن علي بن أبي طالب إله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون وكان الملك الظاهر ألزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا بكل قرية مسجدا بعيدا عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه وربما آوت اليه مواشيهم ودوابهم وربما وصل الغريب اليهم فينزل بالمسجد ويؤذن للصلاة فيقولون له لا تنهق علفك يأتيك وعددهم كثير — حكاية —

ذكر لي أن رجلا مجهولا وقع ببلاد هذه الطائفة فادعى الهداية وتكاثروا عليه فوعدهم بتملك البلاد وقسم بينهم بلاد الشام وكان يعين لهم البلاد ويأمرهم بالخروج اليها ويعطيهم من ورق الزيتون ويقول لهم استظهروا بها فانها كالاوامر لكم فاذا خرج احدهم إلى بلد أحضره أميرها فيقول له إن الامام المهدي أعطاني هذا البلد فيقول له أين الامر فيخرج ورق الزيتون فيضرب ويحبس ثم إنه أمرهم بالتجهيز لقتال المسلمين وان يبدأوا بمدينة جبلة وأمرهم ان ياخذوا عوض السيوف قضبان الآس ووعدهم أنها تصير في أيديهم سيوفا عند القتال فغدروا مدينة جبلة وأهلها في صلاة الجمعة فدخلوا الدور وهتكوا الحريم ونار المسلمون من مسجدهم فاخذوا السلاح وقتلوهم كيف شاؤا واتصل الخبر بالاذقية فاقبل أميرها بها درعبدالله بعسكره وطيرت الحمام إلى طرابلس فاتى أمير الامراء

بعساكره وأتبعوهم حتي قتلوا منهم نحو عشرين الفا وتحصن الباقون بالجبال وراسلوا ملك الامراء والتزموا ان يعطوه دينارا عن كل رأس ان هو حاول ابقاءهم وكان الخبر قد طير به الحمام الى الملك الناصر وصدر جوابه ان يحمل عليهم السيف فراجعه ملك الامراء وألقى له انهم عمال المسلمين فى حراثة الارض وانهم ان قتلوا ضعف المسلمون لذلك فامر بالابقاء عليهم ثم سافرت الى مدينة اللاذقية وهى مدينة عتيقة على ساحل البحر يزعمون انها مدينة الملك الذى كان ياخذ كل سفينة غصبا وكنت انما قصدتها لزيارة الولى الصالح عبد المحسن الاسكندرى فلما وصلتها وجدته غائبا بالحجاز الشريف فلقيت من أصحابه الشيخين الصالحين سعيد البجائى ويحيى السلاوي وهما بمسجد علاء الدين بن البهاء أحد فضلاء الشام وكبرائها صاحب الصدقات والمكارم وكان قد عمر لهما زاوية بقرب المسجد وجعل بها الطعام للوارد والصادر وقاضيها الفقيه الفاضل جلال الدين عبد الحق المصرى المالكي فاضل كريم تعلق بطيلان ملك الامراء فولاه قضاءها

— حكاية —

كان باللاذقية رجل يعرف بابن المؤيد هجاء لا يسلم أحد من لسانه متهم فى دينه مستخف يتكلم بالقبائح من الالحاد فعرضت له حاجة عند طيلان ملك الامراء فلم يقضها له فقصد مصر وتقول عليه أمورا شنيعة وعاد الى اللاذقية فكتب طيلان الى القاضى جلال الدين ان يتحيل فى قتله بوجه شرعى فدعاه القاضى الى منزله وباحثه واستخرج كامن الحاده فتكلم بعظائم أيسرها يوجب القتل وقد اعد القاضى الشهود خلف الحجاب فكتبوا عقدا بمقاله وثبت عند القاضي وسجن واعلم ملك الامراء بقضيته ثم اخرج من السجن وخنق على بابه ثم لم يلبث ملك الامراء طيلان ان عزل عن طرابلس وواليها الحاج قرطية من كبار الامراء وممن تقدمت له فيها الولاية وبينه وبين طيلان عداوة فجعل يتبع سقطاته وقام لديه اخوة ابن المؤيد شاكين من القاضى جلال الدين فامر به وبالشهود الذين شهدوا على ابن المؤيد فاحضروا وامر بخنقهم وأخرجوا الى ظاهر المدينة حيث يخنق الناس واجلس كل واحد منهم تحت مختنقه ونزعت عمائمهم ومن عادة امراء تلك البلاد انه متي امر احدهم بقتل احد من الناس يمر الحاكم من مجلس الامير سبقا على فرسه الى حيث المامور بقتله ثم يعود الى الامير فيكرر استئذانه يفعل ذلك ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث انفذ الامر فلما فعل الحاكم ذلك قامت الامراء فى المرة الثالثة وكشفوا رؤسهم وقالوا ايها الامير هذه سبة فى الاسلام يقتل القاضى والشهود فقيل الامير شفاعتهن وخلى سبيلهم

Digitized by Birzeit University Library

وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص وهو أعظم دير بالشام ومصر يسكنه الرهبان ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين فالنصاري يضيفونه وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين لا يدخلها أحد ولا يخرج منها حتى تحط له السلسلة وهي من أحسن المراسي بالشام — ثم سافرت الى حسن المرقب وهو من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك وميناه على جبل شامخ وخارجه بض ينزله الغرباء ولا يدخلون قلعته وافتتحه من أيدى الروم الملك المنصور قلاوون وعليه ولد ابنه الملك الناصر وكان قاضيه برهان الدين المصرى من أفاضل القضاة وكرمائهم ثم سافرت الى الجبل الاقرع وهو أعلى جبل بالشام وأول مايظهر منها من البحر وسكانه التركمان وفيه العيون والانهار وسافرت منه الى جبل لبنان وهو من أخصب جبال الدنيا فيه أصناف الفواكه وعيون الماء والظلال الوافرة ولا يخلو من المنقطعين الى الله تعالى والزهاد والصالحين وهو شهير بذلك ورأيت به جماعة من الصالحين قد انقطعوا الى الله تعالى ممن لم يشتهر اسمه

— حكاية —

أخبرني بعض الصالحين الذين لقيتهم به قال كنا بهذا الجبل مع جماعة من الفقراء أيام البرد الشديد فاوقدنا نارا عظيمة وأحدقنا بها فقال بعض الحاضرين يصلح لهذه النار مايشوى فيها فقال أحد الفقراء ممن تزدريه الاعين ولا يعبأ به إني كنت عند صلاة العصر بمتعبد ابراهيم بن ادهم فرأيت بمقربة منه حمار وحش قد أحدق الثلج به من كل جانب وأظنه لا يقدر على الحراك فلو ذهبتم اليه لقدرتم عليه وشويتم لحمه فى هذه النار قال فقمنا اليه في خمسة رجال فلقيناه كما وصف الينا فقبضناه واتينا به أصحابنا وذبحناه واشوينا لحمه فى تلك النار وطلبنا الفقير الذى نبه عليه فلم نجده ولا وقعنا له على أثر فطال عجبنا منه ثم وصلنا من جبل لبنان الى مدينة بعلبك وهى حسنة قديمة من أطيب مدن الشام تحدق بها البساتين الشريفة والجنات المتينقة وتخترق ارضها الانهار الجارية وتضاهى دمشق فى خيراتها المتناهية وبها من حب الملوك مالبس فى سواها وبها يصنع الدبس المنسوب اليها وهو نوع من الرب يصنعونه من العنب ولهم تربة يضعونها فيه فيجمد وتكسر القلة التى يكون بها فيبقى قطعة واحدة وتصنع منه الحلواء ويجعل فيها الفستق واللوز ويسمونها حلواء بالمبن ويسمونها أيضا بجلد الفرس وهى كثيرة الالبان وتجلب منها الى دمشق وبينهما مسيرة يوم للمجد وأما الرفاق فيخرجون من بعلبك فيبيتون ببلدة صغيرة تعرف بالزبداني كثيرة الفواكه ويغدون منها الى دمشق ويصنع ببعلبك الثياب المنسوبة اليها من الاحرام وغيره ويصنع

بها أوانى الخشب وملاعقه التي لا نظير لها فى البلاد وهم يسمون الصحاف بالدسوت وربما صنعوا الصحفة وصنعوا صحفة أخرى تسع فى جوفها وأخري فى جوفها الى أن يبلغوا العشرة يخيل لرائيها انها صحفة واحدة وكذلك الملاعق يصنعون منها عشرة واحدة فى جوف واحدة و يصنعون لها غشاء من جلد و يمسكها الرجل فى حزامه واذا حضر طعاما مع أصحابه أخرج ذلك فيظن رائيه انها ملعقة واحدة ثم يخرج من جوفها تسعة . وكان دخولى لبعلبك عشية النهار وخرجت منها بالغدو لفرط اشتياقى الى دمشق ووصلت يوم الخميس التاسع من شهر رمضان المعظم عام ستة وعشرين الى مدينة دمشق الشام فنزلت منها بمدرسة الملكية المعروفة بالشرابشية ودمشق هى التى تفضل جميع البلاد حسنا وتتقدمها جمالا وكل وصف وان طال فهو قاصر عن محاسنها ولا ابدع مما قاله ابو الحسين بن جبير رحمه الله تعالى فى ذكرها قال وأما دمشق فهي جنة المشرق . ومطلع نورها المشرق . وخاتمة بلاد الاسلام التى استقر يناها . وعروس المدن التي اجتليناها . قد تحلت بازاهير الرياحين . وتجلت فى حلل سندسية من البساتين . وحلت : موضع الحسن بالمكان المكين . وتزينت في منصتها أجمل تزيين . وتشرفت بان آوي المسيح عليه السلام وأمه منها الى ربوة ذات قرار ومعين . ظل ظليل : وماء سلسبيل ، تنساب مذانبه انسياب الارقم بكل سبيل . ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل : تتبرج لناظريها بمجتلي صقيل . وتناديهم هلموا الى معرس للحسن ومقيل . وقد سئمت ارضها كثرة الماء . حتي اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك بها الصم الصلاب . أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب . وقد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر . والاكام بالثمر . وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر . وكل موضع لحظت بجهاتها الاربع نضرته اليانعة قيد البصر . ولله صدق القائلين عنها . ان كانت الجنة فى الارض فدمشق لاشك فيها . وان كانت في السماء فهى تساميها وتحاذيها . قال ابن جزى وقد نظم بعض شعرائها فى هذا المعنى فقال

(خفيف)

ان تكن جنة الخلود بارض * فدمشق ولا تكون سواها
أو تكن فى السماء فهى عليها * قد أبدت هواءها وهواها
بلد طيب ورب غفور * فاغتنمها عشية وضحاها

وذكرها شيخنا المحدث الرحال شمس الدين ابو عبد الله محمد بن جابر بن حسان القيسى الوادى آشى نزيل تونس ونص كلام ابن جبير ثم قال ولقد أحسن فيما وصف

Digitized by Birzeit University Library

منها وأجاد . وتوق الانفس للتطلع على صورتها بما أفاد . هذا وان لم تكن له بها اقامة . فيعرب عنها بحقيقة علامة . ولا وصف ذهبيات أصيلها . وقد حان من الشمس غروبها ولا ازمان جفو لها المنوعات . ولا أوقات سرورها المنبهات . وقد اختص من قال . الفيتها كما تصف الألسن . وفيها ماتشتهيه الانفس وتلذ الاعين . قال ابن جزي والذي قالته الشعراء في وصف محاسن دمشق لايحصر كثرة وكان والدي رحمه الله كثيرا ماينشد في وصفها هذه الابيات وهي لشرف الدين بن محسن رحمه الله تعالى (طويل)

دمشق بنا شوق اليها مبرح * وان لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء درو تربها * عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق * وصح نسيم الروض وهو عليل

وهذا من النمط العالي من الشعر وقال فيها عرقلة الدمشقي الكلبي (كامل)

الشام شامة وجنة الدنيا كما * انسان مقلتها الفضيضة جاني
من آسها لك جنة لاتنقضي * ومن الشقيق جهنم لاتحرق

وقال أيضا فيها

أما دمشق فجنات معجلة * للطالبين بها الوالدان والحور
ماصاح فيها على أوتاره قمر * الايغنيه قمري وشحرور
ياحبذا ودروع الماء تنسجها * أنامل الريح الا أنها زور

وله فيها أشعار كثيرة سوى ذلك وقال فيها أبو الوحش سبع بن خلف الاسدي (رجز)

سقي دمشق الله غيثا محسنا * من مستهل ديمة دهاقها
مدينة ليس يضاهي حسنها * في سائر الدنيا ولا آفاقها
تود زوراء العراق انها * منها ولا تعزى الى عراقها
فارضها مثل السماء بهجة * وزهرها كالزهر في أشراقها
نسيم روضها متى ماقد سري * فك أخا الهموم من وثاقها
قد رتع الربيع في ربوعها * وسيقت الدنيا الى أسواقها
لاتسام العيون والانوف من * رؤيتها يوما ولا استنشاقها

ومما يناسب هذا للقاضي الفاضل عبد الرحمن البيساني فيها من قصيدة وقد نسبت أيضا لابن المنير (كامل)

يابرق هل لك في احتمال تحية * عذبت فصارت مثل مائك سلسلا

Digitized by Birzeit University Library

باكر دمشق بمشق الحيا * زهر الرياض مرصعا ومكللا
واجر بجيرون ذيولك واختصص * مغنى تازر بالعلا وتسربلا
حيث الحيا الربعي محلول الحبا * والوابل الربعي مفرى الكلا

وقال فيها أبو الحسن علي بن موسى بن سعد العنسي الغرناطي المدعو نور الدين (بسيط)

دمشق منزلنا حيث النعيم بدا * مكملا وهو في الآفاق مختصر
القصب راقصة والطير صادحة * والزهر مرتفع والماء منحدر
وقد تجلت من اللذات أوجهها * لكنها بظلال الدوح تستتر
وكل واد به موسى ينفجره * وكل روض على حافاته الخضر

وقال ايضا فيها

خيم تحلق بين الكأس والوتر * في جنة هي ملء السمع والبصر
ومتع الطرف في مرأى محاسنه * وروض الفكر بين الروض والنهر
وانظر الى ذهبيات الاصيل بها * واسمع الى نغمات الطير في الشجر
وقل لمن لام في لذاته بشرا * دعني فانك عندي من سوقة البشر

وقال فيها ايضا (كامل)

اما دمشق فجنة * ينسى بها الوطن الغريب
لله ايام السبوت * بها ومنظرها العجيب
انظر بعينك هل ترى * الا محبا اوحبيب
في موطن غني الحمام * به على رقص القضيب
وغدت ازاهر روضه * تختال في فرح وطيب

واهل دمشق لا يعملون يوم السبت عملا انما يخرجون الى المتنزهات وشطوط الانهار ودوحات الاشجار بين البساتين النضرة والمياه الجارية فيكونون بها يومهم الى الليل وقد طال بنا الكلام في محاسن دمشق فلنرجع الى كلام الشيخ ابي عبد الله

— ذكر جامع دمشق المعروف بجامع بني امية —

وهو اعظم مساجد الدنيا احتفالا واتقنها صناعة وابدعها حسنا وبهجة وكمالا ولا يعلم له نظير ولا يوجد له شبيه وكان الذي تولى بناءه واتقانه اميرالمؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ووجه الى ملك الروم بقسطنطينية يامره ان يبعث اليه الصناع فبعث اليه اثني عشر الف صانع وكان موضع المسجد كنيسة فلما افتتح المسلمون دمشق دخل خالد بن الوليد

Digitized by Birzeit University Library

رضى الله عنه من احدي جهاتها بالسيف فانتهى الى نصف الكنيسة ودخل أبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنه من الجهة الغربية صلحا فانتهى الى نصف الكنيسة فصنع المسلمون من نصف الكنيسة الذى دخلوه عنوة مسجداً و بقي النصف الذى صالحوا عليه كنيسة فلما عزم الوليد على زيادة الكنيسة فى المسجد طلب من الروم ان يبيعوا منه كنيستهم تلك بما شاؤا من عوض فابوا عليه فانتزعها من أيديهم وكانوا يزعمون أن الذي يهدمها يجن فذكروا ذلك للوليد فقال انا اول من يجن فى سبيل الله وأخذ الفأس وجعل يهدم بنفسه فلما رآى المسلمون ذلك تتابعوا على الهدم وا كذب الله زعم الروم وزين هذا المسجد بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء نخا لطها أنواع الاصبغة الغريبة الحسن وذرع المسجد فى الطول من الشرق الى الغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع وعرضه من القبلة الى الجوف مائة وخمس وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع وعدد شمسات الزجاج الملونة التى فيه أربع وسبعون و بلاطاته ثلاثة مستطيلة من شرق الى غرب سعة كل بلاط منها ثمان عشرة خطوة وقد قامت على أربع وخمسين سارية وثماني ارجل حصية تتخللها وست ارجل مرخمة مرصعة بالرخام الملون قد صور فيها اشكال محاريب وسواها وهي ثقل قبة الرصاص التي امام المحراب المسماة بقبة النسر كانهم شبهوا المسجد نسرا طائرا والقبة رأسه وهي من أعجب مباني الدنيا ومن أى جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر ذاهبة فى الهواء منيفة على جميع مباني البلد وتستدير بالصحن بلاطات ثلاثة من جهاته الشرقية والغربية والجوفية سعة كل بلاط منها عشر خطا و بها من السواري ثلاث وثلاثون ومن الارجل أربع عشرة وسعة الصحن مائة ذراع وهو من أجمل المناظر وأتمها حسنا و بها يجتمع أهل المدينة بالعشايا فمن قارئ ومحدث وذاهب ويكون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة واذا تلي أحد كبرائهم من الفقهاء وسواهم صاحباله اسرع كل منهما نحو صاحبه وحطر أسه وفى هذا الصحن ثلاث من القباب احداها فى غربيه وهى اكبرها وتسمى قبة عائشة أم المؤمنين وهى قائمة على ثمان سوار من الرخام مزخرفة بالفصوص والاصبغة الملونة مسقفة بالرصاص يقال ان مال الجامع كان يختزن بها وذكر لى أن فوائد مستغلات الجامع وجبايته نحو خمسة وعشرين الف دينار ذهبا فى كل سنة والقبة الثانية من شرقى الصحن على هيئة الاخري الا انها اصغر منها قائمة على ثمان من سواري الرخام وتسمي قبة زين العابدين والقبة الثالثة فى وسط الصحن وهى صغيرة مثمنة من رخام عجيب محكم الالصاق قائمة على أربع سواري من الرخام الناصع وتحتها شباك حديد فى وسطه أنبوب

Digitized by Birzeit University Library

نحاس يمج الماء الى علو فيرتفع ثم ينثني كانه قضيب لجين وهم يسمونهم قفص الماء ويستحسن الناس وضع افواههم فيه للشرب وفي الجانب الشرقي من الصحن باب يفضي الى مسجد بديع الوضع يسمى مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويقابله من الجهة الغربية حيث يلتقي البلاطان الغربي والجوفي موضع يقال ان عائشة رضي الله عنها سمعت الحديث هنا لك وفي قبلة المسجد المقصورة العظمى التي يؤم فيها امام الشافعية وفي الركن الشرقي منها ازاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه الى الشام وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم وهنا لك يحلف الناس غرماءهم ومن ادعوا عليه شيئاً وعن يسار المقصورة محراب الصحابة ويذكر اهل التاريخ انه اول محراب وضع في الاسلام وفيه يؤم امام المالكية وعن يمين المقصورة محراب الحنفية وفيه يؤم امامهم ويليه محراب الحنابلة وفيه يؤم امامهم ولهذا المسجد ثلاث صوامع احداها بشرقيه وهي من بناء الروم وبابها داخل المسجد وباسفلها مطهرة وبيوت للوضوء يغتسل فيها المعتكفون والملتزمون للمسجد ويتوضؤن والصومعة الثانية بغربيه وهي أيضاً من بناء الروم والصومعة الثالثة بشماله وهي من بناء المسلمين وعدد المؤذنين به سبعون مؤذناً وفي شرقي المسجد مقصورة كبيرة فيها صهريج ماء وهي لطائفة الزيالعة السودان وفي وسط المسجد قبر زكريا عليه السلام وعليه تابوت معترض بين اسطوانتين مكسو بثوب حرير اسود معلم فيه مكتوب بالابيض (يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى) وهذا المسجد شهير الفضل وقرأت في فضائل دمشق عن سفيان الثوري ان الصلاة في مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة وفي الاثر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يعبد الله فيه بعد خراب الدنيا اربعين سنة ويقال ان الجدار القبلي منه وضعه نبي الله هود عليه السلام وان قبره به وقد رأيت على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال له الاحقاف بنية فيها قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر صلى الله عليه وسلم ومن فضائل هذا المسجد انه لا يخلو عن قراءة القرآن والصلاة الا قليلا من الزمان كما سنذكره والناس يجتمعون به كل يوم اثر صلاة الصبح فيقرأون سبعا من القرآن ويجتمعون بعد صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية يقرأون فيها من سورة الكوثر الى آخر القرآن وللمجتمعين على هذه القراءة مرتبات تجري لهم وهم نحو ستمائة انسان ويدور عليهم كاتب الغيبة فمن غاب منهم قطع له عند دفع المرتب بقدر غيبته وفي هذا المسجد جماعة كبيرة من المجاورين لا يخرجون منه مقبلون على الصلاة والقراءة والذكر لا يفترون

Digitized by Birzeit University Library

عن ذلك ويتوضؤن من المطاهر التي بداخل الصومعة الشرقية التي ذكرناها وأهل البلد يعينونهم بالمطاعم والملابس من غير أن يسالوهم شيئاً من ذلك وفي هـذا المسجد أربعة أبواب باب قبلي يعرف بباب الزيادة وباعلاه قطعة من الرمح الذي كانت فيه راية خالد بن الوليد رضي الله عنه ولهذا الباب دهليز كبير متسع فيه حوانيت السقاطين وغيرهم ومنه يذهب الى دار الخيل وعن يسار الخارج منه سماط الصفارين وهي سوق عظيمة ممتدة مع جدار المسجد القبلي من احسن اسواق دمشق وبموضع هذه السوق كانت دار معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ودور قومه وكانت تسمي الخضراء فهدمها بنو العباس رضي الله عنهم وصار مكانها سوقا وباب شرقي وهو أعظم ابواب المسجد ويسمى باب جيرون وله دهليز عظيم يخرج منه الى بلاط عظيم طويل امامه خمسة أبواب لها استة أعمدة طوال وفي جهة اليسار منه مشهد عظيم كان فيه رأس الحسين رضي الله عنه وبازائه مسجد صغير ينسب الى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وبه ماء جار وقد انتظمت امام البلاط درج ينحدر فيها الى الدهليز وهو كالخندق العظيم يتصل بباب عظيم الارتفاع تحته أعمدة كالجذوع طوال وبجانبي هذا الدهليز أعمدة قد قامت عليها شوارع مستديرة فيها دكاكين البزازين وغيرهم وعليها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهريين والكتبيين وصناع اوانى الزجاج العجيبة وفي الرحبة المتصلة بالباب الاول دكاكين لكبار الشهود منها دكانان للشافعية وسائرها لاصحاب المذاهب يكون في الدكان منها الخمسة والستة من العدول والعاقد للانكحة من قبل القاضي وسائر الشهود مفترقون في المدينة وبمقربة من هـذه الدكاكين سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد وفي وسط الدهليز المذكور حوض من الرخام كبير مستدير عليه قبة لاسقف لها تقلها أعمدة رخام وفي وسط الحوض أنبوب نحاس يزعج الماء بقوة فيرتفع في الهواء أزيد من قامة الانسان يسمونه الفوارة منظره عجيب وعن يمين الخارج من باب جيرون وهو باب الساعات غرفة لها هيئة طاق كبير فيه طيقان صغار مفتحة لها ابواب على عـدد ساعات النهار والابواب مصبوغ باطنها بالحضرة وظاهرها بالصفرة فاذا ذهبت ساعة من النهار انقلب الباطن الاخضر ظاهرا والظاهر الاصفر باطنا ويقال ان بداخل الغرفة من يتولى قلبها بيده عنـد مضي الساعات والباب الغربي يعرف بباب البريد وعن يمين الخارج منـه مدرسة للشافعية وله دهليز فيه حوانيت للشماعين وسماط لبيع الفواكه وباعلاه باب يصعد اليـه في درج له اعمدة سامية في الهواء وتحت الدرج سقايتان عن يمين وشمال مستديرتان والباب الجوفي يعرف بباب القطفانيين وله دهليز عظيم وعن يمين الخارج

Digitized by Birzeit University Library

منه خانقاة تعرف بالشميعانية فى وسطها صهريج ماء ولها مطاهر يجرى فيها الماء ويقال انها كانت دار عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه وعلى كل باب من ابواب المسجد الاربعة دار وضوء يكون فيها نحو مائة بيت تجري فيها المياه الكثيرة

— ذكر الائمة بهذا المسجد —

وائمته ثلاثة عشر اماما أولهم امام الشافعية وكان فى عهد دخولى اليها امامهم قاضي القضاة جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني من كبار الفقهاء وهو الخطيب بالمسجد وسكناه بدار الخطابة ويخرج من باب الحديد ازاء المقصورة وهو الباب الذي كان يخرج منه معاوية رضى الله عنه وقد تولى جلال الدين بعد ذلك قضاء القضاة بالديار المصرية بعد ان أدي عنه الملك الناصر نحو مائة الف درهم كانت عليه دينا بدمشق واذا سلم امام الشافعية من صلاته أقام الصلاة امام مشهد على ثم امام مشهد الحسين ثم امام الكلاسة ثم امام مشهد أبي بكر ثم امام مشهد عمر ثم امام مشهد عثمان رضي الله عنهم أجمعين ثم امام المالكية وكان امامهم فى عهد دخولى اليها الفقيه أبو عمر بن أبي الوليد بن الحاج التجيبي القرطبي الاصل الغرناطي المولد نزيل دمشق وهو يتناوب الامامة مع أخيه رحمهما الله ثم امام الحنفية وكان امامهم فى عهد دخولى اليها الفقيه عماد الدين الحنفى المعروف بابن الرومى وهو من كبار الصوفية وله شياخة الخانقاة الخاتونية وله أيضا خانقاة بالشرف الاعلى ثم امام الحنابلة وكان فى ذلك العهد الشيخ عبد الله الكفيف أحد شيوخ القراءة بدمشق ثم بعد هؤلاء خمسة أئمة لقضاء الفوائت فلا تزال الصلاة فى هذا المسجد من أول النهار الى ثلث الليل وكذلك قراءة القرآن وهذا من مفاخر هذا الجامع المبارك

— ذكر المدرسين والمعلمين به —

ولهذا المسجد حلقات التدريس فى فنون العلم والمحدثون يقرؤن كتب الحديث على كراسى مرتفعة وقراء القرآن يقرؤن بالاصوات الحسنة صباحا ومساء وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم الى سارية من سوارى المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم وهم لا يكتبون القرآن فى الالواح تنزيها لكتاب الله تعالى وانما يقرؤن القرآن تلقينا ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الاشعار وسواها فينصرف الصبي من التعليم الى التكتيب وبذلك جاد خطه لان المعلم للخط لا يعلم غيره ومن المدرسين بالمسجد المذكور العالم الصالح برهان الدين بن الفركاح الشافعي ومنهم العالم الصالح نور الدين أبو اليسر بن الصائغ من المشتهرين بالفضل والصلاح ولما ولى القضاء بمصر جلال الدين القزويني وجه

Digitized by Birzeit University Library

الى ابي اليسر الخلعة والامر بقضاء دمشق فامتنع من ذلك ومنهم الامام العالم شهاب الدين ابن جهبل من كبار العلماء هرب من دمشق لما امتنع أبو اليسر من قضائها خوفا من ان يقلد القضاء فاتصل ذلك بالملك الناصر فولى قضاء دمشق شيخ الشيوخ بالديار المصرية قطب العارفين لسان المتكلمين علاء الدين القونوى وهو من كبار الفقهاء ومنهم الامام الفاضل بدر الدين على السخاوى المالكى رحمة الله عليهم أجمعين

— ذكر قضاة دمشق —

قد ذكرنا قاضى القضاة الشافعي بها جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى وأما قاضي المالكية فهو شرف الدين بن خطيب الفيوم حسن الصورة والهيئة من كبار الرؤساء وهو شيخ شيوخ الصوفية والنائب عنه فى القضاء شمس الدين بن القفصي ومجلس حكمه بالمدرسة الصمصامية وأما قاضى قضاة الحنفية فهو عماد الدين الحورانى وكان شديد السطوة واليه يتحاكم النساء وأزواجهن وكان الرجل اذا سمع اسم القاضي الحنفى أنصف من نفسه قبل الوصول اليه وأما قاضى الحنابلة فهو الامام الصالح عز الدين بن مسلم من خيار القضاة ينصرف على حمار له ومات بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما توجه للحجاز الشريف

— حكاية —

وكان بدمشق من كبار الفقهاء الحنابلة تقي الدين بن تيمية كبير الشام يتكلم فى الفنون الا ان فى عقله شيا وكان أهل دمشق يعظمونه أشد التعظيم ويعظمهم على المنبر وتكلم مرة بامر انكره الفقهاء ورفعوه الى الملك الناصر فامر باشخاصه الى القاهرة وجمع القضاة والفقهاء بمجلس الملك الناصر وتكلم شرف الدين الزواوى المالكى وقال ان هذا الرجل قال كذا وكذا وعدد ما أنكر على ابن تيمية وأحضر العقود بذلك ووضعها بين يدي قاضي القضاة وقال قاضي القضاة لابن تيمية ما تقول قال لا اله الا الله فاعاد عليه فاجاب بمثل قوله فامر الملك الناصر بسجنه فسجن أعواما وصنف فى السجن كتابا فى تفسير القرآن سماه بالبحر المحيط فى نحو أربعين مجلدا ثم ان أمره تعرضت للملك الناصر وشكت اليه فامر باطلاقه الى ان وقع منه مثل ذلك ثانية وكنت اذ ذاك بدمشق فحضرته يوم الجمعة وهو يعظ الناس على منبر الجامع ويذكرهم فكان من جملة كلامه ان قال ان الله ينزل الى سماء الدنيا كنزولى هذا ونزل درجة من درج المنبر فعارضه فقيه مالكى يعرف بابن الزهراء وأنكر ما تكلم به فقامت العامة الى هذا الفقيه وضربوه بالايدي والنعال ضربا كثيرا حتى سقطت عمامته وظهر على رأسه شاشية حرير فانكروا عليه لباسها واحتملوه الى دار عز الدين بن

مسلم قاضي الحنابلة فامر بسجنه وعزره بعد ذلك فانكر فقهاء المالكية والشافعية ما كان من تعزيره ورفعوا الامر الى ملك الامراء سيف الدين تنكيز وكان من خيار الامراء وصلحائهم فكتب الى الملك الناصر بذلك وكتب عقد اشرعيا على ابن تيمية بامور منكرة منها ان المطلق بالثلاث في كلمة واحدة لا تلزمه الا طلقة واحدة ومنها المسافر الذي ينوي بسفره زيارة القبر الشريف زاده الله طيبا لا يقصر الصلاة وسوى ذلك مما يشيبه وبعث العقد الى الملك الناصر فامر بسجن ابن تيمية بالقلعة فسجن بها حتى مات في السجن

— ذكر مدارس دمشق —

اعلم أن للشافعية بدمشق جملة من المدارس أعظمها العادلية وبها يحكم قاضي القضاة وتقابلها المدرسة الظاهرية وبها قبر الملك الظاهر وبها جلوس نواب القاضي ومن نوابه فخر الدين القبطي كان والده من كتاب القبط وأسلم ومنهم جمال الدين بن جملة وقد تولى قضاء قضاة الشافعية بعد ذلك وعزل لامر أوجب عزله

— حكاية —

كان بدمشق الشيخ الصالح ظهير الدين العجمي وكان سيف الدين تنكيز ملك الامراء يتقلد له ويعظمه فحضر يوما بدار العدل عند ملك الامراء وحضر القضاة الاربعة فحكى قاضي القضاة جمال الدين بن جملة حكاية فقال له ظهير الدين كذبت فانف القاضي من ذلك واستعرض له فقال للامير كيف يكذبني بحضرتك فقال له الامير احكم عليه وسلمه اليه وظنه أنه يرضي بذلك فلا ينال بسوء فاحضره القاضي بالمدرسة العادلية وضربه مائتي سوط وطيف به على حمار في مدينة دمشق ومنادي ينادي عليه فمتى فرغ من ندائه ضربه على ظهره ضربة وهكذا العادة عندهم فبلغ ذلك الامراء فانكره أشد الانكار وأحضر القضاة والفقهاء فاجمعوا على خطأ القاضي وحكمه بغير مذهبه فان التعزير عند الشافعي لا يبلغ به الحد وقال قاضي القضاة المالكية شرف الدين قد حكمت بتفسيقه فكتب الى الملك الناصر بذلك فعزله وللحنفية مدارس كثيرة وأكبرها مدرسة السلطان نور الدين وبها يحكم قاضي القضاة الحنفية وللمالكية بدمشق ثلاث مدارس احداها الصمصامية وبها سكن قاضي القضاة المالكية وقموده للاحكام والمدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين محمود بن زنكي والمدرسة الشرابشية عمرها شهاب الدين الشرابشي التاجر وللحنابلة مدارس كثيرة أعظمها المدرسة النجمية

— ذكر أبواب دمشق —

Digitized by Birzeit University Library

ولمدينة دمشق ثمانية ابواب منها باب الفراديس ومنها باب الجابية ومنها الباب الصغير وفيما بين هذين البابين مقبرة فيها العدد الجم من الصحابة والشهداء فمن بعدهم قال محمد بن جزي لقد أحسن بعض المتاخرين من أهل دمشق في قوله (رجز)

دمشق في أوصافها * جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها * قد جعلت ثمانيه

— ذكر بعض المشاهد والمزارات بها —

فمنها المقبرة التي بين البابين باب الجابية والباب الصغير قبر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين وقبر أخيها أمير المؤمنين معاوية وقبر بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم أجمعين وقبر أويس القرني وقبر كعب الاحبار رضي الله عنهما ووجدت في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي ان جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرني من المدينة الى الشام فتوفي في أثناء الطريق في بريه لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا في أمره فنزلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء فعجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ثم ركبوا فقال بعضهم كيف نترك قبره بغير علامة فعادوا الموضع فلم يجدوا للقبر من أثر قال ابن جزي ويقال ان أويسا قتل بصفين مع علي عليه السلام وهو الاصح ان شاء الله وبلى باب الجابية باب ثم في عنده جنانة فيها قبر أبي بن كعب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها قبر العابد الصالح أرسلان المعروف بالباز الاشهب

— حكاية في سبب تسميته بذلك —

يحكى أن الشيخ الوالي أحمد الرفاعي رضي الله عنه كان مسكنه بام عبيدة بمربة من مدينة واسط وكانت بين ولي الله تعالى أبي مدين شعيب بن الحسين وبينه مؤاخاة ومراسلة ويقال ان كل واحد منهما كان يسلم على صاحبه صباحاً ومساءً فيرد عليه الآخر وكانت للشيخ أحمد نخيلات عند زاويته فلما كان في إحدى السنين جذها على عادته وترك عذقا منها وقال هذا برسم أخي شعيب فحج الشيخ أبو مدين تلك السنة واجتمعا بالموقف الكريم بعرفة ومع الشيخ احمد خديمه رسلان فتفاوضا الكلام وحكى الشيخ حكاية العذق فقال له رسلان عن امرك ياسيدي آتيه به فاذن له فذهب من حينه واتاه به ووضعه بين ايديهما فاخبر اهل الزاوية انهم رأوا عشية يوم عرفة بازا اشهب قد انقض على النخلة فقطع ذلك العذق وذهب به في الهواء نحو بغربي دمشق جبانة تعرف بقبور الشهداء فيها قبر ابي الدرداء وزوجته ام الدرداء وقبر فضالة بن عبيد وقبر واثلة بن الاسقع وقبر سهل بن حنظلة من

Digitized by Birzeit University Library

الذين بايعوا تحت الشجرة رضي الله عنهم اجمعين وبقرية تعرف المنيحة شرقي دمشق وعلى اربعة اميال منها قبر سعد بن عبادة رضي الله عنه وعليه مسجد صغير حسن البناء وعلى رأسه حجر فيه مكتوب هذا قبر سعد بن عبادة رأس الخزرج صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبقربه قبلي البلد وعلى فرسخ منها مشهد ام كلثوم بنت علي بن ابي طالب من فاطمة عليهم السلام ويقال ان اسمها زينب وكناها النبي صلى الله عليه وسلم ام كلثوم لشبهها بخالتها ام كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه مسجد كريم وحوله مساكن وله اوقاف و يسميه اهل دمشق قبر الست ام كلثوم وقبر آخر يقال انه قبر سكينة بنت الحسين بن علي عليه السلام وبجامع النيرب من قرى دمشق في بيت بشرقيه قبر يقال انه قبر ام مريم عليها السلام وبقرية تعرف بداريا غربي البلد وعلى اربعة اميال منها قبر ابي مسلم الخولاني وقبر ابي سليمان الداراني رضي الله عنهما ومن مشاهد دمشق الشهيرة البركة مسجد الأقدام وهو في قبلي دمشق على ميلين منها على قارعة الطريق الأعظم الآخذ الى الحجاز الشريف والبيت المقدس وديار مصر وهو مسجد عظيم كثير البركة وله اوقاف كثيرة ويعظمه اهل دمشق تعظيما شديداً والأقدام التي ينسب اليها هي اقدام مصورة في حجر هنالك يقال انها اثر قدم موسى عليه السلام وفي هذا المسجد بيت صغير فيه حجر مكتوب عليه كان بعض الصالحين يرى المصطفى صلى الله عليه وسلم في النوم فيقول له هاهنا قبر اخي موسى عليه السلام وبمقربة من هذا المسجد على الطريق موضع يعرف بالكثيب الاحمر وبمقربة من بيت المقدس وأريحا موضع يعرف بالكثيب الاحمر تعظمه اليهود

— حكاية —

شاهدت ايام الطاعون الاعظم بدمشق في اواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع واربعين من تعظيم اهل دمشق لهذا المسجد ما يعجب منه وهو ان ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر مناديا ينادي بدمشق ان يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا واكثر الناس بها انما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس — ثم اجتمع الامراء والشرفاء والقضاة والفقهاء وسائر الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة بما بين مصل وذاكر وداع — ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعاً على اقدامهم وبايديهم المصاحف والامراء حفاة وخرج جميع اهل البلد ذكورا واناثا صغارا وكبارا وخرج اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون متوسلون الى الله بكتبه وأنبيائه

Digitized by Birzeit University Library

وقصدوا مسجد الاقدام وأقاموا به فى تضرعهم ودعائهم الى قرب الزوال وعادوا الى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم ما انتهى عدد الموتى الى ألفين فى اليوم الواحد وقد انتهى عددهم بالقاهرة ومصر الى أربعة وعشرين ألفا فى يوم واحد بالباب الشرقى من دمشق منارة بيضاء يقال انها التى ينزل عيسى عليه السلام عندها حسبما ورد فى صحيح مسلم

— ذكر أرباض دمشق —

وتدور بدمشق من جهاتها ما عدا الشرقية أرباض فسيحة الساحات دواخلها املح من داخل دمشق لاجل الضيق الذى فى سككها وبالجهة الشمالية منها رباض الصالحية وهى مدينة عظيمة لها سوق لا نظير لحسنه وفيها مسجد جامع ومارستان وبها مدرسة تعرف بمدرسة ابن عمر موقوفه على من أراد أن يتعلم القرآن الكريم من الشيوخ والكهول وتجرى لهم ولمن يعلمهم كفايتهم من المآكل والملابس وبداخل البلد أيضا مدرسة مثل هذه تعرف بمدرسة ابن منجا وأهل الصالحية كلهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه

— ذكر قاسيون ومشاهده المباركة —

وقاسيون جبل فى شمال دمشق والصالحية فى سفحه وهو شهير البركة لانه مصعد الانبياء عليهم السلام ومن مشاهده الكريمة الغار الذى ولد فيه ابراهيم الخليل عليه السلام وهو غار مستطيل ضيق عليه مسجد كبير وله صومعة عالية ومن ذاك الغار رأى الكوكب والقمر والشمس حسبما ورد فى الكتاب العزيز وفى ظهر الغار مقامه الذى كان يخرج اليه وقد رأيت ببلاد العراق قرية تعرف ببرص (بضم الباء الموحدة وآخرها صاد مهمل) ما بين الحلة وبغداد يقال أن مولد ابراهيم عليه السلام كان بها وهى بمقربة من بلد ذى الكفل عليه السلام وبها قبره ومن مشاهده بالغرب منه مغارة الدم وفوقها بالجبل دم هابيل بن آدم عليه السلام وقد أتى الله منه فى الحجارة أثرا محمرا وهو الموضع الذى قتله أخوه به واجتره الى المغارة وبذكر ان تلك المغارة صلى فيها ابراهيم وموسى وعيسى وأيوب ولوط صلى الله عليهم أجمعين وعليها مسجد متقن البناء يصعد اليه على درج وفيه بيوت ومرافق للسكنى ويفتح فى كل يوم اثنين وخميس والشمع والسرج توقد فى المغارة ومنها كهف بأعلى الجبل ينسب لآدم عليه السلام وعليه بناء وأسفل منه مغارة تعرف بمغارة الجوع يذكر انه آوى اليها سبعون من الانبياء عليهم السلام وكان عندهم رغيف فلم يزل يدور عليهم وكل منهم يؤثر صاحبه به حتى ماتوا جميعا صلى الله عليهم وعلى هذه المغارة مسجد مبنى والسرج توقد به ليلا ونهارا ولكل مسجد من هذه المساجد أوقاف كثيرة معينة

Digitized by Birzeit University Library

ويذكران فيما بين باب الفراديس وجامع قاسيون مدفن سبعمائة نبي وبعضهم يقول سبعين ألفا وخارج المدينة المقبرة العتيقة وهي مدفن الانبياء والصالحين وفي طرفها مما يلي البساتين أرض منخفضة غلب عليها الماء يقال انها مدفن سبعين نبيا وقد عادت قرارا للماء ونزعت من ان يدفن فيها أحد

— ذكر الربوة والقرى التي تواليها —

وفي آخر جبل قاسيون الربوة المباركة المذكورة في كتاب الله ذات القرار والمعين وماوى المسيح عيسى وأمه عليهما السلام وهي من اجمل مناظر الدنيا ومتنزهاتها وبها القصور المشيدة والمباني الشريفة والبساتين البديعة والمأوى المبارك مغارة صغيرة في وسطها كالبيت الصغير وازاءها بيت يقال انه مصلى الخضر عليه السلام يبادر الناس الى الصلاة فيها والمأوى باب حديد صغير والمسجد يدور به وله شوارع دائرة وسقاية حسنة ينزل لها الماء من علو وينصب في شاذروان في الجدار يتصل بحوض من رخام ويقع فيه الماء ولا نظير له في الحسن وغرابة الشكل وبقرب ذلك مطاهر للوضوء يجري فيها الماء وهذه الربوة المباركة هي رأس بساتين دمشق وبها منابع مياهها وينقسم الماء الخارج منها على سبعة انهار كل نهر آخذ في جهة ويعرف ذلك الموضع بالمقاسم وأكبر هذه الانهار النهر المسمى بتورة وهو يشق تحت الربوة وقد نحت له مجرى في الحجر الصلد كالغار الكبير ور بما انغمس ذوا الجسارة من العوامين في النهر من اعلى الربوة واندفع في الماء حتى يشق مجراه ويخرج من أسفل الربوة وهي مخاطرة عظيمة وهذه الربوة تشرف على البساتين الدائرة بالبلد ولها من الحسن واتساع مسرح الابصار ما ليس لسواها ولتلك الانهار السبعة تذهب في طرق شتى فتحار الاعين في حسن اجتماعها وافتراقها واندفاعها وانصبابها وجمال الربوة وحسنها التام أعظم من ان يحيط به الوصف ولها الاوقاف الكثيرة من المزارع والبساتين والرباع تقام منها وظائفها للامام والمؤذن والصادر والوارد وباسفل الربوة قرية النيرب وقد تكاثرت بساتينها وتكاثفت ظلالها وتدانت اشجارها فلا يظهر من بنائها الا ما سما ارتفاعه ولها حمام مليح ولها جامع بديع مفروش صحنه بفصوص الرخام وفيه سقاية ماء رائقة الحسن ومطهرة فيها بيوت عدة يجري فيها الماء وفي القبلي من هذه القرية قرية المزة وتعرف بمزة كلاب نسبة الى قبيلة كلاب بن وبرة بن ثعلب ابن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وكانت اقطاعا لهم واليها ينسب الامام حافظ الدنيا جمال الدين يوسف بن الزكي الكلبي المزي وكثير سواه من العلماء وهي من اعظم

قرى دمشق بها جامع كبير عجيب وسقاية معينة وأكثر قرى دمشق فيها الحمامات والمساجد الجامعة والاسواق وسكانها كأهل الحاضرة في مناحيهم وفي شرقي البلد قرية تعرف ببيت الاهية وكانت فيها كنيسة يقال ان آزر كان ينحت فيها الاصنام فيكسرها الخليل عليه السلام وهي الآن مسجد جامع بديع مزين بفصوص الرخام الملونة المنظمة باعجب نظام وأزين التئام

— ذكر الاوقاف بدمشق وبعض فضائل أهلها وعوائدهم —

والاوقاف بدمشق لا تحصر أنواعها ومصارفها لكثرتها فمنها أوقاف على العاجزين عن الحج يعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته ومنها أوقاف على تجهيز البنات الى أزواجهن وهي اللواتي لا قدرة لاهلهن على تجهيزهن ومنها أوقاف لفكاك الاسارى ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها الان أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير

— حكاية —

مررت يوما ببعض أزقة دمشق فرأيت به مملوكا صغيرا قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني وهم يسمونها الصحن فتكسرت واجتمع عليه الناس فقال له بعضهم اجمع شقفها واحملها معك لصاحب أوقاف الاواني فجمعها وذهب الرجل معه اليه فاراه ياها فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن وهذا من أحسن الاعمال فان سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن أو ينهره وهو أيضا ينكسر قلبه ويتغير لاجل ذلك فكان هذا الوقف جبرا للقلوب جزى الله خيرا من تسامت همته في الخير الى مثل هذا

وأهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد وهم يحسنون الظن بالمغاربة ويطمئنون اليهم بالاموال والاهلين والاولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لا بد أن يتأنى له وجه من المعاش من امامة مسجد أو قراءة بمدرسة أو ملازمة مسجد يجيء اليه فيه رزقه أو قراءة القرآن أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق تجرى له النفقة والكسوة فمن كان بها غريبا على خير لم يزل مصونا عن بذل وجهه محفوظا عما يزرى بالمروءة ومن كان من اهل المهنة والخدمة فله أسباب أخر من حراسة بستان أو أمانة طاحونة أو كفالة صبيان يغدو معهم الى التعليم ويروح ومن أراد طلب العلم او التفرغ للعبادة وجد الاعانة التامة على ذلك ومن فضائل أهل دمشق أنه لا يفطر أحد منهم في ليالي رمضان وحده البتة فمن كان من الامراء والضعفاء

والكبراء فانه يدعو أصحابه والفقراء يفطرون عنده ومن كان من التجار وكبار السوقة صنع مثل ذلك ومن كان من الضعفاء والبادية فانهم يجتمعون كل ليلة في دار أحدهم أوفى مسجد ويأتي كل أحد بما عنده فيفطرون جميعا ولما وردت دمشق وقعت بيني وبين نور الدين السخاوي مدرس المالكية صحبة فرغب مني ان أفطر عنده في ليالي رمضان فحضرت عنده أربع ليالي ثم اصابتني الحمى فغبت عنه فبعث في طلبي فاعتذرت بالمرض فلم يسعني عذرا فرجعت اليه وبت عنده فلما اردت الانصراف بالغد منعني من ذلك وقال لي احسب داري كانها دارك أودار أبيك أو أخيك وأمر باحضار طبيب وان يصنع لي بداره كل مايشتهيه الطبيب من دواء أوغذاء وأقمت كذلك عنده الى يوم العيد وحضرت المصلى وشفاني الله تعالى مما اصابني وقد كان ماعندي من النفقة نفد فعلم بذلك فاكتري لي جملا وأعطاني الزاد وسواه وزادني دراهم وقال لي تكون لما عسى ان يعتريك من امرهم جزاه الله خيرا وكان بدمشق فاضل من كتاب الملك الناصر يسمى عماد الدين القيصراني من عادته انه متى سمع ان مغربيا وصل الى دمشق بحث عنه وأضافه وأحسن اليه فان عرف منه الدين والفضل امره بملازمته وكان يلازمه منهم جماعة وعلى هذه الطريقة ايضا كاتب السر الفاضل علاء الدين بن غانم وجماعة غيره وكان بها فاضل من كبرائها وهو الصاحب عز الدين القلانسي له مآثر ومكارم وفضائل وإيثار وهو ذو مال عريض وذكروا ان الملك الناصر لما قدم دمشق أضافه وجميع أهل دولته ومما ليكه وخواصه ثلاثة أيام فسماه اذ ذاك بالصاحب ومما يؤثر من فضائلهم ان أحد ملوكهم السالفين لما نزل به الموت أوصى ان يدفن بقبلة الجامع المكرم ويخفى قبره وعين أوقافا عظيمة لقراء يقرأون سبعا من القرآن الكريم في كل يوم إثر صلاة الصبح بالجهة الشرقية من مقصورة الصحابة رضي الله عنهم حيث قبره فصارت قراءة القرآن على قبره لا تنقطع أبدا وبقي ذلك الرسم الجميل بعده مخلدا ومن عادة أهل دمشق وسائر تلك البلاد انهم يخرجون بعد صلاة العصر من يوم عرفة فيقفون بصحون المساجد كبيت المقدس وجامع بني أمية وسواها ويقف بهم أئمتهم كاشفي رؤسهم داعين خاضعين خاشعين ملتمسين البركة ويتوخون الساعة التي يقف فيها وفد الله تعالى وحجاج بيته بعرفات ولا يزالون في خضوع ودعاء وابتهال وتوسل الى الله تعالى بحجاج بيته الى ان تغيب الشمس فينفرون كما ينفر الحاج باكين على ماحرموه من ذلك الموقف الشريف بعرفات داعين الى الله تعالى ان يوصلهم اليها ولا يخيبهم من بركة القبول فيما فعلوه ولهم أيضا في اتباع الجنائز تربة عجيبة وذلك انهم يمشون

Digitized by Birzeit University Library

امام الجنازة والقراء يقرؤن القرآن بالاصوات الحسنة والتلاحين المبكية التي تكاد النفوس تطير طهارقة وهم يصلون على الجنائز بالمسجد الجامع قبالة المقصورة فان كان الميت من أئمة الجامع أو مؤذنيه أو خدامه أدخلوه بالقراءة الى موضع الصلاة عليه وان كان من سواهم قطعوا القراءة عند باب المسجد وأدخلوا الجنازة وبعضهم يجتمع له بالبلاط الغربي من الصحن بقربة من باب البريد فيجلسون وامامهم رباعات القرآن يقرؤن فيها ويرفعون أصواتهم بالنداء لكل من يصل للعزاء من كبار البلدة وأعيانها ويقولون بسم الله فلان الدين من كمال وجمال وشمس وبدر وغير ذلك فاذا أتموا القراءة قام المؤذنون فيقولون افتكروا واعتبروا صلاتكم على فلان الرجل الصالح العالم ويصفونه بصفات من الخير ثم يصلون عليه ويذهبون به الى مدفنه ولاهل الهند رتبة عجيبة في الجنائز أيضا زائدة على ذلك وهي انهم يجتمعون بروضة الميت صبيحة الثالث من دفنه وتفرش الروضة بالثياب الرفيعة ويكسي القبر بالكسية الفاخرة وتوضع حوله الرياحين من الورد والنسرين والياسمين وذلك النوار لا ينقطع عندهم ويأتون باشجار الليمون والاترج ويجعلون فيها حبوبها ان لم تكن فيها ويجعل صبيان يظلل الناس نحوه وياتي القضاة والامراء ومن يماثلهم فيقعدون ويقرأ لهم القراء ويؤتى بالرباعات الكرام فيأخذ كل واحد منهم جزأ فاذا تمت القراءة من القراء بالاصوات الحسان يدعو القاضي ويقوم قائما ويخطب خطبة معدة لذلك ويذكر فيها الميت ويرثيه بابيات شعر ويذكر اقاربه ويعزيهم عنه ويذكر السلطان داعيا له وعند ذكر السلطان يقوم الناس ويحطون رؤسهم الى سمت الجهة التي بها السلطان ثم يقعد القاضي ويأتون بماء الورد فيصب على الناس صبا يبدأ بالقاضي ثم من يليه كذلك الى ان يعم الناس أجمعين ثم يؤتى باواني السكر وهو الجلاب محلولا بالماء فيسقون الناس منه ويبدؤن بالقاضي ومن يليه ثم يؤتي بالتنبول وهم يعظمونه ويكرمون من يأتي لهم به فاذا أعطى السلطان أحدا منه فهو أعظم من أعطاء الذهب والخلع واذا مات الميت لم يأكل أهله التنبول الا في ذلك اليوم فياخذ القاضي أو من يقوم مقامه أوراقا منه فيعطيها لولي الميت فيأكلها وينصرفون حينئذ وسيأتي ذكر التنبول ان شاء الله تعالى

— ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من أهلها —

سمعت بجامع بني أمية عمره الله بذكره جميع صحيح الامام ابي عبد الله محمد بن اسمعيل الجعفي للبخاري رضي الله عنه على الشيخ المعمر رحلة الآفاق ملحق الاصاغر بالاكابر شهاب الدين احمد بن أبي طالب بن أبي النعم بن حسن بن علي بن بيان الدين

مقرىء الصالحي المعروف بابن الشحنة الحجازي في أربعة عشر مجلسا أولها يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان المعظم سنة ست وعشرين وسبعمائة وآخرها يوم الاثنين الثامن والعشرين منه بقراءة الامام الحافظ مؤرخ الشام علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي الاشبيلي الاصل الدمشقي في جماعة كبيرة كتب أسماءهم محمد بن طغريل ابن عبد الله بن الغزال الصيرفي بسماع الشيخ أبي العباس الحجازي لجميع الكتاب من الشيخ الامام سراج الدين أبي عبد الله الحسين بن أبي بكر المبارك بن محمد بن يحيى بن علي بن المسيح بن عمران الربيعي البغدادي الزبيدي الحنبلي في أواخر شوال وأوائل ذي القعدة من سنة ثلاثين وستمائة بالجامع المظفري بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق وباجازته في جميع الكتاب من الشيخين أبي الحسن محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين بن الخلف القطيعي المؤرخ وعلي بن أبي بكر بن عبد الله بن روبة القلانسي العطار البغدادي ومن باب غيرة النساء ووجدهن الى آخر الكتاب من أبي المنجا عبد الله بن عمر بن علي بن زيد بن اللتي الخزاعي البغدادي بسماع أربعتهم من الشيخ سديد الدين أبي الوقت عبد الاول بن عيسى بن شعيب بن ابراهيم السجزي الهروي الصوفي في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ببغداد قال اخبرنا الامام جمال الاسلام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر ابن محمد بن داود بن أحمد بن معاذ بن سهل بن الحكم الدوادي قراءة عليه وانا أسمع ببوشنج سنة خمس وستين وأربعمائة قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حوية بن يوسف بن أيمن السرخسي قراءة عليه وأنا أسمع في صفر سنة احدى وثمانين وثلاثمائة قال أخبرنا عبد الله محمد بن يوسف بن مطر بن صالح بن بشر بن ابراهيم الفربري قراءة عليه وأنا أسمع سنة ست عشرة وثلاثمائة بفربر قال اخبرنا الامام أبو عبد الله محمد بن اسمعيل البخاري رضي الله عنه سنة ثمان وأربعين ومائتين بفربر ومرة ثانية بعد هاسنه ثلاث وخمسين وممن أجازني من أهل دمشق اجازة عامة الشيخ أبو العباس الحجازي المذكور سبق الى ذلك وتلفظ لي به - ومنهم الشيخ الامام شهاب الدين أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن محمد المقدسي ومولده في ربيع الاول سنة ثلاث وخمسين وستمائة - ومنهم الشيخ الامام الصالح عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن النجدي - ومنهم امام الأئمة جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن الزكي عبد الرحمن بن يوسف المزني الكلبي حافظ الحفاظ ومنهم الشيخ الامام علاء الدين علي بن يوسف بن محمد بن عبد الله الشافعي والشيخ الامام الشريف محيي الدين يحيى بن محمد بن علي العلوي. ومنهم الشيخ

Digitized by Birzeit University Library

الامام المحدث محمد الدين القاسم بن عبد الله بن أبي عبد الله بن المعلي الدمشقي ومولده سنة أربع وخمسين وستمائة . ومنهم الشيخ الامام العالم شهاب الدين أحمد بن ابراهيم بن فلاح بن محمد الاسكندري . ومنهم الشيخ الامام ولي الله تعالى شمس الدين بن عبد الله ابن تمام والشيخان الاخوان شمس الدين محمد وكمال الدين عبد الله ابنا ابراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسي والشيخ العابد شمس الدين محمد بن أبي الزهراء بن سالم الهكاري . والشيخة الصالحة أم محمد عائشة بنت محمد بن مسلم بن سلامة الحراني . والشيخة الصالحة رحلة الدنيا زينب بنت كمال الدين أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي كل هؤلاء أجازني إجازة عامة في سنة ست وعشرين بدمشق ولما استهل شوال من السنة المذكورة خرج الركب الحجازي الى خارج دمشق ونزلوا القرية المعروفة بالكسوة فاخذت في الحركة معهم وكان أمير الركب سيف الدين الجوبان من كبار الامراء وقاضيه شرف الدين الاذرعي الحوراني وحج في تلك السنة مدرس المالكية صدر الدين الغماري وكان سفري مع طائفة من العرب تدعى العجارمة أميرهم محمد بن رافع كبير القدر في الامراء وارتحلنا من الكسوة الى قرية تعرف بالصنمين عظيمة ثم ارتحلنا منها الى بلدة زرعة وهي صغيرة من بلاد حوران نزلنا بالقرب منها ثم ارتحلنا الى مدينة بصرى وهي صغيرة ومن عادة الركب ان يقيم بها اربعا ليلحق بهم من تخلف بدمشق لقضاء مآربه والى بصرى وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعث في تجارة خديجة وبها مبرك ناقته قد بني عليه مسجد عظيم ويجتمع أهل حوران لهذه المدينة وينزودا لحاج منها ثم يرحلون الى بركة زبرة (زيرا) ويقيمون عليها يوما ثم يرحلون الى اللجون وبها الماء الجاري ثم يرحلون الى حصن الكرك وهو من اعجب الحصون وأمنعها وأشهرها ويسمي بحصن الغراب والوادي يطيف به من جميع جهاته وله باب واحد قد نحت المدخل اليه في الحجر الصلد ومدخل دهليزه كذلك وبهذا الحصن يتحصن الملوك واليه يلجؤن في النوائب وله لجا الملك الناصر لانه ولي الملك وهو صغير السن فاستولى على التدبير مملوكه سلار النائب عنه فاظهر الملك الناصر انه يريد الحج ووافقه الامراء على ذلك فتوجه الى الحج فلما وصل عقبة أيلة لجا الى الحصن وأقام به اعواما الى ان قصده امراء الشام واجتمعت عليه المماليك وكان قد ولى الملك في تلك المدة بيبرس الششنكير وهو أمير الطعام وتسمي بالملك المظفر وهو الذي بني الخانقاه البيبرسية بمقربة من خانقاة سعيد السعداء التي بناها صلاح الدين بن أيوب فقصده الملك الناصر بالعساكر ففر بيبرس الى الصحراء فتبعته العساكر وقبض عليه وأتي به الى الملك الناصر

Digitized by Birzeit University Library

فامر بقتله فقتل وقبض على سلار وحبس فى جب حتى مات جوعا ويقال انه اكل جيفة من الجوع نعوذ بالله من ذلك واقام الركب بخارج الكرك أربعة أيام بموضع يقال له الثنية وتجهزوا لدخول البرية. ثم ارتحلنا الى معان وهو آخر بلاد الشام ونزلنا من عقبة الصوان الى الصحراء التي يقال فيها ادخلها مفقود وخارجها موجود وبعد مسيرة يومين نزلنا ذات حج وهى حسيان لا عمارة بها. ثم الى وادى بلدح ولا ماء به. ثم الى تبوك وهو الموضع الذى غزاه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيها عين ماء كانت تبض بشيء من الماء فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضأ منها جادت بالماء المعين ولم يزل الى هذا العهد ببركة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن عادة حجاج الشام اذا وصلوا منزل تبوك أخذوا اسلحتهم وجردوا سيوفهم وحملوا على المنزل وضربوا النخيل بسيوفهم ويقولون هكذا دخلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وينزل الركب العظيم على هذه العين فيروي منها جميعهم ويقيمون أربعة أيام للراحة وإرواء الجمال واستعداد الماء للبرية المخوفة التي بين العلا وتبوك ومن عادة السقائين انهم ينزلون على جوانب هذه العين ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام يسقون منها الجمال ويملؤن الروايا والقرب ولكل امير او كبير حوض يسقى منه جماله وجمال اصحابه ويملأ رواياهم وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جمله وملء قربته بشيء معلوم من الدراهم ثم يرحل الركب من تبوك ويجدون السير ليلا ونهارا خوفا من هذه البريه وفي وسطها الوادى الاخيض كانه وادى جهنم اعاذنا الله منها واصاب الحجاج به فى بعض السنين مشقة بسبب ريح السموم التي نهب فانتشفت المياه وانتهت شربة الماء الى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها وكتب ذلك فى بعض صخر الوادى ومن هنالك ينزلون بركة المعظم وهى ضخمة نسبتها الى الملك المعظم من اولاد ايوب ويجتمع بها ماء المطر فى بعض السنين وربما جف فى بعضها وفى الخامس من ايام رحيلهم عن تبوك يصلون الى بئر الحجر حجر ثمود وهى كثيرة الماء ولكن لا يردها احد من الناس مع شدة عطشهم اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بها فى غزوة تبوك فاسرع براحلته وامر ان لا يستقى منها احد ومن عجن به اطعمه الجمال وهنالك ديار ثمود فى جبال من الصخر الاحمر منحوتة لها عتب منقوشة يظن رائيها انها حديثة الصنعة وعظامهم نخرة فى داخل تلك البيوت ان فى ذلك لعبرة ومبرك ناقة صالح عليه السلام بين جبلين هنالك وبينهما اثر مسجد يصلى الناس فيه وبين الحجر والعلا نصف يوم أودونه والعلا قرية كبيرة حسنة لها بساتين

Digitized by Birzeit University Library

النخل والمياه المعينة يقيم بها الحجاج أربعا يتزودون ويغسلون ثيابهم ويدعون بها ما يكون عندهم من فضل زادو يستصحبون قدر الكفاية وأهل هذه القرية أصحاب أمانة واليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها ويبايعون الحجاج بها الزاد وسواه ثم يرحل الركب من العلا فينزلون في غدر حيلهم الوادي المعروف بالعطاس وهو شديد الحر تهب فيه السموم المهلكة هبت بعض السنين على الركب فلم يخلص منهم الا اليسير وتعرف تلك السنة سنة الامير الجالق ومنه ينزلون هدية وهي حسيان ماء بواد يحفرون به فيخرج الماء وهو زعاق وفي اليوم الثالث ينزلون بظاهر البلد المقدس الكريم الشريف

— طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم —

وفي عشي ذلك اليوم دخلنا الحرم الشريف وانتهينا الى المسجد الكريم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة بين القبر والمنبر الكريم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذي حن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة وأدينا حق السلام على سيد الاولين والآخرين وشفيع العصاة والمذنبين الرسول النبي الهاشمي الابطحي محمد صلى الله عليه وسلم تسليما وشرف وكرم وحق السلام على ضجيعيه وصاحبيه أبي بكر الصديق وابي حفص عمر الفاروق رضي الله عنهما وانصرفنا الى رحلنا مسرورين بهذه النعمة العظمى مستبشرين بنيل هذه المنة الكبرى حامدين الله تعالى على البلوغ الى معاهد رسوله الشريفة ومشاهده العظيمة المنيفة داعين أن لا يجعل ذلك آخر عهدنا بها وان يجعلنا ممن قبلت زيارته وكتبت في سبيل الله سفرته

— ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وروضته الشريفة —

المسجد المعظم مستطيل تحفه من جهاته الاربع بلاطات دائرة به ووسطه صحن مفروش بالحصى والرمل ويدور بالمسجد الشريف شارع مبلط بالحجر المنحوت والروضة المقدسة صلوات الله وسلامه على ساكنها في الجهة القبلية مما يلي الشرق من المسجد الكريم وشكلها عجيب لا يتاتي تمثيله وهي مدورة بالرخام البديع النحت الرائق النعت قد علاها تصميخ المسك والطيب مع طول الازمان وفي الصفحة القبلية منها مسمار فضة هو قبالة الوجه الكريم وهنالك يقف الناس للسلام مستقبلين الوجه الكريم مستديرين القبلة فيسلمون وينصرفون يمينا الى وجه أبي بكر الصديق ورأس أبي بكر رضي الله عنه عند قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ينصرفون الى عمر بن الخطاب ورأس عمر عند كتفي أبي بكر رضي الله عنهما وفي

Digitized by Birzeit University Library

الجوفى من الروضة المقدسة زادها الله طيبا حوض صغير مرخم فى قبلته شكل محراب يقال انه كان بيت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما و يقال أيضا هو قبرها والله أعلم وفى وسط المسجد الكريم دفة مطبقة على وجه الارض مقفلة على سرداب له درج يفضى إلى دار أبي بكر رضى الله عنه خارج المسجد وعلى ذلك السرداب كان طريق بنته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إلى داره ولا شك انه هو الخوخة التي ورد ذكرها فى الحديث وأمر النبى صلى الله عليه وسلم تسليما بابقائها وسد ماسواها وبازاء دار أبي بكر رضى الله عنه دار عمر ودار ابنه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما و بشرقي المسجد الكريم دار إمام المدينة أبي عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه و بمقربة من باب السلام سقاية ينزل اليها على درج ماؤها معين و تعرف بالعين الزرقاء

— ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم —

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الشريفة دار الهجرة يوم الاثنين الثالث عشر من شهر ربيع الاول فنزل على بنى عمرو بن عوف واقام عندهم ثنتين وعشرين ليلة وقيل أربع عشرة ليلة وقيل أربع ليال ثم توجه الى المدينة فنزل على بني النجار بدار ابى أيوب الانصارى رضي الله عنه وأقام عنده سبعة أشهر حتي بني مساكنه ومسجده وكان موضع المسجد مربد السهل وسهل لبني رافع بن أبي عمر بن عائذ بن ثعلبة بن غانم بن مالك بن النجار وهما يتيمان فى حجر أسعد بن زرارة رضى الله عنهم أجمعين وقيل كانا فى حجر أبي أيوب رضى الله عنه فابتاع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ذلك المربد وقيل بل أرضاهما أبو أيوب عنه وقيل انهما وهباه لرسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما المسجد وعمل فيه مع أصحابه وجعل عليه حائطا ولم يجعل له سقفا ولا أساطين وجعله مربعا طوله مائة ذراع وعرضه مثل ذلك وقيل ان عرضه كان دون ذلك وجعل ارتفاع حائطه قدر القامة فلما اشتد الحر تكلم أصحابه فى تسقيفه فاقام له أساطين من جذوع النخل وجعل سقفه من جريدها فلما أمطرت السماء وكف المسجد فكلم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمله بالطين فقال كلا عريش كعريش موسى أو ظلة كظلة موسى والامر أقرب من ذلك قيل وماظلة موسى قال صلى الله عليه وسلم كان اذا قام أصاب السقف رأسه وجعل للمسجد ثلاثة أبواب ثم سد الجنوبي منها حين حولت القبلة و بني المسجد على ذلك حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وحياة أبي بكر رضى الله

Digitized by Birzeit University Library

عنه فلما كانت أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه زاد في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال لولا اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول ينبغي ان نزيد في المسجد مازدت فيه فانزل أساطين الخشب وجعل مكانها أساطين اللبن وجعل الاساس حجارة الى القامة وجعل الابواب ستة منها في كل جهة ماعدا القبلة بابان وقال في باب منها ينبغي ان يترك هذا للنساء فماريء فيه حتي لقي الله عزوجل وقال لوزدنا في هذ المسجد حتي يبلغ الجبانة لم يزل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد عمر ان يدخل في المسجد موضعا للعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي عنهما فمنعه منه وكان فيه ميزان يصب في المسجد فنزعه عمر وقال انه يؤذي الناس فنازعه العباس وحكما بينهما أبي بن كعب رضي الله عنهما فاتياداره فلم يأذن لهما الا بعد ساعة ثم دخلا اليه فقال كانت جاريتي تغسل رأسي فذهب عمر ليتكلم فقال له ابي دع أبا الفضل يتكلم لمكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال العباس خطة خطها لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبنيتها معه وماوضعت الميزاب الا ورجلاي على عاتقي رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء عمر فطرحه وأراد ادخالها في المسجد فقال أبي ان عندي من هذا علما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما يقول أراد داود عليه السلام أن يبني بيت الله المقدس وكان فيه بيت ليتيمين فراودهما على البيع فابيا ثم رادهما فباعاه ثم قاما بالغبن فرد البيع واشتراه منهما ثم رداه كذلك فاستعظم داود الثمن فاوحى الله اليه ان كنت تعطي من شيء هو لك فانت أعلم وان كنت تعطيهما من رزقنا فاعطهما حتي يرضيا وان أغنى البيوت عن مظلمة بيت هو لي وقد حرمت عليك بناءه قال يارب فاعطه سليمان فاعطاه سليمان عليه السلام فقال عمر من لي بان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قاله فخرج أبي الى قوم من الانصار فاثبتوا له ذلك فقال عمر رضي الله عنه أما اني لو لم أجد غيرك أخذت قولك ولكنني احببت ان اثبت . ثم قال للعباس رضي الله عنه والله لاترد الميزاب الا وقدماك على عاتقي ففعل العباس ذلك . ثم قال أما إذا أثبتت لي فهي صدقة لله فهدمها عمر وأدخلها في المسجد . ثم زاد فيه عثمان رضي الله عنه وبناه بقوة وباشره بنفسه فكان يظل فيه نهاره ويبيضه وأتقن محله بالحجارة المنقوشة ووسعه من جهاته الاجهة الشرق منها وجعل له سواري حجارة مثبتة باعمدة الحديد والرصاص وسقفه بالساج وصنع له محرابا وقيل ان مروان هو أول من بني المحراب وقيل عمر بن عبد العزيز في خلافة الوليد — ثم زاد فيه الوليد بن عبد الملك تولى ذلك عمر بن عبد العزيز فوسعه

Digitized by Birzeit University Library

وحسنه وبالغ فى اتقانه وعمله بالرخام والساج المذهب وكان الوليد بعث الى ملك الروم انى أريد ان أبني مسجد نبينا صلى الله عليه وسلم تسليما فاعنى فيه فبعث اليه الفعلة وثمانين الف مثقال من الذهب وأمر الوليد بادخال حجر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تسليما فيه فاشترى عمر من الدور مازاده فى ثلاث جهات من المسجد فلما صار الى القبلة امتنع عبيد الله ابن عبد الله بن عمر من بيع دار حفصة وطال بينهما الكلام حتي ابتاعها عمر على أن لهم ما بقى منها وعلى أن يخرجوا من باقيها طريقا الى المسجد وهي الخوخة التى فى المسجد وجعل عمر للمسجد اربع صوامع فى أربعة أركانه وكانت إحداها مطلة على دار مروان فلما حج سليمان بن عبد الملك نزل بها فاطل عليه المؤذن حين الاذان فامر بهدمها وجعل عمر المسجد محرابا ويقال هو من أحدث المحراب . ثم زاد فى المهدى بن ابى جعفر المنصور وكان ابوهم بذلك ولم يقض له وكتب اليه الحسن بن زيد يرغبه فى الزيارة فيه من جهة الشرق ويقول انه إن زيد فى شرقيه توسطت الروضة الكريمة المسجد الكريم فاتهمه ابو جعفر بانه انما اراد هدم دار عثمان رضي الله عنه فكتب اليه اني قد عرفت الذي اردت فاكفف عن دار عثمان وامر ابو جعفر ان يظلل الصحن ايام القيظ بستور تنشر على حبال ممدودة على خشب تكون فى الصحن لتكن المصلين من الحر وكان طول المسجد فى بناء الوليد مائتى ذراع فبلغه المهدى الى ثلاثمائة ذراع وسوى المقصورة بالارض وكانت مرتفعة عنها بمقدار ذراعين وكتب اسمه على مواضع من المسجد ثم امر الملك المنصور فلاوون ببناء دار للوضوء عند باب السلام فتولى بناءها الامير الصالح علاء الدين المعروف بالاقمر واقامها متسعة الفناء تستدير بها البيوت واجرى اليها الماء واراد ان يبني بمكة شرفها الله تعالى مثل ذلك فلم يتم له فبناه ابنه الملك الناصر بين الصفا والمروة وسيذكر ان شاء الله وقبلة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما قبلة قطع لانه صلى الله عليه وسلم تسليما اقامها وقيل اقامها جبريل عليه السلم وقيل كان يشير جبريل له الى سمتها وهو يقيمها وروى ان جبريل عليه السلام اشار الى الجبال فتواضعت فتنحت حتي بدت الكعبة فكان صلى الله عليه وسلم تسليما يبني وهو ينظر اليها عيانا وبكل اعتبار فهى قبلة قطع وكانت القبلة أول ورود النبي صلى الله عليه وسلم تسليما المدينة الى بيت المقدس ثم حولت الى الكعبة بعد ستة عشر شهرا وقيل بعد سبعة عشر شهراً

— ذكر المنبر الكريم —

وفى الحديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما كان يخطب الى جذع نخلة

Digitized by Birzeit University Library

بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول اليه حن الجذع حنين الناقة الى حوارها وروي ان رسول الله صلي الله عليه وسلم تسليما نزل اليه فالتزمه فسكن وقال لولم ألتزمه لحن الى يوم القيامة واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكريم فروى ان تميما الدارى رضى الله عنه هو الذى صنعه وقيل ان غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه وقيل غلام لامرأة من الانصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح وصنع من طرفاء الغابة وقيل من الاثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على عليا هن ويضع رجليه الكريمتين فى وسطا هن فلما ولى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قعد علي وسطا هن وجعل رجليه على أولا هن فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على أولا هن وجعل رجليه على الارض وفعل ذلك عثمان رضى الله عنه صدرا من خلافته ثم ترقى الى الثالثة ولما ان صار الامر الى معاوية رضي الله عنه أراد نقل المنبر الى الشام فضج المسلمون وعصفت ريح شديدة وخسفت الشمس و بدت النجوم نهارا وأظلمت الارض فكان الرجل يصادم الرجل ولا يتبين مسلك فلما رأى ذلك معاوية تركه وزاد فيه ست درجات من أسفله فبلغ تسع درجات

— ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم —

وكان الامام بالمسجد الشريف فى عهد دخولى الى المدينة بهاء الدين بن سلامة من كبار أهل مصر و ينوب عنه العالم الصالح الزاهد بقية المشايخ عز الدين الواسطى نفع الله به وكان يخطب قبله و يقضى بالمدينة الشريفة سراج الدين عمر المصرى — حكاية — يذكر أن سراج الدين هذا أقام فى خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة ثم انه أراد الخروج بعد ذلك الى مصر فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم ثلاث مرات فى كل مرة ينهاه عن الخروج منها وأخبره باقتراب أجله فلم ينته عن ذلك وخرج فمات بموضع يقال له سويس على مسيرة ثلاث من مصر قبل ان يصل اليها نعوذ بالله من سوء الخاتمة وكان ينوب عنه الفقيه ابو عبد الله محمد بن فرحون رحمه الله وأبناؤه الآن بالمدينة الشريفة أبو محمد عبد الله مدرس المالكية ونائب الحكم وأبو عبد الله محمد وأصلهم من مدينة تونس ولهم بها حسب واصالة وتولى الخطابة والقضاء بالمدينة الشريفة بعد ذلك جمال الدين الاسيوطى من أهل مصر وكان قبل ذلك قاضيا بحصن الكرك

— ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به —

وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الاحابيش وسواهم وهم على هيآت

حسان وصور نظاف وملابس ظراف وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام وهو في هيئة الامراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام ويؤتى اليهم بها في كل سنة ورئيس المؤذنين بالحرم الشريف الامام المحدث الفاضل جمال الدين المطري من مطرية قرية بمصر وولده الفاضل عفيف الدين عبدالله والشيخ المجاور الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الغرناطي المعروف بالتراس قديم المجاورة وهو الذي جب نفسه خوفا من الفتنة — حكاية —

بذكران أبا عبدالله الغرناطي كان خديما لشيخ يسمي عبد الحميد العجمي وكان الشيخ حسن الظن به يطمئن اليه باهله وماله ويتركه متى سافر بداره فسافر مرة وتركه على عادته بمنزله فعلقت به زوجة الشيخ عبدالحميد وراودته عن نفسه فقال اني أخاف الله ولا أخون من ائتمنني على أهله وماله فلم تزل تراوده وتعارضه حتي خاف علي نفسه الفتنة فجب نفسه وغشي عليه ووجده الناس على تلك الحالة فعالجوه حتي برىء وصار من خدام المسجد الكريم ومؤذنا به ورأس الطائفتين وهو باق بقيد الحياة الى هذا العهد

— ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة —

منهم الشيخ الصالح الفاضل ابو العباس أحمد بن محمد مرزوق كثير العبادة والصوم والصلاة بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما صابراً محتسباً وكان ربما جاور بمكة المعظمة رأيته بها في سنة ثمان وعشرين وهو اكثر الناس طوافا وكنت اعجب من ملازمته الطواف مع شدة الحر بالمطاف والمطاف مفروش بالحجارة السود وتصير بحر الشمس كانها الصفائح المحماة ولقد رأيت السقائين يصبون الماء عليها فما يجاوز الموضع الذي يصب فيه الا ويلتهب الموضع من حينه واكثر الطائفين في ذلك الوقت يلبسون الجوارب وكان أبو العباس بن مرزوق يطوف حافي القدمين ورأيته يوما يطوف فاحببت ان أطوف معه فوصلت المطاف وأردت استلام الحجر الاسود فلحقني لهب تلك الحجارة واردت الرجوع بعد تقبيل الحجر فما وصلته الا بعد جهد عظيم ورجعت فلم أطف وكنت أجعل بجادي على الارض وأمشي عليه حتى بلغت الرواق وكان في ذلك العهد بمكة وزير غرناطة وكبيرها أبو القاسم محمد بن محمد بن الفقيه ابى الحسن سهل بن مالك الازدي وكان يطوف كل يوم سبعين أسبوعا ولم يكن يطوف في وقت القائلة لشدة الحر وكان ابن مرزوق يطوف في شدة القائلة زيادة عليه. ومن المجاورين بالمدينة كرمها الله الشيخ الصالح العابد سعيد المراكشي الكفيف. ومنهم الشيخ ابو مهدي عيسى بن حزرون المكناسي — حكاية —

جاور الشيخ أبو مهدي بمكة سنة ثمان وعشرين وخرج الى جبل حراء مع جماعة

Digitized by Birzeit University Library

من المجاورين فلما صعدوا الجبل ووصلوا لمتعبد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ونزلوا عنه تاخر أبو مهدي عن الجماعة ورأى طريقا في الجبل فظنه قاصرا فسلك عليه ووصل أصحابه الى أسفل الجبل فانتظروه فلم يأت فتطلعوا فيما حولهم فلم يروا له أثرا فظنوا أنه سبقهم فمضوا الى مكة شرفها الله تعالى ومر عيسى على طريقه فافضي به الى جبل آخر وتاه عن الطريق وأجهده العطش والحر وتمزقت نعله فكان يقطع من ثيابه ويلف على رجليه الى ان ضعف عن المشي واستظل بشجرة ام غيلان فبعث الله اعرابيا على جمل حتى وقف عليه فاعلمه بحاله فاركبه واوصله الى مكة وكان على وسطه هميان فيه ذهب فسلمه اليه واقام نحو شهر لا يستطيع القيام على قدميه وذهبت جلدتهما ونبتت لهما جلدة أخرى وقد جرى مثل ذلك لصاحب لي اذكره ان شاء الله. ومن المجاورين بالمدينة الشريفة أبو محمد الشروطي من القراء المحسنين وجاور بمكة في السنة المذكورة وكان يقرأ لها كتاب الشفاء للقاضي عياض بعد صلاة الظهر وأم في التراويح بها ومن المجاورين الفقيه ابو العباس الفاسي مدرس المالكية بها وتزوج ببنت الشيخ الصالح شهاب الدين الزرندي - حكاية -

يذكر ان أبا العباس الفاسي تكلم يوما مع بعض الناس فانتهى به الكلام الى ان تكلم بعظيمة ارتكب فيها بسبب جهله بعلم النسب وعدم حفظه للسانه مركبا صعبا عافا الله عنه فقال ان الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام لم يعقب فبلغ كلامه الى أمير المدينة طفيل ابن منصور بن حماز الحسني فانكر كلامه وبحق انكاره واراد قتله فكلم فيه فنفاه عن المدينة ويذكر انه بعث من اغتاله والى الآن لم يظهر له أثر نعوذ بالله من عثرات اللسان وزلله

— ذكر أمير المدينة الشريفة —

كان أمير المدينة كبيش بن منصور بن حماز وكان قد قتل عمه مقبلا ويقال انه توضأ بدمه ثم ان كبيشا خرج سنة سبع وعشرين الى الفلاة في شدة الحر ومعه أصحابه فادركتهم القائلة في بعض الايام فتفرقوا تحت ظلال الاشجار فاراعهم الا وابناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون بالثارات مقبل فقتلوا كبيش بن منصور صبرا ولعقوا دمه وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور الذي ذكرنا أنه نفى أبا العباس الفاسي

— ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة —

فمنها بقيع الغرقد وهو بشرقي المدينة المكرمة ويخرج اليه على باب يعرف بباب البقيع فاول ما يلقي الخارج اليه على يساره عند خروجه من الباب قبر صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنهما وهي عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وام الزبير بن العوام رضي الله عنه

Digitized by Birzeit University Library

وامامها قبر امام المدينة أبي عبدالله مالك بن انس رضي الله عنه وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريمة ابراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعليه قبة بيضاء وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وهو المعروف بابي شحمة وبازائه قبر عقيل بن ابي طالب رضي الله عنه وقبر عبد الله بن ذي الجناحين جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما وبازائهم روضة يذكر ان قبور أمهات المؤمنين بها رضي الله عنهن ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام وهي قبة ذاهبة في الهواء بديعة الاحكام عن يمين الخارج من باب البقيع ورأس الحسن الى رجلي العباس عليهما السلام وقبراهما مرتفعان عن الارض متسعان مغشيان بالواح بديعة الا لصاق مرصعة بصفائح الصفر البديعة العمل وبالبقيع قبور المهاجرين والانصار وسائر الصحابة رضي الله عنهم الا انها لا يعرف أكثرها وفي آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبي عمر عثمان بن عفان رضي الله عنه وعليه قبة كبيرة وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت اسد بن هاشم ام علي بن ابي طالب رضي الله عنها وعن ابنها ومن المشاهد الكريمة قباء وهو قبلي المدينة على نحو ميلين منها والطريق بينهما في حدائق النخل وبه المسجد الذي اسس على التقوى والرضوان وهو مسجد مربع فيه صومعة بيضاء طويلة تظهر على البعد وفي وسطه مبرك الناقة للنبي صلى الله عليه وسلم تسليما يتبرك الناس بالصلاة فيه وفي الجهة القبلية من صحنه محراب على مسطبة هو اول موضع ركع فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وفي قبلي المسجد دار كانت لابي أيوب الانصاري رضي الله عنه ويليها دور تنسب لابي بكر وعمر وفاطمة وعائشة رضي الله عنهم وبازائه بئر اريس وهي التي عاد ماؤها عذبا لما تفل فيه النبي صلى الله عليه وسلم تسليما بعد أن كان أجاجا وفيها وقع الخاتم الكريم من عثمان رضي الله عنه ومن المشاهد قبة حجر الزيت بخارج المدينة الشريفة يقال إن الزيت رشح من حجر هنالك للنبي صلى الله عليه وسلم تسليما. والى جهة الشمال منه بئر بضاعة. وبازائها جبل الشيطان حيث صرخ يوم أحد وقال قتل نبيكم وعلى شفير الخندق الذي حفره رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عند تحزب الاحزاب حصن خرب يعرف بحصن العراب يقال ان عمر بناه لعزاب المدينة وامامه الى جهة الغرب بئر رومة التي اشترى أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه نصفها بعشرين الفا ومن المشاهد الكريمة أحد وهو الجبل المبارك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما إن أحدا جبل يحبنا ونحبه وهو يجواد

Digitized by Birzeit University Library

المدينة الشريفة على نحو فرسخ منها وبازائه الشهداء المكرمون رضى الله عنهم وهنالك قبر حمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضى الله عنه وحوله الشهداء المستشهدون فى أحد رضي الله عنهم وقبورهم لقبلى أحد وفى طريق أحد مسجد ينسب لعلى بن أبي طالب رضى الله عنه ومسجد ينسب الى سلمان الفارسي رضي الله عنه ومسجد الفتح حيث أنزلت سورة الفتح على رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وكانت اقامتنا بالمدينة الشريفة فى هذه الوجهة أربعة أيام وفي كل ليلة نبيت بالمسجد الكريم والناس قد حلقوا فى صحنه حلقا وأوقدوا الشمع الكثير وبينهم ربعات القرآن الكريم يتلونه وبعضهم يذكرون الله وبعضهم فى مشاهدة التربة الطاهرة زادها الله طيبا والحداة بكل جانب يترنمون بمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وهكذا دأب الناس فى تلك الليالى المباركة ويجودون بالصدقات الكثيرة على المجاورين والمحتاجين وكان فى صحبتى فى هذه الوجهة من الشام الى المدينة الشريفة رجل من أهلها فاضل يعرف بمنصور بن شكل وأضاف فى بها واجتمعنا بعد ذلك بحلب وبخارى وكان فى صحبتى أيضاً قاضى الزيدية شرف الدين قاسم بن سنان وصحبني أيضاً أحد الصلحاء الفقراء من أهل غرناطة يسمي بعلى ابن حجر الاموى

— حكاية —

لما وصلنا الي المدينة كرمها الله على ساكنها أفضل الصلاة وأزكى السلام ذكر لى على بن حجر المذكور انه رأى تلك الليلة فى النوم قائلا يقول له اسمع مني واحفظ عني (طويل)

هنيئاً لكم يازائرين ضريحه * أمنتم به يوم المعاد من الرجس

وصلتم الى قبر الحبيب بطيبة * فطوبي لمن يضحى بطيبة أو يمسى

وجاور هذا الرجل بعد صحبته بالمدينة ثم رحل الى مدينة دهلى قاعدة بلاد الهند فى سنة ثلاث وأربعين فنزل فى جواري وذكرت حكاية رؤياه بين يدي ملك الهند فامر باحضاره فحضر بين يديه وحكى له ذلك فاعجبه واستحسنه وقال له كلاما جميلا بالفارسية وأمر بانزاله وأعطاه ثلاثمائة تنكة من ذهب ووزن التنكة من دنانير المغرب دينار ان ونصف دينار وأعطاه فرسا محلى السرج واللجام وخلعة وعين له مرتباً فى كل يوم وكان هنالك فقيه طيب من أهل غرناطة ومولده ببجاية يعرف هنالك بجمال الدين المغربي فصحبه على بن حجر المذكور وواعده على أن يزوجه بنته وأنزله بدويرة خارج داره واشترى جارية وغلاما وكان يترك الدنانير فى مفرش ثيابه ولا يطمئن بها لاحد فاتفق الغلام والجارية على أخذ ذلك الذهب وأخذاه وهربا فلما اتى الدار لم يجدلها أثرا ولا

Digitized by Birzeit University Library

للذهب فامتنع من الطعام والشراب واشتد به المرض أسفا على ماجرى عليه فعرضت قضيته بين يدى الملك فامر أن يخلف له ذلك فبعث ذلك اليه من يعلمه بذلك فوجده قدمات رحمه الله تعالى وكان رحيلنا من المدينة نريد مكة شرفها الله تعالى فنزلنا بقرب مسجد ذي الحليفة الذى أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وبالمدينة منه على خمسة أميال وهو منتهى حرم المدينة وبالقرب منه وادى العقيق وهنالك تجردت من مخيط الثياب واغتسلت ولبست ثوب احرامى وصليت ركعتين واحرمت بالحج مفرداً ولم أزل ملبيا فى كل سهل وجبل وصعود وحدور الى أن أتيت شعب على عليه السلام وبه نزلت تلك الليلة - ثم رحلنا منه ونزلنا بالروحاء وبها بئر تعرف ببئر ذات العلم ويقال ان عليا عليه السلام قاتل بها الجن - ثم رحلنا ونزلنا بالصفراء وهو وادٍ معمور فيه ماء ونخل وبنيان وقصر يسكنه الشرفاء الحسنيون وسواهم وفيها حصن كبير وتواليه حصون كثيرة وقرى متصلة - ثم رحلنا منه ونزلنا ببدر حيث نصر الله رسوله صلى الله عليه وسلم تسليما وأنجز وعده الكريم واستاصل صناديد المشركين وهي قرية فيها حدائق نخل متصلة وبها حصن منيع يدخل اليه من بطن وادٍ بين جبال وببدر عين فوارة يجرى ماؤها وموضع القليب الذي سحب به أعداء الله المشركون هو اليوم بستان وموضع الشهداء رضى الله عنهم خلفه وجبل الرحمة الذي نزلت به الملائكة على يسار الداخل منه الى الصفراء وبازائه جبل الطبول وهو شبه كثيب الرمل ممتد ويزعم أهل تلك البلدة انهم يسمعون هنالك مثل أصوات الطبول فى كل ليلة جمعة وموضع عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان به يوم بدر يناشد ربه جل وتعالى متصل بسفح جبل الطبول وموضع الوقيعة امامه وعند نخل القليب مسجد يقال له مبرك ناقة النبى صلى الله عليه وسلم تسليما وبين بدر والصفراء نحو بريد فى واد بين جبال تطرد فيه العيون وتتصل حدائق النخل ورحلنا من بدر الى الصحراء المعروفة بقاع البرواء وهي برية يضل بها الدليل . ويذهل عن خليله الخليل مسيرة ثلاث وفى منتهاها وادى رابغ يتكون فيه بالمطر غدران يبقى بها الماء زمانا طويلا ومنه يحرم حجاج مصر والمغرب وهو دون الجحفة وسرنا من رابغ ثلاثا الى خليص ومررنا بعقبة السويق وهى على مسافة نصف يوم من خليص كثيرة الرمل والحجاج يقصدون شرب السويق بها ويستصحبونه من مصر والشام برسم ذلك ويسقونه الناس مخلط بالسكر والامراء يملؤن منه الاحواض ويسقونها الناس وذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بها ولم يكن مع أصحابه بطعام فاخذ من رملها فاعطاهم اياه فشربوه

Digitized by Birzeit University Library

سويقة ثم نزلنا بركة خليص وهي في بسيط من الارض كثيرة حدائق النخل لها حصن مشيد في قنة جبل وفي البسيط حصن خرب و بها عين فوارة قد صنعت لها أخاديد في الارض وسربت الى الضياع وصاحب خليص شريف حسني النسب وعرب تلك الناحية يقيمون هنالك سوقا عظيمة يجلبون اليها الغنم والثمر والادام ثم رحلنا الى عسفان وهي في بسيط من الارض بين جبال وبها آبار ماء معين تنسب احداها الى عثمان بن عفان رضي الله عنه والمدرج المنسوب الى عثمان أيضا على مسافة نصف يوم من خليص وهو مضيق بين جبلين وفي موضع منه بلاط على صورة درج واثر عمارة قديمة وهنالك بئر تنسب الى علي عليه السلام ويقال انه احدثها وبعسفان حصن عتيق وبرج مشيد قد اوهنه الخراب وبه من شجر المقل كثير ثم رحلنا من عسفان ونزلنا بطن مرو يسمى ايضا مر الظهران وهو واد مخصب كثير النخل ذو عين فوارة سيالة تسقي تلك الناحية ومن هذا الوادي تجلب الفواكه والخضر الى مكة شرفها الله تعالى ثم ادلجنا من هذا الوادي المبارك والنفوس مستبشرة ببلوغ آمالها مسرورة بمآلها وما آلها فوصلنا عند الصباح الى البلد الامين مكة شرفها الله تعالى فوردنا منها على حرم الله تعالى ومبوإ خليله ابراهيم ومبعث صفيه محمد صلى الله عليه وسلم ودخلنا البيت الحرام الشريف الذي من دخله كان آمنا من باب بني شيبة وشاهدنا الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما وهي كالعروس تجلى على منصة الجلال وترفل في برود الجمال محفوفة بوفود الرحمان موصلة الى جنة الرضوان وطفنا بها طواف القدوم واستلمنا الحجر الكريم وصلينا ركعتين بمقام ابراهيم وتعلقنا باستار الكعبة عند الملتزم بين الباب والحجر الاسود حيث يستجاب الدعاء وشربنا من ماء زمزم وهو لما شرب له حسبما وردعن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما ثم سعينا بين الصفا والمروة ونزلنا هنالك بدار يعمر بها من باب ابراهيم والحمد لله الذي شرفنا بالوفادة على هذا البيت الكريم وجعلنا ممن بلغته دعوة الخليل عليه الصلاة والتسليم ومتع أعيننا بمشاهدة الكعبة الشريفة والمسجد العظيم والحجر الكريم وزمزم والحطيم ومن عجائب صنع الله تعالى انه طبع القلوب على النزوع الى هذه المشاهد المنيفة والشوق الى المثول بمعاهدها الشريفة وجعل حبها متمكنا في القلوب فلا يحلها أحد الا أخذت بمجامع قلبه ولا يفارقها الا أسفا لفراقها متوطلا لبعاده عنها شديد الحنين اليها ناويا لتكرار الوفادة عليها فارضها المباركة نصب الاعين ومحبتها حشو القلوب حكمة من الله بالغة وتصديقا لدعوة خليله عليه السلام والشوق يحضرها وهي نائية و يمثلها وهي غائبة ويهون على قاصدها ما يلقاه من المشاق

و يعانيه من العناء وكم من ضعيف يرى الموت عيانا دونها و يشاهد التلف فى طريقها فاذا جمع الله بها شمله تلقاها مسرورا مستبشرا كانه لم يذق لها مرارة ولا كابد محنة ولا نصبا انه لامر إلهى وصنع ربانى ودلالة لا يشوبها لبس ولا تغشاها شبهة ولا يطرقها تمويه وتعزفى بصيرة المستبصرين وتبدو فى فكرة المتفكرين ومن رزقه الله تعالى الحلول بتلك الارجاء والمثول بذلك الفناء فقد انعم الله عليه النعمة الكبرى وخوله خير الدارين الدنيا والاخرى فحق عليه ان يكثر الشكر على ما خوله و يديم الحمد على ما أولاه جعلنا الله تعالى ممن قبلت زيارته وربحت فى قصدها تجارته وكتبت فى سبيل الله آثاره ومحيت بالقبول أوزاره بمنه وكرمه

— ذكر مدينة مكة المعظمة —

وهي مدينة كبيرة متصلة البنيان مستطيلة في بطن واد تحف به الجبال فلا يراها قاصدها حتى يصل اليها وتلك الجبال المطلة عليها ليست بمفرطة الشموخ والاخشبان من جبالها هما جبل أبي قبيس وهو فى جهة الجنوب منها وجبل قعيقعان وهو فى جهة منها وفي الشمال منها الجبل الاحمر ومن جهة أبي قبيس أجياد الاكبر وأجياد الاصغر وهما شعبان والخندمة وهى جبل وستذكر (والمناسك كلها مني وعرفة والمزدلفة) بشرفي مكة شرفها الله ولمكة من الابواب ثلاثة باب المعلى باعلاها وباب الشبيكة من أسفلها ويعرف ايضا بباب الزاهر و بباب العمرة وهو الى جهة المغرب وعليه طريق المدينة الشريفة ومصر والشام وجدة ومنه يتوجه الى التنعيم وسيذكر ذلك وباب المسفل وهو من جهة الجنوب ومنه دخل خالد بن الوليد رضى الله عنه يوم الفتح ومكة شرفها الله كما اخبر الله فى كتابه العزيز حاكيا عن نبيه الخليل بوادغير ذى زرع ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تجلب اليها وثمرات كل شيء تجبى لها ولقد اكلت بها من الفواكه العنب والتين والخوخ والرطب مالا نظير له فى الدنيا وكذلك البطيخ الحلوب اليها لا يماثله سواه طيبا وحلاوة واللحوم بها سمان لذيذات الطعوم وكل ما يفترق فى البلاد من السلع فيها اجتماعه وتجلب لها الفواكه والخضر من الطائف ووادى نخلة و بطن مر لطفا من الله بسكان حرمه الامين ومجاوري بيته العتيق

— ذكر المسجد الحرام شرفه الله وكرمه —

والمسجد الحرام فى وسط البلد وهو متسع الساحة طوله من شرق الى غرب ازيد من اربعمائة ذراع حكى ذلك الازرقي وعرضه يقرب من ذلك والكعبة العظمي فى وسطه

Digitized by Birzeit University Library

ومنظره بديع ومرآه جميل لا يتعاطى اللسان وصف بدائعه ولا يحيط الواصف بحسن كماله وارتفاع حيطانه نحو عشرين ذراعا وسقفه على أعمدة طوال مصطفة ثلاثة صفوف باتقن صناعة وأجلها وقد انتظمت بلاطاته الثلاثة انتظاما عجيبا كأنها بلاط واحد وعدد سواريه الرخامية أربعمائة واحدي وتسعون سارية ماعدا الجصية التي في دار الندوة المزيدة في الحرم وهي داخلة في البلاط الآخذ في الشمال ويقابلها المقام مع الركن العراقي وفضاؤها متصل يدخل من هذا البلاط اليه ويتصل بجدار هذا البلاط مساطب تحت قسي حنايا يجلس بها المقرئون والساخون والخياطون وفي جدار البلاط الذي يقابله مساطب تماثلها وسائر البلاطات تحت جداراتها مساطب بدون حنايا وعند باب ابراهيم مدخل من البلاط الغربي فيه سواري جصية وللخليفة المهدي محمد بن الخليفة أبي جعفر المنصور رضي الله عنهما آثار كريمة في توسيع المسجد الحرام وإحكام بنائه وفي أعلى جدار البلاط الغربي مكتوب أمر عبد الله محمد المهدي أمير المؤمنين اصلحه الله بتوسعة المسجد الحرام لحاج بيت الله وعمارته في سنة سبع وستين ومائة

— ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها الله تعظيما وتكريما —

والكعبة ماثلة في وسط المسجد وهي بنية مربعة ارتفاعها في الهواء من الجهات الثلاث ثمان وعشرون ذراعا ومن الجهة الرابعة التي بين الحجر الاسود والركن اليماني تسع وعشرون ذراعا وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الحجر الاسود أربعة وخمسون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن اليماني الى الركن الشامي وعرض صفحتها التي من الركن العراقي الى الركن الشامي من داخل الحجر ثمانية وأربعون شبرا وكذلك عرض الصفحة التي تقابلها من الركن الشامي الى الركن العراقي وأما خارج الحجر فانه مائة وعشرون شبرا والطواف انما هو خارج الحجر وبناؤها بالحجارة الصم السمر قد ألصقت بابدع الالصاق وأحكمه وأشهده فلا تغيرها الايام ولا تؤثر فيها الازمان وباب الكعبة المعظمة في الصفح الذي بين الحجر الاسود والركن العراقي وبينه وبين الحجر الاسود عشرة أشبار وذلك الموضع هو المسمى بالملتزم حيث يستجاب الدعاء وارتفاع الباب عن الارض أحد عشر شبرا ونصف شبر وسعته ثمانية أشبار وطوله ثلاثة عشر شبرا وعرض الحائط الذي ينطوي عليه خمسة أشبار وهو مصفح بصفائح الفضة بديع الصنعة وعضادتاه وعتبته العليا مصفحات بالفضة وله نقارتان كبيرتان من فضة عليهما قفل ويفتح الباب الكريم في كل يوم جمعة بعد الصلاة ويفتح في يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورسمهم في

فتحه ان يضعوا كرسيا شبه المنبر له درج وقوائم خشب لها أربع بكرات يجرى الكرسي عليها و يلصقونه الى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الاعلى متصلا بالعتبة الكريمة ثم يصعد كبير الشيبيين و بيده المفتاح الكريم ومعه السدنة فيمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمي بالبرقع بخلال مايفتح رئيسهم الباب فاذا فتحه قبل العتبة الشريفة ودخل البيت وحده وسد الباب وأقام قدر مايركع ركعتين ثم يدخل سائر الشيبيين و يسدون الباب أيضا و يركعون ثم يفتح الباب و يبادر الناس بالدخول وفي أثناء ذلك يقفون مستقبلين الباب الكريم بابصار خاشعة وقلوب ضارعة وأيد مبسوطة الى الله تعالى فاذا فتح كبروا ونادوا اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك ياأرحم الراحمين وداخل الكعبة الشريفة مفروش بالرخام المجزع وحيطانه كذلك وله أعمدة ثلاثة طوال مفرطة الطول من خشب الساج بين كل عمود منها و بين الآخر أربع خطا وهي متوسطة في الفضاء داخل الكعبة الشريفة يقابل الاوسط منها نصف عرض الصفح الذى بين الركنين العراقي والشامي وستور الكعبة الشريفة من الحرير الاسود مكتوب فيها بالابيض وهي تتلألأ عليها نورا واشراقا وتكسو جميعها من الاعلى الى الارض ومن عجائب الآيات في الكعبة الكريمة ان بابها يفتح والحرم غاص بأمم لا يحصيها الا الله الذى خلقهم ورزقهم فيدخلونها أجمعين ولا تضيق عنهم ومن عجائبها أنها لا تخلو عن طائف أبدا ليلا ولا نهارا ولم يذكر أحد انه رآها قط دون طائف ومن عجائبها ان حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فاذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى احدي الجهات ولم يعلوها ويقال انه لا ينزل عليها طائر الا اذا كان به مرض فاما ان يموت لحينه أو يبرأ من مرضه فسبحان الذى خصها بالتشريف والتكريم وجعل لها المهابة والتعظيم

— ذكر الميزاب المبارك —

والميزاب في أعلى الصفح الذى على الحجر وهو من الذهب وسعته شبر واحد وهو بارز بمقدار ذراعين والموضع الذي تحت الميزاب مظنة استجابة الدعاء وتحت الميزاب في الحجر هو قبر اسماعيل عليه السلام وعليه رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب متصلة برخامة خضراء مستديرة وكلتاهما سعتها مقدار شبر ونصف شبر وكلتاهما غريبة الشكل رائقة المنظر والى جانبه مما يلى الركن العراقي قبر أمها هاجر عليها السلام وعلامته رخامة خضراء مستديرة سعتها مقدار شبر ونصف و بين القبرين سبعة اشبار

— ذكر الحجر الاسود —

Digitized by Birzeit University Library

وأما الحجر الاسود فارتفاعه عن الارض ستة أشبار فالطويل من الناس يتطاول لتقبيله والصغير يتطاول اليه وهو ملصق في الركن الذي الى جهة المشرق وسعته ثلاثة اشبر وطوله شبر وعقد ولا يعلم قدر ما دخل منه في الركن وفيه أربع قطع ملصقة ويقال ان القرمطي لعنه الله كسره وقيل ان الذي كسره سواه ضربه بدبوس فكسره وتبادر الناس الى قتله وقتل بسببه جماعة من المغاربة وجوانب الحجر مشدودة بصفيحة من فضة يلوح بياضها على سواد الحجر الكريم فتجتلى منه العيون حسنا باهرا ولتقبيله لذة يتنعم بها الفم ويود لائمه أن لا يفارق ثمة خاصية مودعة فيه وعناية ربانية به وكفى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم انه يمين الله في أرضه نفعنا الله باستلامه ومصاحفته واوفد عليه كل شيق اليه وفي القطعة الصحيحة من الحجر الاسود مما يلي جانبه الموالي لليمين مستلمه نقطة بيضاء صغيرة مشرقة كأنها خال في تلك الصحيفة البهية وتري الناس اذا طافوا بها يتساقط بعضهم على بعض ازدحاما على تقبيله فقلما يتمكن أحد من ذلك الا بعد المزاحمة الشديدة وكذلك يصنعون عند دخول البيت الكريم ومن عند الحجر الاسود ابتداء الطواف وهو أول الاركان التي يلقاها الطائف فاذا استلمه تقهقر عنه قليلا وجعل الكعبة الشريفة عن يساره ومضى في طوافه ثم يلقى بعده الركن العراقي وهو الى جهة الشمال ثم يلقى الركن الشامي وهو الى جهة الغرب ثم يلقى الركن اليماني وهو الى جهة الجنوب ثم يعود الى الحجر الاسود وهو الى جهة الشرق

— ذكر المقام الكريم —

إعلم ان بين باب الكعبة شرفها الله وبين الركن العراقي موضعا طوله اثنا عشر شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وارتفاعه نحو شبرين وهو موضع المقام في مدة ابراهيم عليه السلام ثم صرفه النبي صلى الله عليه وسلم الى الموضع الذي هو الآن مصلى وبقي ذلك الموضع شبيه الحوض واليه ينصب ماء البيت الكريم اذا غسل وهو موضع مبارك يزدحم الناس للصلاة فيه وموضع المقام الكريم يقابل ما بين الركن العراقي والباب الكريم وهو الى الباب أميل وعليه قبة تحتها شباك حديد متجاف عن المقام الكريم قدر ما تصل أصابع الانسان اذا أدخل يده من ذلك الشباك الى الصندوق والشباك مقفل ومن ورائه موضع محوز قد جعل مصلى لركعتي الطواف وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما لما دخل المسجد أتى البيت فطاف به سبعا ثم أتى المقام فقرأ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وركع خلفه ركعتين وخلف المقام مصلى امام الشافعية في الحطيم الذي هنالك

— ذكر الحجر والمطاف —

Digitized by Birzeit University Library

ودور جدار الحجر تسع وعشرون خطوة وهي أربعة وتسعون شبرا من داخل الدائرة وهو بالرخام البديع المجزع المحكم الالصاق وارتفاعه خمسة أشبار ونصف شبر وسعته أربعة أشبار ونصف شبر وداخل الحجر بلاط واسع مفروش بالرخام المجزع المنظم المعجز الصنعة البديع الاتقان وبين جدار الكعبة الشريفة الذي تحت الميزاب وبين مايقابله من جدار الحجر على خط استواء أربعون شبرا وللحجر مدخلان أحدهما بينه وبين الركن العراقي وسعته ستة أذرع وهذا الموضع هو الذي تركته قريش من البيت حين بنته كما جاءت الآثار الصحاح والمدخل الآخر عند الركن الشامي وسعته أيضا ستة أذرع وبين المدخلين ثمانية وأربعون شبرا وموضع الطواف مفروش بالحجارة السود محكمة الالصاق وقد اتسعت عن البيت بمقدار تسع خطا الا في الجهة التي تقابل المقام الكريم فانها امتدت اليه حتى أحاطت به وسائر الحرم مع البلاطات مفروش برمل ابيض وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة

— ذكر زمزم المباركة —

وقبة بئر زمزم تقابل الحجر الاسود وبينهما أربع وعشرون خطوة والمقام الكريم عن يمين القبة ومن ركنها اليه عشر خطا وداخل القبة مفروش بالرخام الابيض وتنور البئر المباركة في وسط القبة مائلا الى الجدار المقابل للكعبة الشريفة وهو من الرخام البديع الالصاق مفروغ بالرصاص ودوره أربعون شبرا وارتفاعه أربعة اشبار ونصف شبر وعمق البئر احدى عشرة قامة وهم يذكرون ان ماءها يتزايد في كل ليلة جمعة وباب القبة الى جهة الشرق وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر وعمقها مثل ذلك وارتفاعها عن الارض نحو خمسة أشبار تملأ ماء للوضوء وحولها مسطبة يقعد الناس عليها للوضوء ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة الى العباس رضي الله عنه وبابها الى جهة الشمال وهي الآن يجعل بها ماء زمزم في قلال يسمونها الدوارق وكل دورق له مقبض واحد وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشرب به الناس وبها اختزان المصاحف الكريمة والكتب التي للحرم الشريف وبها خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع فيه مصحف كريم بخط زيد بن ثابت رضي الله عنه منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما واهل مكة اذا أصابهم قحط اوشدة اخرجوا هذا المصحف الكريم وفتحوا باب الكعبة الشريفة ووضعوه على العتبة الشريفة ووضعوه في مقام ابراهيم عليه السلام واجتمع الناس كاشفين رؤسهم داعين متضرعين متوسلين بالمصحف العزيز والمقام الكريم فلا ينفصلون الا وقد تداركهم الله برحمته وتغمدهم بلطفه ويلي قبة العباس رضي الله تعالى عنه

Digitized by Birzeit University Library

على انحراف منها القبة المعروفة بقبة اليهودية

﴿ ذكر أبواب المسجد الحرام وما دار به من المشاهد الشريفة ﴾

وأبواب المسجد الحرام شرفه الله تعالى تسعة عشر بابا وأكثرها مفتحة على أبواب كثيرة فمنها باب الصفا وهو مفتح على خمسة أبواب وكان قديما يعرف بباب بني مخزوم وهو أكبر أبواب المسجد ومنه يخرج الى المسعى و يستحب للوافد على مكة أن يدخل المسجد الحرام شرفه الله من باب بني شيبة و يخرج بعد طوافه من باب الصفا جاعلا طريقه بين الاسطوانتين اللتين أقامهما أمير المؤمنين المهدي رحمه الله علما على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم تسلما الى الصفا ومنها باب اجياد الاصغر مفتح على بابين ومنها باب الخياطين مفتح على بابين ومنها باب العباس رضي الله عنه مفتح على ثلاثة أبواب ومنها باب النبي صلى الله عليه وسلم تسلما مفتح على بابين ومنها باب بني شيبة وهو في ركن الجدار الشرقي من جهة الشمال أمام باب الكعبة الشريفة متياسرا وهو مفتح على ثلاثة أبواب وهو باب بني عبد شمس ومنه كان دخول الخلفاء ومنها باب صغير ازاء باب بني شيبة لا اسم له وقيل يسمى باب الرباط لانه يدخل منه لرباط السدرة ومنها باب الندوة و يسمى بذلك ثلاثة ابواب اثنان منتظان والثالث في الركن الغربي من دار الندوة ودار الندوة قد جعلت مسجدا شارعا في الحرم مضافا اليه وهي تقابل الميزاب ومنها باب صغير لدار العجلة محدث ومنها باب السدرة واحد ومنها باب العمرة واحد وهو من أجل أبواب الحرم ومنها باب ابراهيم واحد والناس مختلفون في نسبته فبعضهم ينسبه الى ابراهيم الخليل عليه السلام والصحيح أنه منسوب الى ابراهيم الخوزي من الاعاجم ومنها باب الحزورة مفتح على بابين ومنها باب أجياد الاكبر مفتح على بابين ومنها باب ينسب الى أجياد أيضا مفتح على بابين وباب ثالث ينسب اليه مفتح على بابين و يتصل لباب الصفا ومن الناس من ينسب البابين من هذه الاربعة المنسوبة لاجياد الى الدقاقين * وصوامع المسجد الحرام خمس احداهن على ركن أبي قبيس عند باب الصفا والاخرى على ركن باب بني شيبة والثالثة على باب دار الندوة والرابعة على ركن باب السدرة والخامسة على ركن أجياد و بقربة من باب العمرة مدرسة عمرها السلطان المعظم يوسف بن رسول ملك اليمن المعروف بالملك المظفر الذي تنسب اليه الدراهم المظفرية باليمن وهو كان يكسو الكعبة الى أن غلبه على ذلك الملك المنصور قلاوون و بخارج باب ابراهيم زاوية كبيرة فيها دار امام المالكية الصالح أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع في

داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف وبازاء هذا الباب عن يمين الداخل اليه كان يقعد الشيخ العابد جلال الدين محمد بن احمد الافشهري وخارج باب ابراهيم يرتفع كنسبته وعنده أيضا دار الشيخ الصالح دانيال العجمي الذي كانت صدقات العراق في أيام السلطان أبي سعيد تاتي علي يديه و بمقربة منه رباط الموفق وهو من أحسن الرباطات سكنته أيام مجاورتي بمكة المعظمة وكان به في ذلك العهد الشيخ الصالح أبو عبد الله الزواوي المغربي وسكن به أيضا الشيخ الصالح الطيار سعادة الجراني ودخل يوما الى بيته بعد صلاة العصر فوجد ساجدا مستقبل الكعبة الشريفة ميتا من غير مرض كان به رضي الله عنه وسكن به الشيخ الصالح شمس الدين محمد الشامي نحوا من أربعين سنة وسكن به الشيخ الصالح شعيب المغربي من كبار الصالحين دخلت عليه يوما فلم يقع بصري في بيته على شيء سوى حصير فقلت له في ذلك فقال لي أستر على ما رأيت . وحول الحرم الشريف دور كثيرة لها مناظر وسطوح يخرج منها الى سطح الحرم وأهلها في مشاهدة البيت الشريف على الدوام ودورها أبواب تفضي الى الحرم منها دار زبيدة زوج الرشيد أمير المؤمنين ومنها دار العجلة ودار الشرابي وسواها ومن المشاهد الكريمة بمقربة من المسجد الحرام قبة الوحي وهي في دار خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بمقربة من باب النبي صلى الله عليه وسلم وفي البيت قبة صغيرة حيث ولدت فاطمة عليها السلام و بمقربة منها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه و بقربها جدار مبارك فيه حجر مبارك بارز طرفه من الحائط يستلمه الناس ويقال انه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم و يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم تسلما جاء يوما الى دار أبي بكر الصديق ولم يكن حاضرا فنادي به النبي صلى الله عليه وسلم تسليما فنطق ذلك الحجر وقال يا رسول الله انه ليس بحاضر

— ذكر الصفا والمروة —

ومن باب الصفا الذي هو أحد أبواب المسجد الحرام الى الصفا ست وسبعون خطوة وسعة الصفا سبع عشرة خطوة وله أربع عشرة درجة عليا هن كانها مسطبة و بين الصفا والمروة اربعمائة وثلاث وتسعون خطوة منها من الصفا الى الميل الاخضر ثلاث وتسعون خطوة ومن الميل الاخضر الى الميلين الاخضرين خمس وسبعون خطوة ومن الميلين الاخضرين الى المروة ثلاثمائة وخمس وعشرون خطوة والمروة خمس درجات وهي ذات قوس واحد كبير وسعة المروة سبع عشرة خطوة والميل الاخضر هو سارية خضراء مثبتة مع ركن الصومعة التي على الركن الشرقي من الحرم عن يسار الساعي الى المروة والميلان الاخضران هما ساريتان خضراوان ازاء باب علي من ابواب الحرم أحدهما في جدار الحرم عن يسار

الخارج من الباب والاخرى تقابلها و بين الميل الاخضر والميلين الاخضرين يكون الرمل ذاهباً وعائداً بين الصفا والمروة مسيل فيه سوق عظيمة يباع فيها الحبوب واللحم والتمر والسمن وسواها من الفواكه والساعون بين الصفا والمروة لا يكادون يخلصون لازدحام الناس على حوانيت الباعة وليس بمكة سوق منتظمة سوي هذه الا البزازون والعطارون عند باب ابي شيبة و بين الصفا والمروة دار العباس رضي الله عنه وهي الآن رباط يسكنه المجاورون عمره الملك الناصر رحمه الله و بني أيضا دار وضوء فيما بين الصفا والمروة سنة ثمان وعشرين وجعل لها بابا بين أحدهما في السوق المذكور والآخر في سوق العطارين وعليها ربع يسكنه خدامها وتولى بناء ذلك الامير علاء الدين بن هلال وعن يمين المروة دار أمير مكة سيف الدين عطيفة بن أبي نمي وسنذكره

— ذكر الجبانة المباركة —

وجبانة مكة خارجة باب المعلى و يعرف ذلك الموضع أيضاً بالحجون واياه عني الحارث ابن مضاض الجرهمي بقوله — طويل —

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالي والجدود العواثر

و بهذه الجبانة مدفن الجم الغفير من الصحابة والتابعين والعلماء والصالحين والاولياء الا أن مشاهدهم دثرت وذهب عن أهل مكة علمها فلا يعرف منها الا القليل فمن المعروف منها قبر أم المؤمنين ووزير رسيد المرسلين خديجة بنت خويلد أم أولاد النبي صلى الله عليه وسلم تسليما كلهم ماعدا ابراهيم وجدة السبطين الكريمين صلوات الله وسلامه على النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وعليهم أجمعين و بمقربة منه قبر الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور وعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنهم أجمعين وفيها الموضع الذي صلب فيه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وكان به بنية هدمها أهل الطائف غيرة منهم لما كان يلحق حجاجهم المبير من اللعن وعن يمين مستقبل الجبانة مسجد خراب يقال انه المسجد الذي بايعت الجن فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وعلى هذه الجبانة طريق الصاعد الى عرفات وطريق الذاهب الى الطائف والى العراق

— ذكر بعض المشاهد خارج مكة —

فمنها الحجون وقد ذكرناه و يقال أيضاً ان الحجون هو الجبل المطل على الجبانة ومنها المحصب وهو أيضاً الابطح وهو يلي الجبانة المذكورة وفيه خيف بني كنانة الذي

Digitized by Birzeit University Library

نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ومنها ذو طوي وهو واد يهبط على قبور المهاجرين التي بالحصحاص دون ثنية كداء ويخرج منه الى الاعلام الموضوعة حجزا بين الحل والحرم وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنه اذا قدم مكة شرفها الله تعالى يبيت بذي طوى ثم يغتسل منه ويغدو الى مكة ويذكر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فعل ذلك ومنها ثنية كدي (بضم الكاف) وهي باعلى مكة ومنها دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع الى مكة ومنها ثنية كداء (بفتح الكاف) و يقال لها الثنية البيضاء وهي باسفل مكة ومنها خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما عام الوداع وهي بين جبلين وفى مضيقها كوم حجارة موضوع على الطريق وكل من يمر به يرجمه بحجر و يقال انه قبر أبي لهب وزوجه حمالة الحطب و بين هذه الثنية و بين مكة بسيط سهل ينزله الركب اذا صدروا عن مني و بمقربة من هذا الموضع على نحو ميل من مكة شرفها الله مسجد بازائه حجر موضوع على الطريق كأنه مسطبة يعلوه حجر آخر كان فيه نقش فدثر رسمه يقال ان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما قعد بذلك الموضع مستريحا عند مجيئه من عمرته فيتبرك الناس بتقبيله و يستندون اليه ومنها التنعيم وهو على فرسخ من مكة ومنه يعتمر أهل مكة وهو أدني الحل الى الحرم ومنه اعتمرت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين بعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فى حجة الوداع مع أخيها عبد الرحمن رضي الله عنه وأمره أن يعمرها من التنعيم و بنيت هنالك مساجد ثلاثة على الطريق تنسب كلها الى عائشة رضى الله عنها وطريق التنعيم طريق فسيح والناس يتحرون كنسه في كل يوم رغبة فى الاجر والثواب لان من المعتمرين من يمشي فيه حافيا وفى هذا الطريق الآبار العذبة التى تسمي الشبيكة ومنها الزاهر وهو على نحو ميلين من مكة على طريق التنعيم وهو موضع علي جانبي الطريق فيه آثر دور و بساتين وأسواق وعلي جانب الطريق دكان مستطيل تصف عليه كيزان الشرب وأوانى الوضوء يملؤها خديم ذلك الموضع من آبار الزاهر وهى بعيدة القعر جدا والخديم من الفقراء المجاورين وأهل الخير يعينونه على ذلك لما فيه من المرفقة للمعتمرين من الغسل والشرب والوضوء وذو طوى يتصل بالزاهر

— ذكر الجبال المطيفة بمكة —

فمنها جبل أبي قبيس وهو فى جهة الجنوب والشرق من مكة حرسها الله وهو أحد الاخشبين وادنى الجبال من مكة شرفها الله ويقابل ركن الحجر الاسود وبأعلاه مسجد وأثر رباط وعمارة وكان الملك الظاهر رحمه الله أراد أن يعمره وهو مطل على الحرم الشريف وعلى

Digitized by Birzeit University Library

جميع البلد ومنه يظهر حسن مكة شرفها الله وجمال الحرم واتساعه والكعبة المعظمة ويذكر أن جبل أبي قبيس هو أول جبل خلقه الله تعالى وفيه استودع الحجر زمان الطوفان وكانت قريش تسميه الامين لأنه أدي الحجر الذى استودع فيه الى الخليل ابراهيم عليه السلام ويقال إن قبر آدم عليه السلام به وفى جبل أبي قبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم حين انشق له القمر ومنها قعيقعان وهو أحد الاخشبين ومنها الجبل الاحمر وهو فى جهة الشمال من مكة شرفها الله ومنها الخندمة وهو جبل عند الشعبين المعروفين باجياد الاكبر وأجياد الاصغر ومنها جبل الطير وهو على أربعة عن جهتي طريق التنعيم يقال انها الجبال التي وضع عليها الخليل عليه السلام أجزاء الطير ثم دعاها حسبما نص الله فى كتابه العزيز وعليها أعلام من حجارة ومنها جبل حراء وهو فى الشمال من مكة شرفها الله تعالى على نحو فرسخ منها وهو مشرف على مني ذاهب فى الهواء عالى القنة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعبد فيه كثيرا قبل المبعث وفيه أتاه الحق من ربه وبدا الوحى وهو الذي اهتز نحت رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أثبت فما عليك الا نبي وصديق وشهيد واختلف فيمن كان معه يومئذ وروي ان العشرة كانوا معه وقد روي أيضاً أن جبل ثبير اهتز تحته أيضاً ومنها جبل ثور وهو على مقدار فرسخ من مكة شرفها الله تعالى على طريق اليمن وفيه الغار الذي آوى اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما حين خروجه مهاجرا من مكة شرفها الله ومعه الصديق رضى الله عنه حسبما ورد فى الكتاب العزيز وذكر الازرقي فى كتابه أن الجبل المذكور نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وقال الى يا محمد الى الى فقد آويت قبلك سبعين نبياً فلما دخل رسول الله الغار وأطمأن به وصاحبه الصديق معه نسجت العنكبوت من حينها على باب الغار وصنعت الحمامة عشا وفرخت فيه باذن الله تعالى فانتهي المشركون ومعهم قصاص الاثر الى الغار فقالوا هاهنا انقطع الاثر ورأوا العنكبوت قد نسج على فم الغار والحمام مفرخة فقالوا ما دخل احد هنا وانصرفوا فقال الصديق يارسول الله لو دخلوا علينا منه قال كنا نخرج من هنا وأشار بيده المباركة الى الجانب الآخر ولم يكن فيه باب فانفتح فيه باب للحين بقدرة الملك الوهاب والناس يقصدون زيارة هذا الغار المبارك فيرومون دخوله من الباب الذى دخل منه النبي صلى الله عليه وسلم تبركا بذلك فمنهم من يتاتى له ومنهم من لا يتاتى له وينشب فيه حتي يتناول بالجذب العنيف ومن الناس من يصلى أمامه ولا يدخله وأهل تلك البلاد يقولون انه من

كان لرشدة دخله ومن كان لزنية لم يقدر على دخوله ولهذا يتحاماه كثير من الناس لانه مخجل فاضح قال ابن جزي اخبرني بعض أشياخنا الحجاج الاكياس ان سبب صعوبة الدخول اليه هو ان يداخله مما يلي هذا الشق الذي يدخل منه حجرا كبيرا معترضاً فمن دخل من ذلك الشق منبطحا على وجهه وصل رأسه الى ذلك الحجر فلم يمكنه التوجل ولا يمكنه ان ينطوي الى العلو ووجهه وصدره يلي ان الارض فذلك هو الذي ينشب ولا يخلص الا بعد الجهد والجهد الى خارج ومن دخل منه مستلقيا على ظهره امكنه لانه اذا وصل رأسه الى الحجر المعترض رفع رأسه واستوى قاعدا فكان ظهره مستندا الى الحجر المعترض وأوسطه في الشق ورجلاه من خارج الغار ثم يقوم قائما بداخل الغار (رجع)

﴿ حكاية ﴾

ومما اتفق بهذا الجبل لصاحبين من أصحابي احدهما الفقيه المكرم أبو محمد عبد الله ابن فرحان الافريقي التوزري والآخر أبو العباس أحمد الاندلسي الوادي آشي انهما قصدا (الغار) في حين مجاورتهما بمكة شرفها الله تعالى في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وذهبا منفردين لم يستصحبا دليلا عارفا بطريقه فتاها وضلا طريق الغار وسلكا طريقا سواها منقطعة وذلك في اوان اشتداد الحر وحمي القيظ فلما نفدما كان عندهما من الماء وهما بصلا الى الغار اخذا في الرجوع الى مكة شرفها الله تعالى فوجدا طريقا فاتبعاه وكان يفضي الى جبل آخر واشتد بهما الحر وأجهدهما العطش وعاينا الهلاك وعجز الفقيه أبو محمد بن فرحان عن المشي جملة والقى بنفسه الى الارض ونجا الاندلسي بنفسه وكان فيه فضل قوة ولم يزل يسلك تلك الجبال حتى أفضى به الطريق الى أجياد فدخل الى مكة شرفها الله تعالى وقصدني واعلمني بهذه الحادثة وبما كان من امر عبد الله التوزري وانقطاعه في الجبل وكان ذلك في آخر النهار ولعبد الله المذكور ابن عم اسمه حسن وهو من سكان وادي نخلة وكان اذ ذاك بمكة فاعلمته بما جرى على ابن عمه وقصدت الشيخ الصالح الامام اباعبد الله محمد بن عبد الرحمن المعروف بخليل امام المالكية نفع الله به فاعلمته بخبره فبعث جماعة من أهل مكة عارفين بتلك الجبال والشعاب في طلبه وكان من أمر عبد الله التوزري انه لما فارقه رفيقه لجأ الى حجر كبير فاستظل بظله وأقام على هذه الحالة من الجهد والعطش والغربان تطير فوق رأسه وتنتظر موته فلما انصرم النهار وأتي الليل وجد في نفسه قوة ونعشه برد الليل فقام عند الصباح على قدميه ونزل من الجبل الى بطن واد حجبت الجبال عنه الشمس فلم يزل ماشيا الى أن بدت له دابة فقصد

قصدها فوجد خيمة للعرب فلما رآها وقع الى الارض ولم يستطع النهوض فرأته صاحبة الخيمة وكان زوجها قد ذهب الى ورد الماء فسقته ما كان عندها من الماء فلم يرووجاء زوجها فسقاه قربة ماء فلم يرو وأركبه حماره وقدم به مكة فوصلها عند صلاة العصر من اليوم الثاني متغيرا كانه قام من قبر

﴿ ذكر أميري مكة ﴾

وكانت امارة مكة في عهد دخولي اليها للشريفين الاجلين الاخوين أسد الدين رميثة وسيف الدين عطيفة ابني الامير ابي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسنيين ورميثة أكبرهما سنا ولكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة لعدله ولرميثة من الاولاد أحمد وعجلان وهو أمير مكة في هذا العهد وتقية وسند وأم قاسم ولعطيفة من الاولاد محمد ومبارك ومسعود ودار عطيفة عن يمين المروة ودار أخيه رميثة برباط الشرابي عند باب بني شيبة وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم

— ذكر اهل مكة وفضائلهم —

ولاهل مكة الافعال الجميلة والمكارم التامة والاخلاق الحسنة والايثار الى الضعفاء والمنقطعين وحسن الجوار للغرباء ومن مكارمهم أنهم متى صنع احدهم وليمة يدأ فيها باطعام الفقراء المنقطعين المجاورين ويستدعيهم بتلطف ورفق وحسن خلق ثم يطعمهم وأكثر المساكين المنقطعين يكونون بالافران حيث يطبخ الناس أخبازهم فاذا طبخ أحدهم خبزه واحتمله الى منزله فيتبعه المساكين فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له ولا يردهم خائبين ولو كانت له خبزة واحدة فانه يعطى ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر ومن افعالهم الحسنة ان الايتام الصغار يقعدون بالسوق ومع كل واحد منهم قفتان كبرى وصغرى وهم يسمون القفة مكتلا فيأتي الرجل من أهل مكة الى السوق فيشترى الحبوب واللحم والخضر ويعطى ذلك للصبي فيجعل الحبوب في احدى قفتيه واللحم والخضر في الاخرى ويوصل ذلك الى دار الرجل ليهيأ له طعامه منها ويذهب الرجل الى طوافه وحاجته فلا يذكر ان احدا من الصبيان خان الامانة في ذلك قط بل يؤدي ما حمل على أتم الوجوه ولهم على ذلك أجرة معلومة من فلوس وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في الملابس وأكثر لباسهم البياض فتري شيابهم ابدا ناصعة ساطعة ويستعملون الطيب كثيرا ويكتحلون ويكثرون السواك بعيدان الاراك الاخضر ونساء مكة فائقات الحسن بارعات الجمال ذوات صلاح وعفاف وهن يكثرن التطيب حتى ان احداهن لتبيت طاوية وتشترى بقوتها طيبا وهن يقصدن الطواف

بالبيت في كل ليلة جمعة فيأتين في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن وتذهب المرأة منهن فيبقى أثر الطيب بعد ذهابها عبقا ولا هل مكة عوائد حسنة في الموسم وغيره سنذكرها ان شاء الله تعالى اذا فرغنا من ذكر فضائلها ومجاوريها

— ذكر قاضي مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها وصلحائها —

قاضي مكة العالم الصالح العابد نجم الدين محمد ابن الامام العالم محيي الدين الطبري وهو فاضل كثير الصدقات والمواساة للمجاورين حسن الأخلاق كثير الطواف والمشاهدة للكعبة الشريفة يطعم الطعام الكثير في المواسم المعظمة وخصوصا في مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما فانه يطعم فيه شرفاء مكة وكبراءها وفقراءها وخدام الحرم الشريف وجميع المجاورين وكان سلطان مصر الملك الناصر رحمه الله يعظمه كثيرا وجميع صدقاته وصدقات امرائه تجري على يديه وولده شهاب الدين فاضل وهو الآن قاضي مكة شرفها الله وخطيب مكة الامام بمقام ابراهيم عليه السلام الفصيح المصقع وحيد عصره بهاء الدين الطبري وهو أحد الخطباء الذين ليس بالمعمور مثلهم بلاغة وحسن بيان وذكر لي أنه ينشيء لكل جمعة خطبة ثم لا يكررها فيما بعد وامام الموسم وامام المالكية بالحرم الشريف هو الشيخ الفقيه العالم الصالح الخاشع الشهير ابو عبد الله محمد ابن الفقيه الامام الصالح الورع أبي زيد عبد الرحمن وهو المشتهر بخليل نفع الله به وأمتع ببقائه وأهله من تلاد الجريد من افريقية ويعرفون بها ببني حيون وهم من كبارها ومولده ومولد أبيه بمكة شرفها الله وهو أحد الكبار من أهل مكة بل واحد هارقطبها باجماع الطوائف على ذلك مستغرق العبادة في جميع أوقاته حيي كريم النفس حسن الاخلاق كثير الشفقة لا يرد من ساله خائبا

— حكاية مباركة —

رأيت أيام مجاورتي بمكة شرفها الله وأنا اذ ذاك ساكن منها بالمدرسة المظفرية رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما في النوم وهو قاعد بمجلس التدريس من المدرسة المذكورة بجانب الشباك الذي تشاهد منه الكعبة الشريفة والناس يبايعونه فكنت أرى الشيخ أبا عبد الله المدعو بخليل قد دخل وقعد القرفصاء بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما وجعل يده في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أبايعك على كذا وكذا وعدد أشياء منها وأن لا أرد من يبقى مسكينا خائبا وكان ذلك آخر كلامه فكنت أعجب من قوله وأقول في نفسي كيف يقول هذا ويقدر عليه مع كثرة فقراء مكة واليمن والزيالعة والعراق والعجم ومصر والشام وكنت أراه حين ذلك لا بساجبة بيضاء قصيرة من ثياب القطن المدعوة

بالقفطان كان يلبسها في بعض الاوقات فلما صليت الصبح غدوت عليه واعلمته برؤياي فسرها وبكى وقال لي تلك الجبة أهداها بعض الصالحين لجدي فانا ألبسها تبركا وما رأيته بعد ذلك يرد سائلا خائبا وكان يامر خدامه يخبزون الخبز ويطبخون الطعام ويأتون به الى بعد صلاة العصر من كل يوم وأهل مكة لا يأكلون في اليوم الا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها الى مثل ذلك الوقت ومن أراد الاكل في سائر النهار أكل التمر ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الامراض والعاهات وكان الشيخ خليل متزوجا بنت القاضي نجم الدين الطبري فشك في طلاقها وفارقها وتزوجها بعده الفقيه شهاب الدين الدويري من كبار المجاورين وهو من صعيد مصر وأقامت عنده اعواما وسافرها الى المدينة الشريفة ومعها أخوها شهاب الدين فحنث في يمين بالطلاق ففارقها على ضمانته بها وراجعها الفقيه خليل بعد سنين عدة ومن أعلام مكة امام الشافعية شهاب الدين بن البرهان ومنهم امام الحنفية شهاب الدين أحمد بن علي من كبار أئمة مكة وفضلائها يطعم المجاورين وأبناء السبيل وهو أكرم فقهاء مكة وبدان في كل سنة أربعين ألف درهم وخمسين ألفا فيؤديها الله عنه وامراء الاتراك يعظمونه ويحسنون الظن به لانه امامهم ومنهم امام الحنابلة المحدث الفاضل محمد بن عثمان البغدادي الاصل المكي المولد وهو نائب القاضي نجم الدين والمحتسب بعد قتل تقي الدين المصري والناس يهابونه لسطوته

— حكاية —

كان تقي الدين المصري محتسبا بمكة وكان له دخول فيما يعنيه وفيما لا يعنيه فاتفق في بعض السنين ان أتى أمير الحاج بصبي من ذوي الدعارة بمكة قد سرق بعض الحجاج فامر بقطع يده فقال له تقي الدين ان لم تقطعها بحضرتك والاغلب أهل مكة خدامك عليه فاستنقذوه منهم وخلصوه فامر بقطع يده في حضرته فقطعت وحقدها تقي الدين ولم يزل يتربص به الدوائر ولا قدر له عليه لان له حسبا من الامير بن رميثة وعطيفة والحسب عندهم ان يعطى أحدهم هدية من عمامة او شاشية بمحضر الناس تكون جوارا لمن اعطيته ولا تزول حرمتها معه حتى يريد الرحلة والتحول عن مكة فاقام تقي الدين بمكة أعواما ثم عزم على الرحلة وودع الامير بن وطاف طواف الوداع وخرج من باب الصفا فلقيه صاحبه الاقطع وتشكى له ضعف حاله وطلب منه ما يستعين به على حاجته فانتهره تقي الدين وزجره فاستل خنجر اله يعرف عندهم بالجنبية وضربه ضربة واحدة كان فيها حتفه ومنهم الفقيه الصالح زين الدين الطبري شقيق نجم الدين المذكور من أهل الفضل والاحسان المجاورين ومنهم الفقيه المبارك محمد بن فهد القرشي من فضلاء مكة وكان ينوب عن القاضي نجم الدين بعد وفاة الفقيه

Digitized by Birzeit University Library

محمد بن عثمان الحنبلي ومنهم العدل الصالح محمد بن البرهان زاهد ورع مبتلى بالوسواس رأيته يوما يتوضا من بركة المدرسة المظفرية فيغسل ويكرر والماسح رأسه أعاد مسحه مرات ثم لم يقنعه ذلك فغطس رأسه في البركة وكان اذا أراد الصلاة ربما صلى الامام الشافعي وهو يقول نويت نويب فيصلي مع غيره وكان كثير الطواف والاعتمار والذكر

— ذكر المجاورين بمكة —

فمنهم الامام العالم الصالح الصوفي المحقق العابد عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليمني الشافعي الشهير باليافعي كثير الطواف آناء الليل وأطراف النهار وكان اذا طاف من الليل يصعد الى سطح المدرسة المظفرية فيقعد مشاهد الكعبة الشريفة الى ان يغلبه النوم فيجعل تحت رأسه حجرا وينام يسيرا ثم يجدد الوضوء ويعود لحاله من الطواف حتى يصلي الصبح وكان متزوجا ببنت الفقيه العابد شهاب الدين بن البرهان وكانت صغيرة السن فلا تزال تشكو الى أبيها حالها فيامرها بالصبر فاقامت معه على ذلك سنين ثم فارقته ومنهم الصالح العابد نجم الدين الاصفوني كان قاضيا ببلاد الصعيد فانقطع الى الله تعالى وجاور بالحرم الشريف وكان يعتمر في كل يوم من التنعيم ويعتمر في رمضان مرتين في اليوم اعتمادا على ما في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم تسليما انه قال عمرة في رمضان تعدل حجة معي ومنهم الشيخ الصالح العابد شمس الدين محمد الحلبي كثير الطواف والتلاوة من قدماء المجاورين مات بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو بكر الشيرازي المعروف بالصامت كثير الطواف أقام بمكة أعواما لا يتكلم فيها ومنهم الصالح خضر العجمي كثير الصوم والتلاوة والطواف ومنهم الشيخ الصالح برهان الدين العجمي الواعظ كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس ويذكرهم بلسان فصيح وقلب خاشع ياخذ بمجامع القلوب ومنهم الصالح المجود برهان الدين ابراهيم المصري مقرىء مجيد ساكن رباط السدرة ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم ويعلم الايتام كتاب الله تعالى ويقوم بمؤنهم ويكسوهم ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الاموال الطائلة يحمل اليه من بلده المال الكثير في كل سنة فيبتاع الحبوب والتمر ويفرقها على الضعفاء والمساكين ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه ولم يزل ذلك ذابه الى ان توفي ومنهم الفقيه الصالح الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الانجري من أهل قطر طنجة من كبار الصالحين جاور بمكة أعواما وبها وفاته كانت بينه وبين والدي صحبة قديمة ومتى أتي بلدنا طنجة نزل عندنا وكان له بيت بالمدرسة المظفرية يعلم العلم فيها نهارا ويأوي بالليل الى مسكنه برباط ربيع وهو من أحسن

Digitized by Birzeit University Library

الرباطات بمكة بداخله بئر عذبة لا تماثلها بئر بمكة وسكانه الصالحون وأهل ديار الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيما شديدا وينذرون له النذور وأهل الطائف يأتونه بالفواكه ومن عادتهم ان كل من له بستان من النخيل والعنب والفرسك وهو الخوخ والتين وهم يسمونه الخمط يخرج منه العشر لهذا الرباط ويوصلون ذلك اليه على جمالهم ومسيرة ما بين مكة والطائف يومان ومن لم يف بذلك نقصت فواكهه في السنة الآتية وأصابتها الجوائح

— حكاية في فضله —

أتي يوما غلمان الامير أبي نمي صاحب مكة الى هذا الرباط ودخلوا بخيل الامير وسقوها من تلك البئر فلما عادوا بالخيل الى مرابطها أصابتها الاوجاع وضربت بانفسها الارض وبرؤسها وأرجلها واتصل الخبر بالامير أبي نمي فاتى باب الرباط بنفسه واعتذر الى المساكين الساكنين به واستصحب واحدا منهم فمسح على بطون الدواب بيده فاراقت ما كان في أجوافها من ذلك الماء وبرئت مما أصابها ولم يتعرضوا بعدها للرباط الا بالخير ومنهم الصالح المبارك أبو العباس الغماري من أصحاب أبي الحسن بن رزق الله وسكن رباط ربيع ووفاته بمكة شرفها الله ومنهم الصالح أبو يعقوب يوسف من بادية سبتة كان خديما للشيخين المذكورين فلما توفيا صار شيخ الرباط بعدهما ومنهم الصالح السائح السالك أبو الحسن علي بن فرغوس التلمساني ومنهم الشيخ سعيد الهندي شيخ رباط كلالة

— حكاية —

كان الشيخ سعيد قد قصد ملك الهند محمد شاه فاعطاه مالا عظيما قدم به مكة فسجنه الامير عطيفة وطلبه باداء المال فامتنع فعذب بعصر رجليه فاعطي خمسة وعشرين ألف درهم نقرة وعاد الى بلاد الهند ورأيته بها ونزل بدار الامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن عيسى بن مهنى أمير عرب الشام وكان غدا ساكنا ببلاد الهند متزوجا باخت ملكها وسيد كر أمره فاعطى ملك الهند للشيخ سعيد جملة مال وتوجه صحبة حاج يعرف بوشل من ناس الامير غدا وجهه الامير المذكور ليأتيه ببعض ناسه ووجه معه أموالا وتحفا منها الخلعة التي خلعها عليه ملك الهند ليلة زفافه باخته وهي من الحرير الازرق مزركشة بالذهب ومرصعة بالجوهر بحيث لا يظهر لونها لغلبة الجوهر عليها وبعث معه خمسين ألف درهم ليشتري له الخيل العتاق فسافر الشيخ سعيد صحبة وشل واشترى سلعا بما عنده من الاموال فلما وصلا جزيرة سقطرة المنسوب اليها الصبر السقطري خرج عليهما لصوص الهند في مراكب كثيرة فقاتلوهم قتالا شديدا مات فيه من الفريقين جملة وكان وشل راميا فقتل

منهم جماعة ثم تغلب السراق عليهم وطعنوا وشلاطعنة مات منها بعد ذلك وأخذوا ما كان عندهم وتركوا لهم مركبهم بآلة سفره وزاده فذهبوا الى عدن ومات بها وشل وعادة هؤلاء السراق أنهم لا يقتلون احدا إلا حين القتال ولا يغرقونه وانما يأخذون ماله ويتركونه يذهب بمركبه حيث شاء ولا يأخذون المماليك لانهم من جنسهم وكان الحاج سعيد قد سمع من ملك الهند انه يريد اظهار الدعوة العباسية ببلده كمثل مافعله ملوك الهند ممن تقدمه مثل السلطان شمس الدين المش واسمه « بفتح اللام الاولى واسكان الثانية وكسر الميم وشين معجم » وولده ناصر الدين ومثل السلطان جلال الدين فيروزشاه والسلطان غياث الدين بلبن وكانت الخلع تاتي اليهم من بغداد فلما توفي وشل قصد الشيخ سعيد الى الخليفة أبي العباس ابن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسي بمصر وأعلمه بالامر فكتب له كتابا بخطه بالنيابة عنه ببلاد الهند فاستصحب الشيخ سعيد الكتاب وذهب الى اليمن واشترى بها ثلاث خلع سودا وركب البحر الى الهند فلما وصل كنبايت وهي على مسيرة أربعين يوما من دهلى حضرة ملك الهند كتب صاحب الخبر الى الملك يعلمه بقدوم الشيخ سعيد وأن معه أمر الخليفة وكتابه فورد الامر ببعثه الى الحضرة مكرما فلما قرب من الحضرة بعث الامراء والقضاة والفقهاء لتلقيه ثم خرج هو بنفسه لتلقيه فتلقاه وعانقه ودفع له الامر فقبله ووضعه على رأسه ودفع له الصندوق الذي فيه الخلع فاحتمله الملك على كاهله خطوات ولبس احدى الخلع وكسا الاخرى الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن يوسف ابن عبد العزيز بن الخليفة المنتصر العباسي وكان مقيما عنده وسيذكر خبره وكسا الخلعة الثالثة الامير قبوله الملقب بالملك الكبير وهو الذي يقوم على رأسه ويشرد عنه الذباب وأمر السلطان فخلع على الشيخ سعيد ومن معه وأركبه على الفيل ودخل المدينة كذلك والسلطان أمامه على فرسه وعن يمينه وشماله الاميران اللذان كساهما الخلعتين العباسيتين والمدينة قد زينت بانواع الزينة وصنع بها احدى عشرة قبة من الخشب كل قبة منها أربع طبقات في كل طبقة طائفة من المغنيين رجالا ونساء والراقصات وكلهم مماليك السلطان والقبة مزينة بثياب الحرير المذهب أعلاها وأسفلها وداخلها وخارجها وفي وسطها ثلاثة أحواض من جلود الجواميس مملوءة ماء قد حل فيه الجلاب يشرب به كل وارد وصادر لا يمنع منه أحد وكل من يشرب منه يعطى بعد ذلك خمس عشرة ورقة من أوراق التنبول والفوفل والنورة فيأكلها فتطيب نكهته وتزيد في حمرة وجهه ولثاته وتقمع عنه الصفراء وتهضم ما أكل من الطعام ولما ركب الشيخ سعيد على الفيل فرشت له ثياب الحرير بين يدي الفيل

يطؤ عليها الفيل من باب المدينة الى دار السلطان وأنزل بدار تقرب من دار الملك و بعث له أموالا طائلة وجميع الاثواب المعلقة والمفروشة بالقباب والموضوعة بين يدى الفيل لا تعود الى السلطان بل يأخذها أهل الطرب وأهل الصناعات الذين يصنعون القباب وخدام الاحواض وغيرهم وهكذا فعلهم متى قدم السلطان من سفر وأمر الملك بكتاب الخليفة ان يقرأ على المنبر بين الخطبتين فى كل يوم جمعة وأقام الشيخ سعيد شهراً ثم بعث معه الملك هدايا الى الخليفة فوصل كنبايت وأقام بها حتى تيسرت أسباب حركته فى البحر وكان ملك الهند قد بعث أيضاً من عنده رسولا الى الخليفة وهو الشيخ رجب البرقعى أحد شيوخ الصوفية وأصله من مدينة القرم من صحراء قبجق و بعث معه هدايا للخليفة منها حجر ياقوت قيمته خمسون ألف دينار وكتب له يطلب منه أن يعقد له النيابة عنه ببلاد الهند والسند و يبعث له اسواد من يظهره هكذا نص عليه كتابه اعتقاداً منه فى الخلافة وحسن نية وكان للشيخ رجب أخ بديار مصر يدعى بالامير سيف الدين الكاشف فلما وصل رجب الى الخليفة أبى أن يقرأ الكتاب ويقبل الهدية الا بحضر الملك الصالح اسماعيل ابن الملك الناصر فأشار سيف الدين على أخيه رجب ببيع الحجر فباعه واشترى بثمنه وهو ثلاثمائة الف درهم اربعة أحجار وحضر بين يدى الملك الصالح ودفع له الكتاب وأحد الاحجار ودفع سائرها لامرائه واتفقوا على أن يكتب الملك الهند بما طلبه فوجهوا الشهود الى الخليفة واشهد على نفسه انه قدمه نائبا عنه ببلاد الهند وما يليها و بعث الملك الصالح رسولا من قبله وهو شيخ الشيوخ بمصر ركن الدين العجمي ومعه الشيخ رجب وجماعة من الصوفية وركبوا بحر فارس من الابلة الى هرمز وسلطانها يومئذ قطب الدين تمتهن طوران شاه فاكرم مثواهم وجهز لهم مركبا الى بلاد الهند فوصلوا مدينة كنبايت والشيخ سعيد بها وأميرها يومئذ مقبول التلتكى أحد خواص ملك الهند فاجتمع الشيخ رجب بهذا الامير وقال له ان الشيخ سعيدا انما جاءكم بالتزوير والخلع التى ساقها انما اشتراها بعدن فينبغى أن تثقفوه وتبعثوه لخوندعالم وهو السلطان فقال له الامير الشيخ سعيد معظم عند السلطان فما يفعل به هذا الا بامره ولكنى أبعثه معكم ليرى فيه السلطان رأيه وكتب الامير بذلك كله الى السلطان وكتب به أيضا صاحب الاخبار فوقع فى نفس السلطان تغير وانقبض عن الشيخ رجب لكونه تكلم بذلك على رؤس الاشهاد بعد ما صدر من السلطان للشيخ سعيد من الاكرام ما صدر فمنع رجب من الدخول عليه وزاد فى اكرام الشيخ سعيد ولما دخل شيخ الشيوخ على السلطان قام اليه وعانقه وأكرمه

Digitized by Birzeit University Library

وكان متى دخل اليه يقوم له وبقي الشيخ سعيد المذكور بارض الهند معظما مكرما وبها تركته سنة ثمان وأربعين وكان بمكة ايام مجاورتي بها حسن المغربي المجنون وأمره غريب وشانه عجيب وكان قبل ذلك صحيح العقل خدم الولي الله تعالى نجم الدين الاصبهاني أيام حياته

— حكايته — كان حسن المجنون كثير الطواف بالليل وكان يرى في طوافه بالليل فقيراً يكثر الطواف ولا يراه بالنهار فلقيه ذلك الفقير ليلة وساله عن حاله وقال له ياحسن ان أمك تبكي عليك وهي مشتاقة الى رؤيتك وكانت من اماء الله الصالحات أفتحب أن تراها قال له نعم ولكني لا قدرة لي على ذلك فقال له نجتمع ها هنا في الليلة المقبلة ان شاء الله تعالى فلما كانت الليلة المقبلة وهي ليلة الجمعة وجده حيث واعده فطافا بالبيت ماشاء الله ثم خرج وهو في أثره الى باب المعلى فامره أن يسد عينيه ويمسك بثوبه ففعل ذلك ثم قال بعد ساعة أتعرف بلدك قال نعم قال ها هو هذا ففتح عينيه فاذا به على دار أمه فدخل عليها ولم يعلمها بشيء مما جرى واقام عندها نصف شهر وأظن أن بلده مدينة أسفي ثم خرج الى الجبانة فوجد الفقير صاحبه فقال له كيف أنت فقال ياسيدي اني اشتقت الى رؤية الشيخ نجم الدين وكنت خرجت على عادتي وغبت عنه هذه الايام واحب ان ترد نى اليه فقال له نعم وواعده الجبانة ليلا فلما وافاه بها امره أن يفعل كفعله في مكة شرفها الله من تغميض عينيه والامساك بذيله ففعل ذلك فاذا به في مكة شرفها الله وأوصاه ان لا يحدث نجم الدين بشيء مما جري ولا يحدث به غيره فلما دخل على نجم الدين قال له أين كنت ياحسن في غيبتك فابى أن يخبره فعزم عليه فأخبره بالحكاية فقال أرني الرجل فاتى معه ليلا وأتى الرجل على عادته فلما مر بهما قال له ياسيدي هو هذا فسمعه الرجل فضرب بيده على فمه وقال أسكت أسكتك الله فخرس لسانه وذهب عقله وبقي بالحرم مولها يطوف بالليل والنهار من غير وضوء ولا صلاة والناس يتبركون به ويكسونه واذا جاع خرج الى السوق التي بين الصفا والمروة فيقصد حانوتا من الحوانيت فيأكل منها ما احب لا يصده أحد ولا يمنعه بل يسر كل من أكل له شيئا وتظهر له البركة والنماء في بيعه وربحه ومتى أتى السوق تطاول أهلها باعتاقهم اليه كل منهم يحرص على ان يأكل من عنده لما جربوه من بركته وكذلك فعله مع السقائين متى أحب ان يشرب ولم يزل دأبه كذلك الى سنة ثمان وعشرين فحج فيها الامير سيف الدين يلملك فاستصحبه معه الى ديار مصر فانقطع خبره نفع الله تعالى به

— ذكر عادة أهل مكة في صلواتهم ومواضع أئمتهم —

فمن عادتهم أن يصلي أول الائمة امام الشافعية وهو المقدم من قبل أولي الامر وصلاته

خلف المقام الكريم مقام ابراهيم الخليل عليه السلام فى حطيم له هنالك بديع وجمهور الناس بمكة على مذهبه والحطيم خشبتان موصول مابينهما باذرع شبه السلم تقابلهما خشبتان على صفتهما وقد عقدت على أرجل مجصصة وعرض على أعلى الخشب خشبة أخرى فيها خطاطيف حديد يعلق منها قناديل زجاج فاذا صلى الامام الشافعى صلى بعده امام المالكية فى محراب قبالة الركن اليمانى ويصلى امام الحنبلية معه فى وقت واحد مقابلا مابين الحجر الاسود والركن اليمانى ثم يصلى امام الحنفية قبال الميزاب المكرم تحت حطيم له هنالك ويوضع بين ايدى الائمة فى محاريبهم الشمع وترتيبهم هكذا فى الصلوات الاربع وأما صلاة المغرب فانهم يصلونها فى وقت واحد كل امام يصلى بطائفته ويدخل على الناس من ذلك سهو وتخليط فربما ركع المالكى بركوع الشافعى وسجد الحنفى بسجود الحنبلى وتراهم مصيخين كل واحد الى صوت المؤذن الذى يسمع طائفته لئلا يدخل عليه السهو

— ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة —

وعادتهم فى يوم الجمعة أن يلصق المنبر المبارك الى صفح الكعبة الشريفة فيما بين الحجر الاسود والركن العراقى ويكون الخطيب مستقبلا المقام الكريم فاذا خرج الخطيب أقبل لابسا ثوب سواد معتما بعمامة سوداء وعليه طيلسان اسود كل ذلك من كسوة الملك الناصر وعليه الوقار والسكينة وهو يتهادى بين رايتين سوداوين يتمسكهما رجلان من المؤذنين وبين يديه أحد القومة فى يده الفرقعة وهى عود فى طرفه جلد رقيق مفتول ينقضه فى الهواء فيسمع له صوت عال يسمعه من بداخل الحرم وخارجه فيكون اعلاما بخروج الخطيب ولا يزال كذلك الى ان يقرب من المنبر فيقبل الحجر الاسود ويدعو عنده ثم يقصد المنبر والمؤذن الزمزمى وهو رئيس المؤذنين بين يديه لابسا السواد وعلى عاتقه السيف ممسكا بيده وتركز الرايتان عن جانبى المنبر فاذا صعد أول درج من درج المنبر قلده المؤذن السيف فيضرب بنصل السيف ضربة فى الدرج يسمع بها الحاضرين ثم يضرب فى الدرج الثانى ضربة ثم فى الثالث أخرى فاذا استوى فى عليا الدرجات ضرب ضربة رابعة ووقف داعيا بدعاء خفى مستقبل الكعبة ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس ثم يقعد ويؤذن المؤذنون فى أعلى قبة زمزم فى حين واحد فاذا فرغ الاذان خطب الخطيب خطبة يكثر بها من الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ويقول فى أثنائها اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد ماطاف بهذا البيت طائف ويشير باصبعه الى البيت الكريم اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد مارقف بعرفة واقف ويترضى عن الخلفاء

Digitized by Birzeit University Library

الاربعة وعن سائر الصحابة وعن عمي النبي صلى الله عليه وسلم وسبطيه وأمهما وخديجة جدتهما على جميعهم السلام ثم يدعو للملك الناصر ثم للسلطان المجاهد نور الدين علي ابن الملك المؤيد داود ابن الملك المظفر يوسف بن علي بن رسول ثم يدعو للسيدين الشريفين الحسنيين أميري مكة سيف الدين عطيفة وهو أصغر الاخوين ويقدم اسمه لعدله واسد الدين رميثة ابني ابي نمي بن ابي سعد بن علي بن قتادة وقد دعا لسلطان العراق مرة ثم قطع ذلك فاذا فرغ من خطبته صلى وانصرف والرايتان عن يمينه وشماله والفرقعة امامه اشعارا بانقضاء الصلاة ثم يعاد المنبر الى مكانه ازاء المقام الكريم

— ذكر عادتهم في استهلال الشهور —

وعادتهم في ذلك ان يأتي امير مكة في اول يوم من الشهر وقواده يحفون به وهو لابس البياض معتم متقلد سيفا وعليه السكينة والوقار فيصلي عند المقام الكريم ركعتين ثم يقبل الحجر ويشرع في طواف اسبوع ورئيس المؤذنين على اعلى قبة زمزم فعند ما يكمل الامير شوطا واحدا ويقصد الحجر لتقبيله يندفع رئيس المؤذنين بالدعاء له والتهنئة بدخول الشهر رافعا بذلك صوته ثم ينشد كر شعرا في مدحه ومدح سلفه الكريم ويفعل به هكذا في السبعة اشواط فاذا فرغ منها ركع عند الملتزم ركعتين ثم ركع خلف المقام ايضا ركعتين ثم انصرف ومثل هذا سواء يفعل اذا أراد سفرا واذا قدم من سفر أيضا

— ذكر عادتهم في شهر رجب —

واذا هل هلال رجب امر امير مكة بضرب الطبول والبوقات اشعارا بدخول الشهر ثم يخرج في اول يوم منه راكبا ومعه أهل مكة فرسانا ورجالا على ترتيب عجيب وكلهم بالاسلحة يلعبون بين يديه والفرسان يجولون ويجرون والرجالة يتواثبون ويرمون بحرابهم الى الهواء ويلقفونها والامير رميثة والامير عطيفة معهما اولادهما وقوادهما مثل محمد بن ابراهيم وعلي واحمد ابني صبيح وعلي بن يوسف وشداد بن عمر وعامر الشرق ومنصور بن عمر وموسى المزرق وغيرهم من كبار أولاد الحسن ووجوه القواد وبين ايديهم الرايات والطبول والدبادب وعليهم السكينة والوقار ويصيرون حتى ينتهوا الى الميقات ثم يأخذون في الرجوع على معهود ترتيبهم الى المسجد الحرام فيطوف الامير بالبيت والمؤذن الزمزمي باعلى قبة زمزم يدعو له عند كل شوط على ما ذكرناه من عادته فاذا طاف صلى ركعتين عند الملتزم وصلى عند المقام وتمسح به وخرج الى المسعى فسعى راكبا والقواد يحفون به والحرابة بين يديه ثم يسير الى منزله وهذا اليوم عندهم عيد من الاعياد ويلبسون فيه أحسن

وأهل مكة يحتفلون لعمرة رجب الاحتفال الذى لا يعهد مثله وهى متصلة ليلا ونهارا وأوقات الشهر كله معمورة بالعبادة وخصوصا أول يوم منه ويوم خمسة عشر والسابع والعشرين فانهم يستعدون لها قبل ذلك بايام شاهدتهم فى ليلة السابع والعشرين منه وشوارع مكة قد غصت بالهوادج عليها كساء الحرير والكتان الرفيع كل أحد يفعل بقدر استطاعته والجمال مزينة مدة بقلائد الحرير واستار الهوادج ضافية تكاد تمس الارض فى كالقباب المضروبة ويخرجون الى ميقات التنعيم فتسيل أباطح مكة بتلك الهوادج والنيران مشعلة بجنبتي الطريق والشمع والمشاعل أمام الهوادج والجبال تجيب بصداها إهلال المهلين فترق النفوس وتنهمل الدموع فاذا قضوا العمرة وطافوا بالبيت خرجوا الى السعي بين الصفا والمروة بعد مضي شيء من الليل والمسعى متقد السرج غاص بالناس والساعيات فى هوادجهن والمسجد الحرام يتلألأ نورا وهم يسمون هذه العمرة بالعمرة الاكية لانهم يحرمون بها من أكمة أمام مسجد عائشة رضي الله عنها بمقدار غلوة على مقربة من المسجد المنسوب الى علي رضى الله عنه والاصل فى هذه العمرة ان عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لما فرغ من بناء الكعبة المقدسة خرج ماشيا حافيا معتمرا ومعه أهل مكة وذلك فى اليوم السابع والعشرين من رجب وانتهى الى الاكمة فاحرم منها وجعل طريقه على ثنية الحجون الى المعلى من حيث دخل المسلمون يوم الفتح فبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة الى هذا العهد وكان يوم عبد الله مذكورا أهدي فيه بدنا كثيرة واهدي اشراف مكة وأهل الاستطاعة منهم وأقاموا اياما يطعمون ويطعمون شكرا لله تعالى على ما وهبهم من التيسير والمعونة فى بناء بيته الكريم على الصفة التى كان عليها فى أيام الخليل صلوات الله عليه ثم لما قتل ابن الزبير نقض الحجاج الكعبة وردها الى بنائها فى عهد قريش وكانوا قد اقتصروا فى بنائها وأبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك لحدثان عهدهم بالكفر ثم اراد الخليفة أبو جعفر المنصور ان يعيدها الى بناء ابن الزبير فنهاه مالك رحمه الله عن ذلك وقال يا أمير المؤمنين لا تجعل البيت ملعبة للملوك متى أراد أحدهم أن يغيره فعل فتركه على حاله سدادا للذريعة وأهل الجهات الموالية لمكة مثل بجيلة وزهران وغامد يبادرون لحضور عمرة رجب ويجلبون الى مكة الحبوب والسمن والعسل والزبيب والزيت واللوز فترخص الاسعار بمكة ويرغد عيش أهلها وتعمهم المرافق ولولا أهل هذه البلاد لكان أهل مكة فى شظف من العيش ويذكرانهم متى أقاموا ببلادهم ولم يأتوا بهذه الميرة أجدبت بلادهم

ووقع الموت فى مواشيهم ومتى أوصلوا الميرة أخصبت بلادهم وظهرت فيها البركة ونمت أموالهم فهم اذا حان وقت ميرتهم وأدركهم كسل عنها اجتمعت نساؤهم فاخرجنهم وهذا من لطائف صنع الله تعالى وعنايته ببلده الامين وبلاد السروالتي يسكنها بجيلة وزهران وغامد وسواهم من القبائل مخصبة كثيرة الاعناب وافرة الغلات وأهلها فصحاء الالسن لهم صدق نية وحسن اعتقادوهم اذا طافوا بالكعبة يتطارحون عليها لائذين بجوارها متعلقين باستارها داعين بادعية تتصعد لرقتها القلوب وتدمع العيون الجامدة فترى الناس حولهم باسطى أيديهم مؤمنين على أدعيتهم ولا يتمكن لغيرهم الطواف معهم ولا استلام الحجر لتزاحمهم على ذلك وهم شجعان انجاد ولباسهم الجلود واذاوردوا مكة هابت اعراب الطريق مقدمهم وتجنبوا اعتراضهم ومن صحبهم من الزوار حمد صحبتهم وذكران النبى صلى الله عليه وسلم ذكرهم وأثنى عليهم خيرا وقال علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء وكفاهم شرفا دخولهم فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم الايمان يمان والحكمة يمانية وذكران عبد الله بن عمر رضى الله عنهما كان يتحرى وقت طوافهم ويدخل فى جملتهم تبركا بدعائهم وشانهم عجيب كله وقد جاء في أثر احوهم فى الطواف فان الرحمة تنصب عليهم صبا

— ذكر عادتهم فى ليلة النصف من شعبان —

وهذه الليلة من الليالى المعظمة عند أهل مكة يبادرون فيها الى أعمال البر من الطواف والصلاة جماعات وأفذاذا والاعتمار ويجتمعون فى المسجد الحرام جماعات لكل جماعة امام ويوقدون السرج والمصابيح والمشاعل وبقابل ذلك ضوء القمر يتلألأ الارض والسماء نورا ويصلون مائة ركعة يقرؤن فى كل ركعة بام القرآن وسورة الاخلاص يكررونهما عشرا وبعض الناس يصلون فى الحجر منفردين وبعضهم يطوفون بالبيت الشريف وبعضهم قد خرجوا للاعتمار

— ذكر عادتهم فى شهر رمضان المعظم —

واذا أهل هلال رمضان تضرب الطبول والدبادب عند أمير مكة ويقع الاحتفال بالمسجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل حتى يتلألأ الحرم نورا ويسطع بهجة واشراقا وتتفرق الائمة فرقا هم الشافعية والحنفية والحنبلية والزيدية وأما المالكية فيجتمعون على أربعة من القراء يتناوبون القراءة ويوقدون الشمع ولا تبقى فى الحرم زاوية ولا ناحية الاوفيها قارىء يصلى بجماعته فيرتج المسجد لاصوات القراء وترق النفوس وتحضر القلوب وتهمل الاعين ومن الناس من يقتصر على الطواف والصلاة فى

Digitized by Birzeit University Library

الحجر منفردا والشافعية أكثر الائمة اجتهادا وعاداتهم انهم اذا أكملوا التراويح المعتادة وهي عشرون ركعة يطوف امامهم وجماعته فاذا فرغ من الاسبوع ضربت الفرقعة التي ذكرنا أنها تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة كان ذلك اعلاما بالعودة الى الصلاة ثم يصلي ركعتين ثم يطوف أسبوعا هكذا الى ان يتم عشرين ركعة أخري ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون وسائر الائمة لا يزيدون على العادة شيأ واذا كان وقت السحور يتولى المؤذن الزمزمي التسحير في الصومعة التي بالركن الشرقي من الحرم فيقوم داعيا ومذكرا ومحرضا على السحور والمؤذنون في سائر الصوامع فاذا تكلم أحدهم أجابه صاحبه وقد نصبت في أعلي كل صومعة خشبة علي رأسها عود معترض قد علق فيه قنديلان من الزجاج كبيران يقدان فاذا قرب الفجر ووقع الايذان بالقطع مرة بعد مرة حط القنديلان وابتدأ المؤذنون بالاذان وأجاب بعضهم بعضا ولدي ار مكة شرفها الله سطوح فمن بعدت داره بحيث لا يسمع الاذان يبصر القنديلين المذكورين فيتسحر حتي اذا لم يبصرهما أقلع عن الاكل وفي كل ليلة وتر من ليالي العشر الاواخر من رمضان يختمون القرآن ويحضر الختم القاضي والفقهاء والكبراء ويكون الذي يختم بهم أحد أبناء كبراء أهل مكة فاذا ختم نصب له منبر مزين بالحرير وأوقد الشمع وخطب فاذا فرغ من خطبته استدعى أبوه الناس الى منزله فاطعمهم الاطعمة الكثيرة والحلاوات وكذلك يصنعون في جميع ليالي الوتر وأعظم تلك الليالي عندهم ليلة سبع وعشرين واحتفالهم لها أعظم من احتفالهم لسائر الليالي ويختم بها القرآن العظيم خلف المقام الكريم وتقام ازاء حطيم الشافعية خشب عظام توصل بالحطيم وتعرض بينها ألواح طوال وتجعل ثلاث طبقات وعليها الشمع وقناديل الزجاج فيكاد يغشي الابصار شعاع الانوار ويتقدم الامام فيصلي فريضة العشاء الآخرة ثم يبتدئ قراءة سورة القدر واليها يكون انتهاء قراءة الائمة في الليلة التي قبلها وفي تلك الساعة يمسك جميع الائمة عن التراويح تعظيما لختمة المقام ويحضرونها متبركين فيختم الامام في تسليمتين ثم يقوم خطيبا مستقبل المقام فاذا فرغ من ذلك عاد الائمة الى صلاتهم وانفض الجمع ثم يكون الختم ليلة تسع وعشرين في المقام المالكي في منظر مختصر وعن المباهاة منزه موقر فيختم ويخطب

— ذكر عادتهم في شوال —

وعادتهم في شوال وهو مفتتح أشهر الحج المعلومات أن يوقدوا المشاعل ليلة استهلاله ويسرجون المصابيح والشمع على نحو فعلهم في ليلة سبع وعشرين من رمضان وتوقد السرج في الصوامع من جميع جهاتها ويوقد سطح الحرم كله وسطح المسجد الذي باعلى

Digitized by Birzeit University Library

أبي قبيس و يقيم المؤذنون ليلتهم تلك فى تهليل و تكبير و تسبيح و الناس ما بين طواف وصلاة و ذكر و دعاء فاذا صلوا صلاة الصبح أخذوا فى أهبة العيد و لبسوا أحسن ثيابهم وبادروا لاخذ مجالسهم بالحرم الشريف به يصلون صلاة العيد لانه لا موضع أفضل منه و يكون أول من يبكر الى المسجد الشيبيون فيفتحون باب الكعبة المقدسة و يقعد كبيرهم فى عتبتها و سائرهم بين يديه الى ان يأتي أمير مكة فيتلقونه و يطوف بالبيت أسبوعا و المؤذن الزمزمي فوق سطح قبة زمزم على العادة رافعا صوته بالثناء عليه و الدعاء له و لاخيه كما ذكرنا ياتي الخطيب بين الرايتين السوداوين و الفرقعة أمامه و هو لابس السواد فيصلي خلف المقام الكريم ثم يصعد المنبر و يخطب خطبة بليغة ثم اذا فرغ منها أقبل الناس بعضهم على بعض بالسلام و المصافحة و الاستغفار و يقصدون الكعبة الشريفة فيدخلونها أفواجا ثم يخرجون الى مقبرة باب المعلي تبركا بمن فيها من الصحابة و صدور السلف ثم ينصرفون

— ذكر احرام الكعبة —

وفى اليوم السابع و العشرين من شهر ذى القعدة تشمر أستار الكعبة الشريفة زادها الله تعظيما الى نحو ارتفاع قامة و نصف من جهاتها الاربع صونا لها من الايدى أن تنتهبها و يسمون ذلك احرام الكعبة و هو يوم مشهود بالحرم الشريف و لا تفتح الكعبة المقدسة من ذلك اليوم حتي تنقضي الوقفة بعرفة

— ذكر شعائر الحج و أعماله —

واذا كان فى أول يوم شهر ذى الحجة تضرب الطبول و الدبادب فى أوقات الصلوات بكرة و عشية اشعارا بالموسم المبارك و لا تزال كذلك الى يوم الصعود الى عرفات فاذا كان اليوم السابع من ذى الحجة خطب الخطيب اثر صلاة الظهر خطبة بليغة يعلم الناس فيها مناسكهم و يعلمهم بيوم الوقفة فاذا كان اليوم الثامن بكر الناس بالصعود الى مني و أمراء مصر و الشام و العراق و أهل العلم يبيتون تلك الليلة بمني و تقع المباهاة و المفاخرة بين أهل مصر و الشام و العراق فى ايقاد الشمع و لكن الفضل فى ذلك لاهل الشام دائما فاذا كان اليوم التاسع رحلوا من مني بعد صلاة الصبح الى عرفة فيمرون فى طريقهم بوادي محسر و يهرولون وذلك سنة بوادي محسر هو الحد ما بين مزدلفة و مني و مزدلفة بسيط من الارض فسيح بين جبلين و حولها مصانع و صهاريج للماء مما بنته زبيدة ابنة جعفر بن ابى جعفر المنصور زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد و بين منى و عرفة خمسة أميال و كذلك بين منى و مكة ايضا خمسة اميال و لعرفة ثلاثة اسماء و هي عرفة و جمع و المشعر الحرام و عرفات

بسيط من الارض فسيح افيح تحدق به جبال كثيرة وفي آخر بسيط عرفات جبل الرحمة وفيه الموقف وفيما حوله والعلمان قبله بنحو ميل وهما الحدما بين الحل والحرم وبمقربة منهما مما يلي عرفة بطن عرنة الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالارتفاع عنه ويجب التحفظ منه ويجب أيضاً الامساك عن النفور حتي يتمكن سقوط الشمس فان الجاهلين ربما استحثوا كثيراً من الناس وحذروهم الزحام في النفر واستدرجوهم الى أن يصلوا بهم بطن عرنة فيبطل حجهم وجبل الرحمة التي ذكرناه قائم في وسط بسيط جمع منقطع عن الجبال وهو من حجارة منقطع بعضها عن بعض وفي أعلاه قبة تنسب الى أم سلمة رضي الله عنها وفي وسطها مسجد يتراحم الناس للصلاة فيه وحوله سطح فسيح يشرف على بسيط عرفات وفي قبليه جدار فيه محاريب منصوبة يصلي فيه الناس وفي أسفل هذا الجبل عن يسار المستقبل للكعبة دار عتيقة البناء تنسب الى آدم عليه السلام وعن يسارها الصخرات التي كان موقف النبي صلى الله عليه وسلم عندها وحول ذلك صهاريج وجباب للماء وبمقربة منه الموضع الذي يقف فيه الامام ويخطب ويجمع بين الظهر والعصر وعن يسار العلمين المستقبل أيضاً وادي الاراك وبه أراك أخضر يمتد في الارض امتداداً طويلاً واذا حان وقت النفر أشار الامام المالكي بيده ونزل عن موقفه فدفع الناس بالتهليل دفعة ترتج لها الارض وترجف الجبال فيالله موقفاً كريماً ومشهداً عظيماً ترجو النفوس حسن عقباه وتطمح الآمال الى نفحات رحماه جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه وكانت وقفتي الاولى يوم الخميس سنة ست وعشرين وأمير الركب المصري يومئذ أرغون الدوادار نائب الملك الناصر وحججت في تلك السنة ابنة الملك الناصر وهي زوجة أبي بكر بن أرغون المذكور وحججت فيها زوجة الملك الناصر المسماة بالخوندة وهي بنت السلطان المعظم محمد اوزبك ملك السراوخوارزم وأمير الركب الشامي سيف الدين الجوبان ولما وقع النفر بعد غروب الشمس وصلنا مزدلفة عند العشاء الآخرة فصلينا بها المغرب والعشاء جمعا بينهما حسبما جرت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما صلينا الصبح بمزدلفة غدونا منها الى مني بعد الوقوف والدعاء بالمشعر الحرام ومزدلفة كلها موقف الاوادي محسر ففيه تقع الهرولة حتى يخرج عنه ومن مزدلفة يستصحب أكثر الناس حصيات الجمار وذلك مستحب ومنهم من يلقطها حول مسجد الخيف والامر في ذلك واسع ولما انتهى الناس الى مني بادروا لرمي جمرة العقبة ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحلوا من كل شيء الا النساء والطيب حتى يطوفوا طواف الافاضة ورمي هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر ولما

رهوها توجه أكثر الناس بعد أن ذبحوا وحلقوا الى طواف الافاضة ومنهم من أقام الى اليوم الثاني وفي اليوم الثاني رمى الناس عند زوال الشمس بالجمرة الاولى سبع حصيات وبالوسطى كذلك ووقفوا للدعاء بهاتين الجمرتين اقتداء بفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان اليوم الثالث تعجل الناس الانحدار الى مكة شرفها الله بعد أن كمل لهم رمي تسع وأربعين حصاة وكثير منهم أقام اليوم الثالث بعد يوم النحر حتى رمي سبعين حصاة

— ذكر كسوة الكعبة —

وفي يوم النحر بعثت كسوة الكعبة الشريفة من الركب المصري الى البيت الكريم فوضعت في سطحه فلما كان اليوم الثالث بعد يوم النحر أخذ الشيبيون في أسبالها على الكعبة الشريفة وهي كسوة سوداء حالكة من الحرير مبطنة بالكتان وفي أعلاها طراز مكتوب فيه بالبياض جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما الآية وفي سائر جهاتها طراز مكتوب بالبياض فيها آيات من القرآن وعليها نور لائح مشرق من سوادها ولما كسيت شمرت اذيالها صونا من أيدي الناس والملك الناصر هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة ويبعث مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومة وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة وفي هذه الايام تفتح الكعبة الشريفة في كل يوم للعراقيين والخراسانيين وسواهم ممن يصل مع الركب العراقي وهم يقيمون بمكة بعد سفر الركبين الشامي والمصري أربعة أيام فيكثرون فيها الصدقات على المجاورين وغيرهم ولقد شاهدتهم يطوفون بالحرم ليلا فمن لقوه في الحرم من المجاورين أو المكيين اعطوه الفضة والثياب وكذلك يعطون للمشاهدين الكعبة الشريفة وربما وجدوا انسانا نائما فجعلوا في عينيه الذهب والفضة حتى يفيق ولما قدمت معهم من العراق سنة ثمان وعشرين فعلوا من ذلك كثيرا وأكثروا الصدقة حتى رخص سوم الذهب بمكة وانتهي صرف المثقال الى ثمانية عشر درهما نقرة لكثرة ما تصدقوا به من الذهب وفي هذه السنة ذكر اسم السلطان أبي سعيد ملك العراق على المنبر وقبة زمزم

— ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله تعالى —

وفي الموفي عشرين لذي الحجة خرجت من مكة صحبة أمير ركب العراق البهلوان محمد الحويج بجاءين مهملين وهو من أهل الموصل وكان يلي امارة الحاج بعد موت الشيخ شهاب الدين قلندر وكان شهاب الدين سخيا فاضلا عظيم الحرمة عند سلطانه يحلق لحيته وحاجبيه على طريقة القلندرية ولما خرجت من مكة شرفها الله تعالى في صحبة الامير

Digitized by Birzeit University Library

البهلوان المذكور اكتري لي شقة محارة الى بغداد ودفع اجارتها من ماله وأنزلني في جواره وخرجنا بعد طواف الوداع الى بطن مر في جمع من العراقيين والخراسانيين والفارسيين والاعاجم لا يحصى عديدهم تموج بهم الارض موجا ويسيرون سير السحاب المتراكم فمن خرج عن الركب لحاجة ولم تكن له علامة يستدل بها على موضعه ضل عنه لكثرة الناس وفي هذا الركب نواضح كثيرة لابناء السبيل يستقون منها الماء وجمال لرفع الزاد للصدقة ورفع الادوية والاشربة والسكر لمن يصيبه مرض واذا نزل الركب طبخ الطعام في قدور نحاس عظيمة تسمى الدسوت وأطعم منها أبناء السبيل ومن لا زاد معه وفي الركب جملة من الجمال يحمل عليها من لا قدرة له على المشي كل ذلك من صدقات السلطان أبي سعيد ومكارمه قال ابن جزي كرم الله هذه الكنية الشريفة فما أعجب أمرها في الكرم وحسبك بمولانا بحر المكارم ورافع رايات الجود الذي هو آية في الندى والفضل أمير المسلمين أبي سعيد ابن مولانا قامع الكفار والآخذ للاسلام بالثار أمير المسلمين أبي يوسف قدس الله أرواحهم الكريمة وأبقى الملك في عقبهم الطاهر الى يوم الدين (رجع) وفي هذا الركب الاسواق الحافلة والمرافق العظيمة وانواع الاطعمة والفواكه وهم يسيرون بالليل ويوقدون المشاعل أمام القطار والمحارات فتري الارض تتلألأ نورا والليل قد عاد نهارا ساطعا ثم رحلنا من بطن مر الى عسفان ثم الى خليص ثم رحلنا أربع مراحل ونزلنا وادي السمك ثم رحلنا منه مساء ونزلنا في بدر وهذه المراحل ثنتان في اليوم احداهما بعد الصبح والاخري بالعشي ثم رحلنا من بدر فنزلنا الصفراء وأقمنا بها يوما مستريحين ومنها الى المدينة الشريفة مسيرة ثلاث ثم رحلنا فوصلنا الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحصلت لنا زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانيا وأقمنا بالمدينة كرمها الله تعالى ستة أيام واستصحبنا منها الماء لمسيرة ثلاث ورحلنا عنها فنزلنا في الثالثة بوادي العروس فتزودنا منه الماء من حسيات يحفرون عليها في الارض فينبطون ماء عذبا معينا ثم رحلنا من وادي العروس ودخلنا أرض نجد وهو بسيط من الارض مد البصر فتنسمنا نسيمة الطيب الارج ونزلنا بعد أربع مراحل على ماء يعرف بالعسيلة ثم رحلنا عنه ونزلنا ماء يعرف بالنقرة فيه آثار مصانع كالصهاريج العظيمة ثم رحلنا الى ماء يعرف بالقارورة وهي مصانع مملوءة بماء المطر مما صنعته زبيدة ابنة جعفر رحمها الله ونفعها وهذا الموضع هو وسط أرض نجد فسيح طيب النسيم صحيح الهواء نقي التربة معتدل في كل فصل ثم رحلنا من القارورة ونزلنا بالحاجر وفيه مصانع للماء وربما جفت فحفر عن الماء في الجفار

Digitized by Birzeit University Library

ثم رحلنا ونزلنا سميرة وهي أرض غائرة في بسيط فيه شبه حصن مسكون وماؤها كثير في أبار الا انه زعاق ويأتي عرب تلك الارض بالغنم والسمن واللبن فيبيعون ذلك من الحجاج بالثياب الخام ولا يبيعون بسوى ذلك ثم رحلنا ونزلنا بالجبل المخروق وهو في بيداء من الارض وفي أعلاه ثقب نافذ تخرقه الريح ثم رحلنا منه الى وادي الكروش ولا ماء به ثم أسرينا ليلا وصبحنا حصن فيدو هو حصن كبير في بسيط من الارض يدور به سور وعليه ربض وساكنوه عرب يتعيشون مع الحاج في البيع والتجارة وهنالك يترك الحجاج بعض أزوادهم حين وصولهم من العراق الى مكة شرفها الله تعالى فاذا عادوا وجدوه وهو نصف الطريق من مكة الى بغداد ومنه الى الكوفة مسيرة اثني عشر يوما في طريق سهل به المياه في المصانع ومن عادة الركب ان يدخلوا هذا الموضع على تعبئة وأهبة للحرب ارهابا للعرب المجتمعين هنالك وقطعا لاطماعهم عن الركب وهنالك لقينا أمير العرب وهما فياض وحيار واسمه (بكسر الحاء واهماله وياء آخر الحروف) وهما أبناء الامير مهني بن عيسى ومعهما من خيل العرب ورجالهم من لا يحصون كثرة فظهر منهما المحافظة على الحاج والرحال والحوطة لهم وأتى العرب بالجمال والغنم فاشترى منهم الناس ما قدروا عليه ثم رحلنا ونزلنا الموضع المعروف الاجفر ويشتهر باسم العاشقين جميل وبثينة ثم رحلنا ونزلنا بالبيداء ثم أسرينا ونزلنا زرود وهي بسيط من الارض فيه رمال منهالة وبه دور صغار قد اداروها شبه الحصن وهنالك آبار ماء ليست بالعذبة ثم رحلنا ونزلنا الثعلبية ولها حصن خرب بازائه مصنع هائل ينزل اليه في درج وبه من ماء المطر ما يعم الركب ويجتمع من العرب بهذا الموضع جمع عظيم فيبيعون الجمال والغنم والسمن واللبن ومن هذا الموضع الى الكوفة ثلاث مراحل ثم رحلنا فنزلنا ببركة المرجوم وهو مشهد على الطريق عليه كوم عظيم من حجارة وكل من مر به رجمه ويذكران هذا المرجوم كان رافضيا فسافر مع الركب يريد الحج فوقعت بينه وبين اهل السنة من الاتراك مشاجرة فسب بعض الصحابة فقتلوه بالحجارة وبهذا الموضع بيوت كثيرة للعرب ويقصدون الركب بالسمن واللبن وسوى ذلك وبه مصنع كبير يعم جميع الركب مما بنته زبيدة رحمة الله عليها وكل مصنع أو بركة أو بئر بهذه الطريق التي بين مكة وبغداد فهي من كريم آثارها جزاها الله خيرا ووفى لها أجرها ولولا عنايتها بهذه الطريق ما سلكها أحد ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالمشقوق فيه مصنعان بهما الماء العذب الصافي وأراق الناس ما كان عندهم من الماء وتزودوا منهما ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالتنانير وفيه مصنع ممتلئ بالماء ثم أسرينا منه

Digitized by Birzeit University Library

واجتزنا ضحوة بزمالة وهي قرية معمورة بها قصر للعرب ومصنعان للماء وآبار كثيرة وهي من مناهل هذا الطريق ثم رحلنا فنزلنا الهيثمين وفيه مصنعان للماء ثم رحلنا فنزلنا دون العقبة المعروفة بعقبة الشيطان وصعدنا العقبة في اليوم الثاني وليس بهذا الطريق وعرسواها على انها ليست بصعبة ولا طائلة ثم نزلنا موضعا يسمى واقصة فيه قصر كبير ومصانع للماء معمور بالعرب وهو آخر مناهل هذا الطريق وليس فيما بعده الى الكوفة منهل مشهور الا مشارع ماء الفرات وبه يتلقى كثير من أهل الكوفة الحاج ويأتون بالدقيق والخبز والتمر والفواكه ويهني الناس بعضهم بعضا بالسلامة ثم نزلنا موضعا يعرف بلورة فيه مصنع كبير للماء ثم نزلنا موضعا يعرف بالمساجد فيه ثلاث مصانع ثم نزلنا موضعا يعرف بمنارة القرون وهي منارة في بيداء من الارض بائنة الارتفاع مجللة بقرون الغزلان ولا عمارة حولها ثم نزلنا موضعا يعرف بالعذيب وهو واد مخصب عليه عمارة وحوله فلاة خصبة فيها مسرح للبصر ثم نزلنا القادسية حيث كانت الوقعة الشهيرة على الفرس التي أظهر الله فيها دين الاسلام وأذل المجوس عبدة النار فلم تقم لهم بعدها قائمة واستأصل الله شأفتهم وكان أمير المسلمين يومئذ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وكانت القادسية مدينة عظيمة افتتحها سعد رضي الله عنه وخربت فلم يبق منها الآن الا مقدار قرية كبيرة وفيها حدائق النخل وبها مشارع من ماء الفرات ثم رحلنا منها فنزلنا مدينة مشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالنجف وهي مدينة حسنة في أرض فسيحة صلبة من أحسن مدن العراق وأكثرها ناسا وأتقنها بناء ولها أسواق حسنة نظيفة دخلناها من باب الحضرة فاستقبلنا سوق البقالين والطباخين والخبازين ثم سوق الفاكهة ثم سوق الخياطين والقسارية ثم سوق العطارين ثم باب الحضرة حيث القبر الذي يزعمون انه قبر علي عليه السلام وبازائه المدارس والزوايا والخوانق معمورة أحسن عمارة وحيطانها بالقاشاني وهو شبه الزليج عندنا لكن لونه أشرق ونقشه أحسن

— ذكر الروضة والقبور التي بها —

ويدخل من باب الحضرة الى مدرسة عظيمة يسكنها الطلبة والصوفية من الشيعة ولكل وارد عليها ضيافة ثلاثة أيام من الخبز واللحم والتمر مرتين في اليوم ومن تلك المدرسة يدخل الى باب القبة وعلى بابها الحجاب والنقباء والطواشية فعند ما يصل الزائر يقوم اليه أحدهم أو جميعهم وذلك على قدر الزائر فيقفون معه على العتبة ويستأذنون له ويقولون عن أمركم يا أمير المؤمنين هذا العبد الضعيف يستأذن على دخوله للروضة العلية فان أذنتم له والا ارجع وان لم يكن أهلا لذلك فانتم أهل المكارم والستر ثم يأمرونه بتقبيل العتبة وهي من الفضة وكذلك

العضادتان ثم يدخل القبة وهي مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه وبها قناديل الذهب والفضة منها الكبار والصغار وفي وسط القبة مسطبة مربعة مكسوة بالخشب عليه صفائح الذهب المنقوشة المحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة قد غلبت على الخشب بحيث لا يظهر منه شيء وارتفاعها دون القامة وفوقها ثلاثة من القبور يزعمون ان أحدها قبر آدم عليه الصلاة والسلام والثاني قبر نوح عليه الصلاة والسلام والثالث قبر علي رضي الله تعالى عنه وبين القبور طسوت ذهب وفضة فيها ماء الورد والمسك وانواع الطيب يغمس الزائر يده في ذلك ويدهن به وجهه تبركا وللقبة باب آخر عتبته أيضاً من الفضة وعليه ستور من الحرير الملون يفضي الى مسجد مفروش بالبسط الحسان مستورة حيطانه وسقفه بستور الحرير وله أربعة أبواب عتباتها فضة وعليها ستور الحرير وأهل هذه المدينة كلهم رافضية وهذه الروضة ظهرت لها كرامات ثبت بها عندهم أن بها قبر علي رضي الله عنه فمنها انه في ليلة السابع والعشرين من رجب وتسمي عندهم ليلة المحيا يؤتى الى تلك الروضة بكل مقعد من العراقين وخراسان وبلاد فارس والروم فيجتمع منهم الثلاثون والاربعون ونحو ذلك فاذا كان بعد العشاء الآخرة جعلوا فوق الضريح المقدس والناس ينتظرون قيامهم وهم ما بين مصل وذاكر وتال ومشاهد للروضة فاذا مضى من الليل نصفه أو ثلثاه أو نحو ذلك قام الجميع اصحاء من غير سوء وهم يقولون لا اله الا الله محمد رسول الله علي ولي الله وهذا أمر مستفيض عندهم سمعته من الثقاة ولم أحضر تلك الليلة لكني رأيت بمدرسة الضياف ثلاثة من الرجال أحدهم من أرض الروم والثاني من أصبهان والثالث من خراسان وهم مقعدون فاستخبرتهم عن شأنهم فاخبروني انهم لم يدركوا ليلة المحيا وانهم منتظرون أوانها من عام آخر وهذه الليلة يجتمع لها الناس من البلاد ويقيمون سوقا عظيمة مدة عشرة أيام وليس بهذه المدينة مغرم ولا مكاس ولا وال وانما يحكم عليهم نقيب الاشراف وأهلها تجار يسافرون في الاقطار وهم أهل شجاعة وكرم ولا يضام جارهم صحبتهم في الاسفار فحمدت صحبتهم لكنهم غلوا في علي رضي الله عنه ومن الناس في بلاد العراق وغيرها من يصيبه المرض فينذر للروضة نذرا اذا برىء ومنهم من يمرض رأسه فيصنع رأسا من ذهب أو فضة ويأتي به إلى الروضة فيجعله النقيب في الخزانة وكذلك اليد والرجل وغيرها من الاعضاء وخزانة الروضة عظيمة فيها من الاموال ما لا يضبط لكثرته

— ذكر نقيب الاشراف —

ونقيب الاشراف مقدم من ملك العراق ومكانه عنده مكين ومنزلته رفيعة وله ترتيب

الامراء الكبار فى سفره وله الاعلام والاطبال وتضرب الطبلخانة عند بابه مساء وصباحا واليه حكم هذه المدينة ولا والى بها سواه ولا مغرم فيها للسلطان ولا لغيره وكان النقيب فى عهد دخولى اليها نظام الدين حسين بن تاج الدين الآوى نسبة الى بلده آوة من عراق العجم أهلها رافضة وكان قبله بجماعة يلى كل واحد منهم بعد صاحبه منهم جلال الدين ابن الفقيه ومنهم قوام الدين بن طاووس ومنهم ناصر الدين مطهر بن الشريف الصالح شمس الدين محمد الاوهرى من عراق العجم وهو الآن بارض الهند من ندماء ملكها

ومنهم أبو غرة بن سالم بن مهنى بن جماز بن شيحة الحسينى المدنى — حكاية —

كان الشريف أبو غرة قد غلب عليه فى أول أمره العبادة وتعلم العلم واشتهر بذلك وكان ساكنا بالمدينة الشريفة كرمها الله فى جوار ابن عمه منصور بن جماز أمير المدينة ثم إنه خرج عن المدينة واستوطن العراق وسكن منها بالحلة فمات النقيب قوام الدين بن طاوس فاتفق أهل العراق على تولية أبي غرة نقابة الاشراف وكتبوا بذلك الى السلطان أبي سعيد فامضاه ونفذله اليرليغ وهو الظهير بذلك و بعثت له الخلعة والاعلام والطبول على عادة النقباء ببلاد العراق فغلبت عليه الدنيا وترك العبادة والزهد وتصرف فى الاموال تصرفا قبيحا فرفع أمره الى السلطان فلما علم بذلك أعمل السفر مظهرا انه يريد خراسان قاصدا زيارة قبر على بن موسى الرضا بطوس وكان قصده الفرار فلما زار قبر على بن موسى قدم هراة وهى آخر بلاد خراسان وأعلم أصحابه أنه يريد بلاد الهند فرجع أكثرهم عنه وتجاوز هو أرض خراسان الى السند فلما جاز وادي السند المعروف بينج آب ضرب طبوله وانفاره فراع ذلك أهل القرى وظنوا أن التتر أتوا للاغارة عليهم وأجفلوا الى المدينة المسماة بأوجا وأعلموا أميرها بما سمعوه فركب فى عساكره واستعد للحرب وبعث الطلايع فرأوا نحو عشرة من الفرسان وجماعة من الرجال والتجار ممن صحب الشريف فى طريقه معهم الاطبال والاعلام فسألوهم عن شأنهم فأخبروهم ان الشريف نقيب العراق أتى وافدا على ملك الهند فرجع الطلايع الى الامير وأخبروه بكيفية الحال فاستضعف عقل الشريف لرفعه العلامات وضربه الطبول فى غير بلاده ودخل الشريف مدينة أوجا وأقام بها مدة تضرب الاطبال على باب داره غدوة وعشيا وكان مولعا بذلك ويذكر أنه كان فى أيام نقابته بالعراق تضرب الاطبال على رأسه فاذا أمسك النقار عن الضرب يقول له زد نقرة يا نقار حتى لقب بذلك وكتب صاحب مدينة أوجا الى ملك الهند يخبر الشريف وضربه الاطبال بالطريق وعلى باب داره غدوة وعشيا ورفعه الاعلام وعادة أهل

Digitized by Birzeit University Library

الهند أن لا يرفع علما ولا يضرب طبلا الا من أعطاه الملك ذلك ولا يفعله الا في السفر وأما في حال الاقامة فلا يضرب الطبل الا على باب الملك خاصة بخلاف مصر والشام والعراق فان الطبول تضرب على أبواب الامراء فلما بلغ خبره ملك الهند كره فعله وأنكره وفعل في نفسه ثم خرج الامير الى حضرة الملك وكان الامير كشلي خان والخان عندهم أعظم الامراء وهو الساكن بملتان كرسي بلاد السند وهو عظيم القدر عند ملك الهند يدعوه بالم لانه كان ممن أعان أباه السلطان غياث الدين تغلق شاه على قتال السلطان ناصر الدين خسرو شاه فقدم على حضرة ملك الهند فخرج الملك الى لقائه فاتفق ان كان وصول الشريف في ذلك اليوم وكان الشريف قد سبق الامير بأميال وهو على حالة من ضرب الاطبال فلم يرعه الا السلطان في موكبه فتقدم الشريف الى السلطان فسلم عليه وسأله السلطان عن حاله وما الذي جاء به فاخبره ومضى السلطان حتى لقي الامير كشلي خان وعاد الى حضرته ولم يلتفت الى الشريف ولا أمره بانزال ولا غيره وكان الملك عازما على السفر الى مدينة دولة أباد وتسمي أيضاً بالكتكة (بفتح الكافين والتاء المثلوة التي بينهما) وتسمي أيضاً بالدويجر (دوكير) وهي على مسيرة أربعين يوما من مدينة دهلي حضرة الملك فلما شرع في السفر بعث الى الشريف بخمسمائة دينار دراهم وصرفها من ذهب المغرب مائة وخمسة وعشرون ديناراً وقال لرسوله اليه قل له ان أراد الرجوع الى بلاده فهذا زاده وان أراد السفر معنا فهي نفقته في الطريق وان أراد الاقامة بالحضرة فهي نفقته حتى نرجع فاغتم الشريف لذلك وكان قصده ان يجزل له العطاء كما هي عادته مع أمثاله واختار السفر صحبة السلطان وتعلق بالوزير احمد بن اياس المدعو اخواجة جهان وبذلك سماه الملك وبه يدعوه هو وبه يدعوه سائر الناس فان من عادتهم انه متى سمي الملك احداً باسم مضاف الى الملك من عماد او ثقه او قطب او باسم مضاف الى الجهان من صدر وغيره فبذلك يخاطبه الملك وجميع الناس ومن خاطبه بسوى ذلك لزمته العقوبة فاكدت المودة بين الوزير والشريف فأحسن اليه ورفع قدره ولاطف الملك حتى حسن فيه رأيه وأمره بقريتين من قرى دولة أباد وامره ان تكون اقامته بها وكان هذا الوزير من أهل الفضل والمروءة ومكارم الاخلاق والمحبة في الغرباء والاحسان اليهم وفعل الخير واطعام الطعام وعمارة الزوايا فاقام الشريف يستغل القريتين ثمانية أعوام وحصل من ذلك مالا عظيما ثم أراد الخروج فلم يمكنه فانه من خدم السلطان لا يمكنه الخروج الا باذنه وهو محب في الغرباء فقليلا ما يأذن لاحدهم في السراح فاراد الفرار

من طريق الساحل فرد منه وقدم الحضرة ورغب من الوزير أن يحاول قضية انصرافه فتلطف الوزير فى ذلك حتى اذن له السلطان فى الخروج عن بلاد الهند واعطاه عشرة آلاف دينار من دراهمهم و صرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار فاتى بها فى بدرة فجعلها تحت فراشه ونام عليها لمحبته فى الدنانير وفرحه بها وخوفه أن يتصل لاحد من اصحابه شيء منها فانه كان بخيلا فاصابه وجع فى جنبه بسبب رقاده عليها ولم يزل يتزايد به وهو آخذ فى حركة سفره الى أن توفى بعد عشرين يوما من وصول البدرة اليه واوصى بذلك المال للشريف حسن الجرانى فتصدق بجملته على جماعة من الشيعة المقيمين بدهلى من أهل الحجاز والعراق و أهل الهند لا يورثون بيت المال ولا يتعرضون لمال الغرباء ولا يسالون عنه ولو بلغ ماعسى أن يبلغ وكذلك السودان لا يتعرضون لمال الابيض ولا ياخذونه انما يكون عند الكبار من أصحابه حتى ياتى مستحقه وهذا الشريف أبو غرة له أخ اسمه قاسم سكن غرناطة مدة و بها تزوج بنت الشريف أبي عبد الله بن ابراهيم الشهير بالمكى ثم انتقل الى جبل طارق فسكنه الى ان استشهد بوادى كرة من نظر الجزيرة الخضراء وكان بهمة من البهم لا يصطلي بناره خرق المعتاد فى الشجاعة وله فيها أخبار شهيرة عند الناس وترك ولدين هما فى كفالة ربيبها الشريف الفاضل أبي عبد الله محمد ابن أبي القاسم بن نفيس الحسيني الكربلائي الشهير ببلاد المغرب بالعراقى وكان تزوج أمهما بعد موت أبيهما وهو محسن لهما جزاه الله خيرا

ولما تحصلت لنا زيارة أمير المؤمنين على عليه السلام سافر الركب الى بغداد وسافرت الى البصرة صحبة رفقة كبيرة من عرب خفاجة وهم أهل تلك البلاد ولهم شوكة عظيمة وباس شديد ولا سبيل للسفر فى تلك الاقطار الا فى صحبتهم فاكتريت جملا على يد أمير تلك القافلة شامر بن دراج الخفاجى و خرجنا من مشهد على عليه السلام فنزلنا الخورنق موضع سكني النعمان بن المنذر وآبائه من ملوك بني ماء السماء وبه عمارة و بقايا قباب ضخمة فى فضاء فسيح على نهر يخرج من الفرات ثم رحلنا عنه فنزلنا موضعا يعرف بقائم الواثق وبه أثر قرية خربة ومسجد خرب لم يبق منه الا صومعته ثم رحلنا عنه آخذين مع جانب الفرات بالموضع المعروف بالعذار وهو غابة قصب فى وسط الماء يسكنها اعراب يعرفون بالمعادى وهم قطاع الطريق رافضية المذهب خرجوا على جماعة من الفقراء تاخروا عن رفقتنا فسلبوهم حتى النعال والكشاكل وهم يتحصنون بتلك الغابة و يمتنعون بها ممن يريدهم والسباع بها كثيرة ورحلنا مع هذا الغدار ثلاث مراحل ثم وصلنا مدينة واسط

Digitized by Birzeit University Library

وهي حسنة الاقطار كثيرة البساتين والاشجار بها اعلام يهدى الخير شاهدهم وتهدى الاعتبار مشاهدهم وأهلها من خيار أهل العراق بل هم خيرهم على الاطلاق أكثرهم يحفظون القرآن الكريم ويجيدون تجويده بالقراءة الصحيحة واليهم يأتي أهل بلاد العراق برسم تعلم ذلك وكان في القافلة التي وصلنا فيها جماعة من الناس أتوا برسم تجويد القرآن على من بها من الشيوخ وبها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمائة خلوة ينزلها الغرباء القادمون لتعلم القرآن عمرها الشيخ تقي الدين عبد المحسن الواسطي وهو من كبار أهلها وفقهائها ويعطي لكل متعلم بها كسوة في السنة ويجري له نفقته في كل يوم ويقعدهو واخوانه وأصحابه لتعليم القرآن بالمدرسة وقد لقيته وأضافني وزودني تمرا ودراهم ولما نزلنا مدينة واسط أقامت القافلة ثلاثا بخارجها للتجارة فسنح لي زيارة قبر الولي أبي العباس أحمد الرفاعي وهو بقرية تعرف بام عبيدة على مسيرة يوم من واسط فطلبت من الشيخ تقي الدين أن يبعث معي من يوصلني اليها فبعث معي ثلاثة من عرب بني أسد وهم قطان تلك الجهة واركبني فرساله وخرجت ظهرا فبت تلك الليلة بحوش بني اسد ووصلنا في ظهر اليوم الثاني الى الرواق وهو رباط عظيم فيه آلاف من الفقراء وصادفنا به قدوم الشيخ أحمد كوجك حفيد ولي الله أبي العباس الرفاعي الذي قصدنا زيارته وقد قدم من موضع سكناه من بلاد الروم برسم زيارته قبر جده واليها انتهت الشياخة بالرواق ولما انقضت صلاة العصر ضربت الطبول والدفوف وأخذ الفقراء في الرقص ثم صلوا المغرب وقدموا السماط وهو خبز الارز والسمك واللبن والتمر فاكلوا الناس ثم صلوا العشاء الآخرة وأخذوا في الذكر والشيخ أحمد قاعد على سجادة جده المذكور ثم أخذوا في السماع وقد اعدوا احمالا من الحطب فاججوها نارا ودخلوا في وسطها يرقصون ومنهم من يتمرغ فيها ومنهم من يأكلها بفمه حتى أطفؤها جميعها وهذا دأبهم وهذه الطائفة الاحمدية مخصوصون بهذا وفيهم من يأخذ الحية العظيمة فيعض باسنانه على رأسها حتى يقطعه

— حكاية —

كنت مررت بموضع يقال له أفقا نبور من عمالة هزار أمروها وبينها وبين دهلي حضرة الهند مسيرة خمس وقد نزلنا بها على نهر يعرف بنهر السرور وذلك في أوان الشكال والشكال عندهم هو المطر وينزل في إبان القيظ وكان السيل ينحدر في هذا النهر من جبال قراجيل فكل من يشرب منه من انسان أو بهيمة يموت لنزول المطر على الحشائش المسمومة فاقمنا على النهر أربعة أيام لا يقربه أحد ووصل الى هنالك جماعة من الفقراء في أعناقهم

أطواق الحديد وفي أيديهم وكبيرهم رجل أسود حالك اللون وهم من الطائفة المعروفة بالحيدرية فباتوا عندنا ليلة وطلب مني كبيرهم أن آتيه بالحطب ليوقدوه عندرقصهم فكلفت والى تلك الجهة وهو عزيز المعروف بالحمار (وسياتي ذكره) أن يأتي بالحطب فوجه منه نحو عشرة احمال فاضرموا فيه النار بعد صلاة العشاء الآخرة حتى صارت جمرا واخذوا في السماع ثم دخلوا في تلك النار فمازالوا يرقصون و يتمرغون فيها وطلب مني كبيرهم قميصاً فاعطيته قميصا في النهاية من الرقة فلبسه وجعل يتمرغ به في النهار و يضربها باكمامه حتى طفئت تلك النار وخمدت وجاء الى بالقميص والنار لم تؤثر فيه شيا البتة فطال عجبي منه ولما حصلت لي زيارة الشيخ أبي العباس الرفاعي نفع الله به عدت الى مدينة واسط فوجدت الرفقة التي كنت فيها قد رحلت فلحقتها في الطريق ونزلنا ماء يعرف بالهضيب ثم رحلنا ونزلنا بوادي الكراع وليس به ماء ثم رحلنا ونزلنا موضعاً يعرف بالمشيرب ثم رحلنا منه ونزلنا بالقرب من البصرة ثم رحلنا فدخلنا ضحوة النهار الى مدينة البصرة

— مدينة البصرة —

فنزلنا بهارباط مالك بن دينار وكنت رأيت عند قدومي عليها على نحو ميلين منها بناء عاليا مثل الحصن فسالت عنه فقيل له هو مسجد علي بن أبي طالب رضى الله عنه وكانت البصرة من اتساع الخطة وانفساح الساحة بحيث كان هذا المسجد في وسطها وبينه الآن وبينها ميلان وكذلك بينه وبين السور الاول المحيط بها نحو ذلك فهو متوسط بينهما ومدينة البصرة احدي أمهات العراق الشهيرة الذكر في الآفاق الفسيحة الارجاء المؤنقة الافناء ذات البساتين الكثيرة والفواكه الاثيرة توفر قسمها من النضارة والخصب لما كانت مجمع البحرين الاجاج والعذب وليس في الدنيا أكثر نخلا منها فبياع التمر في سوقها بحساب أربعة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمهم ثلث النقرة ولقد بعث الى قاضيها حجة الدين بقوصرة تمر يحملها الرجل على تكلف فاردت بيعها فبيعت بتسعة دراهم أخذ الحمال منها ثلثها عن أجرة حملها من المنزل الى السوق ويصنع بها من التمر عسل يسمي السيلان وهو طيب كانه الجلاب والبصرة ثلاث محلات احداها محلة هذيل وكبيرها الشيخ الفاضل علاء الدين بن الاثير من الكرماء الفضلاء أضافني وبعث الى بثياب ودراهم والمحلة الثانية محلة بني حرام كبيرها السيد الشريف مجد الدين موسى الحسني ذو مكارم وفواضل أضافني وبعث الى التمر والسيلان والدراهم والمحلة الثالثة محلة العجم كبيرها جمال الدين ابن اللوكي وأهل البصرة لهم مكارم أخلاق وايناس للغريب وقيام بحقه فلا يستوحش فيها نهم غريب

Digitized by Birzeit University Library

وهم يصلون الجمعة في مسجد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الذي ذكرته ثم يسدفلا ياتونه الا في الجمعة وهذا المسجد من أحسن المساجد وصحنه متناهي الانفساح مفروش بالحصباء الحمراء التي يؤتى بها من وادي السباع وفيه المصحف الكريم الذي كان عثمان رضي الله عنه يقرأ فيه لما قتل وأثر تغييره الدم في الورقة التي فيه قوله تعالى (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)

— حكاية اعتبار —

شهدت مرة بهذا المسجد صلاة الجمعة فلما قام الخطيب به الى الخطبة وسردها لحن فيها لحنا كثيرا جليا فعجبت من أمره وذكرت ذلك للقاضي حجة الدين فقال لي ان هذا البلد لم يبق به من يعرف شيئا من علم النحو وهذه عبرة لمن تفكر فيها سبحان مغير الاشياء ومقلب الامور هذه البصرة التي الى أهلها انتهت رياسة النحو وفيها أصله وفرعه ومن أهلها امامه الذي لا ينكر سبقه لا يقيم خطيبها خطبة الجمعة على دؤبه عليها ولهذا المسجد سبع صوامع احداها الصومعة التي تتحرك بزعمهم عند ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه صعدت اليها من أعلى سطح المسجد ومعي بعض أهل البصرة فوجدت في ركن من أركانها مقبض خشب مسمرا فيها كانه مقبض مملسة البناء فجعل الرجل الذي كان معي يده في ذلك المقبض وقال بحق رأس أمير المؤمنين علي رضي الله عنه تحركي وهز المقبض فتحركت الصومعة فجعلت انا يدي في المقبض وقلت له وأنا أقول بحق رأس أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تحركي وهززت المقبض فتحركت الصومعة فعجبوا من ذلك وأهل البصرة على مذهب السنة والجماعة ولا يخاف من يفعل مثل فعلي عندهم ولو جرى مثل هذا بمشهد على أو مشهد الحسين أو بالحلة أو بالبحرين أو قم أو قاشان أو وساوة أو آوة أو طوس لهلك فاعله لانهم رافضة غالية قال ابن جزي قد عاينت بمدينة برشانة من وادي المنصورة من بلاد الاندلس حاطها الله صومعة تهتز من غير أن يذكر لها أحد من الخلفاء أو سواهم وفي صومعة المسجد الاعظم بها وبنائها ليس بالقديم وهي كاحسن ما أنت راء من الصوامع حسن منظر واعتدال وارتفاع اميل فيها ولا زيغ صعدت اليها مرة ومعي جماعة من الناس فاخذ بعض من كان معي بجوانب جامورها وهزوها فاهتزت حتى أشرت اليهم أن يكفوا فكفوا عن هزها (رجع)

— ذكر المشاهد المباركة بالبصرة —

فمنها مشهد طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم وهو بداخل المدينة وعليه قبة ومسجد وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وأهل البصرة يعظمونه تعظيما شديداً

وحق له ومنها مشهد الزبير بن العوام حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته رضى الله عنهما وهو بخارج البصرة ولاقبة عليه وله مسجد وزاوية فيها الطعام لابناء السبيل ومنها قبر حليمة السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة رضى الله عنها والى جانبها قبر ابنها رضيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها قبر أبى بكرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قبة وعلى ستة أميال منها بقرب وادي السباع قبر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سبيل لزيارته الا فى جمع كثيف لكثرة السباع وعدم العمران ومنها قبر الحسن بن أبى الحسن البصري سيد التابعين رضى الله عنه ومنها قبر محمد بن سيرين رضى الله عنه ومنها قبر محمد بن واسع رضى الله عنه ومنها قبر عتبة الغلام رضى الله عنه ومنها قبر مالك بن دينار رضى الله عنه ومنها قبر حبيب العجمي رضى الله عنه ومنها قبر سهل بن عبد الله التسترى رضى الله عنه وعلى كل قبر منها قبة مكتوب فيها اسم صاحب القبر ووفاته وذلك كله داخل السور القديم وهى اليوم بينها وبين البلد نحو ثلاثة أميال وبها سوى ذلك قبور الجم الغفير من الصحابة والتابعين المستشهدين يوم الجمل وكان أمير البصرة حين ورودى عليها يسمي بركن الدين العجمى التوريزى أضافني فاحسن الى والبصرة على ساحل الفرات والدجلة وبها المد والجزر كمثل ماهو بوادى سلا من بلاد المغرب وسواء والخليج المالح الخارج من بحر فارس على عشرة أميال منها فاذا كان المد غلب الماء المالح على العذب واذا كان الجزر غلب الماء الحلو على المالح فيستسقي أهل البصرة الماء لدورهم ولذلك يقال ان ماءهم زعاق قال ابن جزي وبسبب ذلك كان هواء البصرة غير جيد وألوان أهلها مصفرة كاسفة حتي ضرب بهم المثل وقال بعض الشعراء وقد أحضرت بين يدي الصاحب اترجة (سريع)

لله أترج غدا بيننا * معبرا عن حال ذى عبرة
لما كسا الله ثياب الضنا * أهل الهوى وساكني البصرة

(رجع) ثم ركبت من ساحل البصرة في صنبوق وهو القارب الصغير الى الابلة وبينها وبين البصرة عشرة أميال فى بساتين متصلة ونخيل مظلة عن اليمين واليسار والبياعة فى ظلال الاشجار يبيعون الخبز والسمك والتمر واللبن والفواكه وفيما بين البصرة والابلة متعبد سهل بن عبد الله التسترى فاذا حاذاه الناس بالسفن تراهم يشربون الماء مما يحاذيه من الوادى ويدعون عند ذلك تبركا بهذا الولى رضي الله عنه والنواتية يحرفون فى هذه البلاد وهم قيام وكانت الابلة مدينة عظيمة يقصدها تجار الهند وفارس فخربت وهي الآن

قرية بها آثار قصور وغيرها دالة على عظمها ثم ركبنا في الخليج الخارج من بحر فارس في مركب صغير لرجل من أهل الابلة يسمي بمفامس وذلك فيما بعد المغرب فصبحنا عبادان وهي قرية كبيرة في سبخة لا عمارة بها وفيها مساجد كثيرة ومتعبدات ور باطات للصالحين وبينها وبين الساحل ثلاثة أميال قال ابن جزي عبادان كانت بلدا فيما تقدم وهي مجدبة لا زرع بها وانما يجلب اليها والماء أيضا بها قليل وقد قال فيها بعض الشعراء (سريع)

من مبلغ اندلسا انني * حللت عبادان أقصى الثرا
أوحش ما أبصرت لكنني * قصدت فيها ذكرها في الورى
الخبز فيها يتهادونه * وشربة الماء بها تشترى

(رجع) وعلى ساحل البحر منها رابطة تعرف بالنسبة الى الخضر والياس عليهما السلام وبازائها زاوية يسكنها أربعة من الفقراء باولادهم يخدمون الرابطة والزاوية ويتعيشون من فتوحات الناس وكل من يمر بهم يتصدق عليهم وذكر لي أهل هذه الزاوية ان بعبادان عابدا كبير القدر ولا أنيس له يأتي هذا البحر مرة في الشهر فيصطاد فيه ما يقوته شهرا ثم لا يري الا بعد تمام شهر وهو على ذلك منذ أعوام فلما وصلنا عبادان لم يكن لي شان الا طلبه فاشتغل من كان معي بالصلاة في المساجد والمتعبدات وانطلقت طالبا له فجئت مسجدا خربا فوجدته يصلي فيه فجلست في جانبه فاوجز في صلاته ولما سلم أخذ بيدي وقال لي بلغك الله مرادك في الدنيا والآخرة فقد بلغت بحمد الله مرادي في الدنيا وهو السياحة في الارض وبلغت من ذلك ما لم يبلغه غيري فيما أعلمه وبقيت الاخري والرجاء قوي في رحمة الله وتجاوزه وبلوغ المراد من دخول الجنة ولما أتيت أصحابي أخبرتهم خبر الرجل وأعلمتهم بموضعه فذهبوا اليه فلم يجدوه ولا وقعوا له على خبر فعجبوا من شانه وعدنا بالعشي الى الزاوية فبتنا بها ودخل علينا أحد الفقراء الاربعة بعد صلاة العشاء الآخرة ومن عادة ذلك الفقير أن يأتي عبادان كل ليلة فيسرج السرج بمساجدها ثم يعود الى زاويته فلما وصل الى عبادان وجد الرجل العابد قاعطاه سمكة طرية وقال له اوصل هذه الى الضيف الذي قدم اليوم فقال لنا الفقير عند دخوله علينا من رأى منكم الشيخ اليوم فقلت له أنا رأيته فقال يقول لك هذه ضيافتك فشكرت الله علي ذلك وطبخ لنا الفقير تلك السمكة فاكلنا منها اجمعون وما أكلت قط سمكا أطيب منها ورجس في خاطري الاقامة بقية العمر في خدمة ذلك الشيخ ثم صرفتني النفس اللجوج عن ذلك ثم ركبنا البحر عند الصبح بقصد بلدة ماجول ومن عادتي في سفري أن لا أعود على طريق

سلكتها ما أمكنني ذلك وكنت احب قصد بغداد العراق فاشار على بعض أهل البصرة بالسفر الى أرض اللور ثم الى عراق العجم ثم الى عراق العرب فعملت بمقتضى اشارته ووصلنا بعد أربعة أيام الى بلدة ماجول على وزن فاعول وجيمها معقودة وهي صغيرة على ساحل هذا الخليج الذي ذكرنا انه يخرج من بحر فارس وأرضها سبخة لا شجر فيها ولا نبات ولها سوق عظيمة من أكبر الاسواق وأقمت بها يوما واحدا ثم اكتريت دابة لركوبي من الذين يجلبون الحبوب من رامز الى ماجول وسرنا ثلاثا في صحراء يسكنها الاكراد في بيوت الشعر ويقال ان أصلهم من العرب ثم وصلنا الى مدينة رامز وأول حروفها (راء وآخرها زاي وميمها مكسورة) وهي مدينة حسنة ذات فواكه وأنهار ونزلنا بها عند القاضي حسام الدين محمود ولقيت عنده رجلا من أهل العلم والدين والورع هندي الاصل يدعى بهاء الدين ويسمى اسماعيل وهو من أولاد الشيخ بهاء الدين أبي زكريا الملتاني وقرأ على مشايخ توريز وغيرها وأقمت بمدينة رامز ليلة واحدة ثم رحلنا منها ثلاثا في بسيط فيه قرى يسكنها الاكراد وفي كل مرحلة منها زاوية فيها للوارد الخبز واللحم والحلواء وحلواؤهم من رب العنب مخلوط بالدقيق والسمن وفي كل زاوية الشيخ والامام والمؤذنون والخادم للفقراء والعبيد والخدم يطبخون الطعام ثم وصلت الى مدينة تستر وهي آخر البسيط من بلاد اتابك وأول الجبال مدينة كبيرة رائقة نضرة وبها البساتين الشريفة والرياض المنيفة ولها المحاسن البارعة والاسواق الجامعة وهي قديمة البناء افتتحها خالد بن الوليد وبالى هذه المدينة ينسب سهل بن عبد الله ويحيط بها النهر المعروف بالازرق وهو عجيب في نهايته من الصفا شديد البرودة في أيام الحر ولم أر كزرقته الا نهر بلخشان ولها باب واحد للمسافرين يسمى دروازة دسبول والدروازة عندهم الباب ولها ابواب غيره شارعة الى النهر وعلى جانبي النهر البساتين والدواليب والنهر عميق وعلى باب المسافرين منه جسر على القوارب كجسر بغداد والحملة قال ابن جزي وفي هذا النهر يقول بعضهم (كامل)

انظر لشاذر وان تستر واعجب * من جمعه ماء لرى بلاده

كيت قوم جمعت اموالهم * فغدا يفرقه على اجناده

والفواكه بتستر كثيرة والخيرات متيسرة غزيرة ولا مثل لاسواقها في الحسن وبخارجها تربة معظمة يقصدها اهل تلك الاقطار للزيارة وينذرون لها النذور ولها زاوية بها جماعة من الفقراء وهم يزعمون انها تربة زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وكان

نزولي من مدينة تستر في مدرسة الشيخ الامام الصالح المتفنن شرف الدين موسى ابن الشيخ الصالح الامام العالم صدر الدين سليمان وهو من ذرية سهل بن عبد الله وهذا الشيخ ذو مكارم وفضائل جامع بين العلم والدين والصلاح والايثار وله مدرسة وزاوية وخدامها فتيان لاربعة سنبل وكافور وجوهر وسرور احدهم موكل باوقاف الزاوية والثاني متصرف فيما يحتاج اليه من النفقات في كل يوم والثالث خديم السماط بين ايدى الواردين ومرتب الطعام لهم والرابع موكل بالطباخين والسقائين والفراشين فاقمت عنده ستة عشر يوما فلم أر اعجب من ترتيبه ولا أرغد من طعامه يقدم بين يدى الرجل ما يكفي الاربعة من طعام الارز المفلفل المطبوخ في السمن والدجاج المقلي والخبز واللحم والحلواء وهذا الشيخ من أحسن الناس صورة وأقومهم سيرة وهو يعظ الناس بعد صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ولما شاهدت مجالسه في الوعظ صغر لدي كل واعظ رأيته قبله بالحجاز والشام ومصر ولم ألق فيمن لقيتهم مثله حضرت يوما عنده ببستان له على شاطيء النهر وقد اجتمع فقهاء المدينة وكبراؤها وأتى الفقراء من كل ناحية فاطعم الجميع ثم صلى بهم صلاة الظهر وقام خطيبا وواعظا بعد أن قرأ القراء امامه بالتلاحين المبكية والنغمات المحركة المهيجة وخطب خطبة بسكينة ووقار وتصرف في فنون العلم من تفسير كتاب الله وإيراد حديث رسول الله والتكلم على معانيه ثم ترامت عليه الرقاع من كل ناحية ومن عادة الاعاجم أن يكتبوا المسائل في رقاع ويرمونها الى الواعظ فيجيب عنها فلما رمي اليه بتلك الرقاع جمعها في يده وأخذ يجيب عنها واحدة بعد واحدة بابدع جواب واحسنه وحان وقت صلاة العصر فصلى بالقوم وانصرفوا وكان مجلسه مجلس علم ووعظ وبركة وتبادر التائبون فاخذ عليهم العهد وجز نواصيهم وكانوا خمسة عشر رجلا من الطلبة قد موا من البصرة برسم ذلك وعشرة رجال من عوام تستر

— حكاية —

لما دخلت هذه المدينة أصابني مرض الحمى وهذه البلاد يعم داخلها في زمان الحر كما يعرض في دمشق وسواها من البلاد الكثيرة المياه والفواكه وأصابت الحمي أصحابي أيضاً فمات منهم شيخ اسمه يحيي الخراساني وقام الشيخ بتجهيزه من كل ما يحتاج اليه الميت وصلى عليه وتركت بها صاحبا لي يدعى بهاء الدين الختني فمات بعد سفري وكنت حين مرضي لا أشتهي الا طعمة التي تصنع لي بمدرسته فذكرت للفقيه شمس الدين السندي من طلبتها طعاما فاشتهيته ودفعت له دراهم وطبخ لي ذلك الطعام بالسوق وأتي به الى فاكلت منه وبلغ ذلك الشيخ فشق عليه وأتى الي وقال لي كيف تفعل هذا وتطبخ الطعام

Digitized by Birzeit University Library

فى السوق وهـلا أمرت الخدم أن يصنعوا لك ما اشتهيته ثم أحضر جميعهم وقال لهم جميع مايطلب منكم من أنواع الطعام والسكر وغير ذلك فاتوا اليه به وأطبخوا له ما يشاؤه وأكد عليهم فى ذلك أشد التأكيد جزاه الله خيراً ثم سافرنا من مدينة تستر ثلاثا فى جبال شاهقة وبكل منزل زاوية كما تقدم ذكر ذلك ووصلنا الى مدينة إيذج (وضبط اسمها بكسر الهمزة وياء مدّ وذال معجم مفتوح وجيم) وتسمى أيضا مال الأمير وهى حضرة السلطان أتابك وعند وصولى اليها اجتمعت بشيخ شيوخها العالم الورع نور الدين الكرمانى وله النظر فى جميع الزوايا وهم يسمونها المدرسة والسلطان يعظمه ويقصد زيارته وكذلك أرباب الدولة وكبراء الحضرة يزورونه غدواً وعشياً فأكرمنى وأضافنى وأنزلنى بزاوية تعرف باسم الدينورى وأقمت بها أياما وكان وصولى فى أيام القيظ وكنا نصلى صلاة الليل ثم ننام باعلى سطحها ثم ننزل الى الزاوية ضحوة وكان فى صحبتى اثنا عشر فقيرا منهم امام وقارئان مجيدان وخادم ونحن على أحسن ترتيب

— ذكر ملك إيذج وتستر —

وملك إيذج فى عهد دخولى اليها السلطان أتابك افراسياب ابن السلطان أتابك أحمد وأتابك عندهم سمة لكل من يلى هذه البلاد من ملك وتسمى هذه البلاد بلاد الاور وولى هذا السلطان بعد أخيه أتابك يوسف وولى يوسف بعد أبيه أتابك احمد وكان أحمد المذكور ملكا صالحاً سمعت من الثقاة ببلاده انه عمر أربعمائة وستين زاوية ببلاده منها بحضرة إيذج أربع وأربعون وقسم خراج بلاده أثلاثا فالثلث منه لنفقة الزوايا والمدارس والثلث منه لمرتب العساكر والثلث لنفقته ونفقة عياله وعبيده وخدامه ويبعث منه هدية لملك العراق فى كل سنة وربما وفد عليه بنفسه وشاهدت من آثاره الصالحة ببلاده ان اكثرها فى جبال شاهقة وقد نحتت الطرق فى الصخور والحجارة وسويت ووسعت بحيث تصعدها الدواب باحمالها وطول هذه الجبال مسيرة سبعة عشر فى عرض عشرة وهى شاهقة متصل بعضها ببعض تشقها الانهار وشجرها البلوط وهم يصنعون من دقيقه الخبز وفى كل منزل من منازلها زاوية يسمونها المدرسة فاذا وصل المسافر الى مدرسة منها أتى بما يكفيه من الطعام والعلف لدابته سواء طلب ذلك أو لم يطلبه فان عادتهم أن يأتى خادم المدرسة فيعد من نزل بها من الناس ويعطى كل واحد منهم قرصين من الخبز ولحما وحلواء وكل ذلك من أوقاف السلطان عليها وكان السلطان أتابك احمد زاهداً صالحاً كما ذكرناه يلبس تحت ثيابه مما يلى جسده ثوب شعر

— حكاية —

قدم السلطان أتابك أحمد مرة على ملك العراق أبي سعيد فقال له بعض خواصه ان أتابك يدخل عليك وعليه الدرع وظن ثوب الشعر الذى تحت ثيابه درعا فامرهم باختبار ذلك على جهة من الانبساط ليعرف حقيقته فدخل عليه يوما فقام اليه الامير الجوبان عظيم أمراء العراق والامير سويته أمير ديار بكر والشيخ حسن الذي هو الآن سلطان العراق وامسكوا بثيابه كأنهم يمازحونه ويضاحكونه فوجدوا تحت ثيابه ثوب الشعر ورآه السلطان أبو سعيد وقام اليه وعانقه وأجلسه الى جانبه وقال له سن آطا ومعناه بالتركيه أنت أبي وعوضه عن هديته باضعافها وكتب له البرليغ وهو الظهير أن لا يطالبه بهدية بعدها هو ولا أولاده وفي تلك السنة توفي وولي ابنه أتابك يوسف عشرة أعوام ثم ولي أخوه أفراسياب ولما دخلت مدينة إبذج أردت رؤية السلطان افراسياب المذكور فلم يتأت لي ذلك بسبب أنه لا يخرج الا يوم الجمعة لادمانه على الخمر وكان له ابن هو ولي عهده وليس له سواه فمرض في تلك الأيام ولما كان في إحدى الليالي أتاني أحد خدامه وسألني عن حالي فعرفته وذهب عني ثم جاء بعد صلاة المغرب ومعه طيفوران كبيران أحدهما بالطعام والآخر بالفاكهة وخريطة فيها دراهم ومعه أهل السماع بآلاتهم فقال اعملوا السماع حتى يرهج الفقراء ويدعون لابن السلطان فقلت له ان أصحابي لا يدرون بالسماع ولا بالرقص ودعونا السلطان ولولده وقسمت الدراهم على الفقراء ولما كان نصف الليل سمعنا الصراخ والنواح وقد مات المريض المذكور ولما كان من الغد دخل علي شيخ الزاوية وأهل البلد وقالوا ان كبراء المدينة من القضاة والفقهاء والاشراف والامراء قد ذهبوا الى دار السلطان للعزاء فينبغي لك ان تذهب في جملتهم فاعتبت عن ذلك فعزموا علي فلم يكن لي بد من المسير فسرت معهم فوجدت مشورة دار السلطان مملوءة رجالا وصبيانا من المماليك وأبناء الملوك والوزراء والاجناد وقد لبسوا التلاليس وجلال الدواب وجعلوا فوق رؤسهم التراب والتبن وبعضهم قد جزنا صيته وانقسموا فرقتين فرقة باعلى المشور وفرقة بأسفله وتزحف كل فرقة الى جهة الاخرى وهم ضاربون بأيديهم على صدورهم قائلون خوند كارما ومعناه مولاي أنا (مولانا) فرأيت من ذلك أمرا هائلا وسنظر فظيعا لم أعهد مثله

— حكاية —

ومن غريب ما اتفق لي يومئذ اني دخلت فرأيت القضاة والخطباء والشرفاء قد استندوا الى حيطان المشور وهو غاص بهم من جميع جهاته وهم بين باك ومتباك ومطرق وقد لبسوا فوق ثيابهم ثيابا خامة من غليظ القطن غير محكمة الخياطة بطائنها الى أعلى ووجوهها على أجسادهم وعلى رأس كل واحد منهم قطعة خرقة أو مئزر أسود وهكذا يكون

قعلهم الى تمام اربعين يوما وهي نهاية الحزن عندهم وبعدها يبعث السلطان لكل من فعل ذلك كسوة كاملة فلما رأيت جهات المشور غاصة بالناس نظرت يمينا وشمالا أرتاد موضعا لجلوسي فرأيت هنالك سقيفة مرتفعة عن الارض بمقدار شبر وفي احدي زواياها رجل منفرد عن الناس قاعد عليه ثوب صوف شبه اللبد يلبسه بتلك البلاد ضعفاء الناس أيام المطر والثلج وفي الاسفار فتقدمت الى حيث الرجل وانقطع عني أصحابي لما رأوا اقدامي نحوه وعجبوا مني وانا لا علم عندي بشيء من حاله فصعدت السقيفة وسلمت على الرجل فرد علي السلام وارتفع عن الارض كانه يريد القيام وهم يسمون ذلك نصف القيام وقعدت في الركن المقابل له ثم نظرت الى الناس وقد رموني بابصارهم جميعا فعجبت منهم ورأيت الفقهاء والمشايخ والاشراف مستندين الي الحائط تحت السقيفة وأشار الى أحد القضاة ان انحط الى جانبه فلم أفعل وحينئذ استشعرت انه السلطان فلما كان بعد ساعة أتى شيخ المشايخ نور الدين الكرماني الذي ذكرناه قبل فصعد الى السقيفة وسلم على الرجل فقام اليه وجلس فيما بيني وبينه فحينئذ علمت ان الرجل هو السلطان ثم جيء بالجنازة وهي بين أشجار الاترج والليمون والنارنج وقد ملؤا أغصانها بثمارها والاشجار بايدي الرجال فكان الجنازة تمشي في بستان والمشاعل في رماح طوال بين يديها والشمع كذلك فصلى عليها وذهبت الناس معها الى مدفن الملوك وهو بموضع يقال له هلافيحان على أربعة أميال من المدينة وهنالك مدرسة عظيمة يشقها النهر وبداخلها مسجد تقام فيه الجمعة وبخارجها حمام ويحف بها بستان عظيم وبها الطعام للوارد والصادر ولم أستطع ان أذهب معهم الى مدفن الجنازة لبعد الموضع فعدت الى المدرسة فلما كان بعد أيام بعث الى السلطان رسوله الذي أتاني بالضيافة أولا يدعوني اليه فذهبت معه الى باب يعرف بباب السر وصعدنا في درج كثيرة الى ان انتهينا الى موضع لافرش به لاجل ماهم فيه من الحزن والسلطان جالس فوق مخدة وبين يديه آنيتان قد غطيتا احداهما من الذهب والاخرى من الفضة وكانت بالمجلس سجادة خضراء ففرشت لي بالقرب منه وقعدت عليها وليس بالمجلس الا حاجبه الفقيه محمود ونديم له لا أعرف اسمه فسالني عن حالي وبلادي وسالني عن الملك الناصر وبلاد الحجاز فاجبته عن ذلك ثم جاء فقيه كبير هو رئيس فقهاء تلك البلاد فقال لي السلطان هذا مولانا فضيل والفقيه ببلاد الاعاجم كلها انما يخاطب بمولانا وبذلك يدعوه السلطان وسواه ثم أخذ في الثناء على الفقيه المذكور وظهر لي ان السكر غالب عليه وكنت قد عرفت إدمانه على الخمر ثم قال لي باللسان العربي وكان يحسنه تكلم

فقلت له ان كنت تسمع مني أقول لك أنت من أولاد السلطان أتابك أحمد المشهور بالصلاح والزهد وليس فيك ما يقدح في سلطنتك غير هذا وأشرت الى الآنيتين فخجل من كلامي وسكت وأردت الانصراف فامرني بالجلوس وقال لي الاجتماع مع امثالك رحمة ثم رأيته بتمايل ويريد النوم فانصرفت وكنت تركت نعلي بالباب فلم أجده فنزل الفقيه محمود في طلبه وصعد الفقيه فضيل يطلبه في داخل المجلس فوجده في طاق هنالك فاتى الى به فاخجلني بره واعتذرت اليه فقبل نعلي حينئذ ووضعه على رأسه وقال لي بارك الله فيك هذا الذي قلته لسلطاننا لا يقدر أحد أن يقوله له غيرك والله اني لارجو أن يؤثر ذلك فيهم ثم كان رحيلي من حضرة إيذج بعد أيام فنزلت بمدرسة السلاطين التي بها قبورهم وأقمت بها أياما وبعث الى السلطان بجملة دنانير وبعث بمثلها الاصحابي وسافرنا في بلاد هذا السلطان عشرة أيام في جبال شاهقة وفي كل ليلة ننزل بمدرسة فيها الطعام فمنها ما هو في العمارة ومنها ما لا عمارة حوله ولكن يجلب اليها جميع ما تحتاج اليه وفي اليوم العاشر نزلنا بمدرسة تعرف بمدرسة كريو الرخ وهي آخر بلاد هذا الملك وسافرنا منها في بسيط من الارض كثير المياه من عمالة مدينة أصفهان ثم وصلنا الى بلدة أشتركان (وضبط اسمها بضم الهمزة واسكان الشين المعجم وضم التاء المعلوة واسكان الراء وآخره نون) وهي بلدة حسنة كثيرة المياه والبساتين ولها مسجد بديع يشقه النهر ثم رحلنا منها الى مدينة فيروزان واسمها كانه تثنية فيروز وهي مدينة صغيرة ذات أنهار وأشجار وبساتين وصلناها بعد صلاة العصر فرأينا أهلها قد خرجوا لتشييع جنازة وقد أوقدوا خلفها وأمامها المشاعل واتبعوها بالمزامير والمغنيين بانواع الاغاني المطربة ففجعنا من شانهم وبتنا بها ليلة ومررنا بالغد بقرية يقال لها نيلان وهي كبيرة على نهر عظيم والى جانبه مسجد في النهاية من الحسن يصعد اليه في درج وتحفه البساتين وسرنا يومنا فيما بين البساتين والمياه والقرى الحسان الكثيرة أبراج الحمام ووصلنا بعد العصر الى مدينة أصفهان من عراق العجم (واسمها يقال بالفاء الخالصة ويقال بالفاء المعقودة المفخمة) ومدينة اصفهان من كبار المدن وحسانها الا أنها الآن قد خرب أكثرها بسبب الفتنة التي بها بين أهل السنة والروافض وهي متصلة بينهم حتى الآن فلا يزالون في قتال وبها الفواكه الكثيرة ومنها المشمش الذي لا نظير له يسمونه بقمر الدين وهم يبسونه ويدخرونه ونواه ينكسر عن لوز حلو ومنها السفرجل الذي لا مثل له في طيب المطعم وعظم الجرم والاعناب الطيبة والبطيخ العجيب الشان الذي ليس في الدنيا مثله الا ما كان من بطيخ بخارى وخوارزم وقشره

Digitized by Birzeit University Library

أخضر وداخله أحمر ويدخر كما تدخر الشريحة بالمغرب وله حلاوة شديدة ومن لم يكن ألف أكله فانه في أول أمره يسهله وكذلك اتفق لي لما أكلته باصفهان وأهل أصفهان حسان الصور والوانهم بيض زاهرة ممشوبة بالحمرة والغالب عليهم الشجاعة والنجدة وفيهم كرم وتنافس عظيم فما بينهم في الاطعمة تؤثر عنهم فيه أخبار غريبة وربما دعا أحدهم صاحبه فيقول له اذهب معي لنا كل نان وماس والنان بلسانهم الخبز والماس اللبن فاذا ذهب معه أطعمه أنواع الطعام العجيب مباهيا له بذلك وأهل كل صناعة يقدمون على انفسهم كبيرا منهم يسمونه الكلو وكذلك كبار المدينة من غير أهل الصناعات وتكون الجماعة من الشبان الاعزاب وتفاخر تلك الجماعات ويضيف بعضهم بعضا مظهرين لما قدروا عليه من الامكان محتفلين في الاطعمة وسواها الاحتفال العظيم ولقد ذكر لي ان طائفة منهم أضافت أخرى فطبخوا طعامهم بنار الشمع ثم اضافتها الاخرى فطبخوا طعامهم بالحرير وكان نزولي باصفهان في زاوية تنسب للشيخ علي بن سهل تلميذ الجنيد وهي معظمة يقصدها أهل تلك الآفاق ويتبركون بزيارتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبها حمام عجيب مفروش بالرخام وحيطانه بالقاشاني وهو موقوف في السبيل لا يلزم أحدا في دخوله شيء وشيخ هذه الزاوية الصالح العابد الورع قطب الدين حسين ابن الشيخ الصالح ولي الله شمس الدين محمد بن محمود بن علي المعروف بالرجاء واخوه العالم المفتي شهاب الدين أحمد أقمت عند الشيخ قطب الدين بهذه الزاوية الرابعة عشر يوما فرأيت من اجتهاده في العبادة وحبه في الفقراء والمساكين وتواضعه لهم ما قضيت منه العجب وبالغ في اكرامي وأحسن ضيافتي وكساني كسوة حسنة وساعة وصولي الزاوية بعث الي بالطعام وبثلاث بطيخات من البطيخ الذي وصفناه آنفا ولما كنت رأيته قبل ولا اكلته — كرامة لهذا الشيخ —

كرامة

دخل علي يوما بموضع نزولي من الزاوية وكان ذلك الموضع يشرف على بستان للشيخ وكانت ثيابه قد غسلت في ذلك اليوم ونشرت في البستان ورأيت في حملتها جبة بيضاء مبطنة تدعى عندهم هزرميخي فاعجبتني وقلت في نفسي مثل هذه كنت اريد فلما دخل على الشيخ نظر في ناحية البستان وقال لبعض خدامه ائتني بذلك الثوب الهزرميخي فاتوا به فكساني اياه فاهويت الى قدميه اقبلهما وطلبت منه ان يلبسني طاقية من رأسه ويجيزني في ذلك بما اجازه والده عن شيوخه فالبسني اياها في الرابع عشر لجمادى الاخيرة سنة سبع وعشرين وسبعمائة بزاويته المذكورة كما لبس من والده شمس الدين ولبس والده من أبيه تاج الدين محمود ولبس محمود من أبيه شهاب الدين علي الرجاء ولبس علي من الامام

شهاب الدين ابى حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهروردى وليس عمر من الشيخ الكبير ضياء الدين ابي النجيب السهروردى وليس ابو النجيب من عمه الامام وحيد الدين عمر وليس عمر من والده محمد بن عبد الله المعروف بعمويه وليس محمد من الشيخ اخي فرج الزنجانى وليس أخو فرج من الشيخ احمد الدينورى وليس أحمد من الامام ممشاد الدينورى وليس ممشاد من الشيخ المحقق على بن سهل الصوفى وليس على من ابى القاسم الجنيد وليس الجنيد من سرى السقطي وليس سرى السقطي من داود الطائى وليس داود من الحسن بن أبى الحسن البصرى وليس الحسن بن ابي الحسن البصري من أمير المؤمنين علي بن أبى طالب قال ابن جزى هكذا اورد الشيخ أبو عبد الله هذا السند والمعروف فيه ان سريا السقطى صحب معروفا الكرخى وصحب معروف داود الطائى وكذلك داود الطائي بينه وبين الحسن حبيب العجمي واخو فرج الزنجانى انما المعروف انه صحب ابا العباس النهاوندي وصحب النهاوندى اباعبد الله بن خفيف وصحب ابن خفيف ابا محمد رويما وصحب رويما بالقاسم الجنيد وأما محمد بن عبد الله عمويه فهو الذى صحب الشيخ أحمد الدينورى الاسود وليس بينهما احد والله اعلم والذى صحب اخا فرج الزنجانى هو عبد الله بن محمد بن عبد الله والد ابي النجيب (رجع) ثم سافرنا من اصفهان بقصد زيارة الشيخ مجد الدين بشيراز وبينها مسيرة عشرة ايام فوصلنا الى بلدة كليل (وضبطها بفتح الكاف وكسر اللام وياء مد) وبينهما وبين اصفهان مسيرة ثلاثة وهى بلدة صغيرة ذات انهار وبساتين وفواكه رأيت التفاح يباع فى سوقها خمسة عشر رطلا عراقية بدرهم ودرهمين ثلث النقرة ونزلنا منها بزاوية عمرها كبير هذه البلدة المعروف بخواجه كافى وله مال عريض قد أعانه الله على انفاقه فى سبيل الخيرات من الصدقة وعمارة الزوايا واطعام الطعام لابناء السبيل ثم سرنا من كليل يومين ووصلنا الى قرية كبيرة تعرف بصوماه وبها زاوية فيها الطعام للوارد والصادر عمرها خواجه كافى المذكور ثم سرنا منها الى يزد خاص (وضبط الاسم بفتح الياء آخر الحروف واسكان الزاي وضم الدال المهمل وخاء معجم وألف وصاد مهمل) بلدة صغيرة متقنة العمارة حسنة السوق والمسجد الجامع بها عجيب مبنى بالحجارة مسقف بها والبلدة على ضفة خندق فيه بساتينها ومياهها وبخارجها رباط ينزل به المسافرون عليه باب حديد وهو فى النهاية من الحصانة والمنعة وبداخله حوانيت يباع فيها كل مايحتاجه المسافرون وهذا الرباط عمره الامير محمد شاه ينجو والد السلطان أبي اسحاق ملك شيراز وفى يزد خاص يصنع الجين اليزد خاصى ولا نظيره فى طيبه وزن الجبنة منه

من اوقيتين الى أربع ثم سرنا منها على طريق دشت الروم وهي صحراء يسكنها الاتراك ثم سافرنا الى مايين (واسمها بياءين مسفولتين أولاهما مكسورة) وهي بلدة صغيرة كثيرة الانهار والبساتين حسنة الاسواق وأكثر أشجارها الجوز ثم سافرنا منها الى مدينة شيراز وهي مدينة أصلية البناء فسيحة الارجاء شهيرة الذكر منيفة القدر لها البساتين المونقة والانهار المتدفقة والاسواق البديعة والشوارع الرفيعة وهي كثيرة العمارة متقنة المباني عجيبة الترتيب وأهل كل صناعة في سوقها لايخالطهم غيرهم وأهلها حسان الصور نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تدانى مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها وحسن صورة سكنيها إلا شيراز وهي في بسيط من الارض تحف بها البساتين من جميع الجهات وتشقها خمسة أنهار أحدها النهر المعروف بركن آباد وهو عذب الماء شديد البرودة في الصيف سخن في الشتاء فينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة ومسجدها الاعظم يسمى بالمسجد العتيق وهو من أكبر المساجد ساحة وأحسنها بناء وصحنه متسع مفروش بالمرمر ويغسل في أوان الحر كل ليلة ويجتمع فيه كبار أهل المدينة كل عشية ويصلون به المغرب والعشاء وبشماله باب يعرف بباب حسن يفضي الى سوق الفاكهة وهي من أبدع الاسواق وأنا أقول بتفضيلها على سوق باب البريد من دمشق وأهل شيراز أهل صلاح ودين وعفاف وخصوصا نساؤها وهن يلبسن الخفاف ويخرجن ملتحفات متبرقعات فلا يظهر منهن شيء ولهن الصدقات والايثار ومن غريب حالهن انهن يجتمعن لسماع الواعظ في كل يوم اثنين وخميس وجمعة بالجامع الاعظم فربما اجتمع منهن الالف والالفان بأيديهن المراوح يروحن بها على انفسهن من شدة الحر ولم ار اجتماع النساء في مثل عددهن في بلدة من البلاد وعند دخولي الى مدينة شيراز لم يكن لي هم الا قصد الشيخ القاضي الامام قطب الاولياء فريد الدهر ذي الكرامات الظاهرة مجد الدين اسماعيل بن محمد بن خداد ومعنى خداد عطية الله فوصلت الى المدرسة المجدية المنسوبة اليه وبها سكناه وهي من عمارته فدخلت اليه رابع أربعة من أصحابي ووجدت الفقهاء وكبار أهل المدينة في انتظاره فخرج الى صلاة العصر ومعه محب الدين وعلاء الدين ابنا أخيه شقيقه روح الدين أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله وهما نائباه في القضاء لضعف بصره وكبر سنه فسلمت عليه وعانقني وأخذ بيدي الى أن وصل الى مصلاه فأرسل يدي وأومأ الى أن أصلي الى جانبه ففعلت وصلى صلاة العصر ثم قرىء بين يديه من كتاب المصابيح وشوارق الانوار للصاغاني وطالعاه نائباه بما جرى لديهما من القضايا وتقدم كباد

المدينة للسلام عليه وكذلك عادتهم معه صباحاً ومساء ثم سألني عن حالي وكيفية قدومي وسألني عن المغرب ومصر والشام والحجاز فأخبرته بذلك وأمر خدامه فانزلوني بدويرة صغيرة بالمدرسة وفي غد ذلك اليوم وصل اليه رسول ملك العراق السلطان أبي سعيد وهو ناصر الدين الدرقندي من كبار الامراء خراساني الاصل فعند وصوله اليه نزع شاشيته عن رأسه وهم يسمونها الكلا وقبل رجل القاضي وقعد بين يديه ممسكا اذن نفسه بيده وهكذا يفعل أمراء التتر عند ملوكهم وكان هذا الامير قد قدم في نحو خمسمائة فارس من مماليكه وخدامه وأصحابه ونزل خارج المدينة ودخل الى القاضي في خمسة نفر ودخل مجلسه وحده منفرداً أدبا

— حكاية هي السبب في تعظيم هذا الشيخ وهي من الكرامات الباهرة —

كان ملك العراق السلطان محمد خدابنده قد صحبه في حال كفره فقيه من الروافض الامامية يسمى جمال الدين بن مطهر فلما أسلم السلطان المذكور وأسلمت باسلامه التتر زاد في تعظيم هذا الفقيه فزين له مذهب الروافض وفضله على غيره وشرح له حال الصحابة والخلافة وقرر لديه ان أبا بكر وعمر كانا وزيرين لرسول الله وان عليا ابن عمه وصهره فهو وارث الخلافة ومثل له ذلك بما هو مألوف عنده من ان الملك الذي بيده انما هو ارث عن أجداده وأقام به مع حدثان عهد السلطان بالكفر وعدم معرفته بقواعد الدين فأمر السلطان بحمل الناس على الرفض وكتب بذلك الى العراقين وفارس واذربيجان واصفهان وكرمان وخراسان وبعث الرسل الى البلاد فكان أول بلاد وصل اليها ذلك بغداد وشيراز واصفهان فأما أهل بغداد فامتنع أهل باب الازج منهم وهم أهل السنة وأكثرهم على مذهب الامام أحمد بن حنبل وقالوا لا سمع ولا طاعة وأتوا المسجد الجامع يوم الجمعة في السلاح وبه رسول السلطان فلما صعد الخطيب المنبر قاموا اليه وهم نحو اثني عشر ألفا في سلاحهم وهم حماة بغداد والمشار اليهم فيها فخلفوا له ان غير الخطبة المعتادة أوزاد فيها أو نقص منها فانهم قاتلوه وقاتلو رسول الملك ومستسلمون بعد ذلك لما شاء الله وكان السلطان أمر بأن تسقط أسماء الخلفاء وسائر الصحابة من الخطبة ولا يذكر الا اسم علي ومن تبعه كعمار رضي الله عنهم فخاف الخطيب من القتل وخطب الخطبة المعتادة وفعل أهل شيراز واصفهان كفعل أهل بغداد فرجعت الرسل الى الملك فاخبروه بما جرى في ذلك فأمر أن يؤتى بقضاة المدن الثلاث فكان أول من أتى به منهم القاضي مجد الدين قاضي شيراز والسلطان اذذاك في موضع يعرف بقراباغ وهو موضع مصيفه فلما وصل

القاضي أمر أن يرمي به الى الكلاب التي عنده وهي كلاب ضخام في أعناقها السلاسل معدة لاكل بني آدم فاذا أوتي بمن يسلط عليه الكلاب جعل في رحبة كبيرة مطلقا غير مقيد ثم بعثت تلك الكلاب عليه فيفر امامها ولا مفر له فتدركه فتمزقه وتاكل لحمه فلما أرسلت الكلاب على القاضي مجد الدين ووصلت اليه بصبصت اليه وحركت أذنابها بين يديه ولم تهجم عليه بشيء فبلغ ذلك السلطان فخرج من داره حافي القدمين فاكب على رجلي القاضي يقبلهما وأخذ بيده وخلع عليه بجميع ماكان عليه من الثياب وهي أعظم كرامات السلطان عندهم واذا خلع ثيابه كذلك علي أحد كانت شرفا له ولبنيه وأعقابه تتوارثونه مادامت تلك الثياب أو شيء منها وأعظمها في ذلك السراويل ولما خلع السلطان ثيابه على القاضي مجد الدين أخذ بيده وادخله الى داره وأمر نساءه بتعظيمه والتبرك به ورجع السلطان عن مذهب الرفض وكتب الى بلاده ان يقر الناس على مذهب أهل السنة والجماعة وأجزل العطاء للقاضي وصرفه الى بلاده مكرما معظما وأعطاه في جملة عطاياه مائة قرية من قرى جمكان وهو خندق بين جبلين طوله أربعة وعشرون فرسخا يشقه نهر عظيم والقرى منتظمة بجانبيه وهو أحسن موضع بشيراز ومن قراه العظيمة التي تضاهي المدن قرية ميمن وهي للقاضي المذكور ومن عجائب هذا الموضع المعروف بجمكان ان نصفه مما يلي شيراز وذلك مسافة اثني عشر فرسخا شديد البرد وينزل فيه الثلج وأكثر شجره الجوز والنصف الآخر مما يلي بلاد هنج وبال وبلاد اللار في طريق هرمز شديد الحر وفيه شجر النخيل وقد تكرر لي لقاء القاضي مجد الدين ثانية حين خروجي من الهند قصدته من هرمز متبركا بلقائه وذلك سنة ثمان وأربعين وبين هرمز وشيراز مسيرة خمسة وثلاثين يوما فدخلت عليه وهو قد ضعف عن الحركة فسلمت عليه فعرفني وقام الى فعانقني ووقعت يدي على مرفقه وجلده لاصق بالعظم لاحم بينهما وأنزلني بالمدرسة حيث أنزلني أول مرة وزرته يوما فوجدت ملك شيراز السلطان أبا اسحاق وسيقع ذكره قاعدا بين يديه ممسكا باذن نفسه وذلك هو غاية الادب عندهم ويفعله الناس اذا قعدوا بين يدي الملك وأتيته مرة أخرى الى المدرسة فوجدت بابها مسدودا فسألت عن سبب ذلك فاخبرت ان أم السلطان وأخته نشأت بينهما خصومة في ميراث فصرفهما الى القاضي مجد الدين فوصلتا اليه الى المدرسة وتحاكمتا عنده وفصل بينهما بواجب الشرع وأهل شدعونه ازلا يبرالقاضي وانما يقولون له مولانا أعظم وكذلك يكتبون في التسجيلات والعقود التي تفتقر الى ذكر اسمه فيها وكان آخر عهدي به في شهر ربيع

Digitized by Birzeit University Library

الثانى من عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ولاحت على أنواره وظهرت لى بركاته نفع الله به وبامثاله

— ذكر سلطان شيراز —

وسلطان شيراز فى عهد قدومى عليها الملك الفاضل أبو اسحاق بن محمد شاه ينجو سماه أبوه باسم الشيخ أبي اسحاق الكازرونى نفع الله به وهو من خيار السلاطين حسن الصورة والسيرة والهيئة كريم النفس جميل الاخلاق متواضع صاحب قوة وملك كبير وعسكره ينيف على خمسين ألفا من الترك والاعاجم وبطانته الادنون اليه أهل اصفهان وهو لا يأتمن أهل شيراز على نفسه ولا يستخدمهم ولا يقربهم ولا يبيح لاحد منهم حمل السلاح لانهم أهل نجدة وباس شديد وجراءة على الملوك ومن وجد بيده السلاح منهم عوقب ولقد شاهدت مرة رجلا تجره الجنادرة وهم الشرط الى الحاكم وقد ربطوه فى عنقه فسألت عن شانه فاخبرت انه وجدت فى يده قوس بالليل فذهب السلطان المذكور إلى قهر أهل شيراز وتفضيل الاصفهانيين عليهم لانه يخافهم على نفسه وكان ابو محمد شاه ينجو واليا على شيراز من قبل ملك العراق وكان حسن السيرة محببا الى أهلها فلما توفى ولى السلطان ابو سعيد مكانه الشيخ حسينا وهو ابن الجوبان امير الامراء وسياتى ذكره وبعث معه العساكر الكثيرة فوصل الى شيراز وملكها وضبط مجابيها وهى من أعظم بلاد الله مجبى ذكر لى الحاج قوام الدين الطمغجي وهو والى المجبى بها انه ضمنها بعشرة آلاف دينار دراهم فى كل يوم وصرفها من ذهب المغرب الفان وخمسمائة دينار ذهبا وأقام بها الامير حسين مدة ثم أراد القدوم على ملك العراق فقبض على أبى اسحاق بن محمد شاه ينجو وعلى أخويه ركن الدين ومسعود بك وعلى والدته طاش خاتون واراد حملهم الى العراق ليطلبوا اموالا بيعهم فلما توسطوا السوق بشيراز كشفت طاش خاتون وجهها وكانت متبرقعة حياء ان ترى فى تلك الحال فان عادة نساء الاتراك أن لا يغطين وجوههن واستغاثت باهل شيراز وقالت أهكذا يا أهل شيراز أخرج من بينكم وأنا فلانة زوجة فلان فقام رجل من التجارين يسمي بهلوان محمود قد رأيته بالسوق حين قدومى على شيراز فقال لا تتركها تخرج من بلدنا ولا نرضي بذلك فتابعه الناس على قوله وثارت عامتهم ودخلوا فى السلاح وقتلوا كثيرا من العسكر واخذوا الاموال وخلصوا المرأة وأولادها وفر الامير حسين ومن معه وقدم على السلطان أبى سعيد مهزوما فاعطاه العساكر الكثيفة وأمره بالعود الى شيراز والتحكم فى أهلها بما شاء فلما بلغ أهلها ذلك علموا انهم لا طاقة لهم به فقصدوا القاضي مجد الدين وطلبوا منه ان يحقن دماء الفريقين ويوقع الصلح فخرج الى

Digitized by Birzeit University Library

الامير حسن فترجل له الامير عن فرسه وسلم عليه ووقع الصلح ونزل الامير حسين ذلك اليوم خارج المدينة فلما كان من الغد برز أهلها للقائه فى اجمل ترتيب وزينوا البلد واوقدوا الشمع الكثير ودخل الامير حسين فى ابهة وحفل عظيم وسار فيهم باحسن سيرة فلما مات السلطان ابو سعيد وانقرض عقبه وتغلب كل امير على ما بيده خافهم الامير حسين على نفسه وخرج عنهم وتغلب السلطان ابو اسحاق عليها وعلى اصفهان وبلاد فارس وذلك مسيرة شهر ونصف شهر واشتدت شوكته وطمحت همته الى تملك ما يليه من البلاد فبدأ بالاقرب منها وهى مدينة يزد مدينة حسنة نظيفة عجيبة الاسواق ذات أنهار مطردة وأشجار نضيرة وأهلها تجار شافعية المذهب فحاصرها وتغلب عليها ومحصن الامير مظفر شاه ابن الامير محمد شاه ابن مظفر بقلعة على ستة أميال منها منيعة تحدق بها الرمال فحاصره بها فظهر من الامير مظفر من الشجاعة ما خرق المعتاد ولم يسمع بمثله فكان يضرب على عسكر السلطان أبى اسحاق ليلا ويقتل ماشاء ويخرق المضارب والفساطيط ويعود الى قلعته فلا يقدر على النيل منه وضرب ليلة على دوار السلطان وقتل هنالك جماعة وأخذ من عتاق خيله عشرة وعاد الى قلعته فامر السلطان ان تركب فى كل ليلة خمسة آلاف فارس ويصنعون له الكمائن ففعلوا ذلك وخرج على عادته في مائة من اصحابه فضرب على العسكر وأحاطت به الكمائن وتلاحقت العساكر فقاتلهم وخلص الى قلعته ولم يصب من اصحابه الا واحدا أتي به الى السلطان أبي اسحاق فخلع عليه وأطلقه وبعث معه أمانا لمظفر لينزل اليه فابى ذلك ثم وقعت بينهما المراسلة ووقعت له محبة فى قلب السلطان أبى اسحاق لما رأى من شجاعته فقال أريد أن أراه فاذا رأيته انصرفت عنه فوقف السلطان فى خارج القلعة ووقف هو بيابها وسلم عليه فقال له السلطان انزل على الامان فقال له مظفر انى عاهدت الله أن لا أنزل اليك حتى تدخل أنت قلعتى وحينئذ أنزل اليك فقال له افعل ذلك فدخل اليه السلطان فى عشرة من اصحابه الخواص فلما وصل باب القلعة ترجل مظفر وقبل ركابه ومشى بين يديه مترجلا فادخله داره وأكل من طعامه ونزل معه الى المحلة راكبا فجلسه السلطان الى جانبه وخلع عليه ثيابه وأعطاه مالا عظيما ووقع الاتفاق بينهما ان تكون الخطبة باسم السلطان أبى اسحاق وتكون البلاد لمظفر وأبيه وعاد السلطان الى بلاده وكان السلطان أبو اسحاق طمح ذات مرة الى بناء ايوان كايوان كسرى وأمر أهل شيرازان يتولوا حفر اساسه فاخذوا فى ذلك وكان أهل كل صناعة يباهون كل من عداهم فانتهوا فى المباهاة الى ان صنعوا القفاف لنقل التراب من الجلد وكسوها ثياب الحرير المزركش وفعلوا

Digitized by Birzeit University Library

نحو ذلك في براذع الدواب واخراجها وصنع بعضهم الفؤس من الفضة وأوقدوا الشمع الكثير وكانوا حين الحفر يلبسون أجمل ثيابهم ويربطون فوط الحرير على أوساطهم والسلطان يشاهد أفعالهم من منظرة له وقد شاهدت هذا المبنى وقد ارتفع عن الارض نحو ثلاثة أذرع ولما بني أساسه رفع عن أهل المدينة التخديم فيه وصارت الفعلة تخدم فيه بالاجرة ويحشر لذلك آلاف منهم وسمعت والي المدينة يقول ان معظم محباها ينفق في ذلك البناء وقد كان الموكل به الامير جلال الدين بن الفلكي التوريزي وهو من الكبار كان أبوه نائبا عن وزير السلطان أبي سعيد المسمى علي شاه جيلان ولهذا الامير جلال الدين الفلكي أخ فاضل اسمه هبة الله ويلقب بهاء الملك وفد على ملك الهند حين وفودي عليه ووفد معنا شرف الملك أمير بخت فخلع ملك الهند علينا جميعاً وقدم كل واحد في شغل يليق به وعين لنا المرتب والاحسان وسنذكر ذلك وهذا السلطان أبو اسحاق يريد التشبه بملك الهند المذكور في الايثار واجزال العطايا ولكن أين الثريا من الثرى واعظم ما تعرفنا من عطيات أبي اسحاق انه اعطى الشيخ زاده الخراساني الذي أتاه رسولا عن ملك هراة سبعين الف دينار وأما ملك الهند فلم يزل يعطي اضعاف ذلك لمن لا يحصى كثرة من أهل خراسان وغيرهم

— حكاية —

ومن عجيب فعل ملك الهند مع الخراسانيين انه قدم عليه رجل من فقهاء خراسان هروي الدار من سكان خوارزم يسمى بالامير عبد الله بعثته الخاتون تراب زوج الامير قطلودمور صاحب خوارزم بهدية الى ملك الهند المذكور فقبلها وكافأ عنها باضعافها وبعث ذلك اليها واختار رسولها المذكور الاقامة عنده فصيره في ندمائه فلما كان ذات يوم قال له ادخل الى الخزانة فارفع منها قدر ما تستطيع ان تحمله من الذهب فذهب الى داره فاتى بثلاث عشرة خريطة وجعل في كل خريطة قدر ما وسعته وربط كل خريطة بعضو من أعضائه وكان صاحب قوة وقام بها فلما خرج عن الخزانة وقع ولم يستطع النهوض فامر السلطان بوزن ما خرج به فكان جملته ثلاثة عشر منا بمنان دهلي والمن الواحد منها خمسة وعشرون رطلا مصرية فامره ان ياخذ جميع ذلك فاخذه وذهب به

— حكاية تناسبها —

اشتكى مرة امير بخت الملقب بشرف الملك الخراساني وهو الذي تقدم ذكره آنفا بحضرة ملك الهند فاتاه الملك عائدا ولما دخل عليه اراد القيام فحلف له الملك أن لا ينزل عن كتفه والكت هو السرير ووضع للسلطان متكأة يسمونها المورة فقعد عليها ثم دعا بالذهب والميزان فجيء بذلك وأمر المريض ان يقعد في احدى كفتي الميزان فقال ياخوند عالم

لو علمت انك تفعل هذا للبست على ثيابا كثيرة فقال له البس الآن جميع ما عندك من الثياب فلبس ثيابه المعدة للبرد المحشوة بالقطن وقعد فى كفة الميزان ووضع الذهب فى الكفة الاخرى حتى رجحه الذهب وقال له خذ هذا فتصدق به على رأسك وخرج عنه

— حكاية تناسبها — وفد عليه الفقير عبد العزيز الاردويلى وكان قد قرأ علم الحديث بدمشق وتفقه فيه فجعل مرتبه مائة دينار درهم فى اليوم وصرف ذلك خمسة وعشرون دينارا ذهبا وحضر مجلسه يوما فسأله السلطان عن حديث فسرد له أحاديث كثيرة فى ذلك المعنى فاعجبه حفظه وحلف له برأسه أنه لا يزول من مجلسه حتى يفعل معه ما يراه ثم نزل الملك عن مجلسه فقبل قدميه وأمر باحضار صينية من ذهب وهى مثل الطيفور الصغير وامر ان يأتى فيها الف دينار من الذهب وأخذها السلطان بيده نصبها عليه وقال هى لك من الصينية * ووفد عليه مرة رجل خراسانى يعرف بابن الشيخ عبد الرحمن الاسفرايينى وكان أبوه نزل بغداد فأعطاه خمسين الف دينار درهم وخيلا وعبيداً وخلعا * وسنذكر كثيراً من أخبار هذا الملك عند ذكر بلاد الهند وانما ذكرنا هذا القدر منا هنا من ان السلطان أبا إسحق بريد التشبه به فى العطايا وهو وان كان كريما فاضلا فلا يلحق بطبقة ملك الهند فى الكرم والسخاء

— ذكر بعض المشاهد بشيراز —

فمنها مشهد أحمد بن موسى أخى على الرضا ابن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم وهو مشهد معظم عند أهل شيراز يتبركون به ويتوسلون الى الله تعالى بفضله وبنت عليه طاش خاتون أم السلطان أبى اسحاق مدرسة كبيرة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر والقراء يقرؤن القرآن على التربة دائما ومن عادة الخاتون أنها تأتى الى هذا المشهد فى كل ليلة اثنين ويجتمع فى تلك الليلة القضاة والفقهاء والشرفاء وشيراز من أكثر بلاد الله شرفاء سمعت من الثقات ان الذين لهم بها المرتبات من الشرفاء الف وأربعمائة ونيف بين صغير وكبير ونقيبهم عضد الدين الحسينى فاذا حضر القوم بالمشهد المبارك المذكور ختموا القرآن قراءة فى المصاحف وقرأ القراء بالاصوات الحسنة وأتى بالطعام والفواكه والحلواء فاذا أكل القوم وعظ الواعظ ويكون ذلك كله من بعد صلاة الظهر الى العشى والخاتون فى غرفة مطلة على المسجد لها شباك ثم تضرب الطبول والانفار والبوقات على باب التربة كما يفعل عند أبواب الملوك * ومن المشاهد بها مشهد الامام القطب الولى أبى عبد الله بن خفيف المعروف عندهم بالشيخ وهو قدوة بلاد فارس كلها ومشهده معظم عندهم يأتون اليه بكرة وعشيا فيتمسحون به وقد رأيت القاضى مجد الدين أتاه زائراً واستلمه وتأتى الخاتون الى هذا المسجد

فى كل ليلة جمعة وعليه زاوية ومدرسة ويجتمع به القضاة والفقهاء ويفعلون به كفعلهم فى مشهد أحمد بن موسي وقد حضرت الموضعين جميعاً وتربة الامير محمد شاه ينجو والد السلطان أبى اسحاق متصلة بهذه التربة والشيخ أبو عبد الله بن خفيف كبير القدر فى الاولياء شهير الذكر وهو الذى أظهر طريق جبل سرنديب بجزيرة سيلان من أرض الهند

— كرامة لهذا الشيخ —

يحكى أنه قصد مرة جبل سرنديب ومعه نحو ثلاثين من الفقراء فاصابتهم مجاعة فى طريق الجبل حيث لا عمارة وتاهوا عن الطريق وطلبوا من الشيخ ان يأذن لهم فى القبض على بعض الفيلة الصغار وهى فى ذلك المحل كثيرة جداً ومنه تحمل الى حضرة ملك الهند فنهاهم الشيخ عن ذلك فغلب عليهم الجوع فقعدوا قول الشيخ وقبضوا على فيل صغير منها وذكوه وأكلوا لحمه وامتنع الشيخ من أكله فلما ناموا تلك الليلة اجتمعت الفيلة من كل ناحية وأتت اليهم فكانت تشم الرجل منهم وتقتله حتى أتت على جميعهم وشمت الشيخ ولم تتعرض له وأخذه فيل منها ولف عليه خرطومه ورمى به على ظهره وأتي به الموضع الذي فيه العمارة فلما رآه أهل تلك الناحية عجبوا منه واستقبلوه ليتعرفوا امره فلما قرب منهم أمسكه الفيل بخرطومه ووضعه عن ظهره الى الارض بحيث يرونه فجؤا اليه وتمسحوا به وذهبوا به الى ملكهم فعرفوه خبره وهم كفار وأقام عندهم أياما وذلك الموضع على خور يسمي خور الخيزران والخور هو النهر وبذلك الموضع مغاص الجوهر ويذكر ان الشيخ غاص فى بعض تلك الايام بمحضر ملكهم وخرج وقد ضم بديه معاً وقال للملك اختر ما فى احداهما فاختار ما فى اليمنى فرمي اليه بما فيها وكانت ثلاثة أحجار من الياقوت لامثل لها وهي عند ملوكهم فى التاج يتوارثونها وقد دخلت جزيرة سيلان هذه وهم مقيمون على الكفر الا أنهم يعظمون فقراء المسلمين ويوهونهم الى دورهم ويطعمونهم الطعام ويكونون فى بيوتهم بين أهليهم وأولادهم خلافا لسائر كفار الهند فانهم لا يقربون المسلمين ولا يطعمونهم فى آنيتهم ولا يسقونهم فيها مع انهم لا يؤذونهم ولا يهيجونهم ولقد كنا نضطر الى ان يطبخ لنا بعضهم اللحم فياتون به فى قدورهم ويقعدون على بعد منا ويأتون باوراق الموز فيجعلون عليها الارز وهو طعامهم ويصبون عليه الكوشان وهو الادام ويذهبون فنأكل منه وما فضل عليناتاكله الكلاب والطيروان أكل منه الولد الصغير الذى لا يعقل ضربوه وأطعموه روث البقر وهو الذي يطهر ذلك فى زعمهم ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح القطب روزجهان القبلى من كبار الاولياء وقبره فى مسجد

جامع يخطب فيه وبذلك المسجد يصلي القاضي مجد الدين الذى تقدم ذكره رضي الله عنه وبهذا المسجد سمعت عليه كتاب مسند الامام أبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي قال أخبرتنا به وزيرة بنت عمر بن المنجا قالت اخبرنا ابو عبد الله الحسين بن أبي بكر بن المبارك الزبيدي قال أخبرنا ابو زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي قال أخبرنا ابو الحسن المكي ابن محمد بن منصور بن علان العرضى قال أخبرنا القاضي ابو بكر احمد بن الحسن الحرشي عن أبي العباس بن يعقوب الاصم عن الربيع بن سليمان المرادى عن الامام أبي عبد الله الشافعي وسمعت أيضا عن القاضي مجد الدين بهذا المسجد المذكور كتاب مشارق الانوار للامام رضى الدين أبي الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن الصاغاني بحق سماعه له من الشيخ جلال الدين أبي هاشم محمد بن محمد بن أحمد الهاشمي الكوفي بروايته عن الامام نظام الدين محمود بن محمد بن عمر الهروى عن المصنف ومن المشاهد بها مشهد الشيخ الصالح زركوب وعليه زاوية لاطعام الطعام وهذه المشاهد كلها بداخل المدينة وكذلك معظم قبور أهلها فان الرجل منهم يموت ولده أو زوجه فيتخذله تربة من بعض بيوت داره ويدفنه هناك ويفرش البيت بالحصر والبسط ويجعل الشمع الكثير عند رأس الميت ورجليه ويصنع للبيت بابا الى ناحية الزقاق وشباك حديد فيدخل منه القراء يقرؤن بالاصوات الحسان وليس فى معمور الارض أحسن أصواتا بالقرآن من أهل شيراز ويقوم أهل الدار بالتربة ويفرشونها ويوقدون السرج بها فكان الميت لم يبرح وذكر لى انهم يطبخون فى كل يوم نصيب الميت من الطعام ويتصدقون به عنه

— حكاية —

مررت يوما ببعض أسواق مدينة شيراز فرأيت بها مسجدا متقن البناء جميل الفرش وفيه مصاحف موضوعة فى خرائط حرير موضوعة فوق كرسى وفى الجهة الشمالية من المسجد زاوية فيها شباك مفتح الى جهة السوق وهنالك شيخ جميل الهيئة واللباس وبين يديه مصحف يقرأ فيه فسلمت عليه وجلست اليه فسألنى عن مقدمى فاخبرته وسألته عن شان هذا المسجد فاخبرنى انه هو الذي عمره ووقف عليه اوقافا كثيرة للقراء وسواهم وان تلك الزاوية التي جلست اليه فيها هي موضع قبره ان قضى الله موته بتلك المدينة ثم رفع بساطا كان تحته والقبر مغطى عليه الواح خشب وأرانى صندوقا كان بازائه فقال فى هذا الصندوق كفنى وحنوطى ودراهم كنت استاجرت بها نفسى فى حفر بئر لرجل صالح فدفع لى هذه الدراهم فتركتها لتكون نفقة مواراتى ومافضل منها يتصدق بها فعجبت من شانه وأردت الانصراف فحلف على وأضافنى بذلك الموضع ومن المشاهد بخارج شيراز قبر الشيخ الصالح المعروف بالسعدي

وكان أشعر أهل زمانه باللسان الفارسي وربما ألمع في كلامه بالعربي وله زاوية كان قد عمرها بذلك الموضع حسنة بداخلها بستان مليح وهي بقرب رأس النهر الكبير المعروف بركن آباد وقد صنع الشيخ هنالك أحواضا صغارا من المرمر لغسل الثياب فيخرج الناس من المدينة لزيارته ويأكلون من سماطه ويغسلون ثيابهم بذلك النهر وينصرفون وكذلك فعلت عنده رحمه الله وبمقربة من هذه الزاوية زاوية أخري تتصل بها مدرسة مبنية على قبر شمس الدين السمناني وكان من الامراء الفقهاء ودفن هنالك بوصية منه بذلك وبمدينة شيراز من كبار الفقهاء الشريف مجيد الدين وأمره في الكرم عجيب وربما جاد بكل ماعنده وبالثياب التي كانت عليه ويلبس مرقعة له فيدخل عليه كبراء المدينة فيجدونه على تلك الحال فيكسونه ومرتبه في كل يوم من السلطان خمسون دينارا دراهم فكان خروجي من شيراز برسم زيارة قبر الشيخ الصالح أبي اسحاق الكازروني بكازرون وهي على مسيرة يومين من شيراز فنزلنا أول يوم ببلاد الشول وهم طائفة من الاعاجم يسكنون البرية وفيهم الصالحون

— كرامة لبعضهم —

كنت يوما ببعض المساجد بشيراز وقد قعدت أتلو كتاب الله عز وجل إثر صلاة الظهر فخطر بخاطري انه لوكان لي مصحف كريم لتلوت فيه فدخل علي في اثناء ذلك شاب وقال لي بكلام قوي خذ فرفعت رأسي اليه فالقى في حجري مصحفا كريما وذهب عني فختمته ذلك اليوم قراءة وانتظرته لاردده له فلم يعد الي فسألت عنه فقيل لي ذلك بهلول الشولي ولم أره بعد ووصلنا في عشي اليوم الثاني الى كازرون فقصدنا زاوية الشيخ أبي اسحاق نفع الله به وبنا بها تلك الليلة ومن عادتهم أن يطعموا الوارد كائنا من كان من الهريسة المصنوعة من اللحم والقمح والسمن وتؤكل بالرقاق ولا يتركون الوارد عليهم للسفر حتى يقيم في الضيافة ثلاثة أيام ويعرض على الشيخ الذي بالزاوية حوائجه ويذكرها الشيخ للفقراء الملازمين للزاوية وهم يزيدون على مائة منهم المتزوجون ومنهم الاعزاب المتجردون فيختمون القرآن ويذكرون الذكر ويدعون له عند ضريح الشيخ أبي اسحاق فتقضي حاجته باذن الله وهذا الشيخ أبو اسحق معظم عند أهل الهند والصين ومن عادة ركاب بحر الصين انهم اذا تغير عليهم الهواء وخافوا اللصوص نذروا لابي اسحاق نذورا وكتب كل منهم على نفسه ماندره فاذا وصلوا برالسلامة صعد خدام الزاوية الى المركب وأخذوا الزمام وقبضوا من كل ناذر نذره وما من مركب يأتي من الصين او الهند الا وفيه آلاف من الدنانير فيأتي الوكلاء من جهة خادم الزاوية فيقبضون ذلك ومن الفقراء من يأتي طالبا

صدقة الشيخ فيكتب له أمر بها وفيه علامة الشيخ منقوشة فى قالب من الفضة فيضعون القالب فى صبغ أحمر و يلصقونه بالامر فيبقى اثر الطابع فيه و يكون مضمنه ان من عنده نذر للشيخ أبى اسحق فليعط منه لفلان كذا فيكون الامر بالالف والمائة وما بين ذلك ودونه على قدر الفقير فاذا وجد من عنده شيء من النذر قبض منه وكتب له رسما في ظهر الامر بما قبضه ولقد نذر ملك الهند مرة للشيخ أبى اسحق بعشرة آلاف دينار فبلغ خبرها الى فقراء الزاوية فاتى أحدهم الى الهند وقبضها وانصرف بها الى الزاوية ثم سافرنا من كازرون الى مدينة الزيدين وسميت بذلك لان فيها قبر زيد بن ثابت وقبر زيد بن أرقم الانصاريين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما ورضي الله عنهما وهي مدينة حسنة كثيرة البساتين والمياه مليحة الاسواق عجيبة المساجد ولاهلها صلاح وأمانة وديانة ومن أهلها القاضي نور الدين الزيداني وكان ورد على أهل الهند فولى القضاء منها بمدينة المهل وهي جزائر كثيرة ملكها جلال الدين بن صلاح الدين صالح وتزوج باخت هذا الملك وسياتي ذكره وذكر بنته خديجة التي تولت الملك بعده بهذه الجزائر و بها توفي القاضي نور الدين المذكور ثم سافرنا منها الى الحويزاء بالزاى وهي مدينة صغيرة بسكنها العجم بينها و بين البصرة مسيرة أربع و بينها و بين الكوفة مسيرة خمس ومن أهلها الشيخ الصالح العابد جمال الدين الحويزاني شيخ خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ثم سافرنا منها قاصدين الكوفة فى برية لا ماء بها الا فى موضع واحد يسمي الطرفاوى وردناه فى اليوم الثالث من سفرنا ثم وصلنا بعد اليوم الثانى من ورودنا عليه الى مدينة الكوفة

— مدينة الكوفة —

وهى احدى مهات البلاد العراقية المتميزة فيها بفضل المزية مثوى الصحابة والتابعين ومنزل العلماء والصالحين وحضرة على بن أبى طالب أمير المؤمنين الا ان الخراب قد استولى عليها بسبب أيدى العدوان التى امتدت اليها وفسادها من عرب خفاجة المجاورين لها فانهم يقطعون طريقها ولا سور عليها و بناؤها بالآجر وأسواقها حسان وأكثر ما يباع فيها التمر والسمك وجامعها الاعظم جامع كبير شريف بلاطاته سبعة قائمة على سوارى حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض وأفرغت بالرصاص وهى مفرطة الطول و بهذا المسجد آثار كريمة فمنها بيت ازاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة يقال ان الخليل صلوات الله عليه كان له مصلى بذلك الموضع وعلى مقربة منه محراب محلق عليه باعواد الساج مرتفع وهو محراب على بن أبي طالب رضى الله عنه وهنالك ضربه

الشقي ابن ملجم والناس يقصدون الصلاة به وفي الزاوية من آخر هذا البلاط مسجد صغير محلق عليه ايضا باعواد الساج يذكر أنه الموضع الذي فار منه التنور حين طوفان نوح عليه السلام وفي ظهره خارج المسجد بيت يزعمون أنه بيت نوح عليه السلام وازاءه بيت يزعمون أنه متعبد ادريس عليه السلام و يتصل بذلك فضاء متصل بالجدار القبلي من المسجد يقال انه موضع إنشاء سفينة نوح عليه السلام وفي آخر هذا الفضاء دار علي بن أبي طالب رضي الله عنه والبيت الذي غسل فيه و يتصل به بيت يقال ايضا انه بيت نوح عليه السلام والله اعلم بصحة ذلك كله وفي الجهة الشرقية من الجامع بيت مرتفع يصعد اليه فيه قبر مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه و بمقربة منه خارج المسجد قبر عاتكة وسكينة بنت الحسين عليه السلام وأما قصر الامارة بالكوفة الذي بناه سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه فلم يبق منه الا أساسه والفرات من الكوفة على مسافة نصف فرسخ في الجانب الشرقي منها وهو منتظم بحدائق النخل الملتفة المتصل بعضها ببعض ورأيت بغربي حيالة الكوفة موضعا مسودا شديد السواد في بسيط ابيض فاخبرت انه قبر الشقي ابن ملجم وان اهل الكوفة ياتون في كل سنة بالحطب الكثير فيوقدون النار على موضع قبره سبعة ايام وعلى قرب منه قبة اخبرت انها على قبر المختار بن ابي عبيد ثم رحلنا ونزلنا بئر ملاحة وهي بلدة حسنة بين حدائق نخل ونزلت بخارجها وكرهت دخولها لان اهلها رافضة ورحلنا منها الصبح فنزلنا مدينة الحلة وهي مدينة كبيرة مستطيلة مع الفرات وهو بشرقيها ولها اسواق حسنة جامعة للمرافق والصناعات وهي كثيرة العمارة وحدائق النخل متنظمة بها داخلا وخارجا ودورها بين الحدائق ولها جسر عظيم معقود على مراكب متصلة منتظمة فيما بين الشطين تحف بهما من جانبيها سلاسل من حديد مربوطة في كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل وأهل هذه المدينة كلها إمامية إثنا عشرية وهم طائفتان احداهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف باهل الجامعين والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم ابدا و بمقربة من السوق الاعظم بهذه المدينة مسجد على بابه ستر حرير مسدول وهم يسمونه مشهد صاحب الزمان ومن عاداتهم أنه يخرج في كل ليلة مائة رجل من اهل المدينة عليهم السلاح و بايديهم سيوف مشهورة فياتون امير المدينة بعد صلاة العصر فياخذون منه فرسا مسرجا ملجما او بغلة كذلك و يضربون الطبول والانفار والبوقات امام تلك الدابة و يتقدمها خمسون منهم و يتبعها مثلهم و يمشي آخرون عن يمينها وشمالها و ياتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب و يقولون باسم الله يا صاحب الزمان باسم الله

اخرج قد ظهر الفساد وكثر الظلم وهـذا أوان خروجك فيفرق الله بك بين الحق والباطل ولا يزالون كذلك وهم يضربون الابواق والأطبال والأنفار الى صلاة المغرب وهم يقـولون ان محمد بن الحسن العسكري دخل ذلك المسجد وغاب فيه وانه سيخرج وهو الامام المنتظر عندهم وقد كان غلب على مدينة الحلة بعد موت السلطان أبي سعيد الامير أحمد بن رميثة بن أبي نمي أمير مكة وحكمها أعواما وكان حسن السيرة يحمده أهل العراق الى أن غلب عليه الشيخ حسن سلطان العراق فعذبه وقتله وأخذ الاموال والذخائر التي كانت عنده ثم سافرنا منها الى مدينة كربلاء مشهد الحسين بن علي عليهما السلام وهي مدينة صغيرة تحفها حدائق النخل ويسقيها ماء الفرات والروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر وعلى باب الروضة الحجاب والقومة لا يدخل أحد الا عن إذنهم فيقبل العتبة الشريفة وهي من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الابواب أستار الحرير وأهـل هذه المدينة طائفتان أولاد رخيك وأولاد فائز وبينهما القتال ابدا وهم جميعـا امامية يرجعون الى أب واحد ولاجل فتنهم حرمت هذه المدينة ثم سافرنا منها الي بغداد

— مدينة بغداد —

مدينة دار السلام . وحضرة الاسلام . ذات القدر الشريف . والفضل المنيف . مثوى الخلفاء . ومقر العلماء . قال أبو الحسين بن جبير رضى الله عنه وهذه المدينة العتيقة وان لم تزل حضرة الخلافة العباسية . ومثابة الدعوة الامامية القرشية . فقد ذهب رسمها . ولم يبق الا اسمها . وهي بالاضافة الى ما كانت عليه قبل انحاء الحوادث عليها والتفات أعين النوائب اليها كالطلل الدارس . أو تمثال الخيال الشاخص . فلا حسن فيها يستوقف البصر ويستدعي من المستوفز الغفلة والنظر . الا دجلتهـا التي هي بين شرقيها وغربيها كالمرآة المجلوة بين صفحتين . أو العقد المنتظم بين لبتين . فهي تردها ولا تظأ . وتقطع منها في مرآة صقيلة لا تصدأ . والحسن الحريمي بين هوائها ومائها ينشا . قال ابن جزى وكأن أبا تمام حبيب بن أوس اطلع على ما آل اليه أمرها حين قال فيها (بسيط)

لقـد أقام على بغـداد ناعيها * فليبكها لخـراب الدهـر باكيها
كانت على مائها والحرب موقدة * والنـار تطفأ حسنـا في نواحيها
ترجى لها عودة في الدهر صالحة * فالآن أضمر منها اليأس راجيها
مثل العجـوز التي ولت شبيبتها * وبان عنها جمال كان يحظيهـا

وقد نظم الناس فى مدحها وذكر محاسنها فاطنبوا * ووجدوا مكان القول ذا سعة فاطالوا وأطابوا * وفيها قال الامام القاضى أبو محمد عبد الوهاب بن على بن نصر المالكى البغدادى وأنشدنيه والدى رحمه الله مرات (بسيط)

طيب الهواء ببغداد يشوقني * قربا اليها وان عاقت مقادير
وكيف أرحل عنها اليوم اذ جمعت * طيب الهواء بين ممدود ومقصور

وفيها يقول أيضا رحمه الله تعالى ورضى عنه (طويل)

سلام على بغداد فى كل موطن * وحق لها منى السلام المضاعف
فوالله ما فارقتها عن قلى لها * واني بشطى جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت على برحبها * ولم تكن الأقدار فيها تساعف
وكانت كخل كنت أهوى دنوه * وأخلاقه تنأى به وتخالف

وفيها يقول أيضا مغاضبا لها وأنشدنيه والدى رحمه الله غير مامرة (بسيط)

بغداد دار لأهل المال واسعة * وللصعاليك دار الضنك والضيق
ظلت أمشى مضافا فى أزقتها * كأننى مصحف فى بيت زنديق

وفيها يقول القاضى أبو الحسن على بن النبيه من قصيدة (خفيف)

آنست بالعراق بدراً منيراً * فطوت غيبها وخاضت هجيرا
واستطابت ريا نسائم بغدا * دفكادت لولا البرى ان تطيرا
ذكرت من مسارح الكرخ روضا * لم يزل ناضرا وماء نميرا
واجتنت من ربا المحول نورا * واجتلت من مطالع التاج نورا

ولبعض نساء بغداد فى ذكرها (كامل)

آها على بغدادها وعراقها * وظبائها والسحر فى احداقها
ومجالها عند الفرات باوجه * تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات فى النعيم كأنما * خلق الهوى العذري من اخلاقها
نفسى الفداء لها فاي محاسن * فى الدهر تشرق من سنا اشراقها

(رجع) ولبغداد جسران اثنان معقودان على نحو الصفة التى ذكرناها فى جسر مدينة الحلة والناس يعبرونهما ليلا ونهارا رجالا ونساء فهم فى ذلك فى نزهة متصلة وببغداد من المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها الجمعة أحد عشر مسجدا منها بالجانب الغربى ثمانية وبالجانب الشرقى ثلاثة والمساجد سواها كثيرة جدا وكذلك المدارس الا أنها خربت وحمامات بغداد

كثيرة وهي من أبدع الحمامات وأكثرها مطلية بالقار مسطحة به فيخيل لرائيه انه رخام اسود وهذا القار يجلب من عين بين الكوفة والبصرة تنبع أبدا به ويصير في جوانبها كالصلصال فيجرف منها ويجلب الى بغداد وفي كل حمام منها خلوات كثيرة كل خلوة منها مفروشة بالقار مطلي نصف حائطها مما يلي الأرض به والنصف الأعلى مطلي بالجص الابيض الناصع فالضدان بها مجتمعان متقابل حسنهما وفي داخل كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان أحدهما يجري بالماء الحار والآخر بالماء البارد فيدخل الانسان الخلوة منها منفردا لا يشاركه أحد الا ان أراد ذلك وفي زاوية كل خلوة أيضاً حوض آخر للاغتسال فيه أيضاً انبوبان يجريان بالحار والبارد وكل داخل يعطى ثلاثا من الفوط احداها يتزربها عند دخوله والاخري يتزربها عند خروجه والاخري ينشف بها الماء عن جسده ولم أر هذا الاتقان كله في مدينة سوى بغداد وبعض البلاد تقاربها في ذلك

— ذكر الجانب الغربي من بغداد —

الجانب الغربي منها هو الذي عمر أولا وهو الآن خراب أكثره وعلى ذلك فقد بقي منه ثلاث عشرة محلة كل محلة كانها مدينة بها الحمامان والثلاثة وفي ثمان منها المساجد الجامعة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة وبها جامع الخليفة ابي جعفر المنصور رحمه الله والمارستان فيما بين محلة باب البصرة ومحلة الشارع على الدجلة وهو قصر كبير خرب بقيت منه الآثار وفي هذا الجانب الغربي من المشاهد قبر معروف الكرخي رضي الله عنه وهو في محلة باب البصرة وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متسع السناء عليه مكتوب هذا قبر عون من أولاد علي بن أبي طالب وفي هذا الجانب قبر موسي الكاظم بن جعفر الصادق والد علي بن موسي الرضا والى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة

— ذكر الجانب الشرقي منها —

وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الاسواق عظيمة الترتيب وأعظم أسواقها سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة وفي وسط هذا السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الامثال تضرب بحسنها وفي آخره المدرسة المستنصرية ونسبتها الى أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر ابن أمير المؤمنين الظاهر ابن أمير المؤمنين الناصر وبها المذاهب الأربعة لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط وبقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابسا ثياب

السواد معتما وعلى يمينه و يساره معيدان بعيدان كل ما يليه وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الاربعة وفى داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء و بهذه الجهة الشرقية من المساجد التى تقام فيها الجمعة ثلاثة أحدها جامع الخليفة وهو المتصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل لقيت بهذا المسجد الشيخ الامام العالم الصالح مسند العراق سراج الدين أبا حفص عمر بن على بن عمر القزويني وسمعت عليه فيه جميع مسند أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن ابن الفضل بن بهرام الدارمى وذلك فى شهر رجب الفرد عام سبعة وعشرين وسبعمائة قال أخبرتنا به الشيخة الصالحة المسندة بنت الملوك فاطمة بنت العدل تاج الدين أبي الحسن على ابن على بن أبى البدر قالت أخبرنا الشيخ أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطبيب المارستانى قال أخبرنا أبو الوقت عبد الاول بن شعيب السنجرى الصوفى قال أخبرنا الامام أبو الحسن عبد الرحمن بن محمد بن المظفر الداودى قال أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن حمويه السرخسى عن ابي عمران عيسى بن عمر بن العباس السمرقندي عن أبى محمد عبد الله ابن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي والجامع الثاني جامع السلطان وهو خارج البلد وتتصل به قصور تنسب للسلطان والجامع الثالث جامع الرصافة وبينه وبين جامع السلطان نحو الميل

— ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها —

وقبور الخلفاء العباسيين رضى الله عنهم بالرصافة وعلى كل قبر منها اسم صاحبه فمنهم قبر المهدى وقبر الهادي وقبر الأمين وقبر المعتصم وقبر الواثق وقبر المتوكل وقبر المنتصر وقبر المستعين وقبر المعتز وقبر المهتدي وقبر المعتمد وقبر المعتضد وقبر المكتفى وقبر المقتدر وقبر القاهر وقبر الراضى وقبر المتقي وقبر المستكفى وقبر المطيع لله وقبر الطائع وقبر القائم وقبر القادر وقبر المستظهر وقبر المسترشد وقبر الراشد وقبر المقتفى وقبر المستنجد وقبر المستضيء وقبر الناصر وقبر الظاهر وقبر المستنصر وقبر المستعصم وهو آخرهم وعليه دخل التتر ببغداد بالسيف وذبحوه بعد أيام من دخولهم وانقطع من بغداد اسم الخلافة العباسية وذلك فى سنة أربع وخمسين وستمائة و بقرب الرصافة قبر الامام أبي حنيفة رضى الله عنه وعليه قبة عظيمة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر وليس بمدينة بغداد اليوم زاوية يطعم الطعام فيها ماعدا هذه الزاوية تسبحان مبيد الاشياء ومغيرها وو بالقرب منها قبر الامام أبى عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه ولاقبة عليه و بذكرانها بنيت على قبره مراراً فتهدمت بقدرة الله تعالى وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه وبالقرب منه قبر أبي

بكر الشبلي من أئمة المتصوفة رحمه الله وقبر سري السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهم أجمعين وأهل بغداد لهم يوم في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه هكذا الى آخر الاسبوع وببغداد كثير من قبور الصالحين والعلماء رضي الله تعالى عنهم وهذه الجهة الشرقية من بغداد ليس بها فواكه وانما تجلب اليها من الجهة الغربية لان فيها البساتين والحدائق ووافق وصولي الى بغداد كون ملك العراق بها فلنذكره هاهنا

ـــ ذكر سلطان العراقين وخراسان ـــ

وهو السلطان الجليل أبو سعيد بها درخان وخان عندهم الملك (وبهادر بفتح الباء الموحدة وضم الدال المهمل وآخره راء) ابن السلطان الجليل محمد خذا بنده وهو الذي أسلم من ملوك التتر وضبط اسمه مختلف فيه فمنهم من قال ان اسمه خذابنده (بخاء معجمة مضمومة وذال معجم مفتوح) وبنده لم يختلف فيه (وهو بباء موحدة مفتوحة و نون مسكنة ودال مهمل مفتوح وهاء استراحة) وتفسيره على هذا القول عبد الله لان خذا بالفارسية اسم الله عز وجل وبنده خلام أو عبد أو ما في معناهما وقيل انما هو خربنده (بفتح الخاء المعجم وضم الراء المهمل) وتفسير خر بالفارسية الحمار فمعناه على هذا غلام الحمار فشد ما بين القولين من الخلاف على ان هذا الاخير هو المشهور وكان الاول غيره اليه من تعصب وقيل ان سبب تسميته بهذا الاخير هو ان التتر يسمون المولود باسم أول داخل على البيت عند ولادته فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل الزمال وهم يسمونه خربنده فسمي به وأخو خربنده هو قازغان الذي يقول فيه الناس قازان قازغان هو القدر وقيل سمي بذلك لانه لما ولد دخلت الجارية ومعها القدر وخذا بنده هو الذي أسلم وقد مناقصته وكيف أراد أن يحمل الناس لما أسلم على الرفض وقصة القاضي مجد الدين معه وكيف مات وولي الملك ولده أبو سعيد بهادر خان وكان ملكا فاضلا كريما ملك وهو صغير السن ورأيته ببغداد وهو شاب أجمل خلق الله صورة لا نبات بعارضيه ووزيره اذ ذاك الامير غياث الدين محمد بن خواجه رشيد وكان ابوه من مهاجرة اليهود واستوزره السلطان محمد خذا بنده والد أبي سعيد رأيتهما يوما بحراقة في الدجلة وتسمى عندهم الشيارة وهي شبه سلور تو بين يديه دمشق خواجه ابن الامير جوبان المتغلب على أبي سعيد وعن يمينه و شماله شبارتان فيهما أهل الطرب والغناء ورأيت من مكارمه في ذلك اليوم انه تعرض له جماعة من العميان فشكوا ضعف حالهم فامر لكل واحد منهم بكسوة وغلام يقوده

Digitized by Birzeit University Library

ونفقة تجرى عليه ولما ولى السلطان أبو سعيد وهو صغير كما ذكرناه استولى على أمره أمير الامراء الجوبان وحجر عليه التصرفات حتى لم يكن بيده من الملك الا الاسم ويذكر انه احتاج في بعض الاعياد الى نفقة ينفقها فلم يكن له سبيل اليها فبعث الى أحد التجار فاعطاه من المال ما أحب ولم يزل كذلك الى ان دخلت عليه يوما زوجة أبيه دنيا خاتون فقالت له لو كنا نحن الرجال ما تركنا الجوبان وولده على ما هما عليه فاستفهمها عن مرادها بهذا الكلام فقالت له لقد انتهى أمر دمشق خواجه بن الجوبان أن يفتك بحرم أبيك وانه بات البارحة عند طغى خاتون وقد بعث الى وقال لى الليلة أبيت عندك وما الرأى الا أن نجمع الامراء والعساكر فاذا صعد الى القلعة مختفيا برسم المبيت أمكنك القبض عليه وابوه يكفي الله أمره وكان الجوبان اذذاك غائبا بخراسان ففعلته الغيرة وبات يدبر أمره فلما علم أن دمشق خواجه بالقلعة أمر الامراء والعساكر أن يطيفوا بها من كل ناحية فلما كان بالغد وخرج دمشق ومعه جندي يعرف بالحاج المصري فوجد سلسلة معرضة على باب القلعة وعليها قفل لم يمكنه الخروج راكبا فضرب الحاج المصري السلسلة بسيفه فقطعها وخرجا معا فاحاطت بهما العساكر ولحق أمير من الامراء الخاصكية يعرف بمصر خواجه وفتي يعرف بلؤلؤ دمشق خواجه فقتلاه وأتيا الملك أبا سعيد برأسه فرموا به بين يدى فرسه وتلك عادتهم ان يفعلوا برأس كبار أعدائهم وأمر السلطان بنهب داره وقتل من قاتل من خدامه ومماليكه واتصل الخبر بابيه الجوبان وهو بخراسان ومعه أولاده أمير حسن وهو الاكبر وطالش وجلوخان وهو أصغرهم وهو ابن أخت السلطان أبي سعيد أمه ساطي بك بنت السلطان خذابنده ومعه عساكر التتر وحاميتها فاتفقوا على قتال السلطان أبي سعيد وزحفوا اليه فلما التقى الجمعان هرب التتر الى سلطانهم وأفردوا الجوبان فلما رأى ذلك نكص على عقبيه وفر الى صحراء سجستان وأوغل فيها وأجمع على اللحاق بملك هراة غياث الدين مستجيرا به ومتحصنا بمدينته وكانت له عليه ايادي سابقة فلم يوافقه ولده حسن وطالش على ذلك وقالا له انه لا يفي بالعهد وقد غدر فيروزشاه بعدان لجا اليه وقتله فابى الجوبان الا ان يلحق به ففارقه ولداه وتوجه ومعه ابنه الاصغر جلوخان فخرج غياث الدين لاستقباله ونزل له وادخله المدينة على الامان ثم غدره بعد ايام وقتله وقتل ولده وبعث برأسيهما الى السلطان أبي سعيد وأما حسن وطالش فانهما قصدا خوارزم وتوجها الى السلطان محمد أوزبك فاكرم مثواهما وأنزلهما الى ان صدر منهما ما اوجب قتلهما فقتلهما وكان للجوبان ولد رابع اسمه الدمرطاش فهرب الي ديار مصر فاكرمه

الملك الناصر واعطاه الاسكندرية فابى من قبولها وقال انما اريد العساكر لاقاتل أباسعيد وكان متى بعث اليه الملك الناصر بكسوة أعطى هو للذي يوصلها اليه أحسن منها ازراء على الملك الناصر وأظهر أمورا أوجبت قتله فقتله وبعث برأسه الى أبي سعيد وقد ذكرنا قصته وقصة قراسنقور فيما تقدم ولما قتل الجوبان جيء به وبولده ميتين فوقف بهما على عرفات وحملا الى المدينة ليدفنا فى التربة التى اتخذها الجوبان بالقرب من مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنع من ذلك ودفن بالبقيع والجوبان هو الذى جلب الماء الى مكة شرفها الله تعالى ولما استقل السلطان أبو سعيد بالملك أراد أن يتزوج بنت الجوبان وكانت تسمي بغداد خاتون وهي من اجمل النساء وكانت تحت الشيخ حسن الذى تغلب بعد موت ابى سعيد على الملك وهو ابن عمته فامره فنزل عنها وتزوجها ابو سعيد وكانت احظى النساء لديه والنساء لدى الاتراك والتتر لهن حظ عظيم وهم اذا كتبوا امرا يقولون فيه عن أمر السلطان والخواتين ولكل خاتون من البلاد والولايات والمجابى العظيمة واذا سافرت مع السلطان تكون فى محلة على حدة وغلبت هذه الخاتون على أبي سعيد وفضلها على سواها وأقامت على ذلك مدة أيام ثم انه تزوج امرأة تسمي بدلشاد فاحبها حبا شديدا وهجر بغداد خاتون فغارت لذلك وسمته فى منديل مسحته به بعد الجماع فمات وانقرض عقبه وغلبت أمراؤه على الجهات كما سنذكره ولما عرف الامراء ان بغداد خاتون هي التى سمته اجمعوا على قتلها وبدر لذلك الفتي الرومى خواجه لؤلؤ وهو من كبار الامراء وقدمائهم فاتاها وهى فى الحمام فضربها بدبوسه وقتلها وطرحت هنالك أياما مستورة العورة بقطعة تليس واستقل الشيخ حسن بملك عراق العرب وتزوج دلشاد امرأة السلطان ابى سعيد كمثل ما كان ابو سعيد فعله من تزوج امرأته

— ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان ابى سعيد —

فمنهم الشيخ حسن ابن عمته الذى ذكرنا آنفا تغلب على عراق العرب جميعا ومنهم ابراهيم شاه ابن الامير سنيته تغلب على الموصل وديار بكر ومنهم الامير ارتنا تغلب على بلاد التركمان المعروفة ايضا ببلاد الروم ومنهم حسن خواجه بن الدمرطاش بن الجوبان تغلب على تبريز والسلطانية وهمدان وقم وقاشان والرى ورامين وفرغان والكرج ومنهم الامير طغيتمور تغلب على بعض بلاد خراسان ومنهم الامير حسين ابن الامير غياث الدين تغلب على هراة ومعظم بلاد خراسان ومنهم ملك دينار تغلب على بلاد مكران وبلاد كيج ومنهم محمد شاه ابن مظفر تغلب على يزد وكرمان وورقو ومنهم الملك قطب الدين تهمتن تغلب على هرمز

Digitized by Birzeit University Library

وكيش والقطيف والبحرين وقلهات ومنهم السلطان أبو اسحاق الذي تقدم ذكره تغلب على شيراز واصفهان وملك فارس وذلك مسيرة خمس وأربعين ومنهم السلطان افراسياب أتابك تغلب على ايذج وغيرها من البلاد وقد تقدم ذكره ﴿ولنعد الى ما كنا بسبيله﴾ ثم خرجت من بغداد في محلة السلطان أبي سعيد وغرضي أن أشاهد ترتيب ملك العراق في رحيله ونزوله وكيفية تنقله وسفره وعاداتهم انهم يرحلون عند طلوع الفجر وينزلون عند الضحى وترتيبهم انه يأتي كل امير من الامراء بعسكره وطبوله وأعلامه فيقف في موضع لا يتعداه قد عين له إما في الميمنة أو الميسرة فاذا توافوا جميعا وتكاملت صفوفهم ركب الملك وضربت طبول الرحيل وبوقاته وأنفاره وأتى كل أمير منهم فسلم على الملك وعاد الى موقفه ثم يتقدم أمام الملك الحجاب والنقباء ثم يليهم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل عليهم الثياب الحسنة وتحتهم مراكب السلطان وأمام أهل الطرب عشرة من الفرسان قد تقلدوا عشرة من الطبول وخمسة من الفرسان لديهم خمس صرنايات وهي تسمى عندنا بالغيطات فيضربون تلك الاطبال والصرنايات ثم يمسكون ويغني عشرة من أهل الطرب نوبتهم فاذا قضوها ضربت تلك الاطبال والصرنايات ثم أمسكوا وغني عشرة آخرون نوبتهم هكذا الى أن تتم عشر نوبات فعند ذلك يكون النزول ويكون عن يمين السلطان وشماله حين سيره كبار الامراء وهم نحو خمسين ومن ورائه أصحاب الاعلام والاطبال والانفار والبوقات ثم مماليك السلطان ثم الامراء على مراتبهم وكل امير له اعلام وطبول وبوقات ويتولى ترتيب ذلك كله أمير جندر وله جماعة كبيرة وعقوبة من تخلف عن فوجه وجماعته ان يؤخذ تماقه فيملأ رملا ويعلق في عنقه ويمشى على قدميه حتى يبلغ المنزل فيؤتى به الى الامير فيبطح على الارض ويضرب خمسا وعشرين مقرعة على ظهره سواء كان رفيعا أو وضيعا لا يحاشون من ذلك احدا واذا نزلوا ينزل السلطان ومماليكه في محلة على حدة وتنزل كل خاتون من خواتينه في محلة على حدة ولكل واحدة منهن الامام والمؤذنون والقراء والسوق وينزل الوزراء والكتاب وأهل الاشغال على حدة وينزل كل أمير على حدة ويأتون جميعا الى الخدمة بعد العصر ويكونون انصرافهم بعد العشاء الاخيرة والمشاعل بين أيديهم فاذا كان الرحيل ضرب الطبل الكبير ثم يضرب طبل الخاتون الكبرى التي هي الملكة ثم أطبال سائر الخواتين ثم طبل الوزير ثم أطبال الوزراء دفعة واحدة ثم يركب أمير المقدمة في عسكره ثم يتبعه الخواتين ثم اثقال السلطان وزاملته وأثقال الخواتين ثم أميران في عسكر له يمنع الناس من الدخول فيما بين الاثقال والخواتين ثم سائر الناس وسافرت في هذه المحلة عشرة ايام ثم صحبت الامير علاء الدين محمدا الى بلدة تبريز وكان من الامراء الكبار الفضلاء فوصلنا بعد

عشرة ايام الى مدينة تبريز ونزلنا بخارجها فى موضع يعرف بالشام وهنالك قبر قازان ملك العراق وعليه مدرسة حسنة وزاوية فيها الطعام للوارد والصادر من الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء وأنزلني الامير بتلك الزاوية وهي ما بين أنهار متدفقة وأشجار مورقة وفى غد ذلك اليوم دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد ووصلنا الى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان من أحسن سوق رأيتها فى بلاد الدنيا كل صناعة فيها على حدة لا تخالطها أخرى واجتزت بسوق الجوهريين فخار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر وهي بايدي مماليك حسان الصور عليهم الثياب الفاخرة وأوساطهم مشدودة بمناديل الحرير وهم بين أيدى التجار يعرضون الجواهر على نساء الاتراك وهن يشترينه كثيرا وبتنا فسن فيه فرأيت من ذلك كله فتنة يستعاذ بالله منها ودخلنا سوق العنبر والمسك فرأينا مثل ذلك أو أعظم ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذى عمره الوزير على شاه المعروف بجيلان وبخارجه عن يمين مستقبل القبلة مدرسة وعن يساره زاوية وصحنه مفروش بالمرمر وحيطانه بالقاشاني وهو شبه لزليج وبشقه نهر ماء وبها انواع الاشجار ودوالى العنب وشجر ياسمين ومن عاداتهم انهم يقرأون بكل يوم سورة يس وسورة الفتح وسورة عم بعد صلاة العصر فى صحن المسجد ويجتمع لذلك أهل المدينة وبتنا ليلة بتبريز ثم وصل بالغد أمر السلطان أبي سعيد الى الامير علاء الدين بان يصل اليه فعدت معه ولم الق بتبريز احدا من العلماء ثم سافرنا الى أن وصلنا محلة السلطان فاعلمه الامير المذكور بمكاني وادخلني عليه فسالني عن بلادي وكساني وأركبني واعلمه الامير انى أريد السفر الى الحجاز الشريف فامر لى بالزاد والركوب فى السبيل مع الحمل وكتب لى بذلك الى أمير بغداد خواجه معروف فعدت الى مدينة بغداد واستوفيت ما أمر لى به السلطان وكان قد بقي لا وان سفر الركب أزيد من شهرين فظهر لى ان اسافر الى الموصل وديار بكر لاشاهد تلك البلاد واعود الى بغداد فى حين سفر الركب فاتوجه الى الحجاز الشريف فخرجت من بغداد الى منزل على نهر دجيل وهو يتفرع عن دجلة فيسقى قرى كثيرة ثم نزلنا بعد يومين بقرية كبيرة تعرف بحربة مخصبة فسيحة ثم رحلنا فنزلنا موضعا على شط دجلة بانقرب من حصن يسمي المعشوق وهو مبنى على الدجلة وفى العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سر من رأى وتسمي أيضا سامرا ويقال لها سامراه ومعناه بالفارسية طريق سام وراه هو الطريق وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبق منها الا القليل وهى معتدلة الهواء رائقة الحسن علي بلائها ودروس معالمها وفيها أيضا مشهد صاحب الزمان كما بالحلة ثم سرنا منها مرحلة ووصلنا الى مدينة تكريت وهي مدينة كبيرة فسيحة الارجاء ليحة الاسواق

كثيرة المساجد وأهلها موصوفون بحسن الاخلاق والدجلة فى الجهة الشمالية منها ولها قلعة حصينة على شط الدجلة والمدينة عتيقة البناء عليها سور يطيف بها ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى قرية تعرف بالعقر على شط الدجلة وباعلاها ربوة كان بها حصن وباسفلها الخان المعروف بخان الحديد له أبراج وبناؤه حافل والقرى والعمارة متصلة من هنالك الى الموصل ثم رحلنا ونزلنا موضعا يعرف بالقيارة بمقربة من دجلة وهنالك أرض سوداء فيها عيون تنبع بالقار ويصنع له أحواض ويجتمع فيها فتراه شبه الصلصال على وجه الارض حالك اللون صقيلا رطباوله رائحة طيبة وحول تلك العيون بركة كبيرة سوداء يعلوها شبه الطحلب الرقيق فتقذفه الى جوانبها فيصير أيضا قارا ويمقربة من هذا الموضع عين كبيرة فاذا أرادوا نقل القار منها أوقدوا عليها النار فتنشف النار ماهنالك من رطوبة مائية ثم يقطعونه قطعا وينقلونه وقد تقدم لنا ذكر العين التي بين الكوفة والبصرة على هذا النحو ثم سافرنا من هذه العيون مرحلتين ووصلنا بعدها الى الموصل

— مدينة الموصل —

وهي مدينة عتيقة كثيرة الخصب وقلعتها المعروفة بالحدباء عظيمة الشان شهيرة الامتناع عليها سور محكم البناء مشيد البروج وتتصل بها دور السلطان وقد فصل بينها وبين البلد شارع متسع مستطيل من أعلى البلد الى اسفله وعلى البلد سوران اثنان وثيقان ابراجهما كثيرة متقاربة وفي باطن السور بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره قد تمكن فتحها فيه لسعته ولم أر فى اسوار البلاد مثله الا السور الذى على مدينة دهلى حضرة ملك الهند وللموصل ربض كبير فيه المساجد والحمامات والفنادق والاسواق وبه مسجد جامع على شط الدجلة تدور به شبابيك حديد وتتصل به مساطب تشرف على دجلة فى النهاية من الحسن والاتقان وامامه مارستان وبداخل المدينة جامعان احدهما قديم والآخر حديث وفى صحن الحديث منهما قبة فى داخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج منها الماء بقوة وانزعاج فيرتفع مقدار القامة ثم ينعكس فيكون له مرأى حسن وقيسارية الموصل مليحة لها ابواب حديد ويدور بها دكاكين وبيوت بعضها فوق بعض متقنة البناء وبهذه المدينة مشهد جرجيس النبي عليه السلام وعليه مسجد والقبر فى زاوية منه عن يمين الداخل اليه وهو فيما بين الجامع الجديد وباب الجسر وقد حصلت لنا زيارته والصلاة بمسجده والحمد لله تعالى وهنالك تل يونس عليه السلام وعلى نحو ميل منه العين المنسوبة اليه يقال انه أمر قومه بالتطهير فيها ثم صعدوا التل ودعا ودعوا فكشف الله عنهم العذاب

و بمقربة منه قرية كبيرة يقرب منها خراب يقال انه موضع المدينة المعروفة بنينوى مدينة يونس عليه السلام وأثر السور المحيط بها ظاهر ومواضع الابواب التي هي متبينة وفي التل بناء عظيم ورباط فيه بيوت كثيرة ومقاصر ومطاهر وسقايات يضم الجميع باب واحد وفي وسط الرباط بيت عليه ستر حرير وله باب مرصع يقال انه الموضع الذي به موقف يونس عليه السلام ومحراب المسجد الذي بهذا الرباط يقال انه كان بيت متعبده عليه السلام وأهل الموصل يخرجون في كل ليلة جمعة الى هذا الرباط يتعبدون فيه وأهل الموصل لهم مكارم أخلاق ولين كلام وفضيلة ومحبة في الغريب واقبال عليه وكان أميرها حين قدومي عليها السيد الشريف الفاضل علاء الدين علي بن شمس الدين محمد الملقب بحيدر وهو من الكرماء الفضلاء أنزلني بداره وأجرى علي الانفاق مدة مقامي عنده وله الصدقات والايثار المعروف وكان السلطان أبو سعيد يعظمه وفوض اليه أمر هذه المدينة وما يليها ويركب في موكب عظيم من مماليكه وأجناده ووجوه أهل المدينة وكبراؤها يأتون للسلام عليه غدواً وعشياً وله شجاعة ومهابة وولده في حين كتب هذا في حضرة فاس مستقر الغرباء وماوى الفرق ومحط رحال الوفود زادها الله بسعادة أيام مولانا أمير المؤمنين بهجة واشراقا وحرس أرجاءها ونواحيها ثم رحلنا من الموصل ونزلنا قرية تعرف بعين الرصد وهي على نهر عليه جسر مبني وبها خان كبير ثم رحلنا ونزلنا قرية تعرف بالموياحه ثم رحلنا منها ونزلنا جزيرة ابن عمر وهي مدينة كبيرة حسنة محيط بها الوادي ولذلك سميت جزيرة أكثرها خراب ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل وسورها مبني بالحجارة أيضاً وأهلها فضلاء لهم محبة في الغرباء ويوم نزولنا بها رأينا جبل الجودي المذكور في كتاب الله عز وجل الذي استوت عليه سفينة نوح عليه السلام وهو جبل عال مستطيل ثم رحلنا منها مرحلتين ووصلنا الى مدينة نصيبين وهي مدينة عتيقة متوسطة قد خرب أكثرها وهي في بسيط أفيح فسيح فيه المياه الجارية والبساتين الملتفه والاشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها وينقسم انقساما فيتخلل بساتينها ويدخل منه نهر الى المدينة فيجري في شوارعها ودورها ويخترق صحن مسجدها الاعظم وينصب في صهر يجين أحدهما في وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين وصدق وامانة ولقد صدق ابو نواس في قوله

طابت نصيبين لي يوما وطبت لها * ياليت حظي من الدنيا نصيبين

قال ابن جزي والناس يصفون مدينة نصيبين بفساد الماء والوخامة وفيها يقول بعض الشعراء

لنصيبين قد عجبت ومافي * دارها لي داع الى العلات

يعدم الورد أحمرا في ذراها * لسقام حتى من الوجنات

ثم رحلنا الى مدينة سنجار وهي مدينة كبيرة كثيرة الفواكه والاشجار والعيون المطردة والانهار مبنية في سفح جبل تشبه بدمشق في كثرة أنهارها وبساتينها ومساجدها الجامع مشهور البركة يذكر ان الدعاء به مستجاب ويدور به نهر ماء ويشقه وأهل سنجار اكراد ولهم شجاعة وكرم ممن لقيته بها الشيخ الصالح العابد الزاهد عبدالله الكردي أحد المشايخ الكبار صاحب كرامات يذكر عنه أنه لا يفطر الا بعد أربعين يوما ويكون افطاره على نصف قرص من الشعير لقيته برابطة بأعلى جبل سنجار ودعا لي وزودني بدراهم لم تزل عندي الى أن سلبني كفار الهنود ثم سافرنا الى مدينة دارا وهي عتيقة كبيرة بيضاء المنظر لها قلعة مشرفة وهي الآن خراب لا عمارة بها وفي خارجها قرية معمورة بها كان نزولنا ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة ماردين وهي عظيمة في سطح جبل من أحسن مدن الاسلام وأبدعها وأتقنها وأحسنها أسواقا وبها تصنع الثياب المنسوجة اليها من الصوف المعروف بالمرعزي ولها قلعة شماء من مشاهير القلاع في قنة جبلها قال ابن جزي قلعة ماردين هذه تسمي الشهباء وايا ها عني شاعر العراق صفي الدين عبدالعزيز بن سراي الحلي بقوله في سمطه — سريع —

فدع ربوع الحلة الفيحاء * وازورباً لعيس عن الزوراء

ولا تقف بالموصل الحدباء * ان شهاب القلعة الشهباء

— محرق شيطان صروف الدهر —

وقلعة حلب تسمي الشهباء أيضاً وهذه المسمطة بديعة مدح بها الملك المنصور سلطان ماردين وكان كريما شهير الصيت ولي الملك بها نحو خمسين سنة وأدرك أيام قازان ملك التتر وصاهر السلطان خذابنده بابنته دنيا خاتون

— ذكر سلطان ماردين في عهد دخولي اليها —

وهو الملك الصالح ابن الملك المنصور الذي ذكرناه آنفا ورث الملك عن أبيه وله المكارم الشهيرة وليس بارض العراق والشام ومصر أكرم منه يقصده الشعراء والفقراء فيجزل لهم العطايا جريا على سنن أبيه قصده أبو عبدالله محمد بن جابر الاندلسي المروى الكفيف مادحا فاعطاه عشرين الف درهم وله الصدقات والمدارس والزوايا لاطعام الطعام وله

Digitized by Birzeit University Library

وزير كبير القدر وهو الامام العالم وحيد الدهر وفريد العصر جمال الدين السنجاري قرأ بمدينة تبريز وأدرك العلماء الكبار وقاضي قضاته الامام الكامل برهان الدين الموصلي وهو ينتسب الى الشيخ الولي فتح الموصلي وهذا القاضي من أهل الدين والورع والفضل يلبس الخشن من ثياب الصوف الذي لا تبلغ قيمته عشرة دراهم ويعتم بنحو ذلك وكثيرا ما يجلس للاحكام بصحن مسجد خارج المدرسة كان يتعبد فيه فاذا رآه من لا يعرفه ظنه بعض خدام القاضي وأعوانه

— حكاية —

ذكر لي ان امرأة أتت هذا القاضي وهو خارج من المسجد ولم تكن تعرفه فقالت له ياشيخ أين يجلس القاضي فقال لها وما تريدين منه فقالت له ان زوجي ضربني وله زوجة ثانية وهو لا يعدل بيننا في القسم وقد دعوته الى القاضي فابى وأنا فقيرة ليس عندي ما أعطيه لرجال القاضي حتى يحضروه بمجلسه فقال لها وأين منزل زوجك فقالت بقرية الملاحين خارج المدينة فقال لها أنا أذهب معك اليه فقالت والله ما عندي شيء أعطيك اياه فقال لها وأنا لا آخذ منك شيأ ثم قال لها اذهبي الى القرية وانتظريني خارجها فاني على أثرك فذهبت كما أمرها وانتظرته فوصل اليها وليس معه أحد وكانت عادته ان لا يدع أحدا يتبعه فجاءت به الى منزل زوجها فلما رآه قال لها ماهذا الشيخ النحس الذي معك فقال له نعم والله أنا كذلك ولكن أرض زوجتك فلما طال الكلام جاء الناس فعرفوا القاضي وسلموا عليه وخاف ذلك الرجل وخجل فقال له القاضي لا عليك أصلح ما بينك وبين زوجتك فارضاها الرجل من نفسه وأعطاها القاضي نفقة ذلك اليوم وانصرف فاقمت هذا القاضي وأضافني بداره ثم رحلت عائدا الى بغداد فوصلت الى مدينة الموصل التي ذكرناها فوجدت ركبها بخارجها متوجهين الى بغداد وفيهم امرأة صالحة عابدة تسمى بالست زاهدة وهي من ذرية الخلفاء حجت مرارا وهي ملازمة الصوم سلمت عليها وكنت في جوارها ومعها جملة من الفقراء يخدمونها وفي هذه الوجهة توفيت رحمة الله عليها وكانت وفاتها بزرود ودفنت هنالك ثم وصلنا الى مدينة بغداد فوجدت الحاج في أهبة الرحيل فقصدت أمير هامعروف خواجه فطلبت منه ما أمرلي به السلطان فعين لي شقة محارة وزاد أربعة من الرجال وماءهم وكتب لي بذلك ووجه الى أمير الركب وهو البهلوان محمد الحويج فاوصاه بي وكانت المعرفة بيني وبينه متقدمة فزادها تاكيد اولم أزل في جواره وهو يحسن الي ويزيدني على ما أمرلي به وأصابني عند خروجنا من الكوفة اسهال فكانوا ينزلونني من أعلى الحمل مرات كثيرة في اليوم والامير يتفقد حالي ويوصي بي ولم أزل مريضا حتى وصلت مكة حرم الله تعالى زادها الله شرفا وتعظيما

وطفت بالبيت الحرام كرمه الله تعالى طواف القدوم وكنت ضعيفا بحيث أؤدى المكتوبة قاعدا فطفت وسعيت بين الصفا والمروة راكبا على فرس الامير الحويج المذكور ووقفنا تلك السنة يوم الاثنين فلما نزلنا مني أخذت في الراحة والاستقلال من مرضى ولما انقضى الحاج أقمت مجاوراً بمكة تلك السنة وكان بها الامير علاء الدين بن هلال مشيد (مشد) الدواوين مقيما لعمارة دار الوضوء بظاهر العطارين من باب بني شيبة وجاور في تلك السنة من المصريين جماعة من كبرائهم منهم تاج الدين بن الكويك ونور الدين القاضي وزين الدين بن الاصيل وابن الخليلي وناصر الدين الاسيوطي وسكنت تلك السنة بالمدرسة المظفرية وعافاني الله من مرضي فكنت في أنعم عيش وتفرغت للطواف والعبادة والاعتمار وأتى في أثناء تلك السنة حجاج الصعيد وقدم معهم الشيخ الصالح نجم الدين الاصفوني وهي أول حجة حجها والاخوان علاء الدين علي وسراج الدين عمر ابنا القاضي الصالح نجم الدين البالسي قاضي مصر وجماعة غيرهم في منتصف ذي القعدة وصل الامير سيف الدين يلملك وهو من الفضلاء ووصل في صحبته جماعة من أهل طنجة بلدي حرسها الله منهم الفقيه أبو عبد الله محمد ابن القاضي أبي العباس ابن القاضي الخطيب أبي القاسم الجراوي والفقيه أبو عبد الله بن عطاء الله والفقيه أبو محمد عبد الله الحضرمي والفقيه أبو عبد الله المرسي وأبو العباس بن الفقيه أبي علي البلنسي وأبو محمد ابن القابلة وأبو الحسن البياري وأبو العباس بن نافوت وأبو الصبر أيوب الفخار وأحمد بن حكامة ومن أهل قصر المجاز الفقيه أبو زيد عبد الرحمن ابن القاضي أبي العباس بن خلوف ومن أهل القصر الكبير الفقيه أبو محمد بن مسلم وأبو اسحاق ابراهيم بن يحيى وولده ووصل في تلك السنة الامير سيف الدين تقز دمور من الخاصكية والامير موسى بن قرمان والقاضي فخر الدين ناظر الجيش كاتب الممالك والتاج أبو اسحاق والست حدق مربية الملك الناصر وكانت لهم صدقات عميمة بالحرم الشريف واكثرهم صدقة القاضي فخر الدين وكانت وقفتنا في تلك السنة في يوم الجمعة من عام ثمان وعشرين ولما انقضى الحج أقمت مجاوراً بمكة حرسها الله سنة تسع وعشرين وفي هذه السنة وصل أحمد بن الامير رميثة ومبارك بن الامير عطيفه من العراق صحبة الامير محمد الحويج والشيخ زاده الحرباوي والشيخ دانيال وأتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق وفي تلك السنة ذكر اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر ودعوا له باعلى قبة زمزم وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين ولم يوافق الامير

عطيفة على ذلك وبعث شقيقه منصورا ليعلم الملك الناصر بذلك فامر رميثة برده فرد فبعثه ثانية على طريق جده حتى أعلم الملك الناصر بذلك ووقفنا تلك السنة وهي سنة تسع وعشرين يوم الثلاثاء ولما انقضى الحج اقمت مجاورا بمكة حرسها الله سنة ثلاثين وفي موسمها وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين ايدمور أمير جندار الناصري وسبب ذلك ان تجارا من أهل اليمن سرقوا فتشكوا الى ايدمور بذلك فقال ايدمور لمبارك بن الامير عطيفة إئت بهؤلاء السراق فقال لا أعرفهم فكيف ناتي بهم وبعد فاهل اليمن تحت حكمنا ولا حكم عليهم لك ان سرق لاهل مصر والشام شيء فاطلبني به فشتمه أيدمور وقال له ياقواد تقول لي هكذا وضربه على صدره فسقط ووقعت عمامته عن رأسه وغضب له عبيده وركب أيدمور يريد عسكره فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه وقتلوا ولده ووقعت الفتنة بالحرم وكان به الامير أحمد ابن عم الملك الناصر ورمي الترك بالنشاب فقتلوا امرأة قيل انها كانت تحرض أهل مكة على القتال وركب من الركب من الاتراك وأمير هم خاص تركك فخرج اليهم القاضي والائمة والمجاورون وفوق رؤسهم المصاحف وحاولوا الصلح ودخل الحجاج مكة فاخذوا ماهلم بها وانصرفوا الى مصر وبلغ الخبر الى الملك الناصر فشق عليه وبعث العساكر الى مكة ففر الامير عطيفة وابنه مبارك وخرج أخوه رميثة واولاده الى وادي نخلة فلما وصل العسكر الى مكة بعث الامير رميثة أحدا ولاده يطلب له الامان ولولده فامنوا وأتي رميثة وكفنه في بيده الى الامير فخلع عليه وسلمت اليه مكة وعاد العسكر الى مصر وكان الملك الناصر رحمه الله حليما فاضلا فخرجت في تلك الايام من مكة شرفها الله تعالى قاصدا بلاد اليمن فوصلت الى حدة (بالحاء المهمل المفتوح) وهي نصب الطريق ما بين مكة وجدة (بالجيم المضموم) ثم وصلت الى جدة وهي بلدة قديمة على ساحل البحر يقال انها من عمارة الفرس وبخارجها مصانع قديمة وبها جباب للماء منقورة في الحجر الصلد يتصل بعضها ببعض تفوت الاحصاء كثرة وكانت هذه السنة قليلة المطر وكان الماء يجلب الى جدة على مسيرة يوم وكان الحجاج يسالون الماء من أصحاب البيوت

— حكاية —

ومن غريب ما اتفق لي بجدة انه وقف على بابي سائل أعمى يطلب الماء يقوده غلام فسلم علي وسماني باسمي وأخذ بيدي ولم أكن عرفته قط ولا عرفني فعجبت من شانه ثم أمسك أصبعي بيده وقال اين الفتخة وهي الخاتم وكنت حين خروجي من مكة قد لقيني بعض الفقراء وسالني ولم يكن عندي في ذلك الحين شيء فدفعت له خاتمي فلما سالني عنه هنا

Digitized by Birzeit University Library

الاعمى قلت له اعطيته للفقير فقال ارجع فى طلبه فان فيه أسماء مكتوبة فيها سر من الاسرار فطال تعجبي منه ومن معرفته بذلك كله والله أعلم بحاله وبجدة جامع يعرف بجامع الآبنوس معروف البركة يستجاب فيه الدعاء وكان الامير بها أبا يعقوب بن عبد الرزاق وقاضيها وخطيبها الفقيه عبدالله من أهل مكة شافعي المذهب واذا كان يوم الجمعة واجتمع الناس للصلاة أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها فان كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة وان لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا أربعا ولا يعتبر من ليس من أهلها وان كانوا عددا كثيراً ثم ركبنا البحر من جدة فى مركب يسمونه الجلبة وكان لرشيد الدين الالفي اليمني الحبشي الاصل وركب الشريف منصور بن ابي نمي فى جلبة اخري ورغب مني ان أكون معه فلم افعل لكونه كان معه فى جلبته الجمال فخفت من ذلك ولما كنا ركبت البحر قبلها وكان هنالك جملة من اهل اليمن قد جعلوا زوادهم وامتعتهم فى الجلب وهم متأهبون للسفر

— حكاية —

وبما ركبنا البحر امر الشريف منصور احد غلمانه ان ياتيه بعديلة دقيق وهي نصف حمل وبطة سمن ياخذها من جلب أهل اليمن فاخذها واتى بهما اليه فاتاني التجار باكين وذكروا لي ان فى جوف تلك العديلة عشرة آلاف درهم نقرة ورغبوا مني ان أكلمه فى ردها وان ياخذ سواها فاتيته وكلمته فى ذلك وقلت له إن للتجار فى جوف هذه العديلة شيئا فقال ان كان سكرا فلا ارده اليهم وان كان سوى ذلك فهو لهم ففتحوها فوجدوا الدراهم فردها عليهم وقال لي لو كان عجلان ماردها وعجلان هو ابن اخيه رميثة وكان قد دخل فى تلك الايام دار تاجر من اهل دمشق قاصدا لليمن فذهب بمعظم ما كان فيها وعجلان هو امير مكة على هذا العهد وقد صلح حاله واظهر العدل والفضل ثم سافرنا في هذا البحر بالريح الطيبة يومين وتغيرت الريح بعد ذلك وصدتنا عن السبيل التي قصدناها ودخلت امواج البحر معنا في المركب واشتد الميد بالناس ولم نزل في اهوال حتى خرجنا فى مرسى يعرف برأس دوائر فيما بين عيذاب وسواكن فنزلنا به ووجدنا بساحله عربش قصب على هيئة مسجد وفيه كثير من قشور بيض النعام مملوءة ماء فشربنا منه وطبخنا ورأيت بذلك المرسي عجبا وهو خور مثل الوادي يخرج من البحر فكان الناس ياخذون الثوب ويمسكون باطرافه ويخرجون به وقد امتلأ سمكا كل سمكة منها قدر الذراع ويعرفونه بالبوري فطبخ منه الناس كثيرا واشتروا وقصدت البناطئة من البجاة وهم سكان تلك الارض سود الالوان لباسهم الملاحف الصفر ويشدون على رؤسهم عصائب

حمرا فى عرض الاصبع وهم أهل نجدة وشجاعة وسلاحهم الرماح والسيوف ولهم جمال يسمونها الصهب يركبونها بالسروج فاكترينا منهم الجمال وسافرنا معهم فى برية كثيرة الغزلان والبجاة لا يأكلونها فهى تانس بالآدمى ولا تنفر منه وبعد يومين من مسيرنا وصلنا الى حي من العرب يعرفون باولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم وفى ذلك اليوم وصلنا الى جزيرة سواكن وهي على نحو ستة أميال من البر ولا ماء بها ولا زرع ولا شجر والماء يجلب اليها فى القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر وهى جزيرة كبيرة وبها حوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزى عندهم كثير والالبان والسمن ومنها يجلب الى مكة وحبوبهم الجرجور وهو نوع من الذرة كبير الحب يجلب منها أيضا الى مكة

— ذكر سلطانها —

وكان سلطان جزيرة سواكن حين وصولى اليها الشريف زيد بن أبى نمى وابوه أمير مكة وأخواه أميراها بعده وهما عطيفة ورميثة اللذان تقدم ذكرهما وصارت اليه من قبل البجاة فانهم اخواله ومعه عسكر من البجاة وأولاده كاهل وعرب جهينة وركبنا البحر من جزيرة سواكن نريد أرض اليمن وهذا البحر لا يسافر فيه بالليل لكثرة أحجاره وانما يسافرون فيه من طلوع الشمس الى غروبها ويرسون وينزلون الى البر فاذا كان الصباح صعدوا الى المركب وهم يسمون رئيس المركب الربان ولا يزال أبدا فى مقدم المركب ينبه صاحب السكان على الاحجار وهم يسمونها النبات وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصلنا الى مدينة حلى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهمل وكسر اللام وتخفيفها) وتعرف باسم ابن يعقوب وكان من سلاطين اليمن ساكنا بها قديما وهي كبيرة حسنة العمارة يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانة وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين الى العبادة منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة لبدوله خلوة متصلة بالمسجد فرشها الرمل لا حصير بها ولا بساط ولم أر بها حين لقائى له شيا الا ابريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة وصحيفة فيها ملح وسعتر فاذا جاءه احد قدم بين يديه ذلك ويسمع به أصحابه فيأتي لكل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء واذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدى الشيخ الى صلاة المغرب واذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقفه للتنقل فلا يزالون كذلك الى صلاة العشاء الآخرة فاذا صلوا العشاء الآخرة اقاموا على الذكر الى ثلث الليل ثم انصرفوا ويعودون فى اول الثلث الثالث الى

Digitized by Birzeit University Library

المسجد فيتهجدون الى الصبح ثم يذكرون الى ان تحين صلاة الاشراق فينصرفون بعد صلاتها ومنهم من يقيم الى ان يصلي صلاة الضحى بالمسجد وهذا دأبهم ابدا ولقد كنت اردت الاقامة معهم باقي عمري فلم اوفق لذلك والله تعالى يتدارکنا بلطفه وتوفيقه

— ذكر سلطان حلي —

وسلطانها عامر بن ذؤيب من بني كنانة وهو من الفضلاء الادباء الشعراء صحبته من مكة الى جدة وكان قد حج في سنة ثلاثين ولما قدمت مدينته أنزلني وأكرمني وأقمت في ضيافته أياما وركبت البحر في مركب له فوصلت الى بلدة السرجة (وضبط اسمها بفتح السين المهمل واسكان الراء وفتح الجيم) لمدة صغيرة يسكنها جماعة من أولاد الهبي وهم طائفة من تجار اليمن أكثرهم ساكنون بصعداء ولهم فضل وكرم واطعام لابناء السبيل ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم ويزودونهم من أموالهم وقد عرفوا بذلك واشتهروا به وكثر الله أموالهم وزادهم من فضله وأعانهم على فعل الخير وليس بالارض من يعاملهم في ذلك الا الشيخ بدر الدين النقاش الساكن ببلدة القحمة فله مثل ذلك من المآثر والايثار وأقمنا بالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكورين ثم رحلنا الى مرسى الحادث ولم ننزل به ثم الى مرسى الابواب ثم الى مدينة زبيد مدينة عظيمة باليمن بينها وبين صنعاء أربعون فرسخا وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلها واسعة البساتين كثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره وهي بريئة لاشطية احدى قواعد بلاد اليمن (وهي بفتح الزاي وكسر الباء الموحدة) مدينة كبيرة كثيرة العمارة بها النخل والبساتين والمياه أملح بلاد اليمن وأجملها ولا هلها لطافة الشمائل وحسن الاخلاق وجمال الصور او لنسائها الحسن الفائق الفائت وهي وادي الخصيب الذي يذكر في بعض الآثار ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ في وصيته يا معاذ اذا جئت وادي الخصيب فهرول ولا هل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة وذلك انهم يخرجون في أيام البسر والرطب في كل سبته الى حدائق النخل ولا يبقى بالمدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء ويخرج أهل الطرب وأهل الاسواق لبيع الفواكه والحلاوات وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل ولهن مع ماذكرناه من الجمال الفائت الاخلاق الحسنة والمكارم وللغريب عندهم مزية ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا فاذا أراد السفر خرجت معه وودعته وان كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له الى ان يرجع أبوه ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها واذا كان مقيما فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة لكنهن

لا يخرجن عن بلدهن أبدا ولو أعطيت احداهن ماعسى ان تعطاه على أن تخرج من بلدها لم تفعل وعلماء تلك البلاد وفقهاؤها أهل صلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني والفقيه الصوفى المحقق أبا العباس الابيانى والفقيه المحدث أبا على الزبيدي ونزلت فى جوارهم فأكرموني وأضافونى ودخلت حدائقهم واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضى العالم أبى زيد عبد الرحمن الصوفى أحد فضلاء اليمن ووقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات

— كرامة —

ذكروا ان فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة الى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل فجلس لهم خارج الزاوية واستقبلهم أصحابه ولم يبرح الشيخ عن موضعه فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر وكانوا يقولون ان لا قدر وان المكلف يخلق أفعاله فقال لهم الشيخ فان كان الامر على ماتقولون فقوموا عن مكانكم هذا فأرادوا القيام فلم يستطيعوا وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية وأقاموا كذلك واشتد بهم الحر ولحقهم وهج الشمس وضجوا مما نزل بهم فدخل أصحاب الشيخ اليه وقالوا له ان هؤلاء القوم قد تابوا الى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد فخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم وعاهدهم على الرجوع الى الحق وترك مذهبهم السيء وأدخلهم زاويته فأقاموا فى ضيافته ثلاثا وانصرفوا الى بلادهم وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد ولقيت ولده الصالح أبا الوليد اسماعيل فأضافني وبت عنده وزرت ضريح الشيخ وأقمت معه ثلاثا وسافرت فى صحبته الى زيارة الفقيه أبى الحسن الزيلعي وهو من كبار الصالحين ويقدم حجاج اليمن اذا توجهوا للحج وأهل تلك البلاد وأعرابها يعظمونه ويحترمونه فوصلنا الى جبلة وهى بلدة صغيرة حسنة ذات نخل وفواكه وأنهار فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبى الوليد استقبله وأنزله بزاويته وسلمت عليه معه وأقمنا عنده ثلاثة ايام فى خير مقام ثم انصرفنا وبعث معنا أحد الفقراء فتوجهنا الى مدينة تعز حضرة ملك اليمن (وضبط اسمها بفتح التاء المعلوة وكسر العين المهملة وزاء) وهى من أحسن مدن اليمن وأعظمها وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة وكذلك الغالب على البلاد التى يسكنها الملوك وهى ثلاث محلات احداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره والثانية يسكنها الامراء والاجناد وتسمى عدينة والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى وتسمى المحالب

Digitized by Birzeit University Library

— ذكر سلطان اليمن —

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي ابن السلطان المؤيد هزبر الدين داود ابن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول شهر جده برسول لان أحد خلفاء بني العباس أرسله الى اليمن ليكون بها أميرا ثم استقل أولاده بالملك وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبتي قصدني الى قاضي القضاة الامام المحدث صفي الدين الطبري المكي فسلمنا عليه ورحب بنا وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثا فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس دخل بي عليه فسلمت عليه وكيفية السلام عليه ان يمس الانسان الارض بسبابته ثم يرفعها الى رأسه ويقول أدام الله عزك ففعلت كمثل ما فعله القاضي وقعد القاضي عن يمين الملك وأمرني فقعدت بين يديه فسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الاجوادابي سعيد رضي الله عنه وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور فأجبته عما سأل من أحوالهم وكان وزيره بين يديه فأمره باكرامي وانزالي وترتيب قعودهذا الملك انه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير وعن يمينه ويساره أهل السلاح ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق ويليهم أصحاب القسي وبين أيديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وارباب الدولة وكاتب السر وأمير جندار على رأسه والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد فاذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة بسم الله فاذا قام فعلوا مثل ذلك فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده فاذا استوى قاعدا دخل كل من عادته أن يسلم عليه فسلم ووقف حيث رسم له في الميمنة أو الميسرة لا يتعدى أحد وضعه ولا يقعد الا من أمر بالقعود ويقول السلطان للامير جندار مرفلانا يقعد فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلا ويقعد على بساط هناك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة ثم يؤتى بالطعام وهو طعامان طعام العامة وطعام الخاصة فأما الطعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشائخ والامراء ووجوه الاجناد ومجلس كل انسان للطعام معين لا يتعداه ولا يزاحم أحد منهم احدا وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه فلا علم ان سلاطين الهند اخذوا ذلك عن سلاطين اليمن أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند وأقمت في ضيافة سلطان اليمن أياما وأحسن الي وأركبني وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء وهي قاعدة بلاد اليمن الاولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص كثيرة الاشجار والفواكه والزرع معتدلة

الهواء طيبة الماء ومن الغريب ان المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل فى أيام القيظ وأكثر مايكون نزوله بعد الظهر من كل يوم فى ذلك الاوان فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لان أمطارها وابلة متدفقة ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها وجامع صنعاء من أحسن الجوامع وفيه قبر نبي من الانبياء عليهم السلام ثم سافرت منها الى مدينة عدن مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الاعظم والجبال تحف بها ولا مدخل اليها الا من جانب واحد وهي مدينة كبيرة ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر والماء على بعد منها فر بما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب وهي شديدة الحر وهى مرسى اهل الهند تاتي اليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندرايته والشاليات ومنجرور وفاكنور وهنور وسندابور وعيرها وتجار الهند سا كنون بها وتجار مصر أيضا وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك وللتجار منهم اموال عريضة وربما يكون لاحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الاموال ولهم فى ذلك تفاخر ومباهاة

﴿ حكاية ﴾ ذكر على أن بعضهم بعث غلاما له ليشترى له كبشا وبعث آخر منهم غلاما له بدرهم ذلك أيضا فاتفق أنه لم يكن بالسوق فى ذلك اليوم الا كبش واحد فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين فانهى ممنه الى أربعائة دينار فاخذه أحدهما وقال ان رأس مالي أربعائة دينار فان أعطاني مولاى ثمنه خمسن والا دفعت فيه رأس مالى ونصرت نفسى وغلبت صاحبي وذهب بالكبش الى سيده فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار وعاد الآخر الى سيده خائبا فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه ونزلت فى عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفارسى فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار وله غلمان وخدام أكثر من ذلك ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق يحسنون الى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندى وكان والده من العبيد الحمالين واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد وهو من خيار القضاة وفضلائهم أقمت فى ضيافته أياما وسافرت من مدينة عدن فى البحر أربعة أيام ووصلت الى مدينة زيلع وهى مدينة البربرة وهم طائفة من السودان شافعية المذهب وبلادهم صحراء مسيرة شهرين أو لها زيلع وآخرها مقدشو ومواشيهم الجمال ولهم أغنام مشهورة السمن وأهل زيلع سود الالوان وأكثرهم رافضة وهى مدينة

كبيرة لها سوق عظيمة الا أنها أقذر مدينة في المعمور واوحشها واكثرها تقنا وسبب تقنها كثرة سمكها ودماء الابل التي ينحرونها في الازقة ولما وصلنا اليها اخترنا المبيت بالبحر على شدة هوله ولم نبت بها لقذرها ثم سافرنا منها في البحر خمس عشرة ليلة ووصلنا مقدشو وضبط اسمها بفتح الميم واسكان القاف وفتح الدال المهمل والشين المعجم واسكان الواو) وهي مدينة متناهية في الكبر وأهلها هم جمال كثيرة ينحرون منها المئين في كل يوم ولهم اغنام كثيرة واهلها تجار اقوياء وبها تصنع الثياب المنسوبة اليها التي لا نظير لها ومنها تحمل الى ديار مصر وغيرها ومن عادة اهل هذه المدينة انه متى وصل مركب الى المرسى تصعد الصنابق وهي القوارب الصغار اليه ويكون في كل صنبوق جماعة من شبان اهلها فيأتي كل واحد منهم بطبق مغطى فيه الطعام فيقدمه لتاجر من تجار المركب ويقول هذا نزلي وكذلك يفعل كل واحد منهم ولا ينزل التاجر من المركب الا الى دار نزيله من هؤلاء الشبان الامن كان كثير التردد الى البلد وحصلت له معرفة اهله فانه ينزل حيث شاء فاذا نزل عند نزيله باع له ما عنده واشترى له ومن اشترى منه بيخس او باع منه بغير حضور نزيله فذلك البيع مردود عندهم ولهم منفعة في ذلك ولما صعد الشبان الى المركب الذي كنت فيه جاء الى بعضهم فقال له اصحابي ليس هذا بتاجر وانما هو فقيه فصاح باصحابه وقال لهم هذا نزيل القاضي وكان فيها أحد اصحاب القاضي فعرفه بذلك فاتى الى ساحل البحر في جملة من الطلبة وبعث الى احدهم فنزلت انا واصحابي وسلمت على القاضي واصحابه وقال لي بسم الله نتوجه للسلام على الشيخ فقلت ومن الشيخ فقال السلطان وعادتهم ان يقولوا للسلطان الشيخ فقلت له اذا نزلت توجهت اليه فقال لي ان العادة اذا جاء الفقيه او الشريف او الرجل الصالح لا ينزل حتى يرى السلطان فذهبت معهم اليه كما طلبو

— ذكر سلطان مقدشو —

وسلطان مقدشو كما ذكرناه انما يقولون له الشيخ واسمه ابو بكر ابن الشيخ عمر وهو في الاصل من البربرة وكلامه بالمقدشي ويعرف اللسان العربي ومن عوائده انه متى وصل مركب يصعد اليه صنبوق السلطان فيسال عن المركب من اين قدم ومن صاحبه ومن ربانه وهو الرئيس وما وسقه ومن قدم فيه من التجار وغيرهم فيعرف بذلك كله ويعرض على السلطان فمن استحق ان ينزله عنده انزله ولما وصلت مع القاضي المذكور وهو يعرف بابن البرهان المصري الاصل الى دار السلطان خرج بعض الفتيان فسلم على القاضي فقال له بلغ الامانة وعرف مولانا الشيخ ان هذا الرجل قد وصل من أرض الحجاز فبلغ ثم عاد

وأتى بطبق فيه أوراق التنبول والفوفل فاعطاني عشرة أوراق مع قليل من الفوفل وأعطى للقاضي كذلك وأعطي لاصحابي ولطلبة القاضي ما بقي في الطبق وجاء بقمقم من ماء الورد الدمشقي فسكب على وعلى القاضي وقال ان مولانا أمر أن ينزل بدار الطلبة وهي دار معدة لضيافة الطلبة فاخذ القاضي بيدي وجئنا الى تلك الدار وهي بمقربة من دار الشيخ مفروشة مرتبة بما تحتاج اليه ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه وهو الموكل بالضيوف فقال مولانا يسلم عليكم ويقول لكم قدمتم خير مقدم ثم وضع الطعام فاكلنا وطعامهم الارز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان وهو الادام من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن الحليب ويجعلونه في صحفة ويجعلون اللبن المريب في صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والملوح والزنجبيل الاخضر والعنبا وهي مثل التفاح ولكن لها نواة وهي اذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها في الخل وهم اذا أكلوا لقمة من الارز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تاكله الجماعة منا عادتهم وهم في نهاية من ضخامة الجسوم وسمنها ثم لما طعمنا انصرف عنا القاضي وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى الينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم وتلك عادتهم فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة جاء في القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة وكسوتهم فوطة خز يشدها الانسان في وسطه عوض السراويل فانهم لا يعرفونها ودراعة من المقطع المصري معلمة وفرجية من القدسي مبطنة وعمامة مصرية معلمة وأتوا لاصحابي بكسى تناسبهم وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة فلما خرج الشيخ من باب المقصورة سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانهم مع القاضي ثم قال باللسان العربي قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا وخرج الى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هناك فقرا ودعا ثم جاء الوزراء والامراء ووجوه الاجناد فسلموا وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن يضع سبابته في الارض ثم يجعلها على رأسه ويقول أدام الله عزك ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل وأمرني أن أنتعل وتوجه الى منزله ماشيا وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب وكان لباسه في ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان وهو متقلد بفوطة حرير

Digitized by Birzeit University Library

وهو معتم بعمامة كبيرة وضربت بين يديه الطبول والأبواق والانفار وامراء الاجناد امامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ودخل الى مشوره علي تلك الهيئة وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد في سقيفة هنالك وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ولم يزالوا كذلك الى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتي جميع الأجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم ثم ضربت الأطبال والأبواق والصرنايات وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح عن مقامه ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك الى خلف ولا الى امام فاذا فرغ من ضرب الطبلخانة سلموا باصابعهم كما ذكرناه وانصرفوا وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة واذا كان يوم السبت يأتي الناس الى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج الى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث الى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه وسائرهم يسلمون وينصرفون ثم يدخل الشرفاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون وان كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ثم يدخل الوزراء ثم الامراء ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام فياكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وان أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث اليه فاكل معهم ويأكل سائر الناس بدار الطعام وأكلهم علي ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ الى داره ويقعد القاضي والوزراء وكاتب السر وأربعة من كبار الامراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والأمراء وما كان مفتقرا الى مشاورة السلطان كتبوا اليه فيه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم دائما ثم ركبت البحر من مدينة مقدشو متوجها الى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا من بلاد الزنوج فوصلنا الى جزيرة منبسى (وضبط اسمها مفتوح ونون مسكن وباء موحدة مفتوحة وسين مهمل مفتوح وياء) وهي جزيرة كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ولا بر لها وأشجارها الموز والليمون والأترج ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهي شبه

Digitized by Birzeit University Library

الزيتون ولها نوى كنواه الا انها شديدة الحلاوة ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة وانما يجلب اليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح ومساجدهم من الخشب محكمة الاتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيستقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق فى طول الزراع والارض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه من أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه ويتوضا وجميع الناس يمشون حفاة الاقدام وبتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر الى مدينة كلوا (وضبط اسمها بضم الكاف واسكان اللام وفتح الواو) وهى مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات فى وجوههم كما هي فى وجوه اليمنيين من جنادة وذكر لى بعض التجار أن مدينة سفالة على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا وان بين سفالة ويوفى من بلاد اليمنيين مسيرة شهر ومن يوفى يؤتي بالتبر الى سفالة ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها بالخشب وسقف بيوتها الديس والامطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لانهم فى بر واحد متصل مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح وهم شافعية المذهب

— ذكر سلطان كلوا —

وكان سلطانها فى عهد دخولى اليها ابو المظفر حسن ويكنى أيضاً أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه وكان كثير الغزو الى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم فيخرج خمسها ويصرفه فى مصارفه المعينة فى كتاب الله تعالى ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة فاذا جاءه الشرفاء دفعه اليهم وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيدة بن أبي نمي ومحمد بن شميلة بن أبي نمي ولقيت بمقد شواتيل بن كبيش بن جماز وهو يريد القدوم عليه وهذا السلطان له تواضع شديد ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم ويعظم أهل الدين والشرف

— حكاية من مكارمه —

حضرته يوم جمعة وقد خرج من الصلاة قاصداً الى داره فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له يا أبا المواهب فقال لبيك يا فقير ما حاجتك قال أعطني هذه الثياب التي عليك فقال له نعم أعطيكها قال الساعة قال نعم الساعة فرجع الى المسجد ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها وخلع تلك الثياب وقال للفقير ادخل فخذها فدخل الفقير وأخذها وربطها

Digitized by Birzeit University Library

فى منديل وجعلها فوق رأسه وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ماظهر من تواضعه وكرمه وأخذا بنه ولى عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنها بعشرة من العبيد وبلغ السلطان ماكان من شكر الناس له على ذلك فامر أيضا بعشرة رؤس من الرقيق وحملين من العاج ومعظم عطاياهم العاج وقلما يعطون الذهب ولما توفى هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ولى أخوه داود فكان على الضد من ذلك اذا أتاه سائل يقول له مات الذى كان يعطي ولم يترك من بعده مايعطى ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه وركبنا البحر من كلوا الى مدينة ظفار الحموض (وضبط اسمها بفتح الظاء المعجم والفاء وآخره راء مبنية على الكسر) وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي ومنها تحمل الخيل العتاق الى الهند ويقطع البحر فيما بينها وبين بلاد الهند مع مساعدة الريح فى شهر كامل قد قطعته مرة من القلوط من بلاد الهند الى ظفار في ثمانية وعشرين يوما بالريح الطيبة لم ينقطع لناجرى بالليل ولا بالنها وبين ظفار وعدن فى البر مسيرة شهر فى صحراء وبينها وبين حضرموت ستة عشر يوما وبينها وبين عمان عشرون يوما ومدينة ظفار فى صحراء منقطة لاقرية بها ولا عمارة لها والسوق خارج المدينة بربض يعرف بالحرجاء وهى من أقذر الاسواق وأشدها نتنا وأكثرها ذبابا بالكثرة مايباع بها من الثمرات والسمك وأكثر سمكها النوع المعروف بالسردين وهو بها فى النهاية من السمن ومن العجائب ان دوابهم انما علفها من هذا السردين وكذلك غنمهم ولم أر ذلك فى سواها وأكثر باعتها الخدم وهن يلبسن السواد وزرع أهلها الذرة وهم يسقونها من آبار بعيدة الماء وكيفية سقيهم انهم يصنعون دلوا كبيرة ويجعلون لها حبالا كثيرة ويتحزم بكل حبل عبد أو خادم ويجرون الدلو على عود كبير مرتفع عن البئر ويصبونها فى صهريج يسقون منه ولهم قمح يسمونه العلس وهو فى الحقيقة نوع من السلت والارز يجلب اليهم من بلاد الهند وهو أكثر طعامهم ودراهم هذه المدينة من النحاس والقصدير ولا تنفق فى سواها وهم أهل تجارة لا عيش لهم الا منها ومن عادتهم انه اذا وصل مركب من بلاد الهند أو غيرها خرج عبيد السلطان الى الساحل وصعدوا فى صنبوق الى المركب ومعهم الكسوة الكاملة لصاحب المركب أو وكيله وللربان وهو الرئيس وللكرانى وهو كاتب المركب ويؤتى اليهم بثلاثة أفراس فيركبونها وتضرب امامهم الاطبال والابواق من ساحل البحر الى دار السلطان فيسلمون على الوزير وأمير جندار وتبعث الضيافة لكل من بالمركب ثلاثا وبعد الثلاث يأكلون بدار

Digitized by Birzeit University Library

السلطان وهم يفعلون ذلك استجلابا لاصحاب المراكب وهم أهل تواضع وحسن أخلاق وفضيلة ومحبة للغرباء ولباسهم القطن وهو يجلب اليهم من بلاد الهند ويشدون الفوط في أوساطهم عوض السروال وأكثرهم يشد فوطة في وسطه ويجعل فوق ظهره أخرى من شدة الحر ويغتسلون مرات في اليوم وهي كثيرة المساجد ولهم في كل مسجد مطاهر كثيرة معدة للاغتسال ويصنع بها ثياب من الحرير والقطن والكتان حسان جدا والغالب على أهلها رجالا ونساء المرض المعروف بداء الفيل وهو انتفاخ القدمين وأكثر رجالهم مبتلون بالادرة والعياذ بالله ومن عوايدهم الحسنة التصافح في المسجد أثر صلاة الصبح والعصر يستند أهل الصف الاول الى القبلة ويصافحهم الذين يلونهم وكذلك يفعلون بعد صلاة الجمعة يتصافحون أجمعون ومن خواص هذه المدينة ومجائبها انه لا يقصدها أحد بسوء الا عاد عليه مكروه وحيل بينه وبينها وذكر لي أن السلطان قطب الدين تمر تن بن طوران شاه صاحب هرمز نازلها مرة في البر والبحر فارسل الله سبحانه عليه ريحا عاصفا كسرت مراكبه ورجع عن حصارها وصالح ملكها وكذلك ذكر لي ان الملك المجاهد سلطان اليمن عين ابن عم له بعسكر كبير برسم انتزاعها من يد ملكها وهو أيضا ابن عمه فلما خرج ذلك الامير عن داره سقط عليه حائط وعلى جماعة من أصحابه فهلكوا جميعا ورجع الملك عن رأيه وترك حصارها وطلبها ومن الغرائب ان أهل هذه المدينة أشبه الناس بأهل المغرب في شؤونهم نزلت بدار الخطيب بمسجدها الاعظم وهو عيسى ابن علي كبير القدر كريم النفس فكان له جوار مسميات باسماء خدم المغرب احداهن اسمها بخيته والاخرى زاد المال ولم أسمع هذه الاسماء في بلد سواها وأكثر أهلها رؤسهم مكشوفة لا يجعلون عليها العمائم وفي كل دار من دورهم سجادة الخوص معلقة في البيت يصلي عليها صاحب البيت كما يفعل أهل المغرب وأكلهم الذرة وهذا التشابه كله مما يقوى القول بان صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب أصلهم من حمير ويقرب من هذه المدينة بين بساتينها زاوية الشيخ الصالح العابد أبي محمد بن أبي بكر بن عيسى من أهل ظفار وهذه الزاوية معظمة عندهم يأتون اليها غدوا وعشيا ويستجيرون بها فاذا دخلها المستجير لم يقدر السلطان عليه رأيت بها شخصا ذكر لي ان له بها مدة سنين مستجيرا لم يتعرض له السلطان وفي الايام التي كنت بها استجار بها كاتب السلطان وأقام فيها حتى وقع بينهما الصلح أتيت هذه الزاوية فبت بها في ضيافة الشيخ بن أبي العباس أحمد وأبي عبد الله محمد ابني الشيخ أبي بكر المذكور وشاهدت لهما فضلا عظيما ولما غسلنا أيدينا من الطعام

أخذ أبو العباس منهما ذلك الماء الذي غسلنا به فشرب منه وبعث الخادم بباقيه الى أهله وأولاده فشربوه وكذلك يفعلون بمن يتوسمون فيه الخير من الواردين عليهم وكذلك أضافني قاضيها الصالح أبو هاشم عبد الملك الزبيدي وكان يتولى خدمتي وغسل يدي بنفسه ولا يكل ذلك الى غيره وبمقربة من هذه الزاوية تربة سلف السلطان الملك المغيث وهي معظمة عندهم ويستجير بها من طلب حاجة فتقضي له ومن عادة الجند انه اذا تم الشهر ولم يأخذوا أرزاقهم استجاروا بهذه التربة وأقاموا في جوارها الى ان يعطوا أرزاقهم وعلى مسيرة نصف يوم من هذه المدينة الاحقاف وهي منازل عاد وهنالك زاوية ومسجد على ساحل البحر وحوله قرية لصيادي السمك وفي الزاوية قبر مكتوب عليه هذا قبر هود بن عابر عليه أفضل الصلاة والسلام وقد ذكرت ان بمسجد دمشق موضعا عليه مكتوب هذا قبر هود بن عابر والاشبه أن يكون قبره بالاحقاف لانها بلاده والله أعلم ولهذه المدينة بساتين فيها موز كثير كبير الجرم وزنت بمحضري حبة منه فكان وزنها اثنتي عشرة أوقية وهو طيب المطعم شديد الحلاوة وبها أيضا التنبول والنارجيل المعروف بجوز الهند ولا يكونان الا ببلاد الهند وبمدينة ظفار هذه شبيهها بالهند وقر بها منها اللهم الا أن في مدينة زبيد في بستان السلطان شجيرات من النارجيل واذ قد وقع ذكر التنبول والنارجيل فلنذكرهما ولنذكر خصائصهما

— ذكر التنبول —

والتنبول شجر يغرس كما تغرس دوالي العنب ويصنع له معرشات من القصب كما يصنع للدوالي العنب أو يغرس في مجاورة شجر النارجيل فيصعد فيها كما تصعد الدوالي وكما يصعد الفلفل ولا ثمر للتنبول وانما المقصود منه ورقه وهو يشبه ورق العليق وأطيبه الأصفر وتجتنى أوراقه في كل يوم وأهل الهند يعظمون التنبول تعظيما شديداً واذا أتى الرجل دار صاحبه فأعطاه خمس ورقات منه فكأنما أعطاه الدنيا وما فيها لا سيما ان كان أميراً أو كبيراً واعطاؤه عندهم أعظم شأناً وأدل على الكرامة من اعطاء الفضة والذهب وكيفية استعماله أن يؤخذ قبله الفوفل وهو شبه جوز الطيب فيكسر حتى يصير أطرافا صغاراً ويجعله الانسان في فمه ويعلكه ثم يأخذ ورق التنبول فيجعل عليها شيئاً من النورة ويمضغها مع الفوفل وخاصيته انه يطيب النكهة ويذهب بروائح الفم ويهضم الطعام ويقطع ضرر شرب الماء على الريق ويفرخ أكله ويعين على الجماع ويجعله الانسان عند رأسه ليلا فاذا استيقظ من نومه أو أيقظته زوجته أو جاريته أخذ منه فيذهب بما في فمه من رائحة كريهة ولقد

ذكر لي ان جواري السلطان والامراء ببلاد الهند لا يأكلن غيره وسنذكره عند ذكر بلاد الهند

— ذكر النارجيل —

وهو جوز الهند وهذا الشجر من أغرب الاشجار شانا وأعجبها أمرا وشجره شبه شجر النخل لا فرق بينهما الا أن هذه تثمر جوزاً وتلك تثمر تمرا وجوزها يشبه رأس ابن آدم لان فيها شبه العينين والفم وداخلها شبه الدماغ اذا كانت خضراء وعليها ليف شبه الشعر وهم يصنعون به حبالا يخيطون بها المراكب عوضاً من مسامير الحديد ويصنعون منه الحبال للمراكب والجوزة منها وخصوصا التي بجزائر ذيبة المهل تكون بمقدار رأس الآدمي ويزعمون ان حكيما من حكماء الهند في غابر الزمان كان متصلا بملك من الملوك ومعظما لديه وكان للملك وزير بينه وبين هذا الحكيم معاداة فقال الحكيم للملك ان رأس هذا الوزير اذا قطع ودفن تخرج منه نخلة تثمر بثمر عظيم يعود نفعه على أهل الهند وسواهم من أهل الدنيا فقال له الملك فان لم يظهر من رأس الوزير ماذكرته قال ان لم يظهر فاصنع برأسي كما صنعت برأسه فأمر الملك برأس الوزير فقطع وأخذه الحكيم وغرس نواة تمر في دماغه وعالجها حتى صارت شجرة وأثمرة بهذا الجوز وهذه الحكاية من الاكاذيب ولكن ذكرناها لشهرتها عندهم ومن خواص هذا الجوز تقوية البدن واسراع السمن والزيادة في حمرة الوجه واما الاعانة على الباءة ففعله فيها عجيب ومن عجائبه انه يكون في ابتداء أمره أخضر فمن قطع بالسكين قطعة من قشره وفتح رأس الجوزة شرب منها ماء في النهاية من الحلاوة والبرودة ومزاجه حار معين على الباءة فاذا شرب ذلك الماء أخذ قطعة القشرة وجعلها شبه الملعقة وجرد بها ما في داخل الجوزة من الطعم فيكون طعمه كطعم البيضة اذا شويت ولم يتم نضجها كل التمام ويتغذى به ومنه كان غذائي أيام اقامتي بجزائر ذيبة المهل مدة من عام ونصف عام وعجائبه انه يصنع منه الزيت والحليب والعسل فأما كيفية صناعة العسل منه فان خدام النخل منه ويسمون الفازانية يصعدون الى النخلة غدوا وعشيا اذا أرادوا أخذ مائها الذي يصنعون منه العسل وهم يسمونه الاطواق فيقطعون العذق الذي يخرج منه الثمر ويتركون منه مقدار أصبعين ويربطون عليه قدرا صغيرة فيقطر فيها الماء الذي يسيل من العذق فاذا رأى بطها غدوة صعد اليها عشيا ومعه قدحان من قشر الجوز المذكور أحدهما مملوء ماء فيصب ما اجتمع من ماء العذق في أحد القدحين ويغسله بالماء الذي في القدح الآخر وينجر من العذق قليلا ويربط عليه القدر ثانية ثم يفعل غدوة كفعله عشيا فاذا اجتمع له الكثير من ذلك الماء طبخه كما يطبخ

ماء العنب اذا صنع منه الرب فيصير عسلا عظيم النفع طيبا فيشتريه تجار الهند واليمن والصين ويحملونه الى بلادهم ويصنعون منه الحلواء وأما كيفية صنع الحليب منه فان بكل دار شبه الكرسي تجلس فوقه المرأة ويكون بيدها عصى في أحد طرفيها حديدة مشرفة فيفتحون في الجوزة مقدار ما تدخل تلك الحديدة ويحركون مافي باطن الجوزة وكل ما ينزل منها يجتمع في صحفة حتى لا يبقى في داخل الجوزة شيء ثم يمرس ذلك الجريش بالماء فيصير كلون الحليب بياضا ويكون طعمه كطعم الحليب ويأتدم به الناس وأما كيفية صنع الزيت فانهم يأخذون الجوز بعد نضجه وسقوطه عن شجره فيزيلون قشره وقطعونه قطعا ويجعل في الشمس فاذا ذبل طبخوه في القدور واستخرجوا زيته وبه يستصبحون ويأتدمون به ويجعله النساء في شعورهن وهو عظيم النفع

— ذكر سلطان ظفار —

وهو السلطان الملك المغيث بن الملك الفائز بن عم ملك اليمن وكان أبوه أميراً على ظفار من قبل صاحب اليمن وله عليه هدية يبعثها له في كل سنة ثم استبد الملك المغيث بملكها وامتنع من ارسال الهدية وكان من عزم ملك اليمن على محاربته وتعيين ابن عمه لذلك ووقوع الحائط عليه ماذكرناه آنفا وللسلطان قصر بداخل المدينة يسمى الحصن عظيم فسيح والجامع بازائه ومن عادته ان تضرب الطبول والبوقات والانفار والصرنايات على بابه كل يوم بعد صلاة العصر وفي كل يوم اثنين وخميس تأتي العساكر الى بابه فيقفون خارج المشور ساعة وينصرفون والسلطان لا يخرج ولا يراه أحد الا في يوم الجمعة فيخرج للصلاة ثم يعود الى داره ولا يمنع أحدا من دخول المشور وأمير جندار قاعد على بابه واليه ينتهي كل صاحب حاجة أو شكاية وهو يطالع السلطان ويأتيه الجواب للحين واذا أراد السلطان الركوب خرجت مراكبه من القصر وسلاحه ومما يليه الى خارج المدينة وأتى بجمل عليه محمل مستور بستر أبيض منقوش بالذهب فيركب السلطان ونديمه في المحمل بحيث لا يرى واذا خرج الى بستانه وأحب ركوب الفرس ركبه ونزل عن الجمل وعادته أن لا يعارضه أحد في طريقه ولا يقف لرؤيته ولا لشكاية ولا لغيرها ومن تعرض لذلك ضرب أشد الضرب فتجد الناس اذا سمعوا بخروج السلطان فروا عن الطريق وتحاموها ووزيره ذا السلطان الفقيه محمد العدني وكان معلم صبيان فعلم هذا السلطان القراءة والكتابة وعاهده على ان يستوزره ان ملك فلما ملك استوزره فلم يكن يحسنها فكان الاسم له والحكم لغيره ومن هذه المدينة ركبنا البحر نريد عمان في مركب صغير

لرجل يعرف بعلي بن ادريس المصيري من أهل جزيرة مصيرة وفي الثاني لركوبنا نزلنا بمرسى حاسك وبه ناس من العرب صيادون للسمك ساكنون هنالك وعندهم شجر الكندر وهو رقيق الورق واذا شرطت الورقة منه قطر منها ماء شبه اللبن ثم عاد صمغا وذلك الصمغ هو اللبان وهو كثير جدا هنالك ولا معيشة لاهل ذلك المرسى الا من صيد السمك وسمكهم يعرف باللخم (بخاء معجم مفتوح) وهو شبيه كلب البحر يشرح ويقدد ويقتات به وبيوتهم من عظام السمك وسقفها من جلود الجمال وسرنا من مرسى حاسك اربعة أيام ووصلنا الى جبل لمعان (بضم اللام) وهو في وسط البحر وباعلاه رابطة مبنية بالحجارة وسقفها من عظام السمك وبخارجها غدير ماء يجتمع من المطر

﴿ ذكر ولي لقيناه بهذا الجبل ﴾

ولما أرسينا تحت هذا الجبل صعدناه الى هذه الرابطة فوجدنا بها شيخا نائما فسلمنا عليه فاستيقظ وأشار برد السلام فكلمناه فلم يكلمنا وكان يحرك رأسه فاتاه أهل المركب بطعام فابى أن يقبله فطلبنا منه الدعاء فكان يحرك شفتيه ولا نعلم ما يقول وعليه مرقعة وقلنسوة ليد وليس معه ركوة ولا ابريق ولا عكاز ولا نعل وقال أهل المركب انهم ما رأوه قط بهذا الجبل وأقمنا تلك الليلة بساحل هذا الجبل وصلينا معه العصر والمغرب وجئناه بطعام فرده وأقام يصلي الى العشاء الآخرة ثم أذن وصليناها معه وكان حسن الصوت بالقراءة مجيدا لها ولما فرغ من صلاة العشاء الآخرة أوما الينا بالانصراف فودعناه وانصرفنا ونحن نعجب من أمره ثم اني اردت الرجوع اليه لما انصرفنا فلما دنوت منه هبته وغلب على الخوف ورجعت الى أصحابي وانصرفت معهم وركبنا البحر ووصلنا بعد يومين الى جزيرة الطير وليست بها عمارة فارسينا وصعدنا اليها فوجدناها ملآنة بطيور تشبه الشقاشق الا انها أعظم منها وجاءت الناس ببيض تلك الطيور فطبخوها وأكلوها واصطادوا جملة من تلك الطيور فطبخوها دون ذكاة وأكلوها وكان يجالسني تاجر من أهل جزيرة مصيرة ساكن بظفار اسمه مسلم فرأيته ياكل معهم تلك الطيور فانكرت ذلك عليه فاشتد خجله وقال لي ظننت انهم ذبحوها وانقطع عني بعد ذلك من الخجل فكان لا يقربني حتى ادعوبه وكان طعامي في تلك الايام بذلك المركب التمر والسمك وكانوا يصطادون بالغدو والعشي سمكا يسمى بالفارسية شير ماهي ومعناه أسد السمك لان شير هو الاسد وماهي السمك وهو يشبه الحوت المسمي عندنا بتازرت وهم يقطعونه قطعا ويشوونه ويعطون كل من في المركب قطعة لا يفضلون أحدا على احد ولا

Digitized by Birzeit University Library

صاحب المركب ولا سواه ويأكلونه بالتمر وكان عندي خبز وكعك استصحبتهما من ظفار فلما نفذا كنت أقتات من تلك السمك في جملتهم وعيدنا عيد الاضحي على ظهر البحر وهبت علينا في يومه ريح عاصف بعد طلوع الفجر ودامت الى طلوع الشمس وكادت تغرقنا

﴿ كرامة ﴾

وكان معنا في المركب حاج من أهل الهند يسمي بخضر ويدعي بمولانا لانه يحفظ القرآن ويحسن الكتابة فلما رأى هول البحر لف رأسه بعباءة كانت له وتناوم فلما فرج الله ما نزل بنا قلت له يا مولانا خضر كيف رأيت قال قد كنت عند الهول أفتح عيني أنظر هل أري الملائكة الذين يقبضون الارواح جاؤا فلا أراهم فاقول الحمد لله لو كان الغرق لأتوا لقبض الارواح ثم أغلق عيني ثم أفتحها فانظر كذلك الى ان فرج الله عنا وكان قد تقدمنا مركب لبعض التجار فغرق ولم ينج منه الا رجل واحد خرج عوما بعد جهد شديد وأكلت في ذلك المركب نوعا من الطعام لم آكله قبله ولا بعده صنعه بعض تجار عمان وهو من الذرة طبخها من غير طحن وصب عليها السيلان وهو عسل التمر واكلناه ثم وصلنا الى جزيرة مصيرة التي منها صاحب المركب الذي كنا فيه وهي على لفظ مصير وزيادة تاء والتانيث جزيرة كبيرة لا عيش لاهلها الا من السمك ولم ننزل اليها لبعد مرساها عن الساحل وكنت قد كرهتهم لما رأيتهم يأكلون الطير من غير ذكاة وأقمنا بها يوما وتوجه صاحب المركب فيه الى داره وعاد الينا ثم سرنا يوما وليلة فوصلنا الى مرسى قرية كبيرة على ساحل البحر تعرف بصور ورأينا منها مدينة قلهاة في سفح جبل فخيل لنا انها قرية وكان وصولنا الى المرسي وقت الزوال أو قبله فلما ظهرت لنا المدينة أحببت المشي اليها والمبيت بها وكنت قد كرهت صحبة اهل المركب فسالت عن طريقها فاخبرت أني أصل اليها عند العصر فاكتريت أحد البحريين ليدلني على طريقها وصحبني خضر الهندي الذي تقدم ذكره وتركت اصحابي مع ما كان لي بالمركب ليلحقوا بي في غد ذلك اليوم وأخذت أثوابا كانت لي قد فعتها لذلك الدليل ليكفيني مؤنة حملها وحملت في يدي رمحا فاذا ذلك الدليل يحب ان يستولي على اثوابي فاتى بنا الى خليج يخرج من البحر فيه المد والجزر فاراد عبوره بالثياب فقلت له انما تعبر وحدك وتترك الثياب عندنا فان قدرنا على الجواز جزنا والا صعدنا نطلب المجاز فرجع ثم رأينا رجالا جازوه عوما فتحققنا انه كان قصده ان يغرقنا ويذهب بالثياب فحينئذ اظهرت النشاط وأخذت بالحزم وشددت وسطي وكنت أهز الرمح فهابني ذلك الدليل وصعدنا حتى وجدنا مجازا ثم خرجنا الى

صحراء لا ماء بها وعطشنا واشتد بنا الامر فبعث الله لنا فارسا في جماعة من أصحابه و بيد أحدهم كوة ماء فسقاني وسقى صاحبي وذهبنا نحسب المدينة قريبة منا و بيننا و بينها خنادق نمشي فيها الاميال الكثيرة فلما كان العشي أراد الدليل أن يميل بنا الى ناحية البحر وهو لا طريق له لان ساحله حجارة فاراد أن ننشب فيها و يذهب بالثياب فقلت له انا نمشي على هذه الطريق التي نحن عليها و بينها و بين البحر نحو ميل فلما أظلم الليل قال لنا ان المدينة قريبة منا فقلنا لو نمشي حتى نبيت بخارجها الى الصباح فخفت أن يتعرض لنا أحد في طريقنا ولم أحقق مقدار ما بقي اليها فقلت له انما الحق أن نخرج عن الطريق فننام فاذا أصبحنا اتينا المدينة ان شاء الله وكنت قد رأيت جملة من الرجال في سفح جبل هنالك فخفت أن يكونوا الصوصاً وقلت التستر أولى وغلب العطش على صاحبي فلم يوافق على ذلك فخرجت عن الطريق وقصدت شجرة من شجر أم غيلان وقد أعييت وأدركني الجهد لكني أظهرت قوة وتجلداً خوف الدليل وأما صاحبي فمريض لا قوة له فجعلت الدليل بيني و بين صاحبي وجعلت الثياب بين ثوبي وجسدي وأمسكت الرمح بيدي ورقد صاحبي ورقد الدليل و بقيت ساهرا فكلما تحرك الدليل كلمته وأريته اني مستيقظ ولم نزل كذلك حتى أصبح فخرجنا الى الطريق فوجدنا الناس ذاهبين بالمرافق الى المدينة فبعثت الدليل ليأتينا بماء وأخذ صاحبي الثياب وكان بيننا و بين المدينة مهاو وخنادق فاتانا بالماء فشربنا وذلك أوان الحر ثم وصلنا الى مدينة قلهات (وضبط اسمها بفتح القاف واسكان اللام وآخره تاء مثناة) فاتيناها ونحن في جهد عظيم وكنت قد ضاقت نعلي على رجلي حتى كاد الدم أن يخرج من تحت أظفارها فلما وصلنا باب المدينة كان ختام المشقة ان قال لنا الموكل بالباب لا بد لك أن تذهب معي الى أمير المدينة ليعرف قضيتك ومن أين قدمت فذهبت معه اليه فرأيته فاضلا حسن الاخلاق وسالني عن حالي وأنزلني وأقمت عنده ستة أيام لا قدرة لي فيها على النهوض على قدمي لما لحقها من الآلام ومدينة قلهات على الساحل وهي حسنة الاسواق ولها مسجد من أحسن المساجد حيطانه بالقشاني وهو شبه الزليج وهو مرتفع ينظر منه الى البحر والمرسى وهو من عمارة الصالحة بيبي مريم ومعنى بيبي عندهم الحرة وأكلت بهذه المدينة سمكا لم آكل مثله في إقليم من الاقاليم وكنت أفضله على جميع اللحوم فلا آكل سواه وهم يشوونه على ورق الشجر و يجعلونه على الارز و يأكلونه والارز يجلب اليهم من أرض الهند وهم أهل تجارة ومعيشتهم مما يأتي اليهم في البحر الهندي واذا وصل اليهم مركب فرحوا به أشد

الفرح وكلامهم ليس بالفصيح مع أنهم عرب وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلا تاكل لا تمشى لا تفعل كذا الا وأكثرهم خوارج لكنهم لا يقدرون على اظهار مذهبهم لانهم تحت طاعة السلطان قطب الدين تهتن ملك هرمز وهو من أهل السنة وبمقربة من قلهات قرية طيبي واسمها على نحو اسم الطيب اذا أضافه المتكلم لنفسه وهى من أجمل القرى وأبدعها حسنا ذات أنهار جارية وأشجارنا ضرة وبساتين كثيرة ومنها تجلب الفواكه الى قلهات وبها الموز المعروف بالمرواري والمرواري بالفارسية هو الجوهري (المروارالجوهر) وهو كثير بها ويجلب منها الى هرمز وسواها وبها أيضاً التنبول لكن ورقته صغيرة والتمر يجلب الى هذه الجهات من عمان ثم قصدنا بلاد عمان فسرنا ستة أيام فى صحراء ثم وصلنا بلاد عمان فى اليوم السابع وهي خصبة ذات انهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة مختلفة الاجناس ووصلنا الى قاعدة هذه البلاد وهي مدينة نزوا (وضبط اسمها بنون مفتوح وزاى مسكن وواو مفتوح) مدينة فى سفح جبل تحف بها البساتين والانهار ولها أسواق حسنة ومساجد معظمة نقية وعادة أهلها انهم يأكلون فى صحون المساجد يأتى كل انسان بما عنده ويجتمعون للاكل في صحن المسجد ويأكل معهم الوارد والصادر ولهم نجدة وشجاعة والحرب قائمة فيما بينهم ابداً وهم أباضية المذهب ويصلون الجمعة ظهرا أربعاً فاذا فرغوا منها قرأ الامام آيات من القرآن ونثر كلاما شبه الخطبة يرضى فيه عن ابى بكر وعمر ويسكت عن عثمان وعلى وهم اذا أرادوا ذكر على رضى الله عنه كنوا عنه فقالوا ذكر عن الرجل اوقال الرجل ويرضون عن الشقي اللعين ابن ملجم ويقولون فيه العبد الصالح قامع الفتنة ونساؤهم يكثرن الفساد ولا غيرة عندهم ولا انكار لذلك وسنذكر حكاية إثر هذا مما يشهد بذلك

— ذكر سلطان عمان —

وسلطانها عربى من قبيلة الازد بن الغوث ويعرف بابى محمد بن نبهان وأبو محمد عندهم سمة لكل سلطان بلى عمان كما هى اتابك عند ملوك اللور وعادته ان يجلس خارج باب داره فى مجلس هنالك ولا حاجب له ولا وزير ولا يمنع احدا من الدخول اليه من غريب أو غيره ويكرم الضيف على عادة العرب ويعين له الضيافة ويعطيه على قدره وله اخلاق حسنة ويؤكل على مائدته لحم الحمار الانسى ويباع بالسوق لانهم قائلون بتحليله ولكنهم يخفون ذلك عن الوارد عليهم ولا يظهرونه بمحضره ومن مدن عمان مدينة زكى لم أدخلها وهى على ماذكر لى مدينة عظيمة ومنها القريات وشبا وكلبا وخور فكان

وصحار وكلها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخل وأكثر هذه البلاد في عمالة هرمز

— حكاية —

كنت يوما عند هذا السلطان أبي محمد بن نبهان فاتته امرأة صغيرة السن حسنة الصورة بادية الوجه فوقفت بين يديه وقالت له يا أبا محمد طغى الشيطان في رأسي فقال لها اذهبي واطردي الشيطان فقالت له لا أستطيع وأنا في جوارك يا أبا محمد فقال لها اذهبي فافعلي ماشئت فذكر لي لما انصرفت عنه ان هذه ومن فعل مثل فعلها تكون في جوار السلطان وتذهب للفساد ولا يقدر أبوها ولا ذو قرابتها أن يغيروا عليها وان قتلوها قتلوا بها لانها في جوار السلطان

ثم سافرت من بلاد عمان الى بلاد هرمز وهرمز مدينة على ساحل البحر وتسمي أيضا موغستان وتقابلها في البحر هرمز الجديدة وبينهما في البحر ثلاثة فراسخ ووصلنا الى هرمز الجديدة وهي جزيرة مدينتها تسمي جرون (بفتح الجيم والراء وآخرها نون) وهي مدينة حسنة كبيرة لها اسواق حافلة وهي مرسي الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان وهذه المدينة سكني السلطان والجزيرة التي فيها المدينة مسيرة يوم وأكثرها سباخ وجبال ملح وهو الملح الداراني ومنه يصنعون الاواني للزينة والمنارات التي يضعون السرج عليها وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان ويقولون بلسانهم خرما وماهي لوت بادشاهي معناه بالعربي التمر والسمك طعام الملوك والماء في هذه الجزيرة له قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر وهي على بعد من المدينة ويأتون اليها بالقرب فيملؤنها ويرفعونها على ظهورهم الى البحر يوسقونها في القوارب ويأتون بها الى المدينة ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه رابية وعيناه كأنهما بابان فترى الناس يدخلون من احداهما ويخرجون من الاخرى ولقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح السائح أبا الحسن الاقصاراني وأصله من بلاد الروم فاضافني وزارني والبسني ثوبا وأعطاني كمر الصحبة وهو يحتبي به فيعين الجالس فيكون كأنه مستند وأكثر فقراء العجم يتقلدونه وعلى ستة أميال من هذه المدينة مزار ينسب الى الخضر والياس عليهما السلام يذكرانهما يصليان فيه وظهرت له بركات وبراهين وهنالك زاوية يسكنها أحد المشايخ يخدم بها الوارد والصادر وأقمنا عنده يوما وقصدنا من هنالك زيارة رجل صالح منقطع في آخر هذه الجزيرة قد نحت غارا لسكناه فيه زاوية ومجلس ودار صغيرة له فيها جارية وله عبيد خارج الغار يرعون بقرا له وغنما وكان هذا الرجل من كبار التجار فحج البيت وقطع

العلائق وانقطع هنالك للعبادة ودفع ماله لرجل من اخوانه يتجر له به وبتنا عنده ليلة فاحسن القرى وأجمل رضى الله تعالى عنه وسيمه الخير والعبادة لائحة عليه

— ذكر سلطان هرمز —

وهو السلطان قطب الدين تهمتن بن طوران شاه (وضبط اسمه بفتح التاء بين المعلوتين و بينهما ميم مفتوح وهاء مسكنة وآخره نون) وهو من كرماء السلاطين كثير التواضع حسن الاخلاق وعادته أن يأتي لزيارة كل من يقدم عليه من فقيه أو صالح أو شريف ريقوم بحقه ولما دخلنا جزيرته وجدناه مهيأ للحرب مشغولا بها مع ابني اخيه نظام الدين فكان في كل ليلة يتيسر للقتال والغلاء مستول على الجزيرة فاتي الينا وزيره شمس الدين محمد بن علي وقاضيه عماد الدين الشونكاري وجماعة من الفضلاء فاعتذروا بما هم عليه من مباشرة الحرب وأقمنا عندهم ستة عشر يوما فلما أردنا الانصراف قلت لبعض الاصحاب كيف ننصرف ولا نرى هذا السلطان فجئنا دار الوزير وكانت في جوار الزاوية التي نزلت بها فقلت له اني اريد السلام على الملك فقال بسم الله وأخذ بيدي فذهب بي الى داره وهي على ساحل البحر والايوان مجلسة عندها فاذا شيخ عليه أقبية ضيقة دنسة وعلى رأسه عمامة وهو مشدود الوسط بمنديل فسلم عليه الوزير وسلمت عليه ولم أعرف انه الملك وكان الى جانبه ابن اخته وهو علي شاه بن جلال الدين الكيجي وكانت بيني وبينه معرفة فانشات احادثه وانا لا أعرف الملك فعرفني الوزير بذلك فخجلت منه لاقبالي بالحديث على ابن أخته دونه واعتذرت اليه ثم قام فدخل داره وتبعه الامراء والوزراء وأرباب الدولة ودخلت مع الوزير فوجدناه قاعدا على سرير ملكه وثيابه عليه لم يبدلها وفي يده سبحة جوهر لم تر العيون مثلها لان مغاصات الجوهر تحت حكمه فجلس أحد الامراء الى جانبه وجلست الى جانب ذلك الامير وسالني عن حالي ومقدمي وعمن لقيته من الملوك فاخبرته بذلك وحضر الطعام فاكل الحاضرون ولم يأكل معهم ثم قام فوادعته وانصرفت وسبب الحرب التي بينه وبين ابني أخيه أنه ركب البحر مرة من مدينته الجديدة برسم النزهة في هرمز القديمة و بساتينها و بينهما في البحر ثلاثة فراسخ كما قدمناه فخالف عليه أخوه نظام الدين ودعى لنفسه و بايعه أهل الجزيرة وبايعته العساكر فخاف قطب الدين على نفسه وركب البحر الى مدينة قلهات التي تقدم ذكرها وهي من جملة بلاده فاقام بها شهورا وجهز المراكب وأتى الجزيرة فقاتله اهلها مع اخيه وهزموه وعاد الى قلهات وفعل ذلك مرارا فلم تكن له حيلة الا ان راسل بعض نساء أخيه فسمته ومات وأتى هو الى الجزيرة فدخلها وقر

ابنا أخيه بالخزائن والاموال والعساكر الى جزيرة قيس حيث مغاص الجوهر وصاروا يقطعون الطريق على من يقصد الجزيرة من أهل الهند والسند ويغيرون على بلاده البحرية حتى تخرب معظمها ثم سافر نامن مدينة جرون برسم لقاء رجل صالح ببلد خنج بال فلما عدينا البحر اكترينا دواب من التركمان وهم سكان تلك البلاد ولا يسافر فيها الا معهم لشجاعتهم ومعرفتهم بالطرق وفيها صحراء مسيرة أربع يقطع بها الطريق لصوص الاعراب وتهب فيها ريح السموم في شهري تموز وحزيران فمن صادفته فيها قتلته ولقد ذكر لي ان الرجل اذا قتلته تلك الريح وأراد أصحابه غسله ينفصل كل عضو منه عن سائر الاعضاء وبها قبور كثيرة للذين ماتوا فيها بهذه الريح وكنا نسافر فيها بالليل فاذا طلعت الشمس نزلنا تحت ظلال الاشجار من أم غيلان ونرحل بعد العصر الى طلوع الشمس وفي هذه الصحراء وما والاها كان يقطع الطريق بها جمال اللك (اللوك) الشهير الاسم هنالك

— حكاية —

كان جمال اللك من أهل سجستان أعجمي الاصل (واللك بضم اللام) معناه الاقطع وكانت يده قطعت في بعض حروبه وكانت له جماعة كثيرة من فرسان الاعراب والاعاجم يقطع بهم الطرق وكان يبني الزوايا ويطعم الوارد والصادر من الاموال التي يسلبها من الناس ويقال انه كان يدعو ان لا يسلط الاعلى من لا يزكي ماله وأقام على ذلك دهراً وكان يغير هو وفرسانه ويسلكون براري لا يعرفها سواهم ويدفنون بها قرب الماء ورواياه فاذا تبعهم عسكر السلطان دخلوا الصحراء واستخرجوا المياه ويرجع العسكر عنهم خوفا من الهلاك وأقام على هذه الحالة مدة لا يقدر عليه ملك العراق ولا غيره ثم تاب وتعبد حتى مات وقبره بزار ببلده وسلكنا هذه الصحراء الى ان وصلنا الى كور استان (وضبط اسمه بفتح الكاف وأسكان الواو وراء) وهو بلد صغير فيه الانهار والبساتين وهو شديد الحر ثم سرنا منه ثلاثة أيام في صحراء مثل التي تقدمت ووصلنا الى مدينة لار (وآخر اسمها راه) مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ولها أسواق حسان ونزلنا منها بزاوية الشيخ العابد أبي دلف محمد وهو الذي قصدنا زيارته بخنج بال وبهذه الزاوية ولده أبو زيد عبد الرحمن ومعه جماعة من الفقراء ومن عادتهم انهم يجتمعون بالزاوية بعد صلاة العصر من كل يوم ثم يطوفون على دور المدينة فيعطاهم من كل دار الرغيف والرغيفان فيطعمون منها الوارد والصادر وأهل الدور قد ألفوا ذلك فهم يجعلونه في جملة قوتهم ويعدونه طعم اعانة على اطعام الطعام وفي كل ليلة جمعة يجتمع بهذه الزاوية فقراء المدينة

وصلحاؤها ويأتي كل منهم بما تيسر له من الدراهم فيجمعونها وينفقونها تلك الليلة ويبيتون في عبادة من الصلاة والذكر والتلاوة وينصرفون بعد صلاة الصبح

— ذكر سلطان لار —

وبهذه المدينة سلطان يسمى بجلال الدين تركماني الاصل بعث الينا بضيافة ولم نجتمع به ولا رأيناه ثم سافرنا الى مدينة خنج بال (وضبط اسمها بضم الخاء المعجم وقد يعوض منه هاء واسكان النون وضم الجيم وباء معقودة وألف ولام) وبها سكنى الشيخ أبي دلف الذي قصد لزيارته وبزاويته نزلنا ولما دخلت الزاوية رأيته قاعدا بناحية منها على التراب وعليه جبة صوف خضراء بالية وعلى رأسه عمامة صوف سوداء فسلمت عليه فاحسن الرد وسالني عن مقدمي وبلادي وأنزلني وكان يبعث الي الطعام والفاكهة مع ولده من الصالحين كثير الخشوع والتواضع صائم الدهر كثير الصلاة ولهذا الشيخ أبي دلف شان عجيب وأمر غريب فان نفقته في هذه الزاوية عظيمة وهو يعطي العطاء الجزيل ويكسو الناس ويركبهم الخيل ويحسن لكل وارد وصادر ولم أر في تلك البلاد مثله ولا يعلم له سيرة الا ما يصله من الاخوان والاصحاب حتى زعم كثير من الناس انه ينفق من الكنوز وفي زاويته المذكورة قبر الشيخ الولي الصالح القطب دانيال وله اسم بتلك البلاد شهير وشان في الولاية كبير وعلى قبره قبة عظيمة بناها السلطان قطب الدين تمهتن بن طوران شاه

ولقيت عند الشيخ أبي دلف يوما واحدا الاستعجال الرفقة التي كنت في صحبتها وسمعت أن بالمدينة خنج بال المذكورة زاوية فيها جملة من الصالحين المتعبدين فرحت اليها بالعشي وسلمت على شيخهم وعليهم ورأيت جماعة مباركة قد أثرت فيهم العبادة فهم صفر الالوان تحالف الجسوم كثير البكاء غزير الدموع وعند وصولي اليهم أتوا بالطعام فقال كبيرهم ادعوا لي ولدي محمدا وكان معتزلا في بعض نواحي الزاوية فجاء الينا الولد وهو كأنما خرج من قبر مما نهكته العبادة فسلم وقعد فقال له أبوه يا بني شارك هؤلاء الواردين في الأكل تنل من بركاتهم وكان صائما فافطر معنا وهم شافعية المذهب فلما فرغنا من أكل الطعام دعوا لنا وانصرفنا ثم سافرنا منها إلى مدينة قيس وتسمي أيضا بسيراف وهي على ساحل بحر الهند المتصل ببحر اليمن وفارس وعدادها في كور فارس مدينة لها انفساح وسعة طيبة البقعة في دورها بساتين عجيبة فيها الرياحين والاشجار الناضرة وشرب أهلها من عيون منبعثة من جبالها وهم عجم من الفرس أشراف وفيهم طائفة من عرب بني سفاف وهم الذين يغوصون على الجوهر

ذكر مغاص الجوهر

ومغاص الجوهر فيما بين سيراف والبحرين فى خور راكد مثل الوادى العظيم فاذا كان شهر ابريل وشهر مايه تاتي اليه القوارب الكثيرة فيها الغواصون وتجار فارس والبحرين والقطيف ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيا يكسوه من عظم الغيلم وهي السلحفاة ويصنع من هذا العظم أيضا شكلا شبه المقراض يشده على أنفه ثم يربط حبلا فى وسطه ويغوص ويتفاوتون فى الصبر فى الماء فمنهم من يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصدف هنالك فيما بين الاحجار الصغار مثبتا فى الرمل فيقتلعه بيده أو يقطعه بحديدة عنده معدة لذلك ويجعلها فى مخلاة جلد منوطة بعنقه فاذا ضاق نفسه حرك الحبل فيحس به الرجل الممسك للحبل على الساحل فيرفعه الى القارب فتؤخذ منه المخلاة و يفتح الصدف فيوجد فى أجوافها قطع لحم تقطع بحديدة فاذا باشرت الهواء جمدت فصارت جواهر فيجمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسه والباقى يشتريه التجار الحاضرون بتلك القوارب وأكثرهم يكون له الدين على الغواصين فيأخذ الجوهر فى دينه أو ما وجب له منه ثم سافرنا من سيراف الى مدينة البحرين وهي مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأشجار وأنهار ومياؤها قريب المؤنة يحفر عليه بالايدى فيوجد وبها حدائق النخل والرمان والاترج ويزرع بها القطن وهى شديدة الحر كثيرة الرمال وربما غلب الرمل على بعض منازلها وكان فيما بينها وبين عمان طريق استولت عليه الرمال وانقطع فلا يوصل من عمان اليها الا فى البحر وبالقرب منها جبلان عظيمان يسمي أحدهما بكسير وهو فى غربيها ويسمى الآخر يعوبر وهو فى شرقيها وبهما ضرب المثل فقيل كسير وعويبر وكل غير خير ثم سافرنا الى مدينة القطيف (وضبط اسمها بضم القاف) كانه تصغير قطف وهي مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير يسكنها طوائف العرب وهم رافضية غلاة يظهرون الرفض جهارا لا يتقون أحدا ويقول مؤذنهم فى أذانه بعد الشهادتين أشهد أن علياً ولى الله ويزيد بعد الحيعلتين حى على خير العمل ويزيد بعد التكبير الاخير محمد وعلى خير البشر من خالفهما فقد كفر ثم سافرنا منها الى مدينة هجر وتسمي الآن بالحسا (بفتح الحاء والسين واهمالها) وهي التي يضرب المثل بها فيقال كجالب التمر الى هجر وبها من النخيل ما ليس ببلد سواها ومنه يعلفون دوابهم وأهلها عرب وأكثرهم من قبيلة عبد القيس بن أفصى ثم سافرنا منها الى مدينة اليمامة وتسمي أيضا بحجر (بفتح الحاء المهمل واسكان الجيم) مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار

Digitized by Birzeit University Library

يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بني حنيفة وهي بلدهم قديما وأميرهم طفيل ابن غانم ثم سافرت منها في صحبة هذا الامير برسم الحج وذلك في سنة ثنتين وثلاثين فوصلت الى مكة شرفها الله تعالى وحج في تلك السنة الملك الناصر سلطان مصر رحمه الله وجملة من أمرائه وهي آخر حجة حجها وأجزل الاحسان لاهل الحرمين الشريفين وللمجاورين وفيها قتل الملك الناصر أمير أحمد الذي يذكر انه ولده وقتل أيضا كبير أمرائه بكتمور الساقي

— حكاية —

ذكر ان الملك الناصر وهب لبكتمور الساقي جارية فلما أراد الدنو منها قالت له اني حامل من الملك الناصر فاعتزلها وولدت ولدا سماه بامير أحمد ونشأ في حجره فظهرت نجابته واشتهر بابن الملك الناصر فلما كان في هذه الحجة تعاهدا على الفتك بالملك الناصر وان يتولى أمير أحمد الملك وحمل بكتمور معه العلامات والطبول والكسوات والاموال فنمي الخبر الى الملك الناصر فبعث الى أمير أحمد في يوم شديد الحر فدخل عليه وبين يديه أقداح الشرب فشرب الملك الناصر قدحا وناول أمير أحمد قدحا ثانيا فيه السم فشربه وأمر بالرحيل في تلك الساعة ليشغل الوقت فرحل الناس ولم يبلغوا المنزل حتى مات أمير أحمد فاكتتم بكتمور لموته وقطع أثوابه وامتنع من الطعام والشراب وبلغ خبره الى الملك الناصر فاتاه بنفسه ولاطفه وسلاه وأخذ قدحا فيه سم فناوله اياه وقال له بحياتي عليك إلا شربت فبردت نار قلبك فشربه ومات من حينه ووجد عنده خلع السلطنة والاموال فتحقق ما نسب اليه من الفتك بالملك الناصر ولما انقضى الحج توجهت الى جدة برسم ركوب البحر الى اليمن والهند فلم يقض لي ذلك ولا تاتى لي رفيق وأقمت بجدة نحو أربعين يوما وكان بها مركب لرجل يعرف بعبد الله التونسي يروم السفر الى القصير من عمالة قوص فصعدت اليه لأنظر حاله فلم يرضني ولا طابت نفسي بالسفر فيه وكان ذلك لطفا من الله تعالى فانه سافر فلما توسط البحر غرق بموضع يقال له رأس أبي محمد فخرج صاحبه وبعض التجار في العشارى بعد جهد عظيم وأشرفوا على الهلاك وهلك بعضهم وغرق سائر الناس وكان فيه نحو سبعين من الحجاج ثم ركبت البحر بعد ذلك في صنبوق برسم عيذاب فردتنا الريح الى مرسى يعرف برأس دواير وسافرنا منه في البرمع البجاة فسلكنا صحراء كثيرة النعام والغزلان فيها عرب جهينة وبني كاهل وطاعتهم للبجاة ووردنا ماء يعرف بمفرور وماء يعرف بالجديد ونفد زادنا فاشترينا من قوم من البجاة وجدناهم بالفلاة أغناما وتزودنا لحومها ورأيت بهذه الفلاة صبيا من العرب كلمني باللسان العربي

Digitized by Birzeit University Library

وأخبرني ان البحاة أسروه وزعم انه منذ عام لم يأكل طعاما انما يقتات بلبن الابل ونفد لنا بعد ذلك اللحم الذي اشتريناه ولم يبق لنا زاد وكان عندي نحو حمل من التمر الصيحاني والبرني برسم الهدية لاصحابي ففرقته على الرفقة وتزودنا ثلاثا وبعد مسيرة تسعة أيام من رأس دوايروصلنا الى عيذاب وكان قد تقدم اليها بعض الرفقة فتلقانا أهلها بالخبز والتمر والماء وأقمنا بها أياما واكترينا الجمال وخرجنا صحبة طائفة من عرب دغيم ووردنا ماء يعرف بالجنيب ولعله (الخبيب) وحللنا بحميثرا حيث قبر ولي الله تعالى أبي الحسن الشاذلي وحصلت لنا زيارته ثانية و بتنا في جواره ثم وصلنا الى قرية العطواني وهي على ضفة النيل مقابلة لمدينة أدفو من الصعيد الأعلى وأجزنا النيل الى مدينة اسنا ثم الى مدينة أرمنت ثم الى الاقصر وزرنا الشيخ أبا الحجاج الاقصري ثانية ثم الى مدينة قوص ثم الى مدينة قنا وزرنا الشيخ عبد الرحيم القناوي ثانية ثم الى مدينة هو ثم الى مدينة اخميم ثم الى مدينة أسيوط ثم الى مدينة منفلوط ثم الى مدينة منلوى ثم الى مدينة الاشمونين ثم الى مدينة منية ابن الخصيب ثم الى مدينة البهنسة ثم الى مدينة بوش ثم الى مدينة منية القائد وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد ثم الى مصر وأقمت بها أياما وسافرت على طريق بلبيس الى الشام ورافقني الحاج عبد الله بن أبي بكر بن الفرحان التوزري ولم يزل في صحبتي سنين الى ان خرجنا من بلاد الهند فتوفي بسندابور وسنذكر ذلك فوصلنا الى مدينة غزة ثم الى مدينة الخليل عليه السلام وتكررت لنا زيارته ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الرملة ثم الى مدينة عكا ثم الى مدينة طرابلس ثم الى مدينة جبلة وزرنا ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه ثانية ثم الى مدينة اللاذقية وقد تقدم لنا ذكر هذه البلاد كلها ومن اللاذقية ركبنا البحر في قرقورة كبيرة للجنوبيين يسمى صاحبها بمرتلين وقصدنا بر التركية المعروف ببلاد الروم وانما نسبت الى الروم لانها كانت بلادهم في القديم ومنها الروم الاقدمون واليونانية ثم استفتحها المسلمون وبها الآن كثير من النصاري تحت ذمة المسلمين من التركمان وسرنا في البحر عشرا بريح طيبة وأكرمنا النصراني ولم يأخذ منا نولا وفي العاشر وصلنا الى مدينة العلايا وهي أول بلاد الروم وهذا الاقليم المعروف ببلاد الروم من أحسن أقاليم الدنيا وقد جمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد فأهله أجمل الناس صورا وأنظفهم ملابس وأطيبهم مطاعم وأكثر خلق الله شفقة ولذلك يقال البركة في الشام والشفقة في الروم وانما عنى به أهل هذه البلاد وكنا متى نزلنا بهذه البلاد زاوية أو دار يتفقد أحوالنا جيراننا من الرجال والنساء وهن لا يحتجبن فاذا

سافرنا عنهم ودعونا كانهم أقاربنا وأهلنا وترى النساء باكيات لفراقنا متأسفات ومن عادتهم بتلك البلاد ان يخبزوا الخبز في يوم واحد من الجمعة يعدون فيها مايقوتهم سائرها فكان رجالهم يأتون الينا بالخبز الحار في يوم خبزه ومعه الادام الطيب إطرافا لنا بذلك ويقولون لنا ان النساء بعثن هذا اليكم وهن يطلبن منكم الدعاء وجميع أهل هذه البلاد على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه مقيمين على السنة لاقدرى فيهم ولا رافضي ولا معتزلي ولا خارجي ولا مبتدع وتلك فضيلة خصهم الله تعالى بها الا انهم يأكلون الحشيش ولا يعيبون ذلك ومدينة العلايا التي ذكرناها كبيرة على ساحل البحر يسكنها التركمان وينزلها تجار مصر واسكندرية والشام وهي كثيرة الخشب ومنها يحمل الى اسكندرية ودمياط ويحمل منها الى سائر بلاد مصر ولها قلعة باعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين الرومي ولقيت بهذه المدينة قاضيها جلال الدين الارزنجاني وصعد معي الى القلعة يوم الجمعة فصلينا بها وأضافني وأكرمني وأضافني أيضا بها شمس الدين ابن الرجيحاني الذي توفي أبوه علاء الدين بمالي من بلاد السودان

— ذكر سلطان العلايا —

وفي يوم السبت ركب معي القاضي جلال الدين وتوجهنا الى لقاء ملك العلايا وهو يوسف بك ومعني بك الملك ابن قرمان (بفتح القاف والراء) ومسكنه على عشرة أميال من المدينة فوجدناه قاعدا على الساحل وحده فوق رابية هنالك والامراء والوزراء أسفل منه والاجناد عن يمينه ويساره وهو مخضوب الشعر بالسواد فسلمت عليه وسألني عن مقدمي فاخبرته عما سألني وانصرفت عنه وبعث الى احسانا وسافرت من هنالك الى مدينة انطالية (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان النون وفتح الطاء المهملة وألف ولام مكسور وياء آخر الحروف) وأما التي بالشام فهي انطاكية على وزنها الا أن الكاف عوض عن اللام وهي من أحسن المدن متناهية في اتساع الساحة والضخامة أجمل مايرى من البلاد وأكثره عمارة وأحسنه ترتيبا وكل فرقة من سكانها منفردة بأنفسها عن الفرقة الاخرى فتجار النصارى ماكثون منها بالموضع المعروف بالميناء وعليهم سور تسد أبوابه عليهم ليلا وعند صلاة الجمعة والروم الذين كانوا أهلها قديما ساكنون بموضع آخر منفردين به وعليهم أيضا سور واليهود في موضع آخر وعليهم سور والملك وأهل دولته ومماليكه يسكنون ببلدة عليها أيضا سور يحيط بها ويفرق بينها وبين ماذكرناه من الفرق وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها مسجد جامع ومدرسة وحمامات كثيرة

وأسواق ضخمة مرتبة بابدع ترتيب وعليها سور عظيم يحيط بها وبجميع المواضع التى ذكرناها وفيها البساتين الكثيرة والفواكه الطيبة والمشمش العجيب المسمى عندهم بقمر الدين وفى نواته لوز حلو وهو يابس ويحمل الى ديار مصر وهو بها مستظرف وفيها عيون الماء الطيب العذب الشديد البرودة فى أيام الصيف نزلنا من هذه المدينة بمدرستها وشيخها شهاب الدين الحموى ومن عادتهم أن يقرأ جماعة من الصبيان بالاصوات الحسان بعد العصر من كل يوم فى المسجد الجامع وفى المدرسة أيضا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم

— ذكر الاخية الفتيان —

واحد الاخية أخي على لفظ الاخ اذا أضافه المتكلم الى نفسه وهم بجميع البلاد التركانية الرومية فى كل بلد ومدينة وقرية ولا يوجد فى الدنيا مثلهم أشد احتفالا بالغرباء من الناس واسرع الى اطعام الطعام وقضاء الحوائج والاخذ على أيدي الظلمة وقتل الشرط ومن لحق بهم من أهل الشر والاخي عندهم رجل يجتمع أهل صناعته وغيرهم من الشبان الاعزاب والمتجردين ويقدمونه على أنفسهم وتلك هى الفتوة أيضاً ويبني زاوية ويجعل فيها الفرش والسرج وما يحتاج اليه من الآلات ويخدم اصحابه بالنهار فى طلب معايشهم ويأتون اليه بعد العصر بما يجتمع لهم فيشترون به الفواكه والطعام الى غير ذلك مما ينفق فى الزاوية فان ورد فى ذلك اليوم مسافر على البلد أنزلوه عندهم وكان ذلك ضيافته لديهم ولا يزال عندهم حتى ينصرف وان لم يرد وارد اجتمعوا هم على طعامهم فاكلوا وغنوا ورقصوا وانصرفوا الى صناعتهم بالغدو وأتوا بعد العصر الى مقدمهم بما اجتمع لهم ويسمون بالفتيان ويسمي مقدمهم كما ذكرنا الاخي ولم أر فى الدنيا أجمل أفعالا عنهم ويشبههم فى أفعالهم أهل شيراز واصفهان الا أن هؤلاء أحب فى الوارد والصادر وأعظم اكراما له وشفقة عليه وفى الثانى من يوم وصولنا الى هذه المدينة أتى احد هؤلاء الفتيان الى الشيخ شهاب الدين الحموي وتكلم معه باللسان التركى ولم أكن يومئذ أفهمه وكان عليه أثواب خلقة وعلي رأسه قلنسوة لبد فقال لى الشيخ أتعلم ما يقول هذا الرجل فقلت لا أعلم ما قال فقال لى انه يدعوك الى ضيافته أنت واصحابك فعجبت منه وقلت له نعم فلما انصرف قلت للشيخ هذا رجل ضعيف ولا قدرة له على تضييفنا ولا نريد ان نكلفه فضحك الشيخ وقال لى هذا أحد شيوخ الفتيان الاخية وهو من الخرازين وفيه كرم نفس واصحابه نحو مائتين من أهل الصناعات قد قدموه على أنفسهم وبنوا زاوية للضيافة وما يجتمع لهم بالنهار انفقوه بالليل فلما صليت المغرب عاد الينا ذلك الرجل

Digitized by Birzeit University Library

وذهبنا معه الى زاويته فوجدناها زاوية حسنة مفروشة بالبسط الرومية الحسان وبها الكثير من ثريات الزجاج العراقي وفي المجلس خمسة من البياسيس والبيسوس شبيه المنارة من النحاس له أرجل ثلاث وعلى رأسه شبه جلاس من النحاس وفي وسطه أنبوب للفتيلة ويملا من الشحم المذاب والى جانبه آنية نحاس ملآنة بالشحم وفيها مقراض لاصلاح الفتيل واحدهم موكل بها ويسمى عندهم الخراجي (الجراغجي) وقد اصطف في المجلس جماعة من الشبان ولباسهم الاقبية وفي أرجلهم الاخفاف وكل واحد منهم متحزم على وسطه سكين في طول ذراعين وعلى رؤسهم قلانس بيض من الصوف باعلى كل قلنسوة قطعة موصولة بها في طول ذراع وعرض أصبعين فاذا استقر بهم المجلس نزع كل واحد منهم قلنسوته ووضعها بين يديه وتبقى على رأسه قلنسوة أخرى من الزردخاني وسواه حسنة المنظر وفي وسط مجلسهم شبه مرتبة موضوعة للواردين ولما استقر بنا المجلس عندهم أتوا بالطعام الكثير والفاكهة والحلواء ثم أخذوا في الغناء والرقص فراقنا حالهم وطال عجبنا من سماحهم وكرم أنفسهم وانصرفنا عنهم آخر الليل وتركناهم بزاويتهم

— ذكر سلطان انطالية —

وسلطانها خضربك بن يونس بك وجدناه عند وصولنا اليها عليلا فدخلنا عليه بداره وهو في فراش المرض فكلمنا بالطف كلام وأحسنه وودعناه وبعث الينا باحسان وسافرنا الى بلدة بردور (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وضم الدال المهمل وواو وراء) وهي بلدة صغيرة كثيرة البساتين والانهار ولها قلعة في رأس جبل شاهق نزلنا بدار خطيبها واجتمعت الاخية وأرادوا نزولنا عندهم فابى عليهم الخطيب فصنعوا لنا ضيافة في بستان لاحدهم وذهبوا بنا اليها فكان من العجائب اظهارهم السرور بنا والاستبشار والفرح وهم لا يعرفون لساننا ونحن لا نعرف لسانهم ولا ترجمان فيما بيننا وأقمنا عندهم يوما وانصرفنا ثم سافرنا من هذه البلدة الى بلدة سبرتا (وضبط اسمها بفتح السين المهمل والباء الموحدة واسكان الراء وفتح التاء المعلوة والف) وهي بلدة حسنة العمارة والاسواق كثيرة البساتين والانهار لها قلعة في جبل شاهق وصلنا اليها بالعشي ونزلنا عند قاضيها وسافرنا منها الى مدينة أكريدور (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون الكاف وكسر الراء وياء مدود ودال مهمل مضموم وواو مد وراء) مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الاسواق ذات أنهار وأشجار وبساتين ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب

فيها يومين الى أقشهر وبقشهر وغيرها من البلاد والقرى ونزلنا منها بمدرسة تقابل الجامع الاعظم بها المدرس العالم الحاج المجاور الفاضل مصلح الدين قرأ بالديار المصرية والشام وسكن بالعراق وهو فصيح اللسان حسن البيان أطروفة من طرف الزمان اكرمنا غاية الاكرام وقام بحقنا أحسن قيام

— ذكر سلطان أكريدور —

وسلطانها أبو اسحاق بك بن الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد سكن ديار مصر أيام أبيه وحج وله سير حسنة ومن عادته انه يأتي كل يوم الى صلاة العصر بالمسجد الجامع فاذا قضيت صلاة العصر استند الى جدار القبلة وقعد القراء بين يديه على مصطبة خشب عالية فقرؤا سورة الفتح والملك وعم باصوات حسان فعالة في النفوس تخشع لها القلوب وتقشعر الجلود وتدمع العيون ثم ينصرف الى داره وأظلنا عنده شهر رمضان فكان يقعد في كل ليلة منه على فراش لاصق بالارض من غير سرير ويستند الى مخدة كبيرة ويجلس الفقيه مصلح الدين الى جانبه وأجلس الى جانب الفقيه ويلينا أرباب دولته وامراء حضرته ثم يؤتى بالطعام فيكون أول ما يقطر عليه ثريد في صحفة صغيرة عليه العدس مستي بالسمن والسكر ويقدمون الثريد تبركا ويقولون ان النبي صلى الله عليه وسلم فضله على سائر الطعام فنحن نبدأ به لتفضيل النبي له ثم يؤتى بسائر الأطعمة وهكذا فعلهم في جميع ليالي رمضان وتوفي في بعض تلك الايام ولد السلطان فلم يزيدوا على بكاء الرحمة كما يفعله أهل مصر والشام خلافا لما قدمناه من فعل أهل اللور حين مات ولد سلطانهم فلما دفن أقام السلطان والطلبة ثلاثة أيام يخرجون الى قبره بعد صلاة الصبح وفي ثاني يوم من دفنه خرجت مع الناس فرآني السلطان ماشيا على رجلي فبعث لي بفرس واعتذر فلما وصلت المدرسة بعثت الفرس فرده وقال انما أعطيته عطية لا عارية وبعث الى بكسوة ودراهم فانصرفنا الى مدينة قل حصار (وضبط اسمها بضم القاف واسكان اللام ثم حاء مهملة مكسور وصاد مهمل وآخره راء) مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب قد نبتت فيها القصب فلا طريق لها الا طريق كالجسر مهيا ما بين القصب والمياه لا يسع الا فارسا واحدا والمدينة على تل في وسط المياه منيعة لا يقدر عليها ونزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية بها

— ذكر سلطان قل حصار —

وسلطانها محمد جلبي وجلبي (بجيم معقود ولام مفتوحين وباء موحدة وياء) وتفسيره بلسان الروم سيدي وهو أخو السلطان أبي اسحاق ملك أكريدور ولما وصلنا بمدينته كان غائبا

عنها فاقمنا بها أياما ثم قدم فاكرمنا وأركبنا وزدنا وانصرفنا على طريق قرا أغاج وقرا (بفتح القاف) تفسيره أسود (وأغاج بفتح الهمزة والغين المعجم وآخره جيم) تفسيره الخشب وهي صحراء خضرة يسكنها التركمان وبعث معنا السلطان فرسانا يبلغوننا الى مدينة لاذق بسبب ان هذه الصحراء يقطع الطريق فيها طائفة يقال لهم الجرميان يذكرانهم من ذرية يزيد بن معاوية ولهم مدينة يقال لها كوتاهية فعصمنا الله منهم ووصلنا الى مدينة لاذق (وهي بكسر الذال المعجم وبعده قاف) وتسمي أيضا دون غزله وتفسيره بلد الخنازير وهي من أبدع المدن وأضخمها وفيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة ولها البساتين الرائقة والانهار المطردة والعيون المنبعة وأسواقها حسان وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لامثل لها تطول أعمارها لصحة قطنها وقوة غزلها وهذه الثياب معروفة بالنسبة اليها واكثر الصناع بها نساء الروم وبها من الروم كثير تحت الذمة وعليهم وظائف للسلطان من الجزية وسواها وعلامة الروم بها القلانس الطوال منها الحمر والبيض ونساء الروم لهن عمائم كبار وأهل هذه المدينة لا يغيرون المنكر بل كذلك أهل هذا الاقليم كله وهم يشترون الجواري الروميات الحسان ويتركونهن للفساد وكل واحدة عليها وظيف لمالكها تؤديه له وسمعت هنالك أن الجواري يدخلن الحمام مع الرجال فمن أراد الفساد فعل ذلك بالحمام من غير منكر عليه وذكر لي أن القاضي بها لجوار على هذه الصورة وعند دخولنا لهذه المدينة مررنا بسوق لها فنزل الينا رجال من حوانيتهم وأخذوا باعنة خلينا ونازعهم في ذلك رجال آخرون وطال بينهم النزاع حتى سل بعضهم السكاكين على بعض ونحن لا نعلم ما يقولون فخفنا منهم وظننا انهم الجرميان الذين يقطعون الطرق وان تلك مدينتهم وحسبنا انهم يريدون نهبنا ثم بعث الله لنا رجلا حاجا يعرف اللسان العربي فسالته عن مرادهم منا فقال انهم من الفتيان وان الذين سبقوا الينا أولاهم أصحاب الفتى أخي سنان والآخرون اصحاب الفتى أخي طومان وكل طائفة ترغب ان يكون نزولكم عندهم فعجبنا من كرم نفوسهم ثم وقع بينهم الصلح على المقارعة فمن كانت قرعته نزلنا عنده أولا فوقعت قرعة أخي سنان وبلغه ذلك فاتي الينا في جماعة من أصحابه فسلموا علينا ونزلنا بزاويته له وأتى بانواع الطعام ثم ذهب بنا الى الحمام ودخل معنا وتولى خدمتي بنفسه وتولى أصحابه خدمة أصحابي بخدم الثلاثة والاربعة الواحد منهم ثم خرجنا من الحمام فاتوا بطعام عظيم وحلواء وفاكهة كثيرة وبعد الفراغ من الاكل قرأ القراء آيات من الكتاب العزيز ثم أخذوا في السماع والرقص وأعلموا السلطان بخبرنا فلما كان من الغد بعث في طلبنا بالعشي

فتوجهنا اليه والى ولده كما نذكره ثم عدنا الى الزاوية فالفينا الاخى طومان وأصحابه في انتظارنا فذهبوا بنا الى زاويتهم ففعلوا فى الطعام والحمام مثل أصحابهم وزادوا عليهم انهم صبوا علينا ماء الورد صبا بعد خروجنا من الحمام ثم مضوا بنا الى الزاوية ففعلوا أيضا من الاحتفال في الاطعمة والحلواء والفاكهة وقراءة القرآن بعد الفراغ من الاكل ثم السماع والرقص كمثل مافعله أصحابهم أو أحسن وأقمنا عندهم بالزاوية أياما

— ذكر سلطان لاذق —

وهو السلطان ينتج بك (واسمه بياء آخر الحروف مفتوحة ثم نونين أولاهما مفتوحة والثانية مسكنة وجيم) وهو من كبار سلاطين بلاد الروم ولما نزلنا بزاوية أخى سنان كما قدمناه بعث الينا الواعظ المذكر العالم علاء الدين القسطمونى واستصحب معه خيلا بعدة وذلك فى شهر رمضان فتوجهنا اليه وسلمنا عليه ومن عادة ملوك هذه البلاد التواضع للواردين ولين الكلام وقلة العطاء فصلينا معه المغرب وحضر طعامه فافطرنا عنده وانصرفنا وبعث الينا بدراهم ثم بعث الينا ولده مراد بك وكان ساكنا فى بستان خارج المدينة وذلك فى إبان الفاكهة وبعث أيضا خيلا على عدتنا كما فعله أبوه فاتينا بستانه وأقمنا عنده تلك الليلة وكان له فقيه يترجم بيننا وبينه ثم انصرفنا غدوة وأظلنا عيد الفطر بهذه البلدة فخرجنا الى المصلى وخرج السلطان فى عساكره والفتيان الاخية كلهم بالاسلحة ولاهل كل صناعة الاعلام والبوقات والطبول والانفار وبعضهم يفاخر بعضا ويباهيه فى حسن الهيئة وكمال الشكة ويخرج أهل كل صناعة معهم البقر والغنم وأحمال الخبز فيذبحون البهائم بالمقابر ويتصدقون بها وبالخبز ويكون خروجهم أولا الى المقابر ومنها الى المصلى ولما صلينا صلاة العيد دخلنا مع السلطان الى منزله وحضر الطعام فجعل للفقهاء والمشايخ والفتيان سماط على حدة وجعل للفقراء والمساكين سماط على حدة ولا يرد على بابه فى ذلك اليوم فقير ولا غني وأقمنا بهذه البلدة مدة بسبب مخاوف الطريق ثم تهيأت رفقة فسافرنا معهم يوما وبعض ليلة ووصلنا الى حصن طواس واسمه (بفتح الطاء وتخفيف الواو وآخره سين مهملة) وهو حصن كبير ويذكران صهيبا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى الله عنه من أهل هذا الحصن وكان مبيتنا بخارجه ووصلنا بالغد الى بابه فسألنا أهله من أعلى السور عن مقدمنا فاخبرناهم وحينئذ خرج أمير الحصن الياس بك فى عسكره ليختبر نواحي الحصن والطريق خوفا من اغارة السراق على الماشية فلما طافوا بجهاته خرجت مواشيهم وهكذا فعلهم أبدا ونزلنا من هذا الحصن بربضة فى زاوية رجل فقير وبعث الينا أمير

الحصن بضيافة وزاد وسافرنا منه الى مغلة (وضبط اسمها بضم الميم واسكان الغين المعجم وفتح اللام) ونزلنا بزاوية أحد المشايخ بها وكان من الكرماء الفضلاء يكثر الدخول علينا بزاويته ولا يدخل الا بطعام أو فاكهة أو حلواء ولقينا بهذه البلدة ابراهيم بك ولد سلطان مدينة ميلاس وسنذكره فاكرمنا وكسانا ثم سافرنا الى مدينة ميلاس (وضبط اسمها بكسر الميم وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من أحسن بلاد الروم وأضخمها كثيرة الفواكه والبساتين والمياه نزلنا منها بزاوية أحد الفتيان الاخية ففعل أضعاف ما فعله من قبله من الكرامة والضيافة ودخول الحمام وغير ذلك من حميد الافعال وجميل الاعمال ولقينا بمدينة ميلاس رجلا صالحا معمرا يسمى بابي الششترى ذكروا ان عمره يزيد على مائة وخمسين سنة وله قوة وحركة وعقله ثابت وذهنه جيد دعالنا وحصلت لنا بركته

— ذكر سلطان ميلاس —

وهو السلطان المكرم شجاع الدين أرخان بك ابن المنتشا (وضبط اسمه بضم الهمزة واسكان الراء وخاء معجم وآخره نون) وهو من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة جلساؤه الفقهاء وهم معظمون لديه وبابه منهم جماعة منهم الفقيه الخوارزمي عارف بالفنون فاضل وكان السلطان في أيام لقائي له واجدا عليه بسبب رحلته الى مدينة ايا سلوق ووصوله الى سلطانها وقبول ما أعطاه فسال مني هذا الفقيه أن أتكلم عند الملك في شانه بما يذهب ما في خاطره فاثنيت عليه عند السلطان وذكرت ما علمته من علمه وفضله ولم أزل به حتى ذهب ما كان يجده عليه وأحسن الينا هذا السلطان وأركبنا وزودنا وسكناه في مدينة برجين وهي قريبة من ميلاس بينهما ميلان (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة واسكان الراء وجيم وياء مد وآخره نون) وهي جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسان والمساجد وكان قد بني بها مسجدا جامعا لم يتم بناؤه بعد وبهذه البلدة لقينا ونزلنا منها بزاوية الفقي أخي علي ثم انصرفنا بعد ما أحسن الينا كما قدمناه الى مدينة قونية (وضبط اسمها بضم القاف وواو مد ونون مسكن مكسور وياء آخر الحروف) مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين وقد تقدم ذكره ويحمل منه أيضا الى ديار مصر والشام وشوارعها متسعة جدا واسواقها بديعة الترتيب واهل كل صناعة على حدة ويقال ان هذه المدينة من بناء الاسكندر وهي من بلاد السلطان بدر الدين بن قرمان وسنذكره وقد تغلب عليها صاحب العراق في بعض الاوقات لقربها من بلاده التي بهذا الاقليم نزلنا منها بزاوية قاضيها ويعرف بابن قلم شاه

Digitized by Birzeit University Library

وهـ ومن الفتيان وزاويته من أعظم الزوايا وله طائفة كبيرة من التلاميذ ولهم فى الفتوة سند يتصل الى امير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ولباسها عندهم السراويل كما تلبس الصوفية الخرقة وكان صنيع هـذا القاضى فى اكرامنا وضيافتنا أعظم من صنيع من قبله واجمل وبعث ولده عوضاً عنه لدخول الحمام معنا وبهـذه المدينة تربة الشيخ الامام الصالح القطب جلال الدين المعروف بمولانا وكان كبير القدر وبأرض الروم طائفة ينتمون اليه ويعرفون باسمه فيقال لهم الجلالية كما تعرف الاحمدية بالعراق والحيدرية بخراسان وعلى تربته زاوية عظيمة فيها الطعام للوارد والصادر

— حكاية —

يذكر انه كان فى ابتداء أمره فقيها مدرسا يجتمع اليه الطلبة بمدرسته بقونية فدخل يوما الى المدرسة رجل يبيع الحلواء وعلى رأسه طبق منها وهى مقطعة قطعا يبيع القطعة منها بفلس فلما أتى مجلس التدريس قال له الشيخ هات طبقك فأخذ الحلواني قطعة منه وأعطاها للشيخ فأخذها الشيخ بيده وأكلها فخرج الحلوانى ولم يطعم أحداسوى الشيخ فخرج الشيخ فى اتباعه وترك التدريس فأبطأ على الطلبة وطال انتظارهم اياه فخرجوا فى طلبه فلم يعرفوا له مستقراً ثم انه عاد اليهم بعد أعوام وصار لا ينطق الا بالشعر الفارسى المتعلق الذى لا يفهم فكان الطلبة يتبعونه ويكتبون مايصدر عنه من ذلك الشعر وألفوا منه كتابا سموه المثنوى وأهل تلك البلاد يعظمون ذلك الكتاب ويعتبرون كلامه ويعلمونه ويقرؤنه بزواياهم فى ليالى الجمعات وفى هذه المدينة أيضاً قبر الفقيه أحمد الذى يذكر انه كان معلم جلال الدين المذكور ثم سافر ثانيا الى مدينة اللارندة وهي (بفتح الراء التي بعد الالف واللام واسكان النون وفتح الدال المهمل) مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين

— ذكر سلطان اللارندة —

وسلطانها الملك بدر الدين بن قرمان (بفتح القاف والراء) وكانت قبله لشقيقه موسي فنزل عنها للملك الناصر وعوضه عنها بعوض وبعث اليها أميرا وعسكرا ثم تغلب عليها السلطان بدر الدين وبنى بها دار مملكته واستقام أمره بها ولقيت هذا السلطان خارج المدينة وهو عائد من تصيده فنزلت له عن دابتى فنزل هو عن دابته وسلمت عليه وأقبل على ومن عادة ملوك هـذه البلاد انه اذا نزل لهم الوارد عن دابته نزلوا له وأعجبهم فعله وزادوا فى اكرامه وان سلم عليهم راكبا ساءهم ذلك ولم يرضهم ويكون سببا لحرمان الوارد وقد جرى لى ذلك مع بعضهم وسأذكره ولما سلمت عليه وركب وركبت سألنى عن حالى وعن مقدمي ودخلت معه المدينة فأمر بانزالى أحسن نزل وكان يبعث الطعام

Digitized by Birzeit University Library

الكثير والفاكهة والحلواء في طيافير الفضة والشمع وكساوا راكب واحسن ولم يطل مقامنا عنده وانصرفنا الى مدينة أقصرا (وضبطها بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الصاد المهمل والراء) وهي من أحسن بلاد الروم وأتقنها تحف بها العيون الجارية والبساتين من كل ناحية ويشق المدينة ثلاثة أنهار ويجري الماء بدورها وفيها الاشجار ودوالي العنب وداخلها بساتين كثيرة وتصنع بها البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم لامثل لها في بلد من البلاد ومنها تحمل الى الشام ومصر والعراق والهند والصين وبلاد الاتراك وهذه المدينة في طاعة ملك العراق ونزلنا منها بزاوية الشريف حسين النائب بها عن الامير أرتنا وأرتناه النائب عن ملك العراق فيما تغلب عليه من بلاد الروم وهذا الشريف من الفتيان وله طائفة كثيرة وأكرمنا اكراما متناهيا وفعل أفعال من تقدمه ثم رحلنا الى مدينة نكدة (وضبط اسمها بفتح النون واسكان الكاف ودال مهمل مفتوح) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة كثيرة العمارة قد تخرب بعضها ويشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وهو من كبار الانهار عليه ثلاث قناطر احداها بداخل المدينة واثنتان بخارجها وعليه النواعير بالداخل والخارج منها تسقى البساتين والفواكه بها كثيرة ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي جاروق وهو الامير بها فأكرمنا على عادة الفتيان وأقمنا بها ثلاثا وسرنا منها بعد ذلك الى مدينة قيسارية وهي من بلاد صاحب العراق وهي احدى المدن العظام بهذا الاقليم بها عسكر أهل العراق واحدى خواتين الامير علاء الدين ارتنا المذكور وهي من أكرم الخواتين وأفضلهن ولها نسبة من ملك العراق وتدعى أغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعنى أغا الكبير وكل من بينه وبين السلطان نسبة يدعى بذلك واسمها طغي خاتون ودخلنا اليها فقامت لنا وأحسنت السلام والكلام وامرت باحضار الطعام فأكلنا ولما انصرفنا بعثت لنا بفرس مسرج ملجم وخلعة ودراهم مع أحد غلمانها واعتذرت ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى الاخي أمير علي وهو أمير كبير من كبار الاخية بهذه البلاد وله طائفة تتبعه من وجوه المدينة وكبرائها وزاويته من أحسن الزوايا فرشا وقناديل وطعاما كثيرا واتقانا والكبراء من أصحابه وغيرهم يجتمعون كل ليلة عنده ويفعلون في اكرام الوارد أضعاف ما يفعله سواهم ومن عوائد هذه البلاد انه ما كان منها ليس به سلطان فالاخي هو الحاكم به وهو يركب الوارد ويكسوه ويحسن اليه على قدره وترتيبه في أمره ونهيه وركوبه ترتيب الملوك ثم سافرنا الى مدينة سيواس (وضبط اسمها بكسر السين المهمل وياء مد وآخره سين مهمل) وهي من بلاد ملك العراق وأعظم ماله بهذا الاقليم

Digitized by Birzeit University Library

من البلاد وبها منزل أمرائه وعماله مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة الناس وبها دار مثل المدرسة تسمي دار السيادة لا ينزلها الا الشرفاء ونقيبهم ساكن بها وتجري لهم فيها مدة مقامهم الفرش والطعام والشمع وغيره فيزودون اذا انصرفوا ولما قدمنا الى هذه المدينة خرج الى لقائنا أصحاب الفتي أخي أحمد بحقجي وبحق بالتركية السكين وهذا منسوب اليه والحيمان منه معقودان بينهما قاف وباؤه مكسورة وكانوا جماعة منهم الركبان والمشاة ثم لقينا بعدهم أصحاب الفتى أخي جلبي وهو من كبار الاخية وطبقته أعلى من طبقة أخي بحقجي فطلبوا ان ننزل عندهم فلم يمكن لي ذلك لسبق الاولين ودخلنا المدينة معهم جميعا وهم يتفاخرون والذين سبقوا الينا قد فرحوا اشد الفرح بنزولنا عندهم ثم كان من صنيعهم في الطعام والحمام والمبيت مثل صنيع من تقدم وأقمنا عندهم ثلاثة في أحسن ضيافة ثم أتانا القاضي وجماعة من الطلبة ومعهم خيل الامير علاء الدين أرتنا نائب ملك العراق ببلاد الروم فركبنا اليه واستقبلنا الامير الى دهليز داره فسلم علينا ورحب وكان فصيح اللسان بالعربية وسألني عن العراقين وأصبهان وشيراز وكرمان وعن السلطان أتابك وبلاد الشام ومصر وسلاطين التركمان وكان مراده أن أشكر الكريم منهم وأذم البخيل فلم أفعل ذلك بل شكرت الجميع فسر بذلك مني وشكرني عليه ثم أحضر الطعام فاكلنا وقال تكونون في ضيافتي فقال له الفتى أخي جلبي انهم لم ينزلوا بعد بزاويتي فليكونوا عندي وضيافتك تصلهم فقال افعل فانتقلنا الى زاويته وأقمنا بها ستا في ضيافته وفي ضيافة الامير ثم بعث الامير بفرس وكسوة ودراهم وكتب لنوابه بالبلاد ان يضيفونا ويكرمونا ويزودونا وسافرنا الى مدينة أماصية (وضبط اسمها بفتح الهمزة والميم وألف وصاد مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة) مدينة كبيرة حسنة ذات أنهار وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وعلى أنهارها النواعير تسقي جناتها ودورها وهي فسيحة الشوارع والاسواق وملكها صاحب العراق ويقرب منها بلدة سونسي (وضبط اسمها بضم السين المهمل وواو مدونون مضموم وسين مهمل مفتوح) وهي لصاحب العراق أيضا وبها سكني أولاد ولي الله تعالى أبي العباس أحمد الرفاعي منهم الشيخ عز الدين وهو الآن شيخ الرواق وصاحب سجادة الرفاعي واخوته الشيخ علي والشيخ ابراهيم والشيخ يحيي أولاد الشيخ أحمد كوجك ومعناه الصغير ابن تاج الدين الرفاعي ونزلنا بزاويتهم ورأينا لهم الفضل على من سواهم ثم سافرنا الى مدينة كمش (وضبط اسمها بضم الكاف وكسر الميم وشين معجم) وهي من بلاد ملك العراق مدينة كبيرة عامرة ياتيها التجار من العراق والشام وبها معادن

Digitized by Birzeit University Library

الفضة وعلى مسيرة يومين منها جبال شاهقة وعرة لم أصل اليها ونزلنا منها بزاوية الاخي مجد الدين وأقمنا بها ثلاثا في ضيافته وفعل أفعال من قبله وجاءه الينا نائب الامير أرتنا وبعث بضيافة وزاد وانصرفنا على تلك البلاد فوصلنا الى ارزنجان (وضبط اسمها بفتح الهمزة واسكان الراء وفتح الزاى وسكون النون وجيم وألف ونون) وهي من بلاد صاحب العراق مدينة كبيرة عامرة واكثر سكانها الارمن والمسلمون يتكلمون بها بالتركية ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها وفيها معادن النحاس ويصنعون منه الاواني والبياسيس التي ذكرناها وهي شبه المنار عندنا ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي نظام الدين وهي من أحسن الزوايا وهو أيضا من خيار الفتيان وكبارهم أضافنا أحسن ضيافة وانصرفنا الى مدينة أرز الروم وهي من بلاد ملك العراق كبيرة الساحة خرب اكثرها بسبب فتنة وقعت بين طائفتين من التركمان بها ويشقها ثلاثة أنهار وفي أكثر دورها بساتين فيها الاشجار والدوالي ونزلنا منها بزاوية الفتى أخي طومان وهو كبير السن يقال انه أناف على مائة وثلاثين سنة ورأيته يتصرف على قدميه متوكئا على عصا ثابت الذهن مواظبا للصلاة في أوقاتها لم ننكر من نفسه شيا الا أنه لا يستطيع الصوم وخدمنا بنفسه في الطعام وخدمنا أولاده في الحمام وأردنا الانصراف عنه ثاني يوم نزولنا فشق عليه ذلك وأبى منه وقال ان فعلتم نقصتم حرمتي وان أقل الضيافة ثلاث فاقمنا لديه ثلاثا ثم انصرفنا الى مدينة بركي (وضبط اسمها بباء موحدة مكسورة وكاف معقود مكسور بينهما راء مسكن) ووصلنا اليها بعد العصر فلقينا رجلا من اهلها فسالناه عن زاوية الاخي بها فقال انا ادلكم علينا فاتبعناه فذهب بنا الى منزله نفسه في بستان له فانزلنا بأعلى سطح بيته والاشجار مظللة وذلك أوان الحر الشديد واتي الينا بانواع الفاكهة واحسن في ضيافته وعلف دوابنا وبتنا عنده تلك الليلة وكنا قد تعرفنا ان بهذه المدينة مدرسا فاضلا يسمى بمحيي الدين فاتي بنا ذلك الرجل الذي بتنا عنده وكان من الطلبة الى المدرسة واذا بالمدرس قد اقبل راكبا على بغلة فارهة ومعه لبكه وخدامه عن جانبيه والطلبة بين يديه وعليه ثياب مفرجة حسان مطرزة بالذهب فسلمنا عليه فرحب بنا واحسن السلام والكلام وامسك بيدي واجلسني الى جانبه ثم جاء القاضي عز الدين فرشتي ومعني فرشتي الملك لقب بذلك لدينه وعفافه وفضله فقعد عن يمين المدرس واخذ في تدريس العلوم الاصلية والفرعية ثم لما فرغ من ذلك اتى دويرة بالمدرسة فامر بفرشها وانزلني فيها وبعث ضيافة حافلة ثم وجه الينا بعد المغرب فمضيت

اليه فوجدته في مجلس ببستان له وهنالك صهريج ماء ينحدر اليه الماء من خصة رخام أبيض يدور بها القاشاني وبين يديه جملة من الطلبة ومماليكه وخدامه وقوف عن جانبيه وهو قاعد على مرتبة عليها أقطاع منقوشة حسنة فخلته لما شاهدته ملكا من الملوك فقام الى واستقبلني وأخذ بيدي وأجلسني الى جانبه على مرتبته وأتي بالطعام فاكلنا وانصرفنا الى المدرسة وذكر لي بعض الطلبة ان جميع من حضر تلك الليلة من الطلبة عند المدرس فعادتهم الحضور لطعامه كل ليلة وكتب هذا المدرس الى السلطان يخبرنا وأثني في كتابه والسلطان في جبل هنالك يصيف فيه لاجل شدة الحر وذلك الجبل بارد وعادته أن يصيف فيه

— ذكر سلطان بركي —

وهو السلطان محمد بن آيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم ولما بعث اليه المدرس يعلمه بخبري ووجه نائبه الى لآتيه فاشار على المدرس ان أقيم حتى يبعث عني ثانية وكان المدرس اذذاك قد خرجت برجله قرحة لا يستطيع الركوب بسببها وانقطع عن المدرسة ثم ان السلطان بعث في طلبي ثانية فشق ذلك على المدرس فقال أنا لا أستطيع الركوب ومن غرضي التوجه معك لا قرر لدى السلطان ما يجب لك ثم انه تحامل ولف على رجله خرقا وركب ولم يضع رجله في الركاب وركبت أنا وأصحابي وصعدنا الى الجبل في طريق قد نحتت وسويت فوصلنا الى موضع السلطان عند الزوال فنزلنا على نهر ماء تحت ظلال شجر الجوز وصادفنا السلطان في قلق وشغل بال بسبب فرار ابنه الاصغر سليمان عنه الى صهره السلطان أرخان بك فلما بلغه خبر وصولنا بعث الينا ولديه خضر بك وعمر بك فسلما على الفقيه وأمرهما بالسلام علي ففعلا ذلك وسالاني عن حالي ومقدمي وانصرفا وبعث الي بيت يسمي عندهم الخرقة (خركاه) وهو عصي من الخشب تجمع شبه القبة وتجعل عليها اللبود ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح مثل البادهنج ويسدمتى احتيج الى سده وأتوا بالفرش ففرشوه وقعد الفقيه وقعدت معه وأصحابه وأصحابي خارج البيت تحت ظلال شجر الجوز وذلك الموضع شديد البرد ومات لي تلك الليلة فرس من شدة البرد ولما كان من الغد ركب المدرس الى السلطان وتكلم في شأني بما اقتضته فضائله ثم عاد الي وأعلمني بذلك وبعد ساعة وجه السلطان في طلبنا معا فجئنا الى منزله ووجدناه قائما فسلمنا عليه وقعد الفقيه عن يمينه وأنا مما يلي الفقيه فسالني عن حالي ومقدمي وسالني عن الحجاز ومصر والشام واليمن والعراقين وبلاد الاعاجم ثم حضر الطعام فاكلنا وانصرفنا وبعث الارز والدقيق والسمن في كروش الاغنام وكذلك فعل الترك وأقمنا على تلك الحال أياما يبعث

الينا في كل يوم فنحضر طعامه وأتى يوما الينا بعد الظهر وقعد الفقيه في صدر المجلس وأنا عن يساره وقعد السلطان عن يمين الفقيه وذلك لعزة الفقهاء عند الترك وطلب مني ان أكتب له أحاديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبتها له وعرضها الفقيه عليه في تلك الساعة فامره ان يكتب له شرحها باللسان التركي ثم قام فخرج ورأى الخدام يطبخون لنا الطعام تحت ظلال الجوز بغير ازر ولا خضر فامر بعقاب صاحب خزانته وبعث بالازار والسمن وطالبات إقامتنا بذلك الجبل فادركني الملل وأردت الانصراف وكان الفقيه أيضا قد مل من المقام هنالك فبعث الي السلطان يخبره اني أريد السفر فلما كان من الغد بعث السلطان نائبه فتكلم مع المدرس بالتركية ولم أكن اذ ذاك أفهمها فاجابه عن كلامه وانصرف فقال لي المدرس أتدري ماذا قال قلت لا أعرف ماقال قال ان السلطان بعث الي ليسالني ماذا يعطيك فقلت له عنده الذهب والفضة والخيل والعبيد فليعطه ما أحب من ذلك فذهب الى السلطان ثم عاد الينا فقال ان السلطان يامرانا تقيمها هنا اليوم وتنزلا معه غدا الى داره بالمدينة فلما كان من الغد بعث فرساجيدا من مراكبه ونزل ونحن معه الى المدينة فخرج الناس لاستقباله وفيهم القاضي المذكور آنفا وسواه ودخل السلطان ونحن معه فلما نزل بباب داره ذهبت مع المدرس الى ناحية المدرسة فدعانا وأمرنا بالدخول معه الى داره فلما وصلنا الى دهليز الدار وجدنا من خدامه نحو عشرين صورهم فائقة الحسن وعليهم ثياب الحرير وشعورهم مفروقة مرسلة والوانهم ساطعة البياض مشربة بحمرة فقلت للفقيه ماهذه الصور الحسان فقال هؤلاء فتيان روميون وصعدنا مع السلطان درجا كثيرة الى ان انتهينا الى مجلس حسن في وسطه صهريج ماء وعلى كل ركن من أركانه صورة سبع من نحاس يمج ماء من فيه وتدور بهذا المجلس مصاطب متصلة مفروشة وفوق احداها مرتبة السلطان فلما انتهينا اليها نحى السلطان مرتبته بيده وقعد معنا على الاقطاع وقعد الفقيه عن يمينه والقاضي مما يلي الفقيه وأنا مما يلي القاضي وقعد القراء أسفل المصطبة والقراء لا يفارقونه حيث كان من مجالسه ثم جاؤا بصحاف من الذهب والفضة مملوءة بالجلاب المحلول قد عصر فيه ماء الليمون وجعل فيه كعكات صغار مقسومة وفيها ملاعق ذهب وفضة وجاؤا معها بصحاف صيني فيها مثل ذلك وفيها ملاعق خشب فمن تورع استعمل صحاف الصيني وملاعق الخشب وتكلمت بشكر السلطان وأثنيت على الفقيه وبالغت في ذلك فاعجب ذلك السلطان وسره

— حكاية —

وفي اثناء قعودنا مع السلطان اتي شيخ على رأسه عمامة لها ذؤابة فسلم عليه وقام له

القاضي والفقيه وقعد امام السلطان فوق المصطبة والقراء أسفل منه فقلت للفقيه من هذا الشيخ فضحك وسكت ثم أعدت السؤال فقال لي هذا يهودي طبيب وكنا محتاج اليه فلاجل هذا فعلنا مارأيت من القيام له فاخذني ماحدث وقدم من الامتعاض فقلت لليهودي ياملعون ابن ملعون كيف تجلس فوق قراء القرآن وأنت يهودي وشتمته ورفعت صوتي فعجب السلطان وسال عن معنى كلامي فاخبره الفقيه به وغضب اليهودي فخرج عن المجلس في أسوإ حال ولما انصرفنا قال لي الفقيه أحسنت بارك الله فيك ان أحدا سواك لا يتجاسر على مخاطبته بذلك ولقد عرفته بنفسه

— حكاية أخرى —

وسالني السلطان في هذا المجلس فقال لي هل رأيت قط حجرا نزل من السماء فقلت مارأيت ذلك ولا سمعت به فقال لي انه قد نزل بخارج بلدنا هذا حجر من السماء ثم دعا رجالا وأمرهم ان ياتوا بالحجر فاتوا بحجر أسود أصم شديد الصلابة له بريق قدرت ان زنته تبلغ قنطارا وأمر السلطان باحضار القطاعين فحضر أربعة منهم فامرهم أن يضربوه فضربوا عليه ضربة رجل واحد أربع مرات بمطارق الحديد فلم يؤثروا فيه شيا فعجبت من أمره وأمر برده الى حيث كان وفي ثالث يوم من دخولنا الى المدينة مع السلطان صنع صنيعا عظيما ودعا الفقهاء والمشايخ وأعيان العسكر ووجوه أهل المدينة فطعموا وقرأ القراء القرآن بالاصوات الحسان وعدنا الى منزلنا بالمدرسة وكان يوجه الطعام والفاكهة والحلواء والشمع في كل ليلة ثم بعث الى مائة مثقال ذهبا والف درهم وكسوة كاملة وفرسا ومملوكا روميا يسمى ميخائيل وبعث لكل من أصحابي كسوة ودراهم كل هذا بمشاركة المدرس محيي الدين جزاه الله تعالى خيرا وودعنا وانصرفنا وكانت مدة مقامنا عنده بالجبل والمدينة أربعة عشر يوما ثم قصدنا مدينة تيرة وهي من بلاد هذا السلطان (وضبط اسمها بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء) مدينة حسنة ذات أنهار وبساتين وفواكه نزلنا منها بزاوية الفتى أخي محمد وهو من كبار الصالحين صائم الدهر وله أصحاب على طريقته فاضافنا ودعا لنا وسرنا الى مدينة أياسلوق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والياء آخر الحروف وسين مهمل مضموم ولام مضموم وآخره قاف) مدينة كبيرة قديمة معظمة عند الروم وفيها كنيسة كبيرة مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشرة أذرع فما دونها منحوتة أبدع نحت والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له في الحسن وكان كنيسة للروم معظمة عندهم يقصدونها من البلاد فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا

Digitized by Birzeit University Library

جامعا وحيطانه من الرخام الملون وفرشه الرخام الابيض وهو مسقف بالرصاص وفيه احدى عشرة قبة منوعة في وسط كل قبة صهريج ماء والنهر يشقه وعن جانبي النهر الاشجار المختلفة الاجناس ودوالى العنب ومعرشات الياسمين وله خمسة عشر بابا وأمير هذه المدينة خضر بك ابن السلطان محمد بن آيدين وقد كنت رأيته عند أبيه ببركى ثم لقيته بهذه المدينة خارجها فسلمت عليه وانا راكب فكره ذلك مني وكان سبب حرماني لديه فان عادتهم اذا نزل لهم الوارد نزلوا له وأعجبهم ذلك ولم يبعث الى الاثنين واحدا من الحرير المذهب يسمونه النخ (بفتح النون وخاء معجم) واشتريت بهذه المدينة جارية رومية بكرا باربعين دينارا ذهبا ثم سرنا الى مدينة يزمير (وضبط اسمها بياء آخر الحروف مفتوحة وزاى مسكن وميم مكسورة وياء مد وراء) مدينة كبيرة على ساحل البحر معظمها خراب ولها قلعة متصلة باعلاها نزلنا منها بزاوية الشيخ يعقوب وهو من الاحمدية صالح فاضل ولقينا بخارجها الشيخ عزالدين بن أحمد الرفاعي ومعه زاده الاخلاطي من كبار المشايخ ومعه مائة فقير من الملهين وقد ضرب لهم الامير الاخبية وصنع لهم الشيخ يعقوب ضيافة وحضرتها واجتمعت بهم وأمير هذه المدينة عمر بك ابن السلطان محمد بن آيدين المذكور آنفا وسكناه بقلعتها وكان حين قدومنا عليها عند أبيه ثم قدم بعد خمس من نزولنا بها فكان من مكارمه ان أتى الى بالزاوية فسلم علي واعتذر وبعث ضيافة عظيمة وأعطاني بعد ذلك مملوكا رومية خماسيا اسمه نقوله وثوبين من الكمخا وهي ثياب حرير تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور وبالصين وذكر لي الفقيه الذي يؤم به ان الامير لم يبق له مملوك سوي ذلك المملوك الذى أعطاني بسبب كرمه رحمه الله وأعطى أيضا للشيخ عزالدين ثلاثة أفراس مجهزة وآنية فضة كبيرة تسمي عندهم المشربة مملوءة دراهم وثيابا من الملف والمرعز والقسي والكمخا وجواري وغلمانا وكان هذا الامير كريما صالحا كثير الجهاد له أجفان غزوية يضرب بها على نواحي القسطنطينية العظمي فيسبي ويغنم ويفني ذلك كرما وجودا ثم يعود الى الجهاد الى ان اشتدت على الروم وطاته فرفعوا أمرهم الى البابا فامر نصارى جنوة وافرانسة بغزوه فغزوه وجهز جيشا من رومية وطرقوا مدينته ليلا في عدد كثير من الاجفان وملكوا المرسى والمدينة ونزل اليهم الامير عمر من القلعة فقاتلهم فاستشهد هو وجماعة من ناسه واستقر النصاري بالبلد ولم يقدروا على القلعة لمنعتها ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة مغنيسية (وضبط اسمها بميم مفتوحة وغين معجمة مسكنة ونون مكسورة وياء مد وسين مهملة مكسورة وياء آخر الحروف

Digitized by Birzeit University Library

مشددة) نزلنا بها عشى يوم عرفة بزاوية رجل من الفتيان وهى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل و بسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والفواكه

— ذكر سلطان مغنيسية —

وسلطانها يسمى صاروخان ولما وصلنا الى هذه البلدة وجدنا بتربة ولده وكان قد توفى منذ أشهر فكان هو وأم الولد ليلة العيد وصبيحتها بتربته والولد قد صبر وجعل فى تابوت خشب مغشى بالحديد المقزدر وعاق فى قبة لا سقف لها لان تذهب رائحته وحينئذ تسقف القبة ويجعل تابوته ظاهراً على وجه الارض وتجعل ثيابه عليه وهكذا رأيت غيره أيضا من الملوك فعل وسلمنا عليه بذلك الموضع وصلينا معه صلاة العيد وعدنا الى الزاوية فأخذ الغلام الذى كان لى افراسنا وتوجه مع غلام لبعض الاصحاب برسم سقيها فأبطأ ثم لما كان العشى لم يظهر لهما أثر وكان بهذه المدينة الفقيه المدرس الفاضل مصلح الدين فركب معى الى السلطان وأعلمناه بذلك فبعث فى طلبهما فلم يوجدا واشتغل الناس فى عيدهم وقصدا مدينة للكفار على ساحل البحر تسمى فوجة على مسيرة يوم من مغنيسية وهؤلاء الكفار فى بلد حصين وهم يبعثون هدية فى كل سنة الى سلطان مغنيسية فيقنع منهم بها لحصانة بلدهم فلما كان بعد الظهر أتى بهما بعض الاتراك و بالافراس وذكروا انهما اجتازا بهم عشية النهار فانكروا أمرهما واشتدوا عليهما حتى أقرا بما عزما عليه من الفرار ثم سافرنا من مغنيسية و بتنا ليلة عند قوم من التركمان قد نزلوا فى مرعى لهم ولم نجد عندهم ما نعلف به دوابنا تلك الليلة وبات اصحابنا يحترسون مداولة بينهم خوف السرقة فاتت نوبة الفقيه عفيف الدين التوزرى فسمعته يقرأ سورة البقرة فقلت له اذا أردت النوم فاعلمنى لانظر من يحرس ثم نمت فما أيقظنى الا الصباح وقد ذهب السراق بفرس لى كان يركبه عفيف الدين بسرجه ولجامه وكان من جياد الخيل اشتريته بالاسلوق ثم رحلنا من الغد فوصلنا الى مدينة برغمة (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة وراء مسكنة وغين معجمة مفتوحة وميم مفتوحة) مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة على جبل ويقال ان افلاطون الحكيم من أهل هذه المدينة وداره تشتهر باسمه الى الآن ونزلنا منها بزاوية فقبر من الاحمدية ثم جاء أحد كبراء المدينة فنقلنا الى داره وأكرمنا اكراما كثيرا

— ذكر سلطان برغمه —

وسلطانها يسمى يخشى خان بكسر الشين وخان عندهم هو السلطان و يخشى (بياء آخر الحروف وخاء معجم وشين معجم مكسور) ومعناه جيد صادفناه فى مصيف له فاعلم

Digitized by Birzeit University Library

بقدومنا فبعث بضيافة وثوب قدسي ثما كتر ينامن يدلنا على الطريق وسرنا في جبال شاهقة وعرة الى أن وصلنا الى مدينة بلي كسري (وضبط اسمها بباء موحدة مفتوحة ولام مكسور وياء مدوكاف مفتوح وسين مهمل مسكن وراء مكسور وياء) مدينة حسنة كثيرة العمارات مليحة الاسواق ولا جامع لها يجمع فيه وأرادوا بناء جامع خارجها متصل بها فبنوا حيطانه ولم يجعلوا له سقفا وصاروا يصلون به ويجتمعون تحت ظلال الاشجار ونزلنا من هذه المدينة بزاوية الفتى أخي سنان وهو من أفاضلهم وأتي الينا قاضيها وخطيبها الفقيه موسي

— ذكر سلطان بلي كسري —

ويسمي دمورخان ولا خير فيه وأبوه هو الذي بني هذه المدينة وكثرت عمارتها بمن لا خير فيه في مدة ابنه هذا والناس على دين الملك ورايته وبعث الى ثوب حرير واشتريت بهذه المدينة جارية رومية تسمي مرغليطة ثم سرنا الى مدينة برصى (وضبط اسمها بضم الباء الموحدة واسكان الراء وفتح الصاد المهمل) مدينة كبيرة عظيمة حسنة الاسواق فسيحة الشوارع تحفها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية وبخارجها نهر شديد الحرارة يصب في بركة عظيمة وقد بني عليها بيتان أحدهما للرجال والآخر للنساء والمرضى يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصي البلاد وهنالك زاوية للواردين ينزلون بها ويطعمون مدة مقامهم وهي ثلاثة أيام عمرهذه الزاوية أحد ملوك التركمان ونزلنا في هذه المدينة بزاوية الفتي أخي شمس الدين من كبار الفتيان ووافقنا عنده يوم عاشوراء فصنع طعاما كثيراً ودعا وجوه العسكر وأهل المدينة ليلا وأفطروا عنده وقرأ القراء بالاصوات الحسنة وحضر الفقيه الواعظ مجد الدين القونوي ووعظ وذكر واحسن ثم أخذوا في السماع والرقص وكانت ليلة عظيمة الشأن وهذا الواعظ من الصالحين يصوم الدهر ولا يفطر الا في كل ثلاثة أيام ولا يأكل الا من كد يمينه ويقال انه لم يأكل طعام أحد قط ولا منزل له ولا متاع الا ما يستتر به ولا ينام الا في المقبرة ويعظ في المجالس ويذكر فيتوب على يديه في كل مجلس الجماعة من الناس وطلبته بعد هذه الليلة فلم أجده وأتيت الجبانة فلم أجده ويقال انه يأتيها بعد هجوع الناس

— حكاية —

لما حضرنا ليلة عاشوراء بزاوية شمس الدين وعظ بها مجد الدين من آخر الليل فصاح أحد الفقراء صيحة غشي عليه منها فصبوا عليه ماء الورد فلم يفق فأعادوا عليه ذلك فلم يفق واختلفت الناس فيه فمن قائل انه ميت ومن قائل انه مغشى عليه وأتم الواعظ كلامه وقرأ القراء وصلينا الصبح وطلعت الشمس فاختبروا حال الرجل فوجدوه فارق

الدنيا رحمه الله فاشتغلوا بغسله وتكفينه وكنت فيمن حضر الصلاة عليه ودفنه وكان هذا الفقير يسمي الصياح وذكروا انه كان يتعبد بغار هنالك في جبل فمتى علم ان الواعظ مجد الدين يعظ قصده وحضر وعظه ولم يأكل طعام أحد فاذا وعظ مجد الدين بصيح ويغشى عليه ثم يفيق فيتوضأ ويصلي ركعتين ثم اذا سمع الواعظ صاح يفعل ذلك مرارا في الليلة وسمي الصياح لاجل ذلك وكان أعذر اليد والرجل لا قدرة له على الخدمة وكانت له والدة تقوته من غزلها فلما توفيت اقتات من نبات الارض وانقيت بهذه المدينة الشيخ الصالح عبد الله المصري السائح وهو من الصالحين جال الارض الا انه لم يدخل الصين ولا جزيرة سرنديب ولا المغرب ولا الاندلس ولا بلاد السودان وقد زدت عليه بدخول هذه الاقاليم

— ذكر سلطان برصا —

وسلطانها اختيار الدين أرخان بك وأرخان (بضم الهمزة وخاء معجم) ابن السلطان عثمان جوق (وجوق بجيم معقود مضموم وآخره قاف) وتفسيره بالتركية الصغير وهذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا له من الحصون ما يقارب مائة حصن وهو في أكثر أوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياما لاصلاح شؤونه وتفقد حاله ويقال انه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ويقاتل الكفار ويحاصره ووالده هو الذي استفتح مدينة برصا من أيدي الروم وقهره بمسجدها وكان مسجدها كنيسة للنصارى ويذكر انه حاصر مدينة برتيك نحو عشرين سنة ومات قبل فتحها فحاصرها ولده هذا الذي ذكرناه اثنتي عشرة سنة وافتتحها وبها كان لقائي له وبعث الي بدراهم كثيرة ثم سافرنا الى مدينة يزنيك (وضبط اسمها بفتح الياء آخر الحروف وإسكان الزاي وكسر النون وياء مدوكاف) وبتنا قبل الوصول اليها ليلة بقرية تدعى كرلة بزاوية فتى من الاخية ثم سرنا من هذه القرية يوما كاملا في انهار ماء على جوانبها أشجار الرمان الحلو والحامض ثم وصلنا الى بحيرة ماء تنبت القصب على ثمانية أميال من يزنيك لا يستطاع دخولها الا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها الا فارس واحد وبذلك امتنعت هذه المدينة والبحيرة محيطة بها من جميع الجهات وهي خاوية على عروشها لا يسكن بها الا أناس قليلون من خدام السلطان وبها زوجته بيون خاتون وهي الحاكمة عليهم امرأة صالحة فاضلة وعلى المدينة أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل اليها على جسور خشب متى أرادوا رفعها رفعوها وبداخل المدينة البساتين والدور والارض والمزارع فلكل انسان داره ومزرعته وبستانه مجموعة وشربها من آبار بها قريبة وبها من

Digitized by Birzeit University Library

جميع أصناف الفواكه والجوز والقسطل عندهم كثير جدا رخيص الثمن ويسمون القسطل قسطنة بالنون والجوز القوز بالقاف وبها العنب العذارى لم أر مثله في سواها متناهي الحلاوة عظيم الجرم صافي اللون رقيق القشر للحبة منه نواة واحدة انزلنا بهذه المدينة الفقيه الامام الحاج المجاور علاء الدين السلطانيوكي وهو شيخ الفضلاء الكرماء ماجئت قطا لي زيارته الا أحضر الطعام وصورته حسنة وسيرته أحسن وتوجه معي الى الخاتون المذكورة فاكرمت وأضافت وأحسنت وبعد قدومنا بايام وصل الى هذه المدينة السلطان أرخان بك الذي ذكرناه وأقمت بهذه المدينة نحو أربعين يوما بسبب مرض فرس لي فلما طال على المكث تركته وانصرفت ومعي ثلاثة من أصحابي وجارية وغلامان وليس معنا من يحسن اللسان التركي ويترجم عنا وكان لنا ترجمان فارقنا بهذه المدينة ثم خرجنا منها قبلنا بقرية يقال لها بكجا (بفتح الميم والكاف والجيم) بقنا عند فقيه بها أكرمنا وأضافنا وسافرنا من عنده ونقدمتنا امرأة من الترك على فرس ومعها خديم لها وهي قاصدة مدينة ينجا ونحن في اتباع اثرها فوصلت الى واد كبير يقال له سقري كأنه نسب الى سقر أعاذنا الله منها فذهبت تجوز الوادي فلما توسطته كادت الدابة تغرق بها ورمتها عن ظهرها وأراد الخديم الذي كان معها استخلاصها فذهب الوادي بهما معا وكان في عدوة الوادي قوم رموا بانفسهم في اثرهما سباحة فاخرجوا المرأة وبها من الحياة رمق ووجدوا الرجل قد قضى نحبه رحمه الله وأخبرنا أولئك الناس ان المعدية أسفل من ذلك الموضع توجهنا اليها وهي أربع خشبات مربوطة بالحبال يجعلون عليها سروج الدواب والمتاع ويجذبها الرجال من العدوة الاخرى ويركب عليها الناس وتجاز الدواب سباحة وكذلك فعلنا ووصلنا تلك الليلة الى كاوية واسمها على مثال فاعلة من الكي نزلنا منها بزاوية أحد الاخية فكلمناه بالعربية فلم يفهم عنا وكلمنا بالتركية فلم نفهم عنه فقال اطلبوا الفقيه فانه يعرف العربية فاتي الفقيه فكلمنا بالفارسية وكلمناه بالعربية فلم يفهمها منا فقال للفقي ايشان عربي كهنا ميقوان (ميكويند ومن عربي نوا ميدانم ايشان معناه هؤلاء وكهنا قديم وميقوان يقولون ومن أنا نو جديد وميدانم تعرف وانما أراد الفقيه بهذا الكلام ستر نفسه عن الفضيحة حين ظنوا أنه يعرف اللسان العربي وهو لا يعرفه فقال لهم هؤلاء يتكلمون بالكلام العربي القديم وأنا لا أعرف الا العربي الجديد فظن الفقي ان الامر على ما قاله الفقيه ونفعنا ذلك عنده وبالغ في اكرامنا وقال هؤلاء تجب كرامتهم لانهم يتكلمون باللسان العربي القديم وهو لسان النبي صلى الله عليه وسلم تسليما وأصحابه ولم نفهم كلام الفقيه

اذ ذاك ليكنني حفظت لفظه فلما تعلمت اللسان الفارسي فهمت مرادهم وبتنا تلك الليلة بالزاوية وبعث معنا دليلا الي ينجا وضبط اسمها (بفتح الياء آخر الحروف وكسر النون وجيم) بلدة كبيرة حسنة بحثنا بها عن زاوية الاخي فوجدنا بها أحد الفقراء الموهبين فقلت له هذه زاوية الاخي فقال لي نعم فسررت عند ذلك اذ وجدت من يفهم اللسان العربي فلما اختبرته أبرز الغيب انه لا يعرف من اللسان العربي الا كلمة نعم خاصة ونزلنا بالزاوية وجاء الينا أحد الطلبة بطعام ولم يكن الاخي حاضرا وحصل الانس بهذا الطالب ولم يكن يعرف اللسان العربي لكنه تفضل وتكلم مع نائب البلدة فاعطاني فارساً من أصحابه وتوجه معنا الى كبنوك (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الباء وضم النون) وهي بلدة صغيرة يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وليس بها غير بيت واحد من المسلمين وهم الحكام عليهم وهي من بلاد السلطان أرخان بك فنزلنا بدار عجوز كافرة وذلك ابان الثلج والشتاء فاحسنا اليها وبتنا عندها تلك الليلة وهذه البلدة لا شجر بها ولا دو الي العنب ولا يزدرع بها الا الزعفران وأتتنا هذه العجوز بزعفران كثير وظننت أننا تجار نشتريه منها ولما كان الصباح ركبنا وأتانا الفارس الذي بعثه الفتى معنا من كاوية فبعث معنا فارساً غيره ليوصلنا الى مدينة مطرني وقد وقع في تلك الليلة ثلج كثير عفى الطرق فتقدمنا ذلك الفارس فاتبعنا أثره الى ان وصلنا في نصف النهار الى قرية للتركمان فاتوا بطعام فاكلنا منه وكلمهم ذلك الفارس فركب معنا أحدهم وسلك بنا أوعارا وجبالا ومجرى ماء تكرر لنا جوازه أزيد من الثلاثين مرة فلما خلصنا من ذلك قال لنا ذلك الفارس أعطوني شيئا من الدراهم فقلنا له اذا وصلنا الى المدينة نعطيك ونرضيك فلم يرض ذلك منا أو لم يفهم عنا فاخذ قوسا لبعض أصحابي ومضي غير بعيد ثم رجع فرد الينا القوس فاعطيته شيئا من الدراهم فاخذها وهرب عنا وتركنا لا نعرف أين نقصد ولا طريق يظهر لنا فكنا نتلمح أثر الطريق تحت الثلج ونسلكه الى أن بلغنا عند غروب الشمس الى جبل يظهر الطريق به لكثرة الحجارة فخفت الهلاك على نفسي ومن معي وتوقعت نزول الثلج ليلا ولا عمارة هنا لك فان نزلنا عن الدواب هلكنا وان سرنا ليلتنا لا نعرف أين نتوجه وكان لي فرس من الجياد فعملت على الخلاص وقلت في نفسي اذا سلمت لعلي أحتال في سلامة أصحابي فكان كذلك واستودعتهم الله تعالى وسرت وأهل تلك البلاد يدفنون على القبور بيوتا من الخشب يظن رائيها انها عمارة فيجدها قبورا فظهر لي منها كثير فلما كان بعد العشاء وصلت الى البيوت فقلت اللهم اجعلها عامرة فوجدتها عامرة ووفقني

Digitized by Birzeit University Library

الله تعالى الى باب دار فرأيت عليها شيخاً فكلمته بالعربي فكلمني بالتركي وأشار الى بالدخول فاحببته بشان أصحابي فلم يفهم عني وكان من لطف الله ان تلك الدار زاوية للفقراء والواقف بالباب شيخها فلما سمع الفقراء الذين بداخل الزاوية كلامي مع الشيخ خرج بعضهم وكانت بيني وبينه معرفة فسلم على وأخبرته خبر أصحابي وأشرت اليه بان يمضي مع الفقراء لاستخلاص الاصحاب ففعلوا ذلك وتوجهوا مني الى أصحابي وجئنا جميعا الى الزاوية وحمدنا الله تعالى على السلامة وكانت ليلة جمعة فاجتمع أهل القرية وقطعوا ليلتهم بذكر الله تعالى وأتي كل منهم بما تيسر له من الطعام وارتفعت المشقة ورحلنا عند الصباح فوصلنا الى مدينة مطرني عند صلاة الجمعة (وضبط اسمها بضم الميم والطاء المهملة واسكان الراء وكسر النون وياء مد) فنزلنا بزاوية أحد الفتيان الاخية وبها جماعة من المسافرين ولم نجد مربطا للدواب فصلينا الجمعة ونحن في فلق لكثرة الثلج والبرد وعدم المربط فلقينا أحد الحجاج من أهلها فسلم علينا وكان يعرف اللسان العربي فسررت برؤيته وطلبت منه أن يدلنا على مرابط للدواب بالكراء فقال أمار بطها في منزل فلا يتاتى لان أبواب دور هذه البلدة صغار لا تدخل منها الدواب ولكنني أدلكم على سقيفة بالسوق يربط فيها المسافرون دوابهم والذين يأتون لحضور السوق فدلنا عليها وربطنا بها دوابنا ونزل أحد الاصحاب بحانوت خال ازاءها ليحرس الدواب — حكاية —

وكان من غريب ما اتفق لنا اني بعثت أحد الخدام ليشتري التبن للدواب وبعثت أحدهم يشتري السمن فاتى أحدهما بالتبن والآخر دون شيء وهو يضحك فسالناه عن سبب ضحكه فقال انا وقفنا على دكان بالسوق فطلبنا منه السمن فاشار الينا بالوقوف وكلم ولداله فدفعنا له الدراهم فابطا ساعة واتى بالتبن فاخذناه منه وقلنا له انا نريد السمن فقال هذا السمن وأبرز الغيب انهم يقولون للتبن سمن بلسان الترك وأما السمن فيسمي عندهم رباع ولما اجتمعنا بهذا الحاج الذي يعرف اللسان العربي رغبنا منه أن يسافر معنا الى قصطمونية وبينها وبين هذه البلدة مسيرة عشر وكسوته ثوبا مصريا من ثيابي وأعطيته نفقة تركها لعياله وعينت له دابة لركوبه ووعدته الخير وسافر معنا فظهر لنا من حاله انه صاحب مال كثير وله ديون على الناس غير انه ساقط الهمة خسيس الطبع سيء الافعال وكنا نعطيه الدراهم لنفقتنا فياخذ ما يفضل من الخبز ويشتري به الابزار والخضر والملح ويمسك ثمن ذلك لنفسه وذكر لي انه كان يسرق من دراهم النفقة دون ذلك وكنا نحتمله لما كنا نكابده من عدم المعرفة بلسان الترك وانتهت حاله الى ان فضحناه وكنا تقول له في آخر

النهار ياحاج كم سرقت اليوم من النفقة فيقول كذا فنضحك منه ونرضى بذلك ومن أفعاله الحسيسة انه مات لنا فرس فى بعض المنازل فتولى سلخ جلده بيده وباعه ومنها انا نزلنا ليلة عند أخت له فى بعض القرى فجاءت بطعام وفاكهة من الاجاص والتفاح والمشمش والخوخ كلها ميبسة وتجعل فى الماء حتى ترطب فتؤكل ويشرب ماؤها فاردنا ان نحسن اليها فعلم بذلك فقال لا تعطوها شيئاً واعطوا ذلك لى فاعطيناه ارضاءله وأعطيناها احساناً فى خفية بحيث لم يعلم بذلك ثم وصلنا الى مدينة بولى (وضبط اسمها بباء موحدة مضمومة وكسر اللام) ولما انتهينا الى قريب منها وجدنا واديا يظهر فى رأى العين صغيرا فلما دخله بعض أصحابنا وجدوه شديد الجرية والانزعاج فجازوه جميعا وبقيت جارية صغيرة خافوا من تجويزها وكان فرسى خيرا من أفراسهم فاردفتها وأخذت فى جواز الوادى فلما توسطته وقع بى الفرس ووقعت الجارية فاخرجها أصحابى وبها رمق وخلصت أنا ودخلنا المدينة فقصدنا زاوية أحد الفتيان الاخية ومن عوائدهم انه لا نزال النار موقودة فى زواياهم أيام الشتاء أبدا يجعلون فى كل ركن من أركان الزاوية موقد النار ويصنعون لها منافس يصعد منها الدخان ولا يؤذى الزاويه ويسمونها البخارى واحدها بخيرى قال ابن جزى وقد أحسن صفى الدين عبد العزيز بن سرايا الحلى فى قوله فى التورية وتذكرته بذكر البخيرى

ان البخيري مذ فارقتموه غدا * يحثو الرماد على كانونه الترب
لو شئتم انه يمسى أبا لهب * جاءت بغالكم حمالة الحطب

(رجع) قال فلما دخلنا الزاوية وجدنا النار موقودة فنزعت ثيابى ولبست ثيابا سواها واصطليت بالنار واتى الاخى بالطعام والفاكهة وأكثر من ذلك فلله درهم من طائفة ما أكرم نفوسهم وأشد إيثارهم واعظم شفقتهم على الغريب وألطفهم بالوارد وأحبهم فيه وأجملهم احتفالا بامره فليس قدوم الانسان الغريب عليهم الا كقدومه على احب أهله اليه وبتنا تلك الليلة بحال مرضية ثم رحلنا بالغداة فوصلنا الى مدينة كردي بولى (وضبط اسمها بكاف معقودة وفتح الراء والدال المهمل وسكون الياء وباء موحدة مضمومة وواو مدولام مكسورة وياء) وهى مدينة كبيرة فى بسيط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق من أشد البلاد بردا وهى محلات مفترقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم

— ذكر سلطانها —

وهو السلطان شاه بك من متوسطى سلاطين هذه البلاد حسن الصورة والسيرة جميل الخلق قليل العطاء صلينا بهذه المدينة صلاة الجمعة ونزلنا بزاوية منها ولقيت بها الخطيب

الفقيه شمس الدين الدمشقي الحنبلي وهو من مستوطنيها منذ سنين وله بها أولاد وهو
فقيه هذا السلطان وخطيبه ومسموع الكلام عنده ودخل علينا هذا الفقيه بالزاوية فاعلمنا
ان السلطان قد جاء لزيارتنا فشكرته على فعله واستقبلت السلطان فسلمت عليه وجلس
فسألني عن حالي وعن مقدمي وعمن لقيته من السلاطين فاخبرته بذلك كله وأقام ساعة
ثم انصرف وبعث بدابة مسرجة وكسوة وانصرفنا الى مدينة برلو (وضبط اسمها بضم
الباء الموحدة واسكان الراء وضم اللام) وهي مدينة صغيرة على تل تحتها خندق ولها
قلعة باعلى شاهق نزلنا منها بمدرسة فيها حسنة وكان الحاج الذي سافر معنا يعرف مدرسها
وطلبتها ويحضر معهم الدرس وهو على علاته من الطلبة حنفي المذهب ودعانا أمير هذه
البلدة وهو على بك ابن السلطان المكرم سليمان باشاه ملك قسطمونية وسنذكره فصعدنا
اليه الى القلعة فسلمنا عليه فرحب بنا وأكرمنا وسألني عن اسفاري وحالي فاجبته عن
ذلك وأجلسني الى جانبه وحضر قاضيه وكاتبه الحاج علاء الدين محمد وهو من كبار
الكتاب وحضر الطعام فاكلنا ثم قرأ القراء باصوات مبكية والحان عجيبة وانصرفنا وسافرنا
غدا الى مدينة قسطمونية (وضبط اسمها بقاف مفتوح وصاد مهمل مسكن وطاء مهمل
مفتوح وميم مضمومة وواو ونون مكسور وياء آخر الحروف) وهي من أعظم المدن
وأحسنها كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار نزلنا منها بزاوية شيخ يعرف بالاطروش لثقل
سمعه ورأيت منه عجبا وهو ان أحد الطلبة كان يكتب له في الهواء وتارة في الارض
باصبعه فيفهم عنه ويجيبه ويحكي له بذلك الحكايات فيفهمها وأقمنا بهذه المدينة نحو أربعين
يوما فكنا نشتري طابق اللحم الغنمي السمين بدرهمين ونشتري خبزا بدرهمين فيكفينا
ليومنا ونحن عشرة ونشتري حلواء العسل بدرهمين فتكفينا أجمعين ونشتري جوزا
بدرهم وقسطلا بمثله فنأكل منها أجمعون ويفضل باقيها ونشتري حمل الحطب بدرهم
واحد وذلك اوان البرد الشديد ولم أر في البلاد مدينة ارخص اسعارا منها ولقيت بها
الشيخ الامام العالم المفتي المدرس تاج الدين السلطانيوكي من كبار العلماء قرأ بالعراقين
وتبريز واستوطنها مدة وقرأ بدمشق وجاور بالحرمين قديما ولقيت بها العالم المدرس
صدر الدين سليمان الفنيكي من اهل فنيكة من بلاد الروم واضافني بمدرسته التي بسوق
الخيل ولقيت بها الشيخ المعمر الصالح دادا أمير على دخلت عليه بزاويته بمقربة من
سوق الخيل فوجدته ملقيا على ظهره فاجلسه بعض خدامه ورفع بعضهم حاجبيه عن
عينيه ففتحهما وكلمني بالعربي الفصيح وقال قدمت خير مقدم وسألته عن عمره فقال

كنت من أصحاب الخليفة المستنصر بالله وتوفى وأنا ابن ثلاثين سنة وعمرى الآن مائة وثلاث وستون سنة فطلبت منه الدعاء فدعا لى وانصرفت

— ذكر سلطان قسطمونية —

وهو السلطان المكرم سليمان پادشاه (واسمه بباء معقودة وألف ودال مسكن) وهو كبير السن يناهز على سبعين سنة حسن الوجه طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء دخلت عليه بمجلسه فأجلسني الى جانبه وسألني عن حالى ومقدمي وعن الحرمين الشريفين ومصر والشام فأجبته وأمر بانزالى على قرب منه واعطانى ذلك اليوم فرسا عتيقا قرطاسى اللون وكسوة وعين لى نفقة وعلفا وأمر لى بعد ذلك بقمح وشعير نفذلى فى قرية من قرى المدينة على مسيرة نصف يوم منها فلم أجد من يشتريه لرخص الاسعار فأعطيته للحاج الذي كان فى صحبتنا ومن عادة هذا السلطان ان يجلس كل يوم بمجلسه بعد صلاة العصر ويؤتى بالطعام فنفتح الابواب ولا يمنع أحد من حضرى أو بدوى أو غريب أو مسافر من الاكل ويجلس فى أول النهار جلوسا خاصا يأتى ابنه فيقبل يديه وينصرف الى مجلس له ويأتى أرباب الدولة فيأكلون عنده وينصرفون ومن عادته فى يوم الجمعة ان يركب الى المسجد وهو بعيد عن داره والمسجد المذكور هو ثلاث طبقات من الخشب فيصلى السلطان وأرباب دولته والقاضى والفقهاء ووجوه الاجناد فى الطبقة السفلى ويصلى الافندى وهو اخو السلطان وأصحابه وخدامه وبعض أهل المدينة فى الطبقة الوسطى ويصلى ابن السلطان ولى عهده وهو أصغر أولاده ويسمى الجواد وأصحابه ومماليكه وخدامه وسائر الناس فى الطبقة العليا ويجتمع القراء فيقعدون حلقة امام المحراب ويقعد معهم الخطيب والقاضى ويكون السلطان بازاء المحراب ويقرؤن سورة الكهف بأصوات حسان ويكررون الآيات بترتيب عجيب فاذا فرغوا من قراءتها صعد الخطيب المنبر فخطب ثم صلى فاذا فرغوا من الصلاة تنفلوا وقرأ القارىء بين يدى السلطان عشرا وانصرف السلطان ومن معه ثم يقرأ القارىء بين يدى أخي السلطان فاذا أتم قراءتها انصرف هو ومن معه ثم يقرأ القارىء بين يدى ابن السلطان فاذا فرغ من قراءته قام المعرف وهو المذكر فيمدح السلطان بشعر تركى ويمدح ابنه ويدعو لهما وينصرف ويأتى ابن الملك الى دار أبيه بعد ان يقبل يد عمه فى طريقه وعمه واقف فى انتظاره ثم يدخلان الى السلطان فيتقدم أخوه ويقبل يده ويجلس بين يديه ثم يأتى ابنه فيقبل يده وينصرف الى مجلسه فيقعد به مع ناسه فاذا حانت صلاة العصر صلوها جميعا وقبل أخو السلطان يده وانصرف عنه فلا يعود اليه الا فى الجمعة الاخرى وأما الولد فانه يأتى كل يوم غدوة كما ذكرناه

Digitized by Birzeit University Library

ثم سافرنا من هذه المدينة ونزلنا فى زاوية عظيمة باحدي القري من أحسن زاوية رأيتها فى تلك البلاد بناها أمير كبير تاب الى الله تعالى يسمي فخر الدين وجعل النظر فيها لولده والاشراف لمن أقام بالزاوية من الفقراء وفوائد القرية وقف عليها وبنى بازاء الزاوية حماما للسبيل يدخله الوارد والصادر من غير شيء يلزمه وبني سوقا بالقرية ووقفه على المسجد الجامع وعين من اوقاف هذه الزاوية لكل فقير يرد من الحرمين الشريفين أو من الشام ومصر والعراقين وخراسان وسواها كسوة كاملة ومائة درهم يوم قدومه وثلاثمائة درهم يوم سفره والنفقة أيام مقامه وهى الخبز واللحم والارز المطبوخ بالسمن والحلواء ولكل فقير من بلاد الروم عشرة دراهم وضيافة ثلاثة أيام ثم انصرفنا و بتنا ليلة ثانية بزاوية فى جبل شامخ لا عمارة فيه عمرها بعض الفتيا الاخية و يعرف بنظام الدين من أهل قصطمونية ووقف عليها قرية ينفق خراجها على الوارد والصادر بهذه الزاوية وسافرنا من هذه الزاوية الى مدينة صنوب (وضبط اسمها بفتح الصاد وضم النون وآخره باء) وهى مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا واحدة وهى جهة الشرق ولها هنالك باب واحد لا يدخل اليها أحد الا باذن أميرها وأميرها ابراهيم بك ابن السلطان سليمان بادشاه الذى ذكرناه ولما استؤذن لنا عليه دخلنا البلد ونزلنا بزاوية عزالدين أخى جلبى وهي خارج باب البحر ومن هناك يصعد الى جبل داخل فى البحر كمينا سبتة فيه البساتين والمزارع والمياه واكثر فواكه التين والعنب وهو جبل مانع لا يستطاع الصعود اليه وفيه احدى عشرة قرية يسكنها كفار الروم تحت ذمة المسلمين وباعلاه رابطة تنسب للخضر والياس عليهما السلام لا تخلو عن متعبد وعندها عين ماء والدعاء فيها مستجاب وبسفح هذا الجبل قبر الولى الصالح الصحابى بلال الحبشي وعليه زاوية فيها الطعام للوارد والصادر والمسجد الجامع بمدينة صنوب من أحسن المساجد وفى وسطه بركة ماء عليها قبة تقلها أربع أرجل ومع كل رجل سارية تان من الرخام وفوقها مجلس يصعد له على درج خشب وذلك من عمارة السلطان بروانه ابن السلطان علاء الدين الرومي وكان يصلى الجمعة بأعلى تلك القبة وملك بعده ابنه غازى جلبى فلما مات تغلب عليها السلطان سليمان المذكور وكان غازي جلبى المذكور شجاعا مقداما ووهبه الله خاصية في الصبر تحت الماء وفى قوة السباحة وكان يسافر فى الاجفان الحربية لحرب الروم فاذا كانت الملاقاة واشتغل الناس بالقتال غاص تحت الماء وبيده آلة حديد يخرق بها أجفان العدو فلا يشعرون بما حل بهم حتى يدهمهم الغرق وطرقت مرسى بلده مرة أجفان

Digitized by Birzeit University Library

العدو فخرقها واسر من كان فيها وكانت فيه كفاية لا كفاه لها الا انهم يذكرون انه كان يكثر أكل الحشيش وبسببه مات فانه خرج يوما للتصيد وكان مولعا به فاتبع غزالة ودخلت له بين أشجار وزاد في ركض فرسه فعارضته شجرة فضربت رأسه فشد ختـه فمات وتغلب السلطان سليمان على البلد وجعل به ابنه ابراهيم ويقال انه أيضا ياكل ما كان ياكله صاحبه على ان اهل بلاد الروم كلها لا ينكرون أكلها ولقد مررت يوما على باب الجامع بصنوب وبخارجه دكاكين يقعد الناس عليها فرأيت نفرا من كبار الاجناد وبين أيديهم خديم لهم بيده شكارة مملوءة بشيء يشبه الحناء واحدهم يأخذ منها بملعقة ويأكل وأنا أنظر اليه ولا علم لي بما في الشكارة فسالت من كان معي فاخبرني انه الحشيش وأضافنا بهذه المدينة قاضيها ونائب الامير بها ومعلمه ويعرف بابن عبد الرزاق — حكاية —

لما دخلنا هذه المدينة رأينا أهلها ونحن نصلي مسبلي أيدينا وهم حنفية لا يعرفون مذهب مالك ولا كيفية صلاته والمختار من مذهبه هو اسبال اليدين وكان بعضهم يري الروافض بالحجاز والعراق يصلون مسبلي أيديهم فاتهمونا بمذهبهم وسالونا عن ذلك فاخبرناهم اننا على مذهب مالك فلم يقنعوا بذلك منا واستقرت التهمة في نفوسهم حتى بعث الينا نائب السلطان بارنب وأوصى بعض خدامه ان يلازمنا حتى يرى ما نفعل به فذبحناه وطبخناه واكلناه وانصرف الخديم اليه واعلمه بذلك فحينئذ زالت عنا التهمة وبعثوا الينا بالضيافة والروافض لا ياكلون الارنب وبعد أربعة أيام من وصولنا الى صنوب توفيت أم الامير ابراهيم بها فخرجت في جنازتها وخرج ابنها على قدميه كاشفا شعره وكذلك الامراء والمماليك وثيابهم مقلوبة وأما القاضي والخطيب والفقهاء فانهم قلبوا ثيابهم ولم يكشفوا رؤسهم بل جعلوا عليها مناديل من الصوف الاسود عوضا عن العمائم وأقاموا يطعمون الطعام أربعين يوما وهي مدة العزاء عندهم وكانت اقامتنا بهذه المدينة نحو أربعين يوما ننتظر تيسير السفر في البحر الى مدينة القرم فاكترينا مركبا للروم وأقمنا أحد عشر يوما ننتظر مساعدة الريح ثم ركبنا البحر فلما توسطناه بعد ثلاث هال علينا واشتد بنا الامر ورأينا الهلاك عيانا وكنت بالطارمة ومعي رجل من أهل المغرب يسمى أبا بكر فامرته أن يصعد الى أعلى المركب لينظر كيف البحر ففعل ذلك وأتاني بالطارمة فقال لي استودعكم الله ودهمنا من الهول ما لم يعهد مثله ثم تغيرت الريح وردتنا الى مقربة من مدينة صنوب التي خرجنا منها وأراد بعض التجار النزول الى مرساها فمنعت صاحب المركب من انزاله ثم استقامت الريح وسافرنا فلما توسطنا البحر هال علينا وجرى لنا مثل المرة الاولى ثم ساعدت الريح ورأينا جبال البر وقصدنا مرسى

يسمي الكرش فاردنا دخوله فاشار الينا أناس كانوا بالجبل ان لا ندخلوا فخفنا على أنفسنا وظننا ان هنالك أجفانا للعدو فرجعنا مع البر لما قربناه قلت لصاحب المركب أريد ان انزل هاهنا فانزلني بالساحل ورأيت كنيسة فقصدتها فوجدت بها راهبا ورأيت في أحد حيطان الكنيسة صورة رجل عربي عليه عمامة متقلد سيفا وبيده رمح وبين يديه سراج يوقد فقلت للراهب ماهذه الصورة فقال هذه صورة النبي على فاعجبت من قوله وبتنا تلك الليلة بالكنيسة وطبخنا دجاجا فلم نستطع أكلها اذ كانت مما استصحبناه في المركب ورائحة البحر قد علبت على كل ما كان فيه وهذا الموضع الذي نزلنا به هو من الصحراء المعروفة بدشت قفجق (والدشت بالشين المعجم والتاء المثناة) بلسان الترك هو الصحراء وهذه الصحراء خضرة نضرة لا شجر بها ولا جبل ولا تل ولا أبنية ولا حطب وانما يوقدون الاروث ويسمونها الترك (بالزاي المفتوح) فترى كبراءهم يلقطونها ويجعلونها في أطراف ثيابهم ولا يسافر في هذه الصحراء الا في العجل وهي مسيرة ستة أشهر ثلاثة منها في بلاد السلطان محمد أوزبك وثلاثة في بلاد غيره ولما كان الغد من يوم وصولنا الى هذه المرسى توجه بعض التجار من أصحابنا الى من بهذه الصحراء من الطائفة المعروفة بقفجق وهم على دين النصرانية فاكتري منهم عجلة يجرها الفرس فركبناها ووصلنا الى مدينة الكفا (واسمها بكاف وفاء مفتوحتين) وهي مدينة عظيمة مستطيلة على ضفة البحر يسكنها النصارى وأكثرهم الجنويون ولهم أمير يعرف بالدندير ونزلنا منها بمسجد المسلمين — حكاية — ولما نزلنا بهذا المسجد أقمنا به ساعة ثم سمعنا أصوات النواقيس من كل ناحية ولم أكن سمعتها قط فهالني ذلك وأمرت أصحابي أن يصعدوا الصومعة ويقرؤا القرآن ويذكروا الله ويؤذنوا ففعلوا ذلك فاذا برجل قد دخل علينا وعليه الدرع والسلاح فسلم علينا واستفهمناه عن شأنه فاخبرنا انه قاضي المسلمين هنالك وقال لما سمعت القراءة والاذان خفت عليكم فجئت فكاثرون ثم انصرف عنا ومار أينا الا خيرا لما كان من الغد جاء الينا الامير وصنع طعاما فاكلنا عنده وطفنا بالمدينة فرأيناها حسنة الاسواق وكلهم كفار ونزلنا الى مرساها فرأينا مرسى عجيبا به نحو مائتي مركب ما بين حربي وسفري صغيرا وكبيرا وهو من مراسي الدنيا الشهيرة ثم اكترينا عجلة وسافرنا الى مدينة القرم وهي (بكسر القاف وفتح الراء) مدينة كبيرة حسنة من بلاد السلطان المعظم محمد أوزبك خان وعليها أمير من قبله اسمه تلكتمور وضبط اسمه (بتاء مثناة مضمومة ولام مضموم وكاف مسكن وتاء كالاولى مضمومة وميم مضمومة وواو وراء) وكان أحد خدام هذا الامير قد صحبنا في

طريقنا فعرفه بقدومنا فبعث الى مع امامه سعد الدين بفرس ونزلنا بزاوية شيخها زاده الخراساني فاكرمنا هذا الشيخ ورحب بنا وأحسن الينا وهو معظم عندهم ورأيت الناس يأتون للسلام عليه من قاض وخطيب وفقيه وسواهم وأخبرني هذا الشيخ زاده ان بخارج هذه المدينة راهبا من النصارى في دير يتعبد به ويكثر الصوم وانه انتهى الى ان يواصل أربعين يوما ثم يفطر على حبة فول وانه يكاشف بالامور ورغب مني ان أصحبه في التوجه اليه فابيت ثم ندمت بعد ذلك على ان لم أكن رأيته وعرفت حقيقة أمره ولقيت بهذه المدينة قاضيها الاعظم شمس الدين السائلي قاضي الحنفية ولقيت بها قاضي الشافعية وهو يسمى بخضر والفقيه المدرس علاء الدين الاصي وخطيب الشافعية أبا بكر وهو الذي يخطب بالمسجد الجامع الذي عمره الملك الناصر رحمه الله بهذه المدينة والشيخ الحكيم الصالح مظفر الدين وكان من الروم فاسلم وحسن اسلامه والشيخ الصالح العابد مظهر الدين وهو من الفقهاء المعظمين وكان الامير تلكتمور مريضا فدخلنا عليه فاكرمنا وأحسن الينا وكان على التوجه الى مدينة السرا حضرة السلطان محمد أوزبك فعملت في السير في صحبته واشتريت العجلات برسم ذلك

— ذكر العجلات التي يسافر عليها بهذه البلاد —

وهم يسمون العجلة عربة (بعين مهملة وراء وباء موحدة مفتوحات) وهي عجلات تكون للواحدة منهن أربع بكرات كبار ومنها ما يجره فرسان ومنها ما يجره أكثر من ذلك وتجرها أيضا البقر والجمال على حال العربة في ثقلها أو خفتها والذي يخدم العربة يركب احدى الافراس التي تجرها ويكون عليه سرج وفي يده سوط يحركها للمشي وعود كبير يصوبها به اذا عاجت عن القصد ويجعل على العربة شبه قبة من قضبان خشب مربوط بعضها الى بعض بسور جلد رقيق وهي خفيفة الحمل وتكسى باللبد أو بالملف ويكون فيها طيقان مشبكة ويري الذي بداخلها الناس ولا يرونه و يتقلب فيها كما يحب وينام ويأكل ويقرأ ويكتب وهو في حال سيره والتي تحمل الاثقال والازواد وخزائن الاطعمة من هذه العربات يكون عليها شبه البيت كما ذكرنا وعليها قفل وجهزت لما أردت السفر عربة لركوبي مغشاة باللبد ومعي بها جارية لي وعربة صغيرة لرفيقي عفيف الدين التوزري وعجلة كبيرة لسائر الاصحاب يجرها ثلاثة من الجمال يركب أحدها خادم العربة وسرنا في صحبة الامير تلكتمور وأخيه عيسى وولديه قطلو مور وصارو بك وسافر أيضا معه في هذه الوجهة أمامه سعد الدين والخطيب أبو بكر والقاضي شمس الدين

والفقيه شرف الدين موسى والمعرف علاء الدين وخطة هذا المعرف أن يكون بين يدى الامير فى مجلسه فاذا أتي القاضي يقف له هذا المعرف ويقول بصوت عال بسم الله سيدنا ومولانا قاضي القضاة والحكام مبين الفتاوى والاحكام بسم الله واذا أتي فقيه معظم أو رجل مشار اليه قال بسم الله سيدنا فلان الدين بسم الله فيتهيا من كان حاضر الدخول الداخل ويقوم اليه ويفسح له فى المجلس وعادة الاتراك ان يسيروا فى هذه الصحراء سيرا كسير الحجاج فى درب الحجاز يرحلون بعد صلاة الصبح وينزلون ضحى ويرحلون بعد الظهر وينزلون عشيا واذا نزلوا حلوا الخيل والابل والبقر عن العربات وسرحوها للرعى ليلا ونهارا ولا يعلف أحد دابة لا السلطان ولا غيره وخاصية هذه الصحراء ان قباتها يقوم مقام الشعير للدواب وليست لغيرها من البلاد هذه الخاصية ولذلك كثرت الدواب بها ودوابهم لا رعاة لها ولا احراس وذلك لشدة أحكامهم فى السرقة وحكمهم فيها انه من وجد عنده فرس مسروق كلف ان يرده الى صاحبه ويعطيه معه تسعة مثله فان لم يقدر على ذلك أخذ أولاده فى ذلك فان لم يكن له أولاد ذبح كما تذبح الشاة وهؤلاء الاتراك لا ياكلون الخبز ولا الطعام الغليظ وانما يصنعون طعاما من شيء عندهم شبيه الآن بالسمونه الدوقي (بدال مهمل مضموم وواو وقاف مكسور معقود) يجعلون على النار الماء فاذا غلى صبوا عليه شيئا من الدوقى وان كان عندهم لحم قطعوه قطعا صغارا وطبخوه معه ثم يجعل لكل رجل نصيبه في صحفة ويصبون عليه اللبن الرائب ويشربونه ويشربون عليه لبن الخيل وهم يسمونه القمز (بكسر القاف واللميم والزاى المشددة) وهم أهل قوة وشدة وحسن مزاج ويستعملون فى بعض الاوقات طعاما يسمونه البورخاني وهو عجين يقطعونه قطيعات صغارا ويثقبون أوساطها ويجعلونها فى قدر فاذا طبخت صبوا عليها اللبن الرائب وشربوها ولهم نبيذ يصنعونه من حب الدوقى الذى تقدم ذكره وهم يرون أكل الحلواء عيبا ولقد حضرت يوما عند السلطان أوزبك فى رمضان فاحضرت لحوم الخيل وهي أكثر مايا كلون من اللحم ولحوم الاغنام والرشتا وهو شبه الاطرية يطبخ ويشرب باللبن وأتيته تلك الليلة بطبق حلواء صنعها بعض اصحابي فقدمتها بين يديه فجعل أصبعه عليها وجعله على فيه ولم يزد على ذلك وأخبرني الامير تلكتمور أن أحد الكبار من مماليك هذا السلطان وله من أولاده وأولاد أولاده نحو أربعين ولدا قال له السلطان يوما كل الحلواء وأعتقكم جميعا فابى وقال لو قتلتني ما أكلتها ولما خرجنا من مدينة القرم نزلنا بزاوية الامير تلكتمور فى موضع يعرف بسجان فبعث الى أن أحضر عنده فركبت اليه وكان

Digitized by Birzeit University Library

لى فرس معدلر كوبى يقوده خديم العربة فاذا أردت ركوبه ركبته وأتيت الزاوية فوجدت الامير قد صنع بها طعاما كثيرا فيه الخبز ثم أتوا بماء أبيض في صحاف صغار فشرب القوم منه وكان الشيخ مظفر الدين بلى الامير في مجلسه وأنا إليه فقلت له ما هذا فقال هذا ماء الدهن فلم أفهم ما قال فذقته فوجدت له حموضة فتركته فلما خرجت سألت عنه فقالوا هو نبيذ يصنعونه من حب الدوقى وهم حنفية المذهب والنبيذ عندهم حلال ويسمون هذا النبيذ المصنوع من الدوقى البوزه (بضم الباء الموحدة وواو ومدوزاى مفتوح) وانما قال لى الشيخ مظفر الدين ماء الدهن وبعد مسيرة ثمانية عشر منزلا من مدينة القرم وصلنا الى ماء كثير نخوضه يوما كاملا واذا كثر خوض الدواب والعربات في هذا الماء اشتد وحله وزاد صعوبة فذهب الامير الى راحلتي وقدمني أمامه مع بعض خدامه وكتب لى كتابا الى أمير أزاق بعلمه أني أريد القدوم على الملك ويخصه على اكرامي وسرنا حتى انتهينا الى ماء آخر نخوضه نصف يوم ثم سرنا بعده ثلاثا ووصلنا الى مدينة أزاق (وضبط اسمها بفتح الهمزة والزاى وآخره قاف) وهي على ساحل البحر حسنة العمارة يقصدها الجنويون وغيرهم بالتجارات وبها من الفتيان أخي بجقجي وهو من العظماء يطعم الوارد والصادر ولما وصل كتاب القاضي تلكتمور الى أمير أزاق وهو محمد خواجه الخوارزمي خرج الى استقبالي ومعه القاضي والطلبة وأخرج الطعام فلما سلمنا عليه نزلنا بموضع أكلنا فيه ووصلنا الى المدينة ونزلنا بخارجها بمقربة من رابطة هنالك تنسب للخضر والياس عليهما السلام وخرج شيخ من أهل ازاق يسمي برجب النهر ملكي نسبة الى قرية بالعراق فاضفنا بزاويته له ضيافة حسنة وبعد يومين من قدومنا قدم الامير تلكتمور وخرج الامير محمد للقائه ومعه الامير والطلبة وأعد والله الضيافة وضربوا ثلاث قباب متصلا بعضها ببعض احداها من الحرير الملون عجيبة والثنتان من الكتان وأداروا عليها سراجه وهي المسماة عندنا أفراج وخارجها الدهليز وهو على هيئة البرج عندنا ولما نزل الامير بسط بين يديه شقاق الحرير يمشي عليها فكان من مكارمه وفضله أن قدمني أمامه ليري ذلك الامير منزلتي عنده ثم وصلنا الى الخباء الاولى وهي المعدة لجلوسه وفي صدرها كرسي من الخشب لجلوسه كبير مرصع وعليه مرتبة حسنة فقدمني الامير أمامه وقدم الشيخ مظفر الدين وصعد هو فجلس فيما بيننا ونحن جميعا على المرتبة وجلس قاضيه وخطيبه وقاضي هذه المدينة وطلبتها عن يسار الكرسي على فرش فاخرة ووقف ولدا الامير تلكتمور وأخوه والامير محمد

Digitized by Birzeit University Library

وأولاده فى الخدمة ثم أتوا بالاطعمة من لحوم الخيل وسواها وأتوا بالبان الخيل ثم أتوا بالبوزه وبعد الفراغ من الطعام قرأ القراء بالاصوات الحسان ثم نصب منبر وصعده الواعظ وجلس القراء بين يديه وخطب خطبة بليغة ودعا للسلطان وللامير وللحاضرين يقول ذلك بالعربى ثم يفسره لهم بالتركى وفى أثناء ذلك يكرر القراء آيات من القرآن بترجيع عجيب ثم أخذوا فى الغناء يغنون بالعربى ويسمونه القول ثم بالفارسى والتركى ويسمونه المليح ثم أتوا بطعام آخر ولم يزالوا على ذلك الى العشى وكلما أردت الخروج منعنى الامير ثم جاؤا بكسوة للامير وكساوى لولديه وأخيه وللشيخ مظفر الدين ولى وأتوا بعشرة أفراس للامير ولاخيه ولولديه بستة أفراس ولكل كبير من أصحابه بفرس ولى بفرس والخيل بهذه البلاد كثيرة جدا وثمنها زر قيمة الجيد منها خمسون درهما أوستون من دراهمهم وذلك صرف دينار من دنانيرنا أونحوه وهذه الخيل هى التى تعرف بمصر بالاكاديش ومنها معاشهم وهى ببلادهم كالغنم ببلادنا بل اكثر فيكون للتركى منهم آلاف منها ومن عادة الترك المستوطنين تلك البلاد أصحاب الخيل انهم يضعون فى العربات التى تركب فيها نساؤهم قطعة لبد فى طول الشبر مربوطة الى عود رقيق فى طول الذراع فى ركن العربة ويجعل لكل ألف فرس قطعة ورأيت منهم من يكون له عشر قطع ومن له دون ذلك وتحمل هذه الخيل الى بلاد الهند فيكون فى الرفقة منها ستة آلاف وما فوقها وما دونها لكل تاجر المائة والمائتان فما دون ذلك وما فوقه ويستاجر التاجر لكل خمسين منها راعيا يقوم عليها ويرعاها كالغنم ويسمى عندهم القشي ويركب أحدها وبيده عصا طويلة فيها حبل فاذا أراد أن يقبض على فرس منها حاذاه بالفرس الذى هو راكبه ورمى الحبل فى عنقه وجذبه فيركبه ويترك الآخر للرعى واذا وصلوا بها الى أرض السند أطعموها العلف لان نبات أرض السند لا يقوم مقام الشعير ويموت لهم منها الكثير ويسرق ويغرمون عليها بارض السند سبعة دنانير فضة على الفرس بموضع يقال له ششنقار ويغرمون عليها بملتان قاعدة بلاد السند وكانوا فيما تقدم يغرمون ربع ما يجلبونه فرفع ملك الهند الى السلطان محمد ذلك وأمر أن يؤخذ من تجار المسلمين الزكاة ومن تجار الكفار العشر ومع ذلك يبقى للتجار فيها فضل كبير لانهم يبيعون الرخيص منها ببلاد الهند بمائة دينار دراهم وصرفها من الذهب المغربى خمسة وعشرون دينارا وربما باعوها بضعف ذلك وضعفه وضعفيه والجياد منها تساوى خمسمائة دينار وأكثر من ذلك وأهل الهند لا يبتاعونها للجرى والسبق لانهم يلبسون فى الحرب الدروع ويدرعون الخيل وانما يبتغون قوة الخيل واتساع خطاها والخيل التى يبتغونها للسبق تجلب اليهم من

Digitized by Birzeit University Library

اليمن وعمان وفارس ويباع الفرس منها بألف دينار الى أربعة آلاف ولما سافر الامير تلكتمور عن هذه المدينة أقمت بعده ثلاثة أيام حتى جهز لي الامير محمد خواجه آلات سفري وسافرت الى مدينة الماجر وهي (بفتح الميم وألف وجيم مفتوح معقود وراء) مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة نزلنا منها بزاوية الشيخ الصالح العابد المعمر محمد البطائحي من بطائح العراق وكان خليفة الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنه وفي زاويته نحو سبعين من فقراء العرب والفرس والترك والروم منهم المتزوج والعزب وعيشهم من الفتوح ولا هل تلك البلاد اعتقاد حسن في الفقراء وفي كل ليلة يأتون الى الزاوية بالخيل والبقر والغنم ويأتي السلطان والخواتين لزيارة الشيخ والتبرك به ويجزلون الاحسان ويعطون العطاء الكثير وخصوصاً النساء فانهن يكثرن الصدقة ويتحرين أفعال الخير وصلينا بمدينة الماجر صلاة الجمعة فلما قضيت الصلاة صعد الواعظ عز الدين المنبر وهو من فقهاء بخارى وفضلائها وله جماعة من الطلبة والقراء يقرؤن بين يديه ووعظ وذكر وأمير المدينة حاضر وكبراؤها فقام الشيخ محمد البطائحي فقال ان الفقيه الواعظ يريد السفر ونريد له زوادة ثم خلع فروجية مرعز كانت عليه وقال هذه مني اليه فكان الحاضرون بين من خلع ثوبه ومن اعطى فرسا ومن أعطى دراهم واجتمع له كثير من ذلك كله ورأيت بقيسارية هذه المدينة يهودياسلم على وكلمني بالعربي فسألته عن بلاده فذكر انه من بلاد الاندلس وانه قدم منها في البر ولم يسلك بحرا وأتى على طريق القسطنطينية العظمى وبلاد الروم وبلاد الجرجس وذكر ان عهده بالاندلس منذ أربعة أشهر وأخبرني التجار المسافرون الذين لهم المعرفة بذلك بصحة مقاله لما رأيت بهذه البلاد عجباً من تعظيم النساء عندهم وهن أعلى شأناً من الرجال فأما نساء الامراء فكانت أول رؤيتي لهن عند خروجي من القرم رؤية الخاتون زوجة الامير سلطية في عربة لها وكلها مجللة بالملف الازرق الطيب وطيقان البيت مفتوحة وأبوابه وبين يديها أربع جوار فائقات الحسن بديعات اللباس وخلفها جملة من العربات فيها جوار يتبعنها ولما قربت من منزل الامير نزلت عن العربة الى الارض ونزل معها نحو ثلاثين من الجواري يرفعن أذيالها ولا ثوابها عرى تأخذ كل جارية بعروة ويرفعن الاذيال عن الارض من كل جانب ومشت كذلك متبخترة فلما وصلت الى الامير قام اليها وسلم عليها واجلسها الى جانبه ودار بها جوار بها وجاؤا بروايا القمز فصبت منه في قدح وجلست على ركبتها قدام الامير وناولته القدح فشرب ثم سقت أخاه وسقاها الامير وحضر الطعام فأكلت معه

وأعطاه كسوة وانصرفت وعلى هذا الترتيب نساء الامراء وسند كر نساء الملك فيما بعد وأما نساء الباعة والسوقة فرأيتهن واحداهن تسكون فى العربة والخيل تجرها وبين يديها الثلاث والاربع من الجوارى يرفعن أذيالها وعلى رأسها البغطاق وهو أقروف مرصع بالجوهر وفى أعلاه ريش الطواويس وتسكون طيقان البيت مفتحة وهي بادية الوجه لان نساء الاتراك لايحتجبن وتأتى احداهن على هذا الترتيب ومعها عبيدها بالغنم واللبن فتبيعه من الناس بالسلم العطرية وربما كان مع المرأة منهن زوجها فيظنه من يراه بعض خدامها ولا يكون عليه من الثياب الافروة من جلد الغنم وفى رأسه قلنسوة تناسب ذلك يسمونها الكلاو وجهزنا من مدينة الماجر نقصد معسكر السلطان وكان على أربعة أيام من الماجر بموضع يقال له بش دغ ومعني بش عندهم خمسة وهو (بكسر الباء وشين معجم) ومعنى دغ الجبل وهو (بفتح الدال المهمل وغين معجم) وبهذه الجبال الخمسة عين ماء حار يغتسل منها الاتراك ويزعمون انه من اغتسل منها لم تصبه عاهة مرض وارتحلنا الى موضع المحلة فوصلناه أول يوم من رمضان فوجدنا المحلة قد رحلت فعدنا الى الموضع الذى رحلنا منه لان المحلة تنزل بالقرب منه فضربت بيتي على تل هنالك وركزت العلم أمام البيت وجعلت الخيل والعربات وراء ذلك وأقبلت المحلة وهم يسمونها الأردو بضم الهمزة فرأينا مدينة عظيمة تسير بأهلها فيها المساجد والاسواق ودخان المطبخ صاعد فى الهواء وهم يطبخون فى حال رحيلهم والعربات تجرها الخيل بهم فاذا بلغوا المنزل نزلوا البيوت عن العربات وجعلوها على الارض وهى خفيفة الحمل وكذلك يصنعون بالمساجد والحوانيت واجتاز بنا خواتين السلطان كل واحدة بناسها على حدة ولما اجتازت الرابعة منهن وهى بنت الامير عيسى بك وسند كرها رأت البيت باعلى التل والعلم امامه وهو علامة الوارد فبعثت الفتيان والجوارى فسلموا على و بلغوا سلامها الى وهى واقفة تنتظرهم فبعثت اليها هدية مع بعض أصحابي ومع معرف الامير تلكتمور فقبلتها تبركا وأمرت ان أنزل فى جوارها وانصرفت وأقبل السلطان فنزل فى محلته على حدة

— ذكر السلطان المعظم محمد أوزبك خان —

واسمه محمد أوزبك (بضم الهمز وواو وزاى مسكن وباء موحدة مفتوحة) ومعني خان عندهم السلطان وهذا السلطان عظيم المملكة شديد القوة كبير الشأن رفيع المكان قاهر لاعداء الله اهل قسطنطينية العظمى مجتهد فى جهادهم و بلادهم متسعة ومدنه عظيمة منها التكفار والقرم والماجر وازاق وسرداق (سوداق) وخوارزم وحضرته السراو وهو

Digitized by Birzeit University Library

أحد الملوك السبعة الذين هم كبراء الدنيا وعظماؤها وهم مولانا أمير المؤمنين ظل الله فى أرضه امام الطائفة المنصورة الذين لا يزالون ظاهرين على الحق الى قيام الساعة أيد الله أمره وأعز نصره وسلطان مصر والشام وسلطان العراق والسلطان اوزبك هذا وسلطان بلاد تركستان وماوراء النهر وسلطان الهند وسلطان الصين ويكون هذا السلطان اذا سافر فى محلة على حدة معه مما لبكه وأرباب دولته وتكون كل خاتون من خواتينه على حدة فى محلتها فاذا أراد أن يكون عندواحدة منهن بعث اليها يعلمها بذلك فتتهيأ له وله فى قعوده وسفره وأموره ترتيب عجيب بديع ومن عادته أن يجلس يوم الجمعة بعد الصلاة فى قبة تسمى قبة الذهب مزينة بديعة وهى من قضبان خشب مكسوة بصفائح الذهب وفى وسطها سرير من خشب مكسوة بصفائح الفضة المذهبة وقوائمه فضه خالصة ورؤسها مرصعة بالجواهر ويقعد السلطان على السرير وعلى يمينه الخاتون طيطغلى وتليها الخاتون كبك وعلى يساره الخاتون بيلون وتليها الخاتون اردجي ويقف أسفل السرير على اليمين ولد السلطان تين بك وعن الشمال ولده الثانى جان بك ويجلس بين يديه ابنته إيت كجيجك واذا أتت احداهن قام لها السلطان وأخذ بيدها حتى تصعد على السرير وأما طيطغلى وهى الملكة واحظاهن عنده فانه يستقبلها الى باب القبة فيسلم عليها ويأخذ بيدها فاذا صعدت على السرير وجلست حينئذ يجلس السلطان وهذا كله على أعين الناس دون احتجاب ويأتي بعد ذلك كبار الامراء فتنصب لهم كراسيهم عن اليمين والشمال وكل انسان منهم اذا أتي مجلس السلطان يأتى معه غلام بكرسيه ويقف بين يدي السلطان أبناء الملوك من بني عمه واخوته وأقاربه ويقف فى مقامهم عند باب القبة أولاد الامراء الكبار ويقف خلفهم وجوه العساكر عن يمين وشمال ثم يدخل الناس للسلام بالامثل فالامثل ثلاثة ثلاثة فيسلمون وينصرفون فيجلسون على بعد فاذا كان بعد صلاة العصر انصرفت الملكة من الخواتين ثم ينصرف سائرهن ليتبعها الى محلتها فاذا دخلت اليها انصرفت كل واحدة الى محلتها راكبة عربتها ومع كل واحدة نحو خمسين جارية راكبات على الخيل وامام العربات نحو عشرين من قواعد النساء راكبات على الخيل فيما بين الفتيان والعربة وخلف الجميع نحو مائة مملوك من الصبيان وأمام الفتيان نحو مائة من المماليك الكبار ركبانا ومثلهم مشاة بايديهم القضبان والسيوف مشدودة على اوساطهم وهم بين الفرسان والفتيان وهكذا ترتيب كل خاتون منهن فى انصرافها ومجيئها ولا كان نزولى من المحلة فى جوار ولد السلطان جان بك الذى يقع ذكره فيما بعد وفى الغد من يوم وصولى دخلت الى السلطان بعد صلاة العصر وقد جمع المشايخ والقضاة

والفقهاء والشرفاء والفقراء وقد صنع طعاما كثيرا وأفطرنا بمحضره وتكلم السيد الشريف نقيب الشرفاء ابن عبد الحميد والقاضي حمزة فى شانى بالخير وأشاروا على السلطان باكرامى وهؤلاء الاتراك لا يعرفون انزال الوارد ولا اجراء النفقة وانما يعتنون له الغنم والخيل للذبح وروايا القمز وتلك كرامتهم وبعد هذا بايام صليت صلاة العصر مع السلطان فلما أردت الانصراف أمرني بالقعود وجاؤا بالطعام من المشروبات كما يصنع من الدوقى ثم باللحوم المصلوقة من الغنم والخيل وفى تلك الليلة أتيت السلطان بطبق حلواء فجعل أصبعه عليه وجعله على فيه ولم يزد على ذلك

— ذكر الخواتين وترتيبهن —

وكل خاتون منهن تركب فى عربة وللبيت الذي تكون فيه قبة من الفضة المموهة بالذهب أو من الخشب المرصع وتكون الخيل التى تجر عربتها مجللة بأثواب الحرير المذهب وخديم العربة الذى يركب أحد الخيل فتى يدعى القشى والخاتون قاعدة فى عربتها وعن يمينها امرأة من القواعد تسمى أولوخاتون (بضم الهمزة واللام) ومعنى ذلك الوزيرة وعن شمالها امرأة من القواعد أيضا تسمي كجك خاتون (بضم الكاف والجيم) ومعنى ذلك الحاجبة وبين يديها ست من الجوارى الصغار يقال لهن البنات فائقات الجمال متناهيات الكمال ومن ورائها ثنتان منهن تستند اليهن وعلى رأس الخاتون البغطاق وهو مثل التاج الصغير مكلل بالجواهر وباعلاها ريش الطواويس وعليها ثياب حرير مرصعة بالجوهر شبه المنوت (الملوطة) التي يلبسها الروم وعلى رأس الوزيرة والحاجبة مقنعة حرير مزركشة الحواشى بالذهب والجوهر وعلى رأس كل واحدة من البنات الكلاوهو شبه الاقروف وفى أعلاها دائرة ذهب مرصعة بالجوهر وريش الطواويس من فوقها وعلى كل واحدة ثوب حرير مذهب يسمى النخ ويكون بين يدى الخاتون عشرة او خمسة عشر من الفتيان الرومين والهندين وقد لبسوا ثياب الحرير المذهب المرصعة بالجواهر وبيد كل واحد منهم عمود ذهب أو فضة أو يكون من عود ملبس بهما وخلف عربة الخاتون نحو مائة عربة فى كل عربة الثلاث والاربع من الجواري الكبار والصغار ثيابهن الحرير وعلى رؤسهن الكلا وخلف هذه العربات نحو ثلاثمائة عربة تجرها الجمال والبقر تحمل خزائن الخاتون وأموالها وثيابها وأثاثها وطعامها ومع كل عربة غلام موكل بها متزوج بجارية من الجواري التى ذكرنا فان العادة عندهم انه لا يدخل بين الجواري من الغلمان الا من كان له بينهن زوجة وكل خاتون فهى على هذا الترتيب ولنذكرهن على الانفراد

Digitized by Birzeit University Library

والخاتون الكبرى هى الملكة أولدي السلطان جان بك وتين بك وسنذكرهما وليست أم ابنته إبت كجك وأمها كانت الملكة قبل هذه واسم هذه الخاتون طيطغلي (بفتح الطاء المهملة الاولى واسكان الياء آخر الحروف وضم الطاء الثانية واسكان الغين المعجمة وكسر اللام وياء مد) وهى أحظى نساء هذا السلطان عنده وعند ما يبيت أكثر لياليه ويعظمها الناس بسبب تعظيمه لها والافهى أبخل الخواتين وحدثني من أعتمده من العارفين باخبار هذه الملكة ان السلطان يحبها للخاصية التي فيها وهى انه يجدها كل ليلة كأنها بكر وذكر لى غيره انها من سلالة المرأة التي بذكرها زال عن الملك سليمان عليه السلام بسببها وما عاد اليه ملكه أمر ان توضع بصحراء لا عمارة فيها فوضعت بصحراء قفجق وان رحم هذه الخاتون شبه الحلقة خلقة وكذلك كل من هو من نسل المرأة المذكورة ولم أر بصحراء قفجق ولا غيرها من أخبرانه رأى امرأة على هذه الصورة ولا سمع بها الا هذه الخاتون اللهم الا ان بعض أهل الصين أخبرنى ان بالصين صنفا من نسائها على هذه الصورة ولم يقع بيدى ذلك ولا عرفت له حقيقة وفى غد اجتماعى بالسلطان دخلت الى هذه الخاتون وهي قاعدة فيما بين عشر من النساء القواعد كانهن خديمات لها وبين يديها نحو خمسين جارية صغارا يسمون البنات وبين أيديهن طيافير الذهب والفضة مملوءة بحب الملوك وهن ينقينه وبين يدى الخاتون صينية ذهب مملوءة منه وهى تنقيه فسلمنا عليها وكان فى جملة أصحابى قاريء يقرأ القرآن على طريقة المصريين بطريقة حسنة وصوت طيب فقرأ ثم أمرت ان يؤتى بالقمز فاتي به فى أقداح خشب لطاف فاخذت القدح بيدها وناولتنى اياه وتلك نهاية الكرامة عندهم ولم أكن شربت القمز قبلها ولكن لم يمكنى الا قبوله وذقته ولا خير فيه ودفعته لاحد أصحابي وسألتنى عن كثير من حال سفرنا فاجبناها ثم انصرفنا عنها وكان ابتداؤنا بها لاجل عظمتها عند الملك

— ذكر الخاتون الثانية التي تلى الملكة —

واسمها كبك خاتون (بفتح الكاف الاولى وكسر الباء الموحدة) ومعناه بالتركية النخالة وهى بنت الامير نغطى (واسمه بنون وغين معجمة وطاء مهملة مفتوحات وياء مسكنة) وأبوها حي مبتلى بعلة النقرس وقد رأيته وفى غد دخولنا على الملكة دخلنا على هذه الخاتون فوجدناها على مرتبة تقرأ فى المصحف الكريم وبين يديها نحو عشر من النساء القواعد ونحو عشرين من البنات يطرزن ثيابا فسلمنا عليها وأحسنت فى السلام والكلام وقرأ قارئنا

فاستحسنته وأمرت بالقمز فاحضروناولتني القدح بيدها كمثل ما فعلته الملكة وانصرفنا عنها

— ذكر الخاتون الثالثة —

واسمها بيلون (بباء موحدة وياء آخر الحروف كلاهما مفتوح ولام مضموم وواو ومدونون) وهي بنت ملك القسطنطينية العظمى السلطان تكفور ودخلنا على هذه الخاتون وهي قاعدة على سرير مرصع قوائمه فضة وبين يديها نحو مائة جارية روميات وتركيات ونوبيات منهن قائمات وقاعدات والفتيان على رأسها والحجاب بين يديها من رجال الروم فسالت عن حالنا ومقدمنا وبعد أوطاننا وبكت ومسحت وجهها بمنديل كان بين يديها رقة منها وشفقة وأمرت بالطعام فاحضروا كلنا بين يديها وهي تنظر الينا ولما أردنا الانصراف قالت لا تنقطعوا عنا وترددوا الينا وطالبونا بحوائجكم وأظهرت مكارم الاخلاق وبعثت في أثرنا بطعام وخبز كثير وسمن وغنم ودراهم وكسوة جيدة وثلاثة من جياد الخيل وعشرة من سائرها ومع هذه الخاتون كان سفرى الى القسطنطينية العظمى كما نذكره بعد

— ذكر الخاتون الرابعة —

واسمها أردوجا (بضم الهمزة واسكان الراء وضم الدال المهمل وجيم وألف) وأردو بلسانهم المحلة وسميت بذلك لولادتها في المحلة وهي بنت الامير الكبير عيسى بك أمير الالوس (بضم الهمز واللام) ومعناه أمير الامراء وأدركته حيا وهو متزوج ببنت السلطان إبت كججك وهذه الخاتون من أفضل الخواتين وألطفهن شمائل وأشفقهن وهي التي بعثت الي لما رأت بيتي علي التل عند جواز المحلة كما قدمناه دخلنا عليها فرأينا من حسن خلقها وكرم نفسها مالا مزيد عليه وأمرت بالطعام فاكلنا بين يديها ودعت بالقمز فشرب أصحابنا وسالت عن حالنا فاجبناها ودخلنا أيضا الى أختها زوجة الامير علي بن أرزق

— ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك —

واسمها إيت كججك وإيت (بكسر الهمزة وياء مدوتاء مثناة وكججك بضم الكاف وضم الجيمين ومعنى اسمها الكلب الصغير فان إيت هو الكلب وكججك هو الصغير وقد قدمنا ان الترك يسمون بالفال كما تفعل العرب وتوجهنا الى هذه الخاتون بنت الملك وهي في محلة منفردة على نحو ستة أميال من محلة والدها فامرت باحضار الفقهاء والقضاة والسيد الشريف ابن عبد الحميد وجماعة الطلبة والمشايخ والفقهاء وحضر زوجها الامير عيسى الذي بنته زوجة السلطان فقعد معها على فراش واحد وهو معتل بالنقرس فلا يستطيع التصرف على قدميه ولا ركوب الفرس وانما يركب العربة واذا اراد الدخول علي السلطان انزله خدامه وادخلوه

Digitized by Birzeit University Library

الى المجلس محمولا وعلى هذه الصورة رأيت أيضا الامير نغطى وهو أبو الخاتون الثانية وهذه العلة فاشية فى هؤلاء الاتراك ورأينا من هذه الخاتون بنت السلطان من المكارم وحسن الاخلاق مالم نره من سواها وأجزلت الاحسان وأفضلت جزاها الله خيرا

— ذكر ولدي السلطان —

وها شقيقان وأمهما جميعا الملكة طيطغلى التي قدمنا ذكرها والاكبر منهما اسمه تين بك (بتاء معلوة مكسورة وياء مدونون مفتوح) وبك معناه الامير وتين معناه الجسد فكأن اسمه أمير الجسد واسم أخيه جان بك (بفتح الجيم وكسر النون) ومعنى جان الروح فكأنه يسمى أمير الروح وكل واحد منهما له محلة على حدة وكان تين بك من أجمل خلق الله صورة وعهده أبوه بالملك وكانت له الحظوة والتشريف عنده ولم يرد الله ذلك فانه لما مات أبوه ولى يسيرا ثم قتل لامور قبيحة جرت له وولى أخوه جان بك وهو خير منه وأفضل وكان السيد الشريف ابن عبد الحميد هو الذى تولى تربية جان بك وأشار على هو والقاضى حمزة والامام بدر الدين القوامي والامام المقرىء حسام الدين البخارى وسواهم حين قدومي أن يكون نزولى بمحلة جان بك المذكور لفضله ففعلت ذلك

— ذكر سفري الى مدينة بلغار —

وكنت سمعت بمدينة بلغار فأردت التوجه اليها لأري ماذكر عنها من انتهاء قصر الليل بها وقصر النهار أيضا فى عكس ذلك الفصل وكان بينها وبين محلة السلطان مسيرة عشر فطلبت منه من يوصلني اليها فبعث معى من أوصلني اليها وردني اليه ووصلتها فى رمضان فلما صلينا المغرب أفطرنا وأذن بالعشاء فى أثناء إفطارنا فصلينا هاوصلينا التراويح والشفع والوتر وطلع الفجر إثر ذلك وكذلك يقصر النهار بها فى فصل قصره أيضاً وأقمت بها ثلاثا

— ذكر أرض الظلمة —

وكنت أردت الدخول الى أرض الظلمة والدخول اليها من بلغار وبينهما أربعون يوما سير أضربت عن ذلك لعظم المؤنة فيه وقلة الجدوى والسفر اليها لا يكون الا فى عجلات صغار تجرها كلاب كبار فان تلك المفازة فيها الجليد فلا يثبت قدم الآدمى ولا حافر الدابة فيها والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها فى الجليد ولا يدخلها الا الاقوياء من التجار الذين يكون لاحدهم مائة عجلة أونحوها موفرة بطعامه وشرابه وحطبه فانها لا شجر فيها ولا حجر ولا مدر والدليل بتلك الارض هو الكلب الذي قد سار فيها مرارا كثيرة وتنتهى قيمته الى ألف دينار ونحوها وتربط العربة الى عنقه ويقرن معه ثلاثة من الكلاب ويكون

هو المقدم وتتبعه سائر الكلاب بالعربات فاذا وقف وقفت وهذا الكلب لا يضر به صاحبه ولا ينهره واذا حضر الطعام أطعم الكلاب أولا قبل بني آدم والا غضب الكلب وفر وترك صاحبه للتلف فاذا كملت للمسافرين بهذه الفلاة أربعون مرحلة نزلوا عند الظلمة وترك كل واحد منهم ما جاء به من المتاع هنالك وعادوا الى منزلهم المعتاد فاذا كان من الغد عادوا لتفقد متاعهم فيجدون بازائه من السمور والسنجاب والقاقم فان أرضي صاحب المتاع ما وجده ازاء متاعه أخذه وان لم يرضه تركه فيزيدونه وربما رفعوا متاعهم أعني أهل الظلمة وتركوا متاع التجار وهكذا بيعهم وشراؤهم ولا يعلم الذين يتوجهون الى هنالك من يبايعهم ويشاريهم أمن الجن هو أم من الانس ولا يرون أحدا والقاقم هو أحسن أنواع الفراء وتساوى الفروة منه ببلاد الهند ألف دينار وصرفها من ذهبنا مائتان وخمسون وهي شديدة البياض من جلد حيوان صغير في طول الشبر وذنبه طويل يتركونه في الفروة على حاله والسمور دون ذلك تساوي الفروة منه أربعمائة دينار فما دونها ومن خاصية هذه الجلود انه لا يدخلها القمل وأمراء الصين وكبارها يجعلون منه الجلد الواحد متصلا بفروتها عند العنق وكذلك تجار فارس والعراقين وعدت من مدينة بلغار مع الامير الذي بعثه السلطان في صحبتي فوجدت محلة السلطان على الموضع المعروف ببش دغ وذلك في الثامن والعشرين من رمضان وحضرت معه صلاة العيد وصادف يوم العيد يوم الجمعة

— ذكر ترتيبهم في العيد —

ولما كان صباح يوم العيد ركب السلطان في عساكره العظيمة وركبت كل خاتون عربتها ومعها عساكرها وركبت بنت السلطان والتاج على رأسها اذ هي المملكة على الحقيقة ورثت الملك من أمها وركب أولاد السلطان كل واحد في عسكره وكان قد قدم لحضور العيد قاضي القضاة شهاب الدين السايلي ومعه جماعة من الفقهاء والمشايخ فركبوا وركب القاضي حمزة والامام بدر الدين القوامي والشريف ابن عبد الحميد وكان ركوب هؤلاء الفقهاء مع تين بك ولي عهد السلطان ومعهم الاطبال والاعلام فصلى بهم القاضي شهاب الدين وخطب أحسن خطبة وركب السلطان وانتهى الى برج خشب يسمى عندهم الكشك فجلس فيه ومعه خواتينه ونصب برج ثان دونه فجلس فيه ولي عهده وابنته صاحبة التاج ونصب برجان دونهما عن يمينه وشماله فيهما أبناء السلطان وأقاربه ونصبت الكراسي للامراء وأبناء الملوك وتسمى الصندليات عن يمين البرج وشماله فجلس كل واحد على كرسيه ثم نصبت طبلات للرمي لكل أمير طومان طبلة مختصة به

Digitized by Birzeit University Library

وأمير طومان عندهم هو الذى يركب له عشرة آلاف فكان الحاضرون من أمراء طومان سبعة عشر يقودون مائة وسبعين الفا وعسكره أكثر من ذلك ونصب لكل أمير شبه منبر فقعد عليه وأصحابه يلعبون بين يديه فكانوا على ذلك ساعة ثم أتي بالخلع فخلعت على كل أمير خلعة وعند ما يلبسها يأتي الى أسفل برج السلطان فيخدم ويخدمته ان يمس الارض بركبته اليمنى ويمد رجله تحتها والأخرى قائمة ثم يؤتى بفرس مسرج ملجم فيرفع حافره ويقبل فيه الامير ويقوده بنفسه الى كرسيه وهنالك يرتبه ويقف مع عسكره ويفعل هذا الفعل مع كل أمير منهم ثم ينزل السلطان على البرج ويركب الفرس وعن يمينه ابنه ولى العهد وتليه بنته الملكة إيت كججك وعن يساره ابنه الثاني وبين يديه الخواتين الاربع في عربات مكسوة بأثواب الحرير المذهب والحيل التى تجرها مجللة بالحرير المذهب وينزل جميع الامراء الكبار والصغار وأبناء الملوك والوزراء والحجاب وأرباب الدولة فيمشون بين يدى السلطان على أقدامهم الى أن يصل الى الوطاق والوطاق (بكسر الواو) وهو أفراج وقد نصبت هنالك باركة (باركاه) عظيمة والباركة عندهم بيت كبير له أربعة أعمدة من الخشب مكسوة بصفائح الفضة المموهة بالذهب وفى أعلى كل عمود جامور من الفضة المذهبة له بريق وشعاع وتظهر هذه الباركة على البعد كانها ثنية ويوضع عن يمينها ويسارها سقائف من القطن والكتان وينفرش ذلك كله بفرش الحرير وينصب فى وسط الباركة السرير الاعظم وهم يسمونه التخت وهو من خشب مرصع وأعواده مكسوة بصفائح فضة مذهبة وقوائمه من الفضة الخالصة المموهة وفوقه فرش عظيم وفى وسط هذا السرير الاعظم مرتبة يجلس بها السلطان والخاتون الكبرى وعن يمينه مرتبة جلست بها إيت كججك ومعها الخاتون اردواجا وعن يساره مرتبة جلست بها الخاتون بيلون ومعها الخاتون كبك ونصب عن يمين السرير كرسي قعد عليه تين بك ولد السلطان ونصب عن شماله كرسى قعد عليه جان بك ولده الثاني ونصبت كراسى عن اليمين والشمال جلس فوقها ابناء الملوك والامراء الكبار ثم الامراء الصغار مثل امراء هزارة وهم الذين يقودون ألفا ثم اتي بالطعام على موائد الذهب والفضة وكل مائدة يحملها أربعة رجال وأكثر من ذلك وطعامهم لحوم الخيل والغنم مسلوقة وتوضع بين يدى كل أمير مائدة ويأتى الباورجى وهو مقطع اللحم وعليه ثياب حرير وقد ربط عليها فوطة حرير وفى حزامه جملة سكاكين فى أغمادها ويكون لكل أمير باورجي فاذا قدمت المائدة قعد بين يدى أميره ويؤتى بصحفة صغيرة من الذهب أو الفضة فيها ملح محلول بالماء فيقطع الباورجي اللحم قطعا

صغارا وهم في ذلك صنعة في قطع اللحم مختلطا بالعظم فانهم لا يأكلون منه الا ما اختلط بالعظم ثم يؤتى باواني الذهب والفضة للشرب وأكثر شربهم نبيذ العسل وهم حنفية المذهب يحللون النبيذ فاذا أراد السلطان أن يشرب أخذت بنته القدح بيدها وخدمت برجلها ثم ناولته القدح فشرب ثم تاخذ قدحا آخر فتناوله للخاتون الكبرى فتشرب منه ثم تناول لسائر الخواتين على ترتيبهن ثم يأخذ ولى العهد القدح ويخدم ويناوله أباه فيشرب ثم يناول الخواتين ثم أخته ويخدم جميعهن ثم يقوم الولد الثانى فيأخذ القدح ويسقى اخاه ويخدم له ثم يقوم الامراء الكبار فيسقى كل واحد منهم ولى العهد ويخدم له ثم يقوم أبناء الملوك فيسقى كل واحد منهم هذا الابن الثانى ويخدم له ثم يقوم الامراء الصغار فيسقون أبناء الملوك ويغنون أثناء ذلك بالموالية وكانت قد نصبت قبة كبيرة أيضا إزاء المسجد للقاضي والخطيب والشريف وسائر الفقهاء والمشائخ وأنا معهم فاوتينا بموائد الذهب والفضة يحمل كل واحدة أربعة من كبار الاتراك ولا يتصرف فى ذلك اليوم بين يدى السلطان الا الكبار فيأمرهم برفع ما أراد من الموائد الى من أراد فكان من الفقهاء من أكل ومنهم من تورع عن الاكل فى موائد الفضة والذهب ورأيت مد البصر عن اليمين والشمال من العربات عليها روايا القمز فامر السلطان بتفريقها على الناس فاتوا الى بعربة منها فاعطيتها لجيراني من الاتراك ثم أتينا المسجد ننتظر صلاة الجمعة فابطا السلطان فمن قائل انه لا يأتى لان السكر قد غلب عليه ومن قائل انه لا يترك الجمعة فلما كان بعد تمكن الوقت أتى وهو يتمايل فسلم على السيد الشريف وتبسم له وكان يخاطبه بآطا وهو الاب بلسان التركية ثم صلينا الجمعة وانصرف الناس الى منازلهم وانصرف السلطان الى البركة فبقى على حاله الى صلاة العصر ثم انصرف الناس أجمعون وبقي مع الملك تلك الليلة خواتينه وبنته ثم كان رحيلنا مع السلطان والمحلة لما انقضي العيد فوصلنا الى مدينة الحاج ترخان ومعنى ترخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (وهو بفتح المثناة وسكون الراء وفتح الخاء المعجم وآخره نون) والمنسوب اليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركى نزل بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ثم عظمت وتمدنت وهى من أحسن المدن عظيمة الاسواق مبنية على نهر أتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يامر أهل تلك البلاد فياتون بالالآف من احمال التين فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر والتين هنالك لا تاكله الدواب لانه يضرها وكذلك ببلاد الهند وانما أكلها الحشيش الاخضر لخصب البلاد

ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل وربما جازت القوافل فوقه مع آخر فصل الشتاء فيغرقون ويهلكون ولما وصلنا مدينة الحاج ترخان رغبت الخاتون بيلون ابنة ملك الروم من السلطان أن يأذن لها في زيارة أبيها لتضع حملها عنده وتعود اليه فاذن لها ورغبت منه أن يأذن لي في التوجه صحبتها لمشاهدة القسطنطينية العظمى فمنعني خوفا على فلاطفته وقلت له انما أدخلها في حرمتك وجوارك فلا أخاف من أحد فاذن لي وودعناه ووصلني بالف وخمسمائة دينار وخلعة وأفراس كثيرة وأعطتني كل خاتون منهن سبائك الفضة وهم بسمونها مصوم (بفتح الصاد المهمل) واحدتها صومة وأعطت بنته أكثر منهن وكستني واركبتني واجتمع لي من الخيل والثياب وفروات السنجاب والسمور جملة

— ذكر سفري الى القسطنطينية —

وسافرنا في العاشر من شوال في صحبة الخاتون بيلون ونحت حرمتها ورحل السلطان في تشييعها مرحلة ورجع هو والملكة وولي عهده وسافر سائر الخواتين في صحبتها مرحلة ثانية ثم رجعن وسافر صحبتها الامير بيدره في خمسة الآف من عسكره وكان عسكر الخاتون نحو خمسمائة فارس منهم خدامها من المماليك والروم نحو مائتين والباقون من الترك وكان معها من الجواري نحو مائتين وأكثرهن روميات وكان لها من العربات نحو أربعين عربة ونحو ألفي فرس لجرها وللركوب ونحو ثلثمائة من البقر ومائتين من الجمال لجرها وكان معها من الفتيان الروميين عشرة ومن الهنديين مثلهم وقائدهم الاكبر يسمي بسنبل الهندي وقائد الروميين يسمي بميخائيل ويقول له الاتراك لؤلؤ وهو من الشجعان الكبار وتركت أكثر جواريها واثقا لها بمحلة السلطان اذ كانت قد توجهت برسم الزيارة ووضع الحمل وتوجهنا الى مدينة أكك وهي (بضم الهمزة وفتح الكاف الاولى) مدينة متوسطة حسنة العمارة كثيرة الخيرات شديدة البرد وبينها وبين السراحضرة السلطان مسيرة عشر وعلى يوم من هذه المدينة جبال الروس وهم نصارى شقر الشعور زرق العيون قباح الصور أهل غدر وعندهم معادن الفضة ومن بلادهم يؤتي بالصوم وهي سبائك الفضة التي بها يباع ويشتري في هذه البلاد ووزن الصومعة منها خمس أوقي ثم وصلنا بعد عشر من هذه المدينة الى مدينة سرادق (وضبط اسمها بضم السين المهمل وسكون الراء وفتح الدال المهمل وآخره قاف) وهي من مدن دشت قفجق على ساحل البحر ومرساها من أعظم المراسي وأحسنها وبخارجها البساتين والمياه وينزلها الترك وطائفة من الروم تحت ذمتهم وهم أهل الصنائع وأكثر بيوتها خشب وكانت هذه المدينة

كبيرة فخرب معظمها بسبب فتنة وقعت بين الروم والترك وكانت الغلبة للروم فانتصر للترك أصحابهم وقتلوا الروم شر قتلة ونفوا أكثرهم وبقى بعضهم تحت الذمة الى الآن وكانت الضيافة تحمل الى الخاتون فى كل منزل من تلك البلاد من الخيل والغنم والبقر والدوقى والقمز وألبان البقر والغنم والسفر فى هذه البلاد مضحى ومعشى وكل أمير بتلك البلاد يصحب الخاتون بعساكره الى آخر حد بلاده تعظيما لها لا خوفا عليها الان تلك البلاد آمنة ثم وصلنا الى البلدة المعروفة باسم باباسلطوق وباباعندهم بمعناه عند البربر سواء الا انهم يفخمون الباء وسلطوق (بفتح السين المهمل واسكان اللام وضم الطاء المهمل وآخره قاف) ويذكرون ان سلطوق هذا كان مكاشفا لكن يذكر عنه أشياء ينكرها الشرع وهذه البلدة آخر بلاد الاتراك بينها وبين أول عمالة الروم ثمانية عشر يوما فى برية غير معمورة منها ثمانية أيام لا ماء بها يتزود لها الماء ويحمل فى الروايا والقرب على العربات وكان دخولنا اليها فى أيام البرد فلم نحتج الى كثير من الماء والاتراك يرفعون الالبان فى القرب ويخلطونها بالدوقى المطبوخ ويشربونها فلا يعطشون واخذنا من هذه البلدة فى الاستعداد للبرية واحتجت الى زيادة افراس فاتيت الخاتون فاعلمتها بذلك وكنت أسلم عليها صباحا ومساء ومتى أتتها ضيافة تبعث الى بالفرسين والثلاثة وبالغنم فكنت أترك الخيل لاذبحها وكان من معي من الغلمان والخدام يأكلون مع أصحابنا الاتراك فاجتمع لى نحو خمسين فرسا وامرت لى الخاتون بخمسة عشر فرسا وأمرت وكيلها سار وجة الرومى ان يختار هاسمانا من خيل المطبخ وقالت لا تخف فان احتجت الى غيرها زدناك ودخلنا البرية فى منتصف ذى القعدة فكان سيرنا من يوم فارقنا السلطان الى اول البرية تسعة عشر يوما واقمنا خمسة ورحلنا من هذه البرية ثمانية عشر يوما مضحي ومعشى ومارأينا الا خيرا والحمد لله ثم وصلنا بعد ذلك الى حصن مهتولى وهو أول عملة الروم (وضبط اسمه بفتح الميم وسكون الهاء وضم التاء المعلوة وواو مد ولام مكسور وياء) وكانت الروم قد سمعت بقدوم هذه الخاتون على بلادها فوصلنا الى هذا الحصن كفالى نقوله الرومى فى عسكر عظيم وضيافة عظيمة وجاءت الخواتين والدايات من دار ابيها ملك القسطنطينية وبين ومهتولى والقسطنطينية مسيرة اثنين وعشرين يوما منها ستة عشر يوما الى الخليج وستة منه الى القسطنطينية ولا يسافر من هذا الحصن الا بالخيل والبغال وتترك العربات به لاجل الوعر والجبال وجاء كفالى المذكور ببغال كثيرة وبعثت الى الخاتون بستة منها وأوصت أمير ذلك الحصن بمن تركته من أصحابى وغلمانى مع العربات والاثقال فامر لهم بدار ورجع الامير ببدرة بعساكره ولم يسافر مع الخاتون الا ناسها

وتركت مسجدها بهذا الحصن وارتفع حكم الاذان وكان يؤتى اليها بالخمور في الضيافة فتشربها وبالخنازير وأخبرني بعض خواصها انها أكلتها ولم يبق معها من يصلي الا بعض الاتراك كان يصلي معها وتغيرت البواطن لدخولنا في بلاد الكفر ولكن الخاتون أوصت الامير كفالي باكرامي ولقد ضرب مرة بعض مماليكه لما ضحك من صلاتنا ثم وصلنا حصن مسلمة بن عبد الملك وهو بسفح جبل على نهر زخار يقال له اصطفيلي ولم يبق من هذا الحصن الا آثاره وبخارجه قرية كبيرة ثم سرنا يومين ووصلنا الى الخليج وعلى ساحله قرية كبيرة فوجدنا فيه المد فاقمنا حتى كان الجزر وخضناه وعرضه نحو ميلين ومشينا أربعة أميال في رمال ووصلنا الخليج الثاني فخضناه وعرضه نحو ثلاثة أميال ثم مشينا نحو ميلين في حجارة ورمل ووصلنا الخليج الثالث وقد ابتدأ المد فتبعنا فيه وعرضه ميل واحد فعرض الخلجان كله مائية وبابسه اثنا عشر ميلا وتصير ماء كلها في أيام المطر فلا تخاض الا في القوارب وعلى ساحل هذا الخليج الثالث مدينة الفنيكة (واسمها بفاء مفتوحة ونون وياء مدوكاف مفتوح) وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة وكنائسها وديارها حسان والانهار تخرقها والبساتين تحفها ويدخر بها العنب والاجاص والتفاح والسفرجل من السنة الى الاخرى وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا والخاتون في قصر لابيها هنالك ثم قدم أخوها شقيقها واسمه كفالي قراس في خمسة آلاف فارس شاكين السلاح ولما أرادوا لقاء الخاتون ركب أخوها المذكور فرسا أشهب ولبس ثيابا بيضاء وجعل على رأسه مظلة مكللا بالجواهر وجعل عن يمينه خمسة من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم لابسين البياض أيضا وعليهم مظلات مزركشة بالذهب وجعل بين يديه مائة من المشائين ومائة فارس قد أسبغوا الدروع على أنفسهم وخيلهم وكل واحد منهم يقود فرسا مسرجا مدرعا عليه شكة فارس من البيضة المجوهرة والدروع والترکش والقوس والسيف وبيده رمح في طرف رأسه راية وأكثر تلك الرماح مكسوة بصفائح الذهب والفضة وتلك الخيل المقودة هي مراكب ابن السلطان وقسم فرسانه على أفواج كل فوج فيه مائتا فارس ولهم أمير قد قدم أمامه عشرة من الفرسان شاكين في السلاح وكل واحد منهم يقود فرسا وخلفه عشرة من العلامات ملونة بأيدي عشرة من الفرسان وعشرة أطبال يتقلدها عشرة من الفرسان ومعهم ستة يضربون الابواق والانفار والصرنايات وهي الغيطات وركبت الخاتون في مماليكها وجواريها وفتيانها وخدامها وهم نحو خمسمائة عليهم ثياب الحرير المزركشة بالذهب المرصعة وعلى الخاتون حلة يقال لها النخ ويقال لها أيضا النسيج مرصعة بالجوهر وعلى

رأسها تاج مرصع وفرسها مجلل بجل حرير مزركش بالذهب وفي يده ورجليه خلاخل الذهب وفي عنقه قلائد مرصعة وعظم السرج مكسو ذهبا مكلل جوهرا وكان التقاؤها في بسيط من الارض على نحو ميل من البلد وترجل لها أخوها لانه أصغر سنا منها وقبل ركابها وقبلت رأسه وترجل الامراء وأولاد الملوك وقبلوا جميعا ركابها وانصرفت مع أخيها وفي غد ذلك اليوم وصلنا الى مدينة كبيرة على ساحل البحر لا أثبت الآن اسمها ذات أنهار وأشجار نزلنا بخارجها ووصل أخو الخاتون ولي العهد في ترتيب عظيم وعسكر ضخم من عشرة آلاف مدرع وعلى رأسه تاج وعن يمينه نحو عشرين من أبناء الملوك وعن يساره مثلهم وقد رتب فرسانه على ترتيب أخيه سواء الا أن الحفل أعظم والجمع أكثر وتلاقت معه أخته في مثل زيها الاول وترجلا جميعا وأوتي بخباء حرير فدخلا فيه فلا أعلم كيفية سلامهما ونزلنا على عشرة أميال من القسطنطينية فلما كان بالغد خرج أهلها من رجال ونساء وصبيان ركبانا ومشاة في أحسن زي وأجمل لباس وضربت عند الصبح الاطبال والابواق والانفار وركبت العساكر وخرج السلطان وزوجته أم هذه الخاتون وأرباب الدولة والخواص وعلى رأس الملك رواق يحمله جملة من الفرسان ورجال بايديهم عصي طوال في أعلى كل عصي شبه كرة من جلد يرفعون بها الرواق وفي وسط الرواق مثل القبة يرفعها الفرسان بالعصى ولما أقبل السلطان اختلطت العساكر وكثر العجاج ولم أقدر على الدخول فيما بينهم فلزمت أثقال الخاتون وأصحابها خوفا على نفسي وذكر لي انها لما قربت من أبويها ترجلت وقبلت الارض بين أيديهما ثم قبلت حافري فرسيهما وفعل كبار أصحابها مثل فعلها في ذلك وكان دخولنا عند الزوال أو بعده الى القسطنطينية العظمى وقد ضربوا نواقيسهم حتى ارتجت الآفاق لاختلاط أصواتها ولما وصلنا الباب من أبواب قصر الملك وجدنا به مائة رجل معهم قائد لهم فوق دكانه وسمعتهم يقولون سرا كنوا سرا كنوا ومعناه المسلمون ومنعونا من الدخول فقال لهم أصحاب الخاتون انهم من جهتنا فقالوا لا يدخلون الا باذن فاقمنا بالباب وذهب بعض أصحاب الخاتون فبعث من أعلمها بذلك وهي بين يدي والدها فذكرت له شأننا فامر بدخولنا وعين لنا دارا بمقربة من دار الخاتون وكتب لنا أمرا بان لا نعترض حيث نذهب من المدينة ونودى بذلك في الاسواق وأقمنا بالدار ثلاثا تبعث الينا الضيافة من الدقيق والخبز والغنم والدجاج والسمن والفاكهة والحوت والدراهم والفرش وفي اليوم الرابع دخلنا على السلطان

— ذكر سلطان القسطنطينية —

Digitized by Birzeit University Library

واسمه تكفور (بفتح التاء المثناة وسكون الكاف وضم الفاء وواو وراء) ابن السلطان جرجيس وأبوه السلطان جرجيس بقيد الحياة لكنه تزهد وترهب وانقطع للعبادة في الكنائس وترك الملك لولده وسنذكره وفي اليوم الرابع من وصولنا الى القسطنطينية بعثت الي الخاتون الفتى سنبل الهندي فاخذ بيدي وأدخلني الى القصر فجزنا أربعة أبواب في كل باب سقائف بها رجال وأسلحتهم وقائدهم على دكانة مفروشة فلما وصلنا الى الباب الخامس تركني الفتى سنبل ودخل ثم أتى ومعه أربعة من الفتيان الروميين فقتشوني لئلا يكون معي سكين وقال لي القائد تلك عادة لهم لا بد من تفتيش كل من يدخل على الملك من خاص أو عام غريب أو بلدي وكذلك الفعل بارض الهند ثم لما فتشوني قام الموكل بالباب فاخذ بيدي وفتح الباب وأحاط بي أربعة من الرجال أمسك اثنان بكمي واثنان من ورائي فدخلوا بي الى مشور كبير حيطانه بالفسيفساء قد نقش فيها صور المخلوقات من الحيوانات والجماد وفي وسطه ساقية ماء ومن جهتيها الاشجار والناس واقفون يمينا ويسارا سكوتا لا يتكلم أحد منهم وفي وسط المشور ثلاثة رجال وقوف أسلمني أولئك الاربعة اليهم فامسكوا بثيابي كما فعل الآخرون وأشار اليهم رجل فتقدموا بي وكان أحدهم يهوديا فقال لي بالعربي لا تخف فهكذا عادتهم ان يفعلوا بالوارد وأنا الترجمان وأصلي من بلاد الشام فسالته كيف أسلم فقال قل السلام عليكم ثم وصلت الى قبة عظيمة والسلطان على سريره وزوجته أم هذه الخاتون بين يديه وأسفل السرير الخاتون واخوتها وعن يمينه ستة رجال وعن يساره أربعة وكلهم بالسلاح فاشار الى قبل السلام والوصول اليه بالجلوس هنية ليسكن روعي ففعلت ذلك ثم وصلت اليه فسلمت عليه وأشار الى ان اجلس فلم أفعل وسالني عن بيت المقدس وعن الصخرة المقدسة وعن القيامة وعن مهد عيسى وعن بيت لحم وعن مدينة الخليل عليه السلام ثم عن دمشق ومصر والعراق وبلاد الروم فاجبته عن ذلك كله واليهودي يترجم بيني وبينه فاعجبه كلامي وقال لاولاده اكرموا هذا الرجل وأمنوه ثم خلع علي خلعة وأمر لي بفرس مسرج ملجم ومظلة من التي يجعلها الملك فوق رأسه وهي علامة الامان وطلبت منه ان يعين من يركب معي بالمدينة في كل يوم حتى أشاهد عجائبها وغرائبها وأذكرها في بلادي فعين لي ذلك ومن العوائد عندهم ان الذي يلبس خلعة الملك و يركب فرسه يطاف به في أسواق المدينة بالابواق والانفار والاطبال ليراه الناس وأكثر ما يفعل ذلك بالاتراك الذين ياتون من بلاد السلطان أوزبك لئلا يؤذون فطافوا بي في الاسواق

Digitized by Birzeit University Library

— ذكر المدينة —

وهي متناهية في الكبر منقسمة بقسمين بينهما نهر عظيم المدوالجزر على شكل وادي سلا من بلاد المغرب وكانت عليه فيما تقدم قنطرة مبنية فخربت وهو الآن يعبر في القوارب واسم هذا النهر أبسمى (بفتح الهمزة واسكان الباء الموحدة وضم السين المهمل وكسر الميم وياء مد) وأحد القسمين من المدينة يسمي اصطنبول (بفتح الهمزة واسكان الصاد وفتح الطاء المهملتين وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو مد ولام) وهو بالعدوة الشرقية من النهر وفيه سكنى السلطان وأرباب دولته وسائر الناس وأسواقه وشوارعه مفروشة بالصفاح متسعة وأهل كل صناعة على حدة لا يشاركهم سواهم وعلى كل سوق أبواب تسد عليه بالليل وأكثر الصناع والباعة بها النساء والمدينة في سفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال وعرضه مثل ذلك أو أكثر وفي أعلاه قلعة صغيرة وقصر السلطان والسور يحيط بهذا الجبل وهو مانع لاسبيل لاحد اليه من جهة البحر وفيه نحو ثلاث عشرة قرية عامرة والكنيسة العظمى هي في وسط هذا القسم من المدينة وأما القسم الثاني منها فيسمى الغلطة (بغين معجمة ولام وطاء مهمل مفتوحات) وهو بالعدوة الغربية من النهر شبيه برباط الفتح في قرية من النهر وهذا القسم خاص بنصارى الافرنج يسكنونه وهم أصناف فمنهم الجنويون والبنادقة وأهل رومية وأهل افرانسة وحكمهم الى ملك القسطنطينية يقدم عليهم منهم من يرتضونه ويسمونه القمص وعليهم وظيفة في كل عام لملك القسطنطينية وربما استعصوا عليه فيحاربهم حتي يصلح بينهم البابا وجميعهم أهل تجارة ومرساهم من أعظم المراسي رأيت به نحو مائة جفن من القراقر وسواها من الكبار وأما الصغار فلا تحصي كثرة وأسواق هذا القسم حسنة الا ان الاقذار غالبة عليها ويشقها نهر صغير وكنائسهم [illegible] خير فيها

— ذكر الكنيسة العظمى —

وانما نذكر خارجها وأما داخلها فلم أشاهده وهي تسمى عندهم أياصوفيا (بفتح الهمزة والياء آخر الحروف والف وصاد مضموم وواو مد وفاء مكسورة وياء كالاولى وألف) ويذكر انها من بناء آصف بن برخياء وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وهي من أعظم كنائس الروم وعليها سور يطيف بها فكانها مدينة وأبوابها ثلاثة عشر بابا ولها حرم هو نحو ميل عليه باب كبير ولا يمنع أحد من دخوله وقد دخلته مع والد الملك الذي يقع ذكره وهو شبه مشور مسطح بالرخام وتشقه ساقية تخرج من الكنيسة لها حائطان مرتفعان

Digitized by Birzeit University Library

نحو ذراع مصنوعان بالرخام المجزع المنقوش باحسن صنعة والاشجار منتظمة عن جهتي الساقية ومن باب الكنيسة الى باب هذا المشور معرش من الخشب مرتفع عليه دوالى العنب وفى أسفله الياسمين والرياحين وخارج باب هذا المشور قبة خشب كبيرة فيها طبلات خشب يجلس عليها خدام ذلك الباب وعن يمين القبة مساطب وحوانيت أكثرها من الخشب يجلس بها قضاتهم وكتاب دواوينهم وفى وسط تلك الحوانيت قبة خشب يصعد اليها على درج خشب وفيها كرسى كبير مطبق بالملف يجلس فوقه قاضيهم وسنذكره وعن يسار القبة التى على باب هذا المشور سوق العطارين والساقية التى ذكرناها تنقسم قسمين احدهما يمر بسوق العطارين والآخر يمر بالسوق حيث القضاة والكتاب وعلى باب الكنيسة سقائف يجلس بها خدامها الذين يقسمون طرقها ويوقدون سرجها ويغلقون أبوابها ولا يدعون أحدا يدخلها حتى يسجد للصليب الاعظم عندهم الذى يزعمون انه بقية من الخشبة التى صلب عليها شبيه عيسى عليه السلام وهو على باب الكنيسة مجعول فى جعبة ذهب طولها نحو عشرة أذرع وقد عرضوا عليها جعبة ذهب مثلها حتى صارت صليبا وهذا الباب مصفح بصفائح الفضة والذهب وحلقتاه من الذهب الخالص وذكر لى ان عدد من بهذه الكنيسة من الرهبان والقسيسين ينتهي الى آلاف وان بعضهم من ذرية الحواريين وان بداخلها كنيسة مختصة بالنساء فيها من الابكار المنقطعات للعبادة أزيد من ألف وأما القواعد من النساء فاكثر من ذلك كله ومن عادة الملك وأرباب دولته وسائر الناس ان يؤتوا كل يوم صباحا الى زيارة هذه الكنيسة ويأتى اليها البابا مرة فى السنة واذا كان على مسيرة أربع من البلد يخرج الملك الى لقائه ويترجل له وعند دخول المدينة يمشى بين يديه على قدميه ويأتيه صباحا ومساء للسلام عليه طول مقامه بالقسطنطينية حتى ينصرف

— ذكر المانستارات بقسطنطينية —

والمانستار على مثل لفظ المارستان الا أن نونه متقدمة وراءه متاخرة وهو عندهم شبه الزاوية عند المسلمين وهذه المانستارات بها كثيرة فمنها مانستار عمره الملك جرجيس والد ملك القسطنطينية وسنذكره وهو بخارج اصطنبول مقابل الغلطة ومنها مانستاران خارج الكنيسة العظمى عن يمين الداخل اليها وهما فى داخل بستان يشقهما نهر ماء واحدها للرجال والآخر للنساء وفى كل واحد منهما كنيسة ويدور بهما البيوت للمتعبدين والمتعبدات وقد حبس على كل واحد منهما احباس لكسوة المتعبدين ونفقتهم بناها أحد الملوك ومنها مانستاران عن يسار الداخل الى الكنيسة العظمى على مثل هذين الآخرين ويطيف

بهما بيوت واحدها يسكنه العميان والثاني يسكنه الشيوخ الذين لا يستطيعون الخدمة ممن بلغ الستين أو نحوها ولكل واحد منهم كسوته ونفقته من أوقاف معينة لذلك وفي داخل كل مانستار منها دويرة لتعبد الملك الذي بناه وأكثر هؤلاء الملوك اذا بلغ الستين أو السبعين بني مانستارا ولبس المسوح وهي ثياب الشعر وقلد ولده الملك واشتغل بالعبادة حتى يموت وهم يحتفلون في بناء هذه المانستارات ويعملونها بالرخام والفسيفساء وهي كثيرة بهذه المدينة ودخلت مع الرومي الذي عينه الملك للركوب معي الى مانستار يشقه نهر وفيه كنيسة فيها نحو خمسمائة بكر عليهن المسوح ورؤسهن محلوقة فيها قلانيس اللبد ولهن جمال فائق وعليهن أثر العبادة وقد قدمت صبي على منبر يقرأ لهن الانجيل بصوت لم أسمع قط أحسن منه وحوله ثمانية من الصبيان على منابر ومعهم قسيسهم فلما قرأ هذا الصبي قرأ صبي آخر وقال لي الرومي ان هؤلاء البنات من بنات الملوك وهن أنفسهن لخدمة هذه الكنيسة وكذلك الصبيان القراء ولهم كنيسة أخرى خارج تلك الكنيسة ودخلت معه أيضا الى كنيسة في بستان فوجدنا بها نحو خمسمائة بكر أو أزيد وصبي يقرأ لهن على منبر وجماعة صبيان معه على منابر مثل الاولين فقال لي الرومي هؤلاء بنات الوزراء والامراء يتعبدن بهذه الكنيسة ودخلت معه الى كنائس فيها ابكار من وجوه أهل البلد والى كنائس فيها العجائز والقواعد من النساء والى كنائس فيها الرهبان يكون في الكنيسة منها مائة رجل وأكثر وأقل وأكثر أهل هذه المدينة رهبان ومتعبدون وقسيسون وكنائسها لا تحصى كثرة وأهل المدينة من جندي وغيره صغير وكبير يجعلون على رؤسهم المظلات الكبار شتاء وصيفا والنساء لهن عمائم كبار

— ذكر الملك المترهب جرجيس —

وهذا الملك ولي الملك لابنه وانقطع للعبادة وبنى مانستارا كما ذكرناه خارج المدينة على ساحلها وكنت يوما مع الرومي المعين للركوب معي فاذا بهذا الملك ماش على قدميه وعليه المسوح وعلى رأسه قلنسوة لبد وله لحية بيضاء طويلة ووجهه حسن عليه أثر العبادة وخلفه وامامه جماعة من الرهبان وبيده عكاز وفي عنقه سبحة فلما رآه الرومي نزل وقال لي انزل فهذا والد الملك فلما سلم عليه الرومي سأله عني ثم وقف وبعث لي فجئت اليه فاخذ بيدي وقال لذلك الرومي وكان يعرف اللسان العربي قل لهذا السراكنو يعني المسلم أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس والرجل التي مشت داخل الصخرة والكنيسة العظمى التي تسمى قمامة وبيت لحم وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه فعجبت من

اعتقادهم فيمن دخل تلك المواضع من غير ملتهم ثم أخذ بيدى ومشيت معه فسألني عن بيت المقدس ومن فيه من النصارى واطال السؤال ودخلت معه الى حرم الكنيسة الذي وصفناه آنفا ولما قارب الباب الاعظم خرجت جماعة من القسيسين والرهبان للسلام عليه وهو من كبارهم فى الرهبانية ولما رآهم أرسل يدى فقلت له أريد الدخول معك الى الكنيسة فقال للترجمان قل له لا بد لداخلها من السجود للصليب الاعظم فان هذا انما سنته الاوائل ولا يمكن خلافه فتركته ودخل وحده ولم أره بعدها

— ذكر قاضى القسطنطينية —

ولما فارقت الملك المترهب المذكور دخلت سوق الكتاب فرآني القاضى فبعث الى أحد اعوانه فسأل الرومي الذى معي فقال له انه من طلبة المسلمين فلما عاد اليه وأخبره بذلك بعث الى أحد أصحابه وهم يسمون القاضى النجشى كفالى فقال لى النجشى كفالى يدعوك فصعدت اليه الى القبة التى تقدم ذكرها فرأيت شيخاً حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان وهو الملف الاسود بين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون فقام الى وقام أصحابه وقال أنت ضيف الملك و يجب علينا اكرامك وسألني عن بيت المقدس والشام ومصر وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام وقال لى لا بد لك أن تأتى الى دارى فاضيفك فانصرفت عنه ولم ألقه بعد

— ذكر الانصراف عن القسطنطينية —

ولما ظهر لمن كان فى صحبة الخاتون من الاتراك انها على دين أبيها وراغبة فى المقام معه طلبوا منها الاذن فى العودة الى بلادهم فأذنت لهم وأعطتهم عطاء جزيلا و بعثت معهم من يوصلهم الى بلادهم أميراً يسمي ساروجة الصغير فى خمسمائة فارس و بعثت عني فاعطتني ثلاثمائة دينار من ذهبهم وهم يسمونه البرة وليس بالطيب والفى درهم بندقية وشقة ملف من عمل البنات وهو أجود أنواعه وعشرة أثواب من حرير وكتان وصوف وفرسين وذلك من عطاء أبيها وأوصت بى ساروجة وودعتها وانصرفت وكانت مدة مقامى عندهم شهرا وستة أيام وسافرنا صحبة ساروجة فكان يكرمني حتى وصلنا الى آخر بلادهم حيث تركنا أصحابنا وعرباتنا فركبنا العربات ودخلنا البرية ووصل ساروجة معنا الى مدينة باباسلطوق وأقام بها ثلاثا فى الضيافة وانصرفت الى بلاده وذلك فى اشتداد البرد وكنت ألبس ثلاث فروات وسروالين احدهما مبطن وفى رجلى خف من صوف وفوقه خف مبطن بثوب كتان وفوقه خف من البرغالى وهو جلد الفرس مبطن بجلد ذئب

Digitized by Birzeit University Library

وكنت أتوضأ بالماء الحار بمقربة من النار فما تقطر من الماء قطرة الا جمدت لحينها واذا غسلت وجهي يصل الماء الى لحيتي فيجمد فاحركها فيسقط منها شبه الثلج والماء الذي ينزل من الانف يجمد على الشارب وكنت لا أستطيع الركوب لكثرة ما على من الثياب حتى يركبني أصحابي ثم وصلت الى مدينة الحاج ترخان حيث فارقنا السلطان أوزبك فوجدناه قد رحل واستقر بحضرة ملكه فسافرنا على نهر اتل وما يليه من المياه ثلاثا وهي جامدة وكنا اذا احتجنا الماء قطعنا قطعاً من الجليد وجعلناه في القدر حتى يصير ماء فنشرب منه ونطبخ به ووصلنا الى مدينة السرا (وضبط اسمها بسين مهمل وراء مفتوحة وألف) وتعرف بسرا بركة وهي حضرة السلطان أوزبك ودخلنا على السلطان فسألنا عن كيفية سفرنا وعن ملك الروم ومدينته فأعلمناه وأمر باجراء النفقة علينا وانزلنا ومدينة السرا من أحسن المدن متناهية الكبر في بسيط من الارض تغص بأهلها كثرة حسنة الاسواق متسعة الشوارع وركبنا يوما مع بعض كبرائها وغرضنا التطوف عليها ومعرفة مقدارها وكان منزلنا في طرف منها فركبنا منه غدوة ثم اوصلنا لآخرها الا بعد الزوال فصلينا الظهر وأكلنا طعاما ثم اوصلنا الى المنزل الا عند المغرب ومشينا يوما في عرضها ذاهبين وراجعين في نصف يوم وذلك في عمارة متصلة الدور لا خراب فيها ولا بساتين وفيها ثلاثة عشر مسجداً لاقامة الجمعة أحدها للشافعية وأما المساجد سوى ذلك فكثير جداً وفيها طوائف من الناس منهم المغل وهم أهل البلاد والسلاطين وبعضهم مسلمون ومنهم الاص وهم مسلمون ومنهم القفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى وكل طائفة تسكن محلة على حدة فيها أسواقها والتجار والغرباء من أهل العراقين ومصر والشام وغيرها ساكنون بمحلة عليها سور احتياطا على أموال التجار وقصر السلطان بها يسمى أطون طاش وأطون (بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الطاء المهمل وواو ومدونون) ومعناه الذهب وطاش (بفتح الطاء المهمل وشين معجم) ومعناه حجز وقاضي هذه الحضرة بدر الدين الاعرج من خيار القضاة وبها من مدرسي الشافعية الفقيه الامام الفاضل صدر الدين سليمان اللكزي أحد الفضلاء وبها من المالكية شمس الدين المصري وهو ممن يطعن في ديانته وبها زاوية الصالح الحاج نظام الدين أضافنا بها وأكرمنا وبها زاوية الفقيه الامام العالم نعمان الدين الخوارزمي رأيته بها وهو من فضلاء المشايخ حسن الاخلاق كريم النفع شديد التواضع شديد السطوة على أهل الدنيا يأتي اليه السلطان أوزبك زائرا في كل جمعة فلا يستقبله ولا يقوم اليه ويقعد السلطان بين يديه ويكلمه الطف كلام ويتواضع له والشيخ بضد

Digitized by Birzeit University Library

ذلك وفعله مع الفقراء و المساكين والواردين خلاف فعله مع السلطان فانه يتواضع لهم ويكلمهم بالطف كلام ويكرمهم واكرمني جزاه الله خيرا وبعث الى بغلام تركي وشاهدت له بركة

— كرامة له —

كنت أردت السفر من السرا الى خوارزم فنهاني عن ذلك وقال لي أقم أياما وحينئذ تسافر فنازعتني النفس ووجدت رفقة كبيرة آخذة في السفر فيهم تجار اعرفهم فاتفقت معهم على السفر في صحبتهم وذكرت له ذلك فقال لي لا بد لك من الاقامة فعزمت على السفر فابق لي غلام اقمت بسببه وهذه من الكرامات الظاهرة ولما كان بعد ثلاث وجد بعض أصحابي ذلك الغلام الآبق بمدينة الحاج ترخان فجاء به الي فحينئذ سافرت الى خوارزم وبينها وبين حضرة السرا صحراء مسيرة أربعين يوما لا تسافر فيها الخيل لقلة الكلأ وانما تجر العربات بها الجمال فسرنا من السرا عشرة أيام فوصلنا الى مدينة سرا جوق وجوق (بضم الجيم المعقود وواو وقاف) ومعنى جوق صغير فكانهم قالوا سرا الصغيرة وهي على شاطىء نهر كبير زخار يقال له الوصو (بضم الهمزة واللام وواو مد وضم الصاد المهمل وواو) ومعناه الماء الكبير وعليه جسر من قوارب كجسر بغداد والى هذه المدينة انتهي سفرنا بالخيل التي تجر العربات وبعناها بها تجر العربات بحساب أربعة دنانير دراهم للفرس وأقل من ذلك لاجل ضعفها ورخصها بهذه المدينة واكترينا الجمال لجر العربات وبهذه المدينة زاوية لرجل صالح معمر من الترك يقال له اطا (بفتح الهمزة والطاء المهمل) ومعناه الوالد اضافنا بها ودعا لنا وأضافنا أيضا قاضيها ولا أعرف اسمه ثم سرنا منها ثلاثين يوما سيرا جادا لا تنزل الا ساعتين احداهما عند الضحى والاخري عند المغرب وتكون الاقامة قدر ما يطبخون الدوقي ويشربونه وهو يطبخ من غلية واحدة ويكون معهم الخليع من اللحم يجعلونه عليه ويصبون عليه اللبن وكل انسان انما ينام أو ياكل في عربته حال السير وكان لي في عربتي ثلاث من الجواري ومن عادة المسافرين في هذه البرية الاسراع لقلة أعشابها والجمال التي تقطعها يهلك معظمها وما يبقى منها لا ينتفع به الا في سنة أخرى بعد ان يسمن والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة وهو ماء المطر والحسيان ثم لما سلكنا هذه البرية وقطعناها كما ذكرناه وصلنا الى خوارزم وهي أكبر مدن الاتراك وأعظمها وأجلها وأضخمها لها الاسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والمحاسن الاثيرة وهي ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر ولقد ركبت بها يوما ودخلت السوق فلما توسطته وبلغت منتهي الزحام في موضع يقال له الشهور (بفتح الشين

Digitized by Birzeit University Library

المعجم واسكان الواو) لم أستطع ان أجوز ذلك الموضع لكثرة الازدحام وأرت الرجوع فما أمكنني لكثرة الناس فبقيت متحيرا وبعد جهد شديد رجعت وذكر لي بعض الناس ان تلك السوق يخف زحامها يوم الجمعة لانهم يسدون سوق القيسارية وغيرها من الاسواق فركبت يوم الجمعة وتوجهت الى المسجد الجامع والمدرسة وهذه المدينة تحت إمرة السلطان أوزبك وله فيها أمير كبير يسمي قطلودمور وهو الذي عمر هذه المدرسة وما معها من المواضع المضافة وأما المسجد فعمرته زوجته الخاتون الصالحة ترابك وترا (بضم التاء المعلوة وفتح الراء وألف) وبك (بفتح الباء الموحدة والكاف) وبخوارزم مارستان له طبيب شامي يعرف بالصهيوني نسبة الى صهيون من بلاد الشام ولم أر في بلاد الدنيا أحسن أخلاقا من أهل خوارزم ولا أكرم نفوسا ولا أحب في الغرباء ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم وهي ان المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلما لهم بحضور الصلاة فمن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الامام بمحضر الجماعة وفي كل مسجد درة معلقة برسم ذلك ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد أو تطعم للفقراء والمساكين ويذكرون ان هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان وبخارج خوارزم نهر جيحون أحد الانهار الاربعة التي من الجنة وهو يجمد في أوان البرد كما يجمد نهر أتل ويسلك الناس عليه وتبقي مدة جموده خمسة أشهر وربما سلكوا عليه عند أخذه في الذوبان فهلكوا ويسافر فيه أيام الصيف بالمراكب الى ترمذ ويجلبون منها القمح والشعير وهي مسيرة عشر للمنحدر وبخارج خوارزم زاوية مبنية على تربة الشيخ نجم الدين الكبرى وكان من كبار الصالحين وفيها الطعام للوارد والصادر وشيخهم المدرس سيف الدين بن عضبة من كبار أهل خوارزم وبها أيضا زاوية شيخها الصالح المجاور جلال الدين السمرقندي من كبار الصالحين أضافا بها وبخارجها قبر الامام العلامة أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري وعليه قبة على مسافة أربعة أميال من خوارزم ولما أتيت هذه المدينة نزلت بخارجها وتوجه بعض أصحابي الى القاضي الصدر أبي حفص عمر البكري فبعث الى نائبه نور الاسلام فسلم علي ثم عاد اليه ثم أتي القاضي في جماعة من صحابه فسلم علي وهو فتي السن كبير الفعال وله نائبان احدهما نور الاسلام المذكور والآخر نور الدين الكرماني من كبار الفقهاء وهو الشديد في احكامه القوي في ذات الله تعالى ولما حصل الاجتماع بالقاضي قال لي ان هذه المدينة كثيرة الزحام ودخولكم نهارا لا يتأتي وسيأتي اليكم نور الاسلام لتدخلوا معه من آخر الليل ففعلنا ذلك ونزلنا بمدرسة جديدة

ليس بها أحد ولما كان بعد صلاة الصبح أتى الينا القاضي المذكور ومعه من كبار المدينة جماعة منهم مولانا همام الدين ومولانا زين الدين المقدسي ومولانا رضي الدين يحيى ومولانا فضل الله الرضوي ومولانا جلال الدين العمادي ومولانا شمس الدين السنجري امام أميرها وهم اهل مكارم وفضائل والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لان السلطان أوزبك وأميره على هذه المدينة قطلومور من أهل السنة وكنت أيام اقامتي بها أصلي الجمعة مع القاضي أبي حفص عمر المذكور بمسجده فاذا فرغت الصلاة ذهبت معه الى داره وهي قريبة من المسجد فادخل معه الى مجلسه وهو من أبدع المجالس فيه الفرش الحافلة وحيطانه مكسوة بالملف وفيه طيقان كثيرة وفي كل طاق منها أوانى الفضة المموهة بالذهب والاواني العراقية وكذلك عادة أهل تلك البلاد ان يصنعوا في بيوتهم ثم ياتي بالطعام الكثير وهو من أهل الرفاهية والمال الكثير والرباع وهو سلف الامير قطلومور متزوج باخت امرأته واسمها جيجا أغا وبهذه المدينة جماعة من الوعاظ والمذكرين أكبرهم مولانا زين الدين المقدسي والخطيب مولانا حسام الدين المشاطي الخطيب المصقع أحد الخطباء الاربعة الذين لم أسمع في الدنيا أحسن منهم

— وأمير خوارزم —

هو الامير الكبير قطلومور وقطلو (بضم القاف وسكون الطاء المهملة وضم اللام) ودمور (بضم الدال المهملة والميم وواو ومدورا) ومعنى اسمه الحديد المبارك لان قطلو هو المبارك ودمور هو الحديد وهذا الامير ابن خالة السلطان المعظم محمد أوزبك وأكبر أمرائه وهو واليه على خراسان وولده هارون بك متزوج بابنة السلطان المذكور التي أمها الملكة طيطغلي المتقدم ذكرها وامرأته الخاتون ترابك صاحبة المكارم الشهيرة ولما أتاني القاضي مسلما على كما ذكرته قال لي ان الامير قد علم بقدومك وبه بقية مرض يمنعه من الاتيان اليك فركبت مع القاضي الى زيارته وأتينا داره فدخلنا مشورا كبيرا أكثر بيوته خشب ثم دخلنا مشورا صغيرا فيه قبة خشب مزخرفة قد كسيت حيطانها بالملف الملون وسقفها بالحرير المذهب والامير على فرش له من الحرير وقد غطى رجليه لما بهما من النقرس وهي علة فاشية في الترك فسلمت عليه وأجلسني الى جانبه وقعد القاضي والفقهاء وسألني عن سلطانه الملك محمد أوزبك وعن الخاتون بيلون وعن أبيهما وعن مدينة القسطنطينية فاعلمته بذلك كله ثم أتي بالموائد فيها الطعام من الدجاج المشوية والكراكي وافراخ الحمام وخبز معجون بالسمن يسمونه الكليجا والكعك والحلوى ثم أتي بموائد أخرى فيها

Digitized by Birzeit University Library

الفواكه من الرمان المحبب في أواني الذهب والفضة ومعه ملاعق الذهب وبعضه في أواني الزجاج العراقي ومعه ملاعق الخشب ومن العنب والبطيخ العجيب ومن عوائد هذا الامير ان يأتي القاضي في كل يوم الى مشوره فيجلس بمجلس معدله ومعه الفقهاء وكتابه ويجلس في مقابلته أحد الامراء الكبراء ومعه ثمانية من كبراء امراء الترك وشيوخهم يسمون الارغجية (يارغوجي) ويتحاكم الناس اليهم فما كان من القضايا الشرعية حكم فيها القاضي وما كان من سواها حكم فيها أولئك الامراء وأحكامهم مضبوطة عادلة لانهم لا يتهمون بميل ولا يقبلون رشوة ولما عدنا الى المدرسة بعد الجلوس مع الامير بعث الينا الارز والدقيق والغنم والسمن والابزار وأحمال الحطب وتلك البلاد كلها لا يعرف بها الفحم وكذلك الهند وخراسان وبلاد العجم وأما الصين فيوقدون فيها حجارة تشتعل فيها النار كما تشتعل في الفحم ثم اذا صارت رمادا عجنوه بالماء وجففوه بالشمس وطبخوا بها ثانية كذلك حتى يتلاشى

— حكاية ومكرمة لهذا القاضي والامير —

صليت في بعض أيام الجمع على عادتي بمسجد القاضي أبي حفص فقال لي ان الامير أمرلك بخمسمائة درهم وأمر أن يصنع لك دعوة ينفق فيها خمسمائة درهم أخرى يحضرها المشايخ والفقهاء والوجوه فلما أمر بذلك قلت له أيها الامير تصنع دعوة يأكل من حضرها لقمة أو لقمتين لو جعلت له جميع المال كان أحسن له للنفع فقال افعل ذلك وقد أمرلك بالالف كاملة ثم بعثها الامير صحبة اماه شمس الدين السنجري في خريطة يحملها غلامه وصرفها من الذهب المغربي ثلاثمائة دينار وكنت قد اشتريت ذلك اليوم فرسا أدهم اللون بخمسة وثلاثين دينارا دراهم وركبته في ذهابي الى المسجد فما أعطيت ثمنه الا من تلك الالف وتكاثرت عندي الخيل بعد ذلك حتى انتهت الى عدد لا أذكره خيفة مكذب يكذب به ولم تزل حالي في الزيادة حتى دخلت أرض الهند وكانت عندي خيل كثيرة لكني كنت أفضل هذا الفرس وأوثره وأربطه امام الخيل وبقي عندي الى انقضاء ثلاث سنين ولما هلك تغيرت حالي وبعثت الى الخاتون جيجا أغا امرأة القاضي مائة دينار دراهم وصنعت لي أختها ترابك زوجة الامير دعوة جمعت لها الفقهاء ووجوه المدينة بزاويتها التي بنتها وفيها الطعام للوارد والصادر وبعثت الى بفروة سمور وفرس جيد وهي من أفضل النساء وأصلحهن وأكرمهن جزاها الله خيرا

— حكاية —

ولما انفصلت من الدعوة التي صنعت لي هذه الخاتون وخرجت عن الزاوية تعرضت

على بالباب امرأة عليها ثياب دنسة وعلى رأسها مقنعة ومعها نسوة لا أذكر عددهن فسلمت على فرددت عليها السلام ولم أقف معها ولا التفت اليها فلما خرجت أدركني بعض الناس وقال لي ان المرأة التي سلمت عليك هي الخاتون فخجلت عند ذلك وأردت الرجوع اليها فوجدتها قد انصرفت فأبلغت اليها السلام مع بعض خدامها واعتذرت عما كان مني لعدم معرفتي بها

— ذكر بطيخ خوارزم —

و بطيخ خوارزم لا نظير له في بلاد الدنيا شرقا ولا غربا الا ما كان من بطيخ بخاري و يليه بطيخ اصفهان وقشره أخضر و باطنه أحمر وهو صادق الحلاوة وفيه صلابة ومن العجائب انه يقدد و يبس في الشمس و يجعل في القوارير كما يصنع عندنا بالشريحة وبالتين المالقي و يحمل من خوارزم الى أقصى بلاد الهند والصين وليس في جميع الفواكه اليابسة أطيب منه وكنت أيام اقامتي بدهلي من بلاد الهند متى قدم المسافرون يعثت من يشتري لي منهم قديد البطيخ وكان ملك الهند اذا أتى اليه بشيء منه بعث الي به لما يعلم من محبتي فيه ومن عادته انه يطرف الغرباء بفواكه بلادهم ويتفقدهم بذلك

— حكاية —

كان قد صحبني من مدينة السرى الى خوارزم شريف من أهل كربلاء يسمى علي بن منصور وكان من التجار فكنت أكلفه أن يشتري لي الثياب وسواها فكان يشتري لي الثوب بعشرة دنانير و يقول اشتريته بثمانية و يحاسبني بالثمانية و يدفع الدينارين من ماله وأنا لا علم لي بفعله الى أن تعرفت ذلك علي ألسنة الناس وكان مع ذلك قد أسلفني دنانير فلما وصل الى احسان أمير خوارزم رددت اليه ما أسلفنيه وأردت أن أحسن بعده اليه مكافأة لافعاله الحسنة فأبى ذلك وحلف أن لا تفعل وأردت ان أحسن الى فتى كان له اسمه كافور فحلف أن لا أفعل وكان أكرم من لقيته من العراقيين وعزم على السفر معي الى بلاد الهند ثم ان جماعة من أهل بلده وصلوا الى خوارزم برسم السفر الى الصين فأخذ في السفر معهم فقلت له في ذلك فقال هؤلاء أهل بلدي يعودون الى أهلي وأقاربي و يذكرون اني سافرت الى الهند برسم الكدية فيكون سبة علي لا أفعل ذلك وسافر معهم الى الصين فبلغني بعد وأنا بأرض الهند انه لما بلغ الى مدينة المالق وهي آخر البلاد التي من عمالة ماوراء النهر وأول بلاد الصين أقام بها و بعث فتى له بما كان عنده من المتاع فابطأ الفتى عليه وفي أثناء ذلك وصل من بلده بعض التجار ونزل معه في فندق واحد فطلب منه الشريف أن يسلفه شيئا فجلال ما يصل فتاه فلم يفعل ثم أكد قبح ما صنع في عدم التوسعة على الشريف بأن أراد الزيادة عليه في المسكن الذي كان له في الفندق فبلغ ذلك

الشريف فاغتم منه ودخل الى بيته فذبح نفسه فأدرك وبه رمق واتهموا غلاما كان له بقتله فقال لهم لا تظلموه فاني انا فعلت ذلك بنفسي ومات من يومه غفر الله له وكان قد حكي لي عن نفسه انه أخذ مرة من بعض تجار دمشق ستة آلاف درهم قراضا فلقيه ذلك التاجر بمدينة حماة من أرض الشام فطلبه بالمال وكان قد باع ما اشتري به من المتاع بالدين فاستحيا من صاحب المال ودخل الى بيته وربط عمامته بسقف البيت وأراد أن يخنق نفسه وكان في أجله تأخير فتد كر صاحباً له من الصيارفة فقصده وذكر له القضية فسلفه مالا دفعه للتاجر ولما أردت السفر من خوارزم اكتريت جمالا واشتريت بحارة وكان عديلي بها عفيف الدين التوزري وركب الخدام بعض الخيل وجللنا باقيها لاجل البرد ودخلنا البرية التي بين خوارزم وبخارى وهي مسيرة ثمانية عشر يوما في رمال لا عمارة بها الا بلدة واحدة فودعت الامير قطلودمور وخلع على خلعة وخلع على القاضي أخرى وخرج مع الفقهاء لوداعي وسرنا أربعة أيام ووصلنا الى مدينة الكات وليس بهذه الطريق عمارة سواها (وضبط اسمها بفتح الهمزة وسكون اللام وآخره تاء مثناة) وهي صغيرة حسنة نزلنا خارجها على بركة ماء قد جمدت من البرد فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها وسمع بقدومي قاضي الكات ويسمى صدر الشريعة وكنت قد لقيته بدار قاضي خوارزم فجاء الى مسلماً مع الطلبة وشيخ المدينة الصالح العابد محمود الخيوقي ثم عرض على القاضي الوصول الى أمير تلك المدينة فقال له الشيخ محمود القادم ينبغي له أن يزار وان كانت لناهمة نذهب الى أمير المدينة ونأتي به ففعلوا ذلك وأتى الامير بعد ساعة في أصحابه وخدامه فسلمنا عليه وكان غرضنا تعجيل السفر فطلب منا الاقامة وصنع دعوة جمع لها الفقهاء ووجوه العساكر وسواهم وقف الشعراء يمدحونه وأعطاني كسوة وفرسا جيداً وسرنا على الطريق المعروفة بسيباية وفي تلك الصحراء مسيرة ست دون ماء ووصلنا بعد ذلك الى بلدة وبكنة (وضبط اسمها بفتح الواو وا سكان الباء الموحدة وكاف ونون) وهي على مسيرة يوم واحد من بخاري بلدة حسنة ذات انهار وبساتين وهم يدخرون العنب من سنة الى سنة وعندهم فاكهة يسمونها العلو (الآلو) بالعين المهملة وتشديد اللام فيبيسونه ويحملونه الناس الى الهند والصين ويجعل عليه الماء ويشرب ماؤه وهو أيام كونه أخضر حلو فاذا يبس صار فيه يسير حموضة ولحميته كثيرة ولم أر مثله بالاندلس ولا بالمغرب ولا بالشام ثم سرنا في بساتين متصلة وأنهار وأشجار وعمارة يوما كاملا ووصلنا الى مدينة بخارى التي ينسب اليها امام المحدثين أبو عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري

وهذه المدينة كانت قاعدة ماوراء نهر جيحون من البلاد وخربها اللعين تنكز التترى جد ملوك العراق فمساجدها الآن ومدارسها واسواقها خربة الا القليل وأهلها أذلاء وشهادتهم لا تقبل بخوارزم وغيرها لاشتهارهم بالتعصب ودعوي الباطل وانكار الحق وليس بها اليوم من الناس من يعلم شيئا من العلم ولا من له عناية به

ـــ ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها ـــ

كان تنكز خان حدادا بارض الخطا وكان له كرم نفس وقوة وبسطة فى الجسم وكان يجمع الناس ويطعمهم ثم صارت له جماعة فقدموه على أنفسهم وغلب على بلده وقوى واشتدت شوكته واستفحل أمره فغلب على مالك الخطائم على ملك الصين وعظمت جيوشه وتغلب على بلاد الختن وكاشغر والمالق وكان جلال الدين سنجر بن خوارزم شاه ملك خوارزم وخراسان وماوراء النهر له قوة عظيمة وشوكة فهابه تنكز وأحجم عنه ولم يتعرض له فاتفق ان بعث تنكز تجارا بامتعة الصين والخطا من الثياب الحريرية وسواها الى بلدة أطرار (بضم الهمزة) وهى آخر عمالة جلال الدين فبعث اليه عامله عليها معلما بذلك واستاذنه ما يفعل فى أمرهم فكتب اليه يامره أن ياخذ أموالهم ويمثل بهم ويقطع أعضاءهم ويردهم الى بلادهم لما أراد الله تعالى من شقاء أهل بلاد المشرق ومحنتهم رأيا قائلا وتدبيرا سيئا مشؤما فلما فعل ذلك تجهز تنكز بنفسه فى عساكر لا تحصى كثرة برسم غزو بلاد الاسلام فلما سمع عامل اطرار بحركته بعث الجواسيس ليأتوه بخبره فذكر ان احدهم دخل محلة بعض أمراء تنكز فى صورة سائل فلم يجد من يطعمه ونزل الى جانب رجل منهم فلم ير عنده زادا ولا أطعمه شيأ فلما أمسى أخرج مصرانا يابسة عنده فبلها بالماء وقصد فرسه وملاها بدمه وعقدها وشواها بالنار فكانت طعامه فعاد الى اطرار فاخبر عاملها بامرهم وأعلمه ان لا طاقة لاحد بقتالهم فاستمد مليكه جلال الدين فامده بستين ألفا زيادة على من كان عنده من العساكر فلما وقع القتال هزمهم تنكز ودخل مدينة اطرار بالسيف فقتل الرجال وسبى الذراري وأتى جلال الدين بنفسه لمحاربته فكانت بينهم وقائع لا يعلم فى الاسلام مثلها وآل الامر الى ان تملك تنكز ماوراء النهر وخرب بخارى وسمرقند وترمذ وعبر النهر وهو نهر جيحون الى مدينة بلخ فتملكها ثم الى الياميان (الباميان) فتملكها وأوغل فى بلاد خراسان وعراق العجم فثار عليه المسلمون فى بلخ وفى ماوراء النهر فكر عليهم ودخل بلخ بالسيف وتركها خاوية على عروشها ثم فعل مثل ذلك فى ترمذ فخربت ولم تعمر بعد لكنها بنيت مدينة على ميلين منها هى التى تسمى اليوم ترمذ

Digitized by Birzeit University Library

وقتل أهل اليامیان (الباميان) وهدمها باسرها الا صومعة جا معها وعفا عن أهل بخاري وسمرقند ثم عاد بعد ذلك الى العراق وانتهى أمر التتر حتى دخلوا حضرة الاسلام ودار الخلافة بغداد با لسيف وذبحوا الخليفة المستعصم بالله العباسي رحمه الله

(قال ابن جزى) أخبرنا شيخنا قاضي القضاة أبو البركات ابن الحاج أعزه الله قال سمعت الخطيب اباعبد الله بن رشيد يقول لقيت بمكة نور الدين ابن الزجاج من علماء العراق ومعه ابن أخ له فتفاوضنا الحديث فقال لى هلك فى فتنة التتر با لعراق أربعة وعشرون ألف رجل من أهل العلم ولم يبق منهم غيري وغير ذلك واشار الى ابن أخيه

(رجع) قال ونزلنا من بخارى بربضها المعروف بفتح أباد حيث قبر الشيخ العالم العابد الزاهد سيف الدين الباخرزى وكان من كبار الاولياء وهذه الزاوية المنسوبة لهذا الشيخ حيث نزلنا عظيمة لها أوقاف ضخمة يطعم منها الوارد والصادر وشيخها من ذريته وهو الحاج السياح يحيى الباخرزى وأضافنى هذا الشيخ بداره وجمع وجوه أهل المدينة وقرأ القراء بالاصوات الحسان ووعظ الواعظ وغنوا بالتركى والفارسى على طريقته حسنة ومرت لنا هنالك ليلة بديعة من أعجب الليالى ولقيت بها الفقيه العالم الفاضل صدر الشريعة وكان قد قدم من هراة وهو من الصلحاء الفضلاء وزرت ببخارى قبر الامام العالم أبي عبد الله البخارى مصنف الجامع الصحيح شيخ المسلمين رضى الله عنه وعليه مكتوب هذا قبر محمد بن اسماعيل البخارى وقد صنف من الكتب كذا وكذا وكذلك على قبور علماء بخارى أسماؤهم وأسماء تصانيفهم وكنت قيدت من ذلك كثيرا وضاع مني فى جملة ماضاع لي لما سلبني كفار الهند فى البحر ثم سافرنا من بخارى قاصدين معسكر السلطان الصالح المعظم علاء الدين طرمشيرين وسندكره فمررنا على نخشب البلدة التي ينسب اليها الشيخ أبو تراب النخشبي وهي صغيرة تحف بها البساتين والمياه فنزلنا بخارجها بدار لامير ها وكان عندي جارية قد قاربت الولادة وكنت أردت حملها الى سمرقند لتلد بها فاتفق انها كانت فى المحمل فوضع المحمل على الجمل وسافر أصحابنا من الليل وهي معهم والزاد وغيره من أسبابي وأقمت أنا حتى ارتحل نهارا مع بعض من معي فسلكوا طريقا وسلكت طريقا سواها فوصلنا عشية النهار الى محلة السلطان المذكور وقد جعنا فنزلنا على بعد من السوق واشترى بعض أصحابنا ما سد جوعتنا وأغار بعض التجار خباء بتنا به تلك الليلة ومضى أصحابنا من الغد فى البحث عن الجمال وباقى الاصحاب فوجدوهم عشيا وجاؤا بهم وكان السلطان غائبا عن المحلة فى الصيد فاجتمعت بنائبه الامير تقبغا فانزلني بقرب مسجده وأعطاني خرقة (خركاه)

وهي شبه الحباء وقد ذكرنا صفتها فيما تقدم فجعلت الجارية في تلك الخرقة فولدت تلك الليلة مولودا وأخبروني أنه ولد ذكر ولم يكن كذلك فلما كان بعد العقيقة أخبرني بعض الاصحاب ان المولود بنت فاستحضرت الجواري فسألتهن فاخبرني بذلك وكانت هذه البنت مولودة في طالع سعد فرأيت كل ما يسرني ويرضيني منذ ولدت وتوفيت بعد وصولي الى الهند بشهرين وسيذكر ذلك واجتمعت بهذه المحلة بالشيخ الفقيه العابد مولانا حسام الدين الياغي (بالياء آخر الحروف والغين المعجمة) ومعناه بالتركية الثائر وهو من أهل أطرار وبالشيخ صهر السلطان

— ذكر سلطان ماوراء النهر —

وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين (وضبط اسمها بفتح الطاء المهمل وسكون الراء وفتح الميم وكسر الشين المعجم وياء مدوراء مكسور وياء مدثانية ونون) وهو عظيم المقدار كثير الجيوش والعساكر ضخم المملكة شديد القوة عادل الحكم وبلاده متوسطة بين أربعة من ملوك الدنيا الكبار وهم ملك الصين وملك الهند وملك العراق والملك أوزبك وكلهم يهادونه ويعظمونه ويكرمونه وولي الملك بعد أخيه الجكطي (وضبط اسمه بفتح الجيم المعقودة والكاف والطاء المهمل وسكون الياء) وكان الجكطي هذا كافرا وولي بعد أخيه الاكبر كبك وكان كبك هذا كافرا ايضاً لكنه كان عادل الحكم منصفا للمظلومين يكرم المسلمين ويعظمهم

— حكاية —

يذكر ان هذا الملك كبك تكلم يوما مع الفقيه الواعظ المذكر بدر الدين الميداني فقال له أنت تقول ان الله ذكر كل شيء في كتابه العزيز قال نعم فقال اين اسمي فيه فقال هو في قوله تعالى في اى صورة ماشاء ركبك فاعجبه ذلك وقال يخشى ومعناه بالتركية جيد فاكرمه اكراما كثيرا وزاد في تعظيم المسلمين

— حكاية —

ومن احكام كبك ماذكر ان امرأة شكت له باحد الامراء وذكرت انها فقيرة ذات اولاد وكان لها لبن تقوتهم بثمنه فاغتصبه ذلك الامير وشربه فقال لها اذا اوسطه فان خرج اللبن من جوفه مضى لسبيله والا وسطتك بعده فقالت المرأة قد حللته ولا اطلبه بشيء فامر به فوسط فخرج اللبن من بطنه ولنعد لذكر السلطان طرمشيرين ولما اقمت بالمحلة وهم يسمونها الاردو أياما ذهبت يوما لصلاة الصبح بالمسجد على عادتي فلما صليت ذكر لي بعض الناس ان السلطان بالمسجد فلما قام عن مصلاه تقدمت للسلام عليه وقام الشيخ حسن والفقيه حسام الدين الياغي واعلماه بحالي وقدومي منذ ايام فقال لي بالتركية

خش ميسن يخشى ميسن قطلوا يوسن ومعني خش ميسن في عافية انت ومعنى يخشى ميسن جيد أنت ومعنى قطلوا يوسن مبارك قدومك وكان عليه في ذلك الحين قبا قدسي أخضر وعلى رأسه شاشية مثله ثم انصرف الى مجلسه راجلا والناس يتعرضون له بالشكايات فيقف لكل مشتك منهم صغيرا أو كبيرا ذكرا أو انثي ثم بعث عني فوصلت اليه وهو في خرقة والناس خارجها ميمنة وميسرة والامراء منهم على الكراسي واصحابهم وقوف على رؤسهم وبين ايديهم وسائر الجند قد جلسوا صفوفا وامام كل واحد منهم سلاحه وهم اهل النوبة يقعدون هنالك الى العصر ويأتي آخرون فيقعدون الى آخر الليل وقد صنعت هنالك سقائف من ثياب القطن يكونون بها ولما دخلت الى الملك بداخل الخرقة وجدته جالسا على كرسي شبه المنبر مكسو بالحرير المزركش بالذهب وداخل الخرقة ملبس بثياب الحرير المذهب والتاج المرصع بالجوهر واليواقيت معلق فوق رأس السلطان بينه وبين رأسه قدر ذراع والامراء الكبار علي الكراسي عن يمينه ويساره وأولاد الملوك بايديهم المذاب بين يديه وعند باب الخرقة النائب والوزير والحاجب وصاحب العلامة وهم يسمون آل طمغي وآل (بفتح الهمزة) معناه الاحمر وطمغى (بفتح الطاء المهمل وسكون الميم والغين المعجم المفتوح) ومعناه العلامة وقام الى اربعتهم حين دخولي ودخلوا معي فسلمت عليه وسألني وصاحب العلامة يترجم بيني وبينه عن مكة والمدينة والقدس شرفها الله وعن مدينة الخليل عليه السلام وعن دمشق ومصر والملك الناصر وعن العراقين وملكهما وبلاد الاعاجم ثم أذن المؤذن بالظهر فانصرفنا وكنا نحضر معه الصلوات وذلك أيام البرد الشديد المهلك فكان لا يترك صلاة الصبح والعشاء في الجماعة ويقعد للذكر والتركيا بعد صلاة الصبح الى طلوع الشمس ويأتي اليه كل من في المسجد فيصافحه ويشد بيده على يده وكذلك يفعلون في صلاة العصر وكان اذا أوتي بهدية من زبيب أو تمر والتمر عزيز عندهم وهم يتبركون به يعطي منها بيده لكل من في المسجد — حكاية —

ومن فضائل هذا الملك انه حضرت صلاة العصر يوما ولم يحضر السلطان فجاء أحد فتيانه بسجادة ووضعها قبالة المحراب حيث جرت عادته ان يصلي وقال للامام حسام الدين الياغي ان مولانا يريد ان تنتظره بالصلاة قليلا ريثما يتوضأ فقام الامام المذكور وقال نماز ومعناه الصلاة برأى خدا أو برأى طرمشيرين أي الصلاة لله أو لطرمشيرين ثم أمر المؤذن باقامة الصلاة وجاء السلطان وقد صلى منها ركعتان فصلي الركعتين الآخرتين حيث انتهى به القيام وذلك في الموضع الذي تكون فيه أنعلة الناس عند باب المسجد وقضى ما فاته وقام الى الامام

ليصافحه وهو يضحك وجلس قبالة المحراب والشيخ الامام الى جانبه وأنا الى جانب الامام فقال لي اذا مشيت الى بلادك فحدث ان فقيرا من فقراء الاعاجم يفعل هكذا مع سلطان الترك وكان هذا الشيخ يعظ الناس في كل جمعة ويامر السلطان بالمعروف وينهاه عن المنكر وعن الظلم ويغلظ عليه القول والسلطان ينصت لكلامه ويبكي وكان لا يقبل من عطاء السلطان شيئا ولم يأكل قط من طعامه ولا لبس من ثيابه وكان هذا الشيخ من عباد الله الصالحين وكنت كثيرا ما أرى عليه قباء قطن مبطنا بالقطن محشوا به وقد بلي وتمزق وعلى رأسه قلنسوة لبد يساوي مثلها قيراطا ولا عمامة عليه فقلت له في بعض الايام ياسيدي ما هذا القباء الذي أنت لابسه انه ليس بجيد فقال لي ياولدي ليس هذا القباء لي وانما هو لابنتي فرغبت منه ان ياخذ بعض ثيابي فقال لي عاهدت الله منذ خمسين سنة ان لا أقبل من أحد شيئا ولو كنت أقبل من أحد لقبلت منك ولما عزمت على السفر بعد مقامي عند هذا السلطان أربعة وخمسين يوما أعطاني السلطان سبعمائة دينار دراهم وفروة سمور تساوي مائة دينار طلبتها منه لاجل البرد ولما ذكرتها له أخذ أكمامي وجعل يقبلها بيده تواضعا منه وفضلا وحسن خلق وأعطاني فرسين وجملين ولما أردت وداعه أدركته في أثناء طريقه الى متصيده وكان اليوم شديد البرد جدا فو الله ما قدرت على أن أنطق بكلمة لشدة البرد ففهم ذلك وضحك وأعطاني يده وانصرفت وبعد سنتين من وصولي الى أرض الهند بلغنا الخبر بان الملأ من قومه وأمرائه اجتمعوا باقصي بلاده المجاورة للصين وهنالك معظم عساكره وبايعوا ابن عم له اسمه بوزن أغلي وكل من كان من أبناء الملوك فهم يسمونه أغلى (بضم الهمزة وسكون الغين المعجمة وكسر اللام) وبوزن (بضم الباء الموحدة وضم الزاي) وكان مسلما الا انه فاسد الدين سيء السيرة وسبب بيعتهم له وخلعهم لطرمشيرين ان طرمشيرين خالف أحكام جدهم تنكز اللعين الذي خرب بلاد الاسلام وقد تقدم ذكره وكان تنكز ألف كتابا في أحكامه يسمى عندهم اليساق (بفتح الياء آخر الحروف والسين المهمل وآخره قاف) وعندهم انه من خالف أحكام هذا الكتاب فخلعه واجب ومن جملة أحكامه انهم يجتمعون يوما في السنة يسمونه الطوي ومعناه يوم الضيافة ويأتي أولاد تنكز والامراء من أطراف البلاد ويحضرا لخواتين وكبار الاجناد وان كان سلطانهم قد غير شيئا من تلك الاحكام يقوم اليه كبراؤهم فيقولون له غيرت كذا وغيرت كذا وفعلت كذا وقد وجب خلعك ويأخذون بيده ويقيمونه عن سرير الملك ويقعدون غيره من أبناء تنكز وان كان أحد الامراء الكبار أذنب ذنبا في

بلاده حكموا عليه بما يستحقه وكان السلطان طرمشيرين قد أبطل حكم هذا اليوم ومحا رسمه فانكروه عليه أشد الانكار وأنكروا عليه أيضا كونه أقام أربع سنين فيما يلى خراسان من بلاده ولم يصل الى الجهة التي تواني الصين والعادة ان الملك يقصد تلك الجهة فى كل سنة فيختبر أحوالها وحال الجند بها لان أصل ملكهم منها ودار الملك هى مدينة المالق فلما بايعوا بوزن أتى فى عسكر عظيم وخاف طرمشيرين على نفسه من أمرائه ولم يامنهم فركب فى خمسة عشر فارسا يريد بلاد غزنة وهى من عمالته ووليها كبير أمرائه وصاحب سره برنطيه وهذا الامير محب في الاسلام والمسلمين قد عمر فى عمالته نحو أربعين زاوية فيها الطعام للوارد والصادر وتحت يده العساكر العظيمة ولم أر قط فيمن رأيته من الآدميين بجميع بلاد الدنيا أعظم خلقة منه فلما عبر نهر جيحون وقصد طريق بلخ رآه بعض الاتراك من أصحاب ينتي ابن أخيه كبك وكان السلطان طرمشيرين المذكور قتل أخاه كبك المذكور وتي ابنه ينتي ببلخ فلما أعلمه التركي بخبره قال ما فر الا لأمر حدث عليه فركب فى أصحابه وقبض عليه وسجنه ووصل بوزن الى سمرقند و بخارى فبايعه الناس وجاءه ينتي بطرمشيرين فيذكر انه لما وصل الى نسف بخارج سمرقند قتل هنالك ودفن بها وخدم تربته الشيخ شمس الدين كردن بريدا وقيل انه لم يقتل كما سنذكره وكردن (بكاف معقودة وراء مسكن ودال مهمل مفتوح ونون) ومعناه العنق و بريدا (بضم الباء الموحدة وكسر الراء وياء مدود ال مهمل) معناه المقطوع ويسمي بذلك لضربة كانت فى عنقه وقد رأيته بارض الهند ويقع ذكره فيما بعد ولما ملك بوزن هرب ابن السلطان طرمشيرين وهو بشاى أغل (أغلى) وأخته وزوجها فيروز الى ملك الهند فعظمهم وأنزلهم منزلة علية بسبب ما كان بينه و بين طرمشيرين من الود والمكاتبة والمهاداة وكان يخاطبه بالاخ ثم بعد ذلك أتي رجل من أرض السند وادعي انه هو طرمشيرين واختلف الناس فيه فسمع بذلك عماد الملك سرتيز غلام ملك الهند ووالى بلاد السند ويسمي ملك عرض وهو الذى تعرض بين يديه عساكر الهند واليه أمرها و مقره بملتان قاعدة السند فبعث اليه بعض الاتراك العارفين به فعادوا اليه وأخبروه انه هو طرمشيرين حقا فامر له باسراجة وهى افراج فضرب خارج المدينة ورتب له ما يرتب لمثله وخرج لاستقباله وترجل له وسلم عليه وأتى فى خدمته الى السراجة فدخلها راكبا كعادة الملوك ولم يشك أحد انه هو و بعث الى ملك الهند بخبره فبعث اليه الامراء يستقبلونه بالضيافات وكان فى خدمة ملك الهند حكيم ممن خدم طرمشيرين

فيما تقدم وهو كبير الحكماء بالهند فقال له الملك أنا أتوجه اليه وأعرف حقيقة أمره فاني كنت عالجت له دملا تحت ركبته وبقي أثره وبه أعرفه فأتى اليه ذلك الحكيم واستقبله مع الامراء ودخل عليه ولازمه لسابقته عنده وأخذ يغمز رجليه وكشف عن الاثر فشتمه وقال له تريد ان تنظر الى الدمل الذي عالجته ها هو ذا وأراه أثره فتحقق انه هو وعاد الى ملك الهند فاعلمه بذلك ثم ان الوزير خواجه جهان أحمد بن اياس وكبير الامراء قطلوخان معلم السلطان أيام صغره دخلا على ملك الهند وقالا له ياخوند عالم هذا السلطان طرمشيرين قد وصل وصح انه هو وها هنا من قومه نحو أربعين ألفا وولده وصهره أرأيت ان اجتمعوا عليه ما يكون من العمل فوقع هذا الكلام بموقع منه عظيم وامر ان يؤتى بطرمشيرين معجلا فلما دخل عليه امر بالخدمة كسائر الواردين ولم يعظم وقال له السلطان باماذركاني وهي شتمة قبيحة كيف تكذب وتقول انك طرمشيرين وطرمشيرين قد قتل وهذا خادم تربيته عندنا والله لولا المعرفة لقتلتك ولكن أعطوه خمسة آلاف دينار واذهبوا به الى دار بشاى اغلي واخته ولدي طرمشيرين وقولوا لهم ان هذا الكاذب يزعم انه والدكم فدخل عليهم فعرفوه وبات عندهم والحراس يحرسونه واخرج بالغد وخافوا ان يهلكوا بسببه فانكروه ونفى عن بلاد الهند والسند فسلك طريق كيج ومكران وأهل البلاد يكرمونه ويضيفونه ويهادونه ووصل الى شيراز فاكرمه سلطانها أبو اسحق واجرى له كفايته ولما دخلت عند وصولي من الهند الى مدينة شيراز ذكر لي انه باق بها واردت لقاءه ولم أفعل لانه كان في دار لا يدخل اليه احد الا باذن من السلطان ابي اسحاق فخفت مما يتوقع بسبب ذلك ثم ندمت على عدم لقائه

(رجع الحديث الى بوزن) وذلك أنه لما ملك ضيق على المسلمين وظلم الرعية واباح للنصارى واليهود عمارة كنائسهم فضج المسلمون من ذلك وتربصوا به الدوائر واتصل خبره بخليل ابن السلطان ابي سعيد المهزوم على خراسان فقصد ملك هراة وهو السلطان حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري فاعلمه بما كان في نفسه وسأل منه الاعانة بالعساكر والمال على أن يشاطره الملك اذا استقام له فبعث معه الملك حسين عسكرا عظيما بين هراة وترمذ تسعة أيام فلما سمع أمراء السلطان بقدوم خليل تلقوه بالسمع والطاعة والرغبة في جهاد العدو وكان أول قادم عليه علاء الملك خداوندزاده صاحب ترمذ وهو أمير كبير شريف حسيني النسب فاتاه في أربعة آلاف من المسلمين فسر به وولاه وزارته وفوض اليه أمره وكان من الابطال وجاء الامراء من كل ناحية واجتمعوا على خليل

Digitized by Birzeit University Library

والتقى مع بوزن فمالت العسا كر الى خليل وأسلموا بوزن وأتوا به أسيراً فقتله خنقا باوتار القسى وتلك عادة لهم انهم لا يقتلون من كان من أبناء الملوك الا خنقا واستقام الملك لخليل وعرض عساكره بسمرقند فكانوا ثمانين ألفا عليهم وعلى خيلهم الدروع فصرف العسكر الذي جاء به من هراة وقصد بلاد المالق فقدم التتر على أنفسهم واحداً منهم والقوه على مسيرة ثلاث من المالق بمقربة من اطراز (طراز) وحمى القتال وصبر الفريقان فحمل الامير خداوندزاده وزيره فى عشرين ألفا من المسلمين حملة لم يثبت لها التتر فانهزموا واشتد فيهم القتل وأقام خليل بالمالق ثلاثا وخرج الى استئصال من بقي من التتر فاذعنوا له بالطاعة وجاز الى تخوم الخطا والصين وفتح مدينة قراقرم ومدينة بش بالغ و بعث اليه سلطان الخطا بالعسا كر ثم وقع بينهما الصلح وعظم أمر خليل وهابته الملوك وأظهر العدل ورتب العسا كر بالمالق وترك بها وزيره خداوند زاده وانصرف الى سمرقند وبخارى ثم ان الترك أرادوا الفتنة فسعوا الى خليل بوزيره المذكور وزعموا انه يريد الثورة ويقول انه أحق بالملك لقرابته من النبي صلى الله عليه وسلم وكرمه وشجاعته فبعث واليا الى المالق عوضاً عنه وأمره أن يقدم عليه فى نفر يسير من أصحابه فلما قدم عليه قتله عند وصوله من غير تثبت فكان ذلك سبب خراب ملكه وكان خليل لما عظم أمره بغى على صاحب هراة الذي أورثه الملك وجهزه بالعساكر والمال فكتب اليه أن يخطب فى بلاده باسمه ويضرب الدنانير والدراهم على سكته فغاظ ذلك الملك حسينا وأنف منه وأجابه بأقبح جواب فتجهز خليل لقتاله فلم توافقه عساكر الاسلام ورأوه باغيا عليه و بلغ خبره الى الملك حسين فجهز العساكر مع ابن عمه ملك ورنا والتقى الجمعان فانهزم خليل وأتى به الى الملك حسين أسيراً فمن عليه بالبقاء وجعله فى دار وأعطاه جارية وأجرى عليه النفقة وعلى هذا الحال تركته عنده فى أواخر سنة سبع وأربعين عند خروجي من الهند ﴿ ولنعد الى ما كنا بسبيله ﴾ ولما ودعت السلطان طرمشيرين سافرت الى مدينة سمرقند وهى من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالا مبنية على شاطىء وادي يعرف بوادى القصارين عليه النواعير تسقى البساتين وعنده يجتمع أهل البلد بعد صلاة العصر للنزهة والتفرج ولهم عليه مساطب ومجالس يقعدون عليها ودكاكين تباع بها الفاكهة وسائر المأكولات وكانت على شاطئه قصور عظيمة وعمارة تنبئ عن علو همم أهلها فدثر أكثر ذلك وكذلك المدينة خرب كثير منها ولا سور لها ولا أبواب عليها وفى داخلها البساتين وأهل سمرقند لهم مكارم اخلاق ومحبة فى الغريب وهم خير من أهل بخارى و بخارج سمرقند قبر قثم بن

مكتبة كلية بير زيت

Digitized by Birzeit University Library

العباس بن عبد المطلب رضى الله عن العباس وعن ابنه وهو المشتشهد حين فتحها ويخرج أهل سمرقند كل ليلة اثنين وجمعة الى زيارته والتتر ياتون لزيارته و يذرون له النذور العظيمة ويأتون اليه بالبقر والغنم والدراهم والدنانير فيصرف ذلك فى النفقة على الوارد والصادر ولخدام الزاوية والقبر المبارك وعليه قبة قائمة على أربع أرجل ومع كل رجل ساريتان من الرخام منها الخضر والسود والبيض والحمر وحيطان القبة بالرخام المجزع المنقوش بالذهب وسقفها مصنوع بالرصاص وعلى القبر خشب الآبنوس المرصع مكسو الاركان بالفضة وفوقه ثلاثة من قناديل الفضة وفرش القبة بالصوف والقطن وخارجها نهر كبير يشق الزاوية التى هنالك وعلى حافتيه الاشجار ودوالى العنب والياسمين وبالزاوية مساكن يسكنها الوارد والصادر ولم يغير التتر أيام كفرهم شيئا من حال هذا الموضع المبارك بل كانوا يتبركون به لما يرون له من الآيات وكان الناظر فى كل حال هذا الضريح المبارك ومايليه حين نزولنا به الامير غياث الدين محمد بن عبد القادر بن عبد العزيز بن يوسف ابن الخليفة المستنصر بالله العباسي قدمه لذلك السلطان طرمشيرين لما قدم عليه من العراق وهو الآن عند ملك الهند وسياتى ذكره ولقيت بسمرقند قاضيها المسمي عندهم صدر الجهان وهو من الفضلاء ذوى المكارم وسافر الى بلاد الهند بعد سفرى اليها فادركته منيته بمدينة ملتان قاعدة بلاد السند

— حكاية —

لما مات هذا القاضي بملتان كتب صاحب الخبر بامره الى ملك الهند وانه قدم برسم بابه فاخترم دون ذلك فلما بلغ الخبر الى الملك أمر أن يبعث الى أولاده عدد من آلاف الدنانير لا اذكره الآن وأمر أن يعطي لاصحابه ماكان يعطى لهم لو وصلوا معه وهو بقيد الحياة وللملك الهند فى كل بلد من بلاده صاحب الخبر يكتب له بكل مايجري فى ذلك البلد من الامور وبمن يرد عليه من الواردين واذا أتي الوارد كتبوا من أي البلاد ورد وكتبوا اسمه ونعته وثيابه وأصحابه وخيله وخدامه وهيئته من الجلوس والمآكل وجميع شؤنه وتصرفاته ومايظهر منه من فضيلة أو ضدها فلا يصل الوارد الى الملك الا وهو عارف بجميع حاله فتكون كرامته على مقدار مايستحقه وسافرنا من سمرقند فاجتزنا ببلدة نسف واليها ينسب أبو حفص عمر النسفى مؤلف كتاب المنظومة فى المسائل الخلافية بين الفقهاء الاربعة رضى الله عنهم ثم وصلنا الى مدينة ترمذ التي ينسب اليها الامام أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي مؤلف الجامع الكبير في السنن وهي مدينة كبيرة حسنة العمارة والاسواق تخترقها الانهار وبها البساتين الكثيرة والعنب والسفرجل بها كثير متناهي الطيب

واللحوم بها كثيرة وكذلك الالبان وأهلها يغسلون رؤسهم في الحمام باللبن عوضا عن الطفل ويكون عند كل صاحب حمام أوعية كبار مملوءة لبنا فاذا دخل الرجل الحمام أخذ منها في اناء صغير فغسل رأسه وهو يرطب الشعر ويصقله وأهل الهند يجعلون في رؤسهم زيت السمسم ويسمونه الشياج ويغسلون الشعر بعده بالطفل فينعم الجسم ويصقل الشعر ويطيله وبذلك طالت لحى أهل الهند ومن سكن معهم وكانت مدينة ترمذ القديمة مبنية على شاطيء جيحون فلما خربها تنكز بنيت هذه الحديثة على ميلين من النهر وكان نزولنا بها بزاوية الشيخ الصالح عز بزان من كبار المشايخ وكرمائهم كثير المال والرباع والبساتين ينفق على الوارد والصادر من ماله واجتمعت قبل وصولي الى هذه المدينة بصاحبها علاء الملك خداوند زاده وكتب لي اليها بالضيافة فكانت تحمل الينا أيام مقامنا بها في كل يوم ولقيت أيضا قاضيها قوام الدين وهو متوجه لرؤية السلطان طرمشيرين وطالب للاذن له في السفر الى بلاد الهند وسياتي ذكر لقائي له بعد ذلك ولاخويه ضياء الدين وبرهان الدين بملتان وسفرنا جميعا الى الهند وذكر أخويه الآخرين عماد الدين وسيف الدين ولقائي لهما بحضرة ملك الهند وذكر ولديه وقدومهما على ملك الهند بعد قتل أبيهما وتزويجهما بنتي الوزير خواجه جهان وماجري في ذلك كله ان شاء الله تعالى ثم اجزنا نهر جيحون الى بلاد خراسان وسرنا بعد انصرافنا من ترمذ واجازة الوادي يوما ونصف يوم في صحراء ورمال لا عمارة بها الى مدينة بلخ وهي خاوية على عروشها غير عامرة ومن رآها ظنها عامرة لاتقان بنائها وكانت ضخمة فسيحة ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم حتى الآن ونقوش مبانيها مدخلة باصبغة اللازورد والناس ينسبون اللازورد الى خراسان وانما يجلب من جبال بدخشان التي ينسب اليها الياقوت البدخشي والعامة يقولون البلخش وسياتي ذكرها ان شاء الله تعالى وخرب هذه المدينة تنكز اللعين وهدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنز زكر له انه تحت سارية من سواريه وهو من أحسن مساجد الدنيا وافسحها ومسجد رباط الفتح بالمغرب يشبهه في عظم سواريه ومسجد بلخ اجمل منه في سوى ذلك

— حكاية —

ذكر لي بعض أهل التاريخ أن مسجد بلخ بنته امرأة كان زوجها أميرا ببلخ لبني العباس يسمى داود بن علي فاتفق ان الخليفة غضب مرة على أهل بلخ لحادث الحدثوه فبعث اليهم من يغرمهم مغرما فادحا فلما بلغ الى بلخ أتى نساؤها وصبيانها الى تلك المرأة التي بنت المسجد وهي زوج أميرهم وشكوا حالهم وما لحقهم من هذا المغرم فبعثت الى الامير الذي

قدم برسم تفريقهم ثوب لها مرصع بالجوهر قيمته أكثر مما أمر بتغريمه فقالت له اذهب بهذا الثوب الى الخليفة فقد أعطيته صدقة عن أهل بلخ لضعف حالهم فذهب به الى الخليفة والقى الثوب بين يديه وقص عليه القصة فخجل الخليفة وقال أتكون المرأة أكرم منا وأمره يرفع المغرم عن أهل بلخ وبالعودة اليها ليرد المرأة ثوبها وأسقط عن أهل بلخ خراج سنة فعاد الامير الى بلخ وأتى منزل المرأة وقص عليها مقالة الخليفة وردعليها الثوب فقالت له أوقع بصر الخليفة على هذا الثوب قال نعم قالت لا البس ثوبا وقع عليه بصر غير ذي محرم مني وأمرت ببيعه فبني منه المسجد والزاوية ورباط في مقابلته مبني بالكذان وهو عامر حتى الآن وفضل من ثمن الثوب مقدار ثلثه فذكرانها أمرت بدفنه تحت بعض سواري المسجد ليكون هنالك متيسرا ان احتيج اليه خرج فاخبر تنكير بهذه الحكاية فامر بهدم سواري المسجد فهدم منها نحو الثلث ولم يجد شيا فترك الباقي على حاله وبخارج بلخ قبر يذكرانه قبر عكاشة بن محصن الاسدي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما الذي يدخل الجنة بلاحساب وعليه زاوية معظمة بها كان نزولنا وبخارجها بركة ماء عجيبة عليها شجرة جوز عظيمة ينزل الواردون في الصيف تحت ظلالها وشيخ هذه الزاوية يعرف بالحاج خردو وهو الصغير من الفضلاء وركب معنا وأرانا مزارات هذه المدينة منها قبر حزقيل النبي عليه السلام وعليه قبة حسنة وزرنا بها أيضا قبورا كثيرة من قبور الصالحين لا أذكرها الآن ووقفنا على دار ابراهيم بن أدهم رضي الله عنه وهي دار ضخمة مبنية بالصخر الابيض الذي يشبه الكذان وكان زرع الزاوية مقترنا بها وقد سدت عليه فلم ندخلها وهي بمقربة من المسجد الجامع ثم سافرنا من مدينة بلخ فسرنا في جبال قوه أستان (فهستان) سبعة أيام وهي قري كثيرة عامرة بها المياه الجارية والاشجار المورقة وأكثرها شجر التين وبها زوايا كثيرة فيها الصالحون المنقطعون الى الله تعالى وبعد ذلك كان وصولنا الى مدينة هراة وهي أكبر المدن العامرة بخراسان ومدن خراسان العظيمة أربع ثنتان عامرتان وهما هراة ونيسابور وثنتان خربتان وهما بلخ ومرو ومدينة هراة كبيرة عظيمة كثيرة العمارة ولاهلها صلاح وعفاف وديانة وهم على مذهب الامام أبي حنيفة رضي الله عنه وبلدهم طاهر من الفساد

— ذكر سلطان هراة —

وهو السلطان المعظم حسين ابن السلطان غياث الدين الغوري صاحب الشجاعة المأثورة والتأييد والسعادة ظهر له من اتجاد الله تعالى وتأييده في موطنين اثنين مايقضي منه

العجب أحدهما عند ملاقاة جيشه للسلطان خليل الذى بغي عليه وكان منتهى أمره حصوله أسيرا في يديه والموطن الثاني عنده ملاقاته بنفسه لمسعود سلطان الرافضة وكان منتهي أمره تبديده وفراره وذهاب ملكه وولى السلطان حسين الملك بعد أخيه المعروف بالحافظ وولى أخوه بعد أبيه غياث الدين

— حكاية الرافضة —

كان بخراسان رجلان أحدهما يسمي بمسعود والآخر يسمي بمحمد وكان لهما خمسة من الاصحاب وهم من الفتاك ويعرفون بالعراق بالشطار ويعرفون بخراسان بسرا بداران (سربداران) ويعرفون بالمغرب بالصقورة فاتفق سبعتهم على الفساد وقطع الطرق وسلب الاموال وشاع خبرهم وسكنوا جبلا منيعا بمقربة من مدينة بيهق وتسمي ايضا مدينة سيزار (سبزوار) وكانوا يكمنون بالنهار ويخرجون بالليل والعشى فيضربون على القرى ويقطعون الطرق وياخذون الاموال وانضال عليهم أشباههم من أهل الشر والفساد فكثر عددهم واشتدت شكوتهم وهابهم الناس وضربوا على مدينة بيهق فملكوها ثم ملكوا سواها من المدن واكتسبوا الاموال وجندوا الجنود وركبوا الخيل وتسمي مسعود بالسلطان وصار العبيد يفرون عن مواليهم اليه فكل عبد فر منهم يعطيه الفرس والمال وان ظهرت له شجاعة أمره علي جماعة فعظم جيشه واستفحل أمره وتمذهب جميعهم بمذهب الرفض وطمحوا الى استئصال أهل السنة بخراسان وان يجعلوها كلمة واحدة رافضية وكان بمشهد طوس شيخ من الرافضة يسمى بحسن وهو عندهم من الصلحاء فوافقهم على ذلك وسموه بالخليفة وأمرهم بالعدل فاظهروه حتي كانت الدراهم والدنانير تسقط في معسكرهم فلا يلتقطها أحد حتى ياتي ربها فياخذها وغلبوا على نيسابور وبعث اليهم السلطان طغيتمور بالعساكر فهزموه ثم بعث اليهم نائبه أرغون شاه فهزموه وأسروه ومنوا عليه ثم غزاهم طغيتمور بنفسه في خمسين الفا من التتر فهزموه وملكوا البلاد وتغلبوا على سرخس والزاوه وطوس وهى من أعظم بلاد خراسان وجعلوا خليفتهم بمشهد على بن موسي الرضى وتغلبوا على مدينة الجام ونزلوا بخارجها وهم قاصدون مدينة هراة وبينها وبينهم مسيرة ست فلما بلغ ذلك الملك حسينا جمع الامراء والعساكر و أهل المدينة واستشارهم هل يقيمون حتى ياتي القوم أو يمضون اليهم فينا جزونهم فوقع إجماعهم على الخروج اليهم وهم قبيلة واحدة يسمون الغورية ويقال انهم منسوبون الى غور الشام وان اصلهم منه فتجهزوا واجمعوا واجتمعوا من أطراف البلاد وهم ساكنون بالقري وبصحراء مرغيس (بدغيس) وهى مسيرة اربع لا يزال عشبها اخضر ترعى منه ماشيتهم وخيلهم واكثر

شجرها الفستق ومنها يحمل الى أرض العراق وعضدهم أهل مدينة سمنان ونفروا جميعا
الى الرافضة وهم مائة وعشرون ألفا ما بين رجالة وفرسان يقودهم الملك حسين واجتمعت
الرافضة فى مائة وخمسين ألفا من الفرسان وكانت الملاقاة بصحراء بوشنج وصبر الفريقان
معا ثم كانت الدائرة على الرافضة وفر سلطانهم مسعود ونبت خليفتهم حسن فى عشرين
ألفا حتى قتل وقتل أكثرهم وأسر منهم نحو أربعة آلاف وذكر لى بعض من حضر هذه
الوقيعة ان ابتداء القتال كان فى وقت الضحى وكانت الهزيمة عند الزوال ونزل الملك حسين
بعد الظهر فصلى وأتى بالطعام فكان هو وكبراء أصحابه يأكلون وسائرهم يضربون أعناق
الأسرى وعاد الى حضرته بعد هذا الفتح العظيم وقد نصر الله السنة على يديه وأطفأ نار
الفتنة وكانت هذه الوقيعة بعد خروجي من الهند عام ثمانية وأربعين ونشأ بهراة رجل من
الزهاد والصلحاء الفضلاء واسمه نظام الدين مولانا وكان أهل هراة يحبونه ويرجعون الى
قوله وكان يعظهم ويذكرهم وتوافقوا معه على تغيير المنكر وتعاقدوا معهم على ذلك خطيب
المدينة المعروف بملك ورنا وهو ابن عم الملك حسين ومتزوج بزوجة والده وهي من
أحسن الناس صورة وسيرة والملك يخافه على نفسه وسنذكر خبره وكانوا متى علموا بمنكر
ولو كان عند الملك غيروه

— حكاية —

ذكر لى انهم تعرفوا يوما ان بدار الملك حسين منكرا فاجتمعوا لتغييره ونحصن منهم
بداخل داره فاجتمعوا على الباب فى ستة آلاف رجل فخاف منهم فاستحضر الفقيه وكبار
البلد وكان قد شرب الخمر فقاموا عليه الحد بداخل قصره وانصرفوا عنه

— حكاية هى سبب قتل الفقيه نظام الدين المذكور —

كانت الاتراك المجاورون لمدينة هراة الساكنون بالصحراء وملكهم طغيتمور الذى مر
ذكره وهم نحو خمسين ألفا يخافهم الملك حسين ويهدى لهم الهدايا فى كل سنة ويدارهم
وذلك قبل هزيمته للرافضة وأما بعد هزيمته للرافضة فتغلب عليهم ومن عادة هؤلاء الاتراك
التردد الى مدينة هراة وربما شربوا بها الخمر وأتاها بعضهم وهو سكران فكان نظام
الدين يحد من وجد منهم سكرانا وهؤلاء الاتراك أهل نجدة وباس ولا يزالون يضربون
على بلاد الهند فيسبون ويقتلون وربما سبوا بعض المسلمات اللاتى يكن بارض الهند ما بين
الكفار فاذا خرجوا بهن الى خراسان يطلق نظام الدين المسلمات من أيدى الترك وعلامة
النسوة المسلمات بارض الهند ترك ثقب الاذن والكافرات آذانهن مثقوبات فاتفق مرة ان
أميرا من أمراء الترك يسمى تمور الطي سبى امرأة وكلف بها كلفا شديدا فذكرت انها

مسلمة فانتزعها الفقيه من يده فبلغ ذلك من التركي مبلغا عظيما وركب في آلاف من أصحابه وأغار على خيل هراة وهي في مرعاها بصحراء مرغيس (بدغيس) واحتملوها فلم يتركوا لاهل هراة مايركبون ولا مايحلبون وصعدوا بها الى جبل هنالك لايقدر عليهم فيه ولم يجد السلطان ولا جنده خيلا يتبعونهم بها فبعث اليهم رسولا يطلب منهم ردما أخذوه من الماشية والخيل ويذكرهم العهد الذي بينهم فاجابوا بانهم لايردون ذلك حتى يمكنوا من الفقيه نظام الدين فقال السلطان لاسبيل الى هذا وكان الشيخ أبو أحمد الجستي حفيد الشيخ مودود الجستي له بخراسان شان عظيم وقوله معتبر لديهم فركب في جماعة خيل من أصحابه ومما ليكد فقال أنا أحمل الفقيه نظام الدين معي الى التركي ليرضوا بذلك ثم أرده فكان الناس مالوا الى قوله ورأي الفقيه نظام الدين اتفاقهم على ذلك فركب مع الشيخ أبي أحمد ووصل الى التركي فقام اليه الامير تمور الطي وقال له أنت أخذت امرأتي مني وضربه يده بوسه فكسر دماغه فخر ميتا فسقط في أيدي الشيخ أبي أحمد وانصرف من هنالك الى بلده ورد التركي ما كانوا أخذوه من الخيل والماشية وبعد مدة قدم ذلك التركي الذي قتل الفقيه على مدينة هراة فلقيه جماعة من أصحاب الفقيه فتقدموا اليه كانهم مسلمون عليه وتحت ثيابهم السيوف فقتلوه وفر أصحابه ولما كان بعد هذا بعث الملك حسين ابن عمه ملك غورنا الذي كان رفيق الفقيه نظام الدين في تغيير المنكر رسولا الى ملك سجستان فلما حصل بها بعث اليه أن يقيم هنالك ولا يعود اليه فقصد بلاد الهند ولقيته وأنا خارج منها بمدينة سيوستان من السند وهو أحد الفضلاء وفي طبعه حب الرياسة والصيد والبزاة والخيل والمماليك والاصحاب واللباس الملوكي الفاخر ومن كان على هذا الترتيب فانه لا يصلح حاله بارض الهند فكان من أمره ان ملك الهند ولاه بلدا صغيرا وقتله به بعض أهل هراة المقيمين بالهند بسبب جارية وقيل ان ملك الهند دس عليه من قتله بسعي الملك حسين في ذلك ولاجله خدم الملك حسين ملك الهند بعد موت ملك غورنا المذكور وهاداه ملك الهند وأعطاه مدينة بكار من بلاد السند وحباها خمسون الفا من دنانير الذهب في كل سنة (ولنعد) الى ماكنا بسبيله فنقول سافرنا من هراة الى مدينة الجام وهي متوسطة حسنة ذات بساتين وأشجار وعيون كثيرة وأنهار واكثر شجرها التوت والحرير بها كثير وهي تنسب الى الولي العابد الزاهد شهاب الدين احمد الجامي وسنذكر حكايته وحفيده الشيخ احمد المعروف بزاده الذي قتله ملك الهند والمدينة الآن لاولاده وهي محررة من قبل السلطان ولهم بها نعمة وثروة وذكر لي من اثق به ان السلطان أباسعيد

Digitized by Birzeit University Library

ملك العراق قدم خراسان مرة ونزل علي هذه المدينة و بها زاوية الشيخ فأضافه ضيافة عظيمة وأعطى لكل خباء بمحلته رأس غنم ولكل أربعة رجال رأس غنم ولكل دابة بالمحلة من فرس وبغل وحمار علف ليلة فلم يبق فى المحلة حيوان الا وصلته ضيافته

— حكاية الشيخ شهاب الدين الذى تنسب اليه مدينة الجام —

يذكر انه كان صاحب راحة مكثرا من الشرب وكان له من الندماء نحو ستين وكانت لهم عادة أن يجتمعوا يوما فى منزل كل واحد منهم فتدور النوبة على أحدهم بعد شهرين وبقوا على ذلك مدة ثم ان النوبة وصلت يوما الى الشيخ شهاب الدين فعقد النوبة ليلة النوبة وعزم علي اصلاح حاله مع ربه وقال فى نفسه ان قلت لاصحابى انى قد تبت قبل اجتماعهم عندى ظنوا ذلك عجزا عن مؤنتهم فاحضر ما كان يحضر مثله قبل من مأكولات ومشروب وجعل الخمر فى الزقاق وحضر أصحابه فلما أرادوا الشرب فتحوا زقا فذاقه أحدهم فوجده حلوا ثم فتحوا ثانيا فوجدوه كذلك ثم ثالثا فوجدوه كذلك فكلموا الشيخ فى ذلك فخرج لهم عن حقيقة أمره وصدقهم سن بكره وعرفهم بتوبته وقال لهم والله ما هذا الا الشراب الذى كنتم تشربونه فيا قدم فتابوا جميعا الى الله تعالى وبنوا تلك الزاوية وانقطعوا بها لعبادة الله تعالى وظهر لهذا الشيخ كثير من الكرامات والمكاشفات ثم سافرنا من الجام الى مدينة طوس وهى من أكبر بلاد خراسان وأعظمها بلد الامام الشهير أبى حامد الغزالي رضى الله عنه وبها قبر وزرحلنا منها الى مدينة مشهد الرضا وهو على بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين الشهيد ابن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنهم وهى أيضا مدينة كبيرة ضخمة كثيرة الفواكه والمياه والارجاء الطاهنة وكان بها الطاهر محمد شاه والطاهر عندهم بمعنى النقيب عند أهل مصر والشام والعراق وأهل الهند والسند وتركستان يقولون السيد الاجل وكان أيضا بهذا المشهد القاضى الشريف جلال الدين لقيته بأرض الهند والشريف على وولداه أمير هند وودولة شاه وصحبونى من ترمذ الى بلاد الهند وكانوا من الفضلاء والمشهد المكرم عليه قبة عظيمة فى داخل زاوية تجاورها مدرسة ومسجد وجميعها مليح البناء مصنوع الحيطان بالقاشانى وعلى القبر دكانة خشب ملبسة بصفائح الفضة وعليه قنادبل فضة معلقة وعتبة باب القبة فضة وعلى بابها ستر حرير مذهب وهى مبسوطة بأنواع البسط وازاء هذا القبر قبر هارون الرشيد أمير المؤمنين رضي الله عنه وعليه دكانة يضعون عليها الشمعدانات التي يعرفها أهل المغرب بالحسك والمنائر واذا دخل الرافضى للزيارة ضرب

قبر الرشيد برجله وسلم على الرضا ثم سافرنا الى مدينة سرخس واليها ينسب الشيخ الصالح لقمان السرخسي رضي الله عنه ثم سافرنا منها الى مدينة زاوة وهي مدينة الشيخ الصالح قطب الدين حيدر واليه تنسب طائفة الحيدرية من الفقراء وهم الذين يجعلون حلق الحديد في أيديهم وأعناقهم وآذانهم ويجعلونها أيضا في ذكورهم حتى لا يتأتى لهم النكاح ثم رحلنا منها فوصلنا الى مدينة نيسابور وهي احدي المدن الاربع التي هي قواعد خراسان ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها ومياهها وحسنها وتخرقها أربعة من الانهار وأسواقها حسنة متسعة ومسجدها بديع وهو في وسط السوق ويليه أربع من المدارس يجري بها الماء الغزير وفيها من الطلبة خلق كثير يقرؤن القرآن والفقه وهي من حسان مدارس تلك البلاد ومدارس خراسان والعراقين ودمشق وبغداد ومصر وان بلغت الغاية من الاتقان والحسن فكلها تقصر عن المدرسة التي عمرها مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله المجاهد في سبيل الله عالم الملوك واسطة عقد الخلفاء العادلين أبو عنان وصل الله سعده ونصر جنده وهي التي عند القصبة من حضرة فاس حرسها الله تعالى فانها لا نظير لها سعة وارتفاعا ونقش الجص بها لا قدوة لاهل المشرق عليه ويصنع بنيسابور ثياب الحرير من النخ والكمخاء وغيرها وتحمل منها الى الهند وفي هذه المدينة زاوية الشيخ الامام العالم القطب العابد قطب الدين النيسابوري أحد الوعاظ العلماء الصالحين نزلت عنده فأحسن القرى وأكرم ورأيت له البراهين والكرامات العجيبة

— كرامة له —

كنت قد اشتريت بنيسابور غلاما تركيا فرآه معي فقال لي هذا الغلام لا يصلح لك فبعه فقلت له نعم وبعت الغلام في غد ذلك اليوم واشتراه بعض التجار وودعت الشيخ وانصرفت فلما حللت بمدينة بسطام كتب الي بعض أصحابي من نيسابور وذكر ان الغلام المذكور قتل بعض أولاد الاتراك وقتل به وهذه كرامة واضحة لهذا الشيخ رضي الله عنه وسافرت من نيسابور الى مدينة بسطام التي ينسب اليها الشيخ العارف أبو يزيد البسطامي الشهير رضي الله عنه وبهذه المدينة قبره ومعه في قبة واحدة أحد أولاد جعفر الصادق رضي الله عنه وببسطام أيضا قبر الشيخ الصالح الولي أبي الحسن الخرقاني وكان نزولي من هذه المدينة بزاوية الشيخ أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه ثم سافرت من هذه المدينة على طريق هند خير الى قندوس وبغلان وهي قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والانهار فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لاحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى بشير سياه

ومعنى ذلك الاسد الاسود وأضافنا بها والى تلك الارض وهو من أهل الموصل وسكناه
بستان عظيم هنالك وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعي الجمال والخيل وبها
مراعي طيبة واعشاب كثيرة والامن بها شامل بسبب شدة احكام الامير برنطيه وقد قدمنا
ان أحكام الترك فى من سرق فرسا أن يعطى معه تسعة مثله فان لم يجد ذلك أخذ فيها أولاده
فان لم يكن له أولاد ذبح ذبح الشاة والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع بعد أن يسم
كل واحد دوابه فى اخفاذها وكذلك فعلنا فى هذه البلاد واتفق ان تفقدنا خيلنا بعد
عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس ولما كان بعد نصف شهر جاءنا النتر بها الى
منزلنا خوفا على أنفسهم من الاحكام وكنا نربط فى كل ليلة ازاء أخبيتنا فرسين لما عسى
أن يقع بالليل ففقدنا الفرسين ذات ليلة وسافرنا من هنالك وبعد ثنتين وعشرين ليلة
جاؤا بهما الينا فى أثناء طريقنا وكان أيضا من أسباب اقامتنا خوف الثلج فان باثناء الطريق
جبلا يقال له هندوكوش ومعناه قاتل الهنود لان العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من
بلاد الهند يموت هنالك الكثير منهم لشدة البرد وكثرة الثلج وهو مسيرة يوم كامل وأقمنا
حتى تمكن دخول الحر وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل وسلكنا به جميع نهارنا الى
الغروب وكنا نضع اللبود بين ايدى الجمال تطأ عليها لئلا تغرق فى الثلج ثم سافرنا الى
موضع يعرف بأندرو وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفى رسمها ونزلنا بقرية عظيمة فيها
زاوية لاحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروى ونزلنا عنده وأكرمنا وكان متى غسلنا
أيدينا من الطعام يشرب الماء الذى غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله وسافر معنا الى ان
صعدنا جبل هند وكوش المذكور ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حاره فغسلنا منها وجوهنا
فتقشرت وتالمنا لذلك ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير ومعنى بنج خمسة وهير الجبل فمعناه
خمسة جبال وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق كانه بحر ينزل
من جبال بدخشان وبهذه الجبال يوجد الياقوت الذى يعرفه الناس بالبلخش وخرب
هذه البلاد تنكيز ملك التتر فلم تعمر بعد وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكى وهو
معظم عندهم ووصلنا الى جبل بشاى (وضبطه بفتح الباء المعقودة والشين المعجم وألف
وياء ساكنة) وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء وأطا (بفتح الهمزة) معناه بالتركية
الاب وأولياء باللسان العربي فمعناه أبو الاولياء ويسمى أيضا سيصد صاله وسيصد (بسين
مهمل مكسور وياء مدوصاد مهمل مفتوح ودال مهمل) ومعناه بالفارسية ثلاثمائة وصاله
(ساله) (بفتح الصاد المهمل واللام) معناه عام وهم يذكرون ان عمره ثلاثمائة وخمسون

عاما ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ويقصده السلاطي والخواتين وأكرمنا وأضافنا ونزل على نهر عند زاويته ودخلنا اليه فسلمت عليه وعانقني وجسه رطب لم أر ألين منه ويظن رائيه ان عمره خمسون سنة وذكر لي انه في كل مائة سنة ينبت له الشعر والاسنان وانه رآى أبارهم الذي قبره بملتان من السند وسالته عن رواية حديث فاخبرني بحكايات وشككت في حاله والله أعلم بصدقه ثم سافرنا الى برون (وضبطها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخرها نون) وفيها لقيت الامير برنطية وضبط اسمها بضم الباء وضم الراء وسكون النون وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكن وهاء) وأحسن الي وأكرمني وكتب الى نوابه بمدينة غزنة في اكرامي وقد تقدم ذكره وذكر ما أعطي من البسطة في الجسم وكان عنده جماعة من المشايخ والفقراء أهل الزوايا ثم سافرنا الى قرية الجرخ (وضمط اسمها بفتح الجيم المعقودة واسكان الراء وخاء معجم) وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكهها طيبة قدمناها في أيام الصيف ووجدنا بها جماعة من الفقراء والطلبة وصلينا بها الجمعة وأضافنا أمير ها محمد الجرخي ولقيته بعد ذلك بالهند ثم سافرنا الى مدينة غزنة وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين الشهير الاسم وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة وكان كثير الغزو الى بلاد الهند وفتح بها المدائن والحصون وقبره بهذه المدينة عليه زاوية وقد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها الا يسير وكانت كبيرة وهي شديدة البرد والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد الى مدينة القندهار وهي كبيرة مخصبة ولم أدخلها وبينهما مسيرة ثلاث ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها وأكرمنا أمير ها مرذك أغا ومرذك (بفتح الميم وسكون الراء وفتح الذال المعجم) ومعناه الصغير وأغا (بفتح الهمزة والغين المعجم) ومعناه الكبير الاصل ثم سافرنا الى كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الاعاجم يقال لهم الافغان ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع الطريق وجبلهم الكبير يسمى كوه سليمان ويذكر ان نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر الى أرض الهند وهي مظلمة فرجع ولم يدخلها فسمي الجبل به وفيه يسكن ملك الافغان وبكابل زاوية الشيخ اسماعيل الافغاني تلميذ الشيخ عباس من كبار الاولياء ومنها رحلنا الى كرماش وهي حصن بين جبلين تقطع به الافغان وكنا حين جوازنا عليه نقاتلهم وهم يسفح الجبل ونرميهم بالنشاب فيفرون وكانت رفقتنا مخفة ومعهم نحو أربعة آلاف فرس وكانت لي جمال انقطعت عن القافلة لاجلها ومعي جماعة بعضهم من الافغان وطرحنا بعض الزاد وتركنا أحمال الجمال التي أعيت بالطريق وعادته

اليها خيلنا بالغد فاحتملتها ووصلنا الى القافلة بعد العساء الآخرة فبتنا بمنزل ششغار وهي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك ومن هنا دخلنا البرية الكبرى وهي مسيرة خمس عشرة لا تدخل الا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بارض السند والهند وذلك في أوائل شهر يولية وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة التي تعفن الجسوم حتى ان الرجل اذا مات تنفسخ أعضاؤه وقد ذكرنا ان هذا الريح تهب أيضا في البرية بين هرمز وشيراز وكانت تقدمتنا امام نارفقة كبيرة فيها خدا وندزاده قاضي ترمذ فمات لهم جمال وخيل كثيرة ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى الى بنج آب وهو ماء السند وبنج (بفتح الباء الموحدة وسكون النون والجيم) ومعناه خمسة وآب (بهمزة مفتوحة ممدودة وباء موحدة) ومعناه الماء فمعنى ذلك الاودية الخمسة وهي تصب في النهر الاعظم وتسقي تلك النواحي وسنذكرها ان شاء الله تعالى وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذي الحجة واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة ومن هنا لك كتب المخبرون بخبرنا الى أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا وها هنا ينتهي بنا الكلام في هذا السفر والحمد لله رب العالمين

﴿ تم الجزء الاول ويليه الجزء الثاني ﴾

﴿ تذييل ﴾ يقول مصححه وحيث انتهينا من رحلة الشيخ المغربي المعروف بابن بطوطة الى هذا الحد وهو أول جلد وقد شرع رحمه الله تعالى في ذكر ماشاهده من العجائب والغرائب ببلاد الهند وهو ثاني جلدر أينا من المفيد ان نوردهنا عبارة توجد في مقدمة ابن خلدون رحمه الله تعالى مما يتعلق بهذا القصد تتميما للفائدة وتقييدا للشاردة ونصها بقصها وفصها ﴿ وردعلي المغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف بابن بطوطة كان قد رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند واتصل بملكها لذلك العهد وهو السلطان محمد شاه وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب المالكية في عمله ثم انقلب الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شان رحلته وما رأي من العجائب بممالك الارض واكثرما كان يحدث عن دولة صاحب الهند ويأتي من أحواله بما يستغرب به السامعون مثل ان ملك الهند اذا خرج للسفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر يدفع لهم من عطائه وانه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يعرفيه الناس كافة الى صحراء البلد ويطوفون به وينصب امامه في ذلك المحفل منجنيقات على الظهر يرمي بها شكائر الدراهم والدنانير على الناس الى ان يدخل ابوانه وأمثال هذه الحكايات فتناجي الناس في الدوله بتكذيبه ولقيت أنا يومئذ في بعض الايام وزير السلطان فارس بن وداربالبعيد الصيت ففاوضته في هذا الشان ورأيته انكار اخبار ذلك الرجل لما استفاض في الناس من تكذيبه فقال الوزير فارس اياك ان تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما انك لم تره فتكون كابن الوزير الناشيء في السجن وذلك ان وزيرا اعتقله سلطانه فمكث في السجن سنين ربي فيها ابنه في ذلك المحبس فلما أدرك وعقل سال عن الانعام التي كان يتغذى بها فاذا قال له أبوه هذا لحم الغنم يقول وما الغنم فيصفها له أبوه بشياتها ونعوتها فيقول يا أبت تراها مثل الفار فينكر عليه ويقول أين الغنم من الفار وكذا في لحم البقر والابل اذلم يعاين في محبسه الا الفار فيحسبها كلها أبناء جنس للفار وهذا كثيرا ما يعتري الناس في الاخبار كما يعتريهم الوسواس في الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه أول الكتاب فليرجع الانسان الى اصوله وليكن مهيمنا على نفسه ومميزا بين طبيعة الممكن والممتنع بصرح عقله ومستقيم فطرته فما دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه ولبس مرادنا الامكان العقلي المطلق فان نطاقه أوسع شيء فلا يفرض حدا بين الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة التي للشيء فاذا نظرنا أصل الشيء وجنسه وفصله ومقدار عظمه وقوته أجرينا الحكم في نسبة ذلك على أحواله وحكمنا بالامتناع على ماخرج عن نطاقه وقل ربي زدني علما (اه بحروفه)

الجزء الثاني

من

﴿ رحلة ابن بطوطه ﴾

﴿ المسماة ﴾

تحفة النظار . فى غرائب الامصار
وعجائب الاسفار

طبع بالمطبعة الأزهرية المصرية

بشارع رقدة الفحم رقم ٦ بجوار الأزهر الشريف بمصر

﴿ على نفقة أصحابها ﴾

ورثة المرحوم فضيلة الشيخ محمد عبد الخالق المهدى

﴿ الطبعة الاولى ﴾

(سنة ١٣٤٦ هـ — سنة ١٩٢٨ م)

Digitized by Birzeit University Library



﴿ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ﴾

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي
المعروف بابن بطوطه رحمه الله تعالى

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر الله المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا الى وادى السند المعروف بنج آب ومعنى ذلك المياه الخمسة وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا وهو يفيض فى أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل أهل الديار المصرية فى فيض النيل وهذا الوادى هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند ولما وصلنا الى هذا النهر جاء الينا أصحاب الاخبار الموكلون بذلك وكتبوا بخبرنا الى قطب الملك أمير مدينة ملتان وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوك للسلطان يسمي سرتيز وهو عرض المماليك وبين يديه تعرض عساكر السلطان ومعنى اسمه الحاد الرأس لان سر (بفتح السين المهملة وسكون الراء) هو الرأس وتيز(بتاء معلوة وياء مد وزاى) معناه الحاد وكان فى حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دهلى مسيرة خمسين يوما واذا كتب المخبرون الى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب اليه فى خمسة أيام بسبب البريد

— ذكر البريد —

والبريد ببلاد الهند صنفان فاما بريد الخيل فيسمونه الولاق (اولاق) (بضم الواو وآخره قاف) وهو خيل تكون للسلطان فى كل مسافة أربعة أميال وأما بريد الرجالة فيكون فى مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب ويسمونها الداوة (بالدال المهمل والواو) والداوة هي ثلث ميل والميل عندهم يسمى الكروة (بضم الكاف والراء) وترتيب ذلك ان يكون فى كل ثلث ميل قرية معمورة ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين

للحركة قد شدوا أوساطهم وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل نحاس فاذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الاخرى وخرج يشتد بمنتهى جهده فاذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له فاذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده وهو يحرك المقرعة حتى يصل الى الداوة الأخرى ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب الى حيث يراد منه وهذا البريد أسرع من بريد الخيل وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يحملونها فى الاطباق ويشتدون بها حتى تصل الى السلطان وكذلك يحملون أيضا الكبار من ذوي الجنايات يجعلون الرجل منهم على سرير ويرفعونه فوق رؤسهم ويسيرون به شدا وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان اذا كان بدولة أبادي يحملونه من نهر الكنك الذي تحج الهنود اليه وهو على مسيرة أربعين يوما منها واذا كتب المخبرون الى السلطان بخبر من يصل الى بلاده استوعبوا الكتاب وأمعنوا فى ذلك وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله فى حركته وسكونه وجميع تصرفاته لا يغادرون من ذلك كله شيأ فاذا وصل الوارد الى مدينة ملتان وهى قاعدة بلاد السند أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه وما يجرى له من الضيافة وانما يكرم الانسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته اذ لا يعرف هنالك ماحسبه ولا آباؤه ومن عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه اكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة ومعظم خواصه وحجابه ووزرائه وقضاته واصهاره غرباء ونفذ أمره بان يسمي الغرباء فى بلاده بالاعزة فصار لهم ذلك اسما علما ولا بد لكل قادم علي هذا الملك من هدية يهديها اليه ويقدمها وسيلة بين يديه فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة وسيمر من ذكر هذا الغرباء اليه كثير ولما تعود الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير ويجهزونه بما يريد أن يهديه اليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والامتعة ويخدمونه باموالهم وأنفسهم ويقفون بين يديه كالحشم فاذا وصل الى السلطان أعطاه العطاء الجزيل فقضى ديونهم ووفاهم حقوقهم فنفقت تجاراتهم وكثرت أرباحهم وصار لهم ذلك عادة مستمرة ولما وصلت الى بلاد السند سلكت ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك ولقد اشتريت من تاجر عراقى من أهل تكريت يعرف بمحمد الدورى بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا وجملا عليه حمل من النشاب فانه مما يهدى الى السلطان وذهب التاجر المذكور الى خراسان ثم عاد

الى الهند وهنالك تقاضى مني ماله واستفاد بسببي فائدة عظيمة وعاد من كبار التجار ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلمني الكفار مما كان بيدى فلم ألق منه خيرا

— ذكر الكركدن —

ولما أجزنا نهر السند المعروف بمنبج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك للطريق لانه فى وسطها فخرج علينا الكركدن وصورته انه حيوان اسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة ولذلك يضرب به المثل فيقال الكركدن رأس بلا بدن وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل باضعاف وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة اذرع وعرضه نحو شبر ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان فى طريقه فضرب الفرس الذى كان تحته بقرنه فانفذ فخذه وصرعه وعاد الى الغيضة فلم نقدر عليه وقد رأيت الكركدن مرة ثانية فى هذا الطريق بعد صلاة العصر وهو يرعي نبات الارض فلما قصدناه هرب منا ورأيته مرة اخرى ونحن مع ملك الهند دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ودخلت الرجالة والفرسان فاثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه الى المحلة وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا الى مدينة جنانى (وضبط اسمها بفتح الجيم والنون الاولى وكسر الثانية) مدينة كبيرة حسنة على ساحل نهر السند لها اسواق مليحة وسكانها طائفة يقال لهم السامرة استوطنوها قديما واستقر بها اسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف حسبما أثبت المؤرخون فى فتح السند وأخبرني الشيخ الامام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين ابن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين ابن الشيخ الامام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشي وهو أحد الثلاثة الذين أخبرتى الشيخ الولى الصالح برهان الدين الاعرج بمدينة الاسكندرية انى سألقاهم فى رحلتي فلقيتهم والحمد لله ان جده الاعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشى وشهد فتح السند فى العسكر الذى بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام امارته على العراق وأقام بها وتكاثرت ذريته وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ولا ينظر اليهم أحد حين يأكلون ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ولا يصاهر اليهم أحد وكان لهم فى هذا العهد أمير يسمى ونار (بضم الواو وفتح النون) وسنذكر خبره ثم سافرنا من مدينة جنانى الى ان وصلنا الى مدينة سيوستان (وضبط اسمها بكسر السين الاول المهمل وياء مد وواو مفتوح وسين مكسور وتاء معلوة وآخره نون) وهي مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها الا الشجر أم غيلان ولا يزرع على نهرها شيء ماعدا البطيخ وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المشنك (بميم وشين معجم مضمومين ونون مسكن) ومنه يصنعون الخبز وهى كثيرة السمك والالبان الجاموسية

وأهلها يأكلون السقنقور وهي دويبة شبيهة بام حبين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة الا أنها لاذنب لها ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم وهم يسمونه زردشوبه ومعناه العود الاصفر وهو عندهم عوض الزعفران ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ وحرها شديد فكان أصحابي يقعدون عريانين يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى وهكذا بدا ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني واراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الاعلى بخطابة هذه المدينة وهم يتوارثونها من ذلك العهد الى الآن

(ونص الكتاب) هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده على ما أخبرني الخطيب المذكور ولقيت بها أيضا الشيخ المعمر محمد البغدادي وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرندي وذكر ان عمره يزيد على مائة وأربعين سنة وانه حضر لقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس رضي الله عنهم لما قتله الكافر هلاون ابن تنكيز التتري وهذا الشيخ على كبر سنه قوي الجثة يتصرف على قدميه

— حكاية —

كان يسكن بهذه المدينة الامير ونار السامري الذي تقدم ذكره والامير قيصر الرومي وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتن (بفتح الراء وبفتح التاء المعلوة والنون) وهو من الحذاق بالحساب والكتابة فوفد على ملك الهند مع بعض الامراء فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند وولاه تلك البلاد وأقطعه سيوستان وأعمالها وأعطاه المراتب وهي الاطبال والعلامات كما يعطى كبار الامراء فلما وصل الى تلك البلاد عظم على ونار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم فاجمعوا على قتله فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج الى احواز المدينة ليتطلع على أمورها فخرج معهم فلما جن الليل أقاموا ضجة بالحلة وزعموا ان السبع ضرب عليها وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه وعادوا الى المدينة فاخذوا ما كان بها من مال السلطان وذلك اثنا عشر لكا واللك مائة ألف دينار وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند وصرف الدينار الهندي دينار ان ونصف دينار من ذهب المغرب وقدموه على أنفسهم ونار المذكور وسموه ملك فيروز وقسم الاموال على العسكر ثم خاف على نفسه لبعده

Digitized by Birzeit University Library

عن قبيلته فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان وهو يومئذ أمير أمراء السند وسكناه بملتان فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام وخرج اليه قيصر فوقع اللقاء وانهزم قيصر ومن معه اشنع هزيمة وتحصنوا بالمدينة فحصرهم ونصب المجانيق عليهم واشتد عليهم الحصار فطلبوا الامان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم فاعطاهم الامان فلما نزلوا اليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسط بعضهم ويسلخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنا ويعلقها على السور فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ترعب من ينظر اليها وجمع رؤسهم في وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك ونزلت بتلك المدينة إثر هذه الوقيعة بمدرسة فيها كبيرة وكنت أنام على سطحها فاذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة فانتقلت عنها وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين قاضي هراة في متقدم التاريخ قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهري واعمالها من بلاد السند وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر فعزمت على السفر معه الى مدينة لاهري وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها في نهر السند تحمل اثقاله فسافرت

— ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك —

وكان للفقيه علاء الملك في جملة مراكبه مركب يعرف بالاهورة (بفتح الهمزة والهاء وسكون الواو وفتح الراء) وهي نوع من الطريدة عندنا الا انها أوسع منها وأقصر وعلى نصفها معرش من خشب يصعد له علي درج وفوقه مجلس مهيا لجلوس الامير ويجلس اصحابه بين يديه ويقف المماليك يمنة ويسرة والرجال يقذفون وهم نحو اربعين ويكون مع هذه الاهورة أربعة من المراكب عن يمينها ويسارها اثنان منها فيهما مراتب الامير وهي العلامات والطبول والابواق والاقنار والصرنايات وهي الغيطات والآخران فيهما اهل الطرب فتضرب الطبول والابواق نوبة ويغني المغنون نوبة ولا يزالون كذلك من أول النهار الى وقت الغداء فاذا كان وقت الغداء انضمت المراكب ووصل بعضها ببعض ووضعت بينهما الاصحاف والات وأتي أهل الطرب الى أهورة الامير فيغنون الى أن يفرغ من أكله ثم يأكلون واذا انقضى الاكل عادوا الى مركبهم وشرعوا أيضا في المسير على ترتيبهم الى الليل فاذا كان الليل ضربت المحلة على شاطىء النهر ونزل الامير الى مضاربه ومد

السماط وحضر الطعام معظم العسكر فاذا صلوا العشاء الاخيرة سمر السمار بالليل نوبا فاذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى منادمنهم بصوت عال ياخوند ملك قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الاخري فاذا أتموها نادي مناديهم أيضا معلما بما مر من الساعات فاذا كان الصبح ضربت الابواق والطبول وصليت صلاة الصبح وأتي بالطعام فاذا فرغ الا كل أخذوا في المسير فان أراد الامير ركوب النهر ركب على ماذكرناه من الترتيب وان أراد المسير في البر ضربت الاطبال والابواق وتقدم حجابه ثم تلاهم المشاؤون بين يديه ويكون بين أيدى الحجاب ستة من الفرسان عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلدوها وعند ثلاثة صرنايات فاذ أقبلوا على قرية أوما هو من الارض مرتفع ضربوا تلك الاطبال والصرنايات ثم تضرب أطبال العسكر وأبواقه ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبا فاذا كان وقت الغداء نزلوا وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام ووصلنا الى موضع ولايته وهو مدينة لاهرى (وضبط اسمها بفتح الهاء وكسر الراء) مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر السند في البحر فيلتقي بها بحران ولها مرسى عظيم يأتي اليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم وبذلك عظمت جباياتها وكثرت أموالها أخبرني الامير علاء الملك المذكور ان مجبي هذه المدينة ستون لكافي السنة وقد ذكرنا مقدار الملك وللامير من ذلك ثم (نيم) ده يك ومعناه نصف العشر وعلى ذلك يعطى السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لانفسهم نصف العشر

— ذكر غريبة رأيتها بخارج هذه المدينة —

وركبت يوما مع علاء الملك فانتهينا الى بسيط من الارض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا فرأيت هنالك مالا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهايم وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله فيبقى منه صورة رأس اورجل أوسواها ومن الحجارة أيضا على صورة الحبوب من البر والحمص والفول والعدس وهنالك آثار سور وجدرات دورثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة وفي وسطه دكانة حجارة منحوتة كانها حجر واحد عليها صورة آدمي الاان رأسه طويل وفمه في جانب من وجهه ويداه خلف ظهره كالمكتوف وهنالك مياه شديدة النتن وكتابة على بعض الجدران بالهندى وأخبرني علاء الملك ان أهل التاريخ يزعمون ان هذا الموضع كانت فيه مدينة عظيمة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة وان ملكهم هو الذى على الدكانة في الدار التي ذكرناها وهي الى الآن تسمى دار الملك وان الكتابة التي في بعض الحيطان هنالك

Digitized by Birzeit University Library

بالهندي هي تاريخ هلاك أهل تلك المدينة وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام ثم احسن في الزاد وانصرفت عنه الى مدينة بكار (بفتح الباء الموحدة) وهي مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند وفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر عمرها كشلوخان ايام ولايته على بلاد السند وسيقع ذكره ولقيت بهذه المدينة الفقيه الامام صدر الدين الحنفي ولقيت بها قاضيها المسمى بابي حنيفة ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي وهو من المعمرين ذكر لي ان سنه يزيد على مائة وعشرين عاما ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت الى مدينة اوجه (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم) وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها اسواق حسنة وعمارة جيدة وكان الامير بها اذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي احد الشجعان الكرماء وبهذه المدينة توفي بعد سقطة سقطها عن فرسه

— مكرمة لهذا الملك —

ونشات بيني وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة وتاكدت بيننا الصحبة والمحبة واجتمعنا بحضرة دهلي فلما سافر السلطان الى دولة أبادكا سنذكره وأمرني بالاقامة بالحضرة قال لي جلال الدين انك تحتاج الى نفقة كبيرة والسلطان تطول غيبته فخذ قريتي واستغلها حتى أعود ففعلت ذلك واستغليت منها نحو خمسة آلاف دينار جزاه الله احسن جزائه ولقيت بمدينة اوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوي والبسني الخرقة وهو من كبار الصالحين ولم يزل الثوب الذي البسنيه محى الى ان سلبني كفار الهنود في البحر ثم سافرت من اوجه الى مدينة ملتان (وضبط اسمها بضم الميم وتاء معلوة) وهي قاعدة بلاد السند ومسكن امير امرائه وفي الطريق اليها على مسافة عشرة اميال منها الوادي المعروف بخسرو آباد وهو من الاودية الكبار لا يجاز الا في المركب وبه يبحث عن امتعة المجتازين اشد البحث وتفتش رحالهم وكانت عادتهم في حين وصولنا اليها ان ياخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار و ياخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم وامر ان لا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر لما بايع للخليفة ابي العباس العباسي ولما اخذنا في اجازة هذا الوادي وفتشت الرحال عظم علي تفتيش رحلي لانه لم يكن فيه طائل وكان يظهر في اعين الناس كبيرا فكنت اكره ان يطلع عليه ومن لطف الله تعالى ان وصل احد كبار الاجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان فامر ان لا يعرض لي ببحث ولا تفتيش فكان كذلك فحمدت

الله على ماهياه لى من لطائفه وبتنا تلك الليلة على شاطىء الوادى وقدم علينا فى صبيحتها ملك البريد واسمه دهقان وهو سمرقندى الاصل وهو الذى يكتب للسلطان باخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها ومن يصل اليها فتعرفت به ودخلت فى صحبته الى أمير ملتان

— ذكر أمير ملتان وترتيب حاله —

وأمير ملتان هو قطب الملك من كبار الامراء وفضلائهم لما دخلت عليه قام الى وصافحنى وأجلسنى الى جانبه وأهديت له مملوكا وفرسا وشيأ من الزيب واللوز وهو من أعظم مايهدى اليهم لانه ليس ببلادهم وانما يجلب من خراسان وكان جلوس هذا الامير على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضى ويسمى سالار والخطيب ولا أذكر اسمه وعن يمينه ويساره أمراء الاجناد وأهل السلاح وقوف على رأسه والعساكر تعرض بين يديه وهنالك قسى كثيرة فاذا أتى من يريد ان يثبت فى العسكر راميا أعطى قوسا من تلك القسى ينزع فيها وهى متفاوتة فى الشدة فعلى قدر نزعه يكون مرتبه ومن أراد أن يثبت فارسا فهنالك طبلة منصوبة فيجرى فرسه ويرميها برمحه وهنالك أيضا خاتم معلق فى حائط صغير فيجرى فرسه حتى يحاذيه فان رفعه برمحه فهو الجيد عندهم ومن أراد أن يثبت راميا فارسا فهنالك كرة موضوعة فى الارض فيجرى فرسه ويرميها وعلى قدر مايظهر من الانسان فى ذلك من الاصابة يكون مرتبه ولما دخلنا على هذا الامير وسلمنا عليه كما ذكرناه أمر بانزالنا فى دار خارج المدينة هى لاصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذى تقدم ذكره وعادتهم أن لا يضيفوا أحدا حتى يأتى أمر السلطان بتضييفه

— ذكر من اجتمعت به فى هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند —

فمنهم خداوندزاده قوام الدين قاضى ترمذ قدم باهله وولده ثم ورد عليه بها اخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند ومنهم أرن بغا أحد كبار بخارى ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده ومنهم بدر الدين الفصال وكل واحد من هؤلاء معه أصحاب وخدام وأتباع ولما مضى من وصولنا الى ملتان شهران وصل أحد حجاب السلطان وهو شمس الدين البوشنجى والملك عماد الهروى الكتوال بعثهما السلطان لاستقبال خداوندزاده وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان وهى أم السلطان لاستقبال زوجة خداوندزاده المذكور وأتوا بالخلع لهما ولاولادهما ولتجهيز من قدم من الوفود وأتوا جميعا الى وسألونى لماذا قدمت فاخبرتهم انى قدمت للاقامة فى خدمة خوند عالم وهو السلطان وبهذا يدعى فى بلاده وكان أمر أن لا يترك

أحد ممن يأتي من خراسان يدخل بلاد الهند الا ان كل برسم الاقامة فلما أعلمتهم انى قدمت للاقامة استدعوا القاضي والعدول وكتبوا عقدا على وعلى من أراد الاقامة من أصحابي وأبى بعضهم من ذلك وتجهز للسفر الى الحضرة وبين ملتان وبينها مسيرة أربعين يوما فى عمارة متصلة وأخرج الحاجب وصاحبه الذى بعث معه ما يحتاج اليه فى ضيافة قوام الدين واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباخا وكان الحاجب يتقدم ليلا الى كل منزل فيجهز الطعام وسواه فما يصل خدا و ندزاده حتى يكون الطعام متيسرا وينزل كل واحد ممن ذكرناهم من الوفود على حدة بضاربه وأصحابه وربما حضروا الطعام الذى يصنع لخدا و ندزاده ولم أحضره انا الا مرة واحدة وترتيب ذلك الطعام انهم يجعلون الخبز وخبزهم الرقاق وهو شبه الجرادين ويقطعون اللحم المشوى قطعا كبارا بحيث تكون الشاة اربع قطع أوستا ويجعلون أمام كل رجل قطعة ويجعلون اقراصا مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشرك ببلادنا ويجعلون فى وسطها الحلواء الصابونية ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخشتي ومعناه الاجري مصنوع من الدقيق والسكر والسمن ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الاخضر فى صحاف صينية ثم يجعلون شيا يسمونه سموسك وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والابازير موضوع فى جوف رقاقة مقلوة بالسمن يضعون أمام كل انسان خمس قطع من ذلك اوار بعا ثم يجعلون الارز المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ثم يجعلون لقيمات القاضي ويسمونها الهاشمي ثم يجعلون القاهرية ويقف الحاجب على البساط قبل الاكل ويخدم الى الجهة التى فيها السلطان ويخدم جميع من حضر لخدمته والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع فاذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل ويؤتى باقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات وهو الجلاب محلولا فى الماء ويسمون ذلك الشربة ويشربونه قبل الطعام ثم يقول الحاجب بسم الله فعند ذلك يشرعون فى الأكل فاذا أكلوا أتوا بأكواز الفقاع فاذا شربوه أتوا بالتنبول والفوفل وقد تقدم ذكرها فاذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب بسم الله فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولا وينصرفون وسافرنا من مدينة ملتان وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ماسطرناه الى ان وصلنا الى بلاد الهند وكان اول بلد دخلناه مدينة بوهر (بفتح الهاء) وهى اول تلك البلاد الهندية صغيرة حسنة كثيرة العمارة ذات انهار واشجار وليس هنالك من اشجار بلادنا شيء ماعدا النبق لكنه عندهم عظيم الجرم تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص شديد

الحلاوة ولهم اشجار كثيرة ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها

— ذكر اشجار بلاد الهند وفواكهها —

فمنها العنبة (بفتح العين وسكون النون وفتح الباء الموحدة) وهي شجرة تشبه أشجار النارنج الا أنها أعظم اجراما وأكثر أوراقا وظلها اكثر الظلال غير انه ثقيل فمن نام تحته وعك وثمرها على قدر الاجاص الكبير فاذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه وجعلوا عليه الملح وصيروه كما يصيرون الليم والليمون ببلادنا وكذلك يصيرون أيضا الزنجبيل الاخضر وعناقيد الفلفل ويأكلون ذلك مع الطعام ياخذون باثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات فاذا نضجت العنبة في أوان الخريف اصفرت حباتها فاكلوها كالتفاح فبعضهم يقطعها بالسكين وبعضهم يمصها مصا وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الاشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها ومنها الشكى والبركى (بفتح الشين المعجم وكسر الكاف وفتح الباء الموحدة وكسر الكاف أيضا) وهي أشجار عادية أوراقها كاوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجرة فما اتصل منه بالارض فهو البركى وحلاوته أشد ومطعمه أطيب وما كان فوق ذلك فهو الشكى وثمره يشبه القرع الكبار وجلوده تشبه جلود البقر فاذا اصفر في أوان الخريف قطعوه وشقوه فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار بين كل حبة وحبة صفاق أصفر اللون ولكل حبة نواة تشبه الفول الكبير واذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول اذ ليس يوجد هنالك ويدخرون هذه النوى في التراب الاحمر فتبقى الى سنة أخرى وهذا الشكى والبركى هو خير فاكهة ببلاد الهند ومنها التندو (بفتح التاء المثناة وسكون النون وضم الدال) وهو ثمر شجر الآبنوس وحباته في قدر حبات المشمش ولونها وهو شديد الحلاوة ومنها الجوز (بضم الجيم المعقودة) وأشجاره عادية ويشبه ثمرة الزيتون وهو أسود اللون ونواه واحدة كالزيتون ومنها النارنج الحلو وهو عندهم كثير وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض وثمره على قدر الليم وهو طيب جدا وكنت يعجبني أكله ومنها الملوا (بفتح الميم والواو) وأشجاره عادية وأوراقه كاوراق الجوز الا ان فيها حمرة وصفرة وثمره مثل الاجاص الصغير شديد الحلاوة وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كطعم العنب الا أن الاكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعا ومن العجب ان هذه الحبوب اذا يبست في الشمس كان مطعمها كمطعم التين وكنت آكلها عوضا من التين اذ لا يوجد ببلاد

Digitized by Birzeit University Library

الهند وهم يسمون هذه الحبة الانكور (بفتح الهمزة وسكون النون وضم الكاف المعقودة والواو والراء) وتفسيره بلسانهم العنب والعنب بارض الهند عزيز جدا ولا يكون بها الا فى مواضع بحضرة دهلى وبلاد أخر ويثمر مرتين فى السنة ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا (بفتح الكاف وكسر السين المهمل وياء مد وراء) يحفرون عليها الارض وهي شديدة الحلاوة تشبه القسطل وبلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان ويثمر مرتين فى السنة ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهل لا ينقطع له ثمر وهم يسمونه أنار (بفتح الهمزة والنون) وأظن ذلك هو الاصل فى تسمية الجلنار فان جل بالفارسية الزهر ونار الرمان

— ذكر الحبوب التى يزرعها أهل الهند ويقتاتون بها —

وأهل الهند يزدرعون مرتين فى السنة فاذا نزل المطر عندهم فى أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفى وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكذرو (بضم الكاف وسكون الذال المعجم وضم الراء وبعدها واو) وهو نوع من الدخن وهذا الكذرو هو أكثر الحبوب عندهم ومنها القال (بالقاف) وهو شبيه بالذى ومنها الشاماخ (بالشين والخاء المعجمتين) وهو أصغر حبا من القال وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة وهو طعام الصالحين وأهل الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط فى القفة فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة وحب هذا الشاماخ صغير جدا واذا جمع فى الشمس ثم يدق فى مهاريس الخشب فيطير قشره ويبقى لبه أبيض ويصنعون منه عصيدة يطبخونها بحليب الجواميس وهى أطيب من خبزه وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبنى ومنها الماش وهو نوع من الجلبان ومنها المنج (بميم مضموم ونون وجيم) وهو نوع من الماش الا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافى الخضرة ويطبخون المنج مع الارز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشرى (بالكاف والشين المعجم والراء) وعليه يفطرون فى كل يوم وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب ومنها اللوبيا وهى نوع من الفول ومنها الموت (بضم الميم) وهو مثل الكذرو الا أن حبوبه أصغر وهو من علف الدواب عندهم وتسمن الدواب باكله والشعير عندهم لا قوة له وانما علف الدواب من هذا الموت أو الحمص يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ويطعمونها عوضا من القصيل أوراق الماش بعد ان تستى الدابة السمن عشرة أيام فى كل يوم مقدار

Digitized by Birzeit University Library

ثلاثة أرطال أو أربعة ولا تركب في تلك الايام وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهرا أو نحوه وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية واذا حصدها بعد ستين يوما من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية وهي القمح والشعير والحمص والعدس وتكون زراعتها في الارض التي كانت الحبوب الخريفية مزدرعة فيها وبلادهم كريمة طيبة التربة وأما الارز فانهم يزرعونه ثلاث مرات في السنة وهو من أكبر الحبوب عندهم ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها ﴿ ولنعد ﴾ الى ما كنا بسبيله فاقول سافرنا من مدينة أبوهر في صحراء مسيرة يوم في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود ربما قطعوا الطريق وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل أو الخديم الذي تكون القرية في اقطاعه ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق

— ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول غزوة شهدتها ببلاد الهند —

ولما أردنا السفر من مدينة أبوهر خرج الناس منها أول النهار واقمت بها الى نصف النهار في لمة من أصحابي ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا منهم عرب ومنهم أعاجم فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان وكان أصحابي ذوي نجدة وعتى فقاتلنا هم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلا واصابني نشابة وأصابت فرسي نشابة ثانية ومن الله بالسلامة منها لان نشابهم لا قوة لها وجرح لاحد اصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر وذبحنا فرسه المجروح فاكله الترك من أصحابنا وأوصلنا تلك الرؤس الى حصن أبي بكهر فعلقناها على سوره وكان وصولنا في نصف الليل الى حصن أبي بكهر المذكور (وضبط اسمه بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وفتح الهاء وآخره راء) وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين الى مدينة أجودهن (وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الجيم وفتح الدال المهمل والهاء وآخره نون) مدينة صغيرة هي للشيخ الصالح فريد الدين البذاوائي الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين الاعرج بالاسكندرية اني سالقاه فلقيته والحمد لله وهو شيخ ملك الهند وأنعم عليه بهذه المدينة وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله فلا يصافح أحدا ولا يدنو منه واذا ألصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه دخلت زاويته ولقيته وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين فعجب وقال أنا دون ذلك ولقيت ولديه الفاضلين معز الدين وهو أكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده وعلم الدين وزرت قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاوائي منسوبة

الى مدينة بداون بلد السنبل (وهي بفتح الباء الموحدة والذال المعجم وضم الواو وآخرها نون) ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة قال لي علم الدين لا بد لك من رؤية والدي فرأيته وهو في أعلى سطح له وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذؤابة وهي مائلة الى جانب ودعالي وبعث الى بسكر ونبات

— ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار —

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا فسألتهم ما الخبر فاخبروني ان كافرا من الهنود مات وأججت النار لحرقه وامرأته تحرق نفسها معه ولما احترقا جاء أصحابي وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر والاطبال والابواق بين يديها ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود واذا كان ذلك ببلاد السلطان استاذنوا السلطان في إحراقها فياذن لهم فيحرقونها ثم اتفق بعد مدة اني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بابحري وأميرها مسلم من سامرة السند وعلي مقربة منها الكفار العصاة فقطعوا الطريق يوما وخرج الامير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر وكان للثلاثة منهم ثلاث زوجات فاتفقن على إحراق أنفسهن واحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب اليه غير واجب لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها احرز أهل بيتها شرفا بذلك ونسبوا الى الوفاء ومن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ولكنها لا تكره على احراق نفسها ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللاتي ذكرناهن على احراق انفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب كانهن يودعن الدنيا ويأتي اليهن النساء من كل جهة وفي صبيحة اليوم الرابع أتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته وهي متزينة متعطرة وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها وبين يديها الاطبال والابواق والانفار وكل انسان من الكفار يقول لها ابلغي السلام الى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي وهي تقول نعم وتضحك اليهم وركبت مع أصحابي لارى كيفية صنعهن في الاحتراق فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال وانتهينا الى موضع مظلم كثير المياه والاشجار متكاثف الظلال وبين اشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال وتزاحمت الاشجار فلا تخلله

Digitized by Birzeit University Library

الشمس فكان ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم اعاذنا الله منها ولما وصلن الى تلك القباب نزلن الى الصهريج واغتمسن فيه وجردن ماعليهن من ثياب وحلى فتصدقن به وأتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج فى موضع منخفض وصب عليها روغن كنجت (كنجد) وهو زيت الجلجلان فزاد فى اشتعالها وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بايديهم حزم من الحطب الرقيق ومعهم نحو عشرة بايديهم خشب كبار وأهل الاطبال والابواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بايديهم لئلا يدهشها النظر اليها فرأيت احداهن لما وصلت الى تلك الملحفة نزعتها من أيدى الرجال بعنف وقالت لهم مارا ميترسانى ازاطش (آنش) من ميدانم أواطش استرها كنى ماراوهى تضحك ومعنى هذا الكلام أبالنار تخوفونني أنا اعلم انها نار محرقة ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها فيها وعند ذلك ضربت الاطبال والانفار والابواق ورمى الرجال مابايديهم من الحطب عليها وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الاصوات وكثر الضجيج ولما رأيت ذلك كدت اسقط عن فرسى لولا أصحابى تدار كونى بالماء فغسلوا وجهى وانصرفت وكذلك يفعل أهل الهند أيضا فى الغرق يغرق كثير منهم انفسهم فى نهر الكنك وهو الذى اليه يحجون وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرقين وهم يقولون انه من الجنة واذا أتى احدهم ليغرق نفسه يقول لمن حضره لا تظنوا انى أغرق نفسي لاجل شيء من امور الدنيا أو لقلة مال انما قصدى التقرب الى كساى وكساى (بضم الكاف والسين المهمل) اسم الله عز وجل بلسانهم ثم يغرق نفسه فاذا مات أخرجوه واحرقوه ورموا برماده فى البحر المذكور ﴿ولنعد﴾ الى كلامنا الاول فنقول سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة اربعة أيام منها الى مدينة سرستي (وضبط اسمها بسينين مفتوحين بينهما راء ساكنة ثم تاء مثناة مكسورة وياء) مدينة كبيرة كثيرة الارز وأرزها طيب ومنها يحمل الى حضرة دهلى ولها مجى كثير جدا اخبرنى الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره وأنسيته ثم سافرنا منها الى مدينة حانسى (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة وألف ونون ساكنة وسين مهمل مكسور وياء) وهى من احسن المدن وأتقنها واكثرها عمارة ولها سور عظيم ذكروا ان بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى توره (بضم التاء المعلوة وفتح الراء) وله عندهم حكايات واخبار ومن هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان

قاضي قضاة الهند وأخوه قطلوخان معلم السلطان واخواهما نظام الدين وشمس الدين الذى انقطع الى الله وجاور بمكة حتى مات ثم سافرنا من حانسى فوصلنا بعد يومين الى مسعود أباد وهى على عشرة أميال من حضرة دهلى وأقمنا بها ثلاثة أيام وحانسى ومسعود أبادها الملك المعظم هوشنج (بضم الهاء وفتح الشين المعجم وسكون النون وبعدها جيم) ابن الملك كمال كرك وكرك (بكافين معقودين أولاهما مضمومة) ومعناه الذئب وسياتي ذكره وكان سلطان الهند الذي قصدناه حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج وبينها وبين حضرة دهلى عشرة أيام وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان وجهان اسم الدنيا وكان بها أيضا وزيره خواجه جهان المسمى باحمد بن اياس الرومي الاصل فبعث الوزير الينا أصحابه ليتلقونا وعين للقاء كل واحد منا من كان من صنفه فكان من الذين عينهم للقائي الشيخ البسطامي والشريف المازندراني وهو حاجب الغرباء والفقيه علاء الدين الملتانى المعروف بقنره بضم القاف وفتح النون وتشديدها) وكتب الى السلطان يخبرنا وبعث الكتاب مع الدواة وهى بريد الرجالة حسباذ كرناه فوصل الى السلطان وأتاه الجواب فى تلك الايام الثلاثة التي أقمناها بمسعود أباد وبعد تلك الايام خرج الى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الامراء وهم يسمون الامراء ملوكا فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الامير يقولون هم الملك وخرج الى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني وهو كبير المنزلة عند السلطان ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمي بالم (بفتح الباء المعقودة وفتح اللام) وهي للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الاوهرى أحد ندماء السلطان وممن له عنده الحظوة التامة وفى غد ذلك اليوم وصلنا الى حضرة دهلى قاعدة بلاد الهند (وضبط اسمها بكسر الدال المهمل وسكون الهاء وكسر اللام) وهى المدينة العظيمة الشان الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة وعليها السور الذى لا يعلم له فى بلاد الدنيا نظير وهى أعظم مدن الهند بل مدن الاسلام كلها بالمشرق

— ذكر وصفها —

ومدينة دهلى كبيرة الساحة كثيرة العمارة وهى الآن اربع مدن متجاورات متصلات احداها المسماة بهذا الاسم دهلى وهى القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة والثانية تسمى سيرى (بكسر السين المهمل والراء وبينهما ياء مد) وتسمى أيضا دار الخلافة وهى التي أعطاها السلطان غياث الدين حفيد الخليفة المستنصر العباسى لما قدم عليه وبها كان سكني السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين وسنذكرهما والثالثة

تسمي تغلق أباد باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذى قدمنا عليه وكان سبب بنائه لها انه وقف يوما بين يدى السلطان قطب الدين فقال له ياخوند عالم كان ينبغي ان تبنى هنا مدينة فقال له السلطان متهكما اذا كنت سلطانا فابنها فكان من قدر الله أن كان سلطانا فبناها وسماها باسمه والرابعة تسمى جهان بناه وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذى قدمنا عليه وهو الذى بناها وكان أراد ان يضم هذه المدن الاربع تحت سور واحد فبني منه بعضا وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم فى بنائه

— ذكر سور دهلي وابوابها —

والسور المحيط بمدينة دهلى لا يوجد له نظير عرض حائطه أحد عشر ذراعا وفيه بيوت يسكنها السمار وحفاظ الابواب وفيها مخازن للطعام ويسمونها الانبارات ومخازن للمدد ومخازن للمجانيق والرعادات ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة ولقد شاهدت الارز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود ولكن طعمه طيب ورأيت أيضا الكذرو يخرج منها وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن منذ تسعين سنة ويمشي فى داخل السور الفرسان والرجال من أول المدينة الى آخرها وفيه طيقان مفتحة الى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل هذا السور مبني بالحجارة وأعلاه بالآجر وابراجه كثيرة متقاربة ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا وهم يسمون الباب دروازة فمنها دروازة بداون وهى الكبرى ودروازة المندوى وبها رحبة الزرع ودروازة جل (بضم الجيم) وهى موضع البساتين ودروازة شاه اسم رجل ودروازة بالم اسم قرية قد ذكرناها ودروازة نجيب اسم رجل ودروازة كمال كذلك ودروازة غزنة نسبة الى مدينة غزنة التى فى طرف خراسان وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر ودروازة البجالصة (بفتح الباء والجيم والصاد المهملة) وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلى وهى مقبرة حسنة يبنون بها القباب ولا يدعند كل قبر من محراب وان كان لا قبة له ويزرعون بها الاشجار المزهرة مثل قل شنبه (كل شنبو) وريبول (راي بيل) والنسرين وسواها والازاهير هنالك لا تنقطع فى فصل من الفصول

— ذكر جامع دهلى —

وجامع دهلى كبير الساحة حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ملصقة بالرصاص أتقن الصاق ولا خشبة به أصلا وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة ومنبره أيضا من الحجر وله أربعة من الصحون وفى وسط الجامع العمود الهائل الذى لا يدري من أى المعادن هو ذكر لى بعض حكمائهم انه يسمى هفت جوش (بفتح الهاء وسكون

الفاء وتاء معلوة وجيم مضموم وآخره شين معجم) ومعنى ذلك سبعة معادن وانه مؤلف منها وقد جلى من هذا العمود مقدار السبابة ولذلك المجلو منه بريق عظيم ولا يؤثر فيه الحديد وطوله ثلاثون ذراعا وادرنا به عمامة فكان الذى أحاط بدائرته منها ثمان أذرع وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جدا من النحاس مطروحان بالارض قد ألصقا بالحجارة ويطا عليهما كل داخل الى المسجد أو خارج منه وكان موضع هذا المسجد بدخانة وهو بيت الاصنام فلما افتتحت جعل مسجدا وفى الصحن الشمالى من المسجد الصومعة التى لا نظير لها فى بلاد الاسلام وهي مبنية بالحجارة الحمر خلا فالحجارة سائر المسجد فانها بيض وحجارة الصومعة منقوشة وهى سامية الارتفاع وفحلها من الرخام الابيض الناصع وتفافيحها من الذهب الخالص وسعة ممرها بحيث تصعد فيه القيلة حدثني من أثق به انه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة الى أعلاها وهي من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن وأراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة أعظم منها فبنى مقدار الثلث منها واخترم دون تمامها وأراد السلطان محمد اتمامها ثم ترك ذلك تشاؤما وهذه الصومعة من عجائب الدنيا فى ضخامتها وسعة ممرها بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة وهذا الثلث المبنى منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التى ذكرنا انها بالصحن الشمالى وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة وعاينت الاسوار على ارتفاعها وسموها منحطة وظهر لى الناس في أسفلها كانهم الصبيان الصغار ويظهر لناظرها من أسفلها ان ارتفاعها ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضا مسجدا جامعا بسيرى المسماة دار الخلافة فلم يتم منه غير الحائط القبلى والمحراب وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر ولو كمل لم يكن له مثل فى البلاد وأراد السلطان محمد اتمامه وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه فزعموا انه ينفق فى اتمامه خمسة وثلاثون لكافترك ذلك استكثارا له وأخبرني بعض خواصه انه لم يتركه استكثاراً لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قد قتل قبل تمامه

— ذكر الحوضين العظيمين بخارجها —

وبخارج دهلى الحوض العظيم المنسوب الى السلطان شمس الدين المسمى ومنه يشرب أهل المدينة وهو بالقرب من مصلاها وماؤها يجتمع من ماء المطر وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله والجهة الغربية منه من ناحية المصلى مبنية بالحجارة مصنوعة أمثال الاكاكين بعضها أعلى من بعض وتحت كل دكان درج ينزل عليها الى الماء وبجانب كل دكان

قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين وفي وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مجعولة طبقتين فاذا كثر الماء في الحوض لم يكن سبيل اليها الا في القوارب فاذا قل الماء دخل اليها الناس وداخلها مسجد وفي أكثر الاوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون الى الله المتوكلون عليه واذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الاخضر والاصفر وهو شديد الحلاوة صغير الحرم وفيما بين دهلى ودار الخلافة حوض الخاص وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين وعلى جوانبه نحو أربعين قبة ويسكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمى طرب آباد ولهم سوق هنالك من أعظم الاسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات ويؤمهن الائمة وعددهن كثير وكذلك الرجال المغنون ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب في عرس الامير سيف الدين غدا بن مهنى لكل واحد منهم مصلى تحت ركبته فاذا سمع الاذان قام فتوضا وصلى

— ذكر بعض مزاراتها —

فمنها قبر الشيخ الصالح قطب الدين بختيار الكعكى وهو ظاهر البركة كثير التعظيم وسبب تسمية هذا الشيخ بالكعكى أنه كان اذا أتاه الذين عليهم الديون شاكين من الفقر أو القلة أو الذين لهم البنات ولا يجدون ما يجهزونهن به الى أزواجهن يعطى من أتاه منهم كعكة من الذهب أو من الفضة حتى عرف من أجل ذلك بالكعكى رحمه الله ومنها قبر الفقيه الفاضل نور الدين الكرلالى (بضم الكاف وسكون الراء والنون) ومنها قبر الفقيه علاء الدين الكرمانى نسبة الى كرمان وهو ظاهر البركة ساطع النور ومكانه يظهر قبلة المصلي وبذلك الموضع قبور رجال صالحين كثير نفع الله تعالى بهم

— ذكر بعض علمائها وصلحائها —

فمنهم الشيخ الصالح العالم محمود الكبا (بالباء الموحدة) وهو من كبار الصالحين والناس يزعمون انه ينفق من الكون لانه لا مال له ظاهر وهو يطعم الوارد والصادر ويعطى الذهب والدراهم والاثواب وظهرت له كرامات كثيرة واشتهر بها رأيته مرات كثيرة وحصلت لي بركته ومنهم الشيخ الصالح العالم علاء الدين النيلى كانه منسوب الى نيل مصر والله اعلم كان من اصحاب الشيخ العالم الصالح نظام الدين البزوانى وهو يعظ الناس في كل يوم جمعة فيتوب كثير منهم بين يديه ويحلقون رؤسهم ويتواجدون ويغشى على بعضهم

— حكاية —

شاهدته في بعض الايام وهو يعظ فقرأ القارىء بين يديه (يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة

الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) ثم كررها الفقيه علاء الدين فصاح أحد الفقراء من ناحية المسجد صيحة عظيمة فاعاد الشيخ الآية فصاح الفقير ثانية ووقع ميتا وكنت فيمن صلى عليه وحضر جنازته ومنهم الشيخ الصالح العابد صدر الدين الكهراني (بضم الكاف وسكون الهاء وراء ونون) وكان يصوم الدهر ويقوم الليل وتجرد عن الدنيا جميعا ونبذها ولباسه عباءة ويزوره السلطان وأهل الدولة وربما احتجب عنهم فرغب السلطان منه أن يقطعه قرى يطعم منها الفقراء والواردين فابى ذلك وزاره يوما وأتى اليه بعشرة آلاف دينار فلم يقبلها وذكروا انه لا يفطر الا بعد ثلاث وانه قيل له في ذلك فقال لا أفطر حتى أضطر فنحل الى الميتة ومنهم الامام الصالح العالم العابد الورع الخاشع فريد دهره ووحيد عصره كمال الدين عبد الله الغاري (بالغين المعجم والراء) نسبة الى غار كان يسكنه خارج دهلى بمقربة من زاوية الشيخ نظام الدين البداوني زرته بهذا الغار ثلاث مرات

— كرامة له —

كان لي غلام فابق مني وألفيته بيد رجل من الترك فذهبت الى انتزاعه من يده فقال لي الشيخ ان هذا الغلام لا يصلح لك فلا تاخذه وكان التركي راغبا في المصالحة فصالحته بمائة دينار أخذتها منه وتركته له فلما كان بعد ستة أشهر قتل سيده وأتى به الى السلطان فامر بتسليمه لاولاد سيده فقتلوه ولما شاهدت لهذا الشيخ هذه الكرامة انقطعت اليه ولازمته وتركت الدنيا ووهبت جميع ما كان عندي للفقراء والمساكين وأقمت عنده مدة فكنت أراه يواصل عشرة أيام وعشرين يوما ويقوم أكثر الليل ولم أزل معه حتى بعث عني السلطان ونشبت في الدنيا ثانية والله تعالى يختم بالخير وساذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى وكيفية رجوعي الى الدنيا

— ذكر فتح دهلى ومن تداولها من الملوك —

حدثني الفقيه الامام العلامة قاضي القضاة بالهند والسند كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي الملقب بصدر الجهان ان مدينة دهلى افتتحت من أيدي الكفار في سنة أربع وثمانين وخمسمائة وقد قرأت أنا ذلك مكتوبا على محراب الجامع الاعظم بها وأخبرني أيضا انها افتتحت على يد الامير قطب الدين ايبك (واسمه بفتح الهمزة وسكون الياء آخر الحروف وفتح الباء الموحدة وكان يلقب سياه (سالار) ومعناه مقدم الجيوش وهو أحد مماليك السلطان المعظم شهاب الدين محمد بن سنام الغوري ملك غزنة وخراسان المتغلب على ملك

ابراهيم ابن السلطان الغازي محمود بن سبكتكين الذي ابتدأ فتح الهند وكان السلطان شهاب الدين المذكور بعث الامير قطب الدين بعسكر عظيم ففتح الله عليه مدينة لاهور وسكنها وعظم شانه وسعي به الى السلطان والقي اليه جلساؤه انه يريد الانفراد بملك الهند وانه قد عصي وخالف وبلغ هذا الخبر الى قطب الدين فبادر بنفسه وقدم على غزنة ليلا ودخل على السلطان ولا علم عند الدين وشوا به اليه فلما كان بالغد قعد السلطان على سريره وأقعد ايبك تحت السرير بحيث لا يظهر وجاء الندماء والخواص الذين سعوا به فلما استقر بهم الجلوس سالهم السلطان عن شان ايبك فذكروا له انه عصى وخالف وقالوا قد صح عندنا انه ادعى الملك لنفسه فضرب السلطان سريره برجله فصفق بيديه وقال يا ايبك قال لبيك وخرج عليهم فسقط في أيديهم وفزعوا الى تقبيل الارض فقال لهم السلطان قد غفرت لكم هذه الزلة وايا كم والعودة الى الكلام في ايبك وأمره ان يعود الى بلاد الهند فعاد اليها وفتح مدينة دهلي وسواها واستقر بها الاسلام الى هذا العهد وأقام قطب الدين بها الى ان توفي

— ذكر السلطان شمس الدين اليمش —

(وضبط اسمه بفتح اللام الاولى وسكون الثانية وكسر الميم وشين معجم) وهو أول من ولي الملك بمدينة دهلي مستقلا به وكان قبل تملكه مملوكا للامير قطب الدين أيبك وصاحب عسكره نائبا عنه فلما مات قطب الدين استبد بالملك وأخذ الناس بالبيعة فاتاه الفقهاء يقدمهم قاضي القضاة اذذاك وجيه الدين الكاساني فدخلوا عليه وقعدوا بين يديه وقعد القاضي الى جانبه على العادة وفهم السلطان عنهم ما ارادوا أن يكلموه به فرفع طرف البساط الذي هو قاعد عليه وأخرج لهم عقدا يتضمن عتقه فقرأه القاضي والفقهاء وبايعوه جميعا واستقل بالملك وكانت مدته عشرين سنة وكان عادلا صالحا فاضلا ومن مآثره انه اشتد في رد المظالم وانصاف المظلومين وامر ان يلبس كل مظلوم ثوبا مصبوغا وأهل الهند جميعا يلبسون البياض فكان متى فعد للناس اوركب فرأى احدا عليه ثوب مصبوغ نظر في قضيته وانصفه ممن ظلمه ثم انه أعيا في ذلك فقال ان بعض الناس تجري عليهم المظالم بالليل واريد تعجيل انصافهم فيجعل على باب قصره أسدين مصورين من الرخام موضوعين على برجين هنالك وفي أعناقهما سلسلتان من الحديد فيهما جرس كبير فكان المظلوم ياتي ليلا فيحرك الجرس فيسمعه السلطان وينظر في أمره للحين وينصفه ولما توفي السلطان شمس الدين خلف من الاولاد الذكور ثلاثة وهم ركن الدين الوالي بعده ومعز الدين وناصر الدين وبنتا تسمي رضية هي شقيقة معز الدين منهم فتولى بعده ركن الدين كما ذكرناه

— ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين —

ولما بويع ركن الدين بعد موت أبيه افتتح أمره بالتعدى على أخيه معز الدين فقتله وكانت رضية شقيقته فانكرت ذلك عليه فاراد قتلها فلما كان فى بعض أيام الجمع خرج ركن الدين الى الصلاة فصعدت رضية على سطح القصر القديم المجاور للجامع الاعظم وهو يسمى دولة خانة ولبست عليها ثياب المظلومين وتعرضت للناس وكلمتهم من أعلى السطح وقالت لهم ان أخى قتل أخاه وهو يريد قتلى معه وذكرتهم أيام أبيها وفعله الخير واحسانه اليهم فثاروا عند ذلك الى السلطان ركن الدين وهو فى المسجد فقبضوا عليه وأتوا به اليها فقالت لهم القاتل يقتل فقتلوه قصاصا باخيه وكان أخوهما ناصر الدين صغيرا فاتفق الناس على تولية رضية

— ذكر السلطانة رضية —

ولما قتل ركن الدين اجتمعت العساكر على تولية أخته رضية الملك فولوها واستقلت بالملك أربع سنين وكانت تركب بالقوس والتركش والقربان كما يركب الرجال ولا تستر وجهها ثم انها اتهمت بعبدها من الحبشة فاتفق الناس على خلعها وتزويجها فخلعت وزوجت من بعض أقاربها وولى الملك أخوها ناصر الدين

— ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين —

ولما خلعت رضية ولى ناصر الدين اخوها الاصغر واستقل بالملك مده ثم ان رضيه وزوجها خالفا عليه وركبا فى مما ليكهما ومن تبعهما من أهل الفساد وتهيا لقتاله وخرج ناصر الدين ومعه مملوكه النائب عنه غياث الدين بلبن متولى الملك بعده فوقع اللقاء وانهزم عسكر رضية وفرت بنفسها فادركها الجوع واجهدها الاعياء فقصدت حراثا رأته يحرث الارض فطلبت منه ماتا كله فاعطاها كسرة خبز فاكلتها وغلب عليها النوم وكانت فى زى الرجال فلما نامت نظر اليها الحراث وهى نائمة فرأى تحت ثيابها قباء مرصعا فعلم انها امراة فقتلها وسلبها وطرد فرسها ودفنها فى فدانه وأخذ بعض ثيابها فذهب الى السوق ليبيعها فانكر أهل السوق شانه وأتوا به الشحنة وهو الحاكم فضربه فاقر بقتلها ودلهم على مدفنها فاستخرجوها وغسلوها وكفنوها ودفنت هنالك وبنى عليها قبة وقبرها الآن يزار ويتبرك به وهو على شاطىء النهر الكبير المعروف بنهر الجون على مسافة فرسخ واحد من المدينة واستقل ناصر الدين بالملك بعدها واستقام له الامر عشرين سنة وكان ملكا صالحا ينسخ نسخا من الكتاب العزيز ويبيعها فيقتات بثمنها وقد وقفنى القاضى كمال الدين على مصحف بخطه متقن محكم الكتابة ثم ان نائبه غياث الدين بلبن قتله وملك بعده ولبلبن هذا خبر ظريف نذكره

(وضبط اسمه بباء بن موحدتين بينهما لام والجميع مفتوحات وآخره نون) ولما قتل بلبن مولاه السلطان ناصر الدين استقل بالملك بعده عشرين سنة وقد كان قبلها نائبا له عشرين سنة أخرى وكان من خيار السلاطين عادلا حليما فاضلا ومن مكارمه أنه بني دارا وسماها دار الأمن فمن دخلها من أهل الديون قضى دينه ومن دخلها خائفا أمن ومن دخلها وقد قتل أحدا أرضى عنه أولياء المقتول ومن دخلها من ذوي الجنايات أرضي أيضا من يطلبه وبتلك الدار دفن لما مات وقد زرت قبره

— حكاية —

يذكر ان أحد الفقراء ببخاري رأى بها بلبن هذا وكان قصيرا حقيرا دميما فقال له يا تركك وهي لفظة تعرب عن الاحتقار فقال له لبيك يا خوند فاعجبه كلامه فقال له اشتر لي من هذا الرمان وأشار الى رمان يباع بالسوق فقال نعم وأخرج فليسات لم يكن عنده سواها واشتري له من ذلك الرمان فلما أخذها الفقير قال له وهبناك ملك الهند فقبل بلبن يد نفسه وقال قبلت ورضيت واستقر ذلك في ضميره واتفق ان بعث السلطان شمس الدين للمش تاجرا يشتري له المماليك بسمرقند وبخارى وترمذ فاشترى مائة مملوك كان من جملتهم بلبن فلما دخل بالمماليك على السلطان أعجبه جميعهم الا بلبن لما ذكرناه من دمامته فقال لا أقبل هذا فقال له بلبن يا خوند عالم لمن اشتريت هؤلاء المماليك فضحك منه وقال اشتريتهم لنفسي فقال له اشتريني أنا لله عز وجل فقال نعم وقبله وجعله في جملة المماليك فاحتقر شانه وجعل في السقائين وكان أهل المعرفة بعلم النجوم يقولون للسلطان شمس الدين ان أحد مماليكك يا خذ الملك من يد ابنك ويستولي عليه ولا يزالون يلقون له ذلك وهو لا يلتفت الى أقوالهم لصلاحه وعدله الى أن ذكروا ذلك للخاتون الكبرى أم أولاده فذكرت له ذلك واثر في نفسه وبعث على المنجمين فقال انعرفون المملوك الذي يا خذ ملك ابني اذا أيتموه فقالوا له نعم عندنا علامة نعرفه بها فامر السلطان بعرض مماليكه وجلس لذلك فعرضوا بين يديه طبقة طبقة والمنجمون ينظرون اليهم ويقولون لم نره بعد وحان وقت الزوال فقال السقاؤون بعضهم لبعض انا قد جعنا فلنجمع شيئا من الدراهم ونبعث أحدنا الى السوق ليشتري لنا ما ناكله فجمعوا الدراهم وبعثوا بها بلبن اذ لم يكن فيهم أحقر منه فلم يجد ما لسوق ما أرادوه فتوجه الى سوق أخرى وأبطا وجاءت نوبة السقائين في العرض وهو لم يات بعد فاخذوا زقه وماعونه وجعلوه على كاهل صبي وعرضوه على انه بلبن فلما نودي باسمه جاز الصبي بين أيديهم وانقضى العرض ولم ير المنجمون الصورة التي تطلبوها

وجاء بلبن بعد تمام العرض لما أراد الله من انفاذ قضائه ثم انه ظهرت نجابته فجعل أمير السقائين ثم صار من جملة الاجناد ثم من الامراء ثم تزوج السلطان ناصر الدين بنته قبل ان يلي الملك فلما ولي الملك جعله نائبا عنه مدة عشرين سنة ثم قتله بلبن واستولى على ملكه عشرين سنة أخرى كما تقدم ذكر ذلك وكان للسلطان بلبن ولدان أحدهما الخان الشهيد ولي عهده وكان واليا له ببلاد السند سا كنا بمدينة ملتان وقتل في حرب له مع التتر وترك ولدين كي قباد وكي خسرو وولد السلطان بلبن الثاني يسمى ناصر الدين وكان واليا له ببلاد اللكنوتي وبنجالة فلما استشهد الخان الشهيد جعل السلطان بلبن العهد الى ولده كي خسرو وعدل به عن ابن نفسه ناصر الدين وكان لناصر الدين أيضا ولد ساكن بحضرة دهلي مع جده يسمى معز الدين وهو الذي تولى الملك بعد جده في خبز عجيب نذكره وأبوه اذ ذاك حي كما ذكرناه

— ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن —

ولما توفي السلطان غياث الدين ليلا وابنه ناصر الدين غائب ببلاد اللكنوتي وجعل العهد لابن ابنه الشهيد كي خسرو حسبما قصصناه كان ملك الامراء نائب السلطان غياث الدين عدوا لكي خسرو فادار عليه حيلة تمت له وهي انه كتب بيعة دلس فيها على خطوط الامراء الكبار بانهم بايعوا معز الدين حفيد السلطان بلبن ودخل على كي خسرو كالمتنصح له فقال له ان الامراء قد بايعوا ابن عمك وأخاف عليك منهم فقال له كي خسرو فما الحيلة قال أنج بنفسك هاربا الى بلاد السند فقال وكيف الخروج والابواب مسدودة فقال له ان المفاتيح بيدي وأنا أفتح لك فشكره على ذلك وقبل يده فقال اركب الآن فركب في خاصته ومماليكه وفتح له الباب وأخرجه وسد في أثره واستاذن على معز الدين فبايعه فقال كيف لي بذلك وولاية العهد لابن عمي فاعلمه بما أدار عليه من الحيلة وباخراجه فشكره على ذلك ومضي به الى دار الملك وبعث الى الامراء والخواص فبايعوا ليلا فلما أصبح بايعه سائر الناس واستقام له الملك وكان أبوه حيا ببلاد بنجالة واللكنوتي فاتصل به الخبر فقال أنا وارث الملك وكيف يلي ابني الملك ويستقل به وأنا بقيد الحياة فتجهز في جيوشه قاصدا حضرة دهلي وتجهز ولده في جيوشه أيضا قاصدا المدافعة عنها فتوافيا معا بمدينة كراوهي على ساحل نهر الكنك الذي تحج الهنود اليه فنزل ناصر الدين على شاطئه مما يلي كراونزل ولده السلطان معز الدين مما يلي الجهة الاخري والنهر بينهما وعزما على القتال ثم ان الله تعالى أراد حقن دماء المسلمين فالقى في قلب ناصر الدين الرحمة لابنه وقال اذا ملك ولدي فذلك شرف وأنا أحق أن أرغب في ذلك والقي في قلب السلطان معز الدين الضراعة لابيه

Digitized by Birzeit University Library

فركب كل واحد منهما فى مركب منفردا عن جيوشه والتقيا فى وسط النهر فقبل السلطان رجل أبيه واعتذر له فقال له أبوه قد وهبتك ملكى وولايتك وبايعه وأراد الرجوع لبلاده فقال له ابنه لا بد لك من الوصول الى بلادى فمضى معه الى دهلى ودخل القصر وأقعد أبوه على سرير الملك ووقف بين يديه وسمى ذلك اللقاء الذى كان بينهما بالنهر لقاء السعدين لما كان فيه من حقن الدماء وتواهب الملك والتجافى عن المنازعة واكثرت الشعراء فى ذلك وعاد ناصر الدين الى بلاده فمات بها بعد سنين وترك بها ذرية منهم غياث الدين بهادور الذى أسره السلطان تغلق وأطلقه ابنه محمد بعد وفاته واستقام الملك لمعز الدين أربعة أعوام بعد ذلك وكانت كالاعياد رأيت بعض من أدركها يصف خيراتها ورخص اسعارها وجود معز الدين وكرمه وهو الذى بنى الصومعة بالصحن الشمالى من جامع دهلى ولا نظير لها فى البلاد وحكى لى بعض أهل الهند ان معز الدين كان يكثر النكاح والشرب فاعترته علة أعجز الاطباء دواؤها ويئس احد شفيه فقام عليه نائبه جلال الدين فيروز شاه الخلجى (بفتح الخاء المعجم واللام والجيم)

— ذكر السلطان جلال الدين —

ولما اعترى السلطان معز الدين ما ذكرناه من يئس أحد شفيه خالف عليه نائبه جلال الدين وخرج الى ظاهر المدينة فوقف على تل هنالك بجانب قبة تعرف بقبة الجيشانى فبعث معز الدين الامراء لقتاله فكان كل من يبعثه منهم يبايع جلال الدين ويدخل فى جملته ثم دخل المدينة وحصره فى القصر ثلاثة أيام وحدثنى من شاهد ذلك ان السلطان معز الدين أصابه الجوع فى تلك الايام فلم يجد مايا كله فبعث اليه احد الشرفاء من جيرانه ما أقام أوده ودخل عليه القصر فقتل وولى بعده جلال الدين وكان حليما فاضلا وحلمه اداه الى القتل كما سنذكره واستقام له الملك سنين وبنى القصر المعروف باسمه وهو الذى أعطاه السلطان محمد لصهره الامير غدا ابن مهنى لما زوجه باخته وسيذكر ذلك فكان للسلطان جلال الدين ولد اسمه ركن الدين وابن أخ اسمه علاء الدين زوجه ابنته وولاه مدينة كراو مانكبور وتواحيها وهى من أخصب بلاد الهند كثيرة القمح والارز والسكر وتصنع بها الثياب الرفيعة ومنها تجلب الى دهلى وبينهما مسيرة ثمانية عشر يوما وكانت زوجة علاء الدين تؤذيه فلا يزال يشكوها الى عمه السلطان جلال الدين حتى وقعت الوحشة بينهما بسببها وكان علاء الدين شهما شجاعا مظفرا منصورا وحب الملك ثابت فى نفسه الا انه لم يكن له مال الا ما يستفيده بسيفه من غنائم الكفار فاتفق انه ذهب مرة الى

الغز وبلاد الدويقير وتسمى بلاد الكتكة أيضا وسنذكرها وهي كرسى بلاد المالوة والمرهتة وكان سلطانها أكبر سلاطين الكفار فعثرت بعلاء الدين فى تلك الغزوة دابة له عند حجر فسمع له طنينا فامر بالحفر هنالك فوجد تحته كنزا عظيما ففرقه فى أصحابه ووصل الى الدويقير فاذعن له سلطانها بالطاعة ومكنه من المدينة من غير حرب وأهدى له هدايا عظيمة فرجع الى مدينة كرا ولم يبعث الى عمه شيا من الغنائم فاغرى الناس عمه به فبعث اليه فامتنع من الوصول اليه فقال السلطان جلال الدين أنا أذهب اليه وآتي به فانه محل ولدى فتجهز فى عساكره وطوى المراحل حتى حل بساحل مدينة كرا حيث نزل السلطان معز الدين لما خرج الي لقاء ابيه ناصر الدين وركب النهر برسم الوصول الى ابن أخيه وركب ابن أخيه أيضا فى مركب ثان عازما على الفتك به وقال لاصحابه اذا أنا عانقته فاقتلوه فلما التقيا وسط النهر عانقه ابن أخيه وقتله أصحابه كما وعدهم واحتوى على ملكه وعساكره

— ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي —

ولما قتل عمه استقل بالملك وفر اليه اكثر عساكر عمه وعاد بعضهم الى دهلى واجتمعوا على ركن الدين وخرج الى دفاعه فهربوا جميعا الى السلطان علاء الدين وفر ركن الدين الى السند ودخل علاء الدين دار الملك واستقام له الامر عشرين سنة وكان من خيار السلاطين وأهل الهند يثنون عليه كثيرا وكان يتفقد امور الرعية بنفسه ويسال عن اسعارهم ويحضر المحتسب وهم يسمونه الرئيس فى كل يوم برسم ذلك ويذكر انه ساله يوما عن سبب غلاء اللحم فاخبره ان ذلك لكثرة المغرم على البقر فى الرتب فامر برفع ذلك وامر باحضار التجار واعلامهم الاموال وقال لهم اشتروا بها البقر والغنم وبيعوها وبرفع ثمنها لبيت المال ويكون لكم أجرة على بيعها ففعلوا ذلك وفعل مثل هذا فى الانواب التي يؤتي بها من دولة ابادو كان اذا غلا ثمن الزرع فتح المخازن وباع الزرع حتى يرخص السعر ويذكر ان السعر ارتفع ذات مرة فامر ببيع الزرع بثمن عينه فامتنع الناس من بيعه بذلك الثمن فامر ان لا يبيع أحد زرعا غير زرع المخزن وباع للناس ستة أشهر فخاف المحتكرون فساد زرعهم بالسوس فرغبوا أن يؤذن لهم فى البيع فاذن لهم على أن يبيعوه باقل من القيمة الاولى التى امتنعوا من بيعه بها وكان لا يركب لجمعة ولا لعيد ولا سواها وسبب ذلك انه كان له ابن اخ يسمى سليمان شاه وكان يحبه ويعظمه فركب يوما الى الصيد وهو معه وأضمر فى نفسه ان يفعل به مافعل هو بعمه جلال الدين من الفتك فلما نزل

للغداء رماه بنشابة بمصرعه وغطاه بعض عبيده بترس وأتي ابن أخيه ليجهز عليه فقال له العبيد انه قد مات فصدقهم وركب فدخل القصر على الحرم وأفاق السلطان علاء الدين من غشيته وركب واجتمعت العساكر عليه وفر ابن اخيه فادركه وأتي به اليه فقتله وكان بعد ذلك لا يركب وكان له من الاولاد خضر خان وشادى خان وأبو بكر خان ومبارك خان وهو قطب الدين الذي ولي الملك وشهاب الدين وكان قطب الدين مهتضما عنده ناقص الحظ قليل الحظوة وأعطى جميع اخوته المراتب وهي الاعلام والاطبال ولم يعطه شيئا وقال له يوما لا بد أن أعطيك مثل ما اعطيت اخوتك فقال له الله هو الذي يعطيني فهال أباه هذا الكلام وفزع منه ثم ان السلطان أصابه المرض الذي مات منه وكانت زوجته أم ولده خضر خان وتسمى ماه حق والماه القمر بلسانهم لها أخ يسمي سنجر فعاهدت أخاها على تمليك ولدها خضر خان وعلم بذلك ملك نائب أكبر أمراء السلطان وكان يسمي الالفي لان السلطان اشتراه بالف تنكة وهي الفان وخمسمائة من دنانير المغرب فوشى الى السلطان بما اتفقوا عليه فقال لخواصه اذا دخل على سنجر فاني معطيه ثوبا فاذا لبسه فامسكوا باكمامه واضربوا به الارض واذبحوه فلما دخل عليه فعلوا ذلك وقتلوه وكان خضر خان غائبا بموضع يقال له سندبت على مسيرة يوم من دهلي توجه لزيارة شهداء مدفونين به لنذر كان عليه ان يمشي تلك المسافة راجلا ويدعو الوالده بالراحة فلما بلغه ان أباه قتل خاله حزن عليه حزنا شديدا ومزق جيبه وتلك عادة لاهل الهند يفعلونها اذا مات لهم من يعز عليهم فبلغ والده مافعله فكره ذلك فلما دخل عليه عنفه ولامه وأمر به فقيدت يداه ورجلاه وسلمه للملك نائب المذكور وأمره أن يذهب به الى حصن كاليور وضبطه (بفتح الكاف المعقودة وكسر اللام وضم الياء آخرا لحروف وآخره راء) ويقال له أيضا كاليار بزيادة ياء ثانية وهو حصن منقطع بين كفار الهنود منيع على مسيرة عشر من دهلي وقد سكنته أنا مدة فلما أوصله الى هذا الحصن سلمه للكتوال وهو أمير الحصن وللمقردين وهم الزماميون وقال لهم لا تقولوا هذا ابن السلطان فتكرموه انما هو اعدي عدوله فاحفظوه كما يحفظ العدو ثم ان المرض اشتد بالسلطان فقال للملك نائب ابعث من يأتي بابني خضر خان لاوليه العهد فقال له نعم وماطله بذلك فمتى سأله عنه قال هو ذا يصل الى أن توفي السلطان رحمه الله

— ذكر ابنه السلطان شهاب الدين —

ولما توفي السلطان علاء الدين أقعد ملك نائب ابنه الاصغر شهاب الدين على سرير الملك وبايعه الناس وتغلب ملك نائب عليه وسمل أعين أبي بكر خان وشادى خان وبعث بهما

الى كاليور وأمر بسمل عيني أخيهما خضر خان المسجون هنالك وسجنوا وسجن قطب الدين لكنه لم تسمل عينيه وكان للسلطان علاء الدين مملوكان من خواصه يسمي أحدهما بشير والآخر بمبشر فبعثت اليهما الخاتون الكبري زوجة علاء الدين وهي بنت السلطان معز الدين فذكرتهما بنعمة مولاها وقالت ان هذا الفتى نائب ملك قد فعل في أولادي ما تعلمانه وأنه يريد ان يقتل قطب الدين فقال لها ستريين ما نفعل وكانت عادتهما ان يبيتا عند نائب ملك ويدخلا عليه بالسلاح فدخلا عليه تلك الليلة وهو في بيت من الخشب مكسو بالملف يسمونه الخرمقة ينام فيه أيام المطر فوق سطح القصر فاتفق انه أخذ السيف من يد أحدهما فقتله ورده اليه فضربه به المملوك وثنى عليه صاحبه واحتز رأسه واتيا به الى مجلس قطب الدين فرمياه بين يديه وأخرجاه فدخل على أخيه شهاب الدين وأقام بين يديه أياما كانه نائب له ثم عزم على خلعه فخلعه

— ذكر السلطان قطب الدين بن السلطان علاء الدين —

وخلع قطب الدين أخاه شهاب الدين وقطع أصبعه وبعث به الى كاليور فحبس مع اخوته واستقام الملك لقطب الدين ثم انه بعد ذلك خرج من حضرة دهلي الى دولة اباد وهي على مسيرة اربعين يوما منها والطريق بينهما تكتنفه الاشجار من الصفصاف وسواه فكان الماشي به في بستان وفي كل ميل منه ثلاث داوات وهي البريد وقد ذكرنا ترتيبه وفي كل داوة جميع ما يحتاج المسافر اليه فكانه يمشي في سوق مسيرة الاربعين يوما وكذلك يتصل الطريق الى بلاد التلنك والمعبر مسيرة ستة أشهر وفي كل منزلة قصر للسلطان وزاوية للوارد والصادر فلا يفتقر الفقير الى حمل زاد في ذلك الطريق ولما خرج السلطان قطب الدين في هذه الحركة اتفق بعض الامراء على الخلاف عليه وتولية ولد أخيه خضر خان المسجون وسنه نحو عشرة أعوام وكان مع السلطان فبلغ السلطان ذلك فاخذ ابن أخيه المذكور وأمسك برجليه وضرب برأسه الى الحجارة حتى نثر دماغه وبعث احد الامراء ويسمي ملك شاه الى كاليور حيث أبو هذا الولد وأعمامه وأمره بقتلهم جميعا فحدثني القاضي زين الدين مبارك قاضي هذا الحصن قال قدم علينا ملك شاه ضحوة يوم وكنت عند خضر خان بمجلسه فلما سمع بقدومه خاف وتغير لونه ودخل عليه الامير فقال له فيما جئت قال في حاجة خوند عالم فقال له نفسي سالمة فقال نعم وخرج عنه واستحضر الكتوال وهو صاحب الحصن والمفردين وهم الزماميون وكانوا ثلاثمائة رجل وبعث عني وعن العدول واستظهر بامر السلطان فقرؤه واتوالى شهاب الدين المخلوع فضربوا عنقه

وهو متثبت غير جزع ثم ضربوا عنق أبي بكر خان وشادي خان ولما أتوا ليضربوا عنق خضر خان فزع وذهل وكانت أمه معه فسدوا الباب دونها وقتلوه وسحبوهم جميعا في حفرة بدون تكفين ولا غسل وأخرجوا بعد سنين فدفنوا بمقابر آبائهم وعاشت أم خضر خان مدة وراءها بمكة سنة ثمان وعشرين وحصن كاليور هذا في رأس شاهق كأنه منحوت من الصخر لا يحاذيه جبل وبداخله جباب الماء ونحو عشرين بئرا عليها الاسوار مضافة الى الحصن منصوبا عليها المجانيق والرعادات ويصعد الى الحصن في طريق متسعة يصعدها الفيل والفرس وعند باب الحصن صورة فيل منحوت من الحجر وعليه صورة فيال واذا رآه الانسان على البعد لم يشك انه فيل حقيقة وأسفل الحصن مدينة حسنة مبنية كلها بالحجارة البيض المنحوتة مساجدها ودورها ولا خشب فيها ماعدا الابواب وكذلك دار الملك بها والقباب والمجالس وأكثر سوقتها كفار وفيها ستمائة فارس من جيش السلطان لا يزالون في جهادها بين الكفار ولما قتل قطب الدين اخوته واستقل بالملك فلم يبق من ينازعه ولا من يخالف عليه بعث الله تعالى عليه خاصته الحظي لديه أكبر أمرائه وأعظمهم منزلة عنده ناصر الدين خسرو خان ففتك به وقتله واستقل بملكه الا ان مدته لم تطل في الملك فبعث الله عليه أيضا من قتله بعد خلعه وهو السلطان تغلق حسبما يشرح ذلك كله مستوفى ان شاء الله تعالى أثر هذا ونسطره

— ذكر السلطان خسرو خان ناصر الدين —

وكان خسرو خان من أكبر أمراء قطب الدين وهو شجاع حسن الصورة وكان فتح بلاد جنديري و بلاد المعبر وهي من أخصب بلاد الهند و بينهما و بين دهلي مسيرة ستة أشهر وكان قطب الدين يحبه حبا شديدا و يؤثره فجر ذلك حتفه على يديه وكان لقطب الدين معلم يسمى قاضي خان صدر الجهان وهو أكبر أمرائه وكليت (كليد) داروهو صاحب مفاتيح القصر وعادته ان يبيت كل ليلة على باب السلطان ومعه أهل النوبة وهم الف رجل يبيتون مناوبة بين أربع ليال و يكونون صفين فيما بين ابواب القصر وسلاح كل واحد منهم بين يديه فلا يدخل أحدا لا فيما بين سماطيهم واذا تم الليل أتي أهل نوبة النهار ولاهل النوبة أمراء وكتاب يتطوفون عليهم و يكتبون من غاب منهم أو حضر وكان معلم السلطان قاضي خان يكره أفعال خسرو خان و يسوءه ما يراه من ايثاره لكفار الهنود وميله اليهم وأصله منهم ولا يزال يلقى ذلك الى السلطان فلا يسمع منه و يقول له دعه وما يريد لما اراد الله من قتله على يديه فلما كان في بعض الايام قال خسرو خان للسلطان ان جماعة

Digitized by Birzeit University Library

من الهنود يريدون ان يسلموا ومن عادتهم بتلك البلاد ان الهندي اذا اراد الاسلام أدخل الى السلطان فيكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب على قدره فقال له السلطان ائتني بهم فقال انهم يستحيون ان يدخلو اليك نهارا لاجل اقربائهم وأهل ملتهم فقال له ائتني بهم ليلا فجمع خسروخان جماعة من شجعان الهنود وكبرائهم فيهم أخوه خان خانان وذلك أوان الحر والسلطان ينام فوق سطح القصر ولا يكون عنده في ذلك الوقت الا بعض الفتيان فلما دخلوا الابواب الاربعة وهم شاكون في السلاح ووصلوا الى الباب الخامس وعليه قاضي خان أنكر شانهم وأحس بالشر فمنعهم من الدخول وقال لا بد أن أسمع من خوند عالم بنفسي الاذن في دخولهم وحينئذ يدخلون فلما منعهم من الدخول هجموا عليه فقتلوه وعلت الضجة بالباب فقال السلطان ما هذا فقال خسروخان هم الهنود الذين أتوا ليسلموا فمنعهم قاضي خان من الدخول وزاد الضجيج فخاف السلطان وقام يريد الدخول الى القصر وكان بابه مسدودا والفتيان عنده فقرع الباب واحتضنه خسرو خان من خلفه وكان السلطان أقوى منه فصرعه ودخل الهنود فقال لهم خسروخان هو ذا فوقي فاقتلوه فقتلوه وقطعوا رأسه ورموا به من سطح القصر الى صحنه وبعث خسرو خان من حينه عن الامراء والملوك وهم لا يعلمون بما اتفق فكلما دخلت طائفة وجدوه على سرير الملك فبايعوه ولما أصبح أعلن بامره وكتب المراسم وهي الاوامر الى جميع البلاد وبعث لكل أمير خلعة فطاعوا له جميعا واذعنوا الا تغلق شاه ولد السلطان محمد شاه وكان اذ ذاك أميرا ببال بور من بلاد السند فلما وصلته خلعة خسروخان طرحها بالارض وجلس فوقها وبعث اليه اخاه خان خانان فهزمهم ثم آل أمره الى ان قتله كما سنشرحه في اخبار تغلق ولما ملك خسروخان آثر الهنود واظهر امورا منكرة منها النهي عن ذبح البقر على قاعدة كفار الهنود فانهم لا يجيزون ذبحها وجزاء من ذبحها عندهم ان يخاط في جلدها ويحرق وهم يعظمون البقر ويشربون ابوالها للبركة وللاستشفاء اذا مرضوا ويلطخون بيوتهم وحيطانهم بارواثها وكان ذلك مما بغض خسروخان الى المسلمين وأمالهم عنه الى تغلق فلم تطل مدة ولايته ولا امتدت ايام ملكه كما سنذكره

— ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه —

(وضبط اسمه بضم التاء المعلوة وسكون الغين المعجم وضم اللام وآخره قاف) حدثني الشيخ الامام الصالح العالم العامل العابد ركن الدين بن الشيخ الصالح شمس الدين أبي عبدالله ابن الولي الامام العالم العابد بهاء الدين زكريا القرشي الملتاني بزاويته منها ان السلطان تغلق كان

من الاتراك المعروفين بالقرونة (بفتح القاف والراء وسكون الواو وفتح النون) وهم قاطنون بالجبال التي بين بلاد السند والترك وكان ضعيف الحال فقدم بلاد السند في خدمة بعض التجار وكان كلوا ئياله والكلواني (بضم الكاف المعقودة) هو راعي الخيل (جلوبان) وذلك على أيام السلطان علاء الدين وأمير السند اذذاك أخوه أولوخان (بضم الهمزة واللام) فخدمه تغلق وتعلق بجانبه فرتبه في البياة (بكسر الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف) وهم الرجالة ثم ظهرت نجابته فاثبت في الفرسان ثم كان من الامراء الصغار وجعله أولوخان أمير خيله ثم كان بعد من الامراء الكبار وسمي بالملك الغازي ورأيت مكتوبا على مقصورة الجامع بملتان وهو الذي أمر بعملها انى قاتلت التتر تسعا وعشرين مرة فهزمتهم فحينئذ سميت بالملك الغازي ولما ولي قطب الدين ولاه مدينة دبال بور وعمالتها (وهي بكسر الدال المهملة وفتح الباء الموحدة) وجعل ولده الذي هو الآن سلطان الهند أمير خيله وكان يسمى جونة (بفتح الجيم والنون) ولما ملك تسمي بمحمد شاه ثم لما قتل قطب الدين وولى خسروخان أبقاه على امارة الخيل فلما أراد تغلق الخلاف كان له ثلاثمائة من أصحابه الذين يعتمد عليهم في القتال وكتب الى كشلوخان وهو يومئذ بملتان وبينهما وبين دبال بور ثلاثة أيام يطلب منه القيام بنصرته ويذكره نعمة قطب الدين ويحرضه على طلب ثاره وكان ولد كشلوخان بدهلي فكتب الى تغلق انه لو كان ولدي عندي لاعنتك على ما تريد فكتب تغلق الى ولده محمد شاه يعلمه بما عزم عليه ويامره أن يغر اليه ويستصحب معه ولد كشلوخان دار ولده الحيلة على خسروخان وتمت له كما أراد فقال له ان الخيل قد سمنت وتبدنت وهي تحتاج البراق وهو التضمير فاذن له في تضميرها فكان يركب كل يوم في أصحابه فيسير بها الساعة والساعتين والثلاث واستمر الى اربع ساعات الى أن غاب يوما الى وقت الزوال وذلك وقت طعامهم فامر السلطان بالركوب في طلبه فلم يوجد له خبر ولحق بابيه واستصحب معه ولد كشلوخان وحينئذ أظهر تغلق الخلاف وجمع العساكر وخرج معه كشلوخان في أصحابه وبعث السلطان أخاه خان خانان لقتالهما فهزماه شر هزيمة وفر عسكره اليهما ورجع خان خانان الى أخيه وقتل أصحابه وأخذت خزائنه وأمواله وقصد تغلق حضرة دهلي وخرج اليه خسروخان في عساكره ونزل بخارج دهلي بموضع يعرف باصيا باد (آسيا باد) ومعنى ذلك رحي الريح، أمر بالخزائن ففتحت وأعطي الاموال بالبدر لا بوزن ولا عد ووقع اللقاء بينه وبين تغلق وقاتلت الهنود أشد قتال وانهزمت عساكر تغلق ونهبت محلته وانفرد في أصحابه الاقدمين الثلاثمائة فقال لهم الى أين الفرار حيثما أدركنا قتلنا

واشتغلت عساكر خسروخان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا قليل فقصد تغلق وأصحابه موقفه والسلطان هنالك يعرف بالشطر (جتر) الذي يرفع فوق رأسه وهو الذي يسمي بديار مصر القبة والطير ويرفع بها في الاعياد وأما بالهند والصين فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر فلما قصده تغلق وأصحابه حمي القتال بينهم وبين الهنود وانهزم أصحاب السلطان ولم يبق معه أحد وهرب فنزل عن فرسه ورمى بثيابه وسلاحه وبقي في قميص واحد وارسل شعره بين كتفيه كما يفعل فقراء الهند ودخل بستانا هنالك واجتمع الناس على تغلق وقصد المدينة فاتاه الكتوال بالمفاتيح ودخل القصر ونزل بناحية منه وقال لكشلوخان أنت تكون السلطان فقال كشلوخان بل أنت تكون السلطان وتنازعا فقال له كشلوخان فان أبيت أن تكون سلطانا فيتولى ولدك فكره هذا وقبل حينئذ وقعد على سرير الملك وبايعه الخاص والعام ولما كان بعد ثلاث اشتد الجوع بخسروخان وهو مختف بالبستان فخرج وطاف به فوجد القيم فسأله طعاما فلم يكن عنده فاعطاه خاتمه وقال اذهب فارهنه في طعام فلما ذهب بالخاتم الى السوق أنكر الناس أمره ورفعوه الى الشحنة وهو الحاكم فادخله على السلطان تغلق فاعلمه بمن دفع اليه الخاتم فبعث ولده محمدا ليأتي به فقبض عليه وأتاه به راكبا على تتو (بتائين مثناتين أولاهما مفتوحة والثانية مضمومة) وهو البرذون فلما مثل بين يديه قال له اني جائع فاتني بالطعام فامر له بالشربة ثم بالطعام ثم بالقفاع ثم بالتنبول فلما أكل قام قائما وقال يا تغلق افعل معي فعل الملوك ولا تفضحني فقال له لذلك ذلك وأمر به فضربت رقبته وذلك في الموضع الذي قتل هو به قطب الدين ورمي برأسه وجسده من أعلى السطح كما فعل هو برأس قطب الدين وبعد ذلك أمر بغسله وتكفينه ودفن في مقبرته واستقام الملك لتغلق أربعة أعوام وكان عادلا فاضلا

— ذكر مارامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك —

ولما استقر تغلق بدار الملك بعث ولده ليفتح بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقودة) وهي على مسيرة ثلاثة اشهر من مدينة دهلى وبعث معه عسكرا عظيما فيه كبار الامراء مثل الملك تمور (بفتح التاء المعلوة وضم الميم وآخره راء) ومثل الملك تكين (بكسر التاء المعلوة والكاف وآخره نون) ومثل ملك كافور المهردار (بضم الميم) ومثل ملك بيرم (بالباء الموحدة مفتوحة والياء آخر الحروف والراء مفتوحة) وسواهم فلما بلغ الى أرض التلنك اراد المخالفة وكان له نديم من الفقهاء الشعراء يعرف بعيد فامره أن يلقى الى الناس ان السلطان تغلق توفي وظنه أن الناس يبايعونه مسرعين

اذا سمعوا ذلك فلما التقى ذلك الى الناس أنكره الامراء وضرب كل واحد منهم طبله وخالف فلم يبق معه من أحد وأراد قتله فمنعهم منه ملك تمور وقام دونه ففر الى أبيه في عشرة من الفرسان سماهم يارات موافق معناه الاصحاب الموافقون فاعطاه أبوه الاموال والعساكر وأمره بالعود الى تلك فعاد اليها وعلم أبوه بما كان أراد فقتل الفقيه عبيد او أمر بملك كافور المهردار فضرب له عمود في الارض محدود الطرف وركز في عنقه حتى خرج من جنبه طرفه ورأسه الى أسفل وترك على تلك الحال وفر من بقي من الامراء الى السلطان شمس الدين ابن السلطان ناصر الدين ابن السلطان غياث الدين بلبن واستقروا عنده

— ذكر مسير تغلق الى بلاد اللكنوتي وما اتصل بذلك الى وفاته —

وأقام الامراء الهاربون عند السلطان شمس الدين ثم ان شمس الدين توفي وعهد لولده شهاب الدين فجلس مجلس أبيه ثم غلب عليه أخوه الاصغر غياث الدين بهادور بورة ومعناه بالهندية الاسود واستولى على الملك وقتل أخاه قطلوخان وسائر إخوته وفر شهاب الدين وناصر الدين منهم الى تغلق فتجهز معهما بنفسه لقتال أخيهما وخلف ولده محمدا نائبا عنه في ملكه وجد السير الى بلاد اللكنوتي فتغلب عليها واسر سلطانها غياث الدين بهادور وقدم به أسيرا الى حضرته وكان بمدينة دهلي الولي نظام الدين البذاوني ولا يزال محمد شاه ابن السلطان يتردد اليه ويعظم خدامه ويسأله الدعاء وكان ياخذ الشيخ حال تغلب عليه فقال ابن السلطان لخدامه اذا كان الشيخ في حاله التي تغلب عليه فاعلموني بذلك فلما أخذته الحال أعلموه فدخل عليه فلما رآه الشيخ قال وهينالك الملك ثم توفي الشيخ في أيام غيبة السلطان فحمل ابنه محمد نعشه على كاهله فبلغ ذلك اباه فانكره وتوعده وكان قد رابته منه أمور ونقم عليه استكثاره من شراء المماليك واجزاله العطايا واستجلابه قلوب الناس فزاد حنقه عليه وبلغه ان المنجمين زعموا انه لا يدخل مدينة دهلي بعد سفره ذلك فيتوعدهم ولما عاد من سفره وقرب من الحضرة أمر ولده أن يبني له قصرا وهم يسمونه الكشك (بضم الكاف وشين معجم مسكن) على واد هنالك يسمي أفغان بورفينا في ثلاثة أيام وجعل أكثر بنائه بالخشب مرتفعا على الارض قائما على سواري خشب وأحكمه بهندسة تولى النظر فيها الملك زاده المعروف بعد ذلك بخواجة جهان واسمه أحمد بن اياس كبير وزراء السلطان محمد وكان اذ ذاك شحنة العمارة وكانت الحكمة التي اخترعوها فيه انه متى وطئت الفيلة جهة منه وقع ذلك القصر وسقط ونزل السلطان بالقصر وأطعم الناس وتفرقوا واستاذنه ولده في أن يعرض الفيلة بين يديه وهي مزينة فاذن له وحدثني الشيخ ركن الدين

انه كان يومئذ مع السلطان ومعهما ولد السلطان المؤثر لديه محمود فجاء محمد ابن السلطان فقال للشيخ ياخوند هذا وقت العصر انزل فصل قال لى الشيخ فنزلت وأتى بالافيال من جهة واحدة حسبما دبروه فلما وطئتها سقط الكشك على السلطان وولده محمود قال الشيخ فسمعت الضجة فعدت ولم أصل فوجدت الكشك قد سقط فامر ابنه أن يؤتى بالفوس والمساحي للحفر عنه وأشار بالا بطاء فلم يؤت بهما الا وقد غربت الشمس فحفروا ووجدوا السلطان قد حنا ظهره على ولده ليقيه الموت فزعم بعضهم انه أخرج ميتا وزعم بعضهم أنه أخرج حيا فاجهز عليه وحمل ليلا الى مقبرته التي بناها بخارج البلدة المسماة باسمه تغلق أبدا فدفن بها وقد ذكرنا السبب فى بنائه لهذه المدينة وبها كانت خزائن تغلق وقصوره وبها القصر الاعظم الذي جعل قراميده مذهبة فاذا طلعت الشمس كان لها نور عظيم وبصيص يمنع البصر من ادامة النظر اليها واختزن بها الاموال الكثيرة ويذكر انه بنى صهريجا وأفرغ فيه الذهب افراغا فكان قطعة واحدة فصرف جميع ذلك ولده محمد شاه لما ولى وبسبب ما ذكرناه من هندسة الوزير خواجة جهان فى بناء الكشك الذى سقط على تغلق كانت حظوته عند ولده محمد شاه وإيثاره لديه فلم يكن أحد يدانيه فى المنزلة لديه ولا يبلغ مرتبته عنده من الوزراء ولا غيرهم

— ذكر السلطان أبى المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذى قدمنا عليه —

ولما مات السلطان تغلق استولى ابنه محمد على الملك من غير منازع له ولا مخالف عليه وقد قدمنا انه كان اسمه جونة فلما ملك تسمى بمحمد واكتنى بابى المجاهد وكل ما ذكرت من شان سلاطين الهند فهو مما أخبرت به وتلقيته أو معظمه من الشيخ كمال الدين بن البرهان الغزنوى قاضى القضاة وأما أخبار هذا الملك فمعظمها مما شاهدته أيام كونى ببلاده — ذكر وصفه — وهذا الملك أحب الناس فى إسداء العطايا وإراقة الدماء فلا يخلو بابه عن فقير يغني أو حي يقتل وقد شهرت فى الناس حكاياته فى الكرم والشجاعة وحكاياته فى الفتك والبطش بذوى الجنايات وهو أشد الناس مع ذلك تواضعا وأكثرهم اظهارا للعدل والحق وشعائر الدين عنده محفوظة وله اشتداد فى أمر الصلاة والعقوبة على تركها وهو من الملوك الذين اطردت سعادتهم وخرق المعتاد يمن نقيبتهم ولكن الاغلب عليه الكرم وسنذكر من أخباره فى عجائب لم يسمع بمثلها عمن تقدمه وأنا اشهد بالله وملائكته ورسله ان جميع ما أنقله عنه من من الكرم الخارق للعادة حق يقين وكفى بالله شهيدا واعلم ان بعض ما أثره من ذلك لا يسع فى عقل كثير من الناس ويعدونه من قبيل المستحيل عادة ولكنه شىء عاينته وعرفت

Digitized by Birzeit University Library

صحته واخذت بحظ وافر منه لا يسعني الا قول الحق فيه واكثر ذلك ثابت بالتواتر في بلاد المشرق

— ذكر ابوابه ومشوره وترتيب ذلك —

ودار السلطان بدهلي تسمي دارسرى (بفتح السين المهمل والراء) ولها ابواب كثيرة فاما الباب الاول فعليه جملة من الرجال موكلون به ويقعد به أهل الانفار والابواق والصرنايات فاذا جاء أمير او كبير ضربوها ويقولون في ضربهم جاء فلان جاء فلان وكذلك ايضا في البابين الثاني والثالث وبخارج الباب الاول دكاكين يقعد عليها الجلادون وهم الذين يقتلون الناس فان العادة عندهم انه متى أمر السلطان بقتل أحد قتل على باب المشور ويبقى هنالك ثلاثا وبين البابين الاول والثاني دهليز كبير فيه دكاكين مبنية من جهتيه يقعد عليها أهل النوبة من حفاظ الابواب واما الباب الثاني فيقعد عليه البوابون الموكلون به وبينه وبين الباب الثالث دكانة كبيرة يقعد عليها نقيب النقباء وبين يديه عمود ذهب يمسكه بيده وعلى رأسه كلاه من الذهب مجوهرة في أعلاها ريش الطواويس والنقباء بين يديه على رأس كل واحد منهم شاشية مذهبة وفي وسطه منطقة وبيده سوط نصابه من ذهب او فضة ويفضي هذا الباب الثاني الى مشور كبير متسع يقعد به الناس وأما الباب الثالث فعليه دكاكين يقعد فيها كتاب الباب ومن عوائدهم ان لا يدخل على هذا الباب أحد الا من عينه السلطان لذلك ويعين لكل انسان عددا من أصحابه وناسه يدخلون معه وكل من يأتي الى هذا الباب يكتب الكتاب ان فلانا جاء في الساعة الاولى او الثانية او ما بعدها من الساعات الى آخر النهار ويطالع السلطان بذلك بعد العشاء الآخرة ويكتبون أيضا بكل ما يحدث بالباب من الامور وقد عين من أبناء الملوك من يوصل كل ما يكتبونه الى السلطان ومن عوائدهم ايضا انه من غاب عن دار السلطان ثلاثة ايام فصاعدا لعذر او لغير عذر فلا يدخل هذا الباب بعدها الا باذن من السلطان فان كان له عذر من مرض او غيره قدم بين يديه هدية مما يناسب اهداءها الى السلطان وكذلك أيضا القادمون من الاسفار فالفقيه يهدي المصحف والكتاب وشبه الفقير يهدي المصلي والسبحة والمسواك ونحوها والامراء ومن أشبههم يهدون الخيل والجمال والسلاح وهذا الباب الثالث يفضي الى المشور الهائل الفسيح الساحة المسمي هزار اسطون (بفتح الهاء والزاى وألف وراء) ومعني ذلك ألف سارية وهو سوارى من خشب مدهونة عليها سقف خشب منقوشة أبدع نقش يجلس الناس تحتها وبهذا المشور يجلس السلطان الجلوس العام

— ذكر ترتيب جلوسه للناس —

واكثر جلوسه بعد العصر وربما جلس اول النهار وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض

Digitized by Birzeit University Library

فوقها مرتبة ويجعل خلف ظهره مخدة كبيرة وعن يمينه متكا وعن يساره مثل ذلك وقعوده كجلوس الانسان للتشهد في الصلاة وهو جلوس أهل الهند كلهم فاذا جلس وقف أمامه الوزير ووقف الكتاب خلف الوزير وخلفهم الحجاب وكبير الحجاب هرفيروز ملك ابن عم السلطان ونائبه وهو أدنى الحجاب من السلطان ثم يتلوه خاص حاجب ثم يتلوه نائب خاص حاجب ووكيل الدار ونائبه وشرف الحجاب وسيد الحجاب وجماعة تحت ايديهم ثم يتلو الحجاب النقباء وهم نحو مائة وعند جلوس السلطان ينادي الحجاب والنقباء باعلى أصواتهم بسم الله ثم يقف على رأس السلطان الملك الكبير قبوله وبيده المذبة يشرد بها الذباب ويقف مائة من السلحدارية عن يمين السلطان ومثلهم عن يساره بايديهم الدرق والسيوف والقسي ويقف في الميمنة والميسرة بطول المشور قاضي القضاة ويليه خطيب الخطباء ثم سائر القضاة ثم كبار الفقهاء ثم كبار الشرفاء المشايخ ثم اخوة السلطان واصهاره ثم الامراء الكبار ثم كبار الاعزة وهم الغرباء ثم القواد ثم يؤتى بستين فرسا مسرجة ملجمة بجهازات سلطانية فمنها ما هو بشعار الخلافة وهي التي لجمها ودوائرها من الحرير الاسود المذهب ومنها ما يكون ذلك من الحرير الابيض المذهب ولا يركب بذلك غير السلطان فيوقف النصف من هذه الخيل عن اليمين والنصف عن الشمال بحيث يراها السلطان ثم يؤتى بخمسين فيلا مزينة بثياب الحرير والذهب مكسوة أنيابها بالحديد اعدادا للقتل اهل الجرائم وعلى عنق كل فيل فياله وبيده شبه الطبرزين من الحديد يؤدبه به ويقومه لما يراد منه وعلى ظهر كل قيل شبه الصندوق العظيم يسع عشرين من المقاتلة واكثر من ذلك ودونه على حسب ضخامة الفيل وعظم جرمه ويكون في أركان ذلك الصندوق أربعة أعلام مركوزة وتلك الفيلة معلمة أن تخدم السلطان وتحط رؤسها فاذا خدمت قال الحجاب بسم الله باصوات عالية ويوقف ايضا نصفها عن اليمين ونصفها عن الشمال خلف الرجال الواقفين وكل من يأتي من الناس المعينين للوقوف في الميمنة أو الميسرة يخدم عند موقف الحجاب ويقول الحجاب بسم الله ويكون ارتفاع أصواتهم بقدر ارتفاع صوت الذي يخدم فاذا خدم انصرف الى موقفه من الميمنة أو الميسرة لا يتعداه ابدا ومن كان من كفار الهنود يخدم ويقول له الحجاب والنقباء هداك الله ويقف عبيد السلطان من وراء الناس كلهم بايديهم الترسة والسيوف فلا يمكن احد الدخول بينهم الا بين يدي الحجاب القائمين بين يدي السلطان

— ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا اليه —

وان كان بالباب أحد ممن قدم على السلطان بهدية دخل الحجاب الى السلطان على ترتيبهم

يقدمهم أمير حاجب ونائبه خلفه ثم خاص حاجب ونائبه خلفه ثم وكيل الدار ونائبه خلفه ثم سيد الحجاب وشرف الحجاب ويخدمون فى ثلاثة مواضع ويعلمون السلطان بمن فى الباب فاذا أمرهم أن ياتوا به جعلوا الهدية التى ساقها بايدى الرجال يقومون بها امام الناس بحيث يراها السلطان ويستدعي صاحبها فيخدم قبل الوصول الى السلطان ثلاث مرات ثم يخدم عند موقف الحجاب فان كان رجلا كبيرا وقف فى صف أمير حاجب والا وقف خلفه ويخاطبه السلطان بنفسه أو لطف خطاب ويرحب به وان كان ممن يستحق التعظيم فانه يصافحه أو يعانقه ويطلب بعض هديته فتحضر بين يديه فان كانت من السلاح أو الثياب قلبها بيده وأظهر استحسانها جبرا لخاطر مهديها وإيناسا له ورفقا به وخلع عليه وأمر له بمال لغسل رأسه على عادتهم فى ذلك بمقدار ما يستحقه المهدى

— ذكر دخول هدايا عماله اليه —

واذا أتي العمال بالهدايا والاموال المجتمعة من مجابى البلاد صنعوا الاواني من الذهب والفضة مثل الطسوت والاباريق وسواها وصنعوا من الذهب والفضة قطعا شبه الآجر يسمونها الخشت (بكسر الخاء المعجمة وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) ويقف العراشوان وهم عبيد السلطان صفا والهدية بايديهم كل واحد منهم ممسك قطعة ثم يتقدم الفيلة ان كان فى الهدية شيء منها ثم الخيل المسرجة الملجمة ثم البغال ثم الجمال عليها الاموال ولقد رأيت الوزير خواجه جهان قدم هديته ذات يوم حين قدم السلطان من دولة آباد ولقيه بها فى ظاهر مدينة بيانة فادخلت الهدية اليه على هذا الترتيب ورأيت فى جملتها صينية مملوءة باحجار الياقوت وصينية مملوءة باحجار الزمرد وصينية مملوءة باللؤلؤ الفاخر وكان حاجى كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق حاضرا عنده حين ذلك فاعطاه حظا منها وسنذكر ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى

— ذكر خروجه للعيدين وما يتصل بذلك —

واذا كانت ليلة العيد بعث السلطان الى الملوك والخواص وأرباب الدولة والاعزة والكتاب والحجاب والنقباء والقواد والعبيد وأهل الاخبار الجامع التي تعمهم جميعا فاذا كانت صبيحة العيد زينت الفيلة كلها بالحرير والذهب والجواهر ويكون منها ستة عشر فيلا لا يركبها احد انما هي مختصة بركوب السلطان ويرفع عليها ستة عشر شطرا (جترا) من الحرير مرصعة بالجوهر قائمة كل شطر منها ذهب خالص وعلى كل فيل مرتبة حرير مرصعة بالجواهر ويركب السلطان فيلا منها وترفع امامه الغاشية وهي ستارة مرجه وتكون مرصعة بانفس الجواهر ويمشي بين يديه عبيده ومماليكه وكل واحد منهم تكون على رأسه شاشية ذهب وعلى وسطه

منطقة ذهب وبعضهم يرصعها بالجوهر ويمشي بين يديه أيضا النقباء وهم نحو ثلثمائة وعلى رأس كل واحد منهم أقروف ذهب وعلى وسطه منطقة ذهب وفي يده مقرعة نصابها ذهب ويركب قاضي القضاة صدر الجهان كمال الدين الغزنوي وقاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وسائر القضاة وكبار الاعزة من الخراسانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة كل واحد منهم على فيل وجميع الغرباء عندهم يسمون الخراسانيين ويركب المؤذنون ايضا على الفيلة وهم يكبرون ويخرج السلطان من باب القصر على هذا الترتيب والعساكر تنتظره كل أمير بفوجه على حدة معه طبوله واعلامه فيقدم السلطان وامامه من ذكرناه من المشاة وأمامهم القضاة والمؤذنون يذكرون الله تعالى وخلف السلطان مراتبه وهي الاعلام والطبول والابواق والانفار والصرنايات وخلفهم جميع أهل دخلته ثم يتلوهم أخو السلطان مبارك خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن أخ السلطان بهرام خان بمراتبه وعساكره ثم يليه ابن عمه ملك فيروز بمراتبه وعساكره ثم يليه الوزير بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مجير ابن ذى الرجا بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك الكبير قبولة بمراتبه وعساكره وهذا الملك كبير القدر عنده عظيم الجاه كثير المال اخبرني صاحب ديوانه ثقة الملك علاء الدين على المصرى المعروف بابن الشرايشي ان نفقته ونفقة عبيده ومرتباتهم ستة وثلاثون لكافي السنة ثم يليه الملك نكبية بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك بغرة بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك مخلص بمراتبه وعساكره ثم يليه الملك قطب الملك بمراتبه وعساكره وهؤلاء هم الامراء الكبار الذين لا يفارقون السلطان وهم الذين يركبون معه يوم العيد بالمراتب ويركب غيرهم من الامراء دون مراتب وجميع من يركب فى ذلك اليوم يكون مدرعا هو وفرسه وأكثرهم مماليك السلطان فاذا وصل السلطان الى باب المصلى وقف على بابه وأمر بدخول القضاة وكبار الامراء وكبار الاعزة ثم نزل السلطان ويصلى الامام ويخطب فان كان عيد الاضحي أتي السلطان بجمل فنحره برمح يسمونه النيزة (بكسر النون وفتح الزاى) بعد أن يجعل على ثيابه فوطة حرير توقيا من الدم ثم يركب الفيل ويعود الى قصره

— ذكر جلوس يوم العيد وذكر السرير الاعظم والمبخرة العظمي —

ويفرش القصر يوم العيد ويزين بابدع الزينة وتضرب الباركة على المشور كله وهي شبه خيمة عظيمة تقوم على أعمدة ضخام كثيرة وتحفها القباب من كل ناحية ويصنع شبه أشجار من حرير ملون فيها شبه الازهار ويجعل منها ثلاثة صفوف بالمشور ويجعل بين كل شجرتين كرسي ذهب عليه مرتبة مغطاة وينصب السرير الاعظم فى صدر المشور وهو

من الذهب الخالص كله مرصع القوائم بالجواهر وطوله ثلاثة وعشرون شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك وهو منفصل وتجمع قطعه فتتصل وكل قطعة منها يحملها جملة رجال لثقل الذهب وتجعل فوق المرتبة ويرفع الشطر المرصع بالجواهر على رأس السلطان وعند مايصعد على السرير ينادى الحجاب والنقباء باصوات عالية بسم الله ثم يتقدم الناس للسلام فاولهم القضاة والخطباء والعلماء والشرفاء والمشايخ وإخوة السلطان وأقاربه واصهاره ثم الاعزة ثم الوزير ثم أمراء العساكر ثم شيوخ المماليك ثم كبار الاجناد يسلم واحد اثر واحد من غير تزاحم ولا تدافع ومن عوائدهم فى يوم العيد ان كل من بيده قرية ممنع بها عليه يأتى بدنانير ذهب مصرورة فى خرقة مكتوب عليها اسمه فيلقيها فى طست ذهب هنالك فيجتمع منها مال عظيم يعطيه السلطان لمن شاء فاذا فرغ الناس من السلام وضع لهم الطعام على حسب مراتبهم وينصب فى ذلك اليوم المبخرة العظمى وهي شبه برج من خالص الذهب منفصلة فاذا أرادوا اتصالها وصلوها وتحمل القطعة الواحدة منها جملة من الرجال وفى داخلها ثلاثة بيوت يدخل فيها المبخرون يوقدون العود القماري والقاقلى والعنبر الاشهب والجاوى حتى يعم دخانها المشور كله ويكون بايدى الفتيان براميل الذهب والفضة مملوءة بماء الورد وماء الزهر يصبونه على الناس صباوهذا السر بروهذه المبخرة لا يخرجان الا فى العيدين خاصة ويجلس السلطان فى بقية أيام العيد على سرير ذهب دون ذلك وتنصب باركة بعيدة لها ثلاثة أبواب يجلس السلطان في داخلها ويقف على الباب الاول منها عماد الملك سرتيز وعلى الباب الثانى الملك نكبية وعلى الباب الثالث يوسف بغرة ويقف على اليمين امراء المماليك السلحدارية وعن اليسار كذلك ويقف الناس على مراتبهم وشحنة الباركة ملك طغي بيده عصا ذهب وبيد نائبه عصا فضة يرتبان الناس ويسويان الصفوف ويقف الوزير والكتاب خلفه ويقف الحجاب والنقباء ثم يأتى أهل الطرب فاولهم بنات الملوك الكفار من أهل هنود المسبيات في تلك السنة فيغنين ويرقصن ويهبهن السلطان للامراء والاعزة ثم يأتى بعدهن سائر بنات الكفار فيغنين ويرقصن ويهبهن لاخوانه وأقاربه وأصهاره وأبناء الملوك ويكون جلوس السلطان لذلك بعد العصر ثم يجلس فى اليوم الذى بعده بعد العصر أيضا على ذلك الترتيب ويؤتى بالمغنيات فيغنين ويرقصن ويهبهن لامراء المماليك وفى اليوم الثالث يزوج أقاربه وينعم عليهم وفى اليوم الرابع يعتق العبيد وفى اليوم الخامس يعتق الجوارى وفى اليوم السادس يروج العبيد بالجوارى وفى اليوم السابع يعطي الصدقات ويكثر منها

— ذكر ترتيبه اذا قدم من سفره —

Digitized by Birzeit University Library

واذا قدم السلطان من أسفاره زينت الفيلة ورفعت على ستة عشر فيلا منها ستة عشر شطرا منها مزركش ومنها مرصع وحملت امامه الغاشية وهي الستارة المرصعة بالجوهر النفيس وتصنع قباب الخشب مقسومة على طبقات وتكسى بثياب الحرير ويكون فى كل طبقة الجوارى المغنيات عليهن أجمل لباس وأحسن حلية ومنهن رواقص ويحصل في وسط كل قبة حوض كبير مصنوع من الجلود مملوء بماء الجلاب محمولا بالماء يشرب منه جميع الناس من وارد وصادر والدنى والغريب وكل من يشرب منه يعطي التنبول والفوفل ويكون ما بين القباب مفروشا بثياب الحرير يطا عليها مركب السلطان وتزين حيطان الشارع الذى يمر به من باب المدينة الى باب القصر بثياب الحرير ويمشى امامه المشاة من عبيده وهم آلاف وتكون الافواج والعساكر خلفه ورأيته فى بعض قدماته على الحضرة وقد نصبت ثلاث أو أربع من الرعادات الصغار على الفيلة ترمى بالدنانير والدراهم على الناس فيلتقطونها من حين دخوله الى المدينة حتي وصل الى قصره

— ذكر ترتيب الطعام الخاص —

والطعام بدار السلطان على صنفين طعام الخاص وطعام العام فاما الخاص فهو طعام السلطان الذي يأكل منه وعادته أن يأكل فى مجلسه مع الحاضرين ويحضر لذلك الامراء الخواص وأمير حاجب ابن عم السلطان وعماد الملك سرتيز وأمير مجلس ومن شاء السلطان تشريفه أو تكريمه من الاعزة أو كبار الامراء دعاه فاكل معهم وربما أراد أيضا تشريف أحد من الحاضرين فاخذ احدى الصحاف بيده وجعل عليها خبزة ويعطيه اياها فيأخذها المعطى ويجعلها على كفه اليسري ويخدم بيده اليمنى الى الارض وربما بعث من ذلك الطعام الى من هو غائب عن المجلس فيخدم كما يصنع الحاضر ويأكله مع من حضره وقد حضرت مرات لهذا الطعام الخاص فرأيت جملة الذين يحضرون له نحو عشرين رجلا

— ذكر ترتيب الطعام العام —

وأما الطعام العام فيؤتى به من المطبخ وامامه النقباء يصيحون بسم الله ونقيب النقباء امامهم بيده عمود ذهب ونائبه معه بيده عمود فضة فاذا دخلوا من الباب الرابع وسمع من بالمشور أصواتهم قاموا قياما أجمعين ولا يبقى أحد قاعدا الا السلطان وحده فاذا وضع الطعام بالارض اصطفت النقباء صفا ووقف أميرهم امامهم وتكلم بكلام يمدح فيه السلطان ويثنى عليه ثم يخدم ويخدم النقباء لخدمته ويخدم جميع من بالمشور من كبير وصغير وعادتهم انه من سمع كلام نقيب النقباء حين ذلك وقف ان كان ماشيا ولزم موقفه ان كان واقفا ولا

يتحرك أحد ولا ينزحزح عن مقامه حتى يفرغ ذلك الكلام ثم يتكلم أيضا نائبه كلاما نحو ذلك ويخدم ويخدم النقباء وجميع الناس مرة ثانية وحينئذ يجلسون ويكتب كتاب الباب معرفين بحضور الطعام وان كان السلطان قد علم بحضوره ويعطى المكتوب لصبي من ابناء الملوك موكل بذلك فيأتي به الى السلطان فاذا قرأه عين من شاء من كبار الامراء لترتيب الناس واطعامهم وطعامهم الرقاق والشواء والاقراص ذات الجوانب المملوءة بالحلواء والارز والدجاج والسمك وقد ذكرنا ذلك وفسرنا ترتيبهم وعادتهم ان يكون في صدر سماط الطعام القضاة والخطباء والفقهاء والشرفاء والمشايخ ثم أقارب السلطان ثم الامراء الكبار ثم سائر الناس ولا يقعد أحد الا في موضع معين له فلا يكون بينهم تزاحم البتة فاذا جلسوا أتى الشربدارية وهم السقاة بايديهم اوانى الذهب والفضة والنحاس والزجاج مملوءة بالنبات المحلول بالماء فيشربون ذلك قبل الطعام فاذا شربوا قال الحجاب بسم الله ثم يشرعون في الاكل ويجعل امام كل انسان من جميع ما يحتوى عليه السماط ياكل منه وحده ولا ياكل أحد مع أحد في صحفة واحدة فاذا فرغوا من الاكل أتوا بالفقاع في اكواز القصدير فاذا أخذوه قال الحجاب بسم الله ثم يؤتي باطباق التنبول والفوفل فيعطى كل انسان غرفة من الفوفل المهشوم وخمس عشرة ورقة من التنبول بمجموعة مربوطة بخيط حرير أحمر فاذا أخذ الناس التنبول قال الحجاب بسم الله فيقومون جميعا ويخدم الامير المعين للاطعام ويخدمون خدمته ثم ينصرفون وطعامهم مرتان في اليوم احداهما قبل الظهر والاخرى بعد العصر

— ذكر بعض اخباره في الجود والكرم —

وانما أذكر منها ما حضرته وشاهدته وعاينته ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى به شهيدا مع ان الذي احكيه مستفيض متواتر والبلاد التي تقرب من أرض الهند كاليمن وخراسان وفارس مملوءة باخباره يعلمونها حقيقة ولا سيما جوده على الغرباء فانه يفضلهم على اهل الهند ويؤثرهم ويجزل لهم الاحسان ويسبغ عليهم الانعام ويوليهم الخطط الرفيعة ويوليهم المواهب العظيمة ومن إحسانه اليهم أن سماهم الاعزة ومنع من ان يدعوا الغرباء وقال ان الانسان اذا دعى غريبا انكسر خاطره وتغير حاله وساذكر بعضا مما لا يحصى من عطاياه الجزيلة ومواهبه ان شاء الله تعالى

— ذكر عطائه لشهاب الدين الكازروني التاجر وحكايته —

كان شهاب الدين هذا صديقا لملك التجار الكازروني الملقب بيرويز وكان السلطان قد أقطع ملك التجار مدينة كنبايتة ووعده ان يوليه الوزارة فبعث الى صديقه شهاب الدين ليقدم

عليه فاتاه وأعد هدية للسلطان وهي سراجة من الملف المقطوع المزين بورقة الذهب وصيوان مما يناسبها وخباء وتابع وخباء راحة كل ذلك من الملف المزين وبغال كثيرة فلما قدم شهاب الدين بهذه الهدية على صاحبه ملك التجار وجده آخذا في القدوم على الحضرة بما اجتمع عنده من مجابي بلاده وبهدية للسلطان وعلم الوزير خواجه جهان بما وعده به السلطان من ولاية الوزارة فغار من ذلك وقلق بسببه وكانت بلاد كنباية والجزرات قبل تلك المدة في ولاية الوزير ولاهلها تعلق بجانبه وانقطاع اليه وتخدم له واكثرهم كفار وبعضهم عصاة يمتنعون بالجبال فدس الوزير اليهم ان يضربوا على ملك التجار اذا خرج الى الحضرة فلما خرج بالخزائن والاموال ومعه شهاب الدين بهديته نزلوا يوما عند الضحي على عادتهم وتفرقت العساكر ونام اكثرهم فضرب عليهم الكفار في جمع عظيم فقتلوا ملك التجار وسلبوا الاموال والخزائن وهدية شهاب الدين ونجا هو بنفسه وكتب المخبرون الى السلطان بذلك فامر ان يعطي شهاب الدين من مجبي بلاد نهروالة ثلاثين ألف دينار ويعود الى بلاده فعرض عليه ذلك فابى من قبوله وقال ما قصدي الا رؤية السلطان وتقبيل الارض بين يديه فكتبوا الى السلطان بذلك فاعجبه قوله وامر بوصوله الى الحضرة مكرما وصادف يوم دخوله على السلطان يوم دخولنا نحن عليه فخلع علينا جميعا وأمر بانزالنا وأعطى شهاب الدين عطاء جزلا فلما كان بعد ذلك أمر لي السلطان بستة آلاف تنكه كما سنذكره وسال في ذلك اليوم عن شهاب الدين اين هو فقال له بهاء الدين ابن الفلكي ياخوند عالم نميداتم معناه ما ندري ثم قال له شنيدم زحمت دارد (دار) معناه سمعت ان به مرضا فقال له السلطان بروهمين زمان در خزانة يك لك تنكه زر بكري أو بيش أو بيري تادل أوخش (خوش) شود معناه امش الساعة الى الخزانة وخذ منها مائة الف تنكه من الذهب واحملها اليه حتى يبقى خاطره طيبا ففعل ذلك فاعطاه اياها وامر السلطان ان يشترى بها ما أحب من السلع الهندية ولا يشترى أحد من الناس شيئا حتى يتجهز هو وأمر له بثلاثة مراكب مجهزة من آلاتها ومن مرتب البحرية وزادهم ليسافر فيها فسافر ونزل بجزيرة هرمز وبني بها دارا عظيمة رأيتها بعد ذلك ورأيت أيضا شهاب الدين وقد في جميع ما كان عنده وهو بشيراز يستجدي سلطانها أبا اسحاق وهكذا مال هذه البلاد الهندية قلما يخرج أحد به منها الا النادر واذا خرج به ووصل الى غيرها من البلاد بعث الله عليه آفة تفني ما بيده كمثل ما اتفق لشهاب الدين هذا فانه أخذله في الفتنة التي كانت بين ملك هرمز وابني أخيه جميع ما عنده وخرج سليبا من ماله

— ذكر عطائه لشيخ الشيوخ ركن الدين —

وكان السلطان قد بعث هدية الى الخليفة بديار مصر أبي العباس وطلب منه أن يبعث له أمر التقدمة على بلاد الهند والسند اعتقادا منه فى الخلافة فبعث اليه الخليفة أبو العباس ماطلبه مع شيخ الشيوخ بديار مصر ركن الدين فلما قدم عليه بالغ فى اكرامه وأعطاه عطاء جزلا وكان يقوم له متى دخل عليه ويعظمه ثم صرفه وأعطاه أموالا طائلة وفى جملة ما أعطاه جملة من صفائح الخيل ومسامیرها كل ذلك من الذهب الخالص وقال له اذا نزلت من البحر فانصل افراسك بها فتوجه الى كنبايا ليركب البحر منها الى بلاد اليمن فوقعت قضية خروج القاضى جلال الدين وأخذه مال ابن الكولمى فاخذ أيضا ما كان لشيخ الشيوخ وفر بنفسه مع ابن الكولمى الى السلطان فلما رآه السلطان قال له مما زحا مدى كزر (كدزر) برى بادكري (دلربای) صنم خرى زر نيرى وسرنهي معناه جئت لتحمل الذهب تا كله مع الصور الحسان فلا تحمل ذهبا ورأسك تحليه هاهنا قال له ذلك على معنى الانبساط ثم قال له اجمع خاطرك فها أنا سائر الى المخالفين وأعطيك اضعاف ما اخذوه لك ولمغني بعد الانفصال عن بلاد الهند انه وفى له بما وعده وأخلف له جميع ما ضاع منه وانه وصل بذلك الى ديار مصر

— ذكر عطائه للواعظ الترمذي ناصر الدين —

وكان هذا الفقيه الواعظ قدم على السلطان وأقام تحت احسانه مدة عام ثم أحب الرجوع الى وطنه فاذن له فى ذلك ولم يكن سمع كلامه ووعظه فلما خرج السلطان يقصد بلاد المعبر أحب سماعه قبل انصرافه فامر أن يهيأ له منبر من الصندل الابيض المقاصرى وجعلت مسامیره وصفائحه من الذهب وألصق باعلاه حجر ياقوت عظيم وخلع على ناصر الدين خلعة عباسية سوداء مذهبة مرصعة بالجوهر وعمامة مثلها ونصب له المنبر بداخل السراجة وهي افراج وقعد السلطان على سريره والخواص عن يمينه ويساره وأخذ القضاة والفقهاء والامراء مجالسهم فخطب خطبة بليغة ووعظ وذكر ولم يكن فيما فعله طائل لكن سعادته ساعدته فلما نزل عن المنبر قام السلطان اليه وعانقه واركبه على فيل وأمر جميع من حضر أن يمشوا بين يديه وكنت فى جملتهم الى سراجة ضربت له مقابلة سراجة السلطان جميعها من الحرير الملون وصيوانها من الحرير وخباؤها أيضا كذلك فجلس وجلسنا معه وكان بجانب من السراجة أوانى الذهب التى أعطاه السلطان إياها وذلك تنور كبير بحيث يسع فى جوفه الرجل القاعد وقدران اثنان وصحاف لا أذكر عددها وجملة اكواز شركوة وتميسندة ومائدة لها أربعة أرجل ومحمل للكتب كل ذلك من ذهب خالص ورفع

عماد الدين السمناوي وتدين من أوتاد السراجة أحدهما نحاس والآخر مقصدير يوهم بذلك انهما من ذهب وفضة ولم يكونا الا كما ذكرنا وقد كان اعطاه حين قدومه مائة ألف دينار دراهم ومئين من العبيد سرح بعضهم وحمل بعضهم

— ذكر عطائه لعبد العزيز الاردويلي —

وكان عبد العزيز هذا فقيها محدثا قرأ بدمشق على تقي الدين بن تيمية وبرهان الدين بن البركح وجمال الدين المزي وشمس الدين الذهبي وغيرهم ثم قدم علي السلطان فاحسن اليه واكرمه واتفق يوما انه سرد عليه أحاديث في فضل العباس وابنه رضي الله عنهما وشيئا من مآثر الخلفاء أولادهما فاعجب ذلك السلطان لحبه في بني العباس وقبل قدمي الفقيه وأمر أن يؤتي بصينية ذهب فيها الفاتنكه فصبها عليه بيده وقال هي لك مع الصينية وقد ذكرنا هذه الحكاية فيما تقدم

— ذكر عطائه لشمس الدين الاندكاني —

وكان الفقيه شمس الدين الاندكاني حكيما شاعرا مطبوعا فمدح السلطان بقصيدة باللسان الفارسي وكان عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتا فاعطاه لكل بيت منها الف دينار دراهم وهذا عظم مما يحكي عن المتقدمين الذين كانوا يعطون على بيت شعر الف درهم وهو عشر عطاء السلطان

— ذكر عطائه لعضد الدين الشونكاري —

وكان عضد الدين فقيها اماما فاضلا كبير القدر عظيم الصيت شهير الذكر ببلاده فبلغت السلطان أخباره وسمع بمآثره فبعث اليه الى بلده شونكارة عشرة آلاف دينار دراهم ولم يره قط ولا وفد عليه

— ذكر عطائه للقاضي مجد الدين —

ولما بلغه ايضا خبر القاضي العالم الصالح ذي الكرامة الشهيرة مجد الدين قاضي شيراز الذي سطرنا أخباره في السفر الاول وسيمر بعض خبره بعد هذا أيضا بعث اليه الى مدينة شيراز صحبة الشيخ زاده الدمشقي عشرة آلاف دينار دراهم

— ذكر عطائه لبرهان الدين الصاغرجي —

وكان برهان الدين أحد الوعاظ الائمة كثير الايثار باذلا لما يملكه حتى أنه كثيرا ما يأخذ الديون ويؤثر على الناس فبلغ خبره الى السلطان فبعث اليه أربعين ألف دينار وطلب منه أن يصل الى حضرته فقبل الدنانير وقضى دينه منها وتوجه الي بلاد الخطا وأبي أن يصل اليه وقال لا أمضي الى سلطان يقف العلماء بين يديه

— ذكر عطائه لحاجي كاون وحكايته —

وكان حاجي كاون ابن عم السلطان أبي سعيد ملك العراق وكان أخوه موسى ملكا ببعض

Digitized by Birzeit University Library

بلاد العراق فوفد حاجي كاون على السلطان فاكرم مثواه وأعطاه العطاء الجزل ورأيته يوما وقد أتى الوزير خواجه جهان بهديته وكان منها ثلاث صينيات احداها مملوءة يواقيت والاخرى مملوءة زمردا والاخري مملوءة جواهر وكان حاجي كاون حاضرا فأعطاه من ذلك حظا جزيلا ثم انه أعطاه أيضا مالا عريضا ومضى يريد العراق فوجد أخاه قد توفي وولي مكانه سليمان خان فطالب ارث أخيه وادعى الملك وبايعه العساكر وقصد بلاد فارس ونزل بمدينة شونكارة التي بها الامام عضد الدين الذي تقدم ذكره آنفا فلما نزل بخارجها تأخر شيوخها عن الخروج اليه ساعة ثم خرجوا فقال لهم مامنعكم عن تعجيل الخروج الى هبا يعتنا فاعتذروا له فلم يقبل منهم وقال لاهل سلاحه قلنج تخار (جقار) معناه جردوا السيوف فجردوها وضربوا أعناقهم وكانوا جماعة كبيرة فسمع من بجاورهذه المدينة من الامراء بما فعله فغضبوا لذلك وكتبوا الى شمس الدين السمناني وهو ومن الامراء الفقهاء الكبار فاعلموه بما جري على أهل شونكارة وطلبوا منه الاعانة على قتاله فتجرد في عساكره واجتمع أهل البلاد طالبين بثاره من قتله حاجي كاون من المشايخ وضربوا على عسكره ليلا فهزموه وكان هو بقصر المدينة فأحاطوا به فاختفى في بيت الطهارة فعثروا عليه وقطعوا رأسه وبعثوا به الى سليمان خان وفرقوا اعضاءه على البلاد تشفيا منه

ذكر قدوم ابن الخليفة عليه واخباره

وكان الامير غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز بن الخليفة المستنصر بالله العباسي البغدادي قد وفد على السلطان علاء الدين طرمشيرين ملك ماوراء النهر فأكرمه وأعطاه الزاوية التي على قبر قثم بن العباس رضي الله عنهما واستوطن بها أعواما ثم لما سمع بمحبة السلطان في بني العباس وقيامه بدعوتهم أحب القدوم عليه وبعث له برسولين أحدهما صاحبه القديم محمد بن أبي الشرق الحرباوي والثاني محمد الهمداني الصوفي فقدما على السلطان وكان ناصر الدين الترمذي الذي تقدم ذكره قد لقي غياث الدين ببغداد وشهد لديه البغداديون بصحة نسبه فشهد هو عند السلطان بذلك فلما وصل رسولاه الى السلطان أعطاهما خمسة آلاف دينار وبعث معهما ثلاثين ألف دينار الى غياث الدين ليتزود بها اليه وكتب له كتابا بخط يده يعظمه فيه ويسأل منه القدوم عليه فلما وصله الكتاب رحل اليه فلما وصل الى بلاد السند وكتب المخبرون بقدومه بعث السلطان من يستقبله على العادة ثم لما وصل الى سرستي بعث أيضا لاستقباله صدر الجهان قاضي القضاة كمال الدين الغزنوي وجماعة من الفقهاء ثم بعث الامراء لاستقباله فلما نزل

Digitized by Birzeit University Library

بمسعود آباد خارج الحضرة خرج السلطان بنفسه لاستقباله فلما التقيا ترجل غياث الدين فترجل له السلطان وخدم فخدم له السلطان وكان قد استصحب هدية فى جملتها ثياب فأخذ السلطان أحد الاثواب وجعله على كتفه وخدم كما يفعل الناس معه ثم قدمت الخيل فاخذ السلطان أحدها بيده وقدمه له وحلف أن يركب وأمسك بركابه حتي ركب ثم ركب السلطان وسايره والشطر يظلهما معا وأخذ التنبول بيده وأعطاه اياه وهذا أعظم ما أكرمه به فانه لا يفعله مع أحد وقال له لولا انى بايعت الخليفة أبا العباس لبايعتك فقال له غياث الدين وأنا أيضا على تلك البيعة وقال له غياث الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليما من أحيا أرضا مواتا فهى له وأنت احييتنا فجاوبه السلطان بأ لطف جواب وابره ولما وصلا الى السراجة المعدة لنزول السلطان انزله فيها وضرب للسلطان غيرها وباتا تلك الليلة بخارج الحضرة فلما كان بالغد دخلا الى دار الملك وانزله بالمدينة المعروفة بسيرى وبدار الخلافة ايضا فى القصر الذي بناه علاء الدين الخلجى وابنه قطب الدين وأمر السلطان جميع الامراء أن يمضوا معه اليه وأعد له فيه جميع ما يحتاج اليه من أواني الذهب والفضة حتى كان من جملتها مغتسل يغتسل فيه من ذهب وبعث له أربعمائة ألف دينار لغسل رأسه على العادة وبعث له جملة من الفتيان والخدم والجواري وعين له عن نفقته فى كل يوم ثلاثمائة دينار وبعث له زيادة اليها عدداً من الموائد بالطعام الخاص وأعطاه جميع مدينة سيرى اقطاعا وجميع ما احتوت عليه من الدور وما يتصل بها من بساتين المخزن وأرضه واعطاه مائة قرية وأعطاه حكم البلاد الشرقية المضافة لدهلى واعطاه ثلاثين بغلة بالسروج المذهبة ويكون علفها من المخزن وأمره ان لا ينزل عن دابته اذا أتى دار السلطان الا في موضع خاص لا يدخله احد راكبا سوي السلطان وأمر الناس جميعا من كبير وصغير أن يخدموا له كما يخدمون للسلطان واذا دخل على السلطان ينزل له عن سريره وان كان على الكرسى قام قائما وخدم كل واحد منهما لصاحبه ويجلس مع السلطان علي بساط واحد واذا قام قام السلطان لقيامه وخدم كل واحد منهما لصاحبه واذا انصرف الى خارج المجلس جعل له بساط يقعد عليه ماشاء ثم ينصرف يفعل هذا مرتين في اليوم

— حكاية من تعظيمه إياه —

وفى اثناء مقامه بدهلى قدم الوزير من بلاد بنجالة فأمر السلطان كبار الامراء ان يخرجوا الى استقباله ثم خرج بنفسه الى استقباله وعظمه تعظيما كثيراً وصنعت القباب بالمدينة كما تصنع للسلطان اذا قدم وخرج ابن الخليفة للقائه ايضا والفقهاء والقضاة والاعيان فلما

عاد السلطان لقصره قال للوزير امض الى دار المخدوم زاده وبذلك يدعوه ومعنى ذلك ابن المخدوم فسار الوزير اليه واهدى له الفي تنكة من الذهب وأتوا بها كثيرة وحضر الامير قبولة وغيره من كبار الامراء وحضرت انا كذلك

— حكاية نحوها —

وقد على السلطان ملك غزنة المسمى بهرام وكان بينه وبين ابن الخليفة عداوة قديمة فامر السلطان بانزاله ببعض دور مدينة سيري التي لابن الخليفة وأمر أن يبني له بهادار فبلغ ذلك ابن الخليفة ففضب منه ومضي الى دار السلطان فجلس على البساط الذي عادته الجلوس عليه وبعث الى الوزير فقال له سلم على خوندعالم وقل له ان جميع ما أعطانيه هو بمنزلي لم أتصرف في شيء منه بل زاد عندي ونما وأنا لا أقيم معكم وقام وانصرف فسأل الوزير بعض أصحابه عن سبب هذا فاعلمه ان سببه أمر السلطان ببناء الدار لملك غزنة في مدينة سيري فدخل الوزير على السلطان فاعلمه بذلك فركب من حينه في عشرة من ناسه وأتى منزل ابن الخليفة فاستاذن له ونزل عن فرسه خارج القصر حيث ينزل الناس فتلقاه واعتذر له فقبل عذره وقال له السلطان والله ما أعلم انك راض عني حتي تضع قدمك على عنقي فقال له هذا مالا أفعله ولو قتلت فقال له السلطان وحق رأسي لا بد لك من ذلك ثم وضع رأسه في الارض وأخذ الملك الكبير قبولة رجل ابن الخليفة بيده فوضعها علي عنق السلطان ثم قام وقال الآن علمت انك راض علي وطاب قلبي وهذه حكاية غريبة لم يسمع بمثلها عن ملك ولقد حضرته يوم عيد وقد جاءه الملك الكبير بشلاث خلع من عند السلطان مفرجة قد جعل مكان عقد الحرير التي تعلق بها حبات جوهر قدر البندق الكبير وقام الملك الكبير ببابه حتي نزل من قصره فكساه اياها والذي أعطاه هو مالا يحصره العد ولا يحيط به الحد وابن الخليفة مع ذلك كله أبخل خلق الله تعالى وله في البخل أخبار عجيبه يعجب منها سامعها وكانه كان من البخل بمنزلة السلطان من الكرم ولنذكر بعض أخباره في ذلك

— حكاية من بخل ابن الخليفة —

وكانت بيني وبينه مودة وكنت كثير التردد الى منزله وعنده تركت ولدا لي سميته أحمد لما سافرت ولا أدري ما فعل الله بهما فقلت له يوما لم تاكل وحدك ولا تجمع أصحابك على الطعام فقال لي لا أستطيع أن أنظر اليهم على كثرتهم وهم يأكلون طعامي فكان يأكل وحده ويعطي صاحبه محمد بن أبي الشرف من الطعام لمن أحب ويتصرف في باقيه وكنت أتردد اليه فاري دهليز قصره الذي يسكن به مظلما لا سراج به ورأيته مرارا يجمع الاعواد الصغار من الحطب بداخل بستانه وقد ملأ منها مخازن فكلمته في ذلك فقال

لي يحتاج اليها وكان يخدم أصحابه ومما ليكه وفتيانه في خدمة البستان وبنائه ويقول لا أرضى أن يأكلوا طعامي وهم لا يخدمون وكان على مرة دين فطلبت به فقال لي في بعض الايام والله لقد هممت أن أؤدي عنك ديني فلم تسمح نفسي بذلك ولا ساعدتني عليه — حكاية — حدثني مرة قال خرجت عن بغداد وأنا رابع أربعة أحدهم محمد بن أبي الشرف صاحبه ونحن على أقدامنا ولا زاد عندنا فنزلنا على عين ماء ببعض القرى فوجد أحدنا في العين درهما فقلنا وما نصنع بدرهم فاتفقنا على أن نشتري به خبزا فبعثنا أحدنا لشرائه فأتى الخباز بتلك القرية أن يبيع الخبز وحده وانما يبيع خبزا بقيراط وتبنا بقيراط فاشترى منه الخبز والتبن فطرحنا التبن اذلالا دابة لنا تاكله وقسمنا الخبز لقمة لقمة وقد انتهى حالي اليوم الى ما تراه فقلت له ينبغي لك أن تحمد الله على ما أولاك وتؤثر الفقراء والمساكين بالتصدق فقال لا أستطيع ذلك ولم أره قط يجود بشيء ولا يفعل معروفا ونعوذ بالله من الشح — حكاية — كنت يوما ببغداد بعد عودتي من بلاد الهند وأنا قاعد على باب المدرسة المستنصرية التي بناها جده أمير المؤمنين المستنصر رضي الله عنه فرأيت شابا ضعيف الحال يشتد خلف رجل خارج عن المدرسة فقال لي بعض الطلبة هذا الشاب الذي تراه هو ابن الامير محمد حفيد الخليفة المستنصر الذي ببلاد الهند فدعوته فقلت له اني قدمت من بلاد الهند واني أعرفك بخبر أبيك فقال قد جاءني خبره في هذه الايام ومضى يشتد خلف الرجل فسألت عن الرجل فقيل لي هو الناظر في الحبس وهذا الشاب هو امام ببعض المساجد وله على ذلك أجر دون درهم واحد في اليوم وهو يطلب اجرته من الرجل فطال عجبي منه والله لو بعث اليه جوهرة من الجواهر التي في الخلع الواصلة اليه من السلطان لأغناه بها ونعوذ بالله من مثل هذه الحال — ذكر ما أعطاه السلطان للامير سيف الدين غدا بن هبة الله بن مهنى أمير عرب الشام — ولما قدم هذا الامير على السلطان أكرم مثواه وانزله بقصر السلطان جلال الدين داخل مدينة دهلي ويعرف بكشك لعل معناه القصر الاحمر وهو قصر عظيم فيه مشور كبير جدا ودهليز هائل على بابه قبة تشرف على هذا المشور وعلى المشور الثاني الذي يدخل منه الى القصر وكان السلطان جلال الدين يقعد بها ويلعب الكرة بين يديه في هذا المشور وقد دخلت هذا القصر عند نزوله به فرأيته مملوءا أثاثا وفرشا وبسطا وغيرها وذلك كله متمزق لا منتفع فيه فان عادتهم بالهند أن يتركوا قصر السلطان اذا مات بجميع ما فيه لا يتعرضون له حتى يتولى بعده قصرا لنفسه ولما دخلته طفت به وصعدت الى أعلاه فكانت لي فيه عبرة نشأت عنها عبرة وكان معي الفقيه الطيب الاديب جمال الدين المغربي الغرناطي الاصل البجائي

المولد مستوطن بلاد الهند قدم مع أبيه وله بها أولاد فانشدني عند ما عاينا ه (خفيف)

وسلاطينهم سل الطين عنهم * فالرؤوس العظام صارت عظاما

وبهذا القصر كانت وليمة عرسه كما ذكره وكان السلطان شديد المحبة في العرب مؤثرا لهم معترفا بفضائلهم فلما وصله هذا الامير أجزل له العطاء واحسن اليه احسانا عظيما واعطاه مرة وقد قدمت عليه هدية أعظم ملك البايزيدي من بلاد منكبور أحد عشر فرسا من عتاق الخيل وأعطاه مرة أخرى عشرة من الخيل مسرجة بالسروج المذهبة عليها اللجم المذهبة ثم زوجه بعد ذلك باخته فيروز خوندة

— ذكر تزويج الامير سيف الدين باخت السلطان —

ولما أمر السلطان بتزويج اخته للامير غداعين للقيام بشان الوليمة ونفقاتها الملك فتح الله المعروف بشونويس (بشين معجم مفتوح وواوين أولهما مسكن والآخر مكسور بينهما نون آخره سين مهمل) وعينى للملازمة الامير غدا والكون معه في تلك الايام فاتى الملك فتح الله بالصيوانات فظلل بها المشورين بالقصر الاحمر المذكور وضرب في كل واحد منهما قبة ضخمة جدا وفرش ذلك بالفرش الحسان وأتى شمس الدين التبرزي أمير المطربين ومعه الرجال المغنون والنساء المغنيات والرواقص وكلهن مما ليك السلطان واحضر الطباخين والخبازين والشوائين والحلوانيين والشربداريه والتنبول داران وذبحت الانعام والطيور وأقاموا يطعمون الناس خمسة عشر يوما ويحضر الامراء الكبار والاعزة ليلا ونهارا فلما كان قبل ليلة الزفاف بليلتين جاء الخواتين من دار السلطان ليلا الى هذا القصر فزينه وفرشته باحسن الفرش واستحضر الامير سيف الدين وكان عريبا غريبا لا قرابة له ففقن به واجلسنه على مرتبة معينة له وكان السلطان قد أمر ان تكون ربيبته أم أخيه مبارك خان مقام أم الامير غدا وان تكون امرأة أخرى من الخوانين مقام أخته وأخرى مقام عمته وأخرى مقام خالته حتى يكون كانه بين أهله ولما أجلسنه على المرتبة جعلن له الحناء في يديه ورجليه وأقام باقيهن على رأسه يغنين ويرقصن وانصرفن الى قصر الزفاف وأقام هو مع خواص أصحابه وعين السلطان جماعة من الامراء يكونون من جهته وجماعة يكونون من جهة الزوجة وعادتهم ان تقف الجماعة التي من جهة الزوجة على باب الموضع الذي تكون به جلوتها على زوجها ويأتي الزوج بجماعته فلا يدخلون إلا ان غلبوا أصحاب الزوجة أو يعطونهم الآلاف من الدنانير ان لم يقدروا عليهم ولما كان بعد المغرب أتي اليه بخلعة حرير زرقاء مزركشة مرصعة قد غلبت الجواهر عليها فلا يظهر لونها مما عليها من الجوهر وبشاشية مثل

ذلك ولم أر قط خلعة اجمل من هذه الخلعة وقد رأيت ما خلعه السلطان على سائر اصهاره مثل ابن ملك الملوك عماد الدين السمناني وابن ملك العلماء وابن شيخ الاسلام وابن صدر جهان البخاري فلم يكن فيها مثل هذه ثم ركب الامير سيف الدين في اصحابه وعبيده وفي يد كل واحد منهم عصى قد اعدها وصنعوا شبه اكليل من الياسمين والنسرين وريبول وله رفرف يعطي وجه المتكل به وصدره واتوا به الامير ليجعله على رأسه فابى من ذلك وكان من عرب البادية لا عهد له بأمور الملك والحضر فحلته وحلفت عليه حتى جعله على رأسه واتى باب الصرف ويسمونه باب الحرم وعليه جماعة الزوجة فحمل عليهم باصحابه حملة عربية وصرعوا كل من عارضهم فغلبوا عليهم ولم يكن لجماعة الزوجة من ثبات ولم يبلغ ذلك السلطان فاعجبه فعله ودخل الى المشور وقد جعلت العروس فوق منبر عال مزين بالديباج مرصع بالجوهر والمشور ملآن بالنساء والمطربات قد أحضرن أنواع الآلات المطربة وكلهن وقوف على قدم إجلالا له وتعظيما فدخل بفرسه حتى قرب من المنبر فنزل وخدم عند أول درجة منه وقامت العروس قائمة حتى صعد فاعطته التنبول بيدها فاخذه وجلس تحت الدرجة التي وقفت بها ونثرت دنانير الذهب على رؤوس الحاضرين من أصحابه ولقطتها النساء والمغنيات يغنين حينئذ والاطبال والابواق والانفار تضرب خارج الباب ثم قام الامير وأخذ بيد زوجته ونزل وهي تتبعه فركب فرسه يطأ به الفرش والبسط ونثرت الدنانير عليه وعلى أصحابه وجعلت العروس في محفة وحملها العبيد على أعناقهم الى قصره والخواتين بين يديها راكبات وغيرهن من النساء ماشيات واذا مروا بدار أمير أو كبير خرج اليهم ونثر عليهم الدنانير والدراهم على قدر همته حتى أوصلوها الى قصره ولما كان بالغد بعثت العروس الى جميع اصحاب زوجها الثياب والدنانير والدراهم واعطي السلطان لكل واحد منهم فرسا مسرجا ملجما وبدرة دراهم من الف دينار الى مائتي دينار واعطي الملك فتح الله للخواتين ثياب الحرير المنوعة والبدر وكذلك لاهل الطرب وعادتهم ببلاد الهند أن لا يعطي أحد شيئا لاهل الطرب انما يعطيهم صاحب العرس واطعم الناس جميعا ذلك اليوم وانقضى العرس وأمر السلطان أن يعطى للامير غدا بلاد المالوة والجزات وكنبايتة ونهروالة وجعل فتح الله المذكور نائبا عنه عليها وعظمه تعظيما شديدا وكان عربيا جافيا فلم يقدر قدر ذلك وغلب عليه جفاء البادية فاداه ذلك الى النكبة بعد عشرين ليلة من زفافه

— ذكر سجن الامير غدا —

ولما كان بعد عشرين يوما من زفافه اتفق انه وصل الى دار السلطان فاراد الدخول فمنعه

أمير البرد (البرده) داريه وهم الخواص من البوابين فلم يسمع منه وأراد التقحم فامسك البواب بدبوقته وهي الضفيرة ورده فضربه الامير بعصى كانت هنالك حتى أدماه وكان هذا المضروب من كبار الامراء يعرف أبوه بقاضي غزنة وهو من ذرية السلطان محمود بن سبكتكين والسلطان يخاطبه بالادب ويخاطب ابنه هذا بالاخ فدخل على السلطان والدم على ثيابه فاخبره بما صنع الامير غدا ففكر السلطان هنيهة ثم قال له القاضي يفصل بينكما وتلك جريمة لا يغفرها السلطان لاحد من ناسه ولا بد من الموت عليها وانما احتمله لغربته وكان القاضي كمال الدين بالمشور فامر السلطان الملك تتر أن يقف معهما عند القاضي وكان تتر حاجا مجاورا يحسن العربية فحضر معهما وقال للامير انت ضربته او قل لا لقصد أن يعلمه الحجة وكان سيف الدين جاهلا مغترا فقال نعم انا ضربته وأتى والد المضروب فرام الاصلاح بينهما فلم يقبل سيف الدين فامر القاضي بسجنه تلك الليلة فوالله ما بعثت له زوجته فراشا ينام عليه ولا سالت عنه خوفا من السلطان وخاف اصحابه فودعوا أموالهم واردت زيارته بالسجن فلقيني بعض الامراء وفهم عني اني أريد زيارته فقال لي او نسيب وذكرني بقضية اتفقت لي في زيارة الشيخ شهاب الدين بن شيخ الجام وكيف أراد السلطان قتلي على ذلك حسبما يقع ذكره فرجعت ولم ازره وتخلص الامير غدا عند الظهر من سجنه فاظهر السلطان اعماله وأضرب عما كان أمره بولايته وأراد نفيه وكان للسلطان صهر يسمى بمغيث بن ملك الملوك وكانت اخت السلطان تشكوه لاخيها الى ان ماتت فذكر جواريها انها ماتت بسبب قهره لها وكان في نسبه مغمز فكتب السلطان بخطه يجلي اللاقيط بعنيه ثم كتب ويجلي موش خوار معناه آكل الفيران يعني بذلك الامير غدا لان عرب البادية يأكلون اليربوع وهو شبه الفار وأمر باخراجهما فجاءه النقباء ليخرجوه فاراد دخول داره ووداع اهله فترادف النقباء في طلبه فخرج باكيا وتوجهت حين ذلك الى دار السلطان فبت بها فسالني عن مبيتي بعض الامراء فقلت له جئت لاتكلم في الامير سيف الدين حتى يرد ولا ينفى فقال لا يكون ذلك فقلت له والله لا ابيتن بدار السلطان ولو بلغ مبيتي مائة ليلة حتى يرد فبلغ ذلك السلطان فامر برده وامره ان يكون في خدمة الامير ملك قبولة اللاهوري فاقام أربعة اعوام في خدمته يركب لركوبه ويسافر لسفره حتى تادب وتهذب ثم أعاده السلطان الى ما كان عليه اولا واقطعه البلاد وقدمه على العساكر ورفع قدره

(ذكر تزويج السلطان بنتي وزيره لابني خداوندزاده قوام الدين الذي قدم معنا عليه)

ولما قدم خداوندزاده أعطاه السلطان عطاء جزلا واحسن اليه احسانا عظيما وبالغ في

اكرامه ثم زوج ولديه في بنتي الوزير خواجه جهان وكان الوزير اذذاك غائبا فاتي السلطان الي داره ليلا وحضر عقد النكاح كانه نائب عن الوزير ووقف حتي قرأ قاضي القضاة الصداق والقضاة والامراء والمشايخ قعودوا خذ السلطان بيده الاثواب والبدر فجعلها بين يدى القاضي وولدى خداوندزاده وقام الامراء وابوان يجعل السلطان ذلك بين ايديهم بنفسه فامرهم بالجلوس وامر بعض كبار الامراء ان يقوم مقامه وانصرف

— حكاية في تواضع السلطان وانصافه —

حكاية ادعى عليه رجل من كبار الهنود انه قتل اخاه من غير موجب ودعاه الى القاضي فمضى على قدميه ولا سلاح معه الى مجلس القاضي فسلم وخدم وكان قد أمر القاضي قبل ذلك انه اذا جاءه الى مجلسه فلا يقوم له ولا يتحرك فصعد الى المجلس ووقف بين يدى القاضي فحكم عليه ان يرضي خصمه من دم أخيه فارضاه — حكاية مثلها —

حكاية وادعى على السلطان مرة رجل من المسلمين انه له قبله حقا ماليا فتخاصما فى ذلك عند القاضي فتوجه الحكم على السلطان باعطاء المال فاعطاه — حكاية مثلها —

حكاية وادعى عليه صبي من أبناء الملوك انه ضربه من غير موجب ورفعه الي القاضي فتوجه الحكم عليه أن يرضيه بالمال ان قبل ذلك والا امكنه من القصاص فشاهدته يوما وقد عاد لمجلسه واستحضر الصبي وأعطاه عصا وقال له وحق رأسي لتضربني كما ضربتك فاخذ الصبي العصا وضربه بها احدي وعشرين ضربة حتى رأيت الكلاء (الكلاه) قد طارت عن رأسه

— ذكر اشتداده فى اقامة الصلاة —

وكان السلطان شديدا فى اقامة الصلاة آمرا بملازمتها فى الجماعات يعاقب على تركها أشد العقاب ولقد قتل فى يوم واحد تسعة نفر على تركها كان أحدهم مغنيا وكان يبعث الرجال الموكلين بذلك الى الاسواق فمن وجد بها عند اقامة الصلاة عوقب حتى انتهي الى عقاب الستائر بين الذين يمسكون دواب الخدام علي باب المشور اذا ضيعوا الصلاة وأمر ان يطلب الناس بعلم فرائض الوضوء والصلاة وشروط الاسلام فكانوا يسالون عن ذلك فمن لم يحسنه عوقب وصار الناس يتدارسون ذلك بالمشور والاسواق ويكتبونه

— ذكر اشتداده فى اقامة أحكام الشرع —

وكان شديدا فى أقامة الشرع ومما فعل فى ذلك ان أمر اخاه مبارك خان أن يكون قعوده بالمشور مع قاضي القضاة كمال الدين فى قبة مرتفعة هنالك مفروشة بالبسط وللقاضي بها مرتبة تحف بها المخاد كمرتبة السلطان ويقعد اخو السلطان عن يمينه فمن كان عليه حق من

Digitized by Birzeit University Library

كبار الامراء وامتنع من ادائه لصاحبه يحضره رجال أخي السلطان عند القاضي لينصف منه

— ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لانصاف المظلومين —

ولما كان في سنة احدي وأربعين أمر السلطان برفع المكوس عن بلاده وأن لا يؤخذ من الناس الا الزكاة والعشر خاصة وصار يجلس بنفسه للنظر في المظالم في كل يوم اثنين وخميس برحبة امام المشور ولا يقف بين يديه في ذلك اليوم الا أمير حاجب وخاص حاجب وسيد الحجاب و شرف الحجاب لا غير ولا يمنع أحد ممن أراد الشكوى من الوقوف بين يديه وعين أربعة من كبار الامراء يجلسون في الابواب الاربعة من المشور لاخذ القصص من المشتكين والرابع منهم هو ابن عمه ملك فيروز فان أخذ صاحب الباب الاول الرفع من الشاكي فحسن والا أخذه الثاني أو الثالث أو الرابع وان لم يأخذوه منه مضى به الى صدر الجهان قاضي الممالك فان أخذه منه والا شكى الى السلطان فان صح عنده أنه مضي به الى أحد منهم فلم يأخذه منه أدبه وكل ما يجتمع من القصص في سائر الايام يطالع به السلطان بعد العشاء الآخرة

— ذكر اطعامه في الغلاء —

ولما استولى القحط على بلاد الهند والسند واشتد الغلاء حتي بلغ من القمح الي ستة دنانير أمر السلطان أن يعطى لجميع أهل دهلي نفقة ستة أشهر من المخزن بحساب رطل ونصف من ارطال المغرب لكل انسان في اليوم صغير أو كبير حر أو عبد وخرج الفقهاء والقضاة يكتبون الازمة باهل الحارات ويحضرون الناس ويعطى لكل واحد عولة ستة أشهر يقتات بها

— ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من افعاله —

وكان على ما قدمنا من تواضعه وانصافه ورفقه بالمساكين وكرمه الخارق للعادة كثير التجاسر على اراقة الدماء لا يخلو بابه عن مقتول الا في النادر وكنت كثيرا ما أرى الناس يقتلون على بابه ويطرحون هنالك ولقد جئت يوما فنفر بي الفرس ونظرت الى قطعة بيضاء في الارض فقلت ما هذه فقال بعض أصحابي هي صدر رجل قطع ثلاث قطع وكان يعاقب على الصغيرة والكبيرة ولا يحترم أحدا من أهل العلم والصلاح والشرف وفي كل يوم يرد على المشور من المسلسلين والمغلولين والمقيدين مؤون فمن كان للقتل قتل أو للعذاب عذب أو للضرب ضرب وعادته أن يؤتى كل يوم بجميع من في سجنه من الناس الى المشور ما عدا يوم الجمعة فانهم لا يخرجون فيه وهو يوم راحتهم يتنظفون فيه ويستريحون أعاذنا الله من البلاء

— ذكر قتله لاخيه —

وكان له أخ اسمه مسعود خان وأمه بنت السلطان علاء الدين وكان من أجمل صورة رأيتها

Digitized by Birzeit University Library

فى الدنيا فاتهمه بالقيام عليه وساله عن ذلك فاقر خوفا من العذاب فانه من أنكر ما يدعيه عليه السلطان من مثل ذلك يعذب فيرى الناس ان القتل أهون عليهم من العذاب فامر به فضربت عنقه فى وسط السوق وبقى مطروحا هنالك ثلاثة أيام على عادتهم وكانت أم هذا المقتول قد رجمت فى ذلك الموضع قبل ذلك بسنتين لاعترافها بالزنا فرجمها القاضى كمال الدين

— ذكر قتله لثلاثمائة وخمسين رجلا فى ساعة واحدة —

وكان مرة عين حصة من العسكر تتوجه مع الملك يوسف بغرة الى قتال الكفار ببعض الجبال المتصلة بحوز دهلى فخرج يوسف وخرج معه معظم العسكر وتخلف قوم منهم فكتب يوسف الى السلطان يعلمه بذلك فامر أن يطاف بالمدينة ويقبض على من وجد من أولائك المتخلفين ففعل ذلك وقبض على ثلاثمائة وخمسين منهم فامر بقتلهم أجمعين فقتلوا

— ذكر تعذيب للشيخ شهاب الدين وقتله —

وكان الشيخ شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراسانى الذى تنسب مدينة الجام بخراسان الى جده حسبما قصصنا ذلك من كبار المشايخ الصلحاء الفضلاء وكان يواصل أربعة عشر يوما وكان السلطان قطب الدين وتغلق يعظمانه ويزورانه ويتبركان به فلما ولى السلطان محمد أراد أن يخدم الشيخ فى بعض خدمته فان عادته أن يخدم الفقهاء والمشايخ والصلحاء محتجا ان الصدر الاول رضى الله عنهم لم يكونوا يستعملون إلا أهل العلم والصلاح فامتنع الشيخ شهاب الدين من الخدمة وشافهه السلطان بذلك فى مجلسه العام فاظهر الاباية والامتناع ففضب السلطان من ذلك وأمر الشيخ الفقيه المعظم ضياء الدين السمنانى أن ينتف لحيته فابى ضياء الدين من ذلك وقال لا أفعل هذا فامر السلطان بنتف لحية كل واحد منهما فانتفت ونفى ضياء الدين الى بلاد التلنك ثم ولاه بعد مدة قضاء ورنكل فمات بها ونفى شهاب الدين الى دولة آباد فاقام بها سبعة أعوام ثم بعث عنه فاكرمه وعظمه وجعله على ديوان المستخرج وهو ديوان بقايا العمال يستخرجها منهم بالضرب والتنكيل ثم زاد فى تعظيمه وأمر الامراء أن يأتوا للسلام عليه ويمتثلوا أقواله ولم يكن أحد فى دار السلطان فوقه ولما انتقل السلطان الى السكنى على نهر الكنك وبنى هنالك القصر المعروف بسرك دوار معناه شبه الجنة وأمر الناس بالبناء هنالك طلب منه الشيخ شهاب الدين أن يأذن له فى الاقامة بالحضرة فاذن له الى أرض موات على مسافة ستة أميال من دهلى فحفر بها كهفا كبيرا صنع فى جوفه البيوت والمخازن والفرن والحمام وجلب الماء من نهر جون وعمر تلك الارض وجمع مالا كثيرا من مستغلها لانها كانت السنون قاحطة وأقام هنالك عامين ونصف عام مدة مغيب السلطان وكان عبيده يخدمون تلك

الارض نهارا ويدخلون الغار ليلا ويستدونه على انفسهم وانعامهم خوف سراق الكفار لانهم فى جبل منيع هنالك ولما عاد السلطان الى حضرته استقبله الشيخ والقيه على سبعة أميال منها فعظمه السلطان وعانقه عند لقائه وعاد الى غاره ثم بعث عنه بعد ايام فامتنع من اتيانه فبعث اليه مخلص الملك النذر باري وكان من كبراء الملوك فتلطف له فى القول وحذره بطش السلطان فقال له لا أخدم ظالما ابدا فعاد مخلص الملك الى السلطان فاخبره بذلك فامر ان ياتى به فاتي به فقال له انت القائل انى ظالم فقال نعم انت ظالم ومن ظلمك كذا وكذا وعدد أمورا منها تخريبه لمدينة دهلى واخراجه اهلها فاخذ السلطان سيفه ودفعه لصدر الجهان وقال يثبت هذا انى ظالم واقطع عنقى بهذا السيف فقال له شهاب الدين ومن يربد ان يشهد بذلك فيقتل ولكن انت تعرف ظلم نفسك وامر بتسليمه للملك نكبية رأس الدوبدارية يقيده باربعة قيود وغل يديه وأقام كذلك اربعة عشر يوما مواصلا لا يأكل ولا يشرب وفى كل يوم منها يؤتى به الى المشور ويجمع الفقهاء والمشايخ ويقولون له ارجع عن قولك فيقول لا أرجع عنه واريد ان اكون فى زمرة الشهداء فلما كان اليوم الرابع عشر بعث اليه السلطان بطعام مع مخلص الملك فابى ان ياكل وقال قد رفع رزقى من الارض ارجع بطعامك اليه فلما اخبر بذلك السلطان امر عند ذلك ان يطعم الشيخ خمسة استار (اساتير) من العذرة وهى رطلان ونصف من ارطال المغرب فاخذ ذلك الموكلون بمثل هذه الامور وهم طائفة من كفار الهنود فمدوه على ظهر وفتحوا فمه بالكلبتين وحملوا العذرة بالماء وسقوه ذلك وفى اليوم بعده اتى به الى دار القاضى صدر الجهان وجمع الفقهاء والمشايخ ووجوه الاعزة فوعظوه وطلبوا منه ان يرجع عن قوله فابى ذلك فضربت عنقه رحمه الله تعالى

— ذكر قتله للفقيه المدرسى عفيف الدين الكاساني وفقيهين معه —

وكان السلطان فى سنى القحط قد أمر بحفر آبار خارج دار الملك وان يزرع هنالك زرع وأعطي الناس البذر وما يلزم على الزراعة من النفقة وكلفهم زرع ذلك للمخزن فبلغ ذلك الفقيه عفيف الدين فقال هذا الزرع لا يحصل المراد منه فوشي به الى السلطان فسجنه وقال له لاى شيء تدخل نفسك فى أمور الملك ثم انه سرحه بعد مدة فذهب الى داره ولقيه فى طريقه اليها صاحبان له من الفقهاء فقالا له الحمد لله على خلاصك فقال الفقيه الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وتفرقوا فلم يصلوا الى دورهم حتى بلغ ذلك السلطان فامر بهم فاحضر ثلاثتهم بين يديه فقال اذهبوا بهذا يعنى عفيف الدين فاضربوا عنقه حمائل وهو

Digitized by Birzeit University Library

ان يقطع الرأس مع الذراع وبعض الصدر واضربوا أعناق الآخرين فقال له أما هو فيستحق العقاب بقوله وأما نحن فبأى جريمة تقتلنا فقال لهما انكما سمعتما كلامه فلم تنكراه فكانكما وافقتما عليه فقتلوا جميعا رحمهم الله تعالى

— ذكر قتله أيضا لفقيهين من أهل السند كانا فى خدمته —

وأمر السلطان هذين الفقيهين السنديين ان يمضيا مع أمير عينه الى بعض البلاد وقال لهما انما سلمت أحوال البلاد والرعية لكما ويكون هذا الامير معكما يتصرف بما تامرانه به فقالا له انما نكون كالشاهدين عليه ونبين له وجه الحق ليتبعه فقال لهما انما قصدكما أن تاكلا أموالى وتضيعاها وتنسبا ذلك الى هذا التركى الذي لا معرفة له فقالا له حاشاك الله ياخوند عالم ما قصدنا هذا فقال لهما لم تقصدا غير هذا اذهبوا بهما الى الشيخ زاده النهاوندى وهو الموكل بالعذاب فذهب بهما اليه فقال لهما السلطان يريد قتلكما فاقرا بما قولكما اياه ولا تعذبا أنفسكما فقالا والله ما قصدنا الا ما ذكرنا فقال لزبانيته ذوقهما بعض شيء يعنى من العذاب فبطحا على أقفائهما وجعل على صدر كل واحد منهما صفيحة حديد محماة ثم قلعت بعد هنيهة فذهب بلحم صدورهما فاخذ البول والرماد فجعل على تلك الجراحات فاقرا على أنفسهما انهما لم يقصدا الا ما قاله السلطان وانهما مجرمان مستحقان للقتل فلا حق لهما ولا دعوى فى دمائهما دنيا ولا أخرى وكتبا خطهما بذلك واعترفا به عند القاضي فسجل على العقد وكتب فيه ان اعترافهما كان عن غير اكراه ولا اجبار ولو قال اكرهنا لعذبا اشد العذاب ورأيا ان تعجيل ضرب العنق خير لهما من الموت بالعذاب الاليم فقتلا رحمهما الله تعالى

— ذكر قتله للشيخ هود —

وكان الشيخ زاده المسمي بهود حفيد الشيخ الصالح الولى ركن الدين بن بهاء الدين بن أبي زكرياء الملتاني وجده الشيخ ركن الدين معظما عند السلطان وكذلك أخوه عماد الدين الذى كان شبيها بالسلطان وقتل قوم وقيعة كشلوخان وسنذكره ولما قتل عماد الدين اعطي السلطان لاخيه ركن الدين مائة قرية ليأكل منها ويطعم الصادر والوارد بزاويته فتوفى الشيخ ركن الدين واوصى بمكانه من الزاوية لحفيده الشيخ هود ونازعه فى ذلك ابن اخي الشيخ ركن الدين وقال أنا أحق بميراث عمى فقدما على السلطان وهو بدولة آباد وبينها وبين ملتان ثمانون يوما فاعطى السلطان المشيخة لهود حسبما اوصي له الشيخ وكان كهلا وكان ابن اخى الشيخ فتي واكرامه السلطان وامر بتضييقه فى كل منزل يحله وان يخرج الى لقائه اهل كل بلد يمر به الى ملتان وتصنع له فيه دعوة فلما وصل الامر للحضرة خرج الفقهاء والقضاة والمشايخ

Digitized by Birzeit University Library

والاعيان للقائه وكنت فيمن خرج اليه فتلقيناه وهو راكب فى دولة يحملها الرجال وخيله مجنوبة فسلمنا عليه وانكرت انا ما كان من فعله فى ركوبه الدولة وقلت انما كان ينبغى له ان يركب الفرس ويسايرمن خرج للقائه من القضاة والمشايخ فبلغه كلامى فركب الفرس واعتذر بان فعله اولا كان بسبب المنعه من ركوب الفرس ودخل الحضرة وصنعت له بها دعوة انفق فيها من مال السلطان عدد كثير وحضر القضاة والمشايخ والفقهاء والاعزة ومد السماط وأتوا بالطعام على العادة ثم أعطيت الدراهم لكل من حضر على قدر استحقاقه فاعطى قاضى القضاة خمسمائة دينار وأعطيت انا مائتين وخمسين دينارا وهذه عادة هم فى الدعوة السلطانية ثم انصرف الشيخ هود الى بلده ومعه الشيخ نورالدين الشيرازي بعثه السلطان ليجلسه على سجادة جده بزاويته ويصنع له الدعوة من مال السلطان هنالك واستقر بزاويته وأقام بها أعواما ثم ان عماد الملك أمير بلاد السند كتب الى السلطان يذكر ان الشيخ وقرابته يشتغلون بجمع الاموال وانفاقها في الشهوات ولا يطعمون أحدا بالزاوية فنفد الامر بمطالبتهم بالاموال فطالبهم عماد الملك بها وسجن بعضهم وضرب بعضا وصار ياخذ منهم كل يوم عشرين ألف دينار مدة أيام حتى استخلص ما كان عندهم ووجد لهم كثير من الاموال والذخائر من جملتها نعلان مرصعان بالجوهر والياقوت بيعا بسبعة آلاف دينار قيل انهما كانا لبنت الشيخ هود وقيل لسرية له فلما اشتد الحال على الشيخ هرب يريد بلاد الاتراك فقبض عليه وكتب عماد الملك بذلك الى السلطان فامره أن يبعثه ويبعث الذى قبض عليه كلاهما فى حكم الثقاف فلما وصلا اليه سرح الذي قبض عليه وقال للشيخ هود أين أردت ان تفر فاعتذر بعذر فقال له السلطان انما أردت ان تذهب الى الاتراك فتقول انا ابن الشيخ بهاء الدين زكرياء وقد فعل السلطان معي كذا وتاتي بهم لقتالنا اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى — ذكر سجنه لابن تاج العارفين وقتله لاولاده —

وكان الشيخ الصالح شمس الدين ابن تاج العارفين ساكنا بمدينة كول منقطعا للعبادة كبير القدر ودخل السلطان الى مدينة كول فبعث عنه فلم ياته فذهب السلطان اليه ثم لما قارب منزله انصرف ولم يره واتفق بعد ذلك أن أميرا من الامراء خالف علي السلطان ببعض الجهات وبايعه الناس فنقل للسلطان انه وقع ذكر هذا الامير بمجلس الشيخ شمس الدين فاثنى عليه وقال انه يصلح للملك فبعث السلطان بعض الامراء الى الشيخ فقيده وقيد أولاده وقيد قاضى كول ومحتسبها لانه ذكرانهما كانا حاضرين للمجلس الذى وقع فيه ثناء الشيخ على الامير المخالف وأمر بهم فسجنوا جميعا بعد ان سمل عيني القاضى وعيني

المحتسب ومات الشيخ بالسجن وكان القاضي والمحتسب يخرجان مع بعض السجانين فيسالان الناس ثم يردان الى السجن وكان قد بلغ السلطان ان اولاد الشيخ كانوا ينخالطون كفار الهنود وعصاتهم ويصحبونهم فلما مات أبوهم أخرجهم من السجن وقال لهم لا تعودوا الى ما كنتم تفعلون فقالوا له وما فعلنا فاغتاظ من ذلك وأمر بقتلهم جميعا فقتلوا ثم استحضر القاضي المذكور وقال أخبرني بمن كان يرى رأى هؤلاء الذين قتلوا او يفعل مثل أفعالهم فاملى أسماء رجال كثيرين من كفار البلد فلما عرض ما أملاه على السلطان قال هذا يجب أن يخرب البلد اضربوا عنقه فضربت عنقه رحمه الله تعالى

— ذكر قتله للشيخ الحيدري —

وكان الشيخ على الحيدري ساكنا بمدينة كنباية من ساحل الهند وهو عظيم القدر شهير الذكر بعيد الصيت ينذر له التجار بالبحر النذور الكثيرة واذا قدموا بدؤا بالسلام عليه وكان يكاشف باحوالهم وربما نذر أحدهم النذر وندم عليه فاذا أتى الشيخ للسلام عليه أعلمه بما نذر له وأمر بالوفاء به واتفق له ذلك مرات واشتهر به فلما خالف القاضي جلال الافغاني وقبيلته بتلك الجهات بلغ السلطان ان الشيخ الحيدري دعا للقاضي جلال الدين واعطاه شاشيته من رأسه وذكر أيضا انه بايعه فلما خرج السلطان اليهم بنفسه وانهزم القاضي جلال خلف السلطان شرف الملك أمير بخت احد الوافدين معنا عليه بكنباية وامره بالبحث عن أهل الخلاف وجعل معه فقهاء يحكم بقولهم فاحضر الشيخ على الحيدري بين يديه وثبت انه اعطى للقائم شاشيته ودعا له فحكموا بقتله فلما ضربه السياف لم يفعل شيئا وعجب الناس لذلك وظنوا انه يعفى عنه بسبب ذلك فامر سيافا آخر بضرب عنقه فضربها رحمه الله تعالى

— ذكر قتله لطوغان وأخيه —

وكان طوغان الفرغاني وأخوه من كبار أهل مدينة فرغانة فوفدا على السلطان فاحسن اليهما وأعطاهما عطاء جزيلا وأقاما عنده مدة فلما طال مقامهما أرادا الرجوع الى بلادهما وحاولا الفرار فوشى بهما احد اصحابهما الى السلطان فامر بتوسيطهما فوسطا واعطى للذي وشى بهما جميع مالهما وكذلك عادتهم بتلك البلاد اذا وشى احد باحد وثبت ما وشى به فقتل اعطي ماله

— ذكر قتله لابن ملك التجار —

وكان ابن ملك التجار شابا صغير الانبات بعارضيه فلما وقع خلاف عين الملك وقيامه وقتاله للسلطان كما سنذكره غلب على ابن ملك التجار هذا فكان في جملته مقهورا فلما هزم عين الملك وقبض عليه وعلى أصحابه كان من جملتهم ابن ملك التجار وصهره ابن قطب الملك فامر

بيهما فعلقا من أيديهما فى خشب وأمر أبناء الملوك فرموهما بالنشاب حتى ماتا ولما ماتا قال الحاجب خواجه أمير على التبريزى لقاضى القضاة كمال الدين ذلك الشاب لم يجب عليه القتل فبلغ ذلك السلطان فقال هلا قلت هذا قبل موته وأمر به فضرب مائتي مقرعة أو نحوها وسجن وأعطي جميع ماله لامير السيافين فرأيته فى ثانى ذلك اليوم قد لبس ثيابه وجعل قلنسوته على رأسه وركب فرسه فظننت انه هو وأقام بالسجن شهورا ثم سرحه ورده الى ماكان عليه ثم غضب عليه ثانية ونفاه الى خراسان فاستقر بهراة وكتب اليه يستعطفه فوقع له على ظهر كتابه أكربار آمدى باز (أى) معناه ان كنت تبت فارجع فرجع اليه

— ذكر ضربه لخطيب الخطباء حتى مات —

وكان قد ولى خطيب الخطباء بدهلى النظر فى خزانة الجواهر فى السفر فاتفق ان جاء سراق الكفار ليلا فضربوا على تلك الخزانة وذهبوا بشىء منها فامر بضرب الخطيب حتى مات رحمه الله تعالى

— ذكر تخريبه لدهلى ونفى أهلها وقتل الاعمى والمقعد —

ومن أعظم ماكان ينقم على السلطان اجلاؤه لاهل دهلى عنها وسبب ذلك انهم كانوا يكتبون بطائق فيها شتمه وسبه ويختمون عليها ويكتبون عليها وحق رأس خوندعالم ما يقرؤها غيره ويرمونها بالمشور ليلا فاذا فضها وجد فيها شتمه وسبه فعزم على تخريب دهلى واشترى من أهلها جميعا دورهم ومنازلهم ودفع لهم ثمنها وأمرهم بالانتقال عنها الى دولة آباد فابوا ذلك فنادى مناديه ان لا يبقى بها أحد بعد ثلاث فانتقل معظمهم واختفى بعضهم فى الدور فامر بالبحث عمن بقى بها فوجد عبيده بازقتها رجلين أحدهما مقعد والآخر اعمى فاتوا بهما فامر بالمقعد فرمى به فى المنجنيق وأمر أن يجر الاعمى من دهلى الى دولة آباد مسيرة أربعين يوما فتمزق فى الطريق ووصل منه رجله ولما فعل ذلك خرج أهلها جميعا وتركوا أثقالهم وامتعتهم وبقيت المدينة خاوية على عروشها فحدثنى من اثق به قال صعد السلطان ليله الى سطح قصره فنظر الى دهلى وليس بها نار ولا دخان ولا سراج فقال الآن طاب قلبي وتهدن خاطرى ثم كتب الى أهل البلاد أن ينتقلوا الى دهلى ليعمروها فخربت بلادهم ولم تعمر دهلى لاتساعها وضخامتها وهى من أعظم مدن الدنيا وكذلك وجدناها لما دخلنا اليها خالية ليس بها الا القليل عمارة وقد ذكرنا كثيرا من مآثر هذا السلطان ومما نقم عليه أيضا فلنذكر جملا من الوقائع والحوادث الكائنة فى أيامه

— ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادو ربوره —

ولما ولى السلطان الملك بعد أبيه وبايعه الناس أحضر السلطان غياث الدين بهادو ربوره

Digitized by Birzeit University Library

الذى كان أسره السلطان تغلق فمن عليه وفك قيوده وأجزله العطاء من الاموال والخيل والفيلة وصرفه الى مملكته وبعث معه ابن أخيه ابراهيم خان وعاهده على ان تكون تلك المملكة مشاطرة بينهما وتكتب أسماؤهما معافى السكة ويخطب لهما وعلى أن يصرف غياث الدين ابنه محمد المعروف ببرباط يكون رهينة عند السلطان فانصرف غياث الدين الى مملكته والتزم ماشرط عليه الا انه لم يبعث ابنه وادعى انه امتنع وأساء الادب فى كلامه فبعث السلطان العساكر الى ابن أخيه ابراهيم خان وأميرهم دلجلى التترى فقاتلوا غياث الدين فقتلوه وسلخوا جلده وحشي بالتبن وطيف به على البلاد

— ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك —

وكان للسلطان تغلق ابن أخت يسمي بهاء الدين كشت اسب (بضم الكاف وسكون الشين المعجم وتاء معلوة) واسب (بالسين المهمل والباء الموحدة مسكنين) فجعله أميرا ببعض النواحى فلما مات خاله امتنع من بيعة ابنه وكان شجاعا بطلا فبعث السلطان اليه العساكر فهم الامراء الكبار مثل الملك مجير والوزير خواجه جهان أمير علي الجمع فالتقى الفرسان واشتد القتال وصبر كلا العسكرين ثم كانت الكرة لعسكر السلطان ففر بهاء الدين الى ملك من ملوك الكفار يعرف بالراي كنبيلة والراى عندهم كمثل ماهو بلسان الروم عبارة عن السلطان وكنبيلة اسم الاقليم الذى هو به وهو (بفتح الكاف وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء ولام مفتوح) وهذا الراى له بلاد فى جبال منيعة وهو من أكابر سلاطين الكفار فلما هرب اليه بهاء الدين اتبعته عساكر السلطان وحصروا تلك البلاد واشتد الامر على الكافر ونفد ماعنده من الزرع وخاف أن يؤخذ باليد فقال لبهاء الدين ان الحال قد بلغت لما تراه وأنا عازم على هلاك نفسى وعيالى ومن تبعني فاذهب أنت الى السلطان فلان لسلطان من الكفار سماه له فاقم عنده فانه سيمنعك وبعث معه من أوصله اليه وأمر راى كنبيلة بنار عظيمة فاججت وأحرق فيها أمتعته وقال لنسائه وبناته اني أريد قتل نفسى فمن أرادت موافقتي فلتفعل فكانت المرأة منهن تغتسل وتدهن بالصندل والمقاصرى وتقبل الارض بين يديه وترمى بنفسها فى النار حتى هلكن جميعا وفعل مثل ذلك نساء امرأته ووزرائه وأرباب دولته ومن أراد من سائر النساء ثم اغتسل الراي وادهن بالصندل ولبس السلاح ماعدا الدرع وفعل كفعله من أراد الموت معه من ناسه وخرجوا الى عسكر السلطان فقاتلوا حتى قتلوا جميعا ودخلت المدينة فاسر أهلها وأسر من أولادي رأى كنبيلة أحد عشر ولدا فاتى بهم السلطان فاسلموا جميعا وجعلهم السلطان امراء وعظمهم لاصالتهم ولفعل أبيهم

فرأيت عنده منهم نصرا وبختيار والمهردار وهو صاحب الخاتم الذي يختم به على الماء الذي يشرب السلطان منه وكنيته أبو مسلم وكانت بيني وبينه صحبة ومودة ولما قتل رأى كنبيلة توجهت عساكر السلطان الى بلد الكفار الذي لجا اليه بهاء الدين وأحاطوا به فقال ذلك السلطان أنا لا أقدر على أن أفعل ما فعله راي كنبيلة فقبض على بهاء الدين وأسلمه الى عسكر السلطان فقيدوه وغلوه وأتوا به فلما أتي به اليه أمر بادخاله الى قرابته من النساء فشتمنه وبصقن في وجهه وأمر بسلخه وهو بقيد الحياة فسلخ وطبخ لحمه مع الارز وبعث لاولاده وأهله وجعل باقيه على صحفة وطرح للفيلة لتاكله فابت أكله وأمر بجلده فحشي بالتبن وقرن بجلد بها دور بوره وطيف بهما على البلاد فلما وصلا الى بلاد السند وأمير أمرائها يومئذ كشلوخان صاحب السلطان تغلق ومعينه على أخذ الملك وكان السلطان يعظمه ويخاطبه باسم ويخرج لاستقباله اذا وفد من بلاده أمر كشلوخان بدفن الجلدين فبلغ ذلك السلطان فشق عليه فعله وأراد الفتك به

— ذكر ثورة كشلوخان وقتله —

ولما اتصل بالسلطان ما كان من فعله في دفن الجلدين بعث عنه وعلم كشلوخان انه يريد عقابه فامتنع وخالف وأعطى الاموال وجمع العساكر وبعث الى الترك والافغان وأهل خراسان فاتاه منهم العدد الجم حتى كافأ عسكره عسكر السلطان أو أربى عليه كثرة وخرج السلطان بنفسه لقتاله فكان اللقاء على مسيرة يومين من ملتان بصحراء أبوهر وأخذ السلطان بالحزم عند لقائه فجعل تحت الشطر عوضا منه الشيخ عماد الدين شقيق الشيخ ركن الدين الملتاني وهو حدثني هذا وكان شبيها به فلما حمي القتال انفرد السلطان في أربعة آلاف من عسكره وقصد عسكر كشلوخان قصد الشطر معتقدين أن السلطان تحته فقتلوا عماد الدين وشاع في العسكر ان السلطان قتل فاشتغلت عساكر كشلوخان بالنهب وتفرقوا عنه ولم يبق معه الا القليل فقصده السلطان بمن معه فقتله وجز رأسه وعلم بذلك جيشه ففروا ودخل السلطان مدينة ملتان وقبض على قاضيها كريم الدين وأمر بسلخه فسلخ وأمر برأس كشلوخان فعلق على بابه وقد رأيته معلقا لما وصلت الى ملتان وأعطى السلطان للشيخ ركن الدين أخي عماد الدين ولابنه صدر الدين مائة قرية انعاما عليهم ليا كلوا منها ويطعموا بزاويتهم المنسوبة لجدهم بهاء الدين زكريا وأمر السلطان وزيره خواجه جهان أن يذهب الى مدينة كال بوروهي مدينة كبيرة على ساحل البحر وكان أهلها قد خالفوا فاخبرني بعض الفقهاء انه حضر دخول الوزير اياها قال واحضر بين

يديه القاضي بها والخطيب فامر بسلخ جلودهما فقال له أقتلنا بغير ذلك فقال لهما ما استوجبتما القتل فقال بمخالفتنا أمر السلطان فقال لهما فيكيف أخالف انا أمره وقد أمرني ان أقتلكما بهذه القتلة وقال للمتولين لسلخهما احفروا لهما حفرتحت وجوههما يتنفسان فيها فانهم اذا سلخوا والعياذ بالله يطرحون على وجوههم ولما فعل ذلك تمهدت بلاد السند وعاد السلطان الى حضرته — ذكر الوقيعة بجبل قراجيل على جيش السلطان —

(وأول اسمه قاف وجيم معقودة) وجبل قراجيل هذا جبل كبير يتصل مسيرة ثلاثة أشهر وبينه وبين دهلى مسيرة عشر وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار وكان السلطان بعث ملك نكبية رأس الدويدارية الى حرب هذا الجبل ومعه مائة الف فارس ورجالة سواهم كثير فبنى مدينة جديدة (وضبطها بكسر الجيم وسكون الدال المهمل وفتح الياء آخر الحروف) وهي أسفل الجبل وملك ما يليها وسبى وخرب وأحرق وفر الكفار الى أعلى الجبل وتركوا بلادهم وأموالهم وخزائن ملكهم وللجبل طريق واحد وعن أسفل منه واد وفوقه الجبل فلا يجوز فيه الا فارس منفرد خلفه آخر فصعدت عساكر المسلمين على ذلك الطريق وتملكوا مدينة ورنكل التي باعلى الجبل (وضبطها) بفتح الواو والراء (وسكون النون وفتح الكاف) واحتووا على ما فيها وكتبوا الى السلطان بالفتح فبعث اليهم قاضيا وخطيبا وامرهم بالاقامة فلما كان وقت نزول المطر غلب المرض على العسكر وضعفوا وماتت الخيل وانحلت القسى فكتب الامراء الى السلطان وأستاذنوه فى الخروج عن الجبل والنزول الى اسفله بخلال ما ينصرم فصل نزول المطر فيعودون فاذن لهم فى ذلك فاخذ الامير نكبية الاموال التي استولى عليها من الخزائن والمعادن وفرقها على الناس ليرفعوها ويوصلوها الى أسفل الجبل فعند ما علم الكفار بخروجهم قعدوا لهم بتلك المهاوى وأخذوا عليهم المضيق وصاروا يقطعون الاشجار العادية قطعا ويطرحونها من أعلى الجبل فلا تمر باحد الا اهلكته فهلك الكثير من الناس وأسر الباقون منهم وأخذ الكفار الاموال والامتعة والخيل والسلاح ولم يفلت من العسكر الا ثلاثة من الامراء كبيرهم نكبية وبدر الدين الملك دولة شاة وثالث لهما لا اذكره وهذه الوقيعة اثرت فى جيش الهند اثرا كبيرا واضعفته ضعفا بينا وصالح السلطان بعدها اهل الجبل على مال يؤدونه اليه لان لهم البلاد اسفل الجبل ولا قدرة لهم على عمارتها الا باذنه

— ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر وما اتصل بذلك من قتل ابن أخت الوزير —

وكان السلطان قد أمر على بلاد المعبر وبينها وبين دهلى مسيرة ستة أشهر الشريف جلال

Digitized by Birzeit University Library

الدين أحسن شاه نخالف وادعى الملك لنفسه وقتل نواب السلطان وعماله وضرب الدنانير والدراهم باسمه وكان يكتب في احدى صفحتي الدينار سلالة طه ويس أبو الفقراء والمساكين جلال الدنيا والدين وفي الصحفة الاخرى الواثق بتاييد الرحمن أحسن شاه السلطان وخرج السلطان لما سمع بثورته يريد قتاله فنزل بموضع يقال له كشك زرمعناه قصر الذهب وأقام به ثمانية أيام لقضاء حوائج الناس وفي تلك الايام يأتي أخت الوزير خواجه جهان وأربعة من الامراء أو ثلاثة وهم مقيدون مغلولون وكان السلطان قد بعث وزيره المذكور في مقدمته فوصل الى مدينة ظهاروهي على مسيرة أربع وعشرين من دهلي وأقام بها أياما وكان ابن اخته شجاعا بطلا فاتفق مع الامراء الذين أتي بهم على قتل خاله والهروب بما عنده من الخزائن والاموال الى الشريف القائم بلاد المعبر وعزموا على الفتك بالوزير عند خروجه الى صلاة الجمعة فوشى بهم أحد من أدخلوه في أمرهم الى الوزير وكان يسمي الملك نصرة الحاجب وأخبر الوزير أن آية ما يرومونه لبسهم الدروع تحت ثيابهم فبعث الوزير عنهم فوجدهم كذلك فبعث بهم الى السلطان وكنت بين يدي السلطان حين وصولهم فرأيت احدهم وكان طوال اللحى وهو يرعد ويتلو سورة يس فامر بهم فطرحوا للفيلة المعلمة لقتل الناس واحدا بعد اخت الوزير فرد الى خاله ليقتله فقتله وسنذكر ذلك وتلك الفيلة التي تقتل الناس تسمى انيابها حدائد مسنونة شبه سكك الحرث لها أطراف كالسكاكين ويركب الفيال على الفيل فاذا رمى بالرجل بين يديه لف عليه خرطومه ورمى به الى الهواء ثم يتلقفه بنابيه ويطرحه بعد ذلك بين يديه ويجعل يده على صدره ويفعل به ما يامره الفيال على حسب ما أمره السلطان فان امره بتقطيعه قطعه الفيل قطعا بتلك الحدائد وان امر بتركه تركه مطروحا فسلخ وكذلك فعل بهؤلاء وخرجت من دار السلطان بعد المغرب فرأيت الكلاب تاكل لحومهم وقد ملئت جلودهم بالتبن والعياذ بالله ولما تجهز السلطان لهذه الحركة أمرني بالاقامة بالحضرة كما سنذكره ومضي في سفره الى أن بلغ دولة آباد فثار الامير هلاجون ببلاده وخرج ذلك وكان الوزير خواجه جهان قد بقي أيضا بالحضرة لحشد الحشود وجمع العساكر

— ذكر ثورة هلاجون —

ولما بلغ السلطان الى دولة آباد وبعد عن بلاده ثار الامير هلاجون بمدينة الاهور وادعى الملك وساعده الامير قلجند على ذلك وصيره وزيرا له واتصل ذلك بالوزير خواجه جهان وهو بدهلي فحشد الناس وجمع العساكر وجمع الخراسانيين وكل من كان مقيما من الخدام بدهلي أخذ اصحابه وأخذني في الجملة اصحابي لاني كنت بها مقيما وأعانه السلطان بامير ين كبيرين

أحدهما قيران ملك صفدار ومعناه مرتب العساكر والثاني الملك تمور الشربدار وهو الساقي وخرج هلاجون بعساكره فكان اللقاء على ضفة احد الاودية الكبار فانهزم هلاجون وهرب وغرق كثير من عساكره في النهر ودخل الوزير المدينة فسلخ بعض أهلها وقتل آخرين بغير ذلك من انواع القتل وكان الذي تولى قتلهم محمد بن النجيب نائب الوزير وهو المعروف بجدر ملك ويسمي أيضا صاحب (سك) السلطان والصك عندهم الكلب وكان ظاهر الما قاسي القلب ويسميه السلطان أسد الاسواق وكان ربما عاض ارباب الجنايات بأسنانه شرها وعدوانا وبعث الوزير من نساء المخالفين نحو ثلاثمائة الى حصن كاليور فسجن به ورايت بعضهن هنالك وكان احد الفقهاء له فيهن زوجة فكان يدخل اليها حتى ولدت منه في السجن

— ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان —

ولما وصل السلطان الى بلاد التلنك وهو قاصد الى قتال الشريف ببلاد المعبر نزل مدينة يدركوت (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الدال وفتح الراء وضم الكاف وواو وتاء معلوة) وهي قاعدة بلاد التلنك (وضبطها بكسر التاء المعلوة واللام وسكون النون وكاف معقودة) وبينها وبين بلاد المعبر مسيرة ثلاثة اشهر ووقع الوباء اذ ذاك في عسكره فهلك معظمهم ومات العبيد والمماليك وكبار الامراء مثل ملك دولة شاه الذي كان السلطان يخاطبه بالعم ومثل أمير عبدالله الهوري وقد تقدمت حكايته في السفر الاول وهو الذي أمره السلطان ان يرفع من الخزانة ما استطاع من المال فربط ثلاث عشرة خريطة باعضاده ورفعها ولما رأى السلطان ما حل بالعسكر عاد الى دولة آباد وخالفت البلاد وانتقضت الاطراف وكاد الملك يخرج عن يده لولا ما سبق به القدر من استحكام سعادته

— ذكر ارجاف بموته وفرار الملك هوشنج —

ولما عاد السلطان الى دولة آباد مرض في طريقه فارجف الناس بموته وشاع ذلك فنشات عنه فتن عريضة وكان الملك هوشنج ابن الملك كمال الدين كرك بدولة آباد وكان بينه وبين السلطان عهد ان لا يبايع غيره ما بدا لاحدهما في حياته ولا بعد موته فلما ارجف بموت السلطان هرب الى سلطان كافر يسمي بربرة يسكن بجبال مانعة بين دولة آباد وكوكن تانه فعلم السلطان بفراره وخاف وقوع الفتنة فجد السير الى دولة آباد واقتفى أثر هوشنج وحصره بالجبل وأرسل الكافران يسلمه اليه فابى وقال لا أسلم دخيلي ولو آل بي الامر لما آل براى كنيلة وخاف هوشنج على نفسه فراسل السلطان وعاهد على ان يرحل السلطان الى دولة آباد ويبقى هنالك قطلوخان معلم السلطان ليستوثق منه هوشنج وينزل اليه على الامان فرحل السلطان

Digitized by Birzeit University Library

ونزل هو وشنبج الى قطلوخان وعاهده أن لا يقتله السلطان ولا يحط منزلته وخرج بماله وعياله واصحابه وقدم على السلطان فسر بقدومه وارضاه وخلع عليه وكان قطلوخان صاحب عهد يستنيم الناس اليه ويقولون فى الوفاء عليه ومنزلته عند السلطان عليه وتعظيمه له شديد ومتى دخل عليه قام له اجلالا فكان بسبب ذلك لا يدخل عليه حتى يكون هو الذى يدعوه لئلا يتعبه بالقيام له وهو محب فى الصدقات كثير الايثار مولع بالاحسان للفقراء والمساكين

— ذكر ما عمم به الشريف ابراهيم من الثورة وما آل حاله —

وكان الشريف ابراهيم المعروف باخربطة دار وهو صاحب الكاغد والاقلام بدار السلطان واليا على بلاد حانمى وسرستى لما تحرك السلطان الى بلاد المعبر وأبوه هو القائم ببلاد المعبر الشريف أحسن شاه فلما أرجف بموت السلطان طمع ابراهيم فى السلطنة وكان شجاعا كريما حسن الصورة وكنت متزوجا باخته حور نسب وكانت صالحة تتهجد بالليل ولها أوراد من ذكر الله عز وجل وولدت منى بنتا ولا أدري ما فعل الله فيهما وكانت تقرأ لكنها لا تكتب فلما عمم ابراهيم بالثورة اجتاز به أمير من أمراء السند معه الاموال يحملها الى دهلى فقال له ابراهيم ان الطريق مخوف وفيه قطع فاقم عندى حتى يصلح الطريق وأوصلك الى المامن وكان قصده ان يتحقق موت السلطان فيستولى على تلك الاموال فلما تحقق حياته سرح ذلك الامير وكان يسمى ضياء الملك بن شمس الملك ولما وصل السلطان الى الحضرة بعد غيبته سنتين ونصف وصل الشريف ابراهيم اليه فوشى به بعض غلمانه واعلم السلطان بما كان هم به فاراد السلطان أن يعجل بقتله ثم تانى لمحبته فيه فاتفق ان أتى يوما الى السلطان بغزال مذبوح ينظر الى ذبحته فقال ليس بجيد الذكاة اطرحوه فرآه ابراهيم فقال ان زكانه جيدة وأنا آكله فاخبر السلطان بقوله فانكر ذلك وجعله ذريعة الى أخذه فامر به فقيد وغل ثم قرره على ما رمى به من انه أراد أخذ الاموال التى مر بها ضياء الملك وعلم ابراهيم انه انما يريد قتله بسبب أبيه وانه لا تنفعه معذرة وخاف ان يعذب فرأى الموت خيرا له فاقر بذلك فامر به فوسط وترك هنالك وعادتهم انه متى قتل السلطان أحدا أقام مطروحا بموضع قتله ثلاثا فاذا كان بعد الثلاث أخذه طائفة من الكفار موكلون بذلك فحملوه الى خندق خارج المدينة يطرحونه به وهم يسكنون حول الخندق لئلا يأتى أهل المقتول فيعرفونه وربما أعطى بعضهم لهؤلاء الكفار مالا فتجافوا له عن قتيله حتى يدفنه وكذلك فعل بالشريف ابراهيم رحمه الله تعالى

— ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك —

ولما عاد السلطان من التلنك وشاع خبر موته وكان ترك تاج الملك نصرة خان نائبا عنه ببلاد التلنك وهو من قدماء خواصه بلغه ذلك فعمل عزاء السلطان ودعا لنفسه وبايعه الناس بحضرة بدركوت فبلغ خبره الى السلطان فبعث معلمه قطلوخان في عساكر عظيمة فحصره بعد قتال شديد هلك فيه أمم من الناس واشتد الحصار على أهل بدركوت وهي منيعة وأخذ قطلوخان في نقبها فخرج اليه نصرة خان على الامان في نفسه فامنه وبعث به الى السلطان وأمن أهل المدينة والعسكر

— ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك —

ولما استولى القحط على البلاد انتقل السلطان بعساكره الى نهر الكنك الذي تحج اليه الهنود على مسيرة عشر من دهلي وأمر الناس بالبناء وكانوا قبل ذلك صنعوا خياما من حشيش الارض فكانت النار كثيرا ما تقع فيها وتؤذي الناس حتى كانوا يصنعون كوفا تحت الارض فاذا وقعت النار رموا أمتعتهم بها وسدوا عليها بالتراب ووصلت أنا في تلك الايام لحلة السلطان وكانت البلاد التي بغربي النهر حيث السلطان شديدة القحط والبلاد التي بشرقيه خصبة وأميرها عين الملك بن ماهرو منها مدينة عوض ومدينة ظفر آباد ومدينة اللكنو وغيرها وكان الامير عين الملك كل يوم يحضر خمسين الفا من منها قمح وأرز وحمص لعلف الدواب فامر السلطان أن تحمل الفيلة ومعظم الخيل والبغال الى الجهة الشرقية الخصبة لترعى هنالك وأوصى عين الملك بحفظها وكان لعين الملك أربعة اخوة وهم شهر الله ونصر الله وفضل الله ولا أذكر اسم الآخر فاتفقوا مع أخيهم عين الملك على أن ياخذوا فيلة السلطان ودوابه ويبايعوا عين الملك ويقوموا على السلطان وهرب اليهم عين الملك بالليل وكاد الامر يتم لهم ومن عادة ملك الهند انه يجعل مع كل أمير كبير أو صغير مملوكا له يكون عينا عليه ويعرفه بجميع حاله ويجعل أيضا جواري في الدور يكن عيونا له على أمرائه ونسوة يسمين الكناسات يدخلن الدور بلا استئذان ويخبرهن الجواري بما عندهن فيخبر الكناسات بذلك المخبرين فيخبر بذلك السلطان ويذكرون ان بعض الامراء كان في فراشه مع زوجته فاراد مما ستها فحلفته برأس السلطان ان لا يفعل فلم يسمع منها فبعث عنه السلطان صباحا وأخبره بذلك وكان سبب هلاكه وكان للسلطان مملوك يعرف بابن ملك شاه هو عين على عين الملك المذكور فاخبر السلطان بفراره وجوازه النهر فسقط في يده وظن انها القاضية عليه لان الخيل والفيلة والزرع كل ذلك عند عين الملك وعساكر السلطان مفترقة فاراد ان يقصد حضرته ويجمع العساكر وحينئذ يأتي لقتاله وشاور

ارباب الدولة فى ذلك وكان امراء خراسان والغرباء اشد الناس خوفا من هذا القائم لانه هندى وأهل الهند مبغضون فى الغرباء لاظهار السلطان لهم نكره واما ظهر له وقالوا ياخوند عالم ان فعلت ذلك بلغه الخبر فاشتد امره ورتب العساكر وانثال عليه طلاب الشر ودعاة الفتن والاولى معاجلته قبل استحكام قوته وكان أول من تكلم بهذا ناصر الدين مطهر الاوهرى ووافقه جميعهم فعمل السلطان باشارتهم وكتب تلك الليلة الى من قرب منه من الامراء والعساكر فاتوا من حينهم وأدار فى ذلك حيلة حسنة فكان اذا قدم على محلته مئة مئة فارس بعث الآلاف من عنده للقائهم ليلا ودخلوا معهم الى المحلة كان جميعهم مدده وتحرك السلطان فى معسكره على ساحل النهر ليجعل مدينة قنوج وراء ظهره ويتحصن بها بمنعتها وحصانتها وبينها وبين الموضع الذي كان به ثلاثة أيام فرحل اول مرحلة وقد عبأ جيشه للحرب وجعلهم صفا واحدا عند نزولهم كل واحد منهم بين يديه سلاحه وفرسه الى جانبه ومعه خبأه صغيرا كل به ويتوضا ويعود الى مجلسه والمحلة الكبري على بعد منهم ولم يدخل السلطان فى تلك الايام الثلاثة خباه ولا استظل بظل وكنت فى يوم منها بخبائي فصاح بى نتي من فتياني اسمه سنبل واستعجلني وكان معى الجواري فخرجت اليه فقال ان السلطان أمر الساعة أن يقتل كل من معه امرأته أو جاريته فشفع عنده الامراء فامران لاتبقى الساعة بالمحلة امرأة وان يحملن الى حصن هنالك على ثلاثة اميال يقال له كنبيل فلم تبق امرأة بالمحلة ولا مع السلطان وبتنا تلك الليلة على تعبئة فلما كان فى اليوم الثانى رتب السلطان عسكره افواجا وجعل مع كل فوج الفيلة المدرعة عليها الابراج فوقها المقاتلة وتدرع العسكر وتهيؤا للحرب وباتوا تلك الليلة على أهبة ولما كان اليوم الثالث بلغ الخبر بان عين الملك الثائر اجاز النهر فخاف السلطان من ذلك وتوقع انه لم يفعله الا بعد مراسلة الامراء الباقين مع السلطان فامر فى الحين بقسم الخيل العتاق على خواصه وبعث لى حظا منها وكان لى صاحب يسمي أمير امير ان الكرمانى من الشجعان فاعطيته فرسا منها اشهب اللون فلما حركه جمح به فلم يستطع امساكه ورماه عن ظهره فمات رحمه الله تعالى وجد السلطان ذلك اليوم فى مسيرة فوصل بعد العصر الى مدينة قنوج وكان يخاف ان يسبقه القائم اليها وبات ليلته تلك يرتب الناس بنفسه ووقف علينا ونحن فى المقدمة مع ابن عمه ملك فيروز ومعنا الامير غدا ابن مهني والسيد ناصر الدين مطهر وامراء خراسان فاضافنا الى خواصه وقال أنتم أعزة على ماينبغى ان تفارقونى وكان فى عاقبة ذلك الخير فان القائم ضرب فى آخر الليل على المقدمة وفيها الوزير خواجه جهان فقامت ضجة فى الناس كبيرة فحينئذ أمر

Digitized by Birzeit University Library

السلطان ان لا يبرح احد من مكانه ولا يقاتل الناس الا بالسيوف فاستل العسكر سيوفهم ونهضوا الى أصحابهم وحمى القتال وأمر السلطان ان يكون شعار جيشه دهلي وغزنة فاذا لقي احدهم فارسا قال له دهلي فان أجابه بغزنة علم انه من أصحابه والا قاتله وكان القائم انما قصد ان يضرب على موضع السلطان فاخطأه الدليل فقصد موضع الوزير فضرب عنق الدليل وكان في عسكر الوزير الاعاجم والترك والخراسانيون وهم اعداء الهنود فصدقوا القتال وكان جيش القائم نحو الخمسين ألفا فانهزموا عند طلوع الفجر وكان الملك ابراهيم المعروف بالبنجي (بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم) التتري قد أقطعه السلطان بلاد سنديلة وهي قرية من بلاد عين الملك فاتفق معه على الخلاف وجعله نائبه وكان داود بن قطب الملك وابن ملك التجار على فيله السلطان وخيله فوافقاه أيضا وجعل داود حاجبه وكان دواد هذا لما ضربوا على محلة الوزير يجهر بسب السلطان ويشتمه أقبح شتم والسلطان يسمع ذلك ويعرف كلامه فلما وقعت الهزيمة قال عين الملك لنائبه ابراهيم التتري ماذا ترى يا ملك ابراهيم قد فرا كثير العسكر وذ والنجدة منهم فهل لك ان نتجوا بانفسنا فقال ابراهيم لاصحابه بلسانهم اذا أراد عين الملك ان يفر فاني سأقبض على دبوقته فاذا فعلت ذلك فاضربوا أنتم فرسه ليسقط الى الارض فنقبض عليه ونأتي به السلطان ليكون ذلك كفارة لذنبي في الخلاف معه وسببا لخلاصي فلما أراد عين الملك الفرار قال له ابراهيم الى اين يا سلطان علاء الدين وكان يسمي بذلك وأمسك بدبوقته وضرب اصحابه بفرسه فسقط الى الارض ورمى ابراهيم بنفسه عليه فقبضه وجاء اصحاب الوزير ليأخذوه فمنعهم وقال لا أتركه حتى اوصله للوزير أو أموت دون ذلك فتركوه فاوصله الى الوزير وكنت أنظر عند الصبح الى الفيلة والاعلام يؤتى بها الى السلطان ثم جاءني بعض العراقيين فقال قد قبض على عين الملك واتى به الوزير فلم أصدقه فلم يمر الا يسير وجاءني الملك تمور الشربدار فاخذ بيدي وقال ابشر فقد قبض علي عين الملك وهو عند الوزير فتحرك السلطان عند ذلك ونحن معه الى محلة عين الملك على نهر الكنك فنهبت العساكر ما فيها واقتحم كثير من عسكر عين الملك النهر ففرقوا وأخذ داود بن قطب الملك وابن ملك التجار وخلق كثير معهم ونهبت الاموال والخيل والامتعة ونزل السلطان على المجاز وجاء الوزير بعين الملك وقد أركب على ثور وهو عريان مستور العورة بخرقة مربوطة بحبل وباقيه في عنقه فوقف على باب السراجة ودخل الوزير الى السلطان فاعطاه الشربة عناية به وجاء ابناء الملوك الى عين الملك فجعلوا يسبونه ويبصقون في وجهه ويصفعون

اصحابه اليه وبعث السلطان الملك الكبير فقال له ماهذا الذى فعلت فلم يجد جوابا فامر به السلطان ان يكسى ثوبا من ثياب الزمالة وقيد باربعة كبول وغلت يداه الى عنقه وسلم للوزير ليحفظه وجاز اخوته النهر هاربين ووصلوا مدينة عوض فاخذوا أهلهم وأولادهم وما قدروا عليه من المال وقالوا لزوجة اخيهم عين الملك اخلصى بنفسك وبنيك معنا فقالت افلا أكون كنساء الكفار اللائى يحرقن انفسهن مع ازواجهن فانا أيضا أموت لموت زوجى واعيش لعيشه فتركوها وبلغ ذلك السلطان فكان سبب خيرها وادركته لها رقة وادرك الفقي سهيل نصر الله من أولائك الاخوة فقتله واتى السلطان برأسه وأتى بام عين الملك وأخته وامرأته فسلمن الى الوزير وجعلن فى خباء بقرب خباء عين الملك فكان يدخل اليهن ويجلس معهن ويعود الى محبسه ولما كان بعد العصر من يوم الهزيمة أمر السلطان بسراح لفيف الناس الذين مع عين الملك من الزمالة والسوقة والعبيد ومن لا يعبا به وأتى بملك ابراهيم البنجى الذي ذكرناه فقال ملك العسكر الملك نوايا خوند عالم اقتل هذا فانه من المخالفين فقال الوزير انه قد فدي نفسه بالقائم فعفا عنه السلطان وسرحه الى بلاده ولما كان بعد المغرب جلس السلطان ببرج الخشب وأتي باثنين وستين رجلا من كبار أصحاب القائم وأتى بالفيلة فطرحوا بين أيديها فجعلت تقطعهم بالحدائد الموضوعة على انيابها وترمي بعضهم الى الهواء وتتلقفه والابواق والانفار والطبول تضرب عند ذلك وعين الملك واقف يعاين مقتلهم ويطرح منهم عليه ثم أعيد الى محبسه وأقام السلطان على جواز النهر أياما لكثرة الناس وقلة القوارب وأجاز أمتعته وخزائنه على الفيلة وفرق الفيلة على خواصه ليجتزوا امتعتهم وبعث الى بفيل منها أجزت عليه رجلى وقصد السلطان ونحن معه الى مدينة بهرايچ (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وها مسكن وراء وألف وياء آخر الحروف مكسورة وجيم) وهى مدينة حسنة فى عدوة نهر السرو وهو واد كبير شديد الانحدار واجازه السلطان برسم زيارة قبر الشيخ الصالح البطل سالار عود الذى فتح أكثر تلك البلاد وله أخبار عجيبة وغزوات شهيرة ونكاثر الناس للجواز وتزاحموا حتى غرق مركب كبير كان فيه نحو ثلاثمائة نفس لم ينج منهم الا عربي من أصحاب الامير غداو كنار كبنا نحن فى مركب صغير فسلمنا الله تعالى وكان العربي الذي سلم من الغرق يسمي بسالم وذلك اتفاق عجيب وكان أرادان يصعد معنا فى مركبنا فوجدنا قد ركبنا النهر فركب فى المركب الذى غرق فلما خرج ظن الناس انه كان معنا فقامت ضجة فى أصحابنا وفى سائر الناس وتوهموا انا غرقنا ثم لما رأونا بعد استبشروا بسلامتنا وزرنا قبر الصالح المذكور وهو فى قبة لم نجد سبيلا الى

Digitized by Birzeit University Library

دخولها لكثرة الزحام وفي تلك الوجهة دخلنا غيضة قصب فخرج علينا منها الكركدن فقتل وأتي الناس برأسه وهو دون الفيل ورأسه أكبر من رأس الفيل باضعاف وقد ذكرناه

— ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفة علي شاه كر —

ولما ظفر السلطان بعين الملك كما ذكرنا عاد الى حضرته بعد مغيب عامين ونصف وعفا عن عين الملك وعفا أيضا عن نصرة خان القائم ببلاد التلنك وجعلهما معا على عمل واحد وهو النظر على بساتين السلطان وكساها واركبهما وعين لهما نفقة من الدقيق واللحم في كل يوم و بلغ الخبر بعد ذلك ان أحد أصحاب قطلوخان وهو علي شاه كرومعنى كر الاطرش خالف على السلطان وكان شجاعا حسن الصورة والسيرة فغلب على بدركوت وجعلها مدينة ملكه وخرجت العساكر اليه وأمر السلطان معلمه ان يخرج الى قتاله فخرج في عساكر عظيمة وحصره ببدركوت ونقبت ابراجها واشتدت به الحال فطلب الامان فامنه قطلوخان وبعث به الى السلطان مقيدا فعفا عنه ونفاه الى مدينة غزنة من طرف خراسان فاقام بها مدة ثم اشتاق الى وطنه فاراد العودة اليه لما قضاه الله من حينه فقبض عليه ببلاد السند واتى به السلطان فقال له انما جئت لتثير الفساد ثانية وأمر به فضربت عنقه

— ذكر فرار أمير بخت وأخذه —

وكان السلطان قد وجد على أمير بخت الملقب بشرف الملك أحد الذين وفدوا معنا على السلطان فحط مرتبه من أربعين ألفا الى ألف واحد وبعثه في خدمة الوزير الى دهلي واتفق ان مات أمير عبد الله الهروي في الوباء في التلنك وكان ماله عند اصحابه بدهلي فاتفقوا مع أمير بخت على الهروب فلما خرج الوزير من دهلي الى لقاء السلطان هربوا مع أمير بخت وأصحابه ووصلوا الى أرض السند في سبعة ايام وهو مسيرة اربعين يوما وكان معهم الخيل مجنوبة وعزموا على ان يقطعوا نهر السند عوما ويركب أمير بخت وولده ومن لا يحسن العوم في معدية قصب يصنعونها وكانوا قد أعدوا حبالا من الحرير برسم ذلك فلما وصلوا الى النهر خافوا من عبوره بالعوم فبعثوا رجلين منهم الى جلال الدين صاحب مدينة أوجة فقالا له ان ها هنا تجارا أرادوا أن يعبروا النهر وقد بعثوا اليك بهذا السرج لتبيح لهم الجواز فانكر الاميران يعطي التجار مثل ذلك السرج وأمر بالقبض على الرجلين ففر احدهما ولحق بشرف الملك واصحابه وهم نيام لما لحقهم من الاعياء ومواصلة السهر فاخبرهم الخبر فركبوا مذعورين وفروا وامر جلال الدين بضرب الرجل الذي قبض عليه فاعترف بقضية شرف الملك فامر جلال الدين نائبه فركب في العسكر وقصدوا نحوهم فوجدوهم قد ركبوا فاقتفوا اثرهم

Digitized by Birzeit University Library

فادركوهم فرموا العسكر بالنشاب ورمى طاهر بن شرف الملك نائب الامير جلال الدين بسهم فاثبته فى ذراعه وغلب عليهم فاتى بهم الى جلال الدين فقيدهم وغل أيديهم وكتب الى الوزير فى شانهم فامره الوزير ان يبعثهم الى الحضرة فبعثهم اليها وسجنوا بها فمات طاهر فى السجن فامر السلطان ان يضرب شرف الملك مائة مقرعة فى كل يوم فبقى على ذلك مده ثم عفا عنه وبعث مع الامير نظام الدين أمير نجلة الى بلاد جندبرى فانتهت حاله الى ان كان يركب البقر ولم يكن له فرس يركبه وأقام على ذلك مدة ثم وفد ذلك الامير على السلطان وهو معه فجعله السلطان شاشنكيرة (جاشنكير) وهو الذى يقطع اللحم بين يدى السلطان ويمشي مع الطعام ثم انه بعد ذلك نوه به ورفع مقداره وانتهت حاله الى ان مرض فزاره السلطان وأمر بوزنه بالذهب وأعطاه ذلك وقد قدمنا هذه الحكاية في السفر الاول وبعد ذلك زوجه باخته واعطاه بلاد جندبرى التى كان بها البقر فى خدمة الامير نظام الدين فسبحان مقلب القلوب ومحول الاحوال

— ذكر خلاف شاه أفغان بارض السند —

وكان شاه أفغان خالف على السلطان بارض ملتان من بلاد السند وقتل الامير بها وكان يسمى به زاد وادعى السلطنة لنفسه وتجهز السلطان لقتاله فعلم انه لا يقاومه فهرب ولحق لقومه الافغان وهم ساكنون بجبال منيعة لا يقدر عليها فاغتاظ السلطان مما فعله وكتب الى عماله ان يقبضوا على من وجدوه من الافغان ببلاده فكان ذلك سببا لخلاف القاضي جلال

— ذكر خلاف القاضى جلال —

وكان القاضي جلال وجماعة من الافغانيين قاطنين بمقربة من مدينة كنباية ومدينة بلوذرة فلما كتب السلطان الى عماله بالقبض على الافغانيين كتب الى ملك مقبل نائب الوزير ببلاد الجزرات ونهروالة أن يحتال فى القبض على القاضى جلال ومن معه وكانت بلاد بلوذرة اقطاعا لملك الحكاء وكان ملك الحكاء متزوجا بربيبة السلطان زوجة أبيه تغلق ولها بنت من تغلق هي التى تزوجها الامير غدا وملك الحكاء اذذاك فى صحبة مقبل لان بلاده تحت نظره فلما وصلوا الى بلاد الجزرات أمر مقبل ملك الحكاء ان ياتي بالقاضى جلال وأصحابه فلما وصل ملك الحكاء الى بلاده حذرهم فى خفية لانهم كانوا من أهل بلاده وقال ان مقبلا طلبكم ليقبض عليكم فلا تدخلوا عليه الا بالسلاح فركبوا فى نحو ثلاثمائة مدرع وأتوه وقالوا لا ندخل الا جملة فظهر له انه لا يمكن القبض عليهم وهم مجتمعون وخاف منهم فامرهم بالرجوع واظهر تامينهم فخلفوا عليه ودخلوا مدينة كنباية ونهبوا خزانة السلطان بها وأموال الناس ونهبوا مال ابن الكولمي التاجر وهو

Digitized by Birzeit University Library

الذي عمر المدرسة الحسنة باسكندرية وسنذكره أثر هذا وجاء ملك مقبل لقتالهم فهزموه هزيمة شنيعة وجاء الملك عزيز الخمار والملك جهان بنبل لقتالهم في سبعة آلاف من الفرسان فهزموهم أيضا وتسامع بهم أهل الفساد والجرائم فانثالوا عليهم وادعى القاضي جلال السلطنة وبايعه أصحابه وبعث السلطان اليه العساكر فهزمها وكان بدولة آباد جماعة من الافغان فخالفوا أيضا — ذكر خلاف ابن الملك مل —

وكان ابن الملك مل ساكنا بدولة آباد في جماعة من الافغان فكتب السلطان الى نائبه بها وهو نظام الدين أخو معلمه قطلوخان ان يقبض عليهم وبعث اليه باحمال كثيرة من القيود والسلاسل وبعث بخلع الشتاء وعادة ملك الهند أن يبعث لكل أمير على مدينة ولوجوه عسكره خلعتين في السنة خلعة الشتاء وخلعة الصيف واذا جاءت الخلع يخرج الامير والعسكر للقائها فاذا وصلوا الى الآتي بها نزلوا عن دوابهم وأخذ كل واحد خلعته وحملها على كتفه وخدم لجهة السلطان وكتب السلطان لنظام الدين اذا خرج الافغان ونزلوا عن دوابهم لاخذ الخلع فاقبض عليهم عند ذلك وأتي أحد الفرسان الذين أوصلوا الخلع الى الافغان فاخبرهم بما يراد بهم فكان نظام الدين ممن احتال فانعكست عليه فركب وركب الافغان معه حتى اذا القوا الخلع ونزل نظام الدين عن فرسه حملوا عليه وعلى أصحابه فقبضوا عليه وقتلوا كثيرا من أصحابه ودخلوا المدينة فاخذوا الخزائن وقدموا على أنفسهم ناصر الدين ابن ملك مل وانثال عليهم المفسدون فقويت شوكتهم

— ذكر خروج السلطان بنفسه الى كنبايه —

ولما بلغ السلطان ما فعله الافغان بكنبايه ودولة آباد خرج بنفسه وعزم على ان يبدأ بكنبايه ثم يعود الى دولة آباد وبعث أعظم ملك البايزيدى صهره في أربعة آلاف مقدمة فاستقبلته عساكر القاضي جلال فهزموه وحصروه ببلوذرة وقاتلوه بها وكان في عسكر القاضي جلال شيخ يسمى جلول وهو أحد الشجعان فلا يزال يفتك في العساكر ويقتل ويطلب المبارزة فلا يتجاسر أحد على مبارزته واتفق يوما انه دفع فرسه فكبا به في حفرة فسقط عنه وقتل ووجدوا عليه درعين فبعثوا برأسه الى السلطان وصلبوا جسده بسور بلوذرة وبعثوا يديه ورجليه الى البلاد ثم وصل السلطان بعساكره فلم يكن للقاضي جلال من ثبات فغر في أصحابه وتركوا أموالهم وأولادهم فنهب ذلك كله ودخلت المدينة وأقام بها السلطان أياما ثم رحل عنها وترك بها صهره شرف الملك أمير بخت الذي قدمنا ذكره وقضية فراره وأخذه بالسند وسجنه وما جري عليه من الذل ثم من العز وأمره بالبحث عمن كان في طاعة

جلال الدين وترك معه الفقهاء ليحكم باقوالهم فادي ذلك الى قتل الشيخ علي الحيدري حسبما قدمناه ولما هرب القاضي جلال لحق بناصر الدين بن ملك مل بدولة آباد ودخل في جملته فاتى السلطان بنفسه اليهم واجتمعوا في نحو أربعين الفا من الافغان والترك والهنود والعبيد وتحالفوا على ان لا ينفروا وان يقاتلوا السلطان وأتى السلطان لقتالهم ولم يرفع الشطر الذي هو علامة عليه فلما استحر القتال رفع الشطر فلما عاينوه دهشوا وانهزموا اقبح هزيمة ولحق ابن ملك مل والقاضي جلال في نحو أربعمائة من خواصهما الى قلعة الدويقير وسنذكرها وهي من امنع قلعة في الدنيا واستقر السلطان بمدينة دولة آباد الدويقير وهي قلعتها وبعث لهم ان ينزلوا على حكمه فابوا ان ينزلوا الا على الامان فابى السلطان ان يؤمنهم وبعث لهم الاطعمة تترا ونابهم وأقام هنالك وعلى ذلك آخر عهدي بهم

— ذكر قتال مقبل وابن الكولمي —

وكان ذلك قبل خروج القاضي جلال وخلافه وكان تاج الدين بن الكولمي من كبار التجار فوفد على السلطان من أرض الترك بهدايا جليلة منها المماليك والجمال والمتاع والسلاح والثياب فاعجب السلطان فعله واعطاه اثني عشر لكا وبذكر انه لم تكن قيمة هديته الا لكا واحدا وولاه مدينة كنبايه وكانت لنظر الملك المقبل نائب الوزير فوصل اليها وبعث المراكب الى بلاد المليبار وجزيرة سيلان وغيرها وجاءته التحف والهدايا في المراكب وضخمت حاله ولما لم يبعث أموال تلك الجهات الى الحضرة بعث الملك مقبل الى ابن الكولمي ان يبعث ما عنده من الهدايا والاموال مع هدايا تلك الجهات على العادة فامتنع ابن الكولمي من ذلك وقال أنا أحملها بنفسي أو أبعثها مع خدامي ولا حكم لنائب الوزير على ولا للوزير وأغتر بما أولاه السلطان من الكرامة والعطية فكتب مقبل الى الوزير بذلك فوقع له الوزير على ظهر كتابه ان كنت عاجزا عن بلادنا فاتركها وارجع الينا فلما بلغه الجواب تجهز في عسكره ومماليكه والتقيا بظاهر كنبايه فانهزم ابن الكولمي وقتل جماعة من الفريقين واستخفى ابن الكولمي في دار الناخودة (الناخذا) الياس أحد كبراء التجار ودخل مقبل المدينة فضرب رقاب أمراء عسكر ابن الكولمي وبعث له الامان على ان ياخذ ماله المختص به ويترك مال السلطان وهديته ويجي البلد وبعث مقبل بذلك كله مع خدامه الى السلطان وكتب شاكيا من ابن الكولمي وكتب ابن الكولمي شاكيا منه فبعث السلطان ملك الحكماء ليتنصف بينهما وباثر ذلك كان خروج القاضي جلال الدين فنهب مال ابن الكولمي وفر ابن الكولمي في بعض مماليكه ولحق بالسلطان

— ذكر الغلاء الواقع بارض الهند —

وفي مدة مغيب السلطان عن حضرته اذ خرج يقصد بلاد المعبر وقع الغلاء واشتد الامر وانتهى المن الى ستين درهما ثم زاد على ذلك وضاقت الاحوال وعظم الخطب ولقد خرجت مرة الى لقاء الوزير فرأيت ثلاث نسوة يقطعن قطعا من جلد فرس مات منذ أشهر ويأكلنه وكانت الجلود تطبخ وتباع في الاسواق وكان الناس اذا ذبحت البقر أخذوا دماءها فاكلوها وحدثني بعض طلبة خراسان انهم دخلوا بلدة تسمى اكروهة بين حانسي وسرستي فوجدوها خالية فقصدوا بعض المنازل ليبيتوا به فوجدوا في بعض بيوته رجلا قد أضرم نارا وبيده رجل آدمي وهو يشويها في النار ويأكل منها والعياذ بالله ولما اشتد الحال أمر السلطان ان يعطى لجميع أهل دهلى نفقة ستة أشهر فكانت القضاة والكتاب والامراء يطوفون بالازقة والحارات ويكتبون الناس ويعطون لكل أحد نفقة ستة اشهر بحساب رطل ونصف من ارطال المغرب في اليوم لكل واحد وكنت في تلك المدة أطعم الناس من الطعام الذي أصنعه بمقبرة السلطان قطب الدين حسبما ذكر فكان الناس ينتعشون بذلك والله تعالى ينفع بالقصد فيه وقد ذكرنا من أخبار السلطان وما كان في أيامه من الحوادث ما فيه الكفاية فلنعد الى ما يخصنا من ذلك ونذكر كيفية وصولنا أولا الى حضرته وتنقل الحال الى خروجنا عن الخدمة ثم خروجنا عن السلطان في الرسالة الى الصين وعودنا منها الى بلادنا ان شاء الله تعالى

— ذكر وصولنا الى دار السلطان عند قدومنا وهو غائب —

ولما دخلنا حضرة دهلى قصدنا باب السلطان ودخلنا الباب الاول ثم الثاني ثم الثالث ووجدنا عليه النقباء وقد تقدم ذكرهم فلما وصلنا اليهم تقدم بنا نقيبهم الى مشور عظيم متسع فوجدنا به الوزير خواجه جهان ينتظرنا فتقدم ضياء الدين خداوندزاده ثم تلاه أخوه قوام الدين ثم أخوهما عماد الدين ثم تلوتهم ثم تلاني أخوهم برهان الدين ثم الامير مبارك السمرقندي ثم ارن بغا التركي ثم ملك زاده ابن أخت خداوندزاده ثم بدر الدين الفصال ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزار اساطون (استون) ومعنى ذلك ألف سارية وبه مجلس السلطان الجلوس العام فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الارض وخدمنا نحن بالركوع وأوصلنا أصابعنا الى الارض وخدمتنا لناحية سرير السلطان وخدم جميع من معنا فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء باصوات عالية باسم الله وخرجنا

— ذكر وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها —

Digitized by Birzeit University Library

وأم السلطان تدعى المخدومة جهان وهي من أفضل النساء كثيرة الصدقات عمرت زوايا كثيرة وجعلت فيها الطعام للواردو الصادر وهي مكنفوفة البصر وسبب ذلك انه لما ملك ابنها جاء اليها جميع الخواتين وبنات الملوك والامراء في أحسن زى وهي على سرير الذهب المرصع بالجوهر فخدمن بين يديها جميعا فذهب بصرها للحين وعولجت بانواع العلاج فلم ينفع وولدها أشد الناس برابها ومن بره انها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة فلما قدمت خرج لاستقبالها وترجل عن فرسه وقبل رجلها وهي في المحفة بمرأى من الناس أجمعين ولنعد لما قصدناه فنقول ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه الى باب الصرف وهم يسمونه باب الحرم وهنالك سكني المخدومة جهان فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب وكل واحد منا قد أتي بهدية على قدر حاله ودخل معنا قاضي قضاة الممالك كمال الدين بن البرهان مخدوم الوزير والقاضي عند بابها وخدمنا كخدمتهم وكتب كاتب بابها هدايانا ثم خرج من الفتيان جماعة وتقدم كبارهم الى الوزير فكلموه سرا ثم عادوا الى القصر ثم رجعوا الى الوزير ثم عادوا الى القصر ونحن وقوف ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك ثم أتوا بالطعام وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السين (بضم السين والياء آخر الحروف) وهي مثل القدور ولها مرافع من الذهب تجلس عليها يسمونها السبك (بضم السين وبضم الباء الموحدة) وأتوا باقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب وجعلوا الطعام سماطين وعلى كل سماط صفان ويكون في رأس الصف كبير القوم الواردين ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء وخدمنا خدمتهم ثم أتوا بالشربة فشربنا وقال الحجاب بسم الله ثم أكلنا وأتوا بالقطاع ثم بالتنبول ثم قال الحجاب بسم الله فخدمنا جميعا ثم دعينا الى موضع هنالك فخلع علينا خلع الحرير المذهبة ثم أتوا بنا الى باب القصر فخدمنا عنده وقال الحجاب بسم الله ووقف الوزير ووقفنا معه ثم أخرج من داخل القصر تحت ثياب غير مخيطة من حرير وكتان وقطن فاعطى كل واحد منا نصيبه منها ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة وبطيفور مثله فيه الجلاب وطيفور ثالث فيه التنبول ومن عادتهم ان الذي يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ثم يخدم بيده الاخرى الى الارض فاخذ الوزير الطيفور بيده قصدا أن يعلمني كيف أفعل اينا سامنه وتواضعا ومبرة جزاه الله خيرا ففعلت كفعله ثم انصرفنا الى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلي وبمقربة من دروازة بالم منها وبعثت لنا الضيافة

— ذكر الضيافة —

Digitized by Birzeit University Library

ولما وصلت الى الدار التي أعددت لنزولي وجدت فيها ما يحتاج اليه من فرش وبسط وحصر واوان وسرير الرقاد وأسرتهم بالهند خفيفة الحمل يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر يحمله غلامه على رأسه وهو أربع قوائم مخروطة يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن فاذا نام الانسان عليه لم يحتج الى ما يربطه به لانه يعطى الرطوبة من ذاته وجاؤا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف كل ذلك من الحرير وعادتهم أن يجعلوا المضربات واللحوف (واللحف) ووجوهها تغشيها من كتان أو قطن بيضاء فمتى توسخت غسلوا الوجوه المذكورة وبقي ما في داخلها مصونا وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني ويسمونه الخراص والآخر الجزار ويسمونه القصاب فقالوا لنا خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق ومن هذا كذا وكذا من اللحم لا وزان لا أذكرها الآن وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق وهذا الذي ذكرناه ضيافة أم السلطان وبعد ذلك وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا الى دار السلطان وسلمنا على الوزير فاعطاني بدرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم وقال لي هذه سرششتي (شستي) ومعناه غسل رأسك وأعطاني خلعة من المرعز وكتب جميع أصحابي وخدامي وغلماني فجعلوا أربعة أصناف فالصنف الاول منها أعطي كل واحد منهم مائتي دينار والصنف الثاني أعطى كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا والصنف الثالث أعطي كل واحد مائة دينار والصنف الرابع أعطي كل واحد خمسة وسبعين دينارا وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما اعطوه أربعة آلاف دينار ونيفا وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان وهي الف رطل هندية من الدقيق ثلثها من الميرا وهو الدرمك وثلثاها من الخشكار وهو المدهون والف رطل من اللحم ومن السكر والسمن والسليف والفوفل ارطال كثيرة لا اذكر عددها والالف من ورق التنبول والرطل الهندي عشرون رطلا من ارطال المغرب وخمسة وعشرون من ارطال مصر وكانت ضيافة خداوند زاده اربعة آلاف رطل من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما ينا سبها مما ذكرناه

— ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك —

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لي سنها دون السنة فاتصل خبر وفاتها بالوزير فامر ان تدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم بقرب مقبرة هنالك لشيخنا ابراهيم القونوي فدفناها بها وكتب بخبرها الى السلطان فاتاه الجواب في عشي اليوم الثاني وكان بين متصيد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة ايام وعادتهم ان يخرجوا الى قبر الميت

صبيحة الثالث من دفنه ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الازاهير وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه (كل شبو) وهي زهر أصفر وريبول وهو أبيض والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر ويجعلون اغصان النارنج والليمون بثمارها وان لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرؤن القرآن فاذا اختموه أتوا بماء الجلاب فسقوه الناس ثم يصب عليهم ماء الورد صبا ويعطون التنبول وينصرفون ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت خرجت عند الصبيح على العادة واعددت ما تيسر من ذلك كله فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك وامر بسراجة فضربت على القبر وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي الذي تلقانا بالسند والقاضي نظام الدين الكرواني وجملة من كبار أهل المدينة ولم آت الا والقوم المذكورون وقد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم وهم يقرؤن القرآن فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر فلما فرغوا من القراءة قرأ القراء باصوات حسان ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة وثناء على السلطان وعند ذكر اسمه قام الناس جميعا قياما فخدموا ثم جلسوا ودعا القاضي دعاء حسنا ثم أخذ الحاجب وأصحابه برامي ماء الورد فصبوا على الناس ثم داروا عليهم باقداح شربة النبات ثم فرقوا عليهم التنبول ثم أتي باحدى عشرة خلعة لي ولاصحابي ثم ركب الحاجب وركبنا معه الى دار السلطان فخدمنا للسرير على العادة وانصرفت الى منزلي فما وصلت الا وقد جاء الطعام من دار المخدومة جهان ماملا الدار ودور أصحابي واكلوا جميعا وأكل المساكين وفضلت الاقراص والحلواء والنبات فاقامت بقاياها أياما وكان فعل ذلك كله بامر السلطان وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة وهي المحفة التي يحمل فيها النساء ويركبها الرجال أيضا وهي شبه السرير سطحها من ضفائر الحرير او القطن وعليها عود شبه الذي على البوجات عندنا معوج من القصب الهندي المغلوق ويحملها ثمانية رجال في نوبتين يستريح أربعة ويحمل أربعة وهذه الدول بالهند كالحمير بديار مصر عليها يتصرف اكثر الناس فمن كان له عبيد حملوه ومن لم يكن له عبيدا كترى رجالا يحملونه وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون في الاسواق وعند باب السلطان وعند ابواب الناس للكرى وتكون دول النساء مغشاة بغشاة حرير وكذلك كانت هذه الدولة التي أتى الفتيان بها من دار السلطان فحملوا فيها جاريتي التي هي أم البنت المتوفاة وبعثت انا معها عن هدية جارية تركية فاقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة وجاءت في اليوم الثاني وقد أعطوها الف

Digitized by Birzeit University Library

دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهليلا من الذهب مرصعا ايضا وقميص كتان مزركشا بالذهب وخلعة حرير مذهبة ونحتا باثواب ولما جاءت بذلك كله اعطيته لاصحابي وللتجار الذين لهم على الدين محافظة علي نفسي وصونا لعرضي لان المخبرين يكتبون الى السلطان بجميع أحوالي

— ذكر احسان السلطان والوزير الى في أيام غيبة السلطان عن الحضرة —

وفي أثناء مقامي أمر السلطان ان يعين لي من القري ما يكون فائدة خمسة آلاف دينار في السنة فعينها الى الوزير وأهل الديوان وخرجت اليها فمنها قرية تسمي بدلى (بفتح الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وكسر اللام) وقرية تسمى بسبي (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل وكسر الهاء) ونصف قرية تسمي بالرة (بفتح الباء الموحدة واللام والراء) وهذه القري على مسافة ستة عشر كروها وهو الميل بصدى يعرف بصدى هندبت والصدى عندهم مجموع مائة قرية واحوز المدينة مقسومة اصداء كل صدى له جوطرى وهو شيخ من كفار تلك البلاد ومتصرف وهو الذى يضم مجابيها وكان قد وصل في ذلك الوقت سبي من الكفار فبعث الوزير الى عشر جوار منه فاعطيت للذى جاء بهن واحدة منهن فما رضى بذلك وأخذ أصحابي ثلاثا صغارا منهن وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن والسبي هنالك رخيص الثمن لانهن قدرات لا يعرفن مصالح الحضر والمعلمات رخيصات الاثمان فلا يفتقر أحد الى شراء السبي والكفار ببلاد الهند في برمتصل وبلاد متصلة مع المسلمين والمسلمون غالبون عليهم وانما يمتنع الكفار بالجبال والاوعار ولهم غيضات من القصب وقصبهم غير مجوف ويعظم ويلتف بعضه على بعض ولا تؤثر فيه النار وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض وهي لهم مثل السور وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا يقدر عليهم الا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ويقطعون تلك القصب بالآت معدة لذلك

— ذكر العيد الذى شهدته أيام غيبة السلطان —

وأظل عيد الفطر والسلطان لم يعد بعد الى الحضرة فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل وقد مهد له على ظهره شبه السرير وركزت أربعة أعلام في أركانه الاربعة ولبس الخطيب ثياب السواد وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون امامه وركب فقهاء المدينة وقضاتها وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج الى المصلى ونصب على المصلى صيوان قطن وفرش ببسط واجتمع الناس ذاكرين لله تعالى ثم صلي بهم الخطيب

وخطب وانصرف الناس الى منازلهم وانصرفنا الى دار السلطان وجعل الطعام فحضره الملوك والامراء والاعزة وهم الغرباء وأكلوا وانصرفوا

— ذكر قدوم السلطان ولقائنا له —

ولما كان في رابع شوال نزل السلطان بقصر يسمى تلبت (بكسر التاء المعلوة الاولى وسكون اللام وفتح الباء الموحدة ثم تاء كالاولى) وهي على مسافة سبعة اميال من الحضرة فامرنا الوزير بالخروج اليه فخرجنا ومع كل انسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الاتراك فوصلنا الى باب القصر وقد اجتمع جميع القادمين فكانوا يدخلون الى السلطان على قدر مراتبهم ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب ولما وصلت النوبة الى دخلت فوجدت السلطان قاعدا على كرسي فظننته أحد الحجاب حتى رأيت معه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي وكنت عرفته أيام غيبة السلطان فخدم الحاجب فخدمت واستقبلني أمير حاجب وهو ابن عم السلطان المسمى بفيروز وخدمت ثانية لخدمته ثم قال لي ملك الندماء بسم الله مولانا بدر الدين وكانوا يدعونني بارض الهند بدر الدين وكل من كان من أهل الطلب انما يقال له مولانا فقربت من السلطان حتى أخذ بيدي وصافحني وأمسك يدي وجعل يخاطبني باحسن خطاب ويقول لي باللسان الفارسي حلت البركة قدومك مبارك اجمع خاطرك اعمل معك من المراحم وأعطيك من الانعام ما يسمع به أهل بلادك فيأتون اليك ثم سألني عن بلادي فقلت له بلاد المغرب فقال لي بلاد عبدالمؤمن فقلت له نعم وكان كلما قال لي كلاما جيدا قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات وخلع علي وانصرفت واجتمع الواردون فمد لهم سماط ووقف على رؤوسهم قاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي وكان من كبار الفقهاء وقاضي قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوي وعماد الملك عرض المماليك والملك جلال الدين الكيجي وجماعة من الحجاب والامراء وحضر لذلك خدا وندزاده غياث الدين بن عم خدا وندزاده قوام الدين قاضي الترمذ الذي قدم معنا وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالاخ وتردد اليه مرارا من بلاده والواردون الذين خلع عليهم في ذلك هم خدا وندزاده قوام الدين واخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخته أمير بخت ابن السيد تاج الدين وكان جده وجيه الدين وزير خراسان وكان خاله علاء الدين أمير هند ووزيرا أيضا والامير هبة الله بن القلنكي التبريزي وكان أبوه نائب الوزير بالعراق وهو الذي بنى المدرسة القلنكية بتبريز وملك كراى من أولاد بهرام جور (جوبين)

صاحب كسرى وهو من أهل جبل بدخشان الذى منه يجلب الياقوت البلخش واللازورد والامير مبارك شاه السمرقندى وأرون بقا البخاري وملك زاده الترمذى وشهاب الدين الكازرونى التاجر الذى قدم من تبريز بالهدية الى السلطان فسلب فى طريقه

— ذكر دخول السلطان الى حضرته وما أمر لنا به من المراكب —

وفى الغد من يوم خروجنا الى السلطان أعطي كل واحد منا فرسا من مراكب السلطان عليه سرج ولجام محليان وركب السلطان لدخول حضرته وركبنا فى مقدمته مع صدر الجهان وزينت الفيلة امام السلطان وجعلت عليها الاعلام ورفعت عليها ستة عشر اشطرا منها مزركشة ومنها مرصعة ورفع فوق رأس السلطان شطرا منها وحملت امامه الغاشية وهي ستارة مرصعة وجعل على بعض الفيلة زعادات صغار فلما وصل السلطان الى قرب المدينة رمى فى تلك الزعادات بالدنانير والدراهم مختلطة والمشاة بين يدى السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك ولم يزالوا ينثرونها الى أن وصلوا الى القصر وكان بين يديه آلاف من المشاة على الاقدام وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير وفيها المغنيات حسبما ذكرنا ذلك

— ذكر دخولنا اليه وما أنعم به من الاحسان والولاية —

ولما كان يوم الجمعة ثانى يوم دخول السلطان أتينا باب المشور فجلسنا فى سقائف الباب الثالث ولم يكن الاذن حصل لنا بالدخول وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجى فامر الكتاب ان يكتبوا أسماءنا وأذن لهم فى دخولنا ودخول بعض أصحابنا وعين للدخول معى ثمانية فدخلنا ودخلوا معنا ثم جاؤا بالبدر والقبان وهو الميزان وقعد قاضى القضاة والكتاب ودعوا من الباب من الاعزة وهم الغرباء فعينوا لكل انسان نصيبه من تلك البدر فحصل لى منها خمسة آلاف دينار وكان مبلغ المال مائة الف دينار تصدقت به ام السلطان لما قدم اينها وانصرفنا ذلك اليوم وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ويسال عن أحوالنا ويخاطبنا باجمل كلام ولقد قال لنا فى بعض الايام أنتم شرفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافاتكم فالكبير منكم مقام والدي والكهل مقام أخي والصغير مقام ولدى وما فى ملكى أعظم من مدينتى هذه أعطيكم اياها فشكرناه ودعونا له ثم بعد ذلك امر لنا بالمرتبات فعين لى اثنى عشر ألف دينار فى السنة وزادني قريتين على الثلاث التى أمر لى بها قبل احداهما قرية جوزة والثانية قرية ملك بورو فى بعض الايام بعث لنا خداوندزاده غياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا ان خوندعالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الامارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك فسكت الجميع لانهم كانوا يريدون

Digitized by Birzeit University Library

تحصيل الاموال والانصراف الى بلادهم وتكلم امير بخت ابن السيد تاج الدين الذي تقدم ذكره فقال أما الوزارة فميراثي وأما الكتابة فشغلي وغير ذلك لا اعرفه وتكلم هبة الله بن الفلكي فقال مثل ذلك وقال لي خداوندزاده بالعربي ماتقول انت ياسيدي وأهل تلك البلاد مايدعون العربي الا بالتسويد وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب فقلت له أما الوزارة والكتابة فليست شغلي وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي وأما الامارة فتعلمون ان الاعاجم ما أسلمت الا باسياف العرب فلما بلغ ذلك الى السلطان أعجبه كلامي وكان بهزار اسطون ياكل الطعام فبعث عنا فاكلنا بين يديه وهو ياكل ثم انصرفنا الى خارج هزار اسطون فقعد أصحابي وانصرفت بسبب دمل كان بمنعني الجلوس فاستدعانا السلطان ثانية فحضر أصحابي واعتذروا له عني وجئت بعد صلاة العصر فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة ثم خرج الحاجب فاستدعانا فدخل خداوندزاده ضياء الدين وهو أكبر الاخوة المذكورين فجعله السلطان أمير داد وهو من الامراء الكبار فجلس بمجلس القاضي فمن كان له حق على أمير او كبير احضره بين يديه وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار في السنة عين له مجاشر فائدها ذلك المقدار فامر له بخمسين ألفا عن يد وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير ومعناه صورة السبع لانه يكون في صدرها وظهرها صورة سبع وقد خيط في باطن الخلعة بطاقة بمقدار مازركش فيها من الذهب وأمر له بفرس من الجنس الاول والخيل عندهم أربعة اجناس وسروجهم كسروج أهل مصر ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة ثم دخل أمير بخت فامره أن يجلس مع الوزير في مشده ويقف على محاسبات الدواوين وعين له مرتبا اربعين ألف دينار في السنة أعطى مجاشر فائدها بمقدار ذلك واعطي اربعين ألفا عن يد وأعطي فرسا مجهزا وخلع عليه كخلعة الذي قبله ولقب شرف الملك ثم دخل هبة الله ابن الفلكي فجعله رسول دار ومعناه حاجب الارسال وعين له مرتبا اربعين ألف دينار في السنة أعطي مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك وأعطي أربعة وعشرين الفا عن يد وأعطى فرسا مجهزا وخلعة وجعل لقبه بهاء الملك ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا الى السرير والوزير خواجه جهان بين يديه والملك الكبير قبولة واقف بين يديه فلما سلمت عليه قال لي الملك الكبير اخدم فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك دهلي وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة وعين لك مجاشر بمقدارها وأمر لك باثني عشر ألفا نقدا تاخذها من الخزانة غدا ان شاء الله واعطاك فرسا بسرجه ولجامه وأمر لك بخلعة محاربين وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب فخدمت

وأخذ بيدى فتقدم بى الى السلطان فقال لى السلطان لا تحسب قضاء دهلى من اصغر الاشغال هو أكبر الاشغال عندنا وكنت أفهم قوله ولا أحسن الجواب عنه وكان السلطان يفهم العربي ولا يحسن الجواب عنه فقلت له يا مولانا أنا على مذهب مالك وهؤلاء حنفية وأنا لا أعرف الاسان فقال لى قد عينت بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البجنورى ينوبان عنك ويشاورانك وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الولد فقلت له بل عبدكم وخديمكم فقال لى بالسان العربي بل انت سيدنا ومخدومنا تواضعا منه وفضلا وإيناسا ثم قال لشرف الملك أمير بخت ان كان الذي ترتب له لا يكفيه لانه كثير الانفاق فانا أعطيه زاوية ان قدر على اقامة حال الفقراء وقال قل له هذا بالعربي وكان يظن انه يحسن العربى ولم يكن كذلك وفهم السلطان ذلك فقال له بروو يكجا بخصبي (بخسبي) وان حكاية براو بكوي وتفهيم كني (بكني) تا فردا ان شاء الله بيش من بيايى (و) جواب او بكرى (بكوى) معناه امشوا الليلة فاردوا فى موضع واحد وفهمه هذه الحكاية فاذا كان بالغدان شاء الله بجيء الى وتعلمنى بكلامه فانصرفنا وذلك فى ثلث الليل وقد ضربت النوبة والعادة عندهم اذا ضربت لا يخرج أحد فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه ووجدنا أبواب دهلى مسدودة فبتنا عند السيد أبى الحسن العبادي العراقي بزقاق يعرف بسرا بور خان وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان ويشترى له الاسلحة والامتعة بالعراق وخراسان ولما كان بالغد بعث عنا فقبضنا الاموال والخيل والخلع وأخذ كل واحد منا البدرة بالمال فجعلها على كاهله ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا وأتينا بالافراس فقبلنا حوافرها بعد ان جعلت عليها الخرق وقددناها بانفسنا الى باب دار السلطان فركبناها وذلك كله عادة عندهم ثم انصرفنا وامر السلطان لاصحابى بالفى دينار وعشر خلع ولم يعط لاصحابى أحد سواى شيئا وكان أصحابى لهم رواء ومنظر فاعجبوا السلطان وخدموا بين يديه وشكرهم

— ذكر عطاء ثان أمر لى به وتوقفه مدة —

وكنت يوما بالمشور بعد أيام من توليتى القضاء والاحسان الى وانا قاعد تحت شجرة هناك والى جانبى مولانا ناصر الدين الترمذى العالم الواعظ فاتى بعض الحجاب فدعى مولانا ناصر الدين فدخل الى السلطان فخلع عليه واعطاه مصحفا مكللا بالجوهر ثم اتانى بعض الحجاب فقال اعطنى شيئا وآخذ لك خط خرد باثنى عشر ألفا امر لك بها خوند عالم لم اصدقه وظننته يريد الحيلة على وهو يجد فى كلامه فقال بعض الاصحاب انا اعطيه فاعطاه دينارين او ثلاثة وجاء بخط خرد ومعناه الخط الاصغر مكتوبا بتعريف الحاجب ومعناه امر خوند عالم ان

يعطي من الخزانة الموفورة كذا للفلان بتبليغ فلان أى بتعريفه ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الامراء وهم الخان الاعظم قطلوخان معلم السلطان والخريطة داروهو صاحب خريطة الكاغد والاقلام والامير نكبية الدوادار صاحب الدوات فاذا كتب كل واحد منهم خطه يذهب بالبراءة الى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم ثم تثبت فى ديوان الاشراف ثم تثبت فى ديوان النظر ثم تكتب اليرواتة وهى الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ثم يثبتها الخازن فى ديوانه ويكتب تلخيصا فى كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان ذلك اليوم من المال ويعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه امر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقف له ولكن لا بد من عطاء ذلك ونوطات المدة فقد توقفت هذه الاثناء عشر الفاستة اشهر ثم اخذتها مع غيرها حسبما ياتى وعادتهم اذا أمر السلطان باحسان لاحد يحط منه العشرة فمن أمر له مثلا بمائة الف اعطي تسعين ألفا أو بعشرة آلاف اعطى تسعة آلاف — ذكر طلب الغرماء مالهم قبلى ومدحي للسلطان وامره بخلاصي دينى وتوقف ذلك مدة — وكنت حسبما ذكرته قد استدنت من التجار مالا انفقته فى طريقي وما صنعت به الهدية للسلطان وما انفقته فى اقامتي فلما أرادوا السفر الى بلادهم ألحوا على فى طلب ديونهم فمدحت السلطان بقصيدة طويلة اولها (طويل)

اليك أمير المؤمنين المبجلا * أتينا نجد السير نحوك فى الفلا
فجئت محلا من علائك زائرا * ومغناك كهف للزيارة أهلا
فلوان فوق الشمس للمجد رتبة * لكنت لاعلاها اماما ومؤهلا
فانت الامام الماجد الاوحد الذي * سجاياه حتما أن يقول ويفعلا
ولى حاجة من فيض جودك ارتجي * قضاها وقصدى عند مجدك سهلا
أأذكرها أم قد كفانى حياؤكم * فان حياكم ذكره كان اجملا
فعجل لمن وافى محلك زائرا * قضا دينه ان الغريم تعجلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسي فجعلها على ركبته وامسك طرفها بيده وطرفها الثاني بيدى وكنت اذا اكملت بيتا منها أقول لقاضى القضاة كمال الدين الغزنوى بين معناه لخوند عالم فيبينه ويعجب السلطان وهم يحبون الشعر العربى فلما بلغت الى قولى فعجل لمن وافى البيت قال مرحمة ومعناه ترحمت عليك فاخذ الحجاب حينئذ بيدي ليذهبوا بى الى موقفهم وأخذ على العادة فقال السلطان اتركوه حتي يكملها فاكملتها وخدمت وهنانى الناس بذلك وأقمت مدة وكتبت رقعا وهم يسمونه عرض داشت فدفعته الى قطب الملك

صاحب السند فدفعه للسلطان فقال له امض الى خواجه جهان فقل له يعطي دينه فمضى اليه وأعلمه فقال نعم وابطاذاك اياما وأمره السلطان في خلالها بالسفر الى دولة آباد وفي اثناء ذلك خرج السلطان الى الصيد وسافر الوزير فلم آخذ شيئاً منها الا بعد مدة والسبب الذي توقف به عطاؤها اذكره مستوفي وهو انه لما عزم الذين كان لهم على الدين الى السفر قلت لهم اذا أنا أتيت دار السلطان فدرهوني على العادة في تلك البلاد لعلمي ان السلطان متى يعلم بذلك خلاصهم وعادتهم انه متى كان لاحد دين على رجل من ذوي العناية وأعوزه خلاصه وقف له بباب دار السلطان فاذا أراد الدخول قال له دروهي السلطان وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلصني فلا يمكنه ان يبرح من مكانه حتى يخلصه أو يرغب اليه في تاخيره فافقق يوما ان خرج السلطان الى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك فقلت لهم هذا وقتكم فلما أردت الدخول وقفوا الى بباب القصر فقالوا الى دروهي السلطان ما تدخل حتى تخلصنا وكتب كتاب الباب بذلك الى السلطان فخرج حاجب قصة شمس الدين وكان من كبار الفقهاء فسالهم لاي شيء درهمتموه فقالوا لما عليه الدين فرجع الى السلطان فاعلمه بذلك فقال له اسالهم كم مبلغ الدين فسالهم فقالوا له خمسة وخمسون الف دينار فعاد اليه فاعلمه فامره ان يعود اليهم ويقول لهم ان خوندعالم يقول لكم لمال عندي وأنا أضمنكم منه فلا تطلبوه به وامر عماد الدين السمناني وخداوند زاده غياث الدين ان يقعدوا بهزارا سطون وياتي اهل الدين بعقودهم وينظروا اليها ويتحققوها ففعلا ذاك وأتى الغرماء بعقودهم فدخلا الى السلطان واعلماه بثبوت العقود فضحك وقال مما زحا أنا أعلم انه فاض جهز شغله فيهانم أمر خداوندزاده ان يعطيني ذلك من الخزانة فطمع في الرشوة على ذلك وامتنع أن يكتب خط خرد فبعث اليه مائتي تنكة فردها ولم ياخذها وقال لي عنه بعض خدامه انه طلب خمسمائة تنكة فامتنعت من ذلك واعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمناني بذلك فاعلم به أباه واعلمه الوزير وكانت بينه وبين خداوندزاده عداوة فاعلم السلطان بذلك وذكر له كثيرا من أفعال خداوندزاده فغير خاطر السلطان عليه فامر بحبسه في المدينة وقال لاي شيء أعطاه فلان ما أعطاه ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطى خداوندزاده شيئا اذا منعته أو يمنعه اذا أعطيته فبهذا السبب توقف عطاء ديني

— ذكر خروج السلطان الى الصيد وخروجي معه وما صنعت في ذلك —

ولما خرج السلطان الى الصيد خرجت معه من غير تربص وكنت قد أعددت ما يحتاج اليه وعملت ترتيب أهل الهند فاشتريت سراجة وهي أفراج وضربها هنا لك مباح ولا بد منها لكبار

الناس وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء وسواها بيضاء منقوشة بالازرق واشتريت الصيوان وهو الذى يظلل به داخل السراجة ويرفع على عمودين كبيرين ويجعل ذلك الرجال على أعناقهم ويقال لهم اليكوانية والعادة هنالك ان يكترى المسافر اليكوانية وقد ذكرناهم ويكتري من يسوق له العشب لعلف الدواب لانهم لا يطعمونها التبن ويكترى الكهارين وهم الذين يحملون أوانى المطبخ ويكترى من يحمله فى الدولة وقد ذكرناها ويحملها فارغة ويكترى الفراشين وهم الذين يضربون السراجة وينفرشونها ويرفعون الاحمال على الجمال ويكتري الدوادوية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل فاكتريت انا جميع من احتجت له منهم واظهرت القوة والهمة وخرجت يوم خروج السلطان وغيرى اقام بعده اليومين والثلاثة فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل وقصده أن يتطلع على أحوال الناس ويعرف من تسارع الى الخروج ومن أبطأ وجلس خارج السراجة على كرسى فجئت وسلمت ووقفت فى موقفى باليمنة فبعث الى الملك الكبير قبولة سرجا مدار وهو الذي يشرد الذباب عنه فامرنى بالجلوس عنايةً بي ولم يجلس فى ذلك اليوم سواي ثم أتى بالفيل والصق به سلم فركب عليه ورفع الشطر فوق رأسه وركب معه الخواص وجال ساعة ثم عاد الى السراجة وعادته اذا ركب أن يركب الامراء أفواجا كل أمير بفوجه وعلاماته وطبوله وانفاره وصرنايانه ويسمون ذلك المراتب ولا يركب امام السلطان الا الحجاب وأهل الطرق والطبالة الذين يتقلدون الاطبال الصغار والذين يضربون الصرنايات ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا وعن يساره مثل ذلك منهم قضاة القضاة والوزير وبعض الامراء الكبار وبعض الاعزة وكنت أنا من أهل ميمنته ويكون بين يديه المشاؤون والادلاء ويكون خلفه علاماته وهي من الحرير المذهب والاطبال على الجمال وخلف ذلك مماليكه وأهل دخلته وخلفهم الامراء وجميع الناس ولا يعلم أحد أين يكون النزول فاذا أمر السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول ولا تضرب سراجة أحد حتى تضرب سراجته ثم يأتى الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد فى منزله وفي خلال ذلك ينزل السلطان على نهر او بين أشجار وتقدم بين يديه لحوم الاغنام والدجاج المسمنة والكراكى وغيرها من أنواع الصيد ويحضر ابناء الملوك وفي يد كل واحد منهم سفود ويوقدون النار ويشترون ذلك ويؤتى بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان ويجلس من معه من الخواص خارجها ويؤتى بالطعام ويستدعى من شاء فيأكل معه وكان فى بعض تلك الايام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها فقال له السيد ناصر الدين مطهر الاوهرى أحد ندمائه ثم فلان المغربى وهو متغير فقال لماذا فقال

بسبب الدين الذي عليه وغرماؤه يلحون في الطلب وكان خوند عالم قد أمر الوزير باعطائه فسافر قبل ذلك فان أمر مولانا ان يصبر أهل الدين حتى يقدم الوزير أو أمر بانصافهم وحضر هذا الملك دولة شاه وكان السلطان يخاطبه بالعم فقال ياخوند عالم كل يوم هو يكلمني بالعربية ولا أدري ما يقول ياسيدي ناصر الدين ماذا وقصد ان يكرر ذلك الكلام فقال يتكلم لاجل الدين الذي عليه فقال السلطان اذا دخلنا دار الملك فامض أنت يا أومار ومعناه ياعم الى الخزانة فاعطه ذلك المال وكان خداوندزاده حاضرا فقال ياخوند عالم انه كثير الانفاق وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين وبعد هذا الكلام استحضرني السلطان للطعام ولا علم عندي بما جري فلما خرجت قال لي السيد ناصر الدين اشكر الملك دولة شاه وقال لي الملك دولة شاه اشكر لخداوندزاده وفي بعض تلك الايام ونحن مع السلطان في الصيد ركب في المحلة وكان طريقه على منزلي وأنا معه في الميمنة وأصحابي في الساقة وكان لي خباء عند السراجة فوقف أصحابي عندها وسلموا على السلطان فبعث عماد الملك وملك دولة شاه ليسألا لمن تلك الاخبية والسراجة فقيل لهما لفلان فاخبراه بذلك فتبسم فلما كان بالغد نفذ الامير ان اعود انا وناصر الدين مطهر الاوهري وابن قاضي مصر وملك صبيح الى البلد فخلع علينا وعدنا الى الحضرة

— ذكر الجمل الذي أهديته للسلطان —

وكان السلطان في تلك الايام سالني عن الملك الناصر هل يركب الجمل فقلت له نعم يركب المهاري في أيام الحج فيسير الى مكة من مصر في عشرة أيام ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد وأخبرته أن عندي جملا منها فلما عدت الى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر فصور لي صورة الكور الذي تركب المهاري به من الفير وارأيتها بعض النجارين نعمل الكور وتفننه وكسوته بالملف وصنعت لها كبار وجعلت على الجمل غباة حسنة وجعلت له خطام حرير وكان عندي رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء فصنع منها ما يشبه التمر وغيره وبعثت الجمل والحلواء الى السلطان وأمرت الذي حملها أن يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجملين فلما وصله ذلك دخل على السلطان وقال ياخوند عالم رأيت العجب قال وما ذلك قال فلان بعث جملا عليه سرج فقال ائتوا به فادخل الجمل داخل السراجة وأعجب به السلطان وقال لراجلي اركبه فركبه ومشاه بين يديه وأمر له بما ئتي دينار دراهم وخلعة وعاد الرجل الى فاعلمني فسرني ذلك واهديت له جملين بعد عودته الى الحضرة

— ذكر الجملين اللذين اهديتهما اليه والحلواء وأمره بخلاص ديني وما تعلق بذلك —

Digitized by Birzeit University Library

ولما عاد الى راجلى الذي بعثته بالجمل فاخبرني بما كان من شانه صنعت كوربن اثنين وجعلت مقدم كل واحد منهما مكسوا بصفائح الفضة المذهبة وكسوتهما بالملف وصنعت رسنا مصفحا بصفائح الفضة وجعلت لهما جلين من زردخانة مبطنين بالكمخا وجعلت للجملين الحلاخيل من الفضة المذهبة وصنعت احد عشر اطيفورا وملأتها بالحلواء وغطيت كل طيفور بمنديل حرير فلما قدم السلطان من الصيد وقعد ثاني يوم قدومه بموضع جلوسه العام غدوت عليه بالجمال فامر بها فحركت بين يديه وهرولت فطار خلخال أحدها فقال لبهاء الدين بن الفلكي بابل ورداري معني ذلك ارفع الخلخال فرفعه ثم نظر الى الطيافير فقال جداري (جه داري) درآن طبقها حلوا است معني ذلك ما معك في تلك الاطباق حلواء هي فقلت له نعم فقال للفقيه ناصر الدين الترمذي الواعظ ما أكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التي بعثها الينا ونحن بالمعسكر ثم أمر بتلك الطيافير ان ترفع لموضع جلوسه الخاص فرفعت وقام الى مجلسه واستدعاني وأمر بالطعام فاكلت ثم سالني عن نوع من الحلواء الذي بعثت له قبل فقلت له ياخوند عالم تلك الحلواء أنواعها كثيرة ولا أدري عن أي نوع تسالون منها فقال إيتوا بتلك الاطباق وهم يسمون الطيفور طبقا فاتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها فقال عن هذا سالتك وأخذ الصحن الذي هي فيه فقلت له هذه يقال لها المقرصة ثم أخذ نوعا آخر فقال وما اسم هذه فقلت له هي لقيمات القاضي وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامري وينتسب الى آل العباس رضي الله تعالى عنه وهو كثير المال ويقول له السلطان والدي فحسدني وارادان يخجلني فقال ليست هذه لقيمات القاضي بل هي هذه واخذ قطعة من التي تسمى جلد الفرس وكان بازائه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدي السلطان فقال له ياخواجه انت تكذب والقاضي يقول الحق فقال له السلطان وكيف ذلك فقال ياخوند عالم هو القاضي وهي لقيماته فانه أتى بها فضحك السلطان وقال صدقت فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك واخذنا التنبول وانصرفنا فلم يكن غير هنية واتاني الخازن فقال ابعث أصحابك يقبضون المال فبعثتهم وعدت الى داري بعد المغرب فوجدت المال بها وهو ثلاث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التي هي دين علي وصرف الاثني عشر الفا التي أمر لي بها فيما تقدم بعد حط العشر على عادتهم وصرف التنكة دينار ان ونصف دينار من ذهب المغرب

— ذكر خروج السلطان وامره لي بالاقامة بالحضرة —

Digitized by Birzeit University Library

وفي تاسع جمادى الاولى خرج السلطان برسم قصد بلاد المعبر وقتال القائم بها وكنت قد خلصت أصحاب الدين وعزمت على السفر وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادرية وقد تقدم ذكرهم فخرج الامر باقامتي في جملة ناس وأخذا لحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له ونالك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلغ وأمر لي بستة آلاف دينار دراهم وأمر لابن قاضي مصر بعشرة آلاف وكذلك كل من أقام من الاعزة وأما البلديون فلم يعطوا شيئا وأمر لي السلطان أن أتولى النظر في مقبرة السلطان قطب الدين الذي تقدم ذكره وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديدا لانه كان خديما له ولقد رأيته اذا أتي قبره يأخذ نعله فيقبله ويجعله فوق رأسه وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكاة وكان اذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته وكان يعظم زوجته ويدعوها بالاخت ويجعلها مع حرمه وزوجها بعد ذلك لابن قاضي مصر واعتني به من اجلها وكان يمضي لزيارتها في كل جمعة ولما خرج السلطان بعث عنا للوداع فقام ابن قاضي مصر فقال أنا لا أودع ولا أفارق خوند عالم فكان له في ذلك الخير فقال له السلطان امض فتجهز للسفر وقدمت بعده للوداع وكنت أحب الاقامة ولم تكن عاقبتها محمودة فقال مالك من حاجة فاخرجت بطاقة فيها ست مسائل فقال لي تكلم بلسانك فقلت له إن خوند عالم أمرني بالقضاء وما قعدت لذلك بعد وليس مرادي من القضاء الا حرمته فامرني بالقعود للقضاء وقعود النائبين معي ثم قال لي إيه فقلت وروضة السلطان قطب الدين ماذا أفعل بها فيها فاني رتبت فيها اربعمائة وستين شخصا ومحصول أوقافها لا يفي بمرتباتهم وطعامنامهم فقال للوزير ينجاه هزار ومعناه خمسون ألفا ثم قال لا بدلك من غلة بدية يعني أعطه مائة الف من المغلة وهي القمح والارز ينفقها في هذه السنة حتي تاتي غلة الروضة والمن عشرون رطلا مغربية ثم قال لي وماذا أيضا فقلت ان أصحابي سجنوا بسبب القرى التي أعطيتموني فاني عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ما وصلني منها أو الاستظهار بامر خوند عالم ان يرفع عني ذلك فقال كم وصلك منها فقلت خمسة آلاف دينار فقال هي انعام عليك فقلت له وداري التي أمرتم لي بها مفتقرة الي البناء فقال للوزير عمارة كنيد أي معناه عمروها ثم قال لي ديكر تماند فقلت له معناه هل بقي لك كلام فقال لي وصية ديكر هست معناه أوصيك أن لا تاخذ الدين لئلا تطلب فلا تجد من يبلغ خبرك الى انفق على قدر ما أعطيتك قال الله تعالى ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وكلوا واشربوا ولا تسرفوا والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما

Digitized by Birzeit University Library

فاردت ان أقبل قدمه فمنعني وأمسك رأسي بيده فقبلتها وانصرفت وعدت الى الحضرة فاشتغلت بعمارة داري وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار أعطيت منها من الديوان ستمائة دينار وزدت عليها الباقي وبنيت بازائها مسجدا واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين وكان السلطان قد أمر ان تبنى عليه قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق وأمر أن تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها وجعلها بيدي على ان يكون لي العشر من فائدها على العادة

— ذكر ما فعلته في ترتيب المقبرة —

وعادة أهل الهند أن يرتبوا لاموانهم ترتيبا كترتيبهم بقيد الحياة ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة وهي مزينة فرتبت انا في هذه التربة بحسب ذلك ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين وهم يسمونهم المختمين ورتبت من الطلبة ثمانين ومن المعيدين ويسمونهم المكررين ثمانية ورتبت لها مدرسا ورتبت من الصوفية ثمانين ورتبت الامام والمؤذنين والقراء بالاصوات الحسان والمداحين وكتاب الغيبة والمعرفين وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالارباب ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية وهم الفراشون والطباخون والدوادوية والابدارية وهم السقاؤون والشربدارية الذين يسقون الشربة والتنبول دارية الذين يعطون التنبول والسلحدارية والنيزدارية والشطردارية والطشتدارية والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين وكان السلطان أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر منا من الدقيق ومثلها من اللحم فرأيت ان ذلك قليل والزرع الذي أمر به كثير فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منا من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر والنبات والسمن والتنبول وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر وواردوكان الغلاء شديدا فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره وسافر الملك صبيح الى السلطان بدولة آباد فساله عن حال الناس فقال له لو كان بدهلي اثنان مثل فلان لما شكا الجهد فاعجب ذلك السلطان وبعث الي بخلعة من ثيابه وكنت أصنع في المواسم وهي العيدان والمولد الكريم ويوم عاشوراء وليلة النصف من شعبان ويوم وفاة السلطان قطب الدين مائة من من الدقيق ومثلها لحما فيا كل منها الفقراء والمساكين وأما أهل الوظيفة فيجعل امام كل انسان منهم ما يخصه ولنذكر عادتهم في ذلك

— ذكر عادتهم في اطعام الناس في الولائم —

وعادتهم ببلاد الهند وبلاد السرا انه اذا فرغ من أكل الطعام في الوليمة جعل أمام كل انسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهدلة أربع قوائم منسوج سطحه

Digitized by Birzeit University Library

من الخرص وجعل عليه الرقاق وراس غنم مشوى وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية مغطاة باربع قطع من الحلواء كانها الآجر وطبقا صغيرا مصنوعا من الجلد فيه الحلواء والسمسمك ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد ومن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس غنم ويسمونه الزلة ومقدار النصف مما ذكرناه ومن كان دون هؤلاء أيضا جعل أمامه مثل الربع من ذلك ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السراحضرة السلطان أوزبك فامتنعت أن يرفع رجالى ذلك اذ لم يكن لى به عهد وكذلك يبعثون أيضا لدار كبراء الناس من طعام الولائم

— ذكر خروجى الى هزار أمروها —

وكان الوزير قد أعطانى من الغلة المامور بها للزاوية عشرة آلاف من ونفذ لى الباقى فى هزار أمروها وكان والى الخراج بها عزيز الخمار وأميرها شمس الدين البذخشانى فبعثت رجالى فاخذوا بعض الاحالة وتشكوا من تعسف عزيز الخمار فخرجت بنفسى لاستخلاص ذلك وبين دهلى وهذه العمالة ثلاثة أيام وكان ذلك اوان نزول المطر فخرجت فى نحو ثلاثين من اصحابى واستصحبت معى اخوين من المغنيين المحسنين يغنيان لى فى الطريق فوصلنا الى بلدة بجنور وضبط اسمها (بكسر الباء الموحدة وسكون الجيم وفتح النون وآخره راء) فوجدت بها ايضا ثلاثة إخوة من المغنيين فاستصحبتهم فكانوا يغنون لى نوبة والآخران نوبة ثم وصلنا الى امروها وهى بلدة صغيرة حسنة فخرج عمالها للقائى وجاء قاضيها الشريف أمير على وشيخ زاويتها وأضافانى معا ضيافة حسنة وكان عزيز الخمار بموضع يقال افغان بور على نهر السرو وبيننا وبينه النهر ولا معدية فيه فاخذنا الانتقال فى معدية صنعناها من الخشب والنبات وجزنا فى اليوم الثانى وجاء نجيب أخو عزيز فى جماعة من اصحابه وضرب لنا سراجة ثم جاء اخوه الى الوالى وكان معروفا بالظلم وكانت القرى التى فى عمالته الفا وخمسمائة قرية ومجباها ستون لكافى السنة له فيها نصف العشر ومن عجائب النهر الذي نزلنا عليه انه لا يشرب منه احد فى ايام نزول المطر ولا تسقى منه دابة ولقد اقمنا عليه ثلاثا فما غرف منه احد غرفة ولا كدنا نقرب منه لانه ينزل من جبل قراجيل التي بها معادن الذهب ويمر على الحشائش المسمومة فمن شرب منه مات وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة اشهر وينزل منه الى بلاد تبت حيث غزلان المسك وقد ذكرنا ما اتفق على جيش المسلمين بهذا الجبل وبهذا الموضع جاء الى جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماع وأوقدوا النيران فدخلوها ولم تضرهم وقد ذكرنا ذلك وكانت قد نشات بين امير هذه

البلاد شمس الدين البدخشاني وبين واليها عزيز الخمار منازعة وجاء شمس الدين لقتاله فامتنع منه بداره وبلغت شكاية أحدهما الوزير بدهلي فبعث الى الوزير والى الملك شاه أمير المماليك بامروهما وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان والى شهاب الدين الرومي أن ينظر في قضيتهما فمن كان على الباطل بعثاه مثقفا الى الحضرة فاجتمعوا جميعا بمنزلي وادعى عزيز على شمس الدين دعاوى منها أن خديماله يعرف بالرضي الملتاني نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذى عند الخازن فاستفهمت الرضي عن ذلك فقال لي ماشربت الخمر منذ خروجي من ملتان وذلك ثمانية أعوام فقلت له أو شربتها بملتان قال نعم فامرت بجلده ثمانين وسجنته بسبب الدعوى الوث ظهر عليه وانصرفت عن أمروهما فكانت غيبتي نحو شهرين وكنت في كل يوم أذبح لاصحابي بقرة وتركت أصحابي ليأتوا بالزرع المنفذ على عزيز وحمله عليه فوزع على أهل القرى التي لنظره ثلاثين ألف من يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة وأهل الهند لا يحملون الا على البقر وعليه يرفعون اثقالهم في الاسفار وركوب الحمير عندهم عيب كبير وحميرهم صغار الاجرام يسمونها اللاشة واذا أرادوا إشهار أحد بعد ضربه اركبوه الحمار

— ذكر مكرمة لبعض الاصحاب —

وكان السيد ناصر الدين الاوهري قد ترك عندي لما سافرت ألفا وستين تنكة فتصرفت فيها فلما عدت الى دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خداوندزاده قوام الدين وكان قدم نائبا عن الوزير فاستقبحت ان أقول له تصرفت في المال فاعطيته نحو ثلثه واقمت بداري أياما وشاع أني مرضت فاتى ناصر الدين الخوارزمي صدر الجهان لزيارتي فلما رآني قال ما أرى بك مرضا فقلت له اني مريض القلب فقال لي عرفني بذلك فقلت له ابعث الى نائبك شيخ الاسلام أعرفه به فبعثه الى فاعلمته فعاد اليه فاعلمه فبعث الى بالف دينار دراهم وكان له عندي قبل ذلك ألفا ثانيا ثم طلب مني بقية المال فقلت في نفسي ما يخلصني منه الا صدر الجهان المذكور لانه كثير المال فبعثت اليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار وبغلتين قيمتهما الف ومائتا دينار وبتركش فضة وبسيفين عمداهما مغشيان بالفضة وقلت له انظر قيمة الجميع وابعث الى ذلك فاخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار فبعث الى ألفا واقتطع الالفين فتغير خاطري ومرضت بالحمى وقلت في نفسي ان شكوت به الى الوزير افتضحت فاخذت خمسة افراس وجاريتين ومملوكين وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين السمناني

Digitized by Birzeit University Library

وهو فتى مسن فرد على ذلك وبعث الى مائتى تنكة واغزر وخلصت من ذلك المال فشتان بين فعل محمد ومحمد

— ذكر خروجي الى محلة السلطان —

وكان السلطان لما توجه الى بلاد المعبر وصل الى التلمنك ووقع الوباء بعسكره فعاد الى دولة آبادثم وصل الى نهر الكنك فنزل عليه وأمر الناس بالبناء وخرجت فى تلك الايام الى محلته واتفق ما سردناه من مخالفة عين الملك ولازمت السلطان فى تلك الايام واعطاني من عتاق الخيل لما قسمها على خواصه وجعلني فيهم وحضرت معه الوقيعة على عين الملك والقبض عليه وجزت معه نهر الكنك ونهر السرو ولزيارة قبر الصالح البطل سالار عود (مسعود) وقد استوفيت ذلك كله وعدت معه الى حضرة دهلى لما عاد اليها

— ذكر ما عم به السلطان من عقابي وما تدار كنى من لطف الله تعالى —

وكان سبب ذلك انى ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين ابن الشيخ الجام بالغار الذي احتفره خارج دهلى وكان قصدى رؤية ذلك الغار فلما أخذه السلطان سال أولاده عمن كان يزوره فذكروا ناسا أنا من جملتهم فامر السلطان أربعة من عبيده بملازمتى بالمشور وعادته انه متى فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص فكان أول يوم من ملازمتهم لى يوم الجمعة فالهمني الله تعالى الى تلاوة قوله حسبنا الله ونعم الوكيل فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين الف مرة وبت بالمشور وواصلت الى خمسة أيام فى كل يوم منها اختم القرآن وافطر على الماء خاصة ثم انفطرت بعد خمس وواصلت اربعا وتخلصت بعد قتل الشيخ والحمد لله تعالى

— ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا —

ولما كان بعد مدة انقبضت عن الخدمة ولازمت الشيخ الامام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبد الله الغارى وكان من الاولياء وله كرامات كثيرة قد ذكرت منها ما شاهدته عند ذكر اسمه وانقطعت الى خدمة هذا الشيخ ووهبت ما عندي للفقراء والمساكين وكان الشيخ يواصل عشرة أيام وربما واصل عشرين فكنت أحب أن أواصل فكان ينهانى ويامرنى بالرفق على نفسى فى العبادة ويقول لى ان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى وظهر لى من نفسى تكاسل بسبب شىء بقى معى فخرجت عن جميع ما عندي من قليل وكثير واعطيت ثياب ظهرى لفقير ولبست ثيابه ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر والسلطان اذ ذاك غائب ببلاد السند

— ذكر بعث السلطان عني وابايي عن الرجوع الى الخدمة واجتهادى فى العبادة —

ولما بلغ السلطان خبر خروجي عن الدنيا استدعاني وهو يومئذ بسيوستان فدخلت عليه فى

ترى الفقراء فكلمني أحسن كلام وألطفه وارادمني الرجوع الى الخدمة فابيت وطلبت منه الاذن فى السفر الى الحجاز فاذن لى فيه وانصرفت عنه ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة الى الملك بشير وذلك فى اواخر جمادى الثانية سنة ثمانين واربعين فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان وانتهيت الى مواصلة خمسة أيام وافطرت بعدها على قليل أرزدون إدام وكنت أقرأ القرآن كل يوم واتهجد بما شاء الله وكنت اذا أكلت الطعام أذاني فاذا طرحته وجدت الراحة وأقمت كذلك اربعين يوما ثم بعث عني ثانية

— ذكر ما أمرني به من التوجه الى الصين فى الرسالة —

ولما كملت لى اربعون يوما بعث الى السلطان خيلا مسرجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة فلبست ثيابه وقصدته وكانت لي جبة قطن زرقاء مبطنة لبستها ايام اعتكافى فلما جردتها ولبست ثياب السلطان انكرت نفسى وكنت متى نظرت الى تلك الجبة اجد نورا فى باطني ولم تزل عندي الى ان سلمني الكفار فى البحر ولما وصلت الى السلطان زادني اكرامى على ما كنت أعهده وقال لى انما بعثت اليك لتتوجه عني رسولا الى ملك الصين فانى أعلم حبك فى الاسفار والجولان فجهزني بما احتاج له وعين للسفر معي من يذكر بعد

— ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر من بعث معى وذكر الهدية —

وكان ملك الصين قد بعث الى السلطان مائة مملوك وجارية وخمسمائة ثوب من الكخا منها مائة من التى تصنع بمدينة الزيتون ومائة من التى تصنع بمدينة الخنسا وخمسة أمنان من المسك وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر وخمسة من التراكش مزركشة وخمسة سيوف وطلب من السلطان أن يأذن له فى بناء بيت الاصنام الذى بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره ويعرف الموضع الذى هو به بسمهل (بفتح السين المهمل وسكون الميم وفتح الهاء) واليه يحج أهل الصين وتغلب عليه جيش الاسلام بالهند فخربوه وسلبوه فلما وصلت هذه الهدية الى السلطان كتب اليه بان هذا المطلب لا يجوز فى ملة الاسلام اسعافه ولا يباح بناء كنيسة بارض المسلمين الا لمن يعطى الجزية فان رضيت باعطائها أبحنا لك بناءه والسلام على من اتبع الهدي وكافاه عن هديته بخير منها وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند مغنيات ورواقص ومائة ثوب بيرمية وهى من القطن ولا نظير لها فى الحسن قيمة الثوب منها مائة دينار ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجز (بضم الجيم وزاى) وهي التى يكون حريرا حداها مصبوغا بخمسة الوان واربعة ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ومائة ثوب من الشيرين باف ومائة ثوب من الشان باف وخمسمائة ثوب من

Digitized by Birzeit University Library

المرعز مائة منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ومائة شقة من الكتان الرومى ومائة فضلة من الملف وسراجة وست من القباب واربع حسك من ذهب وست حسك من فضة منيلة واربع طسوت من الذهب ذات ابارين كمثلها وستة طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة وعشر شواش من لباسه إحداها مرصعة بالجوهر وعشرة تراكش مزركشة وأحدها مرصع بالجوهر وعشرة من السيوف احدها مرصع الغمد بالجوهر ودشت بان (دستبان) وهو قفاز مرصع بالجوهر وخمسة عشر من الفتيان وعين السلطان للسفر معى بهذه الهدية الامير ظهير الدين الزنجانى وهو من فضلاء أهل العلم والفقه كافور الشربدار واليه سلمت الهدية وبعث معنا الامير محمد الهروى فى الف فارس ليوصلنا الى الموضع الذى نركب منه البحر وتوجه صحبتنا ارسال ملك الصين وهم خمسة عشر رجلا يسمى كبيرهم ترسي وخدامهم نحو مائة رجل وانفصلنا فى جمع كبير ومحلة عظيمة وامر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده وكان سفرنا فى السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث واربعين وهو اليوم الذى اختاروه للسفر لانهم يختارون للسفر من ايام الشهر ثانيه او سابعه او الثانى عشر او السابع عشر او الثانى والعشرين أو السابع والعشرين فكان نزولنا فى اول مرحلة بمنزل تلبت على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلى ورحلنا منها الى منزل أو ورحلنا منه الى منزل هيلوو رحلنا منه الى مدينة بيانة (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وفتح الياء آخر الحروف مع تخفيفها وفتح النون) مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الاسواق ومسجدها الجامع من ابدع المساجد وحيطانه وسقفه حجارة والامير بها مظفر بن الداية وأمه هي داية للسلطان وكان بها قبله الملك مجير بن أبى الرجاء احد كبار الملوك وقد تقدم ذكره وهو ينتسب فى قريش وفيه تجبر وله ظلم كثير قتل من اهل هذه المدينة جملة ومثل بكثير منهم ولقد رأيت من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا فى اسطوان منزله وهو مقطوع اليدين والرجلين وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فتشكى الناس من الملك مجير المذكور فامر السلطان بالقبض عليه وجعلت فى عنقه الجامعة وكان يقعد بالديوان بين يدى الوزير وأهل البلد يكتبون عليه المظالم فامره السلطان بارضائها فارضاهم بالاموال ثم قتله بعد ذلك ومن كبار اهل هذه المدينة الامام العالم عز الدين الزبيرى من ذرية الزبير بن العوام رضي الله عنه أحد كبار الفقهاء الصلحاء لقيته بكاليور عند الملك عز الدين البنتاني المعروف باعظم ملك ثم رحلنا من بيانة فوصلنا الى مدينة كول (وضبط اسمها بضم الكاف) مدينة حسنة ذات بساتين واكثر أشجارها العنبا ونزلنا بخارجها فى بسيط

أفيح ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين وهو مكفوف البصر معمر وبعد ذلك سجنه السلطان ومات في سجنه وقد ذكرنا حديثه

— ذكر غزوة شهدناها بكول —

ولما بلغنا الى مدينة كول بلغنا ان بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالى واحاطوا بها وهي على مسافة سبعة من كول فقصدناها والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف ولم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم وهم في نحو الف فارس وثلاثة آلاف راجل فقتلناهم عن آخرهم واحتوينا على خيلهم واسلحتهم واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا وخمسة وخمسون راجلا واستشهد الفتى كافور الساقى الذى كانت الهدية مسلمة بيده فكتبنا الى السلطان بخبره وأقمنا في انتظار الجواب وكان الكفار في أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع فيغيرون على نواحي بلدة الجلالى وكان اصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم

— ذكر محنتي بالاسر وخلاصي منه وخلاصي من شدة بعده على يدولى من أولياء الله تعالى —

وفي بعض تلك الايام ركبت في جماعة من أصحابي ودخلنا بستانا نقيل فيه وذلك فصل القيظ فسمعنا الصياح فركبنا ولحقنا كفارا أغاروا على قرية من قرى الجلالى فاتبعناهم فتفرقوا وتفرق أصحابنا في طلبهم وانفردت في خمسة من أصحابنا فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك ففررنا منهم لكثرتهم واتبعني نحو عشرة منهم ثم انقطعوا عني الا ثلاثة منهم ولا طريق بين يدي وتلك الارض كثيرة الحجارة فنشبت يد افرسي بين الحجارة فزلت عنه واقتلعت يده وعدت الى ركوبه والعادة بالهند ان يكون مع الانسان سيفان أحدهما معلق بالسرج ويسمي الركابي والآخر في التركش فسقط سيفي الركابي من عمده وكانت حليته ذهبا فنزلت فاخذته وتقلدته وركبت وهم في أثري ثم وصلت الى خندق عظيم فنزلت ودخلت في جوفه فكان آخر عهدي بهم ثم خرجت الى وادي وسط شعراء ملتفة في وسطها طريق فمشيت عليه ولا اعرف منها فبينا أنا في ذلك خرج على نحو أربعين رجلا من الكفار بايديهم القسي فاحدقوا بي وخفت أن يرموني رمية رجل واحد ان فررت منهم وكنت غير متدرع فالقيت بنفسي الى الارض واستاسرت وهم لا يقتلون من فعل ذلك فاخذوني وسلبوني جميع ما على غير جبة وقميص وسروال ودخلوا بي الى تلك الغابة فانتهوا بي الى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الاشجار وأتوني بخبز ماش وهو الجلبان فاكلت منه وشربت من الماء وكان معهم مسلمان كلماني بالفارسية وسالاني عن شاني فاخبرتهما ببعضه

مكتبة كلية بير زيت

Digitized by Birzeit University Library

وكتمتهما اني من جهة السلطان فقالا لي لا بد ان يقتلك هؤلاء او غيرهم ولكن هذا مقدمهم واشاروا الى رجل منهم فكلمته بترجمة المسلمين وتلطفت له فوكل بي ثلاثة منهم احدهم شيخ ومعه ابنه والآخر أسود خبيث وكلمني اولئك الثلاثة ففهمت منهم انهم أمروا بقتلي واحتملوني عشي النهار الى كهف وسلط الله على الاسود منهم حمى مرعدة فوضع رجليه على ونام الشيخ وابنه فلما أصبح تكلموا فيما بينهم واشاروا الى بالنزول معهم الى الحوض وفهمت انهم يريدون قتلي فكلمت الشيخ وتلطفت اليه فرق لي وقطعت كمي قميصي واعطيته اياها لكي لا ياخذه اصحابه فلما ان فررت ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا انهم اصحابهم فاشاروا الى بالنزول معهم فنزلنا ووجدنا قوما آخرين فاشاروا عليهم ان يذهبوا في صحبتهم فابوا وجلس ثلاثتهم امامي وانا مواجه لهم ووضعوا حبل قنب كان معهم بالارض وانا أنظر اليهم وأقول في نفسي بهذا الحبل يربطونني عند القتل وأقمت كذلك ساعة ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني فتكلموا معهم وفهمت انهم قالوا لهم لاي شيء ماقتلتموه فاشار الشيخ الى الاسود كانه اعتذر بمرضه وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لي أتريد ان اسرحك فقلت نعم فقال اذهب فاخذت الجبة التي كانت على فاعطيته اياها واعطاني منيرة بالية عنده وارا ني الطريق فذهبت وخفت ان يبدو لهم فيدركوني فدخلت غيضة قصب واختفيت فيها الى ان غابت الشمس ثم خرجت وسلكت الطريق التي أرنيها الشاب فانضت بي الى ماء فشربت منه وسرت الى ثلث الليل فوصلت الى جبل فنمت تحته فلما أصبحت سلكت الطريق فوصلت ضحى الى جبل من الصخر عال فيه شجر أم غيلان والسدر فكنت أجني النبق فآكله حتى أثر الشوك في ذراعي آثارا هي باقية به حتى الآن ثم نزلت من ذلك الجبل الى أرض مزدرعة قطنا وبها أشجار الخروع وهنالك باين والباين عندهم بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها الي ورد الماء وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس ويتفاخر ملوك البلاد وامراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها وسنذكر بعد مارأينا منها فيما بعد ولما وصلت الى الباين شربت منه ووجدت عليه شيا من عسالي بيج الحردل قد سقطت لمن غسلها فاكلت منها وادخرت باقيها ونمت تحت شجرة خروع فبينما انا كذلك اذ ورد الباين نحو أربعين فارسا مدرعين فدخل بعضهم الى المزرعة ثم ذهبوا وطمس الله ابصارهم دوني ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح ونزلوا الى الباين واتى أحدهم الى شجرة ازاء الشجرة التي كنت تحتها فلم يشعر بي ودخلت اذ ذاك في مزرعة القطن وأقمت بها بقية نهاري وأقاموا على الباين

يغسلون ثيابهم و يلعبون فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت انهم قد مروا أو ناموا فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل والليل مقمر وسرت حتى انتهيت الى بابن آخر عليه قبة فنزلت اليه وشربت من مائه وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندى ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها وكنت أحس حركة حيوان فى تلك العشب أظنه حية فلا أبالى بها لما بى من الجهد فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تفضي الى قرية خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها وأقمت كذلك أياما وفى بعضها وصلت الى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وداخلها شبه بيت وعلى جوانب الحوض نبات الارض كالنجيل وغيره فاردت ان أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني الى العمارة ثم اني وجدت يسيرا قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ووجدت ثورا عليه بردعة ومنجل فاذا ذلك الطريق تفضى الى قرى الكفار فاتبعت طريقا أخري فانضت بي الى قرية خربة ورأيت بها أسودين عريانين نخفتهما وأقمت تحت أشجارها هنالك فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت دارا فى بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعون بها الاخثران الزرع وفى أسفلها ثقب يسع منه الرجل فدخلتها ووجدت داخلها مفروشا باللبن وفيه حجر جعلت رأسى عليه ونمت وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم اسرت وهو يوم السبت وفى السابع منها وصلت الى قرية للكفار عامرة وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطونى فوجدت حول بئر بها أوراق نخل فاكلته وجئت القرية فوجدت جماعة كفارهم طليعة فدعاني طليعتهم فلم أجبه وقعدت الى الارض فاتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربنى به فلم ألتفت اليه لعظيم ما بى من الجهد فقتشني فلم يجد عندى شيئاً فاخذ القميص الذى كنت أعطيت كميه للشيخ الموكل بى ولما كان فى اليوم الثامن اشتد بي العطش وعدمت الماء ووصلت الى قرية خراب فلم أجد بها حوضا وعادتهم بتلك القرى ان يصنعوا أحواضا يجتمع به ماء المطر فيشربون منه جميع السنة فاتبعت طريقا فأفضت بي الى بئر غير مطوية عليها حبل مصنوع من نبات الارض وليس فيه آنية يستقي بها فربطت خرقة كانت على رأسى فى الحبل وامتصصت ما تعلق بها من الماء فلم يروني فربطت خفى واستقيت به فلم يروني فاستقيت به ثانيا فانقطع الحبل ووقع الخف فى البئر فربطت الخف الآخر وشربت حتي رويت ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلى بحبل البئر وبخرق وجدتها هنالك فبينا أنا أربطها وأفكر فى حالى اذ لاح لى شخص فنظرت اليه فاذا رجل أسود اللون بيده ابريق وعكاز وعلى كاهله جراب فقال لى سلام

عليكم فقلت له عليكم السلام ورحمة الله وبركاته فقال لي بالفارسية جيكس (جه كسي) معناه من أنت فقلت له أنا تائه فقال لي وأنا كذلك ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى ماء فأردت ان أشرب فقال لي اصبر ثم فتح جرابه فاخرج منه غرفة حمص أسود مقلو مع قليل أرز فاكلت منه وشربت وتوضأ وصلى ركعتين وتوضأت انا وصليت وسألني عن اسمي فقلت محمد وسألته عن اسمه فقال لي القلب الفارح فتفاءلت بذلك وسررت به ثم قال لي بسم الله ترافقني فقلت نعم فمشيت معه قليلا ثم وجدت فتورا في أعضائي ولم أستطع النهوض فقعدت فقال ماشأنك فقلت له كنت قادرا على المشي قبل ان ألقاك فلما لقيتك عجزت فقال سبحان الله اركب فوق عنقي فقلت له انك ضعيف ولا تستطيع ذلك فقال يقو بني الله لا بد لك من ذلك فركبت على عنقه وقال لي أكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل فاكثرت من ذلك وغلبتني عيني فلم افق الا لسقوطي على الارض فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا واذا أنا في قرية عامرة قد خلتها فوجدتها الرعية الهنود وحاكمها من المسلمين فاعلموه بي فجاء الي فقلت له ما اسم هذه القرية فقال لي تاج بوره وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان وحملني ذلك الحاكم الى بيته فاطعمني طعاما سخنا واغتسلت وقال لي عندي ثوب وعمامة أودعهما عندي رجل عربي مصري من أهل المحلة التي بكول فقلت له هاتهما أليسهما الى ان أصل الى المحلة فأتى بهما فوجدتهما من ثيابي كنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول فطال تعجبي من ذلك وافكرت في الرجل الذي حملني على عنقه فتذكرت ما اخبرني به ولي الله تعالى أبو عبدالله المرشدي حسبما ذكرناه في السفر الاول اذ قال لي ستدخل ارض الهند وتلقى بها أخي ويخلصك من شدة تقع فيها وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد فعلمت انه هو الذي اخبرني بلقائه وانه من الاولياء ولم يحصل لي من صحبته الا المقدار الذي ذكرت وانيت تلك الليلة الى أصحابي بكول معلما لهم بسلامتي فجاؤا الى بفرس وثياب واستبشروا بي ووجدت جواب السلطان قد وصلهم وبعث بفتي يسمى بسنبل الجامدار عوضا من كافور المستشهد وأمرنا ان نتمادى على سفرنا ووجدتهم أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري وتشاءموا بهذه السفرة لما جرى فيها علي وعلى كافور وهم يريدون ان يرجعوا فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر أكدت عليهم وقوى عزمي فقالوا ألا ترى ما اتفق في بداية هذه السفرة والسلطان يعذرك فانترجع اليه أو تقيم حتى يصل جوابه فقلت لهم لا يمكن المقام وحيث ما كنا ادركنا الجواب فرحلنا من كول ونزلنا برج بوره وبه زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان

Digitized by Birzeit University Library

لانه لا يلبس عليه الا ثوبا من سرته الى أسفل وباقى جسده مكشوف وهو تلميذ الصالح الولى محمد العريان الغاطن بقرافة مصر نفع الله به — حكاية هذا الشيخ —

وكان من أولياء الله تعالى قائما على قدم التجرد يلبس تنورة وهو ثوب يستر من سرته الى أسفل ويذكر أنه كان اذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقى بالزاوية من طعام وادام وماء وفرق ذلك على المساكين ورمى بفتيلة السراج واصبح على غير معلوم وكانت عادته ان يطعم اصحابه عند الصباح خبزا وفولا فكان الخبازون والفوالون يستبقون الى زاويته فيأخذ منهم مقدار ما يكفى الفقراء ويقول لمن أخذ منه ذلك اقعد حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه فى ذلك اليوم قليلا أو كثيرا ومن حكاياته انه لما وصل قازان ملك التتر الى الشام بعساكره وملك دمشق ما عدا قلعتها وخرج الملك الناصر الى مدافعته ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب والملك الناصر اذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع وكان الشيخ العريان فى صحبته فنزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يترحزح عند اللقاء لحداثة سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين فثبت الملك الناصر وهزم التتر هزيمة شنعاء قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليه من المياه ولم يعد التتر الى قصد بلاد الاسلام بعدها وأخبرنى الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ انه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن برحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بآب سياه ثم رحلنا الى مدينة قنوج (وضبط اسمها بكسر القاف وفتح النون وواو ساكن وجيم) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الاسعار كثيرة السكر ومنها يحمل الى دهلى وعليها سور عظيم وقد تقدم ذكرها وكان بها الشيخ معين الدين الباخرزى أضافنا بها وأميرها فيروز البدخشانى من ذرية بهرام جور (بجوبين) صاحب كسري ويسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الاخلاق يعرفون بأولاد شرف جهان وكان جدهم قاضى القضاة بدولة آباد وهو من المحسنين المتصدقين وانتهت الرياسة ببلاد الهند اليه — حكاية له —

يذكر انه عزل مرة عن القضاء وكان له أعداء فادعى أحدهم عند القاضى الذى ولى بعده انه له عشرة آلاف دينار قبله ولم تكن له بينة وكان قصده ان يحلفه فبعث القاضى له فقال لرسوله بم ادعى على فقال بعشرة آلاف دينار فبعث الى مجلس القاضى عشرة آلاف وسلمت للمدعى وبلغ خبره السلطان علاء الدين وصح عنده بطلان تلك الدعوى فاعاده الى القضاء وأعطاه عشرة آلاف أقمنا بهذه المدينة ثلاثا ووصلنا فيها جواب السلطان فى شانى بانه ان لم يظهر لفلان أثر فيتوجه وجيه الملك قاضى دولة آباد عوضا منه ثم رحلنا من هذه المدينة

فنزلنا بمنزل هنول ثم بمنزل وزيربور ثم بمنزل البجالصة ثم وصلنا الى مدينة موري (وضبط اسمها بفتح الميم وواووراء) وهي صغيرة ولها أسواق حسنة ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين المسمى بحيدر الفرغاني وكان بحال مرض فدعالي وزودني رغيف شعير واخبرني ان عمره ينيف على مائة وخمسين وذكر لي أصحابه انه يصوم الدهر ويواصل كثيرا ويكثر الاعتكاف وربما أقام في خلوته أربعين يوما يقتات فيها باربعين تمرة في كل يوم واحدة وقد رأيت بدهلي الشيخ المسمي برجب البرقعي دخل الخلوة باربعين تمرة فاقام بها أربعين يوما ثم خرج وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرة ثم رحلنا ووصلنا الى مدينة مرة وضبط اسمها (بفتح الميم وسكون الراء وهاء) وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة وهي حصينة وبها القمح الطيب الذي ليس مثله بسواها ومنها يحمل الى دهلي وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة ولم أر قمحا مثله الا بارض الصين وتنسب هذه المدينة الى المألوة (بفتح اللام) وهي قبيلة من قبائل الهنود ضخام الاجسام عظام الخلق حسان الصور لنسائهم الجمال الفائق وهن مشهورات بطيب الخلوة ووفور الحظ من اللذة وكذلك نساء المرهتة ونساء جزيرة ذيبة المهل ثم سافرنا الى مدينة علابور (وضبط سمها بفتح العين ولام والف وباء موحدة مضمومة وواووراء) مدينة صغيرة اكثر سكانها الكفار تحت الذمة وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قتم (بفتح القاف والتاء المعلوة) وهو سلطان جنبيل (بفتح الجيم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وياء مدولام) الذي حاصر مدينة كيالير وقتل بعد ذلك

— حكايته —

كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابري وهي على نهر اللجون كثيرة القرى والمزارع وكان أميرها خطاب الافغان وهو أحد الشجعان واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رجو (بفتح الراء وضم الجيم) وبلده يسمي سلطان بور وحاصر مدينة رابرى فبعث خطابا الى السلطان يطلب منه الاعانة فابطا عليه المدد وهو على مسيرة اربعين من الحضرة فخاف ان يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الافغان نحو ثلاثمائة ومثلهم من المماليك ونحو أربعمائة من سائر الناس وجعلوا العمائم في أعناق خيلهم وهي عادة أهل الهند اذا أرادوا الموت وباعوا نفوسهم من الله تعالى وتقدم خطاب وقبيلته وتبعهم سائر الناس وفتحوا الباب عند الصبح وحملوا على الكفار حملة واحدة وكانوا نحو خمسة عشر ألفا فهزموهم باذن الله وقتلوا سلطانهم قتم ورجعوا بعثوا برأسيهما الى السلطان ولم ينج من الكفار الا الشريد

— ذكر أمير علابور واستشهاده —

وكان أمير علا بور بدر الحبشي من عبيد السلطان وهو من الابطال الذين تضرب بهم الامثال وكان لا يزال يغير على الكفار منفردا بنفسه فيقتل ويسبي حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها في أكلة وأخبرت انه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غدائه على عادة الحبشة ببلادهم وكان لابن يدانيه في الشجاعة فاتفق انه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية للكفار فوقع به الفرس في مطمورة واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة والقتارة (بقاف معقود وتاء معلوة) حديدة شبه مسكة الحرث يدخل الرجل يده فيها فتكسو اذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين وضربتها لا تبقي فقتله بتلك الضربة ومات فيها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وقاتل عبيده أشد القتال فتغلبوا على القرية وأخرجوا الفرس من المطمورة سالما فتوابه ولده فكان من الاتفاق الغريب انه ركب الفرس وتوجه الى دهلي فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل وعاد الفرس الى أصحابه فدفعوه الى أهله فركبه صهره له فقتله الكفار عليه أيضا ثم سافرنا الى مدينة كاليور (وضبط اسمها بفتح الكاف المعقود وكسر اللام وضم الياء آخر الحروف وواو وراء) ويقال فيه أيضا كيالير وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع منقطع في رأس شاهق على بابه صورة فيل وفيل من الحجارة وقد مر ذكره في اسم السلطان قطب الدين وأمير هذه المدينة احمد بن سيرخان فاضل كان يكرمني ايام اقامتي عنده قبل هذه السفرة ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط رجل من الكفار فقلت له بالله لا تفعل ذلك فاني ما رأيت أحدا قط يقتل بمحضري فامر بسجنه وكان ذلك سبب خلاصه ثم رحلنا من مدينة كاليور الى مدينة برون (وضبط اسمها بفتح الباء المعقودة وسكون الراء وفتح الواو وآخره نون) مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركي الاصل والسباع بها كثيرة ذكر لي بعض أهلها ان السبع كان يدخل اليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيرا وكانوا يعجبون في شان دخوله واخبرني محمد التوفيزي من أهلها وكان جارا لي بها انه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير واخبرني غيره انه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه اسد فخرج اصحابه في طلبه فوجدوه مطرحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه وذكروا انه كذلك فعله بالناس ومن العجب ان بعض الناس اخبرني ان الذي يفعل ذلك ليس بسبع وانما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع ولما اخبرت بذلك أنكرته واخبرني به جماعة ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة

— ذكر السحرة الجوكية —

وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها ان احدهم يقسم الاشهر لا ياكل ولا يشرب وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الارض وتبنى عليه فلا يترك له الا موضع يدخل منه الهواء ويقيم بها الشهور وسمعت ان بعضهم يقيم كذلك سنة ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم قد رفعت له طبلة وأقام بها على لا ياكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما وتركته كذلك فلا ادرى كم أقام بعدي والناس يذكرون انهم يركبون حبوبا يأكلون الحبة منها لأيام معلومة او أشهر فلا يحتاج فى تلك المدة الى طعام ولا شراب ويخبرون بامور مغيبة والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر فى اكله على البقل ومنهم من لا ياكل اللحم وهم الاكثرون والظاهر من حالهم انهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها ومنهم من ينظر الى الانسان فيقع ميتا من نظرته وتقول العامة انه اذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب ويقولون ان كل قلبه واكثر ما يكون هذا فى النساء والمرأة التي تفعل ذلك تسمي كفتار

— حكاية —

لما وقعت المجاعة العظمي ببلاد الهند بسبب القحط والسلطان ببلاد التلنك نفذ امره ان يعطى لاهل دهلى ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد فى اليوم فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الامراء والقضاة ليتولوا اطعامهم فكان عندى منهم خمسمائة نفس فعمرت لهم سقائف فى داري واسكنتهم بها وكنت اعطيهم نفقة خمسة ايام فى خمسة ايام فلما كان فى بعض الايام اتونى بمرأة منهم وقالوا انها كفتارة وقد اكلت قلب صبي كان الى جانبها واتوا بالصبي ميتا فامرتهم ان يذهبوا بها الى نائب السلطان فامر باختبارها وذلك بان ملوا اربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها فى نهر الجون فلم تغرق فعلم انها كفتار ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار فامر باحراقها بالنار واتوا باهل البلد رجالا ونساء فاخذوا رمادها وزعموا انه من تنجز به امن فى تلك السنة من سحر كفتار

— حكاية —

بعث الى السلطان يوما وانا عنده بالحضرة فدخلت عليه وهو فى خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤسهم لانهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم فامرنى بالجلوس فجلست فقال لهما ان هذا العزيز من بلاد بعيدة فاريا ما لم يره فقال نعم فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الارض حتي صار فى الهواء فوقنا متربعا فعجبت منه وادركنى الوهم فسقطت الى الارض فامر السلطان ان أسقى دواء عنده فافقت وقعدت وهو على حاله متربع فاخذ صاحبه نعلا له من شكارة كانت معه فضرب بها الارض

كالمغتاظ فصعدت الى أن علت فوق عنق المتربع وجعلت تضرب فى عنقه وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا فقال لى السلطان ان المتربع هو تلميذ صاحب النعل ثم قال لولا انى أخاف على عقلك لامرتهم ان ياتوا باعظم مما رأيت فانصرفت عنه واصابنى الخفقان ومرضت حتى امر لى بشربة أذهبت ذلك عنى ولنعد لما كنا بسبيله فنقول سافرنا من مدينة برون الى منزل أمواري ثم الى منزل كجراوبه حوض عظيم طوله نحو ميل وعليه الكنائس فيها الاصنام قد مثل بها المسلمون وفى وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق وعلى أركانه الاربع قباب ويسكن هنالك جماعة من الجوكية وقد لبدوا شعورهم وطالت حتى صارت فى طولهم وغلبت عليهم صفرة الالوان من الرياضة وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم ويذكرون ان من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوى اليهم مدة طويلة فيبرأ باذن الله تعالى وأول ما رأيت هذه الطائفة بحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان وكانوا نحو الخمسين فحفر لهم غار تحت الارض وكانوا مقيمين به لا يخرجون الا لقضاء حاجة ولهم شبه القرن يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة وشانهم كله عجب ومنهم الرجل الذى صنع للسلطان غياث الدين الدمغانى سلطان بلاد المعبر حبوبا يأكلها تقويه على الجماع وكان من اخلاطها برادة الحديد فاعجبه فعلها فاكل منها ازيد من مقدار الحاجة فمات وولى ابن أخيه ناصر الدين فاكرم هذا الجوكى ورفع قدره ثم سافرنا الى مدينة جنديري (وضبط اسمها بفتح الجيم المعقود وسكون النون وكسر الدال المهمل وياء مد وراء) مدينة عظيمة لها اسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البنتانى (بالباء الموحدة ثم النون ثم التاء المثناة مفتوحات ثم ألف ونون) وهو المدعو باعظم ملك وكان خيرا فاضلا يجالس أهل العلم وممن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزبيري والفقيه العالم وجيه الدين البيانى نسبة الى مدينة بيانه التى تقدم ذكرها والفقيه القاضى المعروف بقاضي خاصة واما مهم شمس الدين وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمى قمر الدين ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكى من كبار الشجعان وبين يديه تعرض العساكر وأعظم ملك لا يظهر الا فى يوم الجمعة أو فى غيرها نادرا ثم سرنا من جنديرى الى مدينة ظهار (وضبط اسمها بكسر الظاء المعجم) وهي مدينة المالوة أكبر عمالة تلك البلاد وزرعها كثير خصوصا القمح ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول الى دهلى وبينهما أربعة وعشرون يوما وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الاميال فيما بين كل عمودين فاذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار فى يومه وما بقي له الى المنزل

والى المدينة التى يقصدها قرأ النقش الذى فى الاعمدة فعرفه ومدينة ظهار إقطاع للشيخ ابراهيم الذى من أهل ذيبة المهل — حكاية —

كان هذا الشيخ ابراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها فاحيا أرضها وانا هنالك وصار يزدرعها بطيخا فتاتى فى الغاية من الحلاوة ليس بتلك الارض مثلها ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله وكان يطعم الفقراء والمساكين فلما قصد السلطان الى بلاد المعبر أهدي اليه هذا الشيخ بطيخا فقبله واستطابه واقطعه مدينة ظهار وأمره أن يعمر زاوية بربوة تشرف عليها فعمرها أحسن عمارة وكان يطعم بها الوارد والصادر وأقام على ذلك أعواما ثم قدم على السلطان وحمل اليه ثلاثة عشر لكا فقال هذا فضل مما كنت اطعمه الناس وبيت المال أحق به فقبضه منه ولم يعجب السلطان فعله لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه فى اطعام الطعام وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجه جهان ان يفتك بخاله ويستولى على أمواله ويسير الى القائم ببلاد المعبر فنمى خبره الى خاله فقبض عليه وعلى جماعة من الامراء وبعثهم الى السلطان فقتل الامراء وردا بن أخته اليه فقتله الوزير — حكاية —

ولما ردا بن أخت الوزير اليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه وكانت له جارية يحبها فاستحضرها واطعمها التنبول واطعمته وعانقها مودعا ثم طرح للفيلة وسلخ جلده وملىء تبنا فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها فى بئر هنالك تقرب من الموضع الذى قتل فيه فوجدت ميتة من الغد فاخرجت ودفن لحمها معها فى قبر واحد وسمى ذلك قبور (كور) عاشقا وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين ثم سافرنا من مدينة ظهار الى مدينة أجين (وضبط اسمها بضم الهمزة وفتح الجيم وياء ونون) مدينة حسنة كثيرة العمارة وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك من الفضلاء الكرماء العلماء استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها وقد زرت قبره هنالك وسنذكره وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغرناطى الاصل ثم سافرنا من مدينة أجين الى مدينة دولة آباد وهى المدينة الضخمة العظيمة الشان الموازية لحضرة دهلى فى رفعة قدرها واتساع خطتها وهى منقسمة ثلاثة أقسام أحدها دولة آباد وهو مختص بسكنى السلطان وعساكره والقسم الثانى يسمى الكتكة (بفتح الكافين والتاء المعلوة التى بينهما) والقسم الثالث قلعتها التى لا مثل لها ولا نظير فى الحصانة وتسمى الدويقير (بضم الدال المهمل وفتح الواو وسكون الياء وقاف مفتوحة مكسور وياء مدوراء) وبهذه المدينة سكنى الخان الاعظم قطلوخان معلم السلطان بها وببلاد صاغر وبلاد التلنك وما أضيف الى ذلك وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر عامرة كلها لحكمه ونوابه فيها

وقلعة الدويقير التي ذكرناها في قطعة حجر في بسيط من الارض قد نحتت وبني باعلاها قلعة يصعد اليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلا ويسكن بها المفردون وهم الزماميون باولادهم وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة في جبوب بها وبها فيران ضخام اعظم من القطوط والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها لانها تغلبها ولا تصاد الا بحيل تدار عليها وقد رأيتها هنالك فعجبت منها

— حكاية —

حكاية

أخبرني الملك خطاب الافغاني انه سجن مرة في جب بهذه القلعة يسمى جب الفيران قال فكانت تجتمع علي ليلا لتاكلني فاقاتلها واتقي من ذلك جهدي ثم رأيت في النوم قائلا يقول لي اقرأ سورة الاخلاص مائة ألف مرة ويفرج الله عنك قال فقرأتها فلما أتممتها أخرجت وكان سبب خروجي ان ملك مل كان مسجونا في جب يجاورني فمرض وأكلت الفيران أصابعه وعينيه فمات فبلغ ذلك السلطان فقال اخرجوا خطابا بالثلاثة فمن له مثل ذلك والى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن ملك مل المذكور والقاضي جلال حين هزمهما السلطان وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهنة الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا في الانوف والحواجب ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات وأكثر تجاراتهم في الجوهر وأموالهم طائلة وهم يسمون الساهة واحدهم ساه باهمال السين وهم مثل الاكارم بديار مصر وبدولة آباد العنب والرمان ويثمران مرتين في السنة وهي من أعظم البلاد مجبى وأكبرها خراجا لكثرة عمارتها واتساع عمالتها وأخبرت ان بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا وهي كما ذكرناها مسيرة ثلاثة أشهر بسبعة عشر كرورا والكرور مائة لك واللك مائة ألف دينار ولكنه لم يف بذلك فبقي عليه بقية وأخذ ماله وسلخ جلده

— ذكر سوق المغنيين —

وبمدينة دولة آباد سوق للمغنيين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من أجمل الاسواق وأكبرها فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضي الى دار صاحبه وللدار باب سوى ذلك والحانوت مزين بالفرش وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهي متزينة بانواع الحلى وجواريها يحركن مهدها وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس وبين يديه خدامه ومماليكه وتاتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين بين يديه ويرقصن الى وقت المغرب ثم ينصرف وفي تلك السوق المساجد للصلاة ويصلي الأئمة فيها التراويح في شهر رمضان وكان بعض سلاطين الكفار بالهند اذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ويغني المغنيات بين يديه وقد فعل

ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضا ثم سافرنا الى مدينة نذربار (وضبط اسمها بنون وبذال معجم مفتوحتين وراء مسكن وباء موحدة مفتوحة وألف وراء) مدينة صغيرة يسكنها المرهتة وهم أهل الاتقان فى الصنائع والاطباء والمنجمون وشرفاء المرهتة هم البراهمة وهم الكثيرون أيضا وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون الاكل كغسل الجنابة ولا ينكحون فى أقاربهم الا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد لا يشربون الخمر وهى عندهم أعظم المعائب وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين ومن شربها من مسلم حد ثمانين جلدة وسجن فى مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه الا حين طعامه ثم سافرنا من هذه المدينة الى مدينة صاغر (وضبط اسمها بفتح الصاد المهمل وفتح الغين المعجم وآخره راء) وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صاغر كاسمها وعليه النواعير والبساتين فيها العنب والموز وقصب السكر وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة وأحوالهم كلها مرضية ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر وكل من يبني زاوية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لاولاده فان انقرضوا عاد النظر للقضاة والعمارة بها كثيرة والناس يقصدونها للتبرك باهلها ولكونها محررة من المغارم والوظائف ثم سافرنا من صاغر المذكورة الى مدينة كنبايا (وضبط اسمها بكسر الكاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة وألف وياء آخر الحروف مفتوحة) وهى على خور من البحر وهو شبه الوادى تدخله المراكب وبه المد والجزر وعاينت المراكب به مرساة فى الوحل حين الجزر فاذا كان المد عامت فى الماء وهذه المدينة من احسن المدن فى اتقان البناء وعمارة المساجد وسبب ذلك أن اكثر سكانها التجار الغرباء فهم ابدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ويتنافسون فى ذلك ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري الذى انفقت لي معه قضية الحلواء وكذبه ملك الندماء ولم أر قط أضخم من الخشب الذي رأيته بهذه الدار وبابها كأنه باب مدينة والى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه ومنها دار ملك التجار الكازروني والى جانبها مسجده ومنها دار التاجر شمس الدين كلاه دوز ومعناه خياط الشواشي

— حكاية —

ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضى جلال الافغانى اراد شمس الدين المذكور والناخودة الياس وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذى تقدم ذكره على ان يمتنعوا منه بهذه المدينة وشرعوا فى حفر خندق عليها اذا لا سور لها فتغلب عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون فى دار واحدة وخافوا ان يتطلع عليهم فاتفقوا على ان يقتلوا أنفسهم

Digitized by Birzeit University Library

فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة وقد ذكرنا صفتها فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء وكان من كبار التجار أيضا بها نجم الدين الحبلاني وكان حسن الصورة كثير المال وبني بها دارا عظيمة ومسجدا ثم بعث السلطان عنه وأمره عليها واعطاه المراتب فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله وكان أمير كنبايا حين وصلنا اليها قبل التلنكي وهو كبير المنزلة عند السلطان وكان في صحبته الشيخ زاده الاصبهاني نائبا عنه في جميع اموره وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بامور السلطنة ولا يزال يبعث الاموال الى بلاده ويتحيل في الفرار و بلغ خبره الى السلطان وذكر عنه انه يريد الهروب فكتب الى مقبل ان يبعثه فبعثه على البريد واحضر بين يدي السلطان ووكل به والعادة عنده انه متى وكل بأحد فقلما ينجو فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه اياه وهرباجميعا وذكر لي أحد الثقات انه رآه في ركن مسجد بمدينة قلهات وانه وصل بعد ذلك الى بلادهم فحصل على أمواله وآمن مما كان يخافه

— حكاية —

واضافنا الملك مقبل يوما بداره فكان من النادر ان جلس قاضي المدينة وهو اعور العين اليمنى وفي مقابلته شريف بغدادي شديد الشبه به في صورته وعوره الا انه أعور اليسرى فجعل الشريف ينظر الى القاضي و يضحك فزجره القاضي فقال له لا تزجرني فاني أحسن منك قال كيف ذلك قال لانك أعور العين وأنا أعور اليسري نضحك الامير والحاضرون وخجل القاضي ولم يستطع ان يرد عليه لان الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر وسكناه بقبة من قباب الجامع دخلنا اليه ورأكلنا من طعامه وانفق له لما دخل القاضي جلال مدينة كنبايا حين خلا به انه اتاه وذكر للسلطان انه دخاله فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدري وكان بها أيضا من الصالحين التاجر خواجه اسحاق وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر وينفق على الفقراء والمساكين وماله على هذا ينمي و يزيد كثرة وسافرنا من هذه المدينة الى بلدة كاوي وهي على خور فيه المد والجزر من بلاد الري جالنسي الكافر وسنذكره وسافرنا منها الى مدينة قندهار (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الدال المهمل وهاء وألف وراء) وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر

— ذكر سلطانها —

وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسى (بفتح الجيم واللام وسكون النون وكسر السين المهمل) وهو تحت حكم الاسلام و يعطي لملك الهند هدية كل عام ولما وصلنا الى قندهار خرج الى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم وخرج عن قصره فانزلنا به وجاء الينا من عنده من كبار

المسلمين كاولاد خواجه بهره ومنهم الناخوده ابراهيم له ستة من المراكب مختصة له ومن هذه المدينة ركبنا البحر

— ذكر ركوبنا البحر —

وركبنا فى مركب لابراهيم المذكور تسمى الجاكر (بفتح الجيم والكاف المعقودة) وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا فى مركب لاخي ابراهيم المذكور يسمى منورت (بفتح الميم ونون وواو مدوراء مسكن وتاء معلوة) واعطانا جالنسى مركبا جعلنا فيه خيل ظهير الدين وسنبل وأصحابهما وجهزه لنا بالماء والزاد والعلف وبعث معنا ولده فى مركب يسمى العكيرى (بضم العين المهمل وفتح الكاف وسكون الياء وراء) وهو شبه الغراب الا انه أوسع منه وفيه ستون مجذافا ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة وكان ركوبى انا فى الجاكر وكان فيه خمسون راميا وخمسون من المقاتلة الحبشة وهم زعماء هذا البحر واذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم ووصلنا بعد يومين الى جزيرة بيرم (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة وسكون الياء وفتح الراء) وهي خالية وبينها وبين البر أربعة أميال فنزلنا بها واستقينا الماء من حوض بها وسبب خرابها ان المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد وكان ملك التجار الذي تقدم ذكره أراد عمارتها وبني سورها وجعل بها المجانيق واسكن بها بعض المسلمين ثم سافرنا منها ووصلنا فى اليوم الثانى الى مدينة قوقة وهى (بضم القاف الاولى وفتح الثانية) وهى مدينة كبيرة عظيمة الاسواق ارسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر ونزلت فى عشاري مع بعض اصحابي حين الجزر لادخل اليها فوحل العشاري في الطين وبقى بيننا وبين البلد نحو ميل فكنت لما نزلنا فى الوحل اتوكأ على رجلين من أصحابي وخوفني الناس من وصول المد قبل وصولى اليها وانا لا أحسن السباحة ثم وصلت اليها وطفت باسواقها ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر والياس عليهما السلام صليت به المغرب ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت الي المركب

— ذكر سلطانها —

وسلطانها كافر يسمى دنكول (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم الكاف وواو ولام) وكان يظهر الطاعة لملك الهند وهو فى الحقيقة عاص ولما اقلعنا عن هذه المدينة ووصلنا بعد ثلاثة أيام الى جزيرة سندابور (وضبط اسمها بفتح السين المهمل وسكون النون وفتح الدال المهمل والف وباء موحدة وواو مدوراء) وهى جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور واذا كان الجزر فماؤها عذب طيب واذا كان المد فهو ملح اجاج وفى وسطها مدينتان احداهما قديمة من بناء الكفار والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح

Digitized by Birzeit University Library

الاول وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمره الناخودة حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري وسياتي ذكره وذكر حضوري معه لفتح هذه الجزيرة الفتح الثاني ان شاء الله وتجاوزنا هذه الجزيرة لا مرر نابها ورسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجدنا بها أحدا الجوكية — حكاية هذا الجوكي —

ولما نزلنا بهذه الجزيرة الصغري وجدنا بها جوكيا مستندا الى حائط بدخانة وهي بيت الاصنام وهو فيما بين صنمين منها وعليه أثر الجاهدة فكلمناه فلم يتكلم ونظرنا هل معه طعام فلم نر معه طعاما وفي حين نظرنا صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها واتيناه بزاد فرده وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلبتها بيدي فدفعها لي وكانت بيدي سبحة زيلع فقلبها في يدي فاعطيته اياها ففركها بيده وشمها وقبلها واشار الى السماء ثم الى سمت القبلة فلم يفهم أصحابي اشارته فهمت أنا عنه انه اشار انه مسلم يخفي اسلامه من اهل تلك الجزيرة ويتعيش من تلك الجوز ولما ادعناه قبلت يده فانكر أصحابي ذلك ففهم انكارهم فاخذ يدي وقبلها وتبسم واشار لنا بالانصراف فانصرفنا وكنت آخر أصحابي خروجا فجذب ثوبي فرددت رأسي اليه فاعطاني عشرة دنانير فلما خرجنا عنه قال لي اصحابي لم جذبك فقلت لهم أعطاني هذه الدنانير واعطيت لظهير الدين ثلاثة منها ولسنبل ثلاثة وقلت لهما الرجل مسلم ألا ترون كيف أشار الى السماء يشير الى انه يعرف الله تعالى وأشار الى القبلة يشير الى معرفة الرسول عليه السلام وأخذه السبحة يصدق ذلك فرجعا لما قلت لهما ذلك اليه فلم يجداه وسافرنا تلك الساعة وبالغد وصلنا الى مدينة هنور (وضبط اسمها بكسر الهاء وفتح النون وسكون الواو وراء) وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار والمدينة على نصف ميل من البحر وفي ايام البشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدة اربعة اشهر لا يستطيع أحد ركوبه الا للتصيد فيه وفي يوم وصولنا اليها جاءني أحد الجوكية من الهنود في خلوة وأعطاني ستة دنانير وقال لي البرهمن بعثها اليك يعني الجوكي الذي أعطيته السبحة وأعطاني الدنانير فاخذتها منه وأعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف واخبرت أصحابي بالقضية وقلت لهما ان شئتما خذا نصيبكما منها فابيا وجعلا يعجبان من شانه وقال لي ان الدنانير الستة التي أعطيتنا اياها جعلنا معها مثلها وتركنا بين الصنمين حيث وجدناها فطال عجبي من أمره واحتفظت بتلك الدنانير التي أعطانيها وأهل مدينة هنور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد في الحر وقوة وبذلك عرفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابور

وسند كر ذلك ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري اضافني بزاويته وكان يطبخ الطعام بيده استقذارا للجارية والغلام ولقيت بها الفقيه اسماعيل معلم كتاب الله تعالى وهو ورع حسن الخلق كريم النفس والقاضي بها نور الدين عليا والخطيب لا اذكر اسمه ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبس المخيط انما يلبس ثيابا غير مخيطة تحتزم إحداهن باحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها ولهن جمال وعفاف وتجمل احداهن خرص ذهب في انفها ومن خصائصهن انهن جميعا يحفظن القرآن العظيم ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الاولاد ولم أر ذلك في سواها ومعاش أهلها من التجار في البحر ولا زرع لهم وأهل بلاد المنيبار يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيئا معلوما خوفا منه لقوته في البحر وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة

— ذكر سلطان هنور —

وهو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هريب سند كره والسلطان جمال الدين مواظب للصلاة في الجماعة وعادته أن ياتي الى المسجد قبل الصبح فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر فيصلي أول الوقت ثم يركب الى خارج المدينة وياتي عند الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ثم يدخل الى قصره وهو يصوم الايام البيض وكان أيام اقامتي عنده يدعوني للافطار معه فاحضر لذلك ويحضر الفقيه علي والفقيه اسماعيل فتوضع أربع كراسي صغار على الارض فيقعد على احداها ويقعد كل واحد منا على كرسي

— ذكر ترتيب طعامه —

وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم (بفتح الطاء المهملة وفتح اللام) وتاتي جارية حسنة ملتحفة بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه ومعها مغرفة نحاس كبيرة فتغرف بها من الارز مغرفة واحدة وتجعلها في الطالم وتصب فوقها السمن وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الاخضر والليمون المملوح والعنبا فيا كل الانسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح فاذا تمت الغرفة التي جعلتها في الطالم غرفت غرفة أخرى من الارز وافرغت دجاجة مطبوخة في سكرجة فيؤكل بها الارز أيضا فاذا تمت المغرفة الثانية غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به فاذا تمت ألوان الدجاج اتوا بالوان من السمك فيا كلون بها الارز أيضا فاذا فرغت الوان السمك اتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والالباب فيا كلون بها الارز فاذا فرغ ذلك كله اتوا بالكوشان وهو اللبن الرائب وبه يختمون طعامهم فاذا وضع علم انه لم يبق شيء

يؤكل بعده ثم يشربون على ذلك الماء السخن لان الماء البارد يضر بهم فى فصل نزول المطر
ولقد أقمت عند هذا السلطان فى كرة أخرى أحد عشر شهرا لم آكل خبزا انما طعامهم
الارز وبقيت أيضا بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها
الا الارز حتى كنت لا استسيغه الا بالماء ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان
الرقاق يشد فى وسطه فوطة ويلتحف ملحفتين احداهما فوق الاخرى ويعقص شعره
ويلف عليه عمامة صغيرة واذا ركب لبس قباء والتحف بملحفتين فوقه وتضرب بين يديه طبول
وابواق يحملها الرجال وكانت اقامتنا عنده فى هذه المرة ثلاثة ايام وزرودونا وسافرنا عنه وبعد
ثلاثة ايام وصلنا الى بلاد المليبار (بضم الميم وفتح اللام وسكون الياء آخر الحروف وفتح
الباء الموحدة والف وراء) وهى بلاد الفلفل وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من
سندابور الى كولم والطريق فى جميعها بين ظلال الاشجار وفى كل نصف ميل بيت من
الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم أو كافر وعند كل بيت منها بئر يشرب
منها ورجل كافر موكل بها فمن كان كافرا سقاه فى الاواني ومن كان مسلما سقاه فى يديه ولا
يزال يصب له حتى يشير له أو يكف وعادة الكفار ببلاد المليبار ان لا يدخل المسلم دورهم
ولا يطعم فى أوانيهم فان طعم فيها كسروها وأعطوها للمسلمين واذا دخل المسلم موضعا منهم
لا يكون فيه دار المسلمين طبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الادام
وما فضل عنه يأكلونه الكلاب والطير وفى جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل
عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون اليه ويطبخون لهم الطعام ولولا هم لما
سافر فيه مسلم وهذا الطريق الذى ذكرنا انه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه
دون عمارة وكل انسان بستانه على حدة وداره فى وسطه وعلى الجميع حائط خشب
والطريق يمر فى البساتين فاذا انتهى الى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها
ودرج آخر ينزل عليها الى البستان الآخر هكذا مسيرة الشهرين ولا يسافر أحد فى تلك البلاد
بداية ولا تكون الخيل الا عند السلطان وأكثر ركوب أهلها فى دولة على رقاب العبيد
أو المستأجرين ومن لم يركب فى دولة مشى على قدميه كائنا من كان ومن كان له رحل
أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم فترى هنالك التاجر ومعه
المائة فما دونها او فوقها يحملون أمتعته وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زج حديد وفى اعلاه
مخطاف حديد فاذا اعيا ولم يجد كانة يستريح عليها ركز عوده بالارض وعلق حمله منه فاذا
استراح اخذ حمله من غير معين ومضى به ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق وهم يقتلون السارق

على الجوزة الواحد فاذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه وأخبرت ان بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة وبلغ خبره الى الحاكم فامر بعوده فركز في الارض وبرى طرفه الاعلى وأدخل في لوح خشب حتى برز منه ومد الرجل على اللوح وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره وترك عبرة للناظرين ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثيرا يراها الناس فيتعظوا ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق فاذا أونا تنحو اعن الطريق حتى نجوزو المسلمون اعز الناس بها غير انهم كما ذكرنا لا يواكلونهم ولا يدخلونهم دورهم وفي بلاد المليبار اثنا عشر سلطانا من الكفار منهم القوى الذي يبلغ عسكره خمسين الفا ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف ولا فتنة بينهم البتة ولا يطمع القوى منهم في انتزاع ما بيد الضعيف وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبد أعمالته ويسمونه باب امان فلان واذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد احدهم ووصل باب امان الآخر أمن على نفسه ولم يستطع الذي هرب عنه اخذه وان كان القوي صاحب العدد والجيوش وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الاخت ملكهم دون أولادهم ولم أر من يفعل ذلك الا مسوفة أهل الثلم (اللثام) وسنذكرهم فيما بعد فاذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء امر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض اغصان الاشجار باوراقها فلا يبيع أحد ولا يشترى مادامت عليها تلك الاغصان

— ذكر الفلفل —

وشجرات الفلفل شبيهة بدوالى العنب وهم يغرسونها ازاء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالى ليس لها عساوج وهو الغزل كما للدوالى واوراق شجره تشبه آذان الخيل وبعضها يشبه أوراق العليق ويثمر عناقيد صغارا حبها كحب أبي قنينة اذا كانت خضراء واذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ثم يبيعونه من التجار والعامة ببلادنا يزعمون انهم يقلونه بالنار وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش وليس كذلك وانما يحدث ذلك فيه بالشمس ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصب للكيل كالذرة ببلادنا وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور (بفتح السين) وهي صغيرة على خور كبير كثيرة أشجار النارجيل وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بابي ستة احد الكرماء انفق امواله على الفقراء والمساكين حتى نفدت وبعد يومين منها وصلنا الى مدينة فاكنور (وضبط اسمها بفتح الفاء والكاف والنون وآخره راء) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثل له بتلك

البلاد وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط وبها قاض وخطيب وعمر بها حسين المذكور مسجد الاقامة الجمعة

— ذكر سلطانها —

وسلطان فاكنور كافر اسمه باسدو (بفتح الباء الموحدة والسين المهمل والدال المهمل وسكون الواو وله نحو ثلاثين مركبا حربية قائدها مسلم يسمي لولا وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار ولما أرسينا على فاكنور بعث سلطانها الينا ولده فاقام بالمركب كالرهينة ونزلنا اليه فاضافنا ثلاثا باحسن ضيافة تعظيما لسلطان الهند وقياما بحقه ورغبة فيما يستفيده فى التجارة مع أهل مراكبنا ومن عادتهم هنالك ان كل مركب يمر ببلد فلابد من ارسائه بها وأعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر ومن لم يفعل ذلك خرجوا فى اتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا وضاعفوا عليه المغرم ومنعوه عن السفر ماشاؤا وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى مدينة منجرور (وضبط اسمها بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء وواو وراء ثانية) مدينة كبيرة على خور يسمي خور الدنب (بضم الدال المهمل وسكون النون وباء موحدة) وهو أكبر خور ببلاد المليبار وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا

— ذكر سلطانها —

وهو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو (بفتح الراء والميم والدال المهمل وسكون الواو) وبها نحو اربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته الى التجار وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمي بدر الدين المعبرى وهو يقرئ العلم صعد الينا الى المركب ورغب منا فى النزول الى بلده فقلنا حتي يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب فقال انما فعل ذلك سلطان فاكنور لانه لاقوة للمسلمين فى بلده وأما نحن فالسلطان يخافنا فابينا عليه الا ان بعث السلطان ولده فبعث ولده كما فعل الآخر ونزلنا اليهم وأكرمونا اكراما عظيما وأقمنا عندهم ثلاثة أيام ثم سافرنا الى مدينة هيلى فوصلناها بعد يومين (وضبط اسمها بهاء مكسور وياء مد ولام مكسور) وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار والى هذه المدينة تنتهى مراكب الصين ولا تدخل الا مرساها ومرسى كولم وقالقوط ومدينة هيلى معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع فانه عظيم البركة مشرق النور وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين وحسن الوزان كبير المسلمين وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد وله مطبخة يصنع فيها الطعام للوارد والصادر ولاطعام الفقراء من المسلمين بها ولقيت بهذا

Digitized by Birzeit University Library

المسجد فقيها صالحا من أهل مقدشو يسمي سعيد احسن اللقاء والخلق يسرد الصوم وذكر لي انه جاور بمكة اربع عشرة سنة ومثلها بالمدينة وأدرك الامير بمكة ابا مي والامير بالمدينة منصور ابن جماز وسافر في بلاد الهند والصين ثم سافر نا من هيلي الى مدينة جرفتن (وضبط اسمها بضم الجيم وسكون الراء وفتح الفاء وفتح التاء المعلوة وتشديدها وآخره نون) وبينها وبين هيلي ثلاثة فراسخ ولقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصري نسبة الى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد في طريق الكوفة واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال له اولاد صغار اوصي اليه بهم وتركته آخذا في حملهم الى بغداد وعادة أهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف انما يبقي ماله بيد كبير المسلمين حتي ياخذه مستحقه شرعا — ذكر سلطانها —

وهو يسمى بكويل (بضم الكاف على لفظ التصغير وهو من اكبر سلاطين الملبار وله مراكب كثيرة تسافر الى عمان وفارس واليمن ومن بلاده ده فتن وبدفتن وسندكرها وسرنا من جرفتن الى مدينة ده فتن (بفتح الدال المهمل وسكون الهاء) وقد ذكرنا ضبط فتن وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول وبها القلقاص الكثير ويطبخون به اللحم وأما الموز فلم ار في البلاد أكثر منه بها ولا ارخص ثمنا وفيها البانين الاعظم طوله خمسمائة خطوة وعرضه ثلاثمائة خطوة وهو مطوى بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبه ثمان وعشرون قبة من الحجر في كل قبة أربع مجالس من الحجر وكل قبة يصعد اليها على درج حجارة وفي وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات في كل طبقة أربع مجالس وذكر لي ان والد هذا السلطان كويل هو الذي عمر هذا البانين وبازائه مسجد جامع المسلمين وله أدراج ينزل منها اليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون وحدثني الفقيه حسين ان الذي عمر المسجد والبانين أيضا هو أحد أجداد كويل وانه كان مسلما ولا سلامة خبر عجيب نذكره

— ذكر الشجرة العجيبة الشان التي بازاء الجامع —

ورأيت انا بازاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه اوراقها أوراق التين الا انها لينة وعليها حائط يطيف بها وعندها محراب صليت فيه ركعتين واسم هذه الشجرة عندهم درخت الشهادة ودرخت (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وأخبرت هنالك انه اذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعدان يستحيل لونها الى الصفرة ثم الى الحمرة ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة لا اله الا الله محمد

رسول الله وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات انهم عاينوا هذه الورقة وقرؤا المكتوب الذي فيها وأخبرني انه اذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار فاذا سقطت أخذ المسلمون نصفها وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر وهم يستشفون بها للمرضى وهذه الشجرة كانت سبب اسلام جد كويل الذي عمر المسجد والباين فانه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن اسلامه وحكايته عندهم متواترة وحدثني الفقيه حسين ان أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر ثم انها نبتت بعد ذلك وعادت كأحسن ما كانت عليه وهلك الكافر سريعا ثم سافرنا الى مدينة بدفتن وهي مدينة كبيرة على خور كبير وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي اليه غرباء المسلمين لانه لا مسلم بهذه المدينة ومرساها من أحسن المراسي وماؤها عذب والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين وأكثر أهلها براهمة وهم معظمون عند الكفار مبغضون في المسلمين ولذلك ليس بينهم مسلم

— حكاية — أخبرت ان سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم ان أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته فاشتعلت النار في بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه فاحترموا هذا المسجد ولم يتعرضوا له بسوء بعدها وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير ثم سافرنا من مدينة بدفتن الى مدينة فندرينا (وضبط اسمها بفاء مفتوح ونون ساكن ودال مهمل وراء مفتوحين وياء آخر الحروف) مدينة كبيرة حسنة ذات بساتين وأسواق وبها للمسلمين ثلاث محلات في كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان وله أخ فاضل وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين ثم سافرنا منها الى مدينة قالقوط (وضبط اسمها بقافين وكسر اللام وضم القاف الثاني وآخره طاء مهمل) وهي احدى البنادر العظام ببلاد الملیبار يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس ويجتمع بها تجار الآفاق ومرساها من أعظم مراسي الدنيا

— ذكر سلطانها —

وسلطانها كافر يعرف بالسامري شيخ السن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيته بها وسنذكره ان شاء الله وأمير التجار بها ابراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم يجتمع اليه التجار ويأكلون في سماطه وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين

للشيخ أبي اسحاق الكازروني نفع الله به وبهذه المدينة الناخودة مثقال الشهير الاسم صاحب الاموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ولما وصلنا الى هذه المدينة خرج الينا ابراهيم شاه بندر والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار ونائب السلطان الكافر المسمي بقلاج (بضم القاف وآخره جيم) ومعهم الاطبال والانفار والابواق والاعلام في مراكبهم ودخلنا المرسي في بروز عظيم مارأيت مثله بتلك البلاد فكانت فرحة تتبعها ترحة وأقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة عشر من مراكب الصين ونزلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا في دار وأقمنا ننتظر زمان السفر الى الصين ثلاثة أشهر ونحن في ضيافة الكافر وبحر الصين لا يسافر فيه الا بمراكب الصين ولنذكر ترتيبها

— ذكر مراكب الصين —

ومراكب الصين ثلاثة أصناف الكبار منها تسمي الجنوك واحدها جنك (بجيم معقود مضموم ونون ساكن) والمتوسطة تسمى الزو (بفتح الزاى وواو) والصغار يسمى أحدها الكم (بكافين مفتوحين) ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعا فما دونها الى ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدا ويديرونها بحسب دوران الريح واذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة واصحاب الدرق والجرخية وهم الذين يرمون بالنفط ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة النصفي والثلثي والربعي ولا تصنع هذه المراكب الا بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان وهي صين الصين وكيفية انشائها انهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاثة اذرع فاذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على اعلاها فرش المركب الاسفل ودفعوها في البحر واتموا عمله وتبقي تلك الخشب والحائطان موالية للماء ينزلون اليها فيغتسلون ويقضون حاجتهم وعلى جوانب تلك الخشب يكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا على اقدامهم ويجعلون المركب أربعة ظهور ويكون فيه البيوت والمصارى والغرف للتجار والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها ويحمل معه الجواري والنساء وربما كان الرجل في مصر يته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتي يتلاقيا اذا وصلا الى بعض البلاد والبحرية يسكنون فيها أولادهم ويزدرعون الخضر والبقول والزنجبيل في احواض خشب ووكيل المركب كانه أمير كبير واذا نزل الى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب

Digitized by Birzeit University Library

والسيوف والاطبال والابواق والانفار امامه واذا وصل الى المنزل الذى يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه ولا يزالون كذلك مدة اقامته ومن أهل الصين من تكون له المراكب الكثيرة يبعث بها وكلاءه الى البلاد وليس فى الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين

— ذكر أخذنا فى السفر الى الصين ومنتهى ذلك —

ولما حان وقت السفر الى الصين جهزلنا السلطان السامرى جنكا من الجنوك الثلاث عشر التي بمرسى قالقوط وكان وكيل الجنك يسمي بسليمان الصفدى الشامى وبيني وبينه معرفة فقلت له أريد مصرية لا يشاركنى فيها أحد لاجل الجوارى ومن عادتى ان لا أسافر الا بهن فقال لى ان تجار الصين قد أكتروا المصارى ذاهبين وراجعين ولصهرى مصرية أعطيتها لكنها الاستداس فيها وعسي ان تمكن معاوضتها فامرت أصحابى فاوسقوا ما عندى من المتاع وصعد العبيد والجوارى الى الجنك وذلك فى يوم الخميس وأقمت لاصلي الجمعة والحق بهم وصعد الملك سنبل وظهير الدين مع الهدية ثم ان فتى لى يسمى بهلال أتانى غدوة الجمعة فقال ان المصرية التي أخذناها بالجنك ضيقة لا تصلح فذكرت ذلك للناخودة فقال ليست فى ذلك حيلة فان أحببت ان تكون فى الكنكم ففيه المصارى على اختيارك فقلت نعم وأمرت أصحابى فنقلوا الجوارى والمتاع الى الكنكم واستقروا به قبل صلاة الجمعة وعادة هذا البحر ان يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع احد ركوبه وكانت الجنوك قد سافرت ولم يبق منها الا الذي فيه الهدية وجنك عزم أصحابه على ان يشتوا بفندرينا والكنكم المذكور فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود الى الكنكم ولا يستطيع من فيه النزول الينا ولم يكن بقي معي الا بساط افترشه وأصبح الجنك والكنكم يوم السبت على بعد من المرسى ورمى البحر بالجنك الذى كان اهله يريدون فندرينا فتكسرت ومات بعض اهله وسلم بعضهم وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب فى أعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها وكانت قد التزمت خشبة فى مؤخر الجنك فانتدب لذلك بعض البحرية الهرمزيين فاخرجها وأبي ان ياخذ الدنانير وقال انما فعلت ذلك لله تعالى ولما كان الليل رمي البحر بالجنك الذى كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه ونظرنا عند الصباح الى مصارعهم ورايت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه والملك سنبل قد ضرب مسمارا فى أحد صدغيه ونفذ من الآخر وصلينا عليهما ودفناهما ورأيت الكافر سلطان قالقوط وفى وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته الى ركبته وفى رأسه عمامة صغيرة وهو حافى القدمين والشطر بيد غلام فوق رأسه والنار توقد بين يديه فى الساحل وزبانيته

Digitized by Birzeit University Library

يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر وعادة بلاد المليبار ان كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن الا في هذا البلد خاصة فان ذلك يأخذه أربابه ولذلك عمرت وكثر تردد الناس اليها ولما رآي اهل الكلكم ما حدث على الجنك رفعوا قلعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري وبقيت منفردا على الساحل ليس معي الا فتي كنت أعتقته فلما رأى ما حل بي ذهب عني ولم يبق عندي الا العشرة الدنانير التي اعطانيها الجوكي والبساط التي كنت افترشه واخبرني الناس ان ذلك الكلكم لا بد له ان يدخل مرسى كولم فعزمت على السفر اليها وبينهما مسيرة عشر في البر وفي النهر ايضا لمن أراد ذلك فسافرت في النهر وا كتريت رجلا من المسلمين يحمل لي البساط وعادتهم اذا سافروا في ذلك النهر أن ينزلوا بالعشي فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه ثم يعودوا الى المركب بالغدو فكنا نفعل ذلك ولم يكن بالمركب مسلم الا الذي اكتريته وكان يشرب الخمر عند الكفار اذا نزلنا ويعربد علي فيزيد تغيير خاطري ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا الى كنجي كري (وضبط اسمها بكاف مضمومة ونون ساكن وجيم وياء مد وكاف مفتوح وراء مكسور وياء) وهي باعلى جبل هنالك يسكنها اليهود ولهم أمير منهم ويؤدون الجزية لسلطان كولم

— ذكر القرفة والبقم —

وجميع الاشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم وهي حطبهم هنالك ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق وفي اليوم العاشر وصلنا الى مدينة كولم (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وبينهما واو) وهي من احسن بلاد المليبار واسواقها حسان وتجارها يعرفون بالصوليين (بضم الصاد) لهم اموال عريضة يشتري احدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع وبها من التجار المسلمين جماعة كبيرهم علاء الدين الاوجي من اهل آواة من بلاد العراق وهو رافضي ومعه اصحاب له على مذهبه وهم يظهرون ذلك وقاضيها فاضل من اهل قزوين وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر وله اخ فاضل كريم اسمه تقي الدين والمسجد الجامع بها عجيب عمره التاجر خواجه مهزب وهذه المدينة اول ما يوالي الصين من بلاد المليبار واليها يسافر اكثرهم والمسلمون بها اعزة محترمون

— ذكر سلطانها —

وهو كافر يعرف بالتيروري (بكسر التاء المعلوة وياء مد وراء واو مفتوحين وراء مكسور وياء) وهو معظم للمسلمين وله احكام شديدة على السراق والدعار

— حكاية —

ومما شاهدت بكولم ان بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم وفر الى دار الاوجي وكان له مال كثير واراد المسلمون دفن المقتول فمنعهم نواب السلطان من ذلك وقالوا لا يدفن حتى تدفعوا

لنا قاتله فيقتل به وتركوه في تابوته على باب الأوجي حتى أنتن وتغير فكنهم الأوجي من القاتل ورغب منهم ان يعطيهم امواله ويتركوه حيا فابوا ذلك وقتلوه وحينئذ دفن المقتول

حكاية

أخبرت ان سلطان كولم ركب يوما الى خارجها وكان طريقه فيما بين البساتين ومعه صهره زوج بنته وهو من ابناء الملوك فاخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين وكان السلطان ينظر اليه فامر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين وصلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منه نصف منها وترك هنالك عبرة للناظرين

حكاية

ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط ان ابن أخي النائب عن سلطانها غصب سيفا لبعض تجار المسلمين فشكا بذلك الى عمه فوعده بالنظر في امره وقعد على باب داره فاذا بابن أخيه متقلد ذلك السيف فدعاه فقال هذا سيف المسلم قال نعم قال اشتريته منه قال لا فقال لاعوانه امسكوه ثم امر به فضربت عنقه بذلك السيف وأقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين ابن الشيخ شهاب الدين الكازروني شيخ زاوية قالقوط فلم أتعرف للكم خبرا وفي أثناء مقامي بها دخل اليها ارسال ملك الصين الذين كانوا معناوكانوا مع أحد تلك الجنوك فانكسر أيضا فكساهم تجار الصين وعادوا الى بلادهم ولقيتهم بها بعد واردت أن أعود من كولم الى السلطان لاعلمه بما انفق على الهدية ثم خفت ان يتعقب فعلي ويقول لم فارقت الهدية فعزمت على العودة الى السلطان جمال الدين الهنوري وأقيم عنده حتى أتعرف خبر الكم فعدت الى قالقوط ووجدت بها بعض مراكب السلطان فبعثت فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبي الحسن وهو من البرددارية وهم خواص البوابين بعثه السلطان باموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لحبته في العرب فتوجهت الى هذا الاميرورأيته عازما على ان يشتو بقالقوط وحينئذ يسافر الى بلاد العرب فشاورته في العودة الى السلطان فلم يوافق على ذلك فسافرت بالبحر من قالقوط وذلك آخر فصل السفر فيه فكنا نسير نصف النهار الاول ثم نرسو الى الغدولقينا في طريقنا أربعة أجفان غزوية فتخفنا منها ثم لم يتعرضوا لنا بشر ووصلنا الى مدينة هنور فنزلت الى السلطان وسلمت عليه فانزلني بدار ولم يكن لي خديم وطلب مني ان أصلي معه الصلوات فكان أكثر جلوسي في مسجده وكنت أختم القرآن كل يوم ثم كنت أختم مرتين في اليوم أبتدىء القراءة بعد صلاة الصبح فاختم عند الزوال وأجدد الوضوء وأبتدىء القراءة فاختم الختمة الثانية عند الغروب ولم أزل كذلك مدة ثلاثة اشهر واعتكفت فيها أربعين يوما

Digitized by Birzeit University Library

— ذكر توجهنا الى الغزو وفتح سندابور —

وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركبا وسفرته برسم غزو سندابور وكان وقع بين سلطا نها وولده خلاف فكتب ولده الى السلطان جمال الدين ان يتوجه لفتح سندابور ويسلم الولد المذكور ويزوجه السلطان اخته فلما تجهزت المراكب ظهر لى ان أتوجه فيها الى الجهاد ففتحت المصحف انظر فيه فكان فى أول الصفح يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره فاستبشرت بذلك وأتي السلطان الى صلاة العصر فقلت له إني أريد السفر فقال فانت اذا تكون أميرهم فاخبرته بما خرج لى فى أول الصفح فاعجبه ذلك وعزم على السفر بنفسه ولم يكن ظهر له ذلك قبل فركب مركبا منها وانا معه وذلك فى يوم السبت فوصلنا عشي الاثنين الى سندابور ودخلنا خورها فوجدنا أهلها مستعدين للحرب وقد نصبوا المجانيق فبتنا عليها تلك الليلة فلما أصبح ضربت الطبول والانفار والابواق وزحفت المراكب ورمت عليها بالمجانيق فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان ورمى أهل المراكب أنفسهم فى الماء وبايديهم الترسة والسيوف ونزل السلطان الى العكيري وهو شبه الشليز ورميت بنفسي فى الماء فى جملة الناس وكان عندنا طريدتان مفتوحتي المواخر فيها الخيل وهي بحيث يركب الفارس فرسه فى جوفها ويتدرع ويخرج ففعلوا ذلك واذن الله فى فتحها وانزل النصر على المسلمين فدخلنا بالسيف ودخل معظم الكفار فى قصر سلطانها فرمينا النار فيه فخرجوا وقبضنا عليهم ثم ان السلطان أمنهم وردلهم نساءهم وأولادهم وكانوا نحو عشرة آلاف وأسكنهم بربض المدينة وسكن السلطان القصر وأعطى الديار بمقربة منه لاهل دولته وأعطاني جارية منهن تسمي لمكي فسميتها مباركة وأرادز وجها فداءها فابيت وكساني فرجية مصرية وجدت فى خزائن الكافر وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها وهو الثالث عشر لجمادى الاولى الى منتصف شعبان وطلبت منه الاذن فى السفر فاخذ على العهد فى العودة اليه وسافرت فى البحر الى هنور ثم الى فاكنور ثم الى منجرور ثم الى هيلى ثم الى جرفتن وده فتن وبدفتن وفندربنا وقالقوط وقد تقدم ذكر جميعها ثم الى مدينة الشاليات (وهي بالشين المعجم وألف ولام وياء آخر الحروف وألف وتاء معلوة) مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة لها وأقمت بها فطال مقامى فعدت الى قالقوط ووصل اليها غلامان كانا لى بالكلكم فاخبراني ان الجارية التى كانت حاملا وبسببها كان تغير خاطرى توفيت وأخذ صاحب الجاوة سائر الجوارى واستولت الايدي على المتاع وتفرق أصحابى الى الصين والجاوة بنجالة فعدت لما تعرفت هذا الى هنور ثم الى سندابور فوصلتها فى آخر المحرم وأقمت بها

Digitized by Birzeit University Library

الى الثاني من شهر ربيع الآخر وقدم سلطانهم الكافر الذى دخلنا عليه برسم أخذها وهرب اليه الكفار كلهم وكانت عساكر السلطان متفرقة فى القرى فانقطعوا عنا وحصرنا الكفار وضيقوا علينا ولما اشتد الحال خرجت عنها وتركتها محصورة وعدت الي فالقوط وعزمت على السفر الى ذيبة المهل وكنت أسمع باخبارها فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقا القوط وصلنا جزائر ذيبة المهل وذيبة على لفظ مؤنث الذيب والمهل (بفتح الميم والهاء) وهذه الجزائر احدى عجائب الدنيا وهي نحو ألفى جزيرة ويكون منها مائة فادونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب الا منه واذا وصل المركب الى احداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به الى سائر الجزائر وهى من التقارب بحيث تظهر رؤس النخل التي باحداها عند الخروج من الاخرى فان أخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح الى المعبر او سيلان وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح وهى منقسمة الى أقاليم على كل إقليم وال يسمونه الكردوبي ومن أقاليمها اقليم بالبور (وهو ببائين معقودتين وكسر اللام وآخره راء) ومنها كنلوس (بفتح الكاف والنون مع تشديدها وضم اللام وواو وسين مهمل) ومنها اقليم المهل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها ومنها اقليم تلاديب (بفتح التاء المعلوة واللام وألف ودال مهمل وياء مد وباء موحدة) ومنها اقليم كرايدو (بفتح الكاف والراء وسكون الياء المسفولة وضم الدال المهمل وواو) ومنها اقليم التيم (بفتح التاء المعلوة وسكون الياء المسفولة) ومنها اقليم تلدمتى (بفتح التاء المعلوة الاولى واللام وضم الدال المهمل وفتح الميم وتشديدها وكسر التاء الاخري وياء ومنها اقليم حلدمتى وهو مثل لفظ الذى قبله الا أن الهاء أوله ومنها اقليم بريدو (بفتح الباء الموحدة والراء وسكون الياء وضم الدال المهمل وواو) ومنها اقليم كندكل (بفتح الكافين والدال المهمل وواو) ومنها اقليم ملوك (بضم الميم) ومنها اقليم السويد (بالسين المهمل) وهو أقصاها وهذه الجزائر كلها لا زرع بها الا ان فى اقليم السويد منها زرعا يشبه الذى ويجلب منه الى المهل وانما أكل أهلها سمك يشبه الليرون يسمونه قلب الماس (بضم القاف) ولحمه أحمر ولا زفر له انما يحه كريح لحم الانعام واذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوه يسيرا ثم جعلوه فى مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فاذا استحكم يبسه أكلوه ويحمل منها الى الهند والصين واليمن ويسمونه قلب الماس (بضم القاف)

— ذكر أشجارها —

ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل وهو من أقواتهم مع السمك وقد تقدم ذكره

وأشجار النارجيل شأنها عجيب وتثمر النخل منها اثني عشر عذقا في السنة يخرج في كل شهر عذق فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها يابسا وبعضها أخضر هكذا أبدا ويصنعون منها الحليب والزيت والعسل حسبما ذكرنا لك في السفر الاول ويصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه ولذلك كله وللسمك الذي يغتذون به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها ولاهل هذه الجزائر عجب في ذلك ولقد كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن فكنت أطوف على جميعهن كل يوم وأبيت عند من تكون ليلتها وأقمت بها سنة ونصف أخري على ذلك ومن أشجارها الجموح والاترج والليمون والقلقاص وهم يصنعون من أصوله دقيقا يعملون منه شبه الاطرية ويطبخونها بحليب النارجيل وهي من أطيب طعام كنت أستحسنها كثيرا وآكلها

— ذكر أهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم وذكر مساكنهم —

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وايمان صحيح ونية صادقة أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب واذا رأى الانسان أحدهم قال له الله ربي ومحمد نبيي وأنا أمي مسكين وأبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها فغشي على جماعة منهم كانوا بالمجلس ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لانهم جربوا ان من أخذ لهم شيئا أصابته مصيبة عاجلة واذا أتت أجفان العدو الى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم ولم يتعرضوا لاحد منهم بسوء وان أخذ أحد الكفار رولوا ليمونة عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة وأكثر عمارتهم بالخشب وهم أهل نظافة وتنزه عن الاقذار وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها وكثرة العرق ويكثرون من الادهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو ومن عادتهم انهم اذا صلوا الصبح أتت كل امرأة الى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل ويجعلون على ظهورهم ثياب انوليان (بكسر الواو وسكون اللام وياء آخر الحروف) وهي شبه الاحارم ربما بعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا منها واذا التقي أحدهم القاضي أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل الى منزله ومن عوائدهم انه اذا تزوج الرجل منهم ومضى الى دار زوجته بسطت له ثياب

القطن من باب دارها الى باب البيت وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه الى البيت وشماله وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فاذا وصل اليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه وان كانت المرأة هي التي تأتي الى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ورمت المرأة عند الوصول اليه الثوب على رجليه وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم لا بد من ثوب يرمى عند ذلك وسند كره وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الارض توقيا من الرطوبات لان أرضهم ندية وكيفية ذلك ان ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين او ثلاثة ويجعلونها صفوفا ويعرضون عليها خشب النارجيل ثم يصنعون الحيطان من الخشب ولهم صناعة عجيبة في ذلك ويبنون في اسطوان الداربيتا يسمونه المسالم (بفتح اللام) يجلس الرجل به مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما الى جهة الاسطوان يدخل منه الناس والآخر الى جهة الدار يدخل منه صاحبها ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقي يسمونه الوانج (بفتح الواو واللام وسكون النون وجيم) هو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يسقون الماء من الآبار لقربها وجميعهم حفاة الاقدام من رفيع ووضيع وازقتهم مكنوسة نقية تظللها الاشجار فالماشي بها كانه في بستان ومع ذلك لا بد لكل داخل الى الدار ان يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية بالمالم ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل الى المسجد ومن عوائدهم اذا قدم عليهم مركب أن تخرج اليه الكنادر وهي القوارب الصغار واحدها كندرة (بضم الكاف والدال) وفيها أهل الجزيرة معهم القنبول والكزنبه وهي جوز النارجيل الاخضر فيعطى الانسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب ويكون نزيله ويحمل أمتعته الى داره كانه بعض أقربائه ومن اراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فاذا حان سفره طلق المرأة لانهن لا يخرجن عن بلادهن ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده اذا سافر وترضى منه في مقابلة ذلك بايسر شيء من الاحسان وفائدة المخزن ويسمونه البندر أن يشتري من كل سلعة بالمركب حظا بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو اكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب يسمونه البجنصار (بفتح الباء الموحدة والجيم وسكون النون وفتح الصاد المهمل وآخره راء) يجمع به الوالي وهو الكردوري جميع سلعه ويبيع بها ويشري وهم يشترون الفخار اذا جلب اليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوز النارجيل والفوط والوليان والعمائم وهي

من القطن ويحملون منها أو أني النحاس فانها عندهم كثيرة ويحملون الودع ويحملون القنبر (بفتح القاف وسكون النون وفتح الباء الموحدة والراء) وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه في حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم يغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل الى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن لان ذلك البحر كثير الحجارة فان كان المركب مسمرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر واذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر وصرف أهل هذه الجزائر الودع وهو حيوان يلتقطونه في البحر ويضعونه في حفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه سياه (بسين مهمل وياء آخر الحروف) ويسمون السبعمائة منه الفال (بالفاء) ويسمون الاثني عشر ألفا منه الكتى (بضم الكاف وتشديد التاء المعلوة) ويسمون المائة ألف منه بستو (بضم الباء الموحدة والتاء المعلوة وبينهما سين مهمل) ويباع بها بقيمة اربعة بساتي بدينار من الذهب وربما رخص حتى يباع عشر بساتي منه بدينار ويبيعونه من أهل بنجالة بالارز وهو أيضا صرف أهل بلاد بنجالة ويبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم وهذا الودع ايضا هو صرف السودان في بلادهم رأيته يباع بمالي وجوجو بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي

— ذكر نسائها —

ونساؤها لا يغطين رؤسهن ولا سلطانتهم تغطي رأسها ويمشطن شعورهن ويجمعنها الى جهة واحدة ولا يلبس أكثرهن الا فوطة واحدة تسترها من السرة الى أسفل وسائر أجسادهن مكشوفة وكذلك يمشين في الاسواق وغيرها ولقد جهدت لما وليت القضاء بها ان أقطع تلك العادة وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك فكنت لا أدخل الى منهن امرأة في خصومة الا مستترة الجسد وما عدا ذلك لم تكن لي عليه قدرة ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطة وقمصهن قصار الاكمام عراضها وكان لي جوار كسوتهن لباس أهل دهلي يغطين رؤسهن فعابهن ذلك أكثر مما زانهن اذ لم يتعودنه وحليهن الاساور تجعل المرأة منها جملة في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق وهي من الفضة ولا يجعل أساور الذهب الا نساء السلطان وأقاربه ولهن الخلاخيل ويسمونها البايل (بباء موحدة وألف وياء آخر الحروف مكسورة) وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها البسدر (بالباء الموحدة وسكون السين المهمل وفتح الدال المهمل والراء) ومن عجيب أفعالهن انهن يؤجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها على مستأجرهن نفقتهن ولا يرين ذلك عيبا ويفعله أكثر

بيناتهم فتجد في دار الانسان الغني منهن العشرة والعشرين وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته واذا أرادت الخروج من دار الى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج اليها العدد الذي هي مرتهنة فيه فتدفعه لاهل الدار التي خرجت منها ويبقي عليها للآخرين وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء وأكثر الناس لا يسمي صداقا انما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها واذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء فاذا أرادوا السفر طلقوهن وذلك نوع من نكاح المتعة وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها الى سواها بل هي تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده وتأتيه بالماء للوضوء وتقوم رجليه عند النوم ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة ولقد تزوجت بها نسوة فاكل معي بعضهن بعد محاولة وبعضهن لم تأكل معي ولا استطعت ان أراها تأكل ولا نفعتني حيلة في ذلك

— ذكر السبب في إسلام أهل هذه الجزائر —

— وذكر العفاريت من الجن التي تضربها في كل شهر —

حدثني الثقات من أهلها كالفقيه عيسى اليمني والفقيه المعلم علي والقاضي عبدالله وجماعة سواهم أن هذه الجزائر كانوا كفاراً وكان يظهر لهم في كل شهر عفريت من الجن يأتي من ناحية البحر كانه مركب مملوء بالقناديل وكانت عادتهم اذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها وادخلوها الى بدخانة وهي بيت الاصنام وكان مبنيا على ضفة البحر وله طاق ينظر اليه منه ويتركونها هنالك ليلة ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم فمن أصابته القرعة أعطي بنته ثم انه قدم عليهم مغربي يسمى بابي البركات البربري وكان حافظا للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها وهن يبكين كانهن في مأتم فاستفهمهن عن شأنهن فلم يفهمنه فاتى ترجمان فاخبره أن العجوز كانت القرعة عليها وليس لها الا بنت واحدة يقتلها العفريت فقال لها أبو البركات أنا أتوجه عوضا من بنتك بالليل وكان سناطا لاحية له فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه الى بدخانة وهو متوضئ واقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة فلما كان منه بحيث يسمع القراءة غاص في البحر وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها فوجدوا المغربي يتلو فمضوا به الى ملكهم وكان يسمى شنورازة (بفتح الشين المعجم

وضم النون وواو وراء والف وزاى وهاء) واعلموه بخبره فعجب منه وعرض المغربي عليه الاسلام ورغبه فيه فقال له أقم عندنا الى الشهر الآخر فان فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت فأقام عندهم وشرح الله صدر الملك للاسلام فأسلم قبل تمام الشهر وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته ثم حمل المغربي لما دخل الشهر الى بدخانة ولم يأت العفريت فجعل يتلو حتى الصباح وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة فكسروا الاصنام وهدموا بدخانة وأسلم أهل الجزيرة وبعثوا الى سائر الجزائر فأسلم أهلها وأقام المغربي عندهم معظما وتمذهبوا بمذهبه مذهب الامام مالك رضي الله عنه وهم الى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه وبني مسجداً هو معروف باسمه وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا في الخشب أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر صدقة على أبناء السبيل إذ كان إسلامه بسببهم فسمي على ذلك حتى الآن وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الاسلام ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه فبينا أنا ليلة في بعض شأني اذ سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ورأيت الاولاد على رؤسهم المصاحف والنساء يضربون بضربن في الطبوت واوانى النحاس فعجبت من فعلهم وقلت ماشأنكم فقالوا ألا تنظر الى البحر فنظرت فاذا مثل المركب الكبير وكأنه مملوسرجا ومشاعل فقالوا ذلك العفريت وعادته أن يظهر مرة في الشهر فاذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا

— ذكر سلطانة هذه الجزائر —

ومن عجائبها ان سلطانتها امرأة وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي وكان الملك لجدهائم لابيها فلما مات أبوها ولي أخوها شهاب الدين وهو صغير السن فتزوج الوزير عبدالله بن محمد الحضرمي أمه وغلب عليه وهو الذي تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين كما سنذكره فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبدالله ونفاه الى جزائر السويد واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ويسمي على كلكي ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه الى السويد وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور انه يختلف الى حرم أهل دولته وخواصه بالليل فخلعوه لذلك ونفوه الى اقليم هلدتني وبعثوا من قتله بها ولم يكن بقي من بيت الملك الا اخواته خديجة الكبري ومريم وفاطمة فقدموا خديجة سلطانة وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين فصار وزيرا وغالبا على الامر وقدم ولده محمد للخطابة عوضا منه ولكن الاوامر

انما تنفذ باسم خديجة وهم يكتبون الاوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين ولا يكتبون في الكاغد الا المصاحف وكتب العلم ويذكرها الخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول اللهم انصر أمتك التي اخترتها على علم على العالمين وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ألا وهي السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين ابن السلطان صلاح الدين ومن عادتهم اذا قدم الغريب عليهم ومضي الى المشور وهم يسمونه الدار فلا بد له ان يستصحب ثوبين فيخدم لجهة هذه السلطانة ويرمي باحدهما ثم يخدم لوزيرها وهو زوجها جمال الدين ويرمي بالثاني وعسكرها نحو ألف انسان من الغرباء وبعضهم لديون ويأتون كل يوم الى الدار فيخدمون وينصرفون ومرتبهم الارز يعطاهم من البندر في كل شهر فاذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا وقالوا للوزير بلغ عنا الخدمة واعلم بانا أتينا نطلب مرتبنا فيؤمر لهم بها عند ذلك ويأتي أيضا الى الدار كل يوم القاضي وأرباب الخطط وهم الوزراء عندهم فيخدمون ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون

— ذكر أرباب الخطط وسيرهم —

وهم يسمون الوزير الاكبر النائب عن السلطانة كالكي (بفتح الكاف الاولى واللام) ويسمون القاضي فنديار قالوا (وضبط ذلك بفاء مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح وياء آخر الحروف والف وراء وقاف والف ولام مضموم) واحكامهم كلها راجعة الى القاضي وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين وأمره ممتثل كأمر السلطان وأشد ويجلس على بساط في الدار وله ثلاثة جزائر ياخذ مجباها لنفسه عادة قديمة أجراها السلطان أحمد شنورازة ويسمون الخطيب هندجري (وضبط ذلك بفتح الهاء وسكون النون وكسر الدال وياء مدوجيم مفتوح وراء وياء) ويسمون صاحب الديوان الفاملداري (بفتح الفاء والميم والدال المهمل) ويسمون صاحب الاشغال مافاكلوا (بفتح الميم والكاف وضم اللام) ويسمون الحاكم فتنايك (بكسر الفاء وسكون التاء المثلوة وفتح النون والف وياء آخر الحروف مفتوحة أيضا وكاف) ويسمون قائد البحر مانابك (بفتح الميم والنون والياء) وكل هؤلاء يسمى وزيرا ولا سجن عندهم بتلك الجزائر انما يحبس ارباب الجرائم في بيوت خشب هي معدة لامتعة التجار ويجعل أحدهم في خشبة كما يفعل عندنا باساري الروم

— ذكر وصولي الى هذه الجزائر وتنقل حالي بها —

ولما وصلت اليها نزلت منها بجزيرة كنلوس وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ونزلت بدار رجل من صلحائها وأضافني بها الفقيه علي وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم ولقيت بها

رجلا اسمه محمد من أهل ظفار الحوض فاضافني وقال لي إن دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها فانهم لا قاضي عندهم وكان غرضي أن أسافر منها الى المعبر وسرنديب وبنجالة ثم الى الصين وكان قدومي عليها في مركب الناخوذة عمر الهنوري وهو من الحجاج الفضلاء ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشرة أيام اكتري كندرة يسافر فيها الى المهل بهدية للسلطانة وزوجها فاردت السفر معه فقال لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك فان شئت السفر منفردا عنهم فدونك فابيت ذلك وسافر فلعبت به الريح وعاد الينا بعد أربعة أيام وقد لقي شدائد فاعتذر لي وعزم علي في السفر معه باصحابي فكنا نرحل غدوة فننزل في وسط النهار لبعض الجزائر ونرحل عشية باخرى ووصلنا بعد أربعة أيام الى اقليم التيم وكان الكردوي يسمى بها هلالا فسلم علي واضافني وجاء الى ومعه أربعة رجال وقد جعل اثنان عليهم عودا على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات وجعل الآخران عودا مثله وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير فاخبرت انهم صنعوه على جهة الكرامة والاجلال ورحلنا عنهم فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان وهو رجل فاضل من خيار الناس فاكرمنا واضافنا وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له النلمذى وفي اليوم العاشر وصلنا الى جزيرة المهل حيث السلطانة وزوجها وارسينا برساها وعادتهم أن لا ينزل أحد عن المرسى الا باذنهم فاذنوا لنا بالنزول وأردت التوجه الى بعض المساجد فمنعني الخدام الذين بالساحل وقالوا لا بد من الدخول الى الوزير وكنت أوصيت الناخودة ان يقول اذا سئل عني لا اعرفه خوفا من امساكهم إياي ولم أعلم ان بعض أهل الفضول قد كتب اليهم معرفا بخبري واني كنت قاضيا بدهلي فلما وصلنا الى الدار وهو المشور نزلنا في سقائف على الباب الثالث منه وجاء القاضي عيسى اليمني فسلم علي وسلمت على الوزير وجاء الناخودة براهيم بعشرة أثواب فخدم لجهة السلطانة ورمي بثوب منها ثم خدم للوزير ورمي بثوب آخر كذلك ورمي بجميعها وسئل عني فقال لا أعرفه ثم اخرجوا التنبول وماء الورد وذلك هو الكرامة عندهم وأنزلنا بدار وبعث الينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الارز وتدور بها صحاف فيها اللحم الخليع والدجاج والسمن والسمك ولما كان بالغد مضيت مع الناخودة والقاضي عيسى اليمني لزيارة تراويه في طرف الجزيرة عمرها الشيخ الصالح نجيب وعدنا ليلا وبعث الوزير الى صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الارز والسمن والخليع وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها وهم يسمونه القرباني (بضم القاف وسكون الراء وفتح الباء الموحدة والف ونون وياء) ومعنى ذلك ماء السكر واتوا بمائة الف ودعة للنفقة وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء

من العرب والعجم يعرفوني فعرفوا خدام الوزير بامري فزاد اغتباطا بي وبعث عني عند استهلال رمضان فوجدت الامراء والوزراء وأحضر الطعام في موائد يجتمع على المائدة طائفة فاجلسني الوزير الى جانبه ومعه القاضي عيسى والوزير الفاضل ارى والوزير عمر دهري ومعناه مقدم العسكر وطعامهم الارز والدجاج بالسمن والسمك والخليع والموز المطبوخ ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالافاوية وهو بعض الطعام وفي التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ولم يدخل بها أحد منهما لصغرها فردها أبوها لداره واعطاني دارها وهي من أجمل الدور واستاذنته في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم فاذن لي في ذلك وبعث الى خمسا من الغنم وهي عزيزة عندهم لانها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو وبعث الارز والدجاج والسمن والابازير فبعثت ذلك كله الى دار الوزير سليمان ما نايك فطبخ لي بها فاحسن في طبخه وزاد فيه وبعث الفرش وأواني النحاس وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير واستاذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة فقال لي وأنا أحضر أيضا فشكرته وانصرفت الى داري فاذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة فجلس في خشب مرتفعة وكان كل من يأتي من الامراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمي بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها فاخذها الفقراء وقدم الطعام فاكلوا ثم قرأ القراء بالاصوات الحسان ثم أخذوا في السماع والرقص وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطؤنها بالاقدام ومنهم من ياكلها كما تؤكل الحلواء الى ان خمدت

— ذكر بعض احسان الوزير الي —

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن فقال لي الوزير هذا البستان لك وسا عمر لك فيه دارا اسكنها فشكرت فعله ودعوت له ثم بعث لي من الغد بجارية وقال لي خديمه يقول لك الوزير ان اعجبتك هذه هي لك والا بعثت لك جارية مرهتية وكانت الجواري المرهتيات تعجبني فقلت له انما أريد المرهتية فبعثها الي وكان اسمها قل استان ومعناه زهر البستان وكانت تعرف اللسان الفارسي فاعجبتني وأهل تلك الجزائر لهم لسان لم أكن اعرفه ثم بعث الي في غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبرى ولما كانت الليلة بعدها جاء الوزير الى بعد العشاء الاخيرة في نفر من أصحابه فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه وسا ني عن حالي فدعوت له وشكرته فالقى أحد الغلامين بين يديه لقشة (بقشة) وهي شبه السبنية وأخرج منها ثياب حرير وحقا فيه جوهر

فاعطاني ذلك وقال لي لو بعته لك مع الجارية لقالت هو مالي جئت به من دار مولاي والان هو مالك فاعطه اياه فدعوت له وشكرته وكان أهلا للشكر رحمه الله

— ذكر تغيره وما أردته من الخروج ومقامي بعد ذلك —

وكان الوزير سليمان ما نايك قد بعث الى ان أتزوج بنته فبعثت الى الوزير جمال الدين مستاذنا في ذلك فعاد الي الرسول وقال لم يعجبه ذلك وهو يحب أن يزوجك بنته اذا انقضت عدتها فابيت أنا ذلك وخفت من شؤمها لانه مات تحتها زوجان قبل الدخول وأصابتني أثناء ذلك حمى مرضت بها ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة ان يحم فقوي عزمي على الرحلة عنها فبعت بعض الحلي بالودع واكتريت مركبا أسافر فيه لبنجالة فلما ذهبت لوداع الوزير خرج الي القاضي فقال الوزير يقول لك ان شئت السفر فاعطنا ما أعطيناك وسافر فقلت له ان بعض الحلي اشتريت به الودع فشانكم واياه فعاد الي فقال يقول انما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع فقلت له أنا أبيعه وآتيكم بالذهب فبعثت الى التجار ليشتروه مني فامرهم الوزير ان لا يفعلوا وقصده بذلك كله ان لا أسافر عنه ثم بعث الى أحد خواصه وقال الوزير يقول لك أقم عندنا ولك كل ما أحببت فقلت في نفسي أنا تحت حكمهم وان لم أقم مختارا أقمت مضطرا فالاقامة باختياري اولى وقلت لرسوله نعم انا اقيم معه فعاد اليه ففرح بذلك واستدعاني فلما دخلت اليه قام الي وعانقني وقال نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا فعذرت له فقبل عذري وقلت له ان اردتم مقامي فانا اشترط عليكم شروطا فقال نقبلها فاشترط فقلت له انا لا أستطيع المشي على قدمي ومن عادتهم أن لا يركب أحد هناك الا الوزير ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته يتبعني الناس رجالا وصبيانا يعجبون مني حتى شكوت له فضربت الدنقرة ويرح في الناس ان لا يتبعني أحد والدنقرة (بضم الدال المهمل وسكون النون وضم القاف وفتح الراء) شبه الطست من النحاس تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد فاذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد فقال لي الوزير ان أردت ان تركب الدولة والا فعندنا حصان ورمكة فاخترت أيهما شئت فاخترت الرمكة فاتوني بها في تلك الساعة وأتوني بكسوة فقلت له وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته فقال ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة فقلت له على ان تبعث أنت من يعينه على ذلك فقال نعم فبعثت حينئذ رفيقي أبا محمد بن فرحان وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج عليا فاتفق ان هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقربة وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره ثم خرجوا الى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد

وقدم على صاحبي ابو محمد بعد سنة وقد زار الشام وزارها مرة ثانية معي

— ذكر العيد الذي شاهدته معهم —

ولما تم شهر رمضان بعث الوزير الى بكسوة وخرجنا الى المصلى وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره الى المصلى وفرشت الثياب فيها وجعلت كتاتي الودع يمنة ويسرة وكل من له على طريقه دار من الامراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل واشجار الفوفل والموز ومد من شجر الي أخري شرائط وعلق منها الجوز الاخضر ويقف صاحب الدار عند بابها فاذا مر الوزير رمي على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن فيأخذها عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه أيضا والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة وهو متقلد فوطة حرير وفوق رأسه أربعة شطور وفي رجليه النعل وجميع الناس سواه حفاة والابواق والانفار والاطبال بين يديه والعساكر امامه وخلفه وجميعهم يكبرون حتي أتوا المصلى فخطب ولده بعد الصلاة ثم أتى بمحفة فركب فيها الوزير وخدم له الامراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة ولم يكن ركب في المحفة قبل ذلك لان ذلك لا يفعله الا الملوك ثم رفعه الرجال وركبت فرسي ودخلنا القصر فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والامراء ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصي ثم أتى بالطعام ثم الفوفل والتنبول ثم اتى بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصري فاذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل ورأيت علي بعض طعامهم يومئذ حوتا من السردين مملوحا غير مطبوخ أهدي لهم من كولم وهو من بلاد المليبار كثير فاخذ الوزير سردينة وجعل يأكلها وقال لي كل منه فانه ليس ببلادنا فقلت كيف اكله وهو غير مطبوخ فقال انه مطبوخ فقلت انا اعرف به فانه ببلادي كثير

— ذكر تزوجي وولايتي القضاء —

وفي الثاني من شوال انفقت مع الوزير سليمان ما نايك على تزوج بنته فبعثت الى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر فاجاب الى ذلك واحضر التنبول على العادة والصندل وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان فاستدعي فلم يأت ثم استدعى ثانية فاعتذر بمرض البنت فقال لي الوزير سرا أن بنته امتنعت وهي مالكة أمر نفسها والناس قد اجتمعوا فهل لك ان تتزوج بربيبة السلطان زوجة أبيها وهي التي ولده متزوج بنتها فقلت له نعم فاستدعى القاضي والشهود ووقعت الشهادة ودفع الوزير الصداق ورفعت الى بعد ايام فكانت من خيار النساء وبلغ حسن معاشرتها انها كانت اذا تزوجت عليها تطيبني

Digitized by Birzeit University Library

وتبخر ثوابي وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير ولما تزوجتها اكرهني الوزير على القضاء وسبب ذلك اعتراضي على القاضي لكونه كان يأخذ العشر من التركات اذا قسمها على أربابها فقلت له انما لك اجرة تنفق بها مع الورثة ولم يكن يحسن شيئاً فلما وليت اجتهدت جهدي في اقامة رسوم الشرع وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا فاول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين وكانت احداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره فحسمت علة ذلك وأتي الي بنحو خمسة وعشرين رجلاً ممن فعل ذلك فضربتهم وشهرتهم بالاسواق وأخرجت النساء عنهم ثم اشتددت في اقامة الصلوات وأمرت الرجال بالمبادرة الى الازقة والاسواق أثر صلاة الجمعة فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته والزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ماهم بسبيله وكتبت الى جميع الجزائر بنحو ذلك وجهدت أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك

— ذكر قدوم الوزير عبدالله بن محمد الحضرمي الذي نفاه السلطان شهاب الدين الى السويدا وما وقع بيني وبينه —

وكنت قد تزوجت ربيبته بنت زوجته وأحببتها حباً شديداً ولما بعث الوزير عنه ورده الى جزيرة المهل بعث له التحف وتلقيته ومضيت معه الى القصر فسلم على الوزير وأنزله في دار جيدة فكنت أزوره بها واتفق ان اعتكفت في رمضان فزارني جميع الناس الا هو وزارني الوزير جمال الدين فدخل هو معه بحكم الموافقة فوقعت بيننا الوحشة فلما خرجت من الاعتكاف شكا الى اخوال زوجتي ربيبته أولاد الوزير جمال الدين السنجري فان أباهم أوصى عليهم الوزير عبدالله وأن ما لهم باق بيده وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع وطلبوا احضاره بمجلس الحكم وكانت عادتي اذا بعثت عن خصم من الخصوم ابعث له قطعة كاغدا مكتوبة فعند ما يقف عليها يبادر الى مجلس الحكم الشرعي والا عاقبته فبعثت اليه على العادة فاغضبه ذلك وحقدها علي واضمر عداوتي ووكل من يتكلم عنه و يلغني عنه كلام قبيح وكانت عادة الناس من صغير وكبير ان يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين وخدمتهم أن يوصلوا السبانة الى الارض ثم يقبلونها ويضعونها على رؤسهم فامرت المنادي فنادى بدار السلطان على رؤس الاشهاد أنه من خدم للوزير عبدالله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد وأخذت عليه أن لا يترك الناس لذلك فزادت عداوته وتزوجت أيضاً زوجة اخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد شنورازة ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين وعمرت

ثلاث ديار بالبستان الذي أعطانيه الوزير وكانت الرابعة وهي ربيبة الوزير عبد الله تسكن في دارها وهي احبهن الى فلما صاهرت من ذكرته ها بني الوزير واهل الجزيرة وتخوفوا مني لاجل ضعفهم وسعوا بيني وبين الوزير بالنمائم وتولى الوزير عبد الله كبر ذلك حتى تمكنت الوحشة — ذكر انفصالي عنهم وسبب ذلك —

واتفق في بعض الايام ان عبدا من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته الى الوزير واعلمته انه عند سرية من سراري السلطان يزني بها فبعث الوزير الشهود دخلوا دار السرية فوجدوا الغلام نائما معها في فراش واحد وحبسوهما فلما أصبحت وعلمت بالخبر توجهت الى المشور وجلست في موضع جلوسي ولم اتكلم في شيء من امرها فخرج الى بعض الخواص فقال يقول لك الوزير ألك حاجة فقلت لا وكان قصده ان أتكلم في شان السرية والغلام اذا كانت عادتي ان لا تقطع قضية الا احكمت فيها فلما وقع التغير والوحشة قصرت في ذلك فانصرفت الى داري بعد ذلك وجلست بموضع الاحكام فاذا ببعض الوزراء فقال لي الوزير يقول لك انه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام فاحكم فيهما بالشرع فقلت له هذه قضية لا ينبغي ان يكون الحكم فيها الا بدار السلطان فعدت اليها واجتمع الناس واحضرت السرية والغلام فامرت بضربهما للخلوة واطلقت سراح المرأة وحبست الغلام وانصرفت الى داري فبعث الوزير الى جماعة من كبراء ناسه في شان تسريح الغلام فقلت لهم اتشفعون في غلام زنجي يهتك حرمة مولاه وانتم بالامس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له وامرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران وهي أشد وقعا من السياط وشهرته بالجزيرة وفي عنقه حبل فذهبوا الى الوزير فاعلموه فقام وقعد واستشاط غضبا وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث عني فجئته وكانت عادتي ان اخدم له فلم أخدم وقلت سلام عليكم ثم قلت للحاضرين اشهدوا علي اني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزي عنه فكلمني الوزير فصعدت وجلست بموضع اقابله فيه وجاوبته أغلظ جواب واذن مؤذن المغرب فدخل الى داره وهو يقول ويقولون اني سلطان وها انا ذا طليته لاغضب عليه فغضب علي وانما كان اعتزازي عليهم بسبب سلطان الهند لانهم تحفة وامكانتي عنده وان كانوا على بعد منه فخوفه في قلوبهم متمكن فلما دخل الى داره بعث الى القاضي المعزول وكان جريء اللسان فقال لي ان مولانا يقول لك كيف هتكت حرمته على رؤس الاشهاد ولم تخدم له فقلت له انما كنت اخدم له حين كان قلبي طيبا عليه فلما وقع التغير تركت ذلك وتحية المسلمين انما هي السلام وقد سلمت فبعثه الي ثانية فقال انما غرضك السفر عنا فاعط صدقات النساء وديون الناس وانصرف اذا

شئت فخدمت له على هذا القول وذهبت الى وارى فخلصت مما على من الدين وكان قد اعطاني في تلك الايام فرش دار وجهاز عامن أواني نحاس وسواها وكان يعطيني كل ما أطلبه ويحبني ويكرمني ولكنه غير خاطره وخوف مني فلما عرف اني قد خلصت الدين وعزمت على السفر ندم على ماقاله وتلكأ في الاذن لي في السفر فحلفت بالايمان المغلظة ان لا بد من سفري ونقلت ماعندي الى مسجد على البحر وطلقت احدي الزوجات وكانت احداهن حاملا فجعلت لها اجلا تسعة اشهر ان عدت فيها والا فامرها بيدها وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لاسلمها لابيها بجزيرة ملوك وزوجتي الاولى التي بنتها أخت السلطانة وتواقفت مع الوزيرة عمر دهرد والوزير حسن قائد البحر على ان أمضي الى بلاد المعبر وكان ملكها سلفي فابي منها بالعساكر لترجع الجزائر الى حكمه وانوب انا عنه فيها وجعلت بيني وبينهم علامة رفع أعلام بيض في المراكب فاذا رأوها ثاروا في البر ولما كن حدثت نفسي بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغير وكان الوزير خائفا مني يقول للناس لا بد لهذا ان ياخذ الوزارة اما في حياتي او بعد موتي ويكسر السؤال عن حالي ويقول سمعت ان ملك الهند بعث اليه الاموال ليثور بها على وكان يخاف من سفري لئلا آتي بالجيوش من بلاد المعبر فبعث الى ان أقيم حتى يجهز لي مركبا فابيت وشكت اخت السلطانة اليها بسفرها معي فارادت منعها فلم تقدر على ذلك فلما رأت عزمها على السفر قالت لها ان جميع ماعندك من الحلى هو من مال البندرفان كان لك شهود بان جلال الدين وهبه لك والا فرده وكان حليا له خطر فردته اليهم واتاني الوزراء والوجوه وأنا بالمسجد وطلبوا مني الرجوع فقلت لهم لولا أني حلفت لعدت فقالوا تذهب الى بعض الجزائر ليبرقسمك وتعود فقلت لهم نعم أرضاه لهم فلما كانت الليلة التي سافرت فيها اتيت لوداع الوزير فعانقني وبكى حتى قطرت دموعه على قدمي وبات تلك الليلة يحترس الجزيرة بنفسه خوفا ان يثور عليه اصهاري وأصحابي ثم سافرت ووصلت الى جزيرة الوزير على فاصابت زوجتي اوجاع عظيمة واحبت الرجوع فطلقتها وتركتها هنالك وكتبت للوزير بذلك لانها أم زوجة ولد ووطلقت التي كنت ضربت لها الاجل وبعثت عن جارية كنت احبها وسرت في تلك الجزائر من اقليم الى اقليم

— ذكر النساء ذوات الثدي الواحد —

وفي بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها ولها ابنتان احداهما كمثلها ذات ثدي واحد والاخرى ذات ثديين الا ان أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه عجبت من شانهن ووصلنا الى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس بها الا دار واحدة فيها

Digitized by Birzeit University Library

رجل حائك له زوجة واولاد ونخيلات نار جيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويسير به
الى حيث اراد من الجزائر وفي جزيرته ايضا شجيرات موز ولم نر فيها من طيور البر غير
غرابين خرجا الينا لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطت والله ذلك الرجل وودت ان
لو كانت تلك الجزيرة لي فانقطعت فيها الى ان ياتيني اليقين ثم وصلت الى جزيرة ملوك حيث
المركب الذي للناخوذة ابراهيم وهو الذي عزمت على السفر فيه الي المعبر فجاء الي ومعه أصحابه
وأضافوني ضيافة حسنة وكان الوزير قد كتب لي أن أعطى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا
من الكودة وهي الودع وعشرين قدحا من الاطوان وهو عسل النارجيل وعددا معلوما من
التنبول والفوفل والسمك في كل يوم وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما وتزوجت بها امرأتين
وهي من أحسن الجزائر خضرة نضرة رأيت من عجائبها ان الغصن يقتطع من شجرها ويركز
في الارض أو الحائط فيورق ويصير شجرة ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر بطول السنة
وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة ابراهيم ان ينبههم عند سفره فارادوا امساك مافي
مركبه من السلاح حتى يوم سفره فوقعت المشاجرة بسبب ذلك وعدنا الى المهل ولم ندخلها
وكتبت الى الوزير معلما بذلك فكتب ان لا سبيل لاخذ السلاح وعدنا الى ملوك وسافرنا
منها في نصف ربيع الثاني عام خمسة وأربعين وفي شعبان من هذه السنة توفي الوزير جمال
الدين رحمه الله وكانت السلطانة حاملا منه فولدت اثر وفاته وتزوجها الوزير عبد الله وسافرنا
ولم يكن معنا رئيس عارف ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام فسرنا نحو تسعة أيام وفي
التاسع منها خرجنا الى جزيرة سيلان ورأينا جبل سرنديب فيها ذا هبا في السماء كانه عمود
دخان ولما وصلناها قال البحرية ان هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار
الى بلاده آمنين انما هذا مرسى في بلاد السلطان ابري شكروتي وهو لعتاة المفسدين وله
مراكب تقطع في البحر فخفنا ان ننزل بمرساه ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق فقلت للناخوذة
انزلني الى الساحل وأنا آخذ لك الامان من هذا السلطان ففعل ذلك وانزلني بالساحل
فاتانا الكفار فقالوا ما أنتم فاخبرتهم اني سلف سلطان المعبر وصاحبه جئت لزيارته وان الذي
في المركب هدية له فذهبوا الى سلطانهم فاعلموه بذلك فاستدعاني فذهبت له الى مدينة بطالة
(وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وتشديدها) وهي حضرته مدينة صغيرة
حسنة عليها سور خشب وابراج خشب وجميع سواحلها مملوءة باعواد القرفة تاتي بها السيول
فتجمع بالساحل كانها الروابي ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن الا انهم يهدون للسلطان
في مقابلة ذلك الثوب ونحوه وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة وبها أيضا من

Digitized by Birzeit University Library

خشب البقم كثير ومن العود الهندي المعروف بالكلخي الا انه ليس كالقماري والقاقلي
وسنذكره

— ذكر سلطان سيلان —

واسمه ايري شكروتي (بفتح الهمزة وسكون الياء وكسر الراء ثم ياء وشين معجم مفتوح وكاف مثله وراء مسكنة وواو مفتوح وتاء معلوة مكسورة وياء) وهو سلطان قوي في البحر رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت الى هنالك وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر الى اليمن فامر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحمايتها فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا انما جئنا في حماية مراكب لنا تسير أيضا الى اليمن ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام الى وأجلسني الى جانبه وكلمني باحسن كلام وقال ينزل أصحابك على الامان ويكونون في ضيافتي الى أن يسافروا فان سلطان المعبر بيني وبينه الصحبة ثم أمر بانزالي فاقمت عنده ثلاثة أيام في إكرام عظيم متزايد في كل يوم وكان يفهم اللسان الفارسي ويعجبه ما احدثه به عن الملوك والبلاد ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة أتي بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره فقال لي هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها فقلت له نعم رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كيش التي لابن السوامي فقال سمعت بهائم أخذ حبات منه فقال أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه فقلت له رأيت ما هو دونها فاعجبه ذلك وقال هي لك وقال لي لا تستحي واطلب مني ما شئت فقلت له ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة الا زيارة القدم الكريمة قدم آدم عليه السلام وهم يسمونه (بابا) ويسمون حواء (ماما) فقال هذا هين نبعث معك من يوصلك فقلت ذلك أريد ثم قلت له وهذا المركب الذي جئت فيه يسافر آمنا الى المعبر واذا عدت انا بعثتني في مراكبك فقال نعم فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب قال لي لا اسافر حتى تعود ولو اقمت سنة بسببك فاخبرت السلطان بذلك فقال يقيم في ضيافتي حتى تعود فاعطاني دولة يحملها عبيده على اعناقهم وبعث معي اربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام الى زيارة القدم وثلاثة من البراهمة وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير ونزلنا ذلك اليوم على وادي جزناه في معدية مصنوعة من قصب الخيزران ثم رحلنا من هنالك الى منار مندلي (وضبط ذلك بفتح الميم والنون والف وراء مسكنة وميم مفتوح ونون مسكن ودال مهمل مفتوح ولام مكسور وياء) مدينة حسنة هي آخر عمالة السلطان أضافنا اهلها ضيافة حسنة وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك ويأتون بها احياء ويأتون بالارز والسمن والحوت والدجاج واللبن ولم

المدينة مسلما غير رجل مخراساتي انقطع بسبب مرضه فسافر معنا ورحلنا الى بندر سلاوات (وضبطه بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الدال المهمل وسكون الراء وفتح السين المهمل واللام والواو والف وتاء معلوة) بلدة صغيرة وسافرنا منها في أوعار كثيرة المياه وبها الفيلة الكثيرة الا انها لا تؤذي الزوار والغرباء وذلك ببركة الشيخ ابي عبد الله بن خفيف رحمه الله وهو أول من فتح هذا الطريق الى زيارة القدم وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم فلما اتفق للشيخ أبي عبد الله ما ذكرناه في السفر الاول من قتل الفيلة لاصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره صار الكفار من ذلك العهد يعظمون المسلمين ويدخلونهم دورهم ويطعمون معهم ويطمئنون لهم باهلهم واولادهم وهم الى الآن يعظمون الشيخ المذكور أشد تعظيم ويسمونه الشيخ الكبير ثم وصلنا بعد ذلك الى مدينة كنكار (وضبط اسمها بضم الكاف الاولى وفتح النون والكاف الثانية وآخره راء) وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وبناؤها في خندق بين جبلين على خور كبير يسمى خور الياقوت لان الياقوت يوجد به وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشاوش (بشينين معجمين بينهما واو مضموم) وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه وهو كان الدليل الى القدم فلما قطعت يده ورجله صار الاولاده وغلمانه وسبب قطعه أنه ذبح بقرة وحكم كفار الهنود انه من ذبح بقرة ذبح كمثلها أو جعل في جلدها وحرق وكان الشيخ عثمان معظما فقطعوا يده ورجله واعطوه مجبي بعض الاسواق

— ذكر سلطانها —

وهو يعرف بالكنار (بضم الكاف وفتح النون وألف وراء) وعنده الفيل الابيض لم أر في الدنيا فيلا أبيض سواه يركبه في الاعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة واتفق له ان قام عليه أهل دولته وسملوا عينيه وولوا ولده وهو هنالك أعمى

— ذكر الياقوت —

والياقوت العجيب البهر مان انما يكون بهذه البلدة فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم ومنه ما يحفر عنه وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها وهي متملكة فيشتري الانسان القطعة منها ويحفر عن الياقوت فيجد احجارا بيضاء مشعبة وهي التي يتكون الياقوت في أجوافها فيعطيها الحكاكين فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت فمنه الاحمر ومنه الاصفر ومنه الازرق ويسمونه النيلم (بفتح النون واللام وسكون الياء آخر الحروف وعادتهم ان ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت الى مائة فنم (بفتح الفاء والنون)

Digitized by Birzeit University Library

فهو للسلطان يعطى ثمنه وياخذه وما نقص عن تلك القيمة فهو لاصحابه وصرف مائة فنم ستة دنانير من الذهب وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملون ويجعلنه فى أيديهن وأرجلهن عوضا من الاسورة والخلاخيل وجوارى السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنها على رؤسهن ولقد رأيت على جبهة الفيل الابيض سبعة أحجار منه كل حجر أعظم من بيضة الدجاج ورأيت عند السلطان ايرى شكر وتى سكرجة على مقدار الكف من الياقوت فيها دهن العود فجعلت أعجب منها فقال ان عندنا ماهو أضخم من ذلك ثم سافرنا من كنكار فنزلنا بمغارة تعرف باسم اسطا محمود اللورى (بضم اللام) وكان من الصالحين واحتفر تلك المغارة فى سفح جبل عند خور صغير هنالك ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنه (بالباء الموحدة وواو وزاى ونون وهاء) وبوزنه هي القرود

— ذكر القرود —

والقرود بتلك الجبال كثيرة جدا وهى سود الالوان لها أذناب طوال ولذكورها لحى كلحى الآدميين وأخبرنى الشيخ عثمان وولده وسواهما ان هذه القرود لها مقدم تتبعه كانه سلطان يشد على رأسه عصابة من اوراق الاشجار ويتوكأ على عصى ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصى بايديها وانه اذا جلس القرد المقدم تقف القرود الاربعة على رأسه وتاتى أنثاه واولاده فتقعد بين يديه كل يوم وتاتى القرود فتقعد على بعد منه ثم يكلمها أحد القرود الاربعة فتنصرف القرود كلها ثم ياتي كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك فيأكل القرد المقدم واولاده والقرود الاربعة وأخبرنى بعض الجوكية انه رأي القرود الاربعة بين يدى مقدمها وهى تضرب بعض القرود بالعصى ثم تنفت وبره بعد ضربه وذكر لى الثقات انه اذا ظفر قرد من هذه القرود بصبية لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها وأخبرنى بعض اهل هذه الجزيرة انه كان بداره قرد منها فدخلت بنت له بعض البيوت فدخل عليها فصاحت به فغلبها قال ودخلنا عليها وهو بين رجليها فقتلناه ثم كان رحيلنا الى خور الجزيران ومن هذا الخور اخرج أبو عبد الله بن خفيف اليا قوتتين اللتين اعطاها لسلطان هذه الجزيرة حسبما ذكرناه فى السفر الاول ثم رحلنا الى موضع يعرف ببيت العجوز وهو آخر العمارة ثم رحلنا الى مغارة باباطاهر وكان من الصالحين ثم رحلنا الى مغارة السبيك (بفتح السين المهمل وكسر الباء الموحدة وياء مدوكاف) وكان السبيك من سلاطين الكفار وانقطع العبادة هنالك

— ذكر العلق الطيار —

Digitized by Birzeit University Library

وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسمونه الزلو (بضم الزاى واللام) ويكون بالاشجار والحشائش التى تقرب من الماء فاذا قرب الانسان منه وثب عليه فحيثما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير والناس يستعدون له الليمون يعصرونه عليه فيسقط عنهم ويجردون الموضع الذى يقع عليه بسكين خشب معد لذلك ويذكر ان بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق فأظهر الجلد ولم يعصر عليها الليمون فنزف دمه ومات وكان اسمه باباخوزى (بالخاء المعجم المضموم والزاى) وهنالك مغارة تنسب اليه ثم رحلنا الى السبع مغارات ثم الى عقبة اسكندر ثم مغارة الاصفهانى وعين ماء وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان وهنالك مغارة النارنج ومغارة السلطان وعندها درواز الجبل أى بابه

— ذكر جبل سرنديب —

وهو من اعلى جبال الدنيا رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا وبين رؤية اسفله وفيه كثير من الاشجار التى لا يسقط لها ورق والازاهير الملونة والورد الاحمر على قدر الكف ويزعمون ان فى ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام وفى الجبل طريقان الى القدم أحدهما يعرف بطريق (بابا) والآخر بطريق (ماما) يعنون آدم وحواء عليهما السلام فاما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار اذا رجعوا ومن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى وفى أسفل الجبل حيث دروازته مغارة تنسب أيضا للاسكندر وعين ماء ونحت الاولون فى الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها أوتاد الحديد وعلقوا منها السلاسل ليتمسك بها من يصعده وهى عشر سلاسل ثنتان فى أسفل الجبل حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها والعاشرة هى سلسلة الشهادة لان الانسان اذا وصل اليها ونظر الى أسفل الجبل ادركه الوهم فيتشهد خوف السقوط ثم اذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا ومن السلسلة العاشرة الى مغارة الخضر سبعة أميال وهى فى موضع فسيح عندها عين ماء تنسب اليه أيضا ملآى بالحوت ولا يصطاده احد وبالقرب منها حوضان منحوتان فى الحجارة عن جنبتى الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم ويصعدون منها ميلين الى أعلى الجبل حيث القدم

— ذكر القدم —

وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم فى صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح وقد غاصت القدم الكريمة فى الصخرة حتى عاد موضعها منخفضا وطولها احد عشر

شبرا وأتى اليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الابهام وما يليه وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من اقصى البلاد وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزاوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر فترى الفقراء اذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لاخذ ما بالحفر ولم نجد نحن بها الا يسير حجيرات وذهب أعطيناها الدليل والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها الى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا ولما تمت الايام الثلاثة عدنا على طريق ماما فنزلنا بمغارة شيم وهو شيث ابن آدم عليهما السلام ثم الى خور السمك ثم الى قرية كرمله (بضم الكاف وسكون الراء وضم الميم) ثم الى قرية جبركاوان (بفتح الجيم والباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف والواو وآخره نون) ثم الى قرية دل دينوة (بدالين مهملتين مكسورين بينهما لام مسكن وياء مد ونون مفتوح وواو مفتوح وتاء تأنيث) ثم الى قرية آت فلنجة (بهمزة مفتوحة وتاء مثناة مسكنة وقاف ولام مفتوحين ونون مسكن وجيم مفتوح وهنالك (كان) يشتي الشيخ أبو عبد الله بن خفيف وكل هذه القري والمنازل هي بالجبل وعند أصل الجبل في هذا الطريق درخت روان ودرخت هي (بفتح الدال المهمل والراء وسكون الخاء المعجم وتاء معلوة) وروان (بفتح الراء والواو والف ونون) وهي شجرة عادية لا يسقط لها ورق ولم أر من رآي ورقها ويعرفونها أيضاً بالماشية لان الناظر اليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل والناظر اليها من أسفل الجبل يراه بعكس ذلك ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهي بحيث لا يمكن التوصل اليها البتة ولهما كاذيب في شأنها من جملتها ان من اكل من أوراقها عادله الشباب ان كان شيخا وذلك باطل وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذي يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر في رأى العين شديد الزرقة ورحلنا من هنالك يومين الى مدينة دينور (وضبط اسمها بدال مهمل مكسور وياء مد ونون وواو مفتوحين وراء) مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور في كنيسة عظيمة فيها نحو الالف من البراهمة والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن والمدينة ومجالبها وقف على الصنم وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون من ذلك والصنم من ذهب على قدر الآدمي وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت انهما تضيئان بالليل كالقنديلين ثم رحلنا الى مدينة قالي (بالقاف وكسر اللام) وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخودة ابراهيم أضافنا بموضعه

ورحلنا الى مدينة كلنبو (وضبط اسمها بفتح الكاف واللام وسكون النون وضم الباء الموحدة وواو) وهي من أحسن بلاد سرنديب واكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر جالستي ومعه نحو خمسمائة من الحبشة ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام الى بطالة وقد تقدم ذكرها ودخلنا الى سلطانها الذى تقدم ذكره ووجدت الناخودة ابراهيم في انتظاري فسافرنا بقصد بلاد المعبر وقويت الريح وكاد الماء يدخل في المركب ولم يكن لنا رئيس عارف ثم وصلنا الى حجارة كاد المركب ينكسر فيها ثم دخلنا بحرا قصيرا فتجلس المركب ورأينا الموت عيانا ورمي الناس بما معهم وتوادعوا وقطعنا صارى المركب فرمينا به وصنع البحرية معدية من الخشب وكان بيننا وبين البر فرسخان فاردت أن انزل في المعدية وكان لي جاريتان وصاحبان من أصحابي فقال انتزل وتتركنا فآثرتهما على نفسي وقلت أنزلا انا والجارية التي احبها فقالت الجارية انى أحسن السباحة فانعلق بحبل من حبال المعدية وأعوم معهم فنزل رفيقاى واحدهما محمد بن فرحان التوزري والآخر رجل مصري والجارية معهم والاخرى تسبح وربط البحرية في المعدية حبالا وسبحوا بها وجعلت معهم ماعز على من المتاع والجواهر والعنبر فوصلوا الى البر سالمين لان الريح كانت تساعدهم وأقمت بالمركب ونزل صاحبه الى البر على الدقة وشرع البحرية في عمل اربع من المعادي فجاء الليل قبل تمامها ودخل معنا الماء فصعدت الى المؤخر وأقمت به حتى الصباح وحينئذ جاء الينا نفر من الكفار في قارب لهم ونزلنا معهم الى الساحل ببلاد المعبر فاعلمناهم انا من اصحاب سلطانهم وهم تحت ذمته فكتبوا اليه بذلك وهو على مسيرة يومين في الغزو وكتبت أنا اليه أعلمه بما اتفق علي وادخلنا اولئك الكفار الى غيضة عظيمة فاتونا بفاكهة تشبه البطيخ يثمرها شجرة المقل وفي داخلها شبه قطن فيه عسلية يستخرجونها ويصنعون منها حلواء يسمونها التل وهي تشبه السكر واتوا بسمك طيب واقمنا ثلاثة أيام ثم وصل من جهة السلطان امير يعرف بقمر الدين معه جماعة فرسان ورجال وجاؤا بالدولة وبعشرة أفراس فركبت وركب أصحابي وصاحب المركب واحدى الجاريتين وحملت الاخرى في الدولة ووصلنا الى حصن هركاتو (وضبط اسمه بفتح الهاء وسكون الراء وفتح الكاف وألف وتاء معلوة مضمومة وواو) وبتنا به وتركت فيه الجوارى وبعض الغلمان والاصحاب ووصلنا في اليوم الثاني الى محلة السلطان — ذكر سلطان بلاد المعبر —

هو غياث الدين الدامغاني وكان في أول أمره فارسا من فرسان الملك مجير بن أبي الرجا أحد خدام السلطان محمد ثم خدم الامير حاجي بن السيد السلطان جلال الدين ثم ولي

الملك وكان يدعى سراج الدين قبله فلما ولى تسمى غياث الدين وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلى ثم ثار بها صهرى الشريف جلال الدين احسن شاه وملك بها خمسة أعوام ثم قتل وولى أحد أمرائه وهو علاء الدين أدجى (بضم الهمزة وفتح الدال المهمل وسكون الياء آخر الحروف وكسر الجيم) فملك سنة ثم خرج الى غزو الكفار فاخذ لهم اموالا كثيرة وغنائم واسعة وعاد الى بلاده وغزاهم فى السنة الثانية فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة واتفق يوم قتله لهم ان رفع المغفر عن رأسه ليشرب فاصابه سهم غرب فمات من حينه فولوا صهره قطب الدين ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما وولى بعده السلطان غياث الدين وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التى كنت متزوجا اختها بدهلى — ذكر وصولى الى السلطان غياث الدين —

ولما وصلنا الى قرب من منزله بعث بعض الحجاب لتلقينا وكان قاعدا فى برج خشب وعادتهم بالهند كلها أن لا يدخل أحد على السلطان دون خف ولم يكن عندي خف فاعطانى بعض الكفار خفا وكان هنالك من المسلمين جماعة فعجبت من كون الكافر كان أتم مروءة منهم ودخلت على السلطان فامر لى بالجلوس ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين وأنزلنى فى جواره فى ثلاثة من أخبيته وهم يسمونها الخيام وبعث بالفرش وبطعامهم وهو الارز واللحم وعادتهم هنالك ان يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا ثم اجتمعت به بعد ذلك والقيت له أمر جزائر ذيبة المهل وان يبعث الجيش اليها فاخذ فى ذلك بالعزم وعين المراكب لذلك وعين الهدية لسلطانتها والخلع للوزراء والامراء والعطايا لهم وفوض الى فى عقد نكاحه مع أخت السلطانة وأمر بوسق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر وقال لى يكون رجوعك بعد خمسة أيام فقال له قائد البحر خواجة سرلك لا يمكن السفر الى الجزائر الا بعد ثلاثة أشهر من الآن فقال لى السلطان اما اذا كان الامر هكذا فامض الى فتن حتى تقضي هذه الحركة وتعود الى حضرتنا مترة ومنها تكون الحركة فاقمت معه بخلال ما بعثت عن الجوارى والاصحاب — ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله فى قتل النساء والولدان —

وكانت الارض التى نسلكها غيضة واحدة من الاشجار والقصب بحيث لا يسلكها أحد فامر السلطان أن يكون مع كل واحد ممن فى الجيش من كبير وصغير قادوم لقطع ذلك فاذا نزلت الحملة ركب الى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الاشجار من غدوة النهار الى الزوال ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس طائفة بعد أخرى ثم يعودون الى قطع الاشجار الى العشى وكل من وجدوه من الكفار فى الغيضة أسروه وصنعوا خشبة محددة الطرفين فجعلوها على كتفيه

يحملها ومعه امرأته وأولاده ويؤتى بهم الى المحلة وعادتهم ان يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكتكر (بفتح الكافين وسكون التاء المعلوة وآخره راء) ويصنعون على دار السلطان كتكرا ثانيا ويصنعون خارج الكتكر الاكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة ويوقدون عليها النار بالليل ويبيت عندها العبيد والمشاؤن ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب فاذا أتى أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلا أوقد كل واحد منهم الحزمة التي بيده فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء وخرجت الفرسان في اتباع الكفار فاذا كان عند الصباح قسم الكفار الماسورون بالامس أربعة اقسام وأتى الى كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم فركزت بالخشب التي كانوا يحملونها بالامس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم ثم تذبح نساؤهم ويربطن بشعورهن الى تلك الخشبات ويذبح الاولاد الصغار في حجورهن ويتركون هنالك وتنزل المحلة ويشتغلون بقطع غيضة أخرى ويصنعون بمن أسروه كذلك وذلك أمر شنيع ما علمته لاحد من الملوك وبسببه عجل الله حينه ولقد رأيته يوما والقاضي عن يمينه وأنا عن شماله وهو يأكل معنا وقد أتى بكافر معه امرأته وولد له سبع فاشار الى السيافين بيده ان يقطعوا رأسه ثم قال لهم وزن أو بسرا ومعناه وابنه وزوجته فقطعت رقابهم وصرفت بصري عنهم فلما قمت وجدت رؤسهم مطروحة بالارض وحضرت عنده يوما وقد أتى برجل من الكفار فتكلم بما لم أفهمه فاذا بجماعة من الزبانية قد استلوه سكاكينهم فبادرت القيام فقال لي الى أين فقلت أصلي العصر ففهم عني وضحك وأمر بقطع يديه ورجليه فلما عدت وجدته متشحطا في دمائه

— ذكر هزيمته للكفار وهي من اعظم فتوحات الاسلام —

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلادبو (بفتح الباء الموحدة ولام والف ولام ثانية ودال مهمل مكسور وياء آخر الحروف مفتوحة وواو مسكن) وهو من كبار سلاطين الكفار يزيد عسكره على مائة الف ومعه نحو عشرين القا من المسلمين اهل الذعارة وذوي الجنايات والعبيد الفارين فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر وكان عسكر المسلمين بهاستة آلاف منهم النصف من الجياد والنصف الثاني لا خير فيهم ولا غناء عندهم فلقوه بظاهر مدينة كبان فهزمهم ورجعوا الى حضرة مترة ونزل الكافر على كبان وهي من أكبر مدنهم وأحصنها وحاصرها عشرة أشهر ولم يبق لهم من الطعام الا قوت أربعة عشر يوما فبعث لهم الكافر ان يخرجوا على الامان ويتركوا له البلد فقالوا له لا بد من مطالعة سلطاننا بذلك فوعدهم الى تمام أربعة عشر يوما فكتب الى السلطان غياث الدين بامرهم فقرأ كتابهم

على الناس يوم الجمعة فبكوا وقالوا نبيع أنفسنا من الله فان الكافران أخذت تلك المدينة انتقل الى حصارنا فالموت تحت السيوف أولى بنا فتعاهدوا على الموت وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤسهم وجعلوها فى اعناق الخيل وهى علامة من يريد الموت وجعلوا ذوى النجدة والابطال منهم في المقدمة وكانوا ثلاثمائة وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور وكان فقيها ورعا شجاعا وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار وركب السلطان فى القلب ومعه ثلاثة آلاف وجعل الثلاثة الآلاف الباقين ساقة لهم وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي وقصدوا محلة الكافر عند القايلة واهلها على غرة وخيلهم فى المرعى فاغاروا عليها وظن الكفار انهم سراق فخرجوا اليهم على غير تعبية وقاتلوهم فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شر هزيمة واراد سلطانها ان يركب وكان ابن ثمانين سنة فادركه ناصر الدين بن اخى السلطان الذى ولى الملك بعده فاراد قتله ولم يعرفه فقال له أحد غلمانه هو السلطان فاسره وحمله الى عمه فاكرمه فى الظاهر حتى جبى منه الاموال والفيلة والخيل وكان بعده السراح فلما استصفى ماعنده ذبحه وسلخه وملأ جلده بالتبن فعلق على سور مترة ورأيته بها معلقا ولنعد الى كلامنا فنقول ورحلت عن المحلة فوصلت الى مدينة فتن (بفتح الفاء والتاء المثناة المشددة ونون وهى كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة خشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام يصعد اليها على طريق خشب مسقف فاذا جاء العدو ضموا اليها الاجفان التي تكون بالمرسى وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة وبها العنب الكثير والرمان الطيب ولقيت الشيخ الصالح محمد النيسابوري أحد الفقراء الموله‍ين الذين يسدلون شعورهم على اكتافهم ومعه سبع رباه يأكل مع الفقراء ويقعد معهم وكان معه نحو ثلاثين فقيرا لاحدهم غزالة تكون مع الاسد فى موضع واحد فلا يعرض لها وأقمت بمدينة فتن وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحد الحوكية حبوبا للقوة على الجماع وذكروا ان من جملة اخلاطها برادة الحديد فاكل منها فوق الحاجة فمرض ووصل الى فتن فخرجت الى لقائه وأهديت له هدية فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجة سرور فقال له لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر الى الجزائر وأرادان يعطيني قيمة الهدية فابيت ثم ندمت لانه مات قلم آخذ شيئا واقام بفتن نصف شهر ثم رحل الى حضرته واقمت انا بعده نصف شهر ثم رحلت الى حضرته وهى مدينة مترة (بضم الميم وسكون التاء المعلوة وفتح الراء) مدينة كبيرة متسعة الشوارع واول من اتخذها حضرة صهرى السلطان الشريف جلال الدين

Digitized by Birzeit University Library

أحسن شاه وجعلها شبيهة بدهلى وأحسن بناءها ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا فمن مرض مات من ثانى يوم مرضه واوائله وان ابطا موته فالى الرابع فكنت اذا خرجت لا أري الا مريضا او ميتا واشتريت بها جارية على انها صحيحة فماتت فى يوم آخر ولقد جاءت الى فى بعض الايام امراة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه ومعها ابن لها سنه ثمانية أعوام نبيل كيس فطن فشكت ضعف حالها فاعطيتها نفقة وهما صحيحان سويان فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنا واذا به قد توفى من حينه وكنت أرى بمشور السلطان حين مات المئين من الخدم اللاني أتي بهن لدق الارز المعمول منه الطعام لغير السلطان وهن مريضات قد طرحن انفسهن فى الشمس ولما دخل السلطان مترة وجد أمه وامرأته وولده مرضي فاقام بالمدينة ثلاثة أيام ثم خرج الى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة للكفار وخرجت اليه فى يوم خميس فامر بانزالى الى جانب القاضى فلما ضربت لى الاخبية رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم فى بعض فمن قائل ان السلطان مات ومن قائل ان ولده هو الميت ثم تحقق ذلك فكان الولد هو الميت ولم يكن له سواه فكان موته مما زاد فى مرضه وفى الخميس بعده توفيت أم السلطان

— ذكر وفاة السلطان وولاية بن اخيه وانصرافي عنه —

وفى الخميس الثالث توفى السلطان غياث الدين وشعرت بذلك فبادرت الدخول الى المدينة خوف الفتنة ولقيت ناصر الدين ابن أخيه الوالى بعده خارجا الى المحلة قد وجه عنه اذ ليس للسلطان ولد فطلبني فى الرجوع معه فابيت وأثر ذلك فى قلبه وكان ناصر الدين هذا خدينا بدهلى قبل ان يملك عمه فلما ملك عمه هرب فى زى الفقراء اليه فكان من القدر ملكه بعده ولما بويع مدحته الشعراء فاجزل لهم العطاء واول من قام منشدا القاضى صدر الزمان فاعطاه خمسمائة دينار وخلعة ثم الوزير المسمي بالقاضى فاعطاه الفى دينار دراهم واعطاني انا ثلاثمائة دينار وخلعة وبث الصدقات فى الفقراء والمساكين ولما خطب الخطيب اول خطبة خطبها باسمه نثرت عليه الدنانير والدراهم فى أطباق الذهب والفضة وعمل عزاء السلطان غياث الدين فكانوا يجتمعون القرآن على قبره كل يوم ثم يقرأ العشارون ثم يؤتى بالطعام فيا كل الناس ثم يعطون الدراهم كل انسان على قدره واقاموا على ذلك اربعين يوما ثم يفعلون ذلك فى مثل يوم وفاته من كل سنة واول ما بدأ به السلطان ناصر الدين ان عزل وزير عمه وطلبه بالاموال وولى الوزارة الملك بدر الدين الذي بعثه عمه الى وانا بفتن ليتلقاني فتوفى سريعا فولى الوزارة خواجه سرور قائد البحر وامران يخاطب بخواجه

جهان كما يخاطب الوزير بدهلى ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة ثم ان السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين وتزوجها بعده وبلغه ان الملك مسعود ازاره فى محبسه قبل موته فقتله أيضا وقتل الملك بهادور وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء وامر لى بجميع ما كان عينه عمه من المراكب برسم الجزائر ثم أصابتنى الحمى القاتلة هنالك فظننت انها القاضية والهمنى الله الى التمر الهندى وهو هنالك كثير فاخذت نحو رطل منه وجعلته فى الماء ثم شربته فاسهلنى ثلاثة ايام وعافانى الله من مرضى فكرهت تلك المدينة وطلبت الاذن فى السفر فقال لى السلطان كيف تسافر ولم يبق لايام السفر الى الجزائر غير شهر واحد أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوندعالم فابيت وكتب لى الى فتن لاسافر فى أى مركب أردت وعدت الى فتن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر الى اليمن فسافرت فى أحدها ولقينا اربعة اجفان فقاتلتنا يسيرا ثم انصرفت ووصلنا الى كولم وكان فى بقية مرض فاقمت بها ثلاثة اشهر ثم ركبت فى مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنورى فخرج علينا الكفار بين هنور وفاكنور

— ذكر سلب الكفار لنا —

ولما وصلنا الى الجزيرة الصغرى بين هنور وفاكنور خرج علينا الكفار فى اثنى عشر مركبا حربية وقاتلونا قتالا شديدا وتغلبوا علينا فاخذوا جميع ما عندى مما كنت اذخره للشدائد واخذوا الجواهر والياقيت التى أعطانيها ملك سيلان واخذوا ثيابى والزرادات التى كانت عندى مما اعطانيه الصالحون والاولياء ولم يتركوا لى ساترا خلا السراويل وأخذوا ما كان لجميع الناس وانزلونا بالساحل فرجعت الى قالقوط فدخلت بعض المساجد فبعث الى أحد الفقهاء بثوب وبعث القاضى بعمامة وبعث بعض التجار بثوب آخر وتعرفت هنالك بزوج الوزير عبد الله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين وبان زوجتى التى تركتها حاملا ولدت ولدا ذكرا فخطر لى السفر الى الجزائر وتذكرت العداوة التى بينى وبين الوزير عبد الله ففتحت المصحف فخرج لى تنزل عليهم الملائكة ان لا تخافوا ولا تحزنوا فاستبشرت الله وسافرت فوصلت بعد عشرة أيام الى جزائر ذيبة المهل ونزلت منها بكنلوس فاكرمنى واليها عبد العزيز المقدشاوى وأضافنى وجهز لى كندرة ووصلت بعد ذلك الى هللى وهى الجزيرة التى تخرج السلطانة واخوتها اليها برسم التفرج والسياحة ويسمون ذلك التتجر ويلعبون فى المراكب ويبعث لها الوزراء والامراء بالهدايا والتحف متى كانت بها ووجدت بها أخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد بن الوزير جمال الدين وامها التى كانت زوجتى فجاء الخطيب

الى وأتوا بالطعام ومر بعض أهل الجزيرة الى الوزير عبد الله فاعلموه بقدومي فسأل عن حالي وعمن قدم معي وأخبر أني جئت برسم حمل ولدي وكان سنه نحو عامين واتته امه تشكو من ذلك فقال لها أنا لا أمنعه من حمل ولده وصادرني في دخول الجزيرة وأنزلني بدار تقابل برج قصره ليتطلع على حالي وبعث الي بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عادتهم وجئت بثوبي حرير للرمي عند السلام فاخذوهما ولم يخرج الوزير الى ذلك اليوم وأتى الي بولدي فظهر لي ان اقامته معهم خير له فرددته اليهم وأقمت خمسة أيام وظهر لي ان تعجيل السفر أولى فطلبت الاذن في ذلك فاستدعاني الوزير ودخلت عليه واتوني بالثوبين اللذين أخذوهما مني فرميتهما عند السلام على العادة واجلسني الى جانبه وسألني عن حالي وأكلت معه الطعام وغسلت يدي معه في الطست وذلك شيء لا يفعله مع أحد وأتوا بالتنبول وانصرفت وبعث الي بثواب وبساتي من الودع وأحسن أفعاله وأجمل وسافرت فمنا على ظهر البحر ثلاثا واربعين ليلة ثم وصلنا الى بلاد بنجالة (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون النون وجيم معقود وألف ولام مفتوح) وهي بلاد متسعة كثيرة الارز ولم أر في الدنيا أرخص أسعارا منها لكنها مظلمة وأهل خراسان يسمونها دوزخست (دوزخ) بور (بر) نعمة معناه جهنم ملآى بالنعم رأيت الارز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضي والدينار الفضي هو ثمانية دراهم ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء والرطل الدهلي عشرون رطلا مغربية وسمعتهم يقولون ان ذلك غلاء عندهم وحدثني محمد المصمودي المغربي وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديما ومات عندي بدهلي انه كانت له زوجة وخادم فكان يشتري قوت ثلاثتهم في السنة بثمانية دراهم وانه كان يشتري الارز في قشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم فاذا دقه خرج منه خمسون رطلا صافية وهي عشرة قناطير ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة وبقرهم الجواميس ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين ورطل السكر باربعة دراهم وهو رطل دهلي ورطل الجلاب بثمانية دراهم ورطل السمن باربعة دراهم ورطل السيرج بدرهمين ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذي ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد وهو دينار ان ونصف دينار من الذهب المغربي واشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة وكان لها جمال رباع واشتري بعض أصحابي غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سدكاوان

(وضبط اسمها بضم السين وسكون الدال المهملين وفتح الكاف والواو وآخره نون) وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الاعظم ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحج اليه الهنود ونهر الجون ويصبان في البحر وهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتي

— ذكر سلطان بنجالة —

وهو السلطان فخر الدين الملقب بفخره (بالفاء والخاء المعجم والراء) سلطان فاضل محب في الغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن وهو الذي ولى ولده معز الدين الملك بدهلي فتوجه لقتاله والتقيا بالنهر وسمي لقاؤهما لقاء السعدين وقد ذكرنا ذلك وانه ترك الملك لولده وعاد الى بنجالة فاقام بها الى أن توفي وولى ابنه شمس الدين الى أن توفي فولى ابنه شهاب الدين الى أن غلب عليه اخوه غياث الدين بهادور بور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره وأخذ بهادور بور أسيرا ثم اطلقه ابنه محمد لما ملك على ان يقاسمه ملكه فنكث عليه فقاتله حتى قتل وولى على هذه البلاد صهرا له فقتله العسكر واستولى على ملكها علي شاه وهو اذذاك ببلاد اللكنوتي فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم خالف بسدكاوان وبلاد بنجالة واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه وبين علي شاه فاذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتي في البحر لقوته فيه واذا عادت الايام التي لا مطر فيها اغار علي شاه على بنجالة في البر لقوته فيه (حكاية) وانتهي حب الفقراء بالسلطان فخر الدين الى ان جعل أحدهم نائبا عنه في الملك بسدكاوان وكان يسمي شيدا (بفتح السين المعجم والدال المهمل بينهما ياء آخر الحروف) وخرج الى قتال عدوله فخالف عليه شيدا وأراد الاستبداد بالملك وقتل ولد السلطان فخر الدين ولم يكن له ولد غيره فعلم بذلك فكر عائدا الى حضرته ففر شيدا ومن اتبعه الى مدينة ستركاوان وهي منيعة فبعث السلطان بالعساكر الى حصاره فخاف أهلها على انفسهم فقبضوا على شيدا وبعثوه الى عسكر السلطان فكتبوا اليه بامره فامرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء ولما دخلت سدكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته لانه مخالف علي ملك الهند فخفت عاقبة ذلك وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو وهي (بفتح الكاف والميم وضم الراء) وبينها وبين سدكاوان مسيرة شهر وهي جبال متسعة متصلة بالصين وتتصل أيضا ببلاد التبت حيث غزلان المسك وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ولهم قوة على الخدمة والغلام منهم يساوي أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم وهم مشهورون بمعاناة السحر

والاشتغال به وكان قصدي بالمسير الى هذه الجبال لقاء ولي من الاولياء بها وهو الشيخ جلال الدين التبريزي

— ذكر الشيخ جلال الدين —

وهذا الشيخ من كبار الاولياء وافراد الرجال له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة وهو من المعمرين أخبرني رحمه الله انه ادرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد وكان بها حين قتله وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة انه مات وهو ابن مائة وخمسين وانه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر الا بعد هو اصلة عشر وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله وكان نحيف الجسم طوالا خفيف العارضين وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال ولذلك أقام بينهم

— كرامة له —

أخبرني بعض أصحابه انه استدعاهم قبل موته بيوم واحد واوصاهم بتقوى الله وقال لهم اني مسافر عنكم غدا ان شاء الله وخليفتي عليكم الله الذي لا إله الا هو فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا عليه الكفن والحنوط فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به رحمه الله — كرامة له أيضا —

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه فاخبروني ان الشيخ قال للفقراء الذين معه قد جاءكم سائح المغرب فاستقبلوه وانهم أتوا لذلك بامر الشيخ ولم يكن عنده علم بشيء من أمري وانما كوشف به وسرت معهم الى الشيخ فوصلت الى زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمناه ولما دخلت عليه قام الى وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري فاخبرته فقال لي أنت مسافر العرب فقال له من حضر من أصحابه والعجم ياسيدنا فقال والعجم فاكرموه فاحتملوني الى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام

— حكاية عجيبة في ضمنها كرامات له —

ولما كان يوم دخولي الى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعزة عجبتني وقلت في نفسي ليت الشيخ اعطانيها فلما دخلت عليه للوداع قام الى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه وألبس مرقعة فاخبروني الفقراء ان الشيخ لم تكن عادته ان يلبس تلك الفرجية وانما لبسها عند قدومي وانه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربي ويأخذها منه سلطان كافر ويعطيها الاخينا برهان الدين الصاغرجي وهي له وبرسمه كانت فلما أخبرني الفقراء بذلك قلت لهم قد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه وانا لا أدخل بهذه

الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم وانصرفت عن الشيخ فاتفق لى بعد مدة طويلة اني دخلت بلاد الصين وانتهيت الى مدينة الخنسا فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام وكانت الفرجية على فيلنا أنا في بعض الطرق اذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بصره على فاستدعاني واخذ بيدي وساءلني عن مقدمي ولم يفارقني حتى وصلت الى دار السلطان معه فاردت الانفصال فمنعني وادخلني على السلطان فسالني عن سلاطين الاسلام فاجبته ونظر الى الفرجية فاستحسنها فقال لى الوزير جردها فلم يمكنني خلاف ذلك فاخذها وامر لى بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة وتغير خاطري لذلك ثم تذكرت قول الشيخ انه يأخذها سلطان كافر فطال عجبي من ذلك ولما كان في السنة الاخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها فعجبت من ذلك وقلبتها بيدى فقال لى لم تقلبها وانت تعرفها فقلت له نعم هي التي أخذها لى سلطان الخنسا فقال لى هذه الفرجية صنعها اخي جلال الدين برسمي وكتب الى أن الفرجية تصلك على يد فلان ثم أخرج لى الكتاب فقرأته وعجبت من صدق يقين الشيخ واعلمته باول الحكاية فقال لى أخي جلال الدين اكبر من ذلك كله هو يتصرف في الكون وقد انتقل الى رحمة الله ثم قال لى بلغني انه كان يصلى الصبح كل يوم بمكة وانه يحج كل عام لانه كان يغيب عن الناس يومى عرفة والعيد فلا يعرف أين ذهب ولما وادعت الشيخ جلال الدين سافرت الى مدينة حنذق (وضبط اسمها بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وسكون النون وقاف) وهي من أكبر المدن واحسنها يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو يسمى النهر الازرق ويسافر فيه الى بنجالة وبلاد اللكنوتي وعليه النواعير والبساتين والقري يمنة ويسرة كما هي على نيل مصر وأهلها كفار تحت الذمة يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوي ذلك وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين فكانا نمشي في سوق من الاسواق وفيه من المراكب مالا يحصى كثرة وفي كل مركب منها طبل فاذا التقي المركبان ضرب كل واحد طبله وسلم بعضهم على بعض وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يؤخذ بذلك النهر من الفقراء نول وان يعطى الزادلمن لازاد له منهم واذا وصل الفقير الى مدينة أعطى نصف دينار وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا في النهر كما ذكرناه وصلنا الى مدينة سنركاوان وسنر (بضم السين المهمل والنون وسكون الراء) وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيدا عند ما لجأ اليها ولما وصلناها وجدنا بها جنكا يريد السفر الى بلاد الجاوة وبينهما أربعون يوما فركبنا فيه ووصلنا بعد

خمسة عشر يوما الى بلاد البرهنكار الذين أفواههم كافواء الكلاب (وضبطها بفتح الباء الموحدة والراء والنون والكاف وسكون الهاء) وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون الى دين الهنود ولا الى غيره وسكناهم فى بيوت قصب مسقفة بحشيش الارض على شاطيء البحر وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير ورجالهم على مثل صورتنا الا ان افواههم كافواه الكلاب وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع ورجالهم عرايا لا يستترون الا ان الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه فى جعبة من القصب منقوشة معلقة فى بطنه ويستتر نساؤهم باوراق الشجر ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون فى حارة على حدة أخبرونا انهم يتنا كحون كالبهائم لا يستترون بذلك ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك او فوقه وانهم لا يزنون واذا زنا أحدهم فحد الرجل ان يصلب حتى يموت او يؤتى صاحبه او عبده فيصلب عوضا منه ويسرح هو وحد المرأة ان يامر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضرته حتى تموت ويرمون بها فى البحر ولا جل ذلك لا يتزوج أحد من أهل المراكب ينزل اليهم الى ان كان من المقيمين عندهم وانما يبايعون الناس ويشاورونهم على الساحل ويسوقون اليهم الماء على الفيلة لانه بعيد من الساحل ولا يتركونهم لاستقائه خوفا على نسائهم لانهن يطمحن الى الرجال الحسان والفيلة كثيرة عندهم ولا يسعها احد غير سلطانهم ثم تشترى منهم بالاثواب ولهم كلام غريب لا يفقهه الا من ساكنهم واكثر التردد اليهم ولما وصلنا الى ساحلهم أتوا الينا فى قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة وجاؤا بالموز والارز والتنبول والفوفل والسمك

— ذكر سلطانهم —

وأتى الينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود ولباس السلطان ثوب من جلود المعز وقد جعل الوبر الى خارج وفوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات وفى يده حربة من القصب ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة فبعثنا اليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحوت الذي يكون بجزائر ذيبة المهل واثوابا بنجالية وهم لا يلبسونها انما يكسونها الفيلة فى أيام عيدهم ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك وثياب لكسوة الفيل وحلى ذهب تجعله زوجته فى محزمها وأصابع رجليها ومن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحرا يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك

— حكاية —

واتفق فى ليلة من ليالى إقامتنا بمرساهم ان غلاما لصاحب المركب ممن تردد الى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلا وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم الى موضع شبه الغار على

الساحل وعلم بذلك زوجها فجاء في جمع من أصحابه الى الغار فوجدهما به فحملا الى سلطانهم فامر بالغلام فقطعت انثياه وصلب وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت ثم جاء السلطان الى الساحل فاعتذر عما جرى وقال انا لا نجد بدا من امضاء أحكامنا ووهب لصاحب المركب غلاما عوض الغلام المطلوب ثم سافرنا عن هؤلاء وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا الى جزيرة الجاوة (بالجيم) وهي التي ينسب اليها اللبان الجاوي رأيناها على مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي والعنبة والجوز والنارنج الحلو وقصب الكافور وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك والكثير من أفاويه الطيب التي ببلاد الكفار إنما هو منها وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك ولما وصلنا المرسى خرج الينا أهلها في مراكب صغار ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك وعادتهم ان يهدوا ذلك للتجار فيكافئهم كل انسان على قدره وصعد الينا أيضا نائب صاحب البحر وشاهد من معنا من التجار وأذن لنا في النزول الى البر فنزلنا الى البندر وهي قرية كبيرة على ساحل البحر بها دور يسمونها السرحي (بفتح السين المهمل وسكون الراء وفتح الحاء المهمل) وبينها وبين البلد أربعة أميال ثم كتب بهروز نائب صاحب البحر الى السلطان فعرفه بقدومي فامر الاميردولسة بلقائي والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي وتاج الدين الاصبهاني وسواهم من الفقهاء فخرجوا لذلك وجاؤا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه فركبت وركب أصحابي ودخلنا الى حضرة السلطان وهي مدينة سمطرة (بضم السين المهمل والميم وسكون الطاء وفتح الراء) مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب

— ذكر سلطان الجاوة —

وهو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم شافعي المذهب محب في الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأتي الى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه وأهل بلاده شافعية محبون في الجهاد يخرجون معه تطوعا وهم غالبون على من يليهم من الكفار والكفار يعطونهم الجزية على الصلح

— ذكر دخولنا الى داره واحسانه الينا —

ولما قصدنا الى دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحا مركوزة عن جانبي الطريق وهي علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكبا فنزلنا عندها ودخلنا المشور فوجدنا نائب السلطان وهو يسمى عمدة الملك فقام الينا وسلم علينا وسلامهم بالمصافحة وقعدنا معه وكتب

Digitized by Birzeit University Library

بطاقة الى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان فاتاه الجواب على ظهرها ثم جاء أحد بيقشة والبقشة (بضم الباء الموحدة وسكون القاف وفتح الشين المعجم) هي السبنية فاخذها النائب بيده واخذ بيدي وأدخلني الى دويرة يسمونها فردخانة على وزن زردخانة (الا أن أولها فاء) وهي موضع راحته بالنهار فان العادة ان يأتي السلطان الى المشور بعد الصبح ولا ينصرف الا بعد العشاء الآخرة وكذلك الوزراء والامراء الكبار وأخرج من البقشة ثلاث فوط احداها من خالص الحرير والاخرى حرير وقطن واخرى حرير وكتان وأخرج ثلاث أثواب يسمونها التحتانيات من جنس الفوط وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الاجناس تسمى الوسطانيات وأخرج ثلاثة أثواب من الارمك أحدها أبيض وأخرج ثلاث عمائم فلبست فوطة منها عوض السراويل على عادتهم وثوبا من كل جنس وأخذ أصحابي ما بقي منها ثم جاؤا بالطعام أكثره الارز ثم أتوا بنوع من الفقاع ثم أتوا بالتنبول وهو علامة الانصراف فاخذناه وقمنا وقام النائب لقيامنا وخرجنا عن المشور فركبنا وركب النائب معنا وأتوا بنا الى بستان عليه حائط خشب وفي وسطه دار بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن يسمونها المخملات (بالميم والخاء المعجم) ومنها مصبوغ وغير مصبوغ وفي البيت أسرة من الخيزران فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ومخاد يسمونها البوالشت فجلسنا بالدار ومعنا النائب ثم جاء الامير دولسة بجاريتين وخادمين وقال لي يقول لك السلطان هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد ثم خرج النائب وبقي الامير دولسة عندي وكانت بيني وبينه معرفة لانه كان وردر سولا على السلطان بدهلي فقلت له متى تكون رؤية السلطان فقال لي ان العادة عندنا ان لا يسلم القادم على السلطان الا بعد ثلاثة ليذهب عنه تعب السفر ويثوب اليه ذهنه فاقمنا ثلاثة أيام ياتي الينا الطعام ثلاث مرات في اليوم وتاتينا الفواكه والطرف مساء وصباحا فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتاني الامير دولسة فقال لي يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة فاتيت المسجد وصليت به الجمعة مع حاجبه قيران (بفتح القاف وسكون الياء آخر الحروف وفتح الراء) ثم دخلت الى السلطان فوجدت القاضي أمير سيد والطلبة عن يمينه وشماله فصافحني وسلمت عليه وأجلسني عن يساره وسالني عن السلطان محمد وعن أسفاري فاجبته وعاد الى المذاكرة في الفقه على مذهب الشافعي ولم يزل كذلك الى صلاة العصر فلما صلاها دخل بيتا هنالك فنزع الثياب التي كانت عليه وهي ثياب الفقهاء وبها ياتي المسجد يوم الجمعة ماشيا ثم لبس ثياب الملك وهي الاقبية من الحرير والقطن

Digitized by Birzeit University Library

— ذكر انصرافه الى داره وترتيب السلام عليه —

ولما خرج من المسجد وجد الفيلة والخيل على بابه والعادة عندهم انه اذا ركب السلطان للفيل ركب من معه الخيل واذا ركب الفرس ركبوا الفيلة ويكون أهل العلم عن يمينه فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه الى المشور فنزلنا حيث العادة ودخل السلطان واكبا وقد اصطف فى المشور الوزراء والامراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا فاول الصفوف صف الوزراء والكتاب ووزرائه أربعة فسلموا عليه وانصرفوا الى موضع وقوفهم ثم صف الامراء فسلموا ومضوا الى مواقفهم وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والمماليك ووقف السلطان على فيله ازاء قبة الجلوس ورفع فوق رأسه شطر مرصع وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة وعن شماله مثلها وعن يمينه أيضا مائة فرس وعن شماله مثلها وهى خيل النوبة ووقف بين يديه خواص الحجاب ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه وأتى بخيل محللة بالحرير لها خلاخيل ذهب وارسان حرير مزركشة فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شانها وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند ولما كان عند الغروب دخل السلطان الى داره وانصرف الناس الى منازلهم

— ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك —

وكان له ابن أخ متزوج بنته فولاه بعض البلاد وكان الفتى يتعشق بنتا لبعض الامراء ويريد تزوجها والعادة هنالك أنه اذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقى أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد ان يستامر للسلطان فى شانها ويبعث السلطان من النساء من تنظر اليها فان أعجبته صفتها تزوجها والا تركها بزوجها أوليائها ممن يشاؤا والناس هنالك يرغبون فى تزويج السلطان بناتهم لما يحوزن به من الجاه والشرف ولما استامر والد البنت التى تعشقها ابن أخى السلطان بعث السلطان من نظر اليها وتزوجها واشتد شغف الفتى بها ولم يجد سبيلا اليها ثم ان السلطان خرج الى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة شهر فخالفه ابن أخيه الى سمطرة ودخلها اذ لم يكن عليها سور حينئذ وادعى الملك وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون وعلم عمه بذلك فقفل عائدا اليها فاخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الاموال والذخائر وأخذ الجارية التى تعشقها وقصد بلاد الكفار بمل جاوة ولهذا بنى عمه السور على سمطرة وكانت اقامتى عنده بسمطرة خمسة عشر يوما ثم طلبت منه السفر اذ كان أوانه ولا يتهيا السفر الى الصين فى كل وقت فجهز لنا جنكا وزودنا وأحسن وأجمل جزاه الله خيرا وبعث

معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة الى الجنك وسافرنا بطول بلاده احدى وعشرين ليلة ثم وصلنا الى مل جاوة (بضم الميم) وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الافاويه العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري وقافلة وقارة من بعض بلادها وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة الا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي وانما معظم ذلك بمل جاوة ولنذكر ما شاهدنا منها ووقفنا على اعيانه وحققناه

— ذكر اللبان —

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الانسان الى مادون ذلك وأغصانها كاغصان الخرشف وأوراقها صغار رقاق وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة واللبان صمغية تكون في أغصانها وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار

— ذكر الكافور —

واما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا الا ان الانابيب منها اطول وأغلظ ويكون الكافور في داخل الانابيب فاذا كسرت القصبة وجد في داخل الانبوب مثل شكله من الكافور والسر العجيب فيه انه لا يتكون في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان والا لم يتكون شيء منه والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم تجميد الروح وهو المسمى عندهم بالحر دالة هو الذي يذبح عند قصبه الآدمي ويقوم مقام الآدمي في ذلك القيلة الصغار

— ذكر العود الهندي —

واما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط الا ان قشره رقيق وأوراقه كاوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعرقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة وأما عيدان شجرته وورقها فلا عطرية فيها وكل ما ببلاد المسلمين من شجره فهو متملك واما الذي في بلاد الكفار فاكثره غير متملك والمتملك منه ما كان بقافلة وهو أطيب العود وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ويبيعونه لاهل الجاوة بالانواب ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع وأما العطاس فانه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهرا فتبقى فيه قوته وهو من أعجب أنواعه

— ذكر القرنفل —

واما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الاسلام وليست بمتملكة لكثرتها والمجلوب الى بلادنا منها هو العيدان والذي يسميه أهل بلادنا نور القرنفل هو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب والزهر المتكون فيها هو البسباسة رأيت ذلك كله وشاهدته ووصلنا

الى مرسى قافلة فوجدنا به جملة من الجنوك معدة للسرقة ولمن يستعصى عليهم من الجنوك فان لهم على كل جنك وظيفة ثم نزلنا من الجنك الى مدينة قافلة وهي بقافين آخرها مضموم ولامها مفتوح وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة وأول مارأيت بخارجها الفيلة عليها الاجمال من العود الهندي يوقدونه في بيوتهم وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا هذا اذا ابتاعوا فيما بينهم واما التجار فيبيعون الحمل منه بثوب من ثياب القطن وهي اغلى عندهم من ثياب الحرير والفيلة بها كثيرة جدا عليها يركبون ويحملون وكل انسان يربط فيلته على بابه وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده يركبه الى داره وتحمل وكذلك جميع أهل الصين والخطا على مثل هذا الترتيب

— ذكر سلطان مل جاوه —

وهو كافر رأيته خارج قصره جالسا على قبة ليس بينه وبين الارض بساط ومعه ارباب دولته والعساكر يعرضون عليه مشاة ولا خيل هنالك الا عند السلطان وانما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون فعرف شأني فاستدعاني فجئت وقلت السلام على من اتبع الهدى فلم يفقهوا الا لفظ السلام فرحب بي وأمر أن يفرش لي ثوب أقعد عليه فقلت للترجمان كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الارض فقال هكذا عادته يقعد على الارض تواضعا وانت ضيف وجئت من سلطان كبير فيجب اكرامك فجلست وسألني عن السلطان فاوجز في سؤاله وقال لي تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام وحينئذ يكون انصرافك

— ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه —

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين شبه سكين المسفر قد وضعه على رقبة نفسه وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ثم أمسك السكين بيديه معا وقطع عنق نفسه فوقع رأسه لحدة السكين وشدة امساكه بالارض فعجبت من شأنه وقال لي السلطان أيفعل احد هذا عندكم فقلت له مارأيت هذا قط فضحك وقال هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا وامرنا فرفع واحرق وخرج لاحراقه الثواب وارباب الدولة والعساكر والرعايا واجرى الرزق الواسع على أولاده واهله واخوانه وعظموا لاجل فعله واخبرني من كان حاضرا في ذلك المجلس ان الكلام الذي تكلم به كان تقريرا لمحبته في السلطان وانه يقتل نفسه في حبه كما قتل ابوه نفسه في حب ابيه وجده نفسه في حب جده ثم انصرفت عن المجلس وبعث الى بضيافة ثلاثة أيام وسافرنا في البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما الى البحر الكاهل وهو الراكد وفيه حزة زعموا انها من تربة ارض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج

ولا حركة مع اتساعه ولاجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة مراكب كما ذكرناه تجذف به فتجره ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافا كبارا كالصواري يجتمع على المجذاف منها ثلاثون رجلا او نحوها ويقومون قياما صفين كل صف يقابل الآخر وفي المجذاف حبلان عظيمان كالطوابيس فتجذف احدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجذف الطائفة الاخري وهم يغنون عند ذلك باصواتهم الحسان واكثرما يقولون لعلى لعلى وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما وعجبت البحرية من التسهيل فيه فانهم يقيمون فيه خمسين يوما الى أربعين وهي انهى مايكون من التيسير عليهم ثم وصلنا الى بلاد طوالسي وهي (بفتح الطاء المهمل والواو وكسر السين المهمل) وملكن هو المسمي بطوالسى وهي بلاد عريضة وملكها يضاهي ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها اهل الصين حتي يصالحوه على شيء وأهل هذه البلاد عبدة اوثان حسان الصور أشبه الناس بالترك في صورهم والغالب على ألوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء وأرسينا من مراسيهم بمدينة كيلوكري (وضبطها بكاف مفتوح وياء آخر الحروف مسكنة ولام مضموم وكاف مفتوح وراء مكسور) وهي من أحسن مدنهم وأكبرها وكان يسكن بها ابن ملكهم فلما ارسينا بالمرسي جاءت عساكرهم ونزل الناخودة اليهم ومعه هدية لابن الملك فسألهم عنه فاخبروه ان أباه ولاه بلدا غيرهم وولى بنته بملك المدينة (واسمها أردجا بضم الهمزة وسكون الراء وضم الدال المهمل وجيم)

— ذكر هذه الملكة —

ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمرسى كيلوكري استدعت هذه الملكة الناخودة صاحب المركب والكواني وهو الكاتب والتجار والرؤساء والقنديل وهو مقدم الرجال وسباه سالاروهو مقدم الرماة لضيافة صنعتها لهم على عادتها ورغب الناخودة مني ان احضر معهم فابيت لانهم كفار لا يجوز اكل طعامهم فلما حضروا عندها قالت لهم هل بقي احد منكم لم يحضر فقال لها الناخودة لم يبق الا رجل واحد يخشي وهو القاضي بلسانهم ويخشى (بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء وكسر الشين المعجمين) وهو لا يأكل طعامكم فقالت ادعوه فجاء بجنادرتها واصحاب الناخودة فقالوا أجب الملكة فاتيتها وهي بمجلسها الاعظم وبين يديها نسوة بايديهن الازمة يعرضن ذلك عليها وحولها النساء القواعد وهن وزيراتها وقد جلسها تحت السرير على كراسي الصندل وبين يديها الرجال ومجلسها مفروش بالحرير وعليه ستور حرير وخشبية من الصندل وعليه صفائح الذهب وبالمجلس مساطب خشب منقوش

عليها أوانى ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابي والقلال والبواقيل أخبرني الناخودة
انها مملوة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالافاويه يشربونه بعد الطعام وانه عطر الرائحة
حلو المطعم يفرح ويطيب النكهة وبهضم ويعين على الباءة فلما سلمت على الملكة قالت لي بالتركية
حسن مسن يخشي مسن (خوشميسن خشميسن) معناه كيف حالك كيف انت واجلستني
على قرب منها وكانت تحسن الكتاب العربي فقالت لبعض خدامها دواة وبتك كاتور
(كتور) معناه الدواة والكاغد فاتي بذلك فكتبت فيه بسم الله الرحمن الرحيم فقالت ما
هذا فقلت لها تنضرى (تنكرى) نام وتنضرى (بفتح التاء المعلوة وسكون النون وفتح
الضاد وراء وياء) ونام (بنون والف وميم) ومعنى ذلك اسم الله فقالت خشن (خوش)
ومعناه جيد ثم سالتني من أي البلاد قدمت فقلت لها من بلاد الهند فقالت بلاد الفلفل
فقلت نعم فسالتني عن تلك البلاد واخبارها فاجبتها فقالت لا بدان أغزوها وآخذها لنفسي
فاني بعجبني كثرة مالها وعساكرها فقلت لها افعلي وامرت لي باثواب وحمل فيلين من
الارز وبجاموستين وعشر من الضان وأربعة أرطال جلاب واربعة مرطبانات وهي ضخمة
مملوة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا كل ذلك مملوح مما يستعد للبحر واخبرني الناخودة
ان هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخدم وجواري قاتلن كالرجال وانها تخرج في العساكر
من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الابطال واخبرني انها وقع بينها
وبين بعض أعدائها قتال شديد وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون فدفعت بنفسها
وخرقت الجيوش حتى وصلت الى الملك الذي كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه
فمات وانهزمت عساكره وجاءت برأسه على رمح فافتكه أهله منها بمال كثير فلما عادت
الى أيبها ملكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها واخبرني ان ابناء الملوك يخطبونها فتقول
لا اتزوج الا من يبارزني فيغلبني فيتحاموني مبارزتها خوف المعرة ان غلبتهم ثم سافرنا عن
بلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا ونحن نسير بها أشد السير
واحسنه الى بلاد الصين واقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب
والفضة لا يضاهيه في ذلك اقليم من اقاليم الارض ويخترقه النهر المعروف بآب حيات معني
ذلك ماء الحياة ويسمى ايضا نهر السير (السرو) كاسم النهر الذي بالهند ومنبعه من جبال
بقرب مدينة خان بالق تسمي كوه بوزنه معناه جبل القرود ويمر في وسط الصين مسيرة ستة
اشهر الى ان ينتهي الى صين الصين وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والاسواق كنيل
مصر الا ان هذا أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة وببلاد الصين السكر الكثير مما

Digitized by Birzeit University Library

يضاهي المصري بل يفضله والاعناب والاجاص وكنت أظن ان الاجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له حتى رأيت الاجاص الذي بالصين وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم واصفهان وكل ما ببلادنا من الفواكه فان بها ما هو مثله واحسن منه والقمح بها كثير جداً ولم أر قمحاً طيب منه وكذلك العدس والحمص — ذكر الفخار الصيني —

وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه الا بمدينة الزيتون وبصين كلان وهو من تراب جبال هنالك تقدفيه النار كالفحم وسنذكر ذلك ويضيفون اليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع تراباً ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمر شهراً كاملاً ولا يزاد على ذلك والدون ما خمر عشرة أيام وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمناً ويحمل الى الهند وسائر الاقاليم حتى يصل الى بلادنا بالمغرب وهو أبدع أنواع الفخار

— ذكر دجاج الصين —

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جداً أضخم من الاوز عندنا وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الاوز عندنا وأما الاوز عندهم فلا ضخامة لها ولقد اشترينا دجاجة فاردنا طبخها فلم يسع لحمها في برمة واحدة فجعلناها في برمتين ويكون الديك بها على قدر النعامة وربما انتتف ريشها فيبقى بضعة حمراء وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم فظننته نعامة وعجبت منه فقال لي صاحبه ان ببلاد الصين ما هو أعظم منه فلما وصلت الى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك

— ذكر بعض من أحوال أهل الصين —

وأهل الصين كفار يعبدون الاصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود وملك الصين تترى من ذرية تنكيزخان وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناهم ولهم فيها المساجد لاقامة الجمعات وسواد أهم معظمون محترمون وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم وهم أهل رفاهية وسعة عيش الا انهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة وجميع أهل الصين انما يحتفلون في أواني الذهب والفضة ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي ويقولون هو الرجل الثالثة والحرير عندهم كثير جداً لان الدود تتعلق بالنارو تأكل منها فلا تحتاج الى كثير مؤنة ولذلك كثر وهو لباس الفقراء والمساكين بها ولولا التجار لما كانت له قيمة ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالاثواب الكثيرة من الحرير وعادتهم ان يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون

القطعة منها من قنطار فما فوقه ومادونه و يجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل فى أصبعه خاتما ومن كانت له عشر جعل خاتمين ومن كان له خمس عشرة سموه الستى (بفتح السين المهمل وكسر التاء المعلوة) وهو بمعنى الكارمى بمصر ويسمون القطعة الواحدة منها بركالة (بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الكاف واللام)

— ذكر دراهم الكاغد التى بها يبيعون ويشترون —

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه وانما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت (بباء موحدة والف ولام مكسور وشين معجم مسكن وتاء معلوة) وهى بمعنى الدينار عندنا واذا تمزقت تلك الكواغد فى يد انسان حملها الى دار كدار السكة عندنا فأخذ عوضها جددا ودفع تلك ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها لان الذين يتولون عملها لهم الارزاق الجارية من قبل السلطان وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الامراء واذا مضى الانسان الى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شىء لم يأخذ منه ولا يلتفت عليه حتى يصرفه بالبالشت ويشترى به ما أراد

— ذكر التراب الذى يوقدونه مكان الفحم —

وجميع أهل الصين والخطا انما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل تأتى الفيلة بالاحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا و يشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهو أشد حرارة من نار الفحم واذا صار رمادا عجنوه بالماء و ينسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك الى ان يتلاشى ومن هذا التراب يصنعون أوانى الفخار الصينى ويضيفون اليه حجارة سواه كما ذكرناه

— ذكر ما خصوا به من احكام الصناعات —

وأهل الصين أعظم الامم احكاما للصناعات وأشدهم اتقانا فيها وذلك مشهور من حالهم حتى وصفه الناس فى تصانيفهم فاطنبوا فيه وأما التصوير فلا يجاريهم أحد فى احكامه من الروم ولا من سواهم فان لهم فيه اقتدارا عظيما ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك انى ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت اليها الا ورأيت صورتى وصور أصحابى منقوشة فى الحيطان والكواغد موضوعة فى الاسواق ولقد دخلت الى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت الى قصر السلطان مع أصحابى ونحن على زى العراقيين فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة فرأيت صورتى وصورة أصحابى منقوشة فى كاغد

Digitized by Birzeit University Library

قد الصقوه بالحائط فجعل كل واحد منا ينظر الى صورة صاحبه لا تخطى شيأ من شبهه وذكر لى ان السلطان أمرهم بذلك وانهم أتوا الى قصر ونحن به فجعلوا ينظرون الينا ويصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادتهم فى تصوير كل من يمربهم وتنتهى حالهم فى ذلك الى ان الغريب اذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثوا صورته الى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ قال ابن جزى هذا مثل ما حكاه أهل التاريخ من قضية سابور ذى الاكتاف ملك الفرس حين دخل الى بلاد الروم متنكرا وحضر وليمة صنعها ملكهم وكانت صورته على بعض الاوانى فنظر اليها بعض خدام قيصر فانطبعت على صورة سابور فقال للملك ان هذه الصورة تخبرنى ان كسري معنا فى هذا المجلس فكان الامر على ما قاله وجرى فيه ما هو مسطور فى الكتب

— ذكر عادتهم فى تقييد ما فى المراكب —

وعادة أهل الصين اذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد اليه صاحب البحر وكتابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية وحينئذ يباح لهم السفر فاذا عاد الجنك الى الصين صعدوا اليه أيضا وقابلوا ما كتبوه باشخاص الناس فان فقدوا أحدا ممن قيدوه طلبوا صاحب الجنك به فاما ان يأتى ببرهان على موته او فراره او غير ذلك مما يحدث عليه والا أخذ فيه فاذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب ان يملى عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فان عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين الا بالصين اللهم الا انه كان بالهند ما يقرب منه وهو ان من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرما ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم

— ذكر عادتهم فى منع التجار عن الفساد —

واذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خير فى النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معين او فى الفندق فان احب النزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن وانفق عليه منه بالمعروف فاذا أراد السفر بحث عن ماله فان وجد شيأ منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه وان أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه فان أراد التسري اشترى له جارية واسكنه بدار يكون بابها فى الفندق وانفق عليهما والجواري رخيصات الاثمان ان لا أهل الصين أجمعين

يبيعون أولادهم وبناتهم وليس ذلك عيبا عندهم غيرانهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه ان اختاروه وكذلك ان اراد التزوج تزوج وأما انفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له اليه ويقولون لا نريد ان يسمع في بلاد المسلمين انهم يخسرون أموالهم في بلادنا فانها أرض فساد وحسن فائت

— ذكر حفظهم للمسافرين في الطرق —

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافرين فان الانسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الاموال الطائلة فلا يخاف عليها وترتيب ذلك ان لهم في كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجال فاذا كان بعد المغرب أو العشاء الآخرة جاء الحاكم الى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها وأقفل باب الفندق عليهم فاذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل انسان باسمه وكتب بها تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم الى المنزل الثاني له ويأتيه ببراءة من حاكمه ان الجميع قد وصلوا اليه وان لم يفعل طلبه بهم وهكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين الى خان بالق وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج اليه المسافر من الازواد وخصوصا الدجاج والاوز وأما الغنم فهي قليلة عندهم * ولنعد الى ذكر سفرنا فنقول لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا اليها مدينة الزيتون وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ولكنه اسم وضع عليها وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والاطلس وتعرف بالنسبة اليها وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبا لقية ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها رأيت به نحو مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الاعظم وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للانسان بها البستان والارض وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة وفي يوم وصولي اليها رأيت بها الامير الذي توجه الى الهند رسولا بالهدية ومضى في صحبتنا وغرق به الجنك فسلم وعرف صاحب الديوان بي فانزلني في منزل حسن وجاء الى قاضي المسلمين تاج الدين الاردويلي وهو من الافاضل الكرماء وشيخ الاسلام كمال الدين عبد الله الاصفهاني وهو من الصلحاء وجاء الى كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذين استدنت منهم حين قدومي على الهند وأحسنهم معاملة حافظ القرآن مكثر للتلاوة وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد الكفار اذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح

وقالوا جاء من أرض الاسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازروني له زاوية خارج البلد واليه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ أبي اسحق الكازروني ولما عرف صاحب الديوان اخباري كتب الي القان وهو ملكهم الاعظم يخبره بقدومي من جهة ملك الهند فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني الى بلاد الصين (صين الصين) وهم يسمونه صين كلان لاشاهدتلك البلاد وهي في عمالته بخلال مايعود جواب القان فاجاب الى ذلك وبعث معي من أصحابه من يوصلني وركبت في النهر في مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية الا أن الجذافين يجذفون فيه قياما وجميعهم في وسط المركب والركاب في المقدم والمؤخر ويظللون على المركب بثياب تصنع من نبات بلادهم يشبه الكتان وليس به وهو أرق من القنب وسافرنا في هذا النهر سبعة وعشرين يوما وفي كل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشترى بها ما نحتاج اليه ونصلي الظهر ثم نرتحل بالعشي الى أخرى هكذا الى أن وصلنا الى مدينة صين كلان (بفتح الكاف) وهي مدينة صين الصين وبها يصنع الفخار والربتون أيضا وهنالك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه مجمع البحرين وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقا ومن أعظم أسواقها سوق الفخار ومنها يحمل الى سائر بلاد الصين والى الهند واليمن وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب اسطوان ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة وكذلك فيما بين الابواب كلها وفي داخلها المارستان للمرضى والمطبخة لطبخ الاغذية وفيها الاطباء والخدام وذكر لي أن الشيوخ الذين لاقدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة وكذلك الايتام والارامل ممن لاحال لهم وعمر هذه الكنيسة بعض ملوكهم وجعل هذه المدينة وما وليها من القرى والبساتين وقفا عليها وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة وهم يعبدونها وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الاسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة اليه وقاض يقضي بينهم وكان نزولي عند أوحد الدين السنجاري وهو أحد الفضلاء الاكابر ذوو الاموال الطائلة وأقمت عنده أربعة عشر يوما وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى علي وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ويأتون اليها بالعشاءين الحسان والمغنين وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين وبينها وبين سد ياجوج وماجوج ستون

يوما فيا ذكر لي يسكنها كفار رحالة يا كلون بني آدم اذا ظفروا بهم ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر اليها ولم أر بتلك البلاد من رأى السد ولا من رأى من رآه

— حكاية عجيبة —

ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتي سنة وانه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة وانه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه فتوجهت الى الغار فرأيته على بابه وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولا لحية له فسلمت عليه فامسك يدي وشمها وقال للترجمان هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر ثم قال لي لقد رأيت عجبا أتذكر يوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان جالسا بين الاصنام واعطاك عشرة دنانير من الذهب فقلت نعم فقال أنا هو فقبلت يده وفكرت ساعة ثم دخل الغار فلم يخرج الينا وكانه ظهر منه الندم على ما تكلم به فتهجمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت من الكاغد فقال هذه ضيافتكم فانصرفوا فقلنا له ننتظر الرجل فقال لو أقمتم عشرسنين لم تروه فان عادته اذا اطلع أحد على سر من أسراره لا يراه بعده ولا تحسب انه غاب عنك بل هو حاضر معك فعجبت من ذلك وانصرفت فاعلمت القاضي وشيخ الاسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته فقالوا كذلك عادته مع من يأتي اليه من الغرباء ولا يعلم احد ما ينتحله من الاديان والذي ظننته هو احد اصحابه هو وواخبروني انه كان غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة وكان السلاطين والامراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التحف على اقدارهم ويأتيه الفقراء كل يوم فيعطي الكل احد على قدره وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر وانه يحدث عن السنين الماضية ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لو كنت معه لنصرته ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب باحسن الذكر ويثني عليهما ويلعن يزيد بن معاوية ويقع في معاوية وحدثوني عنه بامور كثيرة وأخبرني أوحد الدين السنجاري قال دخلت عليه بالغار فاخذ بيدي فخيل لي أني في قصر عظيم وانه قاعد فيه على سرير وفوق راسه تاج وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تتساقط في انهار هنالك وتخيلت اني اخذت تفاحة لآكلها فاذا انا بالغار وبين يديه وهو يضحك مني واصابني مرض شديد لازمني شهورا فلم اعد اليه واهل تلك البلاد يعتقدون انه مسلم لكن لم يره احد يصلي واما الصيام فهو صائم أبدا وقال لي القاضي ذكرت له الصلاة في بعض الايام فقال لي اتدري أنت ما أصنع ان صلاتي غير صلاتك واخباره كلها غريبة وفي اليوم الثاني من لقائه سافرت

راجعا الى مدينة الزيتون وبعد وصولى اليها بايام جاء أمر القان بوصولى الى حضرته على البر والكرامة ان شئت فى النهر والا ففى البر فاخترت السفر فى النهر فجهز والى مركبا حسنا من المراكب المعدة لركوب الامراء وبعث الامير معنا أصحابه ووجه لنا الامير والقاضى والتجار المسلمون أزوادا كثيرة وسرنا فى الضيافة نتغدى بقرية ونتعشى باخري فوصلنا بعد سفر عشرة أيام الى مدينة قنجنفو (وضبط اسمها بفتح القاف وسكون النون وفتح الجيم وسكون النون الآخر وضم الفاء وواو) مدينة كبيرة حسنة فى بسيط أفيح والبساتين محدقة بها فكانها غوطة دمشق وعند وصولنا خرج الينا القاضى وشيخ الاسلام والتجار ومعهم الاعلام والطبول والابواق والانفار وأهل الطرب وأتوا بالخيل فركبنا ومشوا بين أيدينا لم يركب معنا غير القاضى والشيخ وخرج أمير البلد وخدامه وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم ودخلنا المدينة ولها أربعة أسوار يسكن ما بين السور الاول والثانى عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها ويسمون البصوانان (الباسوانان) (بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد المهملة وواو وألف ونون وألف ونون) ويسكن ما بين السور الثانى والثالث الجنود المركبون والامير الحاكم على البلد ويسكن داخل السور الثالث المسلمون وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلانى (بضم القاف وسكون الراء) ويسكن داخل السور الرابع الصينيون وهو أعظم المدن الاربعة ومقدار ما بين كل باب منها والذى يليه ثلاثة أميال وأربعة ولكل انسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه — حكاية —

وبينا أنا يوما فى دار ظهير الدين القرلانى اذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم فاستؤذن له على وقالوا مولانا قوام الدين السبتى فعجبت من اسمه ودخل الى فلما حصلت المؤانسة بعد السلام سنح لى انى أعرفه فاطلت النظر اليه فقال أراك تنظر الى نظر من يعرفنى فقلت له من أي البلاد أنت فقال من سبتة فقلت له وأنا من طنجة فجدد السلام على وبكى حتى بكيت لبكائه فقلت له هل دخلت بلاد الهند فقال لى نعم دخلت حضرة دهلى فلما قال لى ذلك تذكرت له وقلت أأنت البشرى قال نعم وكان وصل الى دهلى مع خاله أبى قاسم المرسى وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحفظ الموطا وكنت أعلمت سلطان الهند بامره فاعطاه ثلاثة آلاف دينار وطلب منه الاقامة عنده فابي وكان قصده فى بلاد الصين فعظم شانه بها واكتسب الاموال الطائلة أخبرني ان له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجوارى واهدي الى منهم غلامين وجاريتين وتحفا كثيرة ولقيت اخاه بعد ذلك ببلاد السودان فيما بعد ما بينهما وكانت اقامتى بقنجنفو خمسة عشر يوما وسافرت منها وبلاد

الصين على مافيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها فمتى خرجت عن منزلي رأيت المناكير الكثيرة فاقلقني ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا اخرج الا لضرورة وكنت اذا رأيت المسلمين بها فكاني لقيت أهلي وأقاربي ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري ان سافر معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام حتى وصلت الى مدينة بيوم قطلو (وهي بباء موحدة مفتوحة وياء آخر الحروف ساكنة وواو مفتوحة وميم وقاف مضموم وطاء مسكنة ولام مضموم وواو) مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة وليس بها للمسلمين الا أربعة من الدور أهلها من جهة الفقيه المذكور نزلنا بدار احدهم واقمنا عنده ثلاثة ايام ثم ودعت الفقيه وانصرفت فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشى باخرى الى ان وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها الى مدينة الخنساء واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة ولا ادري اعربي هو ام وافق العربي وهذه المدينة اكبر مدينة رأيتها على وجه الارض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل وهي على ماذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل أحد له بستانه وداره وهي منقسمة الى ست مدن سنذكرها وعند وصولنا اليها خرج الينا قاضيها فخر الدين وشيخ الاسلام بها واولاد عثمان بن عفان المصري وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم ابيض والاطبال والانفار والابواق وخرج اميرها في موكبه ودخلنا المدينة وهي ست مدن علي كل مدينة سور ومحدق بالجميع سور واحد فاول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم حدثني القاضي وسواه انهم اثنا عشر ألفا في زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصاري والترك عبدة الشمس وهم كثير واميرهذه المدينة من اهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة واسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الاسلام وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار اولاد عثمان بن عفان المصري وكان احد التجار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة اليه واورث عقبه به الجاه والحرمة وهم على ما كان عليه ابوهم من الايثار على الفقراء والاعانة للمحتاجين ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها اوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية وبني عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ووقف عليه وعلى الزاوية اوقافا عظيمة وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير وكانت اقامتنا عندهم خمسة عشر يوما فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة ولا يزالون يختلفون في اطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة في اقطار المدينة

Digitized by Birzeit University Library

وركبوا معي يوما فدخلنا الى المدينة الرابعة وهي دار الامارة وبها سكني الامير الكبير قرطي ولما دخلنا من بابها ذهب عني أصحابي ولقيني الوزير وذهب بي الى دار الامير الكبير قرطى فكان من أخذه الفرجية التي أعطانيها ولي الله جلال الدين الشيرازي ماقد ذكرته وهذه المدينة منفردة لسكني عبيد السلطان وخدامه وهي من أحسن المدن الست وبشقها انهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الاعظم وتأتي فيه القوارب الصغار الى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد وفيه السفن للنزهة والمشور في وسط هذه المدينة وهو كبير جدا ودار الامارة في وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب اخبرني الامير قرطى ان عددهم ألف وستمائة معلم كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والاربعة من المتعلمين وهم اجمعون عبيد القان وفي ارجلهم القيود ومساكنهم خارج القصر ويباح لهم الخروج الى اسواق المدينة دون الخروج على بابها ويعرضون كل يوم على الامير مائة مائة فان نقص احدهم طلب به اميره وعادتهم انه اذا خدم أحدهم عشر سنين فك عنه قيده وكان يخير في النظر ين اما ان يقيم في الخدمة غير مقيد واما ان يسير حيث شاء من بلاد القان ولا يخرج عنها واذا بلغ سنه خمسين عاما أعتق من الاشغال وانفق عليه وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي فلم تجر عليه الاحكام والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيراً ويسمي احدهم آطا ومعناه الوالد

— ذكر الامير الكبير قرطى —

وضبط اسمه (بضم القاف وسكون الراء وفتح الطاء المهمل وسكون الياء) وهو أمير أمراء الصين اضافنا بداره وصنع الدعوة ويسمونها الطوي (بضم الطاء المهمل وفتح الواو) وحضرها كبار المدينة وأتي بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام وكان هذا الامير على عظمته يناولنا الطعام بيده ويقطع اللحم بيده وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيام وبعث ولده معنا الى الخليج فركبنا في سفينة تشبه الحراقة وركب ابن الامير في أخري ومعه أهل الطرب واهل الموسيقى وكانوا يغنون بالصيني وبالعربي وبالفارسي وكان ابن الامير معجبا بالغناء الفارسي فغنوا شعرا منه وأمرهم بتكريره مرارا حتى حفظته من أفواههم وله تلحين عجيب وهو (رجز)

تادل بمحـــنت داديم * در بحـــر فكرا فتاديم
جن (جون) درنماز استاديم * قوى بمحراب اندرى (اندريم

Digitized by Birzeit University Library

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لهم القلاع الملونة ومظلات الحرير وسفنهم منقوشة أبدع نقش وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون وعدنا بالعشي الى دار الامير فبتنا بها وحضر أهل الطرب فغنوا بانواع من الغناء العجيب — حكاية المشعوذ — وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة وهو من عبيد القان فقال له الامير أرنا من عجائبك فاخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها الى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الابصار ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد فلما لم يبق من السير في يده الا يسير أمر متعلما له فتعلق به وصعد في الهواء الى ان غاب عن ابصارنا فدعاه فلم يجبه ثلاثا فاخذ سكينا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير الى ان غاب أيضا ثم رمى بيد الصبي الى الارض ثم رمى برجله ثم بيده الاخرى ثم برجله الاخرى ثم بجسده ثم برأسه ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم فقبل الارض بين يدي الامير وكلمه بالصيني وأمره الامير بشيء ثم انه أخذ أعضاء الصبي فالصق بعضها ببعض وركضه برجله فقام سويا فعجبت منه وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك فسقوني دواء أذهب عني ما وجدت وكان القاضي أخر الدين الى جانبي فقال لي والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو وانما ذلك شعوذة

وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي من أكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية ومن عجيب ما يصنعون بها أطباق يسمونها الدست وهي من القصب وقد الصقت قطعه أبدع الصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق وتكون هذه الاطباق عشرة واحد في جوف آخر لطوفتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد ويصنعون غطاء يغطي جميعها ويصنعون من هذا القصب صحافا ومن عجائبها ان تقع من العلو فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها ولا يحول وتجلب من هنالك الى الهند وخراسان وسواها ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتي وانا الى المدينة السادسة ويسكنها البحرية والصيادون والجلاقطة والنجارون ويدعون دود كاران (درودكران) والأصباهية وهم الرماة والبيادة وهم الرجالة وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير وهذه المدينة على ساحل النهر الاعظم بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها وجهز لنا الامير قرطي مركبا بما يحتاج اليه من زاد وسواه وبعث معنا أصحابه برسم التضييف وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر أعمال الصين ودخلنا الى بلاد الخطا (بكسر الخاء المعجم وطاء مهمل) وهي أحسن بلاد الدنيا عمارة ولا يكون في جميعها موضع غير معمور فانه ان بقي موضع غير معمور طاب

أهله أو من يوليهم بخراجه والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر من مدينة الخنسا الى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوما وليس بها أحد من المسلمين الا من كان حاضرا غير مقيم لانها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة انما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر ولم أر في الدنيا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الانبار الى عانة وكنا كل ليلة ننزل بالقري لاجل الضيافة حتى وصلنا الى مدينة خان بالق (وضبط اسمها بخاء معجمة وألف ونون مسكن وباء معقود وألف ولام مكسور وقاف) وتسمي أيضا خانقو (بخاء معجم ونون مكسور وقاف وواو) وهي حضرة القان والقان هو سلطانهم الاعظم الذي مملكته بلاد الصين والخطا ولما وصلنا اليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم وكتب الى أمراء البحر بخبرنا فاذنوا لنا في دخول مرساها فدخلناه ثم نزلنا الى المدينة وهي من اعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها انما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان في وسطها كالقصبة حسبما ذكره ونزلت عند الشيخ برهان الدين الصاغرجي وهو الذي بعث اليه ملك الهند باربعين ألف دينار واستدعاه فاخذ الدنانير وقضى بها دينه وأبى ان يسير اليه وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده وخاطبه بصدر الجهان

— ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان —

والقان عندهم سمة لكل من يلي الملك ملك الاقطار كمثل ما يسمي كل من ملك بلاد اللور باتابك واسمه باشاي (بفتح الباء المعقودة والشين المعجمة وسكون الياء) وليس للكفار على وجه الارض مملكة أعظم من مملكته

— ذكر قصره —

وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه وأكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب فالباب الاول منها يجلس به الكتوال وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره فيها المماليك البرددارية وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل وأخبرت انهم كانوا فيما تقدم ألف رجل والباب الثاني يجلس عليه الاصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة والباب الثالث يجلس عليه النزارية (بالنون والزاي) وهم أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة والباب الرابع يجلس عليه التغدارية (بالتاء المثناة والغين المعجم) وهم أصحاب السيوف والترسة والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وبه سقائف كثيرة فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة ويسمون ذلك الموضع المسند وبين يدي الوزير دواة عظيمة من الذهب وتقابل هذه السقيفة سقيفة كاتب السر وعن

Digitized by Birzeit University Library

يمينها سقيفة كتاب الرسائل وعن يمين سقيفة الوزير سقيفة كتاب الاشغال وتقابل هذه السقائف سقائف أربع احداها تسمي ديوان الاشراف يقعد بها المشرف والثانية سقيفة ديوان المستخرج وأميرها من كبار الامراء والمستخرج هو مايبقى قبل العمال وقبل الامراء من إقطاعاتهم والثالثة ديوان الفوث ويجلس فيها أحد الامراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب فمن لحقه مظلمة استغاث بهم والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أمير الاخباريين والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الاعظم والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاثة سقائف احداها سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود والثالثة سقيفة الصينيين ولكل طائفة منهم أمير من الصينيين

— ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله —

ولما وصلنا حضرة خان باليق وجدنا القان غائبا عنها اذذاك وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرم وبش بالغ من بلاد الخطا وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر عامرة واخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغرجي ان القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج كل فوج منها من عشرة آلاف فارس وأميرهم يسمى أميرطومان وكان خواص السلطان واهل دخلته خمسين ألفا زائدا الى ذلك وكانت الرجالة خمسمائة الف ولما خرج خالف عليه اكثر الامراء واتفقوا على خلعه لانه كان قد غير احكام اليساق وهي الاحكام التي وضعها تنكيزخان جدهم الذى خرب بلاد الاسلام فمضوا الى ابن عمه القائم وكتبوا الى القان ان يخلع نفسه وتكون مدينة الخنساء اقطاعا له فابى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل وبعد ايام من وصولنا الى حضرته ورد الخبر بذلك فزينت المدينة وضربت الطبول والابواق والانفار واستعمل اللعب والطرب مدة شهر ثم جيء بالقان المقتول وبنحو مائة من المقتولين بني عمه واقاربه وخواصه فحفر للقان ناووس عظيم وهو بيت تحت الارض وفرش باحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه وجعل معه ما كان في داره من اوانى الذهب والفضة وجعل معه اربع من الجواري وستة من خواص المماليك معهم اوانى الشراب وبني باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم ثم جاؤا باربعة افراس فاجروها عند قبره حتي وقفت ونصبوا خشبا على القبر وعلقوها عليه بعد ان ادخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه وجعل اقارب القان المذكورون في نواويس ومعهم سلاحهم واوانى دورهم وصلبوا على قبور كبارهم وكانوا عشرة ثلاثة من الخيل على كل قبر وعلى قبور الباقين فرسا فرسا وكان هذا اليوم يوما مشهودا لم يتخلف عنه احد من الرجال ولا

النساء المسلمين والكفار وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء وهي الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين وأقام خواتين القان وخواصه في الاخبية على قبره أربعين يوما وبعضهم يزيد على ذلك الى سنة وصنعت هنالك سوق يباع فيه ما يحتاجون اليه من طعام وسواه وهذه الافعال لا أذكر ان أمة تفعلها سواهم في هذا القصر فاما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم وسواهم من الامم يدفنون الميت ولا يحملون معه أحدا لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان ان الكفار منهم اذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وادخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم بعد أن يكسروا أيديهم وأرجلهم ويجعلون معهم أوانى الشراب وأخبرني بعض كبار مسوفة ممن يسكن بلاد كوبرمع السودان واختصه سلطانهم انه كان لهولد فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم قال فقلت لهم كيف تفعلون ذلك وليس على دينكم ولا من ولدكم وفديته منهم بمال عريض ولما قتل القان كاذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك اختار ان تكون حضرته مدينة قراقرم (وضبطها بفتح القاف الاولى والراء وضم الثانية وضم الراء الثانية) لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان وماوراء النهر ثم خالفت عليه الامراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن

— ذكر رجوعي الى الصين ثم الى الهند —

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار على الشيخ برهان الدين وسواه ان أعود الى الصين قبل تمكن الفتن ووقفوا معي الى نائب السلطان فيروز فبعث معي ثلاثة من أصحابه وكتب لي بالضيافة وسرنا منحدرين في النهر الى الخنساء ثم الى قنجنفو ثم الى الزيتون فلما وصلتها وجدت الجنوك على السفر الى الهند وفي جملتها جنك للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون وعرفني وكيله وسرت بقدومي وصادفنا الريح الطيبة عشرة أيام فلما قاربنا بلاد طوالسي تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس ثم دخلنا بحرا لا نعرفه وخاف أهل الجنك فاراد وا الرجوع الى الصين فلم يتمكن ذلك وأقمنا اثنين وأربعين يوما لا نعرف في أي البحار نحن

— ذكر الرخ —

ولما كان في اليوم الثالث والاربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا والريح تحملنا الى صوبه فعجب البحرية وقالوا لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل وان اضطرتنا الريح اليه هلكنا فلجا الناس الى التضرع والاخلاص وجددوا التوبة وابتهلنا الى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ونذر التجار التصدقات

الكثيرة وكتيبتها لهم في زمام بخطى وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك ورأيت البحرية يمكون ويودع بعضهم بعضا فقلت ماشانكم فقالوا ان الذي تخيلناه جبلا هو الرخ وان رآنا أهلكنا وبيننا إذذاك وبينه اقل من عشرة اميال ثم ان الله تعالى من علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الى الجاوة ونزلنا الى سمطرة فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاة له وجاء بسبي كثير فبعث لي جاريتين وغلامين وانزلني على العادة وحضرت اعراس ولده مع بنت اخيه

— ذكر اعراس ولد الملك الظاهر —

وشاهدت يوم الجلوة فرايتهم قد نصبوا في وسط المشور منبرا كبيرا وكسوه بثياب الحرير وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن اذيالها من نساء السلطان وأمرائه ووزرائه وكلهن باديات الوجوه ينظر اليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع وليست تلك بعادة لهن الا في الاعراس خاصة وصعدت العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة والتاج على رأس العروس المذكور عن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك وامراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة وعلى رؤوسهم الشواشي المرصعة وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو حلية ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل ابنه فقبل رجله وصعد المنبر الى العروس فقامت اليه وقبلت يده وجلس الى جانبها والخواتين يروحن عليها وجاؤا بالفوفل والتنبول فاخذه الزوج بيده وجعل منه في فمها ثم اخذت هي بيدها وجعلت في فمه ثم اخذ الزوج بفمه ورقة تنبول وجعلها في فمها وذلك كله على اعين الناس ثم فعلت هي كفعله ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه الى داخل القصر وأكل الناس وانصرفوا ثم لما كان من الغد جمع الناس وأجرى له أبوه ولاية العهد وبايعه الناس وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب وأقمت بهذه الجزيرة شهرين ثم ركبت في بعض الجنوك وأعطاني السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل وردني وسافرت عنه فوصلت بعد اربعين يوما الى كولم فنزلت بها في جوار القزويني قاضي المسلمين وذلك في رمضان وحضرت بها صلاة العيد في مسجدها الجامع وعادتهم أن ياتوا المسجد ليلا فلا يزالون يذكرون الله الى الصبح ثم يذكرون الى حين صلاة العيد ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون ثم سافرنا من كولم الى

Digitized by Birzeit University Library

قالقوط وأقمنا بها أياما وأردت العودة الى دهلى ثم خفت من ذلك فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة الى ظفار وذلك فى محرم سنة ثمان وأربعين ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طاطا

— ذكر سلطانها —

ووجدت سلطانها فى هذه الكرة الملك الناصر ابن الملك المغيث الذى كان ملكا بها حين وصولى اليها فيما تقدم ونائبه سيف الدين عمر أمير جندر التركى الاصل وانزلني هذا السلطان واكرمنى ثم ركبت البحر فوصلت الى مسقط (بفتح الميم) وهي بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ثم سافرنا الى مرسى القريات (وضبطها بضم القاف وفتح الراء والياء آخر الحروف والف وتاء مثناة) ثم سافرنا الى مرسي شبة (وضبط اسمها بفتح الشين المعجم وفتح الباء الموحدة وتشديدها) ثم الى مرسى كلبة ولفظها على لفظ مؤنثة الكلب ثم الى قلهات وقد تقدم ذكرها وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز وهي محسوبة من بلاد عمان ثم سافرنا الى هرمز واقمنا بها ثلاثا وسافرنا فى البر الى كورستان ثم الى اللار ثم الى خنج بال وقد تقدم ذكر جميعها ثم سافرنا الى كارزى (وضبط اسمها بفتح الكاف وسكون الراء وكسري الزاى) وأقمنا بها ثلاثا ثم سافرنا الي جمكان (وضبط اسمها بفتح الجيم والميم والكاف وآخره نون) ثم سافرنا منها الى ميمن (وضبط اسمها بفتح الميمين وبينهما ياء آخر الحروف مسكنه واخره نون) ثم سافرنا الى بسا (وضبط اسمها بفتح الباء الموحدة والسين المهمل مع تشديدها) ثم الى مدينة شيراز فوجدنا سلطانها أبا اسحاق على ملكه الا أنه كان غائبا عنها ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضى القضاة وهو قد كف بصره نفعه الله ونفع به ثم سافرت الى ماين ثم الى يزدخاص ثم الى كليل ثم الي كشك زر ثم الى اصبهان ثم الى تستر ثم الى الحويزا ثم الى البصرة وقد تقدم ذكر جميعها وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها وهى قبر الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وحليمة السعدية وابى بكر وأنس بن مالك والحسن البصري وثابت البنانى ومحمد بن سيرين ومالك بن دينار ومحمد بن واسع وحبيب العجمي وسهل بن عبد الله التسترى رضى الله تعالى عنهم أجمعين ثم سافرنا من البصرة فوصلنا الى مشهد على بن أبى طالب رضى الله عنه وزرناه ثم توجهنا الى الكوفة فزرنا مسجدها المبارك ثم الى الحلة حيث مشهد صاحب الزمان واتفق فى بعض تلك الايام ان وليها بعض الامراء فمنع أهلها من التوجه على عادتهم الى مسجد صاحب الزمان وانتظاره هنالك ومنع عنهم الدابة التي كانوا يأخذونها كل ليلة من الامير فاصابت ذلك الوالى علة مات منها سريعا فزاد ذلك فى فتنة الرافضة وقالوا انما أصابه ذلك لاجل منعه الدابة فلم تمنع بعد ثم سافرت الى صرصر ثم الى مدينة بغداد

وصلتها فى شوال سنة ثمان واربعين ولقيت بها بعض المغاربة فعرفنى بكائنة طريف واستيلاء الروم على الخضراء جبرالله صدع الاسلام فى ذلك

— ذكر سلطانها —

وكان سلطان بغداد والعراق فى عهد دخولى اليها فى التاريخ المذكور الشيخ حسن ابن عمة السلطان أبى سعيد رحمه الله ولما مات ابو سعيد استولى على ملكه بالعراق وتزوج زوجته دلشاد بنت دمشق خواجة ابن الامير الجوبان حسبما كان فعله السلطان ابو سعيد من تزوج زوجة الشيخ حسن وكان السلطان حسن غائبا عن بغداد فى هذه المدة متوجها لقتال السلطان أتابك افراسياب صاحب بلاد اللور ثم رحلت من بغداد فوصلت الى مدينة الانبار ثم الى هيت ثم الى الحديثة ثم الى عانة وهذه البلاد من أحسن البلاد وأخصبها والطريق فيما بينها كثير العمارة كان الماشى فى سوق من الاسواق وقد ذكرنا انا لم نر ما يشبه البلاد التى على نهر الصين الا هذه البلاد ثم وصلت الى مدينة الرحبة وهى التى تنسب الى مالك بن طوق ومدينة الرحبة أحسن بلاد العراق وأول بلاد الشام ثم سافرنا منها الى السخنة وهى بلدة حسنة اكثر سكانها من النصارى وانما سميت السخنة لحرارة مائها وفيها بيوت للرجال وبيوت للنساء يستحمون فيها ويستقون الماء ليلا ويحملونه فى السطوح ليبرد ثم سافرنا الى تدمر مدينة نبى الله سليمان عليه السلام التى بنتها له الجن كما قال النابغة (بسيط) * يبنون تدمر بالصفاح والعمد ثم سافرنا منها الى مدينة دمشق الشام وكانت مدة مغيبى عنها عشرين سنة كاملة وكنت تركت بها زوجة لى حاملا وتعرفت وأنا ببلاد الهند انها ولدت ولدا ذكرا فبعثت حينئذ الى جده للام وكان من أهل مكناسة المغرب أربعين دينارا ذهبا هنديا فحين وصولى الى دمشق فى هذه الكرة لم يكن لى هم الا السؤال عن ولدى فدخلت المسجد فوفق لى نور الدين السخاوى امام المالكية وكبيرهم فسلمت عليه فلم يعرفنى فعرفته بنفسى وسألته عن الولد فقال مات منذ ثنتى عشرة سنة واخبرنى ان فقيها من أهل طنجة يسكن بالمدرسة الظاهرية فسرت اليه لاسأله عن والدى وأهلى فوجدته شيخا كبيرا فسلمت عليه وانتسبت له فاخبرنى ان والدي توفى منذ خمس عشرة سنة وان الوالدة بقيد الحياة وأقمت بدمشق الشام بقية السنة والغلاء شديد والخبز قد انتهى الى قيمة سبع اواقى بدرهم نقرة واوقيتهم اربع أواقى مغربية وكان قاضي قضاة المالكية اذ ذاك جمال الدين المسلاتى وكان من اصحاب الشيخ علاء الدين القونوى وقدم معه دمشق فعرف بهائم ولى القضاء وقاضى قضاة الشافعية تقى الدين السبكى وامير دمشق ملك الامراء ارغون شاه

— حكاية —

ومات فى تلك الايام بعض كبراء دمشق وارصى بمال للمساكين فكان المتولى لانفاذ الوصية

يشترى الخبز ويفرقه عليهم كل يوم بعد العصر فاجتمعوا فى بعض الليالى وتزاحموا واختطفوا الخبز الذي يفرق عليهم ومدوا ايديهم الى خبز الخبازين وبلغ ذلك الامير أرغون شاه فاخرج زبانيته فكانوا حيث ما لقوا أحدا من المساكين قالوا له تعال تاخذ الخبز فاجتمع منهم عدد كثير فحبستهم تلك الليلة وركب من الغد وأحضرهم تحت القلعة وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وكان أكثرهم برآء عن ذلك وأخرج طائفة الحرافيش عن دمشق فانتقلوا الى حمص وحماه وحلب وذكر لى انه لم يعش بعد ذلك الا قليلا وقتل ثم سافرت من دمشق الى حمص ثم حماة ثم المعرة ثم سرمين ثم الى حلب وكان أمير حلب فى هذا العهد الحاج رغطى (بضم الراء وسكون الغين المعجم وفتح الطاء المهمل وياء آخر الحروف مسكنة) ﴿حكاية﴾ واتفق فى تلك الايام ان فقيرا يعرف بشيخ المشايخ وهو ساكن فى جبل خارج مدينة عنتاب والناس يقصدونه وهم يتبركون به وله تلميذ ملازم له وكان متجردا عزبا لا زوجة له قال فى بعض كلامه ان النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يصبر عن النساء وأنا أصبر عنهن فشهد عليه بذلك وثبت عند القاضى ورفع امره الى ملك الامراء وأتي به وبتلميذه الموافق له على قوله فافتى القضاة الاربعة وهم شهاب الدين المالكى وناصر الدين العديم الحنفى وتقى الدين ابن الصائغ الشافعى وعز الدين الدمشقى الحنبلى بقتلهما معا فقتلا وفى أوائل شهر ربيع الاول عام تسعة وأربعين بلغنى الخبر فى حلب ان الوباء وقع بغزة وانه انتهى عدد الموتى فيها الى زائد على الالف فى يوم واحد فسافرت الى حمص فوجدت الوباء قد وقع بها ومات يوم دخولى اليها نحو ثلثمائة انسان ثم سافرت الى دمشق ووصلتها يوم الخميس وكان أهلها قد صاموا ثلاثة أيام وخرجوا يوم الجمعة الى مسجد الاقدام حسبما ذكرناه فى السفر الاول فخفف الله الوباء عنهم فانتهى عدد الموتي عندهم الى ألفين واربعمائة فى اليوم ثم سافرت الى عجلون ثم الى بيت المقدس ووجدت الوباء قد ارتفع عنه ولقيت خطيبه عز الدين بن جماعة ابن عم عز الدين قاضى القضاة بمصر وهو من الفضلاء الكرماء ومرتبه على الخطابة ألف درهم فى الشهر

— حكاية —

و صنع الخطيب عز الدين يوما دعوة ودعانى فيمن دعاه اليها فسالته عن سببها فاخبرني انه نذر أيام الوباء انه ان ارتفع ذلك ومر عليه يوم لا يصلى فيه على ميت صنع الدعوة ثم قال لى ولما كان بالامس لم اصل على ميت فصنعت الدعوة التي نذرت ووجدت من كنت اعهد من جميع الاشياخ بالقدس قد انتقلوا الى جوار الله تعالى رحمهم الله فلم يبق منهم الا القليل مثل المحدث العالم الامام صلاح الدين خليل بن كيكلدى العلائي ومثل الصالح شرف الدين الخشى شيخ

زاوية المسجد الاقصى ولقيت الشيخ سليمان الشيرازى فاضلا فنى ولم الق بالشام ومصر من
وصل الى قدم آدم عليه السلام سواه ثم سافرت عن القدس ورافقني الواعظ المحدث شرف
الدين سليمان المليانى وشيخ المغاربة بالقدس الصوفى الفاضل طلحة العبد الوادى فوصلنا
الى مدينة الخليل عليه السلام وزرناه ومن معه من الانبياء عليهم السلام ثم سرنا الى غزة
فوجدنا معظمها خاليا من كثرة من مات بها فى الوباء وأخبرنا قاضيها ان العدول بها كانوا
ثمانين فبقي منهم الربع وان عدد الموتى بها انتهي الى الف ومائة فى اليوم ثم سافرنا فى البر فوصلت
الى دمياط ولقيت بها قطب الدين النفشوانى وهو صائم الدهر ورافقني منها الى فارسكور
وسمنود ثم الى أبي صير (بكسر الصاد المهمل وياء وراء) ونزلنا فى زاوية لبعض المصريين
بها (حكاية) وبينما نحن بتلك الزاوية اذ دخل علينا أحد الفقراء فسلم وعرضنا عليه الطعام
فابى وقال انما قصدت زيارتكم ولم يزل ليلته تلك ساجدا وراكعا ثم صلينا الصبح واشتغلنا
بالذكر والفقير بركن الزاوية فجاء الشيخ بالطعام ودعاه فلم يجبه فمضى اليه فوجده ميتا فصلينا
عليه ودفناه رحمة الله عليه ثم سافرت الى المحلة الكبيرة ثم إلى نحو اربة ثم الى ابيار ثم الى دمنهور
ثم الى الاسكندرية فوجدت الوباء قد خف بها بعد ان بلغ عدد الموتى الى الف وثمانين فى اليوم
ثم سافرت الى القاهرة وبلغنى ان عدد الموتى ايام الوباء انتهي فيها الى أحد وعشرين الفا فى اليوم
ووجدت جميع من كان بها من المشايخ الذين أعرفهم قد ماتوا رحمهم الله تعالى

— ذكر سلطانها —

وكان ملك ديار مصر فى هذا العهد الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد ابن الملك
المنصور قلاوون وبعد ذلك خلع عن الملك وولى أخوه الملك الصالح ولما وصلت القاهرة
وجدت قاضى القضاة عز الدين ابن قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة قد توجه الى مكة فى ركب
عظيم يسمونه الرجبى لسفرهم فى شهر رجب واخبرت ان الوباء لم يزل معهم حتى وصلوا عقبة
أيلة فارتفع عنهم ثم سافرت من القاهرة الى بلاد الصعيد وقد تقدم ذكرها الى عيذاب
وركبت منها البحر فوصلت الى جدة ثم سافرت منها الى مكة شرفها الله تعالى وكرمها
فوصلتها فى الثانى والعشرين لشعبان سنة تسع واربعين ونزلت فى جوار امام المالكية الصالح
الولى الفاضل أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن المدعو بخليل فصمت شهر رمضان بمكة وكنت
أعتمر كل يوم على مذهب الشافعي ولقيت ممن اعهده من اشياخها شهاب الدين الحنفى
وشهاب الدين الطبرى وابا محمد اليافعى ونجم الدين الاصفونى والحرازى وحججت فى تلك
السنة ثم سافرت مع الركب الشامى الى طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وزرت

Digitized by Birzeit University Library

قبره المكرم المطيب زاده الله طيبا وتشريفا وصليت في المسجد الكريم طهره الله وزاده تعظيما وزرت من بالبقيع من اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم ولقيت من الاشياخ أبا محمد بن فرحون ثم سافرنا من المدينة الشريفة الى العلا وتبوك ثم الى بيت المقدس ثم الى مدينة الخليل صلى الله عليه وسلم ثم الى غزة ثم الى منازل الرمل وقد تقدم ذكر ذلك كله ثم الى القاهرة وهنالك تعرفنا أن مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين أباعنان أيده الله تعالى قد ضم الله به نشر الدولة المرينية وشفى ببركته بعد اشفائها البلاد المغربية وأفاض الاحسان على الخاص والعام وغمر جميع الناس بسابغ الانعام فتشوفت النفوس الى المثول ببابه وأملت لثم ركابه فعند ذلك قصدت القدوم على حضرته العلية مع ماشقني من تذكار الاوطان والحنين الى الاهل والخلان والمحبة الى بلادي التي لها الفضل عندي على البلدان بلاد بها نيطت على تمائمي * وأول أرض مس جلدي ترابها

فركبت البحر في قرقورة لبعض التونسيين صغيرة وذلك في صفر سنة خمسين وسرت حتى نزلت بجربة وسافر المركب المذكور الى تونس فاستولى العدو عليه ثم سافرت في مركب صغير الى قابس فنزلت في ضيافة الاخوين الفاضلين أبي مروان وأبي العباس ابني مكي أميري جربة وقابس وحضرت عندهما مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ركبت في مركب الى سفاقس ثم توجهت في البحر الى بليانة ومنها سرت في البر مع العرب فوصلت بعد مشقات الى مدينة تونس والعرب محاصرون لها

— ذكر سلطانها —

وكانت تونس في أيالة مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين علم الاعلام وأوحد الملوك الكرام أسد الآساد وجواد الاجواد القائد الاواب الخاشع العادل أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ناصر دين الاسلام الذي سارت الامثال بجوده وشاع في الاقطار أثر كرمه وفضله ذي المناقب والمفاخر والفضائل والمآثر الملك العادل الفاضل أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين قاهر الكفار ومبيدها ومبدي آثار الجهاد ومعيدها ناصر الايمان الشديد السطوة في ذات الرحمان . العابد الزاهد الراكع الساجد الخاشع الصالح أبي يوسف ابن عبد الحق رضى الله عنهم أجمعين وأبقى الملك في عقبهم الى يوم الدين ولما وصلت تونس قصدت الحاج أبا الحسن النامسي لما بيني وبينه من مودات القرابة والبداية فانزلني بداره وتوجه معي الى المشور فدخلت المشور الكريم وقبلت يد مولانا أبي الحسن رضى الله عنه

وأمرني بالقعود فقعدت وسالني عن الحجاز الشريف وسلطان مصر فاجبته وسالني عن
ابن تيفراجين فاخبرته بما فعلت المغاربة معه وإرادتهم قتله بالاسكندرية وما لقي من اذايتهم
انتصارا منهم لمولانا أبي الحسن رضي الله عنه وكان في مجلسه من الفقهاء الامام أبو عبد الله
السطي والامام أبو عبد الله محمد بن الصباغ ومن اهل تونس قاضيها أبو علي عمر بن عبد
الرفيع وابو عبد الله بن هارون وانصرفت عن المجلس الكريم فلما كان بعد العصر استدعاني
مولانا ابو الحسن وهو ببرج يشرف على موضع القتال ومعه الشيوخ الجلة أبو عمر وعثمان بن
عبد الواحد التنالفتي وابو محمد زيان بن أمريون العلوي وابو زكرياء يحيى بن سليمان العسكري
والحاج ابو الحسن الناعيسى فسالني عن ملك الهند فاجبته عما سال ولم أزل اتردد الى مجلسه
الكريم ايام اقامتي بتونس وكانت ستة وثلاثين يوما ولقيت بتونس اذ ذاك الشيخ الامام خاتمة
العلماء وكبيرهم ابا عبد الله الابلي وكان في فراش المرض وباحثني عن كثير من امور رحلتي
ثم سافرت من تونس في البحر مع القطلانيين فوصلنا الى جزيرة سردانية من جزر الروم
ولها مرسى عجيب عليه خشب كبار دائرة به وله مدخل كانه باب لا يفتح الا باذن منهم وفيها
حصون دخلنا أحدها وبه اسواق كثيرة ونذرت لله تعالى ان خلصنا الله منها صوم شهرين
متتابعين لاننا تعرفنا ان اهلها عازمون على اتباعنا اذا خرجنا عنها ليأسروا نائم خرجنا عنها
فوصلنا بعد عشر الى مدينة تنس ثم الى مازونة ثم الى مستغانم ثم الى تلمسان فقصدت العباد
وزرت الشيخ ابا مدين رضي الله عنه ونفع به ثم خرجت عنها على طريق مدرومة وسلكت
طريق اخندقان وبت بزاوية الشيخ ابراهيم ثم سافرنا منها فبينما نحن بقرب ازغنغان اذ
خرج علينا خمسون راجلا وفارسان وكان معي الحاج ابن قريعات الطنجي واخوه محمد
المستشهد بعد ذلك في البحر فعزمنا على قتالهم ورفعنا علمائم سالمونا وسالمناهم والحمد لله
ووصلت الى مدينة تازي وبها تعرفت خبر موت والدتي بالوباء رحمها الله تعالى ثم سافرت
عن تازي فوصلت يوم الجمعة في اواخر شهر شعبان المكرم من عام خمسين وسبعمائة الى
حضرة فاس فمثلت بين يدي مولانا الاعظم. الامام الاكرم. أمير المؤمنين. المتوكل على رب
العالمين. ابي عنان وصل الله علوه. وكبت عدوه. فانستني هيبته هيبة سلطان العراق وحسنه
حسن ملك الهند وحسن اخلاقه حسن خلق ملك اليمن وشجاعته شجاعة ملك الترك
وحلمه حلم ملك الروم وديانته ديانة ملك تركستان وعلمه علم ملك الجاوة وكان بين يديه
وزيره الفاضل ذو المكارم الشهيرة والمآثر الكثيرة ابو زيان ابن ودرار فسالني عن الديار
المصرية اذ كان قد وصل اليها فاجبته عما سال وغمرني من احسان مولانا ايده الله تعالى بما

Digitized by Birzeit University Library

أعجزني شكره والله ولي مكانا تانه وألقيت عصى التسيار ببلاده الشريفة بعد أن تحققت بفضل الانصاف انها أحسن البلدان لان الفواكه بها متيسرة والمياه والاقوات غير متعذرة وقل إقليم يجمع ذلك ولقد أحسن من قال (مجتث)

الغرب أحسن ارض * ولي دليل عليه
البدر يرقب منه * والشمس تسعى اليه

ودراهم الغرب صغيرة وفوائدها كثيرة واذا تاملت أسعاره مع اسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحق في ذلك ولاح نضل بلاد المغرب فاقول ان لحوم الاغنام بديار مصر تباع بحساب ثمان عشرة أوقية بدرهم نقرة والدرهم النقرة ستة دراهم من دراهم المغرب وبالمغرب يباع اللحم اذا غلا سعره ثمان عشرة أوقية بدرهمين وهاتان النقرة وأما السمن فلا يوجد بمصر في أكثر الاوقات والذي يستعمله أهل مصر من انواع الادام لا يلتفت اليه بالمغرب ولان أكثر ذلك العدس والحمص يطبخونه في قدور راسيات ويجعلون عليه السيرج والبسلا وهو صنف من الحلبان يطبخونه ويجعلون عليه الزيت والقرع يطبخونه ويخلطونه باللبن والبقلة يطبخونها كذلك وأعلا أغصان اللوز يطبخونها ويجعلون عليها اللبن والقلقاس يطبخونه وهذا كله متيسر بالمغرب لكن أغني الله عنه بكثرة اللحم والسمن والزبد والعسل وسوي ذلك وأما الخضر فهي أقل الاشياء ببلاد مصر وأما الفواكه فاكثرها مجلوبة من الشام وأما العنب فاذا كان رخيصا يبيع عندهم ثلاثة ارطال من أرطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثنتا عشرة أوقية وأما بلاد الشام فالفواكه بها كثيرة الا انها ببلاد الغرب ارخص منها ثمنا فان العنب يباع بها بحساب رطل من أرطالهم بدرهم نقرة ورطلهم ثلاثة أرطال مغربية واذا رخص ثمنه يبيع بحساب رطلين بدرهم نقرة والاجاص يباع بحساب عشر أواق بدرهم نقرة وأما الرمان والسفرجل فتباع الحبة منه بثمانية فلوس وهي درهم من درهم المغرب وأما الخضر فيباع بالدرهم النقرة منها أقل مما يباع في بلادنا بالدرهم الصغير وأما اللحم فيباع فيها الرطل منه من أرطالهم بدرهمين ونصف درهم نقرة فاذا تاملت ذلك كله تبين لك ان بلاد المغرب أرخص البلاد أسعارا وأكثرها خيرات وأعظمها مرافق وفوائد ولقد زاد الله بلاد المغرب شرفا الى شرفها وفضلا الى فضلها بامامة مولانا أمير المؤمنين الذي مد ظلال الامن في اقطارها وأطلع شمس العدل في أرجائها وأفاض سحاب الاحسان في باديتها وحاضرتها وطهرها من المفسدين وأقام بها رسوم الدنيا والدين وأنا أذكر ما عاينته وتحققته من عدله وحلمه وشجاعته واشتغاله بالعلم وتفقهه وصدقته الجارية ورفع المظالم

Digitized by Birzeit University Library

أما عدله فاشهر من أن يسطر في كتاب فمن ذلك جلوسه للمشتكين من رعيته وتخصيصه يوم الجمعة للمساكين منهم وتقسيمه ذلك اليوم بين الرجال والنساء وتقديمه النساء لضعفهن فتقرأ قصصهن بعد صلاة الجمعة الى العصر ومن وصلت نوبتها نودي باسمها ووقفت بين يديه الكريمتين يكلمها دون واسطة فان كانت متظلمة عجل انصافها واطالبة احسان وقع اسعافها ثم اذا صليت العصر قرئت قصص الرجال وفعل مثل ذلك فيها ويحضر المجلس الفقهاء والقضاة فيرد اليهم ما تعلق بالاحكام الشرعية وهذا شيء لم أر في الملوك من يفعله على هذا التمام ويظهر فيه مثل هذا العدل فان ملك الهند عين بعض امرائه لاخذ القصص من الناس وتلخيصها ورفعها اليه دون حضور أربابها بين يديه وأما حلمه فقد شاهدت منه العجائب فانه أيده الله عفا عن الكثير ممن تعرض لقتال عساكره والمخالفة عليه وعن أهل الجرائم الكبار التي لا يعفو عن جرائمهم الا من وثق بربه وعلم علم اليقين معنى قوله تعالى والعافين عن الناس قال ابن جزي من أعجب ما شاهدته من حلم مولاه أيده الله اني منذ قدومي على بابه الكريم في آخر عام ثلاثة وخمسين الى هذا العهد وهو أوائل عام سبعة وخمسين لم أشاهد أحدا أمر بقتله الا من قتله الشرع في حد من حدود الله تعالى قصاص او حرابة هذا على اتساع المملكة وانفساح البلاد واختلاف الطوائف ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الاعصار ولا فيما تباعد من الاقطار وأما شجاعته فقد علم ما كان منه في المواطن الكريمة من الثبات والاقدام مثل يوم قتال بني عبد الوادي وغيرهم ولقد سمعت خبر ذلك اليوم ببلاد السودان وذكر ذلك عند سلطانهم فقال هكذا والا فلا قال ابن جزي لم يزل الملوك الاقدمون تتفاخر بقتل الآساد وهزائم الاعادي ومولانا ايده الله كان قتل الاسد عليه أهون من قتل الشاة على الاسد فانه لما خرج الاسد على الجيش بوادي النجارين من المعمورة بحوز سلا وتحامته الابطال وفرت امامه الفرسان والرجال برز اليه مولانا ايده الله غير محتفل به ولا متهيب منه فطعنه بالرمح ما بين عينيه طعنة خر بها صريعا لليدين وللفم واما هزائم الاعادي فانها اتفقت للملوك بثبوت جيوشهم واقدام فرسانهم فيكون حظ الملوك الثبوت والتحريض على القتال وأما مولانا ايده الله فانه اقدم على عدوه منفردا بنفسه الكريمة بعد علمه بفرار الناس وتحققه انه لم يبق معه من يقاتل فعند ذلك وقع الرعب في قلوب الاعداء وانهزموا أمامه فكان من العجائب فرار الامم امام واحد وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والعاقبة للمتقين وما هو الا ثمرة ما يمتن به أعلى مقامه من التوكل على الله والتفويض اليه وأما اشتغاله بالعلم فها هو أيده الله تعالى يعقد

مجالس العلم في كل يوم بعد صلاة الصبح ويحضر لذلك أعلام الفقهاء ونجباء الطلبة بمسجد قصره الكريم فيقرأ بين يديه تفسير القرآن العظيم وحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم وفروع مذهب مالك رضي الله عنه وكتب المتصوفة وفي كل علم منها له القدح المعلى يحلو مشكلاته بنور فهمه ويلقى نكته الرائقة من حفظه وهذا شأن الائمة المهتدين والخلفاء الراشدين ولم أر من ملوك الدنيا من بلغت عنايته بالعلم الى هذه النهاية فقد رأيت ملك الهند يتذاكر بين يديه بعد صلاة الصبح في العلوم المنقولات خاصة ورأيت ملك الجاوة يتذاكر بين يديه بعد صلاة الجمعة في الفروع على مذهب الشافعي خاصة وكنت أعجب من ملازمة ملك تركستان لصلاتي العشاء الاخرة والصبح في الجماعة حتى رأيت ملازمة مولانا أيده الله في الصلوات كلها في الجماعة ولقيام رمضان والله يختص برحمته من يشاء قال ابن جزي لو ان عالما ليس له شغل الا بالعلم ليلا ونهارا لم يكن يصل الى أدنى مراتب مولانا أيده الله في العلوم مع اشتغاله بأمور الامة وتدبيره لسياسة الاقاليم النائية. ومباشرته من حال ملكه مالم يباشره أحد من الملوك ونظره بنفسه في شكايات المظلومين ومع ذلك كله فلا تقع بمجلسه الكريم مسألة علم في أي علم كان إلا جلا مشكلها وباحث في دقائقها واستخرج غوامضها واستدرك على علماء مجلسه ما فاتهم من مغلقاتها ثم سما أيده الله الى العلم الشريف التصوفي ففهم اشارات القوم وتخلق بأخلاقهم وظهرت آثار ذلك في تواضعه مع رفعته وشفقته على رعيته ورفقه في أمره كله واعطي للآداب حظا جزيلا من نفسه فاستعمل أحسنها منزعا وأعظمها موقعا وصارت عنه الرسالة الكريمة والقصيدة اللتان بعثهما الى الروضة الشريفة المقدسة الطاهرة روضة سيد المرسلين وشفيع المذنبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكتبهما بخط يده الذي يخجل الروض حسنا وذلك شيء لم يتعاط أحد من ملوك الزمان إنشاءه ولا رام إدراكه ومن تأمل التوقيعات الصادرة عنه أيده الله تعالى وأحاط علما بمحصولها لاح له فضل ماوهب الله لمولانا من البلاغة التي فطره عليها وجمع له بين الطبيعي والمكتسب منها وأما صدقاته الجارية وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده لاطعام الطعام للوارد والصادر فذلك مالم يفعله أحد من الملوك غير السلطان أتابك أحمد وقد زاد عليه مولانا أيده الله بالتصدق على المساكين بالطعام كل يوم والتصدق بالزرع على المتسترين من أهل البيوت قال ابن جزي اخترع مولانا أيده الله في الكرم والصدقات امورا لم تخطر في الاوهام ولا اهتدت اليها السلاطين فمنها اجراء الصدقات على المساكين بكل بلد من بلاده على الدوام ومنها تعيين الصدقة الوافرة للمسجونين في جميع البلاد أيضا ومنها

Digitized by Birzeit University Library

كون تلك الصدقات خبزا مخبوزا متيسرا للانتفاع به ومنها كسوة المساكين والضعفاء والعجائز والمشايخ والملازمين للمساجد بجميع بلاده ومنها تعيين الضحايا لهؤلاء الاصناف في عيد الاضحى ومنها التصدق بما يجتمع في مجابي ابواب بلاده يوم سبعة وعشرين من رمضان اكراما لذلك اليوم الكريم وقياما بحقه ومنها اطعام الناس في جميع البلاد ليلة المولد الكريم واجتماعهم لاقامة رسمه ومنها اعذار اليتامى من الصبيان وكسوتهم يوم عاشوراء ومنها صدقته على الزمنى والضعفاء بأزواج الحرث يقيمون بها أودهم ومنها صدقته على المساكين بحضرته بالطنافس الوثيرة والقطائف الجياد يفترشونها عند ردقادهم وتلك مكرمة لا يعلم لها نظير ومنها بناء المرستانات في كل بلد من بلاده وتعيين الأوقاف الكثيرة لمؤن المرضى وتعيين الاطباء لمعالجتهم والتصرف في طبهم الى غير ذلك مما ابدع فيه من انواع المكارم وضروب المآثر كافا الله أياديه وشكر نعمه وأما رقعه للمظالم عن الرعية فمنها الرتب التي كانت تؤخذ بالطرقات أمر ايده الله بمحو رسمها وكان لها مجبى عظيم فلم يلتفت اليه وما عند الله خير وأبقى وأما كفه أيدي الظلام فأمر مشهور وقد سمعته أيده الله يقول لعماله لا تظلموا الرعية ويؤكد عليهم في تلك الوصية قال ابن جزي ولو لم يكن من رفق مولانا ايده الله برعيته الا رفعه التضييف الذي كانت عمال الزكاة وولاة البلاد تأخذه من الرعايا لكفى ذلك اثرا في العدل ظاهرا ونورا في الرفق باهرا فكيف وقد رفع من المظالم وبسط من المرافق ما لا يحيط به الحصر وقد صدر في أيام تصنيف هذا من أمره الكريم في الرفق بالمسجونين ورفع الوظائف الثقيلة التي كانت تؤخذ منهم ما هو اللائق باحسانه والمعهود من رافته وشمل الامر بذلك جميع الاقطار وكذلك صدر من التنكيل بمن ثبت جوره من القضاة والحكام ما فيه زجر الظلمة وردع المعتدين واما فعله في معاونة أهل الاندلس على الجهاد ومحافظته على امداد الثغور بالاموال والاقوات والسلاح وفته في عضد العدو باعداد العدد واظهار القوة فذلك امر شهير لم يغب علمه عن اهل المغرب والمشرق ولا سبق اليه احد من الملوك قال ابن جزي حسب المتشوف الى علم ما عند مولانا ايده الله من سداد القطر للمسلمين ودفاع القوم الكافرين ما فعله في فداء مدينة طرابلس افريقية فانها لما استولى العدو عليها ومديد العدوان اليها ورأى أيده الله ان بعث الجيوش الى نصرتها لا يتأتى لبعد الاقطار كتب الى خدامه ببلاد افريقية ان يفدوها بالمال ففديت بخمسين ألف دينار من الذهب العين فلما بلغه خبر ذلك قال الحمد لله الذي استرجعها من ايدي الكفار بهذا النزر اليسير وامر للحين ببعث ذلك العدد الى افريقية وعادت المدينة الى

Digitized by Birzeit University Library

الاسلام على يده ولم يخطر فى الاوهام ان أحدا تكون عنده خمسة قناطير من الذهب نزرا يسيرا حتى جاء بها مولانا ايده الله مكرمة بعيدة ومأثرة فائقة قل فى الملوك امثالها وعز عليهم مثالها ومما شاع من أفعال مولانا أيده الله فى الجهاد انشاؤه الاجفان بجميع السواحل واستكثاره من عدد البحر وهذا فى زمان الصلح والمهادنة اعدادا لأيام الغزاة وأخذ بالحزم فى قطع اطماع الكفار وأكد ذلك بتوجهه أيده الله بنفسه الى جبال جاناته فى العام الفارط ليباشر قطع الخشب للانشاء ويظهر قدر ماله بذلك من الاعتناء ويتولى بذاته اعمال الجهاد مترجيا ثواب الله تعالى وموقنا بحسن الجزاء (رجع) ومن أعظم حسناته ايده الله عمارة المسجد الجديد بالمدينة البيضاء دار ملكه العلى وهو الذى امتاز بالحسن واتقان البناء واشراق النور وبديع الترتيب وعمارة المدرسة الكبرى بالموضع المعروف بالقصر مما يجاور قصبة فاس ولا نظير لها فى المعمورة اتساعا وحسنا وابداعا وكثرة ماء وحسن وضع ولم أر فى مدارس الشام ومصر والعراق وخراسان ما يشبهها وعمارة الزاوية العظمى على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء فلا مثل لها أيضا فى عجب وضعها وبديع صنعها وأبدع زاوية رأيتها بالشرق زاوية سرياقوص (سرياقوس) التى بناها الملك الناصر وهذه أبدع منها وأشد إحكاما واتقانا والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة ويكافى فضائله المنيفة ويديم للاسلام والمسلمين ايامه وينصر ألويته المظفرة واعلامه ولنعد الى ذكر الرحلة فنقول ولما حصلت لى مشاهدة هذا المقام الكريم وعمني فضل احسانه العميم قصدت زيارة قبر الوالدة فوصلت الى بلدة طنجة وزرتها وتوجهت الى مدينة سبتة فاقمت بها اشهرا واصابني بها المرض ثلاثة أشهر ثم عافاني الله فاردت ان يكون لى حظ من الجهاد والرباط فركبت البحر من سبتة فى شطى لأهل اصيلا فوصلت الى بلاد الاندلس حرسها الله تعالى حيث الاجر موفور للساكن والثواب مذخور للمقيم والظاعن وكان ذلك إثر موت طاغية الروم الفونس وحصاره الجبل عشرة أشهر وظنه انه يستولى على ما بقى من بلاد الاندلس للمسلمين فاخذه الله من حيث لم يحتسب ومات بالوباء الذى كان أشد الناس خوفا منه واول بلد شاهدته من البلاد الاندلسية جبل الفتح فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندى وقاضيه عيسى البربرى وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن رضي الله عنه وأعد فيه من العدد ومازدا على ذلك مولانا أيده الله ووددت أن لو كنت ممن رابط به الى نهاية العمر قال ابن جزى جبل الفتح هو معقل الاسلام المعترض شجي فى حلوق

عبدة الاصنام حسنة مولانا ابي الحسن رضي الله عنه المنسوبة اليه وقربته التي قدمها نورا بين يديه محل عدد الجهاد ومقر آساد الاجناد والثغر الذي افترعن نصر الايمان واذاق أهل الاندلس بعد مرارة الخوف حلاوة الأمان ومنه كان مبدأ الفتح الاكبر وبه نزل طارق بن زياد مولى موسى بن نصير عند جوازه فنسب اليه فيقال له جبل طارق وجبل الفتح لان مبدأه كان منه وبقايا السور الذي بناه ومن معه باقية الى الآن تسمى بسور العرب شاهدتها ايام اقامتي به عند حصار الجزيرة اعادها الله ثم فتحه مولانا أبو الحسن رضوان الله عليه واسترجعه من أيدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنة ونيفا وبعث الى حصاره ولده الامير الجليل أبا مالك وأيده بالاموال الطائلة والعساكر الجرارة وكان فتحه بعد حصار ستة أشهر وذلك في عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه فبني به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه المآثر العظمي باعلى الحصن وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم باحجار المجانيق فبناها مكانه وبني به دار الصناعة ولم يكن به دار صنعة وبني السور الاعظم المحيط بالتربة الحمراء الآخذ من دار الصنعة الى القرمدة ثم جدد مولانا أمير المؤمنين أبو عنان أيده الله عهد تحصينه وتحسينه وزاد بها بناء السور بطرف الفتح وهو أعظم أسواره غناء وأعمها نفعا وبعث اليه العدد الوافرة والاقوات والمرافق العامة وعامل الله تعالى فيه بحسن النية وصدق الاخلاص ولما كان في الاشهر الاخيرة من عام ستة وخمسين وقع بجبل الفتح ما ظهر فيه أثر يقين مولانا أيده الله وثمرة توكله في أموره على الله وبان مصداق ما اطرد له من السعادة الكافية وذلك ان عامل الجبل الخائن الذي ختم له بالشقاء عيسى بن الحسن بن أبي منديل نزع يده المغلولة عن الطاعة وفارق عصمة الجماعة وأظهر النفاق وجمح في الغدر والشقاق وتعاطى ما ليس من رجاله وعمي عن مبدأ حاله السيء وماله وتوهم الناس ان ذلك مبدأ فتنة تنفق على اطفائها كرائم الاموال ويستعد لانقائها بالفرسان والرجال فحكمت سعادة مولانا ايده الله ببطلان هذا التوهم وقضى صدق يقينه بانخراق العادة في هذه الفتنة فلم تكن الا أيام يسيرة وراجع أهل الجبل بصائرهم وثاروا على الثائر وخالفوا الشقي المخالف وقاموا بالواجب من الطاعة وقبضوا عليه وعلى ولده المساعد له في النفاق وأتي بهما مصفدين الى الحضرة العلية فنفذ فيهما حكم الله في المحاربين وارا ح الله من شرهما ولما خمدت نار الفتنة اظهر مولانا أيده الله من العناية ببلاد الاندلس ما لم يكن في حساب أهلها وبعث الى جبل الفتح ولده الاسعد المبارك الارشد ابا بكر المدعو من السماة السلطانية بالسعيد اسعده الله تعالى وبعث معه

انجاد الفرسان ووجوه القبائل وكفاة الرجال وأدر عليهم الارزاق ووسع لهم الاقطاع وحرر بلادهم من المغارم وبذل لهم جزيل الاحسان وبلغ من اهتمامه بامور الجبل أن أمر أيده الله ببناء شكل يشبه شكل الجبل المذكور فمثل فيه أشكال اسواره وابراجه وحصنه وابوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصنع ذلك بالمشور السعيد فكان شكلا عجيبا أتقنه الصناع اتقانا يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال وماذلك الا لتشوقه أيده الى استطلاع أحواله وتهممه بتحصينه واعداده والله تعالى يجعل نصر الاسلام بالجزيرة الغربية على يديه ويحقق ما يؤمله في فتح بلاد الكفار وشت شمل عباد الصليب وتذكرت حين هذا التقييد قول الاديب البليغ المفلق أبي عبد الله محمد بن غالب الرصافي البلنسي رحمه الله في وصف هذا الجبل المبارك من قصيدته الشهيرة في مدح عبد المؤمن بن علي التي أولها (بسيط)

لوجئت نار الهدى من جانب الطور * قبست ماشئت من علم ومن نور

وفيها يقول في وصف الجبل وهو من البديع الذي لم يسبق اليه بعد وصفه السفن وجوازها

حتي رمت جبل الفتحين من جبل * معظم القدر في الاجبال مذكور
من شامخ الانف في سحنائه طلس * له من الغيم جيب غير مزرور
تمسي النجوم على تكليل مفرقه * في الجو خاتمه مثل الدنانير
فربما مسحته من ذوائبها * بكل فضل على فوديه مجرور
وادرد من ثناياه بما أخذت * منه معاجم أعواد الدهاريز
محنك حلب الايام أشطرها * وساقها سوق حادي العير للعير
مقيد الخطو جوال الخواطر في * عجيب امريه من ماض ومنظور
قد واصل الصمت والاطراق مفتكرا * بادي السكينة معفر الاسارير
كانه مكمد مما تعبده * خوف الوعيد بن من دك وتسيير
اخلق به وجبال الارض راجفة * أن يطمئن غدا من كل محذور

ثم استمر في قصيدته على مدح عبد المؤمن بن علي قال ابن جزي ولنعد الى كلام الشيخ أبي عبد الله قال ثم خرجت من جبل الفتح الى مدينة رندة وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجلها وضعا وكان قائدها اذ ذاك الشيخ ابو الربيع سليمان بن داود العسكري وقاضيها ابن عمي الفقيه ابو القاسم محمد بن يحيى بن بطوطه ولقيت بها الفقيه القاضي الاديب أبا الحجاج يوسف بن موسى المنتشاقري واضافني بمنزله ولقيت بها أيضا خطيبها الصالح الحاج الفاضل أبا اسحاق

Digitized by Birzeit University Library

أبراهيم المعروف بالشندرخ المتوفى بعد ذلك بمدينة سلا من بلاد المغرب ولقيت بها جماعة من الصالحين منهم عبد الله الصغار وسواه وأقمت بها خمسة ايام ثم سافرت منها الى مدينة مربلة والطريق فيما بينهما صعب شديد الوعورة ومربلة بليدة حسنة خصبة ووجدت بها جماعة من الفرسان متوجهين الى مالقة فاردت التوجه فى صحبتهم ثم ان الله تعالى عصمني بفضله فتوجهوا قبلي فاسروا فى الطريق كما سنذكره وخرجت فى اثرهم فلما جاوزت حوز مربلة ودخلت فى حوز سهيل مررت بفرس ميت فى بعض الخنادق ثم مررت بقفة حوت مطروحة بالارض فرايتني ذلك وكان امامى برج الناظور فقلت فى نفسى لوظهرها هنا عدو لانذر به صاحب البرج ثم تقدمت الى دار هنالك فوجدت عليه فرسا مقتولا فبينما انا هنالك اذ سمعت الصياح من خلفي وكنت قد تقدمت اصحابي فعدت اليهم فوجدت معهم قائد حصن سهيل فاعلمني ان اربعة اجفان للعدو ظهرت هنالك ونزل بعض عمارتها الى البر ولم يكن الناظور بالبرج فمر بهم الفرسان الخارجون من مربلة وكانوا اثني عشر فقتل النصاري أحدهم وفر واحد واسر العشرة وقتل معهم رجل حوات وهو الذى وجدت قفته مطروحة بالارض واشار على ذلك القائد بالمبيت معه فى موضعه ليوصلني منه الى مالقة فبت عنده بحصن الرابط المنسوبة الى سهيل والاجفان المذكورة مرساة عليه وركب معى بالغد فوصلنا الى مدينة مالقة احدى قواعد الاندلس وبلادها الحسان جامعة بين مرافق البر والبحر كثيرة الخيرات والفواكه رايت العنب يباع في اسواقها بحساب ثمانية ارطال بدرهم صغير ورمانها المرسى الياقوتي لانظيره فى الدنيا واما التين واللوز فيجلبان منها ومن احوازها الى بلاد المشرق والمغرب قال ابن جزى والى ذلك اشار الخطيب ابو محمد عبد الوهاب بن على المالقي فى قوله وهو من مليح التجنيس (سريع)

مالقة حييت يا تينها * فالفلك من اجلك يا تينها
نهى طبيبي عنك فى علة * ما لطبيبي عن حياتي نها

وذيلها قاضي الجماعة ابو عبد الله بن عبد الملك بقوله فى قصد الجانسة (سريع)

وحمص لاتنس لها تينها * واذكر مع التين زيا تينها

(رجع) وبمالقة يصنع الفخار المذهب العجيب ويجلب منها الى أقاصي البلاد ومسجدها كبير الساحة شهير البركة وصحنه لا نظيره فى الحسن فيه اشجار النارنج البعيدة ولما دخلت مالقة وجدت قاضيها الخطيب الفاضل اباعبد الله ابن خطيبها الفاضل ابي جعفر بن خطيبها ولى الله تعالى ابى عبد الله الطنجالى قاعدا بالجامع الاعظم ومعه الفقهاء ووجوه الناس يجمعون مالا

Digitized by Birzeit University Library

برسم فداء الاساري الذى تقدم ذكرهم فقلت له الحمد لله الذي عافاني ولم يجعلني منهم وأخبرته بما اتفق لى بعدهم فعجب من ذلك وبعث الى بالضيافة رحمه الله وأضافني أيضا خطيبها أبو عبد الله الساحلى المعروف بالمعمم ثم سافرت منها الى مدينة بلش وبينهما اربعة وعشرون ميلا وهي مدينة حسنة بها مسجد عجيب وفيها الاعناب والفواكه والتين كمثل ما بالقة ثم سافرنا منها الى الحمة وهى بلدة صغيرة لها مسجد بديع الوضع عجيب البناء وبها العين الحارة على ضفة واد بها وبينها وبين البلد ميل أو نحوه وهنالك بيت لاستحمام الرجال وبيت لاستحمام النساء ثم سافرت منها الى مدينة غرناطة قاعدة بلاد الاندلس وعروس مدنها وخارجها لا نظير له فى بلاد الدنيا وهو مسيرة اربعين ميلا يخترقه نهر شنيل المشهور وسواه من الانهار الكثيرة والبساتين والجنان والرياضات والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياض والبساتين لا مثل لها بسواها قال ابن جزى لولا خشيت ان أنسب الى العصبية لاطلت القول فى وصف غرناطة فقد وجدت مكانه ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لاطالة القول فيه ولله در شيخنا أبي بكر محمد بن أحمد بن شبرين البستى نزيل غرناطة حيث يقول (طويل)

رعى الله من غرناطة متبوأ * يسر حزينا أو يحير طريدا
تبرم منها صاحبي عند ما رأى * مسارحها بالثلج عدن جليدا
هى الثغر صان الله من أهلت به * وما خير ثغر لا يكون برودا

— رجع ذكر سلطانها —

وكان ملك غرناطة فى عهد دخولى اليها السلطان أبو الحجاج يوسف بن السلطان أبى الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر ولم ألقه بسبب مرض كان به وبعثت الى والدته الحرة الصالحة الفاضلة بدنانير فذهب ارتفقت بها ولقيت بغرناطة جملة من فضلائها منهم قاضى الجماعة بها الشريف البليغ ابو القاسم محمد بن احمد بن محمد الحسينى السبتي ومنهم فقيهها المدرس الخطيب العالم ابو عبد الله محمد بن ابراهيم البيانى ومنهم عالمها ومقرئها الخطيب ابو سعيد فرج بن قاسم الشهير بابن لب ومنهم قاضي الجماعة نادرة العصر وطرفة الدهر ابو البركات محمد بن محمد بن ابراهيم السلمى البلعبى قدم عليها من المرية فى تلك الايام فوقع الاجتماع به فى بستان الفقيه ابو القاسم محمد ابن الفقيه الكاتب الجليل ابى عبد الله بن عاصم وأقمنا هنالك يومين وليلة قال ابن جزي كنت معهم فى ذلك البستان ومتعنا الشيخ ابو عبد الله باخبار رحلته وقيدت عنه اسماء الاعلام الذين لقيهم فيها واستفدنا منه الفوائد العجيبة وكان معنا جملة من

وجوه أهل غرناطة منهم الشاعر المجيد الغريب الشان أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم الجذامي وهذا الفتى أمره عجيب فانه نشأ بالبادية ولم يطلب العلم ولا مارس الطلبة ثم انه نبغ بالشعر الجيد الذي يندر وقوعه من كبار البلغاء وصدور الطلبة مثل قوله (رمل)

يامن اختار فؤادي منزلا * بابه العين التي ترمقه
فتح الباب سهادي بعدكم * فابعثوا طيفكم يغلقه

(رجع) ولقيت بغرناطة شيخ الشيوخ والمتصوفين بها الفقيه أبا على عمر بن الشيخ الصالح الولي ابي عبد الله محمد بن المحروق وأقمت أياما بزاويته التي بخارج غرناطة وأكرمني أشد الاكرام وتوجهت معه الى زيارة الزاوية الشهيرة البركة المعروفة برابطة العقاب والعقاب جبل مطل على خارج غرناطة وبينهما نحو ثمانية أميال وهو مجاور لمدينة الحمرة الحربية ولقيت أيضا ابن اخيه الفقيه أبا الحسن على بن احمد بن المحروق بزاويته المنسوبة للجام باعلى ربض نجد من خارج غرناطة المتصل بجبل السبيكة وهو شيخ المتسببين من الفقراء و بغرناطة جملة من فقراء العجم استوطنوها أشبهها ببلادهم منهم الحاج ابو عبد الله السمرقندي والحاج احمد التبريزي والحاج ابراهيم القونوى والحاج حسين الخراساني والحاجان على ورشيد الهنديان وسواهم ثم رحلت من غرناطة الى الحمة ثم الى باش ثم الى مالقة ثم الى حصن ذكوان وهو حصن حسن كثير المياه والاشجار والفواكه ثم سافرت منه الى رندة ثم الى قرية بني رياح فانزلني شيخنا ابو الحسن على سليمان الرياحي وهو احد كرماء الرجال وفضلاء الاعيان يطم الصادر والوارد وأضافني ضيافة حسنة ثم سافرت الى جبل الفتح وركبت البحر في الجفن الذي جزت فيه اولا وهو لاهل اصيلا فوصلت الى سبتة وكان قائدها اذ ذاك الشيخ ابو مهدى عيسى بن سليمان بن منصور وقاضيها الفقيه ابو محمد الزجندري ثم سافرت منها الى اصيلا واقمت بها شهورا ثم سافرت منها الى مدينة سلا ثم سافرت من سلا فوصلت الى مدينة مراكش وهي من اجمل المدن فسيحة الارجاء متسعة الاقطار كثيرة الخيرات بها المساجد الضخمة كمسجدها الاعظم المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة الهائلة العجيبة صعدتها وظهر لي جميع البلد منها وقد استولى عليه الخراب فما شبهته الا ببغداد الان أسواق بغداد احسن وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع واتقان الصنعة وهي من بناء الامام مولانا امير المسلمين ابي الحسن رضوان الله عليه قال ابن جزي في مراكش يقول قاضيها التاريخي ابو عبد الله محمد بن عبد الملك الاوسي (بسيط)

لله مراكش الغراء من بلد * وحبذا اهلها السادات من سكن

ان حلها نازح الاوطان مغترب * أسلوه بالانس عن أهل وعن وطن
بين الحديث بها أو العيان لها * ينشا التحاسد بين العين والاذن

— رجع — ثم سافرنا من مراكش صحبة الركاب العلي ركاب مولانا أيده الله فوصلنا الى مدينة سلا ثم الى مدينة مكناسة العجيبة الخضر النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها ثم وصلنا الى حضرة فاس حرسها الله تعالى فوادعت بها مولانا أيده الله وتوجهت برسم السفر الى بلاد السودان فوصلت الى مدينة سجلماسة وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر لكن تمر سجلماسة أطيب وصنف ايرار منه لا نظير له في البلاد ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فيا شد ما تباعد افاكرمني غاية الاكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين في رفقة مقدمها أبو محمد يندكان المسوفي رحمه الله وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما الى تغازى وضبط اسمها (بفتح التاء المثناة والغين المعجم والف وزاي مفتوح) أيضا وهي قرية لا خير فيها ومن عجائبها ان بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها انما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الارض فيوجد منه الواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الارض يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها الا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب اليهم من تمر درعة وسجلماسة ومن لحوم الجمال ومن البان المجلوب من بلاد السودان ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بايوالان بعشرة مثاقيل الى ثمانية وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا الى عشرين وربما انتهي الى أربعين مثقالا وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتابعون به وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر وأقمنا بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذبابا ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشرة لا ماء فيها الا في النادر ووجدنا نحن بها ماء كثيرا في غدران أبقاها المطر ولقد وجدنا في بعض الايام غديرا بين تلين من حجارة ماؤه عذب فتروينا منه وغسلنا ثيابنا والكلأ بتلك الصحراء كثير ويكثر القمل بها حتى يجعل الناس في اعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتلها وكنا في تلك الايام نتقدم امام القافلة فاذا وجدنا مكانا يصلح للرعي رعينا الدواب به ولم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيري فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت وكان ابن زيري وقعت بينه وبين ابن خاله

و يعرف بابن عدى منازعة و مشاتمة فتأخر عن الرفقه فضل فلما نزل الناس لم يظهر له خبر فاشرت على ابن خاله بان يكترى من مسوفة من يقص أثره اعله يجده فابى و انتدب فى اليوم الثانى رجل من مسوفة دون أجرة لطلبه فوجد أثره و هو يسلك الجادة طورا و يخرج عنها تارة و لم يقع له على خبر و لقد اقمنا قافلة فى طريقنا فاخبرونا ان بعض رجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل و عليه ثيابه و فى يده سوط و كان الماء على نحو ميل منه ثم وصلنا الى تاسرهلا (بفتح التاء المثناة و السين المهمل و الراء و سكون الهاء) وهي احساء ماء تنزل القوافل عليها و يقيمون ثلاثة أيام فيستريحون و يصلحون سقيتهم و يملؤونها بالماء و يخيطون عليها التلاليس خوف الريح و من هنالك يبعث التكشيف

— ذكر التكشيف —

والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه اهل القافلة فيتقدم الى ايو الاتن يكتب الناس الى اصحابهم بها ليكتروا لهم الدور و يخرجون للقائهم بالماء مسيرة اربع و من لم يكن له صاحب بايو الاتن كتب الى من شهر با لفضل من التجار بها فيشاركه فى ذلك و ربما هلك التكشيف فى هذه الصحراء فلا يعلم اهل ايو الاتن بالقافلة فيهلك اهلها او الكثير منهم و تلك الصحراء كثيرة الشياطين فان كان التكشيف منفردا لعبت به و استهوته حتى يضل عن قصده فيهلك اذا لطريق يظهر بها ولا أثر انما هي رمال تسفيها الريح فترى جبالا من الرمل فى مكان ثم تراها قد انتقلت الى سواه و الدليل هنالك من كثر تردده و كان له قلب ذكى و رأيت من العجائب ان الدليل الذى كان لنا هو اعور العين الواحدة مريض الثانية وهو اعرف الناس بالطريق و اكترينا التكشيف فى هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها و تطيب النفس وهي آمنة من السراق و البقر الوحشية بها كثيرا تأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب و النشاب لكن لحمها لا يولد أكله العطش فيتحاماه كثير من الناس لذلك و من العجائب ان هذه البقر اذا قتلت و جد فى كروشها الماء و لقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها و يشربون الماء الذى فيه و الحيات أيضا بهذه الصحراء كثيرة

— حكاية —

وكان فى القافلة تاجر لمسانى يعرف بالحاج زيان و من عادته ان يقبض على الحيات و يعبث بها و كنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهي فلما كان ذات يوم أدخل يده فى جحر ضب ليخرجه فوجد مكانه حية فاخذها بيده و اراد الركوب فلسعته فى سبابته اليمنى و اصابه وجع شديد فكويت

يده وزاد أله عشى النهار فنحر جملا وأدخل يده فى كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم أصبعه فقطعها من الاصل وأخبرنا أهل مسوفة ان تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه ولو لم تكن شربت لقتلته ولما وصل الينا الذين استقبلونا بالماء شربت خيلنا ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتى عهدنا وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسرى الليل كله وننزل عند الصباح وتاتي الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم باحمال الماء للبيع ثم وصلنا الى مدينة أبوالاتن فى غرة شهر ربيع الاول بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة وهي أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسين وفربا بفتح الفاء وسكون الراء وفتح الباء الموحدة ومعناه النائب ولما وصلنا ها جعل التجار امتعتهم فى رحبة وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا الى الفربا وهو جالس على بساط في سقيف واعوانه بين يديه بايديهم الرماح والقسي وكبراء مسوفة من ورائه ووقف التجار بين يديه وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقارا لهم فعند ذلك ندمت على قدومى بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للابيض وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من أهل سلا كنت كتبت له ان يكترى لى دارا ففعل ذلك ثم ان مشرف ابوالاتن ويسمي منشاجوا (بفتح الميم وسكون النون وفتح الشين المعجم والف وجيم مضموم وواو) استدعى من جاء فى القافلة الى ضيافته فابيت من حضور ذلك فعزم الاصحاب على أشد العزم فتوجهت فيمن توجه ثم أتى بالضيافة وهى جريش انلي مخلوطا بيسير عسل ولبن قد وضعوه فى نصف قرعة صيروه شبه الجفنة فشرب الحاضرون وانصرفوا فقلت لهم أهذا دعاء الأسود قالوا نعم وهو الضيافة الكبيرة عندهم فايقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم واردت ان أسافر مع حجاج ابوالاتن ثم ظهر لى ان اتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم وكانت اقامتى بابوالاتن نحو خمسين يوما واكرمني اهلها واضافونى منهم قاضيها محمد بن عبدالله بن ينومر واخوه الفقيه المدرس يحيى وبلدة ابوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزدرعون فى ظلالها البطيخ ومأؤهم من احساء بها ولحم الضان كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها من مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهي اعظم شانا من الرجال

— ذكر مسوفة الساكنين بابوالاتن —

وشان هؤلاء القوم عجيب وامرهم غريب فامار جالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم الى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل الا أبناء أخته دون بنيه وذلك شيء مارأيته فى الدنيا الا عند كفار بلاد المليبار من الهنود واما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات

Digitized by Birzeit University Library

وتعلم الفقه وحفظ القرآن واما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ومن أراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت احداهن ذلك لمنعها اهلها والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والاصحاب من الرجال الاجانب وكذلك للرجال صواحب من النساء الاجنبيات ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك

— حكاية —

دخلت يوما على القاضي ابو الاتن بعد اذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن فلما رأيتها ارتبت واردت الرجوع فضحكت مني ولم يدركها خجل وقال لي القاضي لم ترجع انها صاحبتي فعجبت من شانهما فانه من الفقهاء الحجاج واخبرت انه استاذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته لا أدري أهي هذه أم لا فلم ياذن له

— حكاية نحو ها —

دخلت يوما على ابي محمد يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد وهما يتحدثان فقلت له ماهذه المرأة فقال هي زوجتي فقلت وما الرجل الذي معها فقال هو صاحبها فقلت له أترضى بهذا وانت قد سكنت بلادنا وعرفت امور الشرع فقال لي مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم فعجبت من رعونته وانصرفت عنه فلم اعد اليه بعدها واستدعاني مرات فلم اجبه ولما عزمت على السفر الى مالي وبينها وبين ايو الاتن مسيرة اربعة وعشرين يوما لم اجدا كتريت دليلا من مسوفة اذ لا حاجة الى السفر في رفقة لامن تلك الطريق وخرجت في ثلاثة من اصحابي وتلك الطريق كثيرة الاشجار وأشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة بظل الشجرة منها وبعضها لا اغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الانسان وبعض تلك الاشجار قد استاسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكانها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها ويكون في بعضها النحل والعسل فيشتاره الناس منها ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلا حائكا قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه قال ابن جزي ببلاد الاندلس شجرتين من شجر القسطل في جوف كل واحدة منهما حائك ينسج الثياب احداهما بسند وادي آش والاخرى ببشارة غرناطة (رجع) وفي أشجار هذه الغابة التي بين ايو الاتن ومالي ما يشبه ثمرة الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها وفيها اشجار تثمر شبه الفقوس فاذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالاسواق ويستخرجون من هذه الارض حبات

كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمص المقلو وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الاسفنج وقلوه بالغرتى والغرتى (بفتح الغين المعجم وسكون الراء وكسر التاء المثناة) وهو نمر كالاجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان اذا أكلوه ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها انهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلدا الى بلد فى قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشا حسنا واذا سافر احدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها وهى من القرع والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زادا ولا اداما ولا دينارا ولا درهما انما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذى يسميه الناس النظم وبعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت وهو بخورهم فاذا وصل قرية جاء نساء السودان بالنبق واللبن والدجاج ودقيق النبق والارز والفوني وهو كحب الخردل يصنع من الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبيا فيشتري منهن ما احب من ذلك الا ان الارز يضر أكله بالبيضان والفوني خير منه وبعد مسيرة عشرة ايام من ابوالاتن وصلنا الى قرية زاغرى (وضبطها بفتح الزاى والغين المعجم وكسر الراء) وهى قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجرانة (بفتح الواو وسكون النون وفتح الجيم والراء والف وتاء مثناة وتاء تانيث) ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الاباضية من الخوارج ويسمون صغنغو (بفتح الصاد المهمل والغين المعجم الاول والنون وضم الغين الثاني وواو) والسنيون الملكيون من البيض يسمون عندهم توري (بضم التاء المثناة وواو وراء مكسورة) ومن هذه القرية يجلب انلى الى ابوالاتن ثم سرنا من زاغري فوصلنا الى النهر الاعظم وهو النيل وعليه بلدة كارسخوا (بفتح الكاف وسكون الراء وفتح السين المهمل وضم الخاء المعجم وواو) والنيل ينحدر منها الى كابرة (بفتح الباء الموحدة والراء) ثم الى زاغة (بفتح الزاي والغين المعجم) ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالى وأهل زاغة قدماء فى الاسلام لهم ديانة وطلب للعلم ثم ينحدر النيل من زاغة الى تنبكتو ثم الى كوكو وسنذكرها ثم الى بلدة مولى (بضم الميم وكسر اللام) من بلاد الليميين وهي آخر عمالة مالى ثم الى يوفى واسمها (بضم الياء آخر الحروف وواو وفاء مكسورة) وهى من اكبر بلاد السودان وسلطانها من اعظم سلاطينهم ولا يدخلها الابيض من الناس لانهم يقتلونه قبل الوصول اليها ثم ينحدر

Digitized by Birzeit University Library

الى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم الى دنقلة وهي اكبر بلادهم (وضبطها بضم الدال والقاف وسكون النون بينهما وفتح اللام) وسلطانها يدعى بابن كنز الدين اسلم على ايام الملك الناصر ثم ينحدر الى جنادل وهي آخر عمالة السودان واول عمالة اسوان من صعيد مصر ورايت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كانه قارب صغير ولقد نزلت يوما الى النيل لقضاء حاجة فاذا باحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر فعجبت من سوء ادبه وقلة حيائه وذكرت ذلك لبعض الناس فقال انما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح لحائل بينك وبينه ثم سرنا من كاسخو فوصلنا الى نهر صنصرة (بفتح الصادين المهملين والراء وسكون النون) وهو على نحو عشرة اميال من مالى وعادتهم ان يمنع الناس من دخولها الا بالاذن وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولى وشمس الدين بن النقويش المصرى ليكتروا لى دارا فلما وصلت الى النهر المذكور جزت في المعدية ولم يمنعني احد فوصلت الى مدينة مالى حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ووصلت الى محلة البيضان وقصدت محمد بن الفقيه فوجدته قد اكترى لى دارا ازاء داره فتوجهت اليها وجاء صهره الفقيه المقرى عبد الواحد بشمعة وطعام ثم جاء بن الفقيه الى من الغد وشمس الدين بن النقويش وعلى الزودى المراكشى وهو من الطلبة ولقيت القاضى بمالى عبد الرحمن جاءنى وهو من السودان حاج فاضل له مكارم أخلاق بعث الى بقرة فى ضيافته ولقيت الترجمان دوغا (بضم الدال واو وغين معجم) وهو من أفاضل السودان وكبارهم وبعث الى بثور وبعث الى الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفونى وقرعة من الغرتى وبعث الى ابن الفقيه الارز والفونى وبعث الى شمس الدين بضيافة وقاموا بحقي أتم قيام شكر الله حسن افعالهم وكان ابن الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره وا كلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس يسمى القافى (بقاف والف وفاء) وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام فما صبحنا جميعا مرضى وكناستة فمات أحدنا وذهبت انا لصلاة الصبح فغشى على فيها وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا فاتى بشيء يسمى بيدر (بفتح الباء الموحدة وتسكين الياء) آخر الحروف وفتح الدال المهمل وراء وهو عروق نبات وخلطه بالانيسون والسكر ولته بالماء فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة وعافاني الله من الهلاك ولكني مرضت شهرين

— ذكر سلطان مالى —

وهو السلطان منسى سليمان ومنسي (بفتح الميم وسكون النون وفتح السين المهمل) ومعناه

السلطان وسليمان اسمه وهو ملك بخيل لا يرجي منه كبير عطاء واتفق انى أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي ثم صنع طعاما برسم غداء مولانا ابي الحسن رضى الله عنه واستدعى الامراء والفقهاء والقاضي والخطيب وحضرت معهم فاتوا بالربعات وختم القرآن ودعوا لمولانا أبي الحسن رحمه الله ودعوا لمنسى سليمان ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسي سليمان واعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي فاجابهم بلسانهم فقالوا لي يقول لك السلطان اشكر الله فقلت الحمد لله والشكر على كل حال

— ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها —

ولما انصرفت بعث الى الضيافة فوجهت الى دار القاضي وبعث القاضي بهامع رجاله الى دار ابن الفقيه فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافي القدمين فدخل علي وقال قم قد جاءك قماش السلطان وهديته فقمت وظننت انها الخلع والاموال فاذا هي ثلاثة اقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلوبا لغرتي وقرعة فيها لبن رائب فعند ما رايتها ضحكت وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم للشيء الحقير

— ذكر كلامي للسلطان بعد ذلك واحسانه الى —

واقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل الى فيهما شيء من قبل السلطان ودخل شهر رمضان وكنت خلال ذلك اتردد الى المشور واسلم عليه وأقعد مع القاضي والخطيب فتكلمت مع دوغا الترجمان فقال تكلم عنده وانا أعبر عنك بما يجب فجلس في اوائل رمضان وقمت بين يديه وقلت له اني سافرت بلاد الدنيا ولقيت ملوكها ولي ببلادك منذ اربعة أشهر ولم تضفني ولا أعطيتني شيئا فماذا أقول عنك عند السلاطين فقال انى لم أرك ولا علمت بك فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه وقالا انه قد سلم عليك وبعثت اليه الطعام فامر لي عند ذلك بدار انزل بها ونفقة تجرى علي ثم فرق على القاضي والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا واحسن الى عند سفري بمائة مثقال ذهبا

— ذكر جلوسه بقبته —

وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها أكثر الاوقات ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغشاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب اوهي فضة مذهبة وعليها ستور ملف فاذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم انه يجلس فاذا جلس أخرج من شباك احدى الطاقات شرابة حرير قدر بط فيها منديل مصري مرقوم فاذا رأى الناس المنديل ضربت الاطبال والابواق ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد.

Digitized by Birzeit University Library

فى أيدي بعضهم القسي وفى أيد بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسى كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى وتاتى الفرارية (بفتح الفاء) وهم الامراء ويأتى الخطيب والفقهاء فيقعدون امام السلحدارية يمنة ويسرة فى المشور ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة وغيرها وعلى راسه عمامة ذات حواشى لهم فى تعميمها صنعة بديعة وهو متقلد سيفا عمده من الذهب وفى رجليه الخف والهاميز ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ويكون فى يده رمحان صغير ان أحدهما من ذهب والآخر من فضة واستنهما من الحديد ويجلس الاجناد والولاة والفقيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور فى شارع هنالك متسع فيه أشجار وكل فرارى بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والاطبال والابواق وبوقاتهم من أنياب الفيلة والآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطاعة ولها صوت عجيب وكل فرارى له كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده وهو راكب فرسه واصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن أراد ان يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا لذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان

— ذكر جلوسه بالمشور —

ويجلس أيضا فى بعض الايام بالمشور هنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبى (بفتح الباء المعقودة الاولى وكسر الثانية وسكون النون بينهما) وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازى ويخرج السلطان من باب فى ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السكاكين رقاق طولها أزيد من شبر وأكثر لباسه جبة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المطنفس ويخرج بين يديه المغنون بايديهم قنا بر الذهب والفضة وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ويمشى مشيا رويدا ويكثر التانى وربما وقف ينظر فى الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والابواق والانفار ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ويقف دوغا على الباب وسائر الناس فى الشارع تحت الاشجار

— ذكر تذلل السودان لملكهم وتتريبهم له وغير ذلك من أحوالهم —

Digitized by Birzeit University Library

والسودان اعظم الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون منسى سليمان كى فاذا دعا باحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقة ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة ودخل رافعا ثيابه وسراويله الى نصف ساقه وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الارض بمرفقيه ضربا شديدا ووقف كالراكع يسمع كلامه واذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمي بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم واذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤسهم وانصتوا للكلام وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله في خدمته ويقول فعلت كذا يوم كذا وقتلت كذا يوم كذا فيصدقه من علم ذلك وتصديقهم ان ينزع احدهم في وترقوسه ثم يرسلها كما يفعل اذا رمي فاذا قال له السلطان صدقت او شكره نزع ثيابه وترب وذلك عندهم من الادب قال ابن جزي واخبرني الصاحب العلامة الفقيه ابو القاسم بن رضوان اعزه الله انه لما قدم الحاج موسى الونجراتي رسولا عن منسى سليمان الى مولانا ابي الحسن رضي الله عنه كان اذا دخل المجلس الكريم حمل بعض ناسه معه قفة تراب فيترب مهما قال له مولانا كلاما حسنا كما يفعل ببلاده

— ذكر فعله في صلاة العيد وايامه —

وحضرت بمالى عيد الاضحى والفطر فخرج الناس الى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب البيض الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان والسودان لا يلبسون الطيلسان الا في العيد ماعدا القاضي والخطيب والفقهاء فانهم يلبسونه في سائر الايام وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان اليها واصلح من شأنه ثم خرج الى المصلى فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدي السلطان وتكلم بكلام كثير وهنالك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته واداء حقه ويجلس السلطان في ايام العيدين بعد العصر على البنبي وتأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب واغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ويقف على رأسه أربعة من الامراء يشردون الذباب وفي أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الاربع وجواريه وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان وعلى رأسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب

وقضة وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات ويغني بشعر يمدح السلطان فيه ويذكر غزواته وأفعاله ويغني النساء والجواري معه ويلعبن بالقسي ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جباب الملف والحمر وفي رؤوسهم الشواشي البيض وكل واحد منهم متقلد طبلة يضربه ثم يأتي أحدهم به من الصبيان فيلعبون ويتقلبون في الهواء كما يفعل السندي ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ويلعب دوغا بالسيف لعبا بديعا وعند ذلك يأمر السلطان له بالاحسان فيأتي بصرة فيها مائتا مثقال من التبر ويذكر له ما فيها على رؤوس الناس وتقوم الفرارية فينزعون في قسمتهم شكر السلطان وبالغد يعطى كل واحد منهم لدوغا عطاء على قدره وفي كل يوم جمعة بعد العصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه

— ذكر الأضحوكة في انشاد الشعراء للسلطان —

واذا كان يوم العيد وأتم دوغا لعبه جاء الشعراء ويسمون الجلا (بضم الجيم) وأحدهم جالي وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق وجعل لها رأس من الخشب لها منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم وذكر لي ان شعرهم نوع من الوعظ يقولون فيه للسلطان ان هذا النبي الذي عليه جلس فوقه من الملوك فلان وكان من أحسن أفعاله كذا وفلان وكان من افعاله كذا فافعل انت من الخير ما يذكر بعدك ثم يصعد كبير الشعراء على درج النبي ويضع رأسه في حجر السلطان ثم يصعد الى أعلى النبي فيضع رأسه على كتف السلطان الايمن ثم على كتفه الايسر وهو يتكلم بلسانهم ثم ينزل وأخبرت ان هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الاسلام فاستمروا عليه

— حكاية —

وحضرت مجلس السلطان في بعض الايام فأتي أحد فقهائهم وكان قدم من بلاد بعيدة وقام بين يدي السلطان وتكلم كلاما كثيرا فقام القاضي فصدقه ثم صدقهما السلطان فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه وترب بين يديه وكان الى جانبي رجل من البيضان فقال لي أتعرف ما قالوه فقلت لا أعرف فقال ان الفقيه أخبر ان الجراد وقع ببلادهم فخرج أحد صلحائهم الى موضع الجراد فهاله أمرها فقال هذا جراد كثير فأجابته جرادة منها وقالت ان البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها فصدقه القاضي والسلطان وقال عند ذلك للامراء اني أرى من الظلم ومن ظلم منكم عاقبته ومن علم بظالم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه والله حسيبه وسائله ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤسهم وتبرؤوا من الظلم

— حكاية —

Digitized by Birzeit University Library

وحضرت الجمعة يوما فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بابى حفص فقال يا أهل المسجد أشهدكم ان منسي سليمان فى دعوتى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قال ذلك خرج اليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له من ظلمك من أخذ لك شيا فقال منشاجو ايوالا تن يعني مشرفها أخذ مني ماقيمته ستمائة مثقال واراد ان يعطيني فى مقابلته مائة مثقال خاصة فبعث السلطان عنه للحين فحضر بعد ايام وصرفهما للقاضي فثبت للتاجر حقه فاخذه وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله

— حكاية —

واتفق فى أيام اقامتي بمالى ان السلطان غضب على زوجته الكبري بنت عمه المدعوة بقاسا ومعني قاسا عندهم الملكة وهي شريكته فى الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض القرابة وولى فى مكانها زوجته الاخرى بنجو ولم تكن من بنات الملوك فاكثر الناس الكلام فى ذلك وانكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو يم بشنها بالمملكة فجعلن الرماد على اذرعهن ولم يتربن رؤسهن ثم ان السلطان سرح قاسا من ثقافها فدخل عليها بنات عمه يعنفنها بالسراح وتربن على العادة فشكت بنجو الي السلطان بذلك فغضب علي بنات عمه فخفن منه واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعاتبهن اذا دخلن على السلطان ان يتجردن عن ثيابهن ويدخلن عرايا ففعلن ذلك ورضى عنهن وصرن ياتين باب السلطان غدوا وعشيا مدة سبعة أيام وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان وسارت قاسا تركب كل يوم فى جواريها وعبيدها وعلى رؤسهم التراب وتقف عند المشور متنقبة لا يرى وجهها وأكثر الامراء الكلام فى شانها فجمعهم السلطان في المشور وقال لهم دوغا على لسانه انكم قد أكثرتم الكلام فى امر قاسا وانها أذنبت ذنبا كبيرا ثم أتى بجارية من جواريها مقيدة مغلولة فقيل لها تكلمى بما عندك فاخبرت ان قاسا بعثتها الى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه الى كنبرى واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه وقالت له أنا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الامراء ذلك قالوا ان هذا ذنب كبير وهي تستحق القتل عليه فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب وعادتهم ان يستجير واهنالك بالمسجد وان لم يتمكن فبدار الخطيب وكان السودان يكرهون منسى سليمان لبخله وكان قبله منسى مغا وقبل منسى مغا منسي موسي وكان كريما فاضلا يحب البيضان ويحسن اليهم وهو الذي اعطي لابي اسحاق الساحلي فى يوم واحد أربعة آلاف مثقال واخبرني بعض الثقات انه أعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال فى يوم واحد وكان جده سارق جاطة أسلم على يدى جد مدرك هذا

— حكاية —

Digitized by Birzeit University Library

وأخبرني الفقيه مدرك هذا ان رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن كان قد أحسن الى السلطان منسى موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث وهو يومئذ صبي غير معتبر ثم اتفق ان جاء اليه في خصومة وهو سلطان فعرفه وأدناه منه حتى جلس معه على البنبي ثم قرره على فعله معه وقال للامراء ما جزاء من فعل ما فعله من الخير فقالوا له الحسنة بعشر امثالها فاعطه سبعين مثقالا فاعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخدما وامره ان لا ينقطع عنه وأخبرني بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن المذكور وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالي

— ذكر ما استحسنته من افعال السودان وما استقبحته منها —

فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه ومنها شمول الامن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة انما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى ياخذه مستحقه ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها واذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الانسان الى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ومن عادتهم ان يبعث كل انسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب الى المسجد وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لاحدهم الا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لاولادهم القيود اذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه ولقد دخلت على القاضي يوم العيد واولاده مقيدون فقلت له ألا تسترحهم فقال لا أفعل حتى يحفظوا القرآن ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل فقلت لمن كان معي ما فعل هذا أقتل ففهم عني الشاب وضحك وقيل لي انما قيد حتى يحفظ القرآن ومن مساوئ افعالهم كرن الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة فان عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان ويأتي كل واحد منهم بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه وهن عرايا ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وتعري بناته ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤسهم تأدبا ومنها ماذكرته

من الاضحوكة فى انشاد الشعراء ومنها ان كثيرا منهم يا كلون الجيف والكلاب والحمير

— ذكر سفرى عن مالى —

وكان دخولى اليها فى الرابع عشر لجمادى الاولى سنة ثلاث وخمسين وخروجي عنها فى الثاني والعشرين لمحرم سنة اربع وخمسين ورافقنى تاجر يعرف بابى بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميمة وكان لى جمل أركبه لان الخيل غالية الاثمان يساوى أحدها مائة مثقال فوصلنا الى خليج كبير يخرج من النيل لايجاز الا فى المراكب وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر أحد به الا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل والليل مقمر

— ذكر الخيل التي تكون بالنيل —

ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشر دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلة لكثرتها هنالك ثم انى رأيتها دخلت فى النهر فقلت لابى بكر بن يعقوب ماهذه الدواب فقال هي خيل البحر خرجت ترعي فى البر وهى أغلظ من الخيل ولها أعراف وأذناب ورؤسها كرؤس الخيل وأرجلها كارجل الفيلة ورأيت هذه الخيل مرة أخري لما ركبنا النيل من تنبكتو إلى كوكو وهي تعوم فى الماء وترفع رأسها وتنفخ وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم ولهم حيلة فى صيدها حسنة وذلك ان لهم رماحا مثقوبة قد جعل فى ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فان صادفت الضربة رجله أو عنقه انفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل الى الساحل فيقتلونه ويا كلون لحمه ومن عظامها يا لساحل كثير وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربامغا (بفتح الميم والغين المعجم) وهو ممن حج مع السلطان منسى موسى لما حج

— حكاية —

أخبرنى فربامغا ان منسى موسى لما وصل الى هذا الخليج كان معه قاض من البيضان يكني بابى العباس ويعرف بالدكالى فاحسن اليه باربعة آلاف مثقال لنفقته فلما وصلوا الى ميمة شكا الى السلطان بان الاربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر السلطان امير ميمة وتوعده بالقتل ان لم يحضر من سرقها وطلب الامير السارق فلم يجد أحدا ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضى واشتد على خدامه وهددهم فقالت له احدى جواريه ماضاع له شيء وانما دفنها بيده فى ذلك الموضع وأشارت له الى الموضع فاخرجها الامير وأتى بها السلطان وعرفه الخبر فغضب على القاضى ونفاه الى بلاد الكفار الذين يا كلون بني آدم فاقام عندهم أربع سنين ثم رده الى بلده وانما لم يا كله الكفار لبياضه لانهم يقولون ان أكل الابيض مضر لانه لم ينضج والاسود هو النضيج بزعمهم

— حكاية —

قدمت على السلطان منسي سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم معهم أميرلهم وعادتهم ان يجعلوا في آذانهم اقراطا كبارا وتكون فتحة القرط منها نصف شبر ويلتحفون في ملاحف الحرير وفي بلادهم يكون معدن الذهب فاكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوهم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين وأخبرت ان عادتهم متى ماوفدوا عليه ان يفعلوا ذلك وذكر لي عنهم انهم يقولون ان أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج فوصلنا الى بلدة قرى منساوقرى (بضم القاف وكسر الراء) ومات لي بها الجمل الذي كنت أركبه فاخبرني راعيه بذلك فخرجت لانظر اليه فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم في أكل الجيف فبعثت غلامين كنت استاجرتهما على خدمتي ليشتريا لي جملا بزاغرى وهي على مسيرة يومين وأقام معي بعض أصحاب ابي بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظرنا بميمة فمكثت سبعة أيام أضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل

— حكاية —

وفي أيام أقامتي بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يري النائم كان انسانا يقول لي محمد بن بطوطه لماذا لا يقرأ سورة يس في كل يوم فمن يومئذ ماتركت قراءتها كل يوم في سفر ولا حضر ثم رحلت الى بلدة ميمة (بكسر الميم الاول وفتح الثاني) فنزلنا على آبار بخارجها ثم سافرنا منها الى مدينة تنبكتو (وضبط اسمها بضم التاء المعلوة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسكون الكاف وضم التاء المعلوة الثانية وواو) وبينها وبين النيل أربعة اميال واكثر سكانها مسوفة أهل اللثام وحاكمها يسمي فرباموسى حضرت عنده يوما وقد قدم أحد مسوفة أمير اعلى جماعة فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا كلها مصبوغة وأجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبي اسحاق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجن وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الاسكندرية

— حكاية —

كان السلطان منسى موسي لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر وبها ينزل السلطان واحتاج الى مال فتسفه من سراج الدين وتسلف منه أمرأه أيضا وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال فاقام بمالي فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو أضافه ابو اسحق الساحلي فكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس في ذلك واتهموا انه سم فقال لهم ولده اني اكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سم لقتلنا جميعا لكنه انقضي اجله ووصل الولد الى مالي واقتضى ماله وانصرف الى ديار مصر ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة

واحدة وكنا ننزل كل ليلة بالقري فنشتري ما نحتاج اليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات
ونحلى الزجاج ثم وصلت الى بلد أنسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمي فرباسليمان مشهور
بالشجاعة والشدة لا يتعاطى أحد النزع في قوسه ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم
جسما واحتجت بهذه البلدة الى شيء من الذرة فجئت اليه وذلك يوم مولد رسول الله
صلى الله عليه وسلم فسلمت عليه وسألني عن مقدمي وكان معه فقيه يكتب له فاخذت
اللوح كان بين يديه وكتبت فيه يا فقيه قل لهذا الامير انا نحتاج الى شيء من الذرة للزاد
والسلام وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرا ويكلم الامير في ذلك بلسانه فقرأه جهرا
وفهمه الامير فاخذ بيدي وادخلني الى عشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسي
والرماح ووجدت عنده كتاب المدهش لابن الجوزي فجعلت اقرأ فيه ثم أتى بمشروب
لهم يسمى الدقنو (بفتح الدال المهمل وسكون القاف وضم النون واو) وهو ماء فيه
جريش الذرة مخلوط بيسير عسل اولبن وهم يشربونه عوض الماء لانهم ان شربوا الماء خالصا
أضر بهم وان لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن ثم أتى ببطيخ أخضر فاكلنا منه ودخل
غلام خماسي فدعاه وقال لي هذا ضيافتك واحفظه لئلا يفر فاخذته وأردت الانصراف فقال
أقم حتى يأتي الطعام وجاءت الينا جارية له دمشقية عربية فكلمتني بالعربي فبينا نحن في ذلك
اذ سمعنا صراخا بداره فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك فعادت اليه فاعلمته ان بنته له قد توفيت
فقال اني لا أحب البكاء فتعال نمشي الى البحر يعني النيل وله على ساحله ديار فاتى بالفرس فقال
لي اركب فقلت لا أركبه وأنت ماش فمشينا جميعا ووصلنا الى دياره على النيل وأتى بالطعام
فاكلنا وادعته وانصرفت ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل والغلام الذي اعطانيه
باق عندي الى الآن ثم سرت الى مدينة كوكو وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن
مدن السودان وأكبرها واخصبها فيها الارز الكثير واللبن والدجاج والسمك وبها الفقوص
العناني الذي لا نظير له وتعامل اهلها في البيع والشراء بالودع وكذلك أهل مالي واقمت
بها نحو شهر وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفا مزاحا فاضلا وتوفي
بها بعد خروجي عنه واضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي وهو ممن دخل اليمن والفقيه
محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان ثم سافرت منها برسم تكدا في الربع قافلة كبيرة للغدامسيين
دليلهم ومقدمهم الحاج وجين (بضم الواو وتشديد الجيم المعقودة) ومعناه الذئب
بلسان السودان وكان لي جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد فلما رحلنا أول مرحلة وقفت
الناقة فاخذ الحاج وجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حمله وكان في الرفقة

مغربي من أهل تادلى فابى أن يرفع من ذلك شيئا كما فعل غيره وعطش غلامي يوما فطلبت منه الماء فلم يسمح بهم وصلنا الى بلاد برادمة وهى قبيلة من البربر (وضبطها بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهمل والف وميم مفتوح وتاء تأنيث) ولا تسير القوافل الا فى خفارتهم والمرأة عندهم فى ذلك أعظم شأنا من الرجل وهم رحالة لا يقيمون و بيوتهم غريبة الشكل يقيمون أعوادا من الخشب و يصنعون عليها الحصر وفوق ذلك أعواد مشتبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن ونساؤهم أتم النساء جمالا وابدعهن صورا مع البياض الناصع والسمن ولم أر فى البلاد من يبلغ مبلغهن فى السمن وطعامهن حليب البقر وجريش الذرة يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح ومن أراد التزوج منهن سكن بهن فى أقرب البلاد اليهن ولا يتجاوزبهن كوكو ولا ابو الاتن وأصابنى المرض فى هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء واجتهدنا فى السير الى أن وصلنا الى مدينة تكدا (وضبطها بفتح التاء المعلوة والكاف المعقودة والدال المهمل مع تشديده) ونزلت بها فى جوار شيخ المغاربة سعيد بن على الجزولى واضافني قاضيها أبو ابراهيم اسحق الجاناتى وهو من الافاضل وأضافنى جعفر بن محمد المسوفى وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجرى على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك ولا زرع بها الا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء و يباع بحساب عشرين مدا من امدادهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المد ببلادنا وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدا بمثقال ذهب وهي كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ وأما الرجال فقلما تقتلهم ولقد لدغت يوما وانا بها ولد الشيخ سعيد بن على عند الصبح فمات لحينه وحضرت جنازته ولا شغل لاهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام الى مصر و يجلبون من كل مابها من حسان الثياب وسواها ولاهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالى وابو الاتن ولا يبيعون المعلمات منهن الا نادرا وبالثمن الكثير

— حكاية —

أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلمة فلم أجد هاتم بعث الى القاضى أبو ابراهيم بخادم لبعض أصحابه فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا ثم إن صاحبها ندم ورغب فى الاقالة فقلت له ان دللتني على سواها أقلتك فدلنى على خادم لعلي اغيول وهو المغربي التادلى الذي أبى أن يرفع شيئا من أسبابى حين وقعت ناقتى وابى ان يستقى غلامى الماء حين عطش فاشتريتها منه وكانت خيرا من الاولى وأقلت صاحبى الاول ثم ندم هذا المغربى على بيع الخادم ورغب فى الاقالة والح فى ذلك فابيت الا أن أجازيه بسوء فعله فكاد أن يجن أو يهلك

أسفائم أقلته بعد

— ذكر معدن النحاس —

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه فى الارض ويأتون به الى البلد فيسبكونه فى دورهم يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم فاذا سبكوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا فى طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائة قضبت بمثقال ذهب وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال وهى صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح ويحملون النحاس منها الى مدينة كوبر من بلاد الكفار والى زغاى والى بلاد برنو اوهى على مسيرة أربعين يوما من تكدا وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه ادريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم الا من وراء حجاب ومن هذه البلاد يؤتى بالجوارى الحسان والفتيان وبالثياب الجسدة ويحمل النحاس ايضا منها الى جوجوة وبلاد المورتيين وسواها

— ذكر سلطان تكدا —

وفى أيام اقامتى بها توجه القاضى أبو ابراهيم والخطيب محمد والمدرس ابو حفص والشيخ سعيد بن على الى سلطان تكدا وهو بربرى يسمى إزار (بكسر الهمزة وزاي والف وراء) وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركرى وهو من سلاطين البربر أيضا منازعة فذهبوا الى الاصلاح بينهما فاردت ان القاه فاكتريت دليلا وتوجهت اليه وأعلمه المذكورون بقدومي فجاء الى راكبا فرسا دون سرج وتلك عادتهم وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ومعه أولاد اخته وهم الذين يرثون ملكه فقمنا اليه وصافحناه وسال عن حالى ومقدمى فاعلم بذلك وأنزلني ببيت من بيوت الينا طبين وهم كالوصفان عندنا وبعث برأس غنم مشوى فى السفود وقعب من حليب البقر وكان فى جوارنا بيت أمه واخته فجاءتا الينا وسلمت علينا وكانت امه تبعث لنا الحليب بعد العتمة وهو وقت حلبهم ويشربونه ذلك الوقت وبالغدو وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه وأقمت عندهم ستة أيام وفى كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء واحسن الى بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب وانصرفت عنه وعدت الى تكدا

— ذكر وصول الامر الكريم الى —

ولما عدت الى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بامر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمر الى بالوصول الى حضرته العلية فقبلته وامتثلته على الفور واشتريت جملين لركوبى بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث وقصدت السفر الى توات ورفعت زاد سبعين ليلة اذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات انما يوجد اللحم اللبن والسمن

Digitized by Birzeit University Library

يشترى بالأثواب وخرجت من تنكداد يوم الخميس الحادى عشر لشعبان سنة أربع وخمسين فى رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبد الله قاضي تنكداد وفى الرفقة نحو ستمائة خادم فوصلنا الى كاهر من بلاد السلطان الكركرى وهي أرض كثيرة الاعشاب يشترى بها الناس من برابرها الغنم ويقتدون لحمها ويحمله أهل توات الى بلادهم ودخلنا منها الى برية لا عمارة بها ولا ماء وهى مسيرة ثلاثة أيام ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما فى برية لا عمارة بها الا ان بها الماء ووصلنا الى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ الى ديار مصر وطريق توات وهنالك احساء ماء يجرى على الحديد فاذا غسل به الثوب الابيض اسود لونه وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا الى بلاد هكار وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها وكان وصولنا الى بلادهم فى شهر رمضان وهم لا يفيرون فيه ولا يعترضون القوافل واذا وجد سراقها المتاع بالطريق فى رمضان لم يعرضوا له وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر وسرنا فى بلاد هكار شهرا وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر الى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء فاخبرونا باخبار بلادنا وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور خالفوا وسكنوا تسابيت من توات فخاف أهل القافلة من ذلك ثم وصلنا الى بواد (بضم الباء الموحدة) وهي من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وانما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر ويقاتلون به ويخرجون الى صيده قبل طلوع الشمس فانه لا يطير اذ ذاك لاجل البرد وأقمنا ببوداً أياما ثم سافرنا فى قافلة ووصلنا فى أوسط ذى القعدة الى مدينة سجلماسة وخرجت منها فى ثانى ذى الحجة وذلك أوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج كثير ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخاري وسمرقند وخراسان وبلاد الاتراك فلم أر أصعب من طريق أم جنيبة ووصلنا ليلة عيد الاضحى الى دار الطمع فاقمت هنالك يوم الاضحى ثم خرجت فوصلت الى حضرة فارس حضرة مولانا أمير المؤمنين أيده الله فقبلت يده الكريمة وتيمنت بمشاهدة وجهه المبارك واقمت فى كنف احسانه بعد طول الرحلة والله تعالى يشكر ما أولانيه من جزيل احسانه وسابغ امتنانه ويديم أيامه ويمتع المسلمين بطول بقائه وههنا انتهت الرحلة المسماة تحفة النظار فى غرائب الامصار وعجائب الاسفار. وكان الفراغ من تقييده فى ثالث ذى الحجة عام ستة وخمسين وسبعمائة والحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

﴿ قال ابن جزى ﴾

انتهى ما لخصته من تقييد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بطوطة أكرمه الله ولا يخفى على ذى عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة وانخذ حضرة فارس قرا ومستوطنا بعد طول جولانه الا الملاء للتحقق ان مولانا أيده الله أعظم ملوكها شانا وأعمهم فضائل وأكرمهم احسانا وأشدهم بالوارد ين عليه عناية وأتمهم بمن ينتمي الى طلب العلم حماية فيجب على مثلى أن يحمد الله تعالى لأن وفقه فى أول حاله وترحاله لاستيطان هذه الحضرة التي اختارها هذا الشيخ بعد رحله خمسة وعشرين عاما انها لنعمة لا يقدر قدرها ولا يوفى شكرها والله تعالى يرزقنا الاعانة على خدمة مولانا أمير المؤمنين و يبقى علينا ظل حرمته ورحمته ويجزيه عنا معشر الغرباء المنقطعين اليه أفضل جزاء المحسنين اللهم وكما فضلته على الملوك بفضيلتى العلم والدين . وخصصته بالحلم والعقل الرصين فسد لملكه أسباب التاييد والتمكين وعرفه عوارف النصر العزيز والفتح المبين . واجعل الملك فى عقبه الى يوم الدين . وأره قرة العين فى نفسه و بنيه و ملكه ورعيته يا ارحم الراحمين .

وصلى الله على سيدنا و نبينا و مولانا

محمد خاتم النبيين . و امام

المرسلين والحمد لله

رب العالمين .

وكان الفراغ من تاليفها فى شهر صفر عام سبعة وخمسين وسبعمائة ٭

﴿ يقول مصححه الراجي عفو ربه الكريم * ابن الشيخ حسن الفيومي ابراهيم ﴾

حمدا لمن شرح صدور الاجلة الالباء * لاستكشاف مافي الاصقاع من
العادات وجميل الانباء * وصلاة وسلاما على من اطلعه الله على ما
كان * وارسله الى الثقلين من انس وجان * وبعد فقد تم طبع هذا
السفر المشتمل على معرفة عوائد الاقطار المسمي (تحفة النظار * في غرائب
الامصار * وعجائب الاسفار) تاليف الامام ابي عبدالله
محمد بن عبدالله المعروف بابن بطوطة رحمه الله وذلك ﴿ بالمطبعة
الازهرية ﴾ الثابت محل ادارتها بشارع رقعة القمح
رقم ٦ بجوار الرياض الازهرية وقد وافق
اتمام أوائل شهر جمادي الثانية من
عام ١٣٤٧ هجرية عليه وعلى
آله وأصحابه أتم صلاة
وازكى تحية
آمين



Digitized by Birzeit University Library

فهرست الجزء الاول من كتاب رحلة ابن بطوطه

صحيفة		صحيفة	
٢	خطبة الكتاب	٦١	ذكر ارباض دمشق
٧	ذكر سلطان تونس		ذكر قاسيون ومشاهده المباركة
٩	ذكر أبواب اسكندرية ومرساها	٦٢	ذكر الربوة والقري التي تواليها
٩	ذكر المنار	٦٣	ذكر الأوقاف بدمشق وبعض فضائل
	ذكر عمود السواري		أهلها وعوائدهم
١٠	ذكر بعض علماء الاسكندرية	٦٥	ذكر سماعي بدمشق ومن أجازني من
٢١	ذكر نيل مصر		أهلها
٢٢	ذكر الاهرام والبرابي	٦٩	طيبة مدينة رسول الله صلي الله عليه وسلم
٢٣	ذكر سلطان مصر		وشرف وكرم
٢٤	ذكر بعض أمراء مصر		ذكر مسجد رسول الله صلى الله عليه
٢٤	ذكر القضاة بمصر		وسلم وروضته الشريفة
٢٥	ذكر بعض علماء مصر وأعيانها	٧٠	ذكر ابتداء بناء المسجد الكريم
٢٦	ذكر يوم المحمل بمصر	٧٢	ذكر المنبر الكريم
٣٣	ذكر المسجد المقدس	٧٣	ذكر الخطيب والامام بمسجد رسول
	ذكر قبة الصخرة		الله صلى الله عليه وسلم
٣٠	ذكر بعض المشاهدة المباركة بالقدس		ذكر خدام المسجد الشريف والمؤذنين به
	الشريف	٧٤	ذكر المجاورين بالمدينة الشريفة
	ذكر بعض فضلاء القدس	٧٥	ذكر أمير المدينة الشريفة
٥٢	ذكر جامع دمشق المعروف بجامع		ذكر بعض المشاهد الكريمة بخارج
	بني أمية		المدينة الشريفة
٥٦	ذكر الائمة بهذا المسجد	٨٠	ذكر مدينة مكة المعظمة
	ذكر المدرسين والمعلمين به		ذكر المسجد الحرام
٥٧	ذكر قضاة دمشق	٨١	ذكر الكعبة المعظمة الشريفة زادها
٥٨	ذكر مدارس دمشق		الله تعظيما وتكريما
	ذكر أبواب دمشق	٨٢	ذكر الميزاب المبارك
	بعض المشاهد والمزارات بها		

Digitized by Birzeit University Library

صحيفه

٨٢ ذكر الحجر الأسود
٨٣ ذكر المقام الكريم
ذكر الحجر والمطاف
٨٤ ذكر زمزم المباركه
٨٥ ذكر أبواب المسجد الحرام وما داربه من المشاهد الشريفة
٨٦ ذكر الصفا والمروة
٨٧ ذكر الجبانة المباركة
ذكر بعض المشاهد خارج مكة
٨٨ ذكر الجبال المطيفة بمكة
٩٢ ذكر أميرى مكة
ذكر أهل مكة وفضائلهم
٩٢ ذكر قاضى مكة وخطيبها وامام الموسم وعلمائها وصلحائها
٩٤ ذكر المجاورين بمكة
٩٨ ذكر عادة أهل مكة فى صلواتهم ومواضع أئمتهم
٩٩ ذكر عادتهم فى الخطبة وصلاة الجمعة
١٠٠ ذكر عادتهم فى استهلال الشهور
ذكر عادتهم فى شهر رجب
١٠١ ذكر عمرة رجب
١٠٢ ذكر عادتهم فى ليلة النصف من شعبان
ذكر عادتهم فى شهر رمضان المعظم
١٠٣ ذكر عادتهم فى شوال
١٠٤ ذكر إحرام الكعبة
ذكر شعائر الحج وأعماله

صحيفه

١٠٦ ذكر كسوة الكعبة
ذكر الانفصال عن مكة شرفها الله
١٠٩ ذكر الروضة والقبور التي بها
١١٠ ذكر نقيب الاشراف
١١٤ مدينة واسط
١١٥ مدينة البصرة
١١٦ ذكر المشاهد المباركة بالبصره
١٢١ ذكر ملك أيذج وتستر
١٣٠ ذكر سلطان شيراز
١٣٣ ذكر بعض المشاهد بشيراز
١٣٧ مدينة الكوفة
١٣٩ مدينة بغداد
١٤١ ذكر الجانب الغربي من بغداد
ذكر الجانب الشرقي منها
١٤٢ ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين بها
١٤٣ ذكر سلطان العراقين وخراسان
١٤٥ ذكر المتغلبين على الملك بعد موت السلطان أبي سعيد
١٤٨ مدينة الموصل
١٥٠ ذكر سلطان ماردين فى عهد دخولى اليها
١٥٥ ذكر سلطان جزيرة سواكن
١٥٦ ذكر سلطان حلى
١٥٨ ذكر سلطان اليمن
١٦٠ ذكر سلطان مقدشو
١٦٣ ذكر سلطان كلوا

Digitized by Birzeit University Library

صحيفه	
١٦٦	ذكر التنبول
١٦٧	ذكر النارجيل
١٦٨	ذكر سلطان ظفار
١٦٩	ذكر ولى لقيناه بهذا الجبل
١٧٢	ذكر سلطان عمان
١٧٤	ذكر سلطان هرمز
١٧٦	ذكر سلطان لار
١٧٧	ذكر مغاص الجوهر
١٨٠	ذكر سلطان العلايا
١٨١	ذكر الاخية الفتيان
١٨٢	ذكر سلطان أنطاكية
١٨٣	ذكر سلطان اكريدور
١٨٣	ذكر سلطان قل حصار
١٨٥	ذكر سلطان لاذق
١٨٦	ذكر سلطان ميلاس
١٨٧	ذكر سلطان اللارندة
١٩١	ذكر سلطان بركى
١٩٥	ذكر سلطان مغنيسية
	ذكر سلطان برغمة
١٩٦	ذكر سلطان بلى كسري
١٩٧	ذكر سلطان برصي
٢٠١	ذكر سلطان كردي بولى
٢٠٣	ذكر سلطان قصطمونيه
٢٠٧	ذكر العجلات التى يسافر عليها حضرة السلطان محمد أوزبك بهذه البلاد

صحيفه	
٢١٢	ذكر السلطان المعظم محمد اوزبك خان
٢١٤	ذكر الخواتين وترتيبهن
٢١٦	ذكر بنت السلطان المعظم أوزبك
٢١٧	ذكر ولدى السلطان
	ذكر سفري الى مدينة بلغار
	ذكر أرض الظلمه
٢١٨	ذكر ترتيبهم فى العيد
٢٢١	ذكر سفرى الى القسطنطينية
٢٢٤	ذكر سلطان القسطنطينيه
٢٢٦	ذكر المدينة
	ذكر الكنيسة العظمى
٢٢٧	ذكر المانستارات بقسطنطينيه
٢٢٨	ذكر الملك المترهب جرجيس
٢٢٩	ذكر قاضى القسطنطينيه
	ذكر الانصراف عن القسطنطينيه
٢٣٣	ذكر أمير خوارزم
٢٣٥	ذكر بطيخ خوارزم
٢٣٧	ذكر أولية التتر وتخريبهم بخارى وسواها
٢٣٩	ذكر سلطان ماوراء النهر
٢٤٧	ذكر سلطان هرات
٢٤٨	حكاية الرافضة
٢٥٥	تتمة هذا الجزء
٢٥٦	تذييل

﴿ تمت فهرست الجزء الاول ﴾

Digitized by Birzeit University Library

فهرست الجزء الثاني من كتاب رحلة ابن بطوطة

صحيفة	
٢	الخطبة
	ذكر البريد
٤	ذكر الكركدن
٦	ذكر السفر في نهر السند وترتيب ذلك
٧	ذكر غريبة رأيتها بخارج مدينة لاهري
٩	ذكر أمير ملتان وترتيب حاله
	ذكر من اجتمعت به في هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند
١١	ذكر أشجار بلاد الهند وفواكهها
١٢	ذكر الحبوب التي يزرعها اهل الهند ويقتاتون بها
١٣	ذكر غزوة لنا بهذا الطريق وهي أول غزوة شهدتها ببلاد الهند
١٤	ذكر أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار
١٦	ذكر وصف مدينة دهلي
١٧	ذكر سور دهلي وابوابها
	ذكر جامع دهلي
١٨	ذكر الحوضين العظمين بخارجها
١٩	ذكر بعض مزاراتها
	ذكر بعض علمائها وصلحائها
٢٠	ذكر فتح دهلي ومن تداولها من الملوك
٢١	ذكر السلطان شمس الدين للمش
٢٢	ذكر السلطان ركن الدين ابن السلطان شمس الدين

صحيفة	
٢٢	ذكر السلطانة رضية
	ذكر السلطان ناصر الدين ابن السلطان شمس الدين
٢٣	ذكر السلطان غياث الدين بلبن
٢٤	ذكر السلطان معز الدين بن ناصر الدين
٢٥	ذكر السلطان جلال الدين
٢٦	ذكر السلطان علاء الدين محمد شاه الخلجي
٢٧	ذكر ابنة السلطان شهاب الدين
٢٨	ذكر السلطان قطب الدين ابن السلطان علاء الدين
٢٩	ذكر السلطان خسروخان ناصر الدين
٣٠	ذكر السلطان غياث الدين تغلق شاه
٣٢	ذكر مارامه ولده من القيام عليه فلم يتم له ذلك
٣٣	ذكر مسير تغلق الى بلاد المكنوتي وما اتصل بذلك الى وفاته
٣٤	ذكر السلطان أبي المجاهد محمد شاه ابن السلطان غياث الدين تغلق شاه ملك الهند والسند الذي قدمنا عليه وذكر وصفه الى آخر ما ذكر
٣٥	ذكر أبوابه ومشوره وترتيب ذلك
	ذكر ترتيب جلوسه للناس
٣٦	ذكر دخول الغرباء وأصحاب الهدايا اليه
٣٧	ذكر دخول هدايا عماله اليه

Digitized by Birzeit University Library

صحيفة

٣٧ ذكر خروجه للعيدين وما يتصل بذلك
٣٨ ذكر جلوس يوم العيد وذكر السرير الاعظم والمبخرة العظمي
٣٩ ذكر ترتيبه اذا قدم من سفره
٤٠ ذكر ترتيب الطعام الخاص
ذكر ترتيب الطعام العام
٤١ ذكر بعض اخباره في الجود والكرم
ذكر عطائه الى آخر ماذكر
٤٥ ذكر قدوم ابن الخليفة عليه واخباره
٤٩ ذكر تزوج الامير سيف الدين غدا باخت السلطان
٥٠ ذكر سجن الامير غدا
٥٣ حكاية في تواضع السلطان وإنصافه
ذكر اشتداده في اقامة الصلاة
ذكر اشتداده في إقامة أحكام الشرع
٥٣ ذكر رفعه للمغارم والمظالم وقعوده لانصاف المظلومين
ذكر إطعامه في الغلاء
ذكر فتكات هذا السلطان وما نقم من افعاله
ذكر قتله لاخيه
٥٤ ذكر قتله لثلثمائة وخمسين رجلا في ساعة واحدة
ذكر تعذيبه للشيخ شهاب الدين وقتله
٥٥ ذكر قتله للفقيه المدرسي عفيف الدين الكاساني وفقيهين معه
٥٦ ذكر قتله أيضا لفقيهين من أهل السند

صحيفة

كانا في خدمته
٥٦ ذكر قتله للشيخ هود
٥٧ ذكر سجنه لابن ناج العارفين وقتله لاولاده
٥٨ ذكر قتله للشيخ الحيدري
ذكر قتله لطوغان وأخيه
ذكر قتله لابن ملك التجار
٥٩ ذكر ضربه للخطيب الخطباء حتى مات
ذكر تخريبه لدهلي ونفي أهلها وقتل الاعمي والمقعد
ذكر ما افتتح به أمره أول ولايته من منه على بهادر بوره
٦٠ ذكر ثورة ابن عمته وما اتصل بذلك
٦١ ذكر ثورة كشلوخان وقتله
٦٢ ذكر الوقيعة بجبل قراجيل على جيش السلطان
ذكر ثورة الشريف جلال الدين ببلاد المعبر وما اتصل بذلك من قتل ابن اخت الوزير
٦٣ ذكر ثورة هلاجون
٦٤ ذكر وقوع الوباء في عسكر السلطان
ذكر الارجاف بموته وفرار الملك هوشنج
٦٥ ذكر ما هم به الشريف ابراهيم من الثورة ومآل حاله
٦٥ ذكر خلاف نائب السلطان ببلاد التلنك

Digitized by Birzeit University Library

صحيفة
٦٦ ذكر انتقال السلطان لنهر الكنك وقيام عين الملك
٧٠ ذكر عودة السلطان لحضرته ومخالفته على شاه كر
ذكر فرار أمير بخت وأخذه
٧١ ذكر خلاف شاه أفغان بارض السند
ذكر خلاف القاضي جلال
٧٢ ذكر خلاف ابن الملك مل
ذكر خروج السلطان بنفسه الى كنبايه
٧٣ ذكر قتال مقبل وابن الكولمي
٧٤ ذكر الغلاء الواقع بارض الهند
ذكر وصولنا الى دار السلطان عند قدومنا وهو غائب
ذكر وصولنا لدار أم السلطان وذكر فضائلها
٧٥ ذكر الضيافة
٧٦ ذكر وفاة بنتي وما فعلوا في ذلك
٧٨ ذكر احسان السلطان والوزير الى في أيام غيبة السلطان عن الحضرة
ذكر العيد الذى شهدته أيام غيبته
٧٩ ذكر قدوم السلطان ولقائنا له
٨٠ ذكر دخول السلطان الى حضرته وما أمر لنا به من المراكب
ذكر دخولنا اليه وما أنعم به من الاحسان
٨٢ ذكر عطاء ثان أمر لى به وتوقفه مدة
٨٣ ذكر طلب الغرماء مالهم قبلى ومدحي

صحيفة
للسلطان وأمره بخلاص ديني وتوقف ذلك مدة
٨٤ ذكر خروج السلطان الى الصيد وخروجي معه وما صنعت في ذلك
٨٦ ذكر الجمل الذى أهديته للسلطان الى آخر ماذكر
ذكر الجملين اللذين أهديتهما اليه
٨٧ ذكر خروج السلطان وأمره لى بالاقامة بالحضرة
٨٩ ذكر ما فعلته في ترتيب المقبره
ذكر عادتهم في إطعام الناس في الولائم
٩٠ ذكر خروجي الى هزار أمروها
٩١ ذكر مكرمة لبعض الاصحاب
٩٢ ذكر خروجي الى محلة السلطان
ذكر ما هم به السلطان من عقابي وما تداركني من لطف الله تعالى
ذكر انقباضي عن الخدمة وخروجي عن الدنيا
ذكر بعث السلطان عني وإيابي
٩٣ ذكر ما أمرني به من التوجه الى الصين في الرسالة
ذكر سبب بعث الهدية للصين وذكر من بعث معي وذكر الهدية
٩٥ ذكر غزوة شهدناها بكول
٩٥ ذكر محنتي بالاسر وخلاصي منه وخلاصي من شدة بعده على يد

Digitized by Birzeit University Library

صحيفة

ولى من اولياء الله تعالى
١٠٠ ذكر أمير علا بور واستشهاده
١٠٣ ذكر السحرة الجوكية
١٠٥ ذكر سوق المغنين
١٠٧ ذكر سلطان مدينة قندهار
١٠٨ ذكر ركوبنا البحر
ذكر سلطان مدينة قوقه
١١٠ ذكر سلطان هنور
ذكر ترتيب طعامه
١١٢ ذكر الفلفل
١١٣ ذكر سلطان مدينة فاكنور
ذكر سلطان مدينة منجرور
ذكر سلطان مدينة جرفتن
١١٤ ذكر الشجرة العجيبة الشان التي بازاء الجامع
١١٥ ذكر سلطان مدينة قالقوط
١١٦ ذكر مراكب الصين
١١٧ ذكر اخذنا فى السفر الى الصين ومنتهى ذلك
١١٨ ذكر القرفة والبقم
ذكر سلطان مدينة كولم
١٢٠ ذكر توجهنا الى الغز ووفتح سندابور
١٢١ ذكر اشجارها
١٢٢ ذكر اهل هذه الجزائر وبعض عوائدهم وذكر مساكنهم
١٢٤ ذكر نسائها

صحيفة

١٢٥ ذكر السبب فى اسلام هذه الجزائر
١٢٦ ذكر سلطانة هذه الجزائر
١٢٧ ذكر أرباب الخطط وسيرهم
ذكر وصولى الى هذه الجزائر وتنقل حالي بها
١٢٩ ذكر بعض احسان الوزير الى
١٣٠ ذكر تغيره وما اردته من الخروج ومقامى بعد ذلك
١٣١ ذكر العيد الذى شاهدته معهم
ذكر تزوجى وولا يتى القضاء
١٣٢ ذكر قدوم الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي الذى نفاه السلطان شهاب الدين الى السويد وما وقع بيني وبينه
١٣٣ ذكر انفصالى عنهم وسبب ذلك
١٣٤ ذكر النساء ذوات الثدي الواحد
١٣٦ ذكر سلطان سيلان
١٣٧ ذكر سلطان مدينة كنكار
ذكر الياقوت
١٣٨ ذكر القرود
ذكر العلق الطيار
١٣٩ ذكر جبل سرنديب
ذكر القدم
١٤١ ذكر سلطان بلاد المعبر
١٤٢ ذكر وصولى الى السلطان غياث الدين
١٤٢ ذكر ترتيب رحيله وشنيع فعله في قتل النساء والولدان

Digitized by Birzeit University Library

صحيفة

١٤٣ ذكر هزيمة للكفار وهي من أعظم فتوحات الاسلام
١٤٥ ذكر وفاة السلطان وولاية ابن أخيه الخ
١٤٦ ذكر سلب الكفار لنا
١٤٨ ذكر سلطان بنجالة
١٤٩ ذكر الشيخ جلال الدين
١٥١ ذكر سلطان البرهنكار
١٥٢ ذكر سلطان الجاوة
١٥٢ ذكر دخولنا الى داره واحسانه الينا
١٥٤ ذكر انصرافه الى داره وترتيب السلام عليه
ذكر خلاف ابن أخيه وسبب ذلك
١٥٥ ذكر اللبان والكافور والعود والقرنفل
١٥٦ ذكر سلطان مل جاوة
ذكر عجيبة رأيتها بمجلسه
١٥٧ ذكر هذه المملكة
١٥٩ ذكر الفخار الصيني والدجاج
ذكر بعض من أحوال أهل الصين
١٦٠ ذكر دراهم الكاغد الذى بها يتعاملون
ذكر التراب الذي يوقدونه مكان الفحم
ذكر ماخصوا به من احكام الصناعات
١٦١ ذكر عادتهم فى تقييد ما في المراكب
ذكر عادتهم فى منع التجار عن الفساد
١٦٢ ذكر حفظهم للمسافرين فى الطرق
١٦٧ ذكر الامير الكبير قرطي
١٦٩ ذكر سلطان الصين والخطا الملقب بالقان
ذكر قصره

صحيفة

١٧٠ ذكر خروج القان لقتال ابن عمه وقتله
١٧١ ذكر رجوعي الى الصين ثم الى الهند
ذكر الرخ
١٧٢ ذكر اعراس ولد الملك الظاهر
١٧٣ ذكر سلطان ظفار
١٧٤ ذكر سلطان بغداد
١٧٦ ذكر سلطان القاهرة
١٧٧ ذكر سلطان مدينة تونس
١٨٠ ذكر بعض فضائل مولانا ايده الله
١٨٤ ذكر التكشيف
١٨٥ ذكر مسوفة الساكنين بالوالاتن
١٩٤ ذكر سلطان مالى
١٩٥ ذكر ضيافتهم التافهة وتعظيمهم لها
ذكر كلامى للسلطان بعد ذلك واحسانه الى
١٩٦ ذكر جلوسه بالمشور
ذكر تذلل السودان لملكهم وتقريبهم له وغير ذلك من أحوالهم
١٩٧ ذكر فعله فى صلاة العيد وابامه
١٩٨ ذكر الاضحوكة في انشاد الشعراء للسلطان
٢٠٠ ذكر ما استحسنته من أفعال السودان
٢٠١ ذكر سفرى عن مالى
ذكر الخيل التى تكون بالنيل
٢٠٥ ذكر معدن النحاس
ذكر سلطان تكدا
ذكر وصول الامر الكريم الى

﴿ تمت فهرست الجزء الثانى ﴾

Digitized by Birzeit University Library
مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library